الطبعة الثالثة
مدققة و منقحة

المدارس النحوية

تأليف

الدكتورة خديجة الحديثي

مكتبة اللغة العربية
بغداد - شارع المتنبي - مجمع الزوراء

المدارس النحوية

تأليف

الدكتورة خديجة الحديثي

الطبعة الثالثة (مدققة ومنقحة)

١٤٢٢هـ-٢٠٠١م

دار الأمل - اربد

الأردن

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(٢٠٠١/١٢/٢٤٩٩)

٤١٥

حدي الحديثي، خديجة

المدارس النحوية/ خديجة الحديثي. - اربد.: دار الأمل، ٢٠٠١

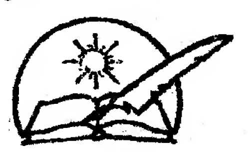
(٠٠٠)ص

ر.أ: ٢٤٩٩/ ١٢/ ٢٠٠١)

الواصفات: . اللغة العربية// قواعد اللغة/

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

دار الأمل للنشر والتوزيع



اربد- ص. ب: ٤٦٩

تلفاكس: ٧٢٧٦١٧٤ ٠٠٩٦٢٢

الأردن

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

لا تزال الدراساتُ اللغويةُ والنحويةُ في الوطنِ العربيّ تقفُ طويلاً عند اتجاهاتِ النحو العربي أو مدارسه، ولا يزال النقاشُ مُحْتَدِماً بين الباحثين، فمنهم مَنْ يُثبت المدارسَ، ومنهم مَنْ ينفيها.

وشاء اللّهُ واقتضى عملي في الجامعة أَنْ أخوضَ في هذا الحقل لأُقدمَ للدارسين ما كان عليه الدرسُ النحويُّ عند العرب ليكونَ منطلقاً للمعاصرين وهم يقدّمونه بأُسلوبٍ ليس فيه تعقيدٌ أو خلافاتٌ احتدمت يومَ كانت مجالسُ العلم تُعقد في البصرةِ والكوفةِ وبغدادَ وغيرِها من الحواضرِ العربية والإسلامية.

وهذا الكتابُ الذي أُقدِّمُ طبعتَه الثالثةَ تَعبيرٌ عن الموقفين، وقد انتهيت فيه إلى أنّ هناك اتجاهات أو مذاهبَ نحويةً تمثلت في الآراء التي كان العلماءُ يُبدونها، وإنْ كان لكل اتجاهٍ خصائصُ عامةٌ على الرغم من الآراءِ الخاصةِ التي تَدُلُّ على ما للعربيةِ من استيعابٍ وتفنّنٍ في الأساليب، وما للنحاةِ من قُدْرة على الدرس العميق.

طُبع الكتابُ مرتين: الأولى سنة ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦م، والثانية سنة ١٤١٠ هـ- ١٩٩٠م، ولم يستجد ما يُغَيّرُ منهجَه وما فيه من آراء، ولم أعمد إلاّ إلى تنقيحٍ يسير هنا أو هناك.

وبعد: فهذه الطبعةُ الثالثةُ من كتاب «المدارس النحوية» أُقدمها للدارسين في الوطنِ العربي بعد أَنْ قدمتها للجامعات، وكُلّي أمل أَنْ يلقى الكتابُ رضى من لَدُن الباحثين، وأَنْ يكونَ مثارَ بحوث تُعرض فيها الآراء.

ولا يسعني في الختام إلاّ أَنْ أَشكر أَبا الليث محمود توفيق الحمد الذي أخرج هذه الطبعةَ بثوب قشيب. وفّقه اللّهُ لخدمةِ لغةِ القرآن الكريم وتراثِ العرب الأصيل.

السبت: ٨ جمادى الأولى ١٤٢٢م- ٢٨ تموز ٢٠٠١م

الدكتورة خديجة الحديثي

كلية الآداب- جامعة بغداد

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديـــــم

الحـديث عن المدارس النحـوية يطول، لانه بحث في تاريخ النحـو العـربي الذي يمتـد من منتصف القرن الأول للهجرة الى القرن الرابع عشر، ويشمل بيئات مختلفة كالبصرة والكوفة وبغداد ومصر والشام والأندلس وغيرها من الامصار العربية والإسلامية. وكان للقدماء في ذلك التاريخ فضل لا ينكر فقد تحدثوا عن النحاة وقسّموهم الى طبقات أو ترجموا لهم ترجمة تعتمد على ترتيب اسمائهم في حروف الهجاء، الا انهم لم يفردوا للاتجاهات أو المذاهب أو المدارس بحوثاً ترصد نشأتها وتوضح خصائصها وان جاء كلامهم عليها في اثناء حديثهم عن النحاة أو موضوعات النحو في موسوعاتها المعروفة. وعرف العصر الحديث لونا جديداً من البحث في تاريخ النحو العربي وصلته بغيره وتبيان خصائصه وسمات اتجاهاته، وكان المستشرقون أول من نبّه الى ذلك وتبعهم العرب فكتبوا في نشأة النحو وتاريخه، وصنفوا في مدارسه وأفردوا بعضها بدراسات فكانت «نشأة النحو العربي وتأريخ اشهر النحاة» و «تأريخ النحو العربي حتى أواخر القرن الثاني الهجري» و «مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو» و «الدرس النحوي في بغداد» و «مدرسة البصرة النحوية» و «المدارس النحوية» و «مدرسة مصر والشام النحوية» وغيرها من الدراسات العلمية الاخرى.

وكان منهج السنوات المتقدمة لطلاب اللغة العربية بكليات الاداب قد افرد ساعات دراسية للمدارس النحوية، فكان هذا الكتاب الذي أعدت كتابته ثلاث مرات لينسجم مع المنهج المقرر وساعات درسه، وهو كتاب أرجو أن يسد حاجة طالما ألحت على الطلبة وهم حائرون بين الكتب المختلفة والاتجاهات المتناقضة. وقد حاولت في هذا الكتاب أن التزم بواقع النحو العربي وأن آخذ الحقائق التي تنير السبيل للطلبة، واعرض المادة عرضاً واضحاً فيه من الدقة والايجاز الشيء الكثير.

بدأت الكتاب بمقدمة عرضت فيها لحقيقة المدارس النحوية أو المذاهب النحوية، وانتهيت الى أن تلك حقيقة لا تنكر وإن اختلفت الاسماء، فالدرس النحوي لم يكن قوالب جامدة أو اتجاها واحدا في بيئاته جميعا وانما اختلف باختلاف البيئات، وكان لكل بيئة طابعها، ولكن ذلك لا يقود الى الاختلاف الكبير ببيئاته أو مدارسه ذلك الاختلاف الذي يولد أنواعا مختلفة من النحو، وهو مالم يقع لان اللغة العربية ظلت محتفظة بأسلوبها الرفيع وبكتابها العظيم وتراثها الخالد.

وجاءت الفصول الأربعة تتحدث عن النحو في بيئات البصرة والكوفة وبغداد ومصر والاندلس والحجاز واليمن والشام والمغرب وهي بيئات عربية شهدت مولد النحو وتطوره، واخرجت رجاله الذين انتشر بعضهم في الامصار العربية والاسلامية الاخرى فكان لهذه البيئات فضل كبير على النحو والادب وعلوم العربية الاخرى منذ القرن الأول للهجرة.

لقد كانت وحدة البحث تفرض أن تكون الفصول الأربعة ذات منهج واحد وهدف متسق، وان لا يكون بينها اختلاف كبير، ولذلك كان كل فصل يبدأ بالكلام على البيئة ونشأة النحو فيها وتطوره، وأهم خصائصه وأشهر رجاله، ثم الوقوف على أشهر الدارسين، فالبصرة مثلاً يقف في قمة رجالها الخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه والمبرد، والكوفة يقف على رأس نحاتها الكسائي والفراء وثعلب، وبغداد يقف علي ذروة رجالها أبو بكر بن الانباري وابن كيسان. أما مصر ففيها من النحاة خلق عظيم وكان الوقوف على أبي جعفر النحاس والسيوطي لانهما يمثلان خلاصة الدرس النحوي فيها. وفي الشام استقر نحاة وردوا اليها وعرفت بهم وكان أبو علي الفارسي وابن جني وابن خالويه يمثلون النشاط النحوي في أوجه. وفي الاندلس كان ابن مضاء القرطبي الذي ثار على النحو المشرقي وأبو حيان الذي اتخذ من المذهب الظاهري منهجاً له في دراسة النحو واللغة. وكان ابن الوزان يمثل البيئة المغربية والدرس النحوي واتجاهه فيها.

وقد كان الاعتماد في هذه الفصول على آثار النحاة أنفسهم وعلى كتب الطبقات والتأريخ، وكان للكتب الحديثة دور في بناء الكتاب ولا سيما ما عرض منها للبحث في الاتجاهات والمناهج النحوية ودراسة الاعلام.

وبعد. فهذا كتاب «المدارس النحوية» اقدمه لزملائي الاساتذة وأبنائي الطلبة لعلهم يجدون فيه ما ينفعهم ويعوضهم عن كثير من الدراسات المطولة والبحوث المتشعبة، والله ولي التوفيق.

السبت: الأول من شوال، الأول من آب ١٩٨١م

الدكتورة خديجة الحديثي
استاذة الصرف والنحو
بكلية الآداب – جامعة بغداد

المدارس النحوية

يواجه الباحث في النحو العربي عبارات مثل «المدارس النحوية» أو «المذاهب النحوية» أو «مدرسة البصرة» و «مدرسة الكوفة» أو «مدرسة بغداد» أو «مدرسة مصر النحوية» أو «مدرسة الاندلس النحوية» أو «المذهب البصري» أو «المذهب الكوفي» وما الى ذلك من تسميات.

ولابد لنا قبل البحث في «نشأة النحو العربي» والكلام على بيئاته ورجاله وكتبهم وآرائهم من أن نتعرض لكلمتي «مدرسة» و «مذهب» لنرى دلالتهما والمقصود بهما عند القدماء والمحدثين، ثم نوضح سبب هذه التسميات المتعددة التي يكثر دورانها في الكتب النحوية، وما يصح لنا أن نستعمله منها وما لا يصح.

ولكي نتعرف على أصل كلمتي «مدرسة» أو «مذهب» ومبدأ وجودهما ننظر في كتب الاوائل الذين ترجموا للنحاة وأرّخوا للنحو العربي وبيئاته لملاحظة تلك التقسيمات أو التحديدات عندهم، ثم نعرج على المعاصرين لنرى موقفهم.

القدماء:

أول من يلقانا من القدماء محمد بن سلام الجمحي (١٣٩-٢٣١هـ) الذي قال: «وكان لاهل البصرة في العربية قدمة وبالنحو ولغات العرب والغريب عناية»[١] وترجم لابي الاسود الدؤلي، وعدّه مؤسس علم العربية وليحيى ابن يعمر ولعبد الله بن أبي اسحاق الحضرمي ولابي عمرو بن العلاء وانتهى بالخليل بن أحمد الفراهيدي[٢]، ولم ينسبهم الى مدرسة وانما عدهم من أهل البصرة فقط.

وأعقبه أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (٢١٣-٢٧٦هـ) الذي عقد في كتابه «المعارف» بحثا لرواة الشعر واصحاب الغريب والنحو، وترجم بايجاز لمعظم من اشتهر بهذه العلوم من البصريين والكوفيين، وهم: أبو عمرو بن العلاء، وعيسى بن عمر، ويونس بْن حبيب، وحماد الراوية، وأبو البلاد الكوفي، وعباد ابن كسيب، والخليل بن أحمد، والنضر بن شميل، ومؤرج السدوسي، وابن كناسة الكوفي، وابو عبيدة معمر بن المثنى، والاصمعي وخلف الاحمر، واليزيدي عبدالرحمن بن المبارك، وسيبويه، وأبو زيد الانصاري، والمفضل الضبي، والكسائي، والفراء، وأبو عمرو اسحاق بن مرار، والاخفش الاوسط النحوي سعيد بن مسعدة، وابن الاعرابي محمد بن زياد،

---

(١) طبقات فحول الشعراء ١/١٢.

(٢) طبقات فحول الشعراء ١/١٢-٢٢.

وأبو مهدية الاعرابي[1].

ويلاحظ من ترجمته لهؤلاء انه لم يفرق بين المشهورين من البصريين والكوفيين ولم يذكرهم مقسمين الى نحاة ولغويين، أو إلى كوفيين وبصريين معتمداً على شهرتهم، ولم يسمهم بمذهب أو مدرسة، ولم ينسب منهم الى البصرة أحدا لكونهم معروفين في زمانه، ولاسمى المعروفين من نحاة الكوفة ولغوييها بالكوفيين، وان حدد بعض الاشخاص غير المعروفين بأنهم كوفيون فقال: «أبو البلاد الكوفي»، على أنه اروى أهل الكوفة» و «كناسة الكوفي، ... توفي بالكوفة» واكتفى بهذا، وبقوله معرفا بعضهم: «وكان الغريب أغلب عليه» أو: «كان النحو أغلب عليه» أو «كان صاحب تقعير في كلامه واستعمال الغريب فيه وفي قراءته» أو «النحوي» وغير ذلك[2] أما في كتاب: «الشعر والشعراء» فلم يترجم الا لمن كان منهم شاعراً مجيداً كأبي الاسود الدؤلي وخلف الاحمر[3]، وذكر غيرهما من النحويين في تعليقاته على أبيات الشعراء.

وجاء بعدهما أبو الطيب عبدالواحد بن علي اللغوي الحلبي (-٣٥١هـ) والف كتاب «مراتب النحويين» الذي بيّن طريقته في ترجمة الرجال. فقال: فهذه جملة يعرف بها مراتب علمائنا وتقدمهم في الأزمان والأسنان ومنازلهم من العلم والرواية»[4].

رتّب أبو الطيب اللغوي كتابه حسب الزمن، فبدأ بالبصريين، لان النحو في البصرة كان أقدم نشوءاً منه في الكوفة، وترجم لعدد من النحويين البصريين وأولهم أبو الاسود ولم يشر الى انهم بصريون. وكانت أول اشارة إلى الكوفة عند ترجمته لابي جعفر الرؤاسي، قال: «وممّن أخذ عن أبي عمرو أبو جعفر الرؤاسي عالم الكوفة، وليس نظير هؤلاء الذين ذكرنا ولا قريب منهم... أخبرنا أبو حاتم قال: كان بالكوفة نحوي يقال له أبو جعفر الرؤاسي وهو مطروح العلم ليس بشيء[5]. وذكرهم مرة أخرى عند كلامه على ابن محيصن، فقال: «وكذلك ابن محيصن كان يحسن شيئًا يسيرا من جليل النحو فسقط، وكان من أهل مكة، واسمه محمد، وأهل الكوفة يعظمون من شأنه ويزعمون أن كثيراً من علمهم وقراءاتهم مأخوذ عنه»[6]. وكان أول ذكر للبصرة في ترجمة يحيى بن يعمر، وهو

---

(١) المعارف ٥٤٠-٥٤٦.

(٢) تنظر هذه على التوالي في المعارف ٥٤٣، ٥٤٤، ٥٤٥-٥٤٦ و ٥٤٠ و ٥٤٥ - ٥٤٦.

(٣) ينظر الشعر والشعراء ٧٢٩/٢-٧٣٠ و ٧٨٩-٧٩٠.

(٤) مراتب النحويين ١٠٢.

(٥) مراتب النحويين، ٢٤.

(٦) مراتب النحويين، ٢٥.

قوله: «ولا يذكر أهل البصرة يحيى بن يعمر في النحويين، وكان أعلم الناس وأفصحهم»[1].

ويبدو من هذه الاشارات أن المقصودين بها ليسوا النحاة، وانما أهل البلد: البصرة أو الكوفة. وأول ذكر لعلماء الكوفة وتسميته إياهم بالكوفيين ورد في قوله بعد ترجمة الرؤاسي وعاصم وابن محيصن من الكوفيين: «والذين ذكرنا من الكوفيين فهم أئمتهم في وقتهم، وقد بينا منزلتهم عند أهل البصرة، فأما من ذكرنا من علماء البصرة فرؤساء علماء معظمون غير مدافعين في المصرين جميعا، ولم يكن بالكوفة ولا في مصر من الأمصار مثل أصغرهم في العلم بالعربية، ولو كان لافتخروا به وباهوا بمكانه أهل البلدان»[2]. وتحدث عن حمزة بن حبيب الزيات وقال: «فان أهل الكوفة يتخذونه اماما معظمًا مقدمًا وليس يحكى عنه شيء من العربية ولا النحو، انما هو صاحب قراءه. واما عند البصريين فلا قدر له... قال ابو حاتم: وانما أهل الكوفة يكابرون فيه ويباهتون، فقد صيَّره الجهال من الناس شيئًا عظيمًا بالمكابرة والبهت... وكيف يكون رئيسًا وهو لايعرف الساكن من المتحرك، ولا مواضع الوقف والاستئناف... وانما يحسن مثل هذا أهل البصرة لانهم علماء العربية قراء رؤساء»[3] ثم عاد الى الكلام على الخليل ومعاصريه وتلاميذه من اللغويين والنحويين من البصريين ولم يتعرض لتسميتهم «بصريين» أو «كوفيين». وقال في أبي الحسن الاخفش: «وهو معظم في النحو عند البصريين والكوفيين»[4] وقال في ترجمة المفضل الضبي: «وكان للكوفيين بإزاء من ذكرنا من علماء البصرة المفضل بن محمد الضبي»[5].

ونلاحظ من هذه التسميات انه يسمي نحاة الكوفة «الكوفيين» أو «أهل الكوفة» ويسمي نحاة البصرة: «أهل البصرة» و «البصريين» و «علماء البصرة» ولم يخرج عن مثل هذه التسميات في كتابه، ولم يسم النحاة البصريين «مدرسة البصرة» ولا نسبهم الى مذهب فقال: «مذهب البصريين» ولا سمى الكوفيين «مدرسة الكوفة» ولا مذهبهم «مذهب الكوفيين». فالنسبة عند هؤلاء المؤرخين جميعًا انما كانت نسبة النحاة الى البلد: البصرة، فهم «أهل البصرة» و «علماء البصرة» و «البصريون»، أو الكوفة: فهم «أهل الكوفة» و «علماء الكوفة» و «الكوفيون».

والدليل على أنهم كانوا ينسبون النحاة الى البلد، ويذكرونهم في ترجمتهم اياهم بحسب البلدان، ولم يكونوا يعرفونهم باسم «مدرسة» أو «مذهب»، أن أبا الطيب اللغوي ختم كتابه بعد

---

(١) مراتب النحويين، ٢٥.

(٢) مراتب النحويين، ٢٦.

(٣) مراتب النحويين، ٢٦ و ٢٧.

(٤) مراتب النحويين، ٦٨.

(٥) مراتب النحويين، ٧١.

الانتهاء من ذكر البصريين والكوفيين وقوله فيهم «ولا علم للعرب الا في هاتين المدينتين»[١] -بالتعريف بمن في البلدان الاسلامية الاخرى كمكة والمدينة[٢].

وتتضح هذه النسبة عند أبي الطيب أيضاً في قوله: «قال أبو الطيب اللغوي: فلم يزل أهل المصرين على هذا حتى انتقل العلم الى بغداد قريباً، وغلب أهل الكوفة على بغداد، وحدثوا الملوك فقدموهم، ورغب الناس في الروايات الشاذة، وتفاخروا بالنوادر، وتباهوا بالترخيصات، وتركوا الاصول، واعتمدوا على الفروع فاختلط العلم»[٣].

وألّف بعده أبو سعيد الحسن بن عبدالله السيرافي (٢٨٤-٣٦٨هـ) كتاب «أخبار النحويين البصريين» اقتصر فيه على نحاة البصرة وسماهم: «البصريين» أو «من أهل البصرة» أو «من مشهوري نحويي البصرة»[٤].

وكان أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي المتوفى (٣٧٩هـ) أول من رتب كتابه ترتيباً واضحاً بحسب هذه المجموعات النحوية المعروفة، واتبع فيه النسبة الى البلدان التي وجد فيها هؤلاء النحاة وعرفوا واشتهروا، ولم يسمهم بمدارسهم أو مذاهبهم وانما صنفهم الى خمسة اصناف ضم كل صنف نحويين ولغويين، ثم قسم كل صنف من هذه الاصناف الى طبقات بحسب التقدم الزمني فكانت: «البصريين» و «الكوفيين» و «المصريين» و «القرويين» و «الاندلسيين» ولم يفرد «البغداديين» بصنف خاص بهم، وإنما ذكر من تسموا فيما بعد بهذا الاسم ملحقين بالمبرد من النحاة البصريين أو بثعلب من النحاة الكوفيين، وعلى هذا فقد رتبهم: اصحاب المبرد ثم أصحاب الزجّاج فأصحاب ابن السراج وأصحاب الاخفش علي بن سليمان فأصحاب ابن درستويه[٥]، وسمى تلاميذ ثعلب «أصحاب ثعلب»[٦].

ويلاحظ انه لم يكن يسمي البصريين: «مدرسة البصرة» ولا الكوفيين «مدرسة الكوفة» ولا نسبهم الى مذهبهم النحوي، الا انه عندما ترجم لاصحاب ثعلب استخدم لاول مرة كلمة «مذهب» فقال عن ابي موسى الحامض: «كان بارعا في اللغة والنحو على مذهب الكوفيين»[٧]. وقال عن ابن

---

(١) مراتب النحويين، ٩٨.

(٢) ينظر: مراتب النحويين ٩٨-١٠١.

(٣) مراتب النحويين، ٩٠.

(٤) اخبار النحويين البصريين ٢٥ و ٣٩ وينظر ١٨ و ٤١.

(٥) طبقات النحويين واللغويين ١٢٠-١٣٣.

(٦) طبقات النحويين واللغويين ١٦٨-١٧٢.

(٧) طبقات النحويين واللغويين، ١٧٠.

كيسان: وكان بصرياً كوفياً يحفظ القولين، ويعرف المذهبين، وكان اخذ عن ثعلب والمبرد، وكان ميله الى مذهب البصريين أكثر... وكان أبو بكر بن الانباري شديد التعصب على ابن كيسان والتنقص له، وكان يقول خلط فلم يضبط مذهب الكوفيين ولا مذهب البصريين»[1]. ومن هنا يتضح أن الزبيدي كان أول من قسم النحاة الى مجموعات بحسب البلدان التي عرفوا بها، وكان أول من استخدم عبارات: «مذهب الكوفيين» و «مذهب البصريين» و «المذهبين»، ويريد بذلك أن النحوي متابع لآراء نحاة الكوفة، أو لآراء نحاة البصرة أو لنحاة المدينتين.

وجاء بعده أبو عبيد الله المرزباني المتوفى (٣٨٤هـ) وقسم كتابه تقسيماً آخر معتمداً فيه على البلدان ايضاً الا انه قسمهم ثلاث مجموعات: الأولى ذكر فيها «اخبار العلماء والنحاة والرواة من أهل البصرة» ابتدأها بأبي الاسود الدؤلي من النحويين وختمها بالجاحظ وعمر بن شبة من الادباء[2]. وسمى المجموعة الثانية: «اسامي من تضمنهم هذا الكتاب من رواة الكوفة وعلمائها وقرائها» ابتدأها بقبيصة بن جابر الاسدي من الرواة الفصحاء وختمها بابن الأعرابي الراوية اللغوي[3]. وسمى المجموعة الثالثة: «اخبار العلماء والنحاة والرواة من أهل بغداد، ومن طرأ عليها من الامصار» أدخل فيها من كان من السبي ومن كان من مدينة الرسول (ﷺ) وغيرهما، وابتدأ هذه المجموعة بالمدنيين وختمها بابن الانباري أبي بكر وبأبي بكر الصولي[4].

ولم يتطرق الى ذكر «مدرسة» أو تسمية «مذهب» وانما استعمل عبارات: «نحو الكوفيين» و «علماء البصرة» و «أهل بغداد» ولم يسمهم «مدرسة الكوفة» أو «مدرسة البصرة» أو «مدرسة بغداد»، ويمكن أن نعده أسبق من ابن النديم الى تقسيم النحويين هذا التقسيم الثلاثي «أهل البصرة» و «أهل الكوفة» و «أهل بغداد».

ولما جاء ابن النديم المتوفى (٣٨٥هـ) اتّبع التقسيم نفسه الا انه سمى نحاة بغداد «من خلط المذهبين»، وقسم كتابه الى مقالات وجعل المقالة الثانية في ثلاثة فنون:

الفن الأول: في ابتداء الكلام في النحو وأخبار النحويين واللغويين من البصريين وفصحاء الأعراب وأسماء كتبهم.

الفن الثاني: في أخبار العلماء ويحتوي هذا الفن على أخبار النحويين واللغويين الكوفيين.

الفن الثالث: في أخبار العلماوأسماء ما صنّفوه من الكتب، وقد جعله في ثلاثة أقسام:

---

(١) طبقات النحويين واللغويين ١٧٠-١٧١.

(٢) نور القبس، ٧-٢٣٦.

(٣) نور القبس، ٢٣٦-٣٠٧.

(٤) نور القبس، ٣١٠-٣٤٦.

١- أسماء جماعة من علماء النحويين واللغويين ممن خلطوا المذهبين.

٢- أسماء قوم من جماعة بلدان لا تعرف أنسابهم وأخبارهم على استقصاء.

٣- الكتب القديمة في أخبار النحويين[١].

وابن النديم يعد بذلك ثاني المؤرخين الذين استعملوا كلمة «المذهبين» في تقسيمه للفنون التي تحدث عنها مشيراً بها الى النحوين «البصري» و «الكوفي». وقد سبقه الى هذا الاستعمال الزبيدي في طبقاته في أثناء ترجمته للنحاة لافي تقسيمه للمجموعات النحوية، واستخدمه ابن النديم ايضاً في ترجمته للنحويين واللغويين فقال في ترجمة ابن قتيبة: «إنه خلط المذهبين» و «يغلو في البصريين» و «حكى في كتبه عن الكوفيين»[٢] وقال في ترجمة أبي حنيفة الدينوري إنه «أخذ عن البصريين والكوفيين»[٣] وهذا يعني خلط المذهبين.

ونقف في الكلام على مؤرخي النحاة والنحو العربي عند أبي البركات الانباري المتوفى (٥٧٧هـ)، والقفطي المتوفى (٦٤٦هـ) لان من جاء بعد ذلك اتبع احدى طريقتيهما، فقد اتبع ابن الانباري في ترتيب الاشخاص في كتابه «نزهة الالباء في طبقات الادباء» التسلسل الزمني بغض النظر عن كون المترجم له لغوياً أو نحوياً أو أديبًا بصرياً أو كوفيًا أو بغدادياً، ابتداءه بعلي بن أبي طالب وأبي الاسود الدؤلي أول منِ وضع علم النحو وختمه بأبي السعادات ابن الشجري المتوفى (٥٤٢هـ)، ولم يكن يشير في ترجمة النحاة الى أنهم من البصريين أو الكوفيين الا في النادر، الا انه اتبع أن ينص في الغالب على الكوفيين من المتأخرين فيقول «من نحاة الكوفيين» أو «أحد العلماء بنحو الكوفيين»[٤] أو نحو ذلك، ولم يذكر كلمة «مذهب» الا مع البغداديين في الغالب كقوله: «وكان يخلط المذهبين» أو «وكان قيما بمذهب البصريين والكوفيين»[٥] ويكتفي بالقول بأنه «أخذ عن أبي العباس احمد بن يحيى ثعلب وأبي العباس محمد بن يزيد المبرد»[٦]. ولم يذكر كلمة «مذهب» مع الكوفيين الا قليلا[٧].

---

(١) الفهرست، ٤٦-٦٩، ٧١-٨٣، ٨٥-٩٥.

(٢) الفهرست، ٨٥.

(٣) الفهرست، ٨٦.

(٤) نزهة الالباء، ١٦٥ و ١٦٣.

(٥) نزهة الالباء ١٦٩و ١٦٢.

(٦) نزهة الالباء، ١٦١ و ١٦٩.

(٧) نزهة الالباء، ١٧١.

أما القفطي فقد رتب الاعلام في كتابه «إنباه الرواة على أنباه النحاة» ترتيباً هجائياً، وكان ينص في خلال ترجمته لهم على أنه من «أهل البصرة» أو «بغدادي» أو «ولد بالكوفة،ونشأ ببغداد» أو «نزيل مصر» أو «من أهل قرطبة» أو «صاحب ثعلب» أو «معدود من نحاة الكوفة» أو «البغدادي النحوي» أو «دمشقي الدار» أو «البصري النحوي» أو «من مدينة أبي جعفر» أو «النحوي المصري» أو «تابعي بصري» الى غير ذلك من العبارات.

يتضح من هذا العرض لمناهج الذين أرّخوا للنحو والنحاة من القدماء أنهم لم يستعملوا كلمة «مدرسة» في تصنيفهم لهذه المجموعات النحوية وإنما اتبعوا في ترتيبهم نسبتهم الى البلد الذي ظهروا فيه وتعلموا نحوه ودَرَسوه أو درّسوه، فهم «بصريون» و «كوفيون» و «أهل بغداد» و «مصريون» و «اندلسيون» و «من أهل قرطبة» و «من أهل دمشق»، ولم يستخدموا كلمة «مذهب» في التقسيم الا ابن النديم في تسميته من ترجم لهم في الفن الثالث من المقالة الثانية «من خلط المذهبين»، ولم يستعمل غير هذه الكلمة في الغالب الا في ترجمة البغداديين الذين «خلطوا المذهبين» أو «مالوا الى المذهب الكوفي» أو «من مال الى مذهب البصريين أكثر» أو «كان قيما بمذهب البصريين والكوفيين».

المعاصرون:

كان المعاصرون أول من استعمل كلمة «مدرسة»، قال بروكلمان: «وقد قسم علماء العربية مذاهب النحاة الى ثلاث مدارس: البصريون والكوفيون ومن مزجوا المذهبين من علماء بغداد»[1]. ويبدو أنه عنى بـ «مدرسة» مجموعة النحاة الذين كانوا ينتسبون الى بيئة نحوية واحدة، وتبع في ذلك «جوتولد فايل» الذي سماهما: «المدرسة البصرية» و «المدرسة الكوفية»[2]. واستعمل المحدثون الكلمة نفسها، ولعل الدكتور مهدي المخزومي أول من تبنّى هذه التسمية فسمى أحد كتبه «مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو». وألف الدكتور شوقي ضيف كتابا سماه «المدارس النحوية». وألف الدكتور عبدالرحمن السيد كتابا سماه «مدرسة البصرة النحوية». وظلت كلمة «مدرسة» تعني مجموعة النحاة الذين كوّنوا درساً نحوياً في بيئة معينة سواء أضمهم منهج موحد خاص بهم له أسسه وأصوله وقواعده المعروفة المستقلة أم كان مبنياً على منهج من سبقهم الا أنهم استقرّوا في بيئة اخرى وتأثروا بظروف البيئة الجديدة بعض التأثر.

---

(١) تاريخ الادب العربي، ٢/١٢٤-١٢٥.

(٢) مقدمة كتاب الانصاف «جوتولد فايل» ط ليدن ١٩١٣، (نقلا عن تأريخ الادب العربي، ٢/١٢٧).

وشاعت تقسيمات متعددة لمجموعات من النحويين سميت كل منها «مدرسة» فهناك «المدرسة البصرية» و «المدرسة الكوفية» و «المدرسة البغداديّة» و «المدرسة المصريَّة» و «المدرسة الاندلسية» وغيرها من التسميات التي يفهم منها أن كلا منها يعني مركزًا من المراكز التي عرف فيها للدرس النحوي نشاط ورجال ومؤلفات.

بدأ المعاصرون يحددون هذا المصطلح ويبحثون إطلاقه على هذه المراكز التي ذكرناها. وكان أول من وجدناه يحدد كلمة «مدرسة» الدكتور مهدي المخزومي في «مدرسة الكوفة» عند كلامه على الكسائي، قال: «ان الكسائي بمنهجه وأساليب دراسته مدرسة لها خصائصها ومميزاتها، فليست المدرسة الا استاذًا مؤثرًا وتلاميذ متأثرين وقد اجتمعوا على تحقيق غرض واحد ونهجوا للوصول اليه منهجًا واحدًا»[1]. وتابعه الدكتور أحمد مكي الانصاري وهو يتحدث عن الفراء فقال: ان المدرسة: «اتجاه له خصائص مميزة ينادي بها فرد أوجماعة من الناس ثم يعتنقها آخرون[2]». وهذا نفسه ما دل عليه تعريف «جوتولد فايل» للمدرسة بأنها «الاشتراك في وجهة النظر الذي يؤلف الجبهة العلمية ويربط العلماء بعضهم ببعض على رأي واحد[3]». فهي بهذه الحدود -في نظرهم- تؤدي المعنى الذي تؤديه كلمة «مذهب» المعروفة في الدراسات الاسلامية وتحمل معناها المعروف في لغة العرب، فالمذهب في اللغة: «المعتقد الذي يذهب إليه والطريقة والاصل»[4] واننا عندما نقول: «مذهب مالك» أو «مذهب الشافعي» أو غيرهما فإنما نعني مجموعة الأحكام والآراء الفقهية التي قال بها كل منهما وتابعه عليها مجموعة من الناس والتزموا بها وطبّقوها.

هل هناك مدارس؟

وقد جرهم تحديدهم «المدرسة» هذا التحديد الى الاختلاف في اثبات وجود مدارس متنوعة تحمل هذه الاسماء، وذهبوا في ذلك مذاهب مختلفة، فقال بعضهم انه لاتوجد الا مدرسة نحوية واحدة هي مدرسة البصرة، وانكر وجود مدرسة باسم مدرسة الكوفة وقد سبق إلى القول بهذا «جوتولد فايل» الذي كان يتشكك في قيام مدرسة كوفية، ومن ثم لا يرى قيام مدرسة بغدادية اذ إنها ليست الا امتزاج المدرستين البصرية والكوفية معًا حيث قال في مقدمة الانصاف: «انهم لم يؤسسوا

---

(١) مدرسة الكوفة، ١٢٩.

(٢) أبو زكريا الفراء، ٣٥٢.

(٣) مقدمة الانصاف، ترجمة الدكتور عبدالحليم النجار (نقلا عن: ابو زكريا الفراء، ص ٣٥٢ و ٣٥٤).

(٤) القاموس المحيط (ذ هـ ب).

مدرسة نحوية خاصة»[1]، واستدل على هذا بأن خلافات نحاتها ولاسيما الكسائي والفراء مع الخليل وسيبويه انما هي امتداد لما سمعاه من استاذهما البصري يونس بن حبيب الذي نص القدماء على أن له قياساً في النحو خاصًا به ومذاهب ينفرد بها. اسمه في كتابه «الانصاف» يذكر فيها الكوفيين متابعين له في آرائه، وبأن الزمخشري ذكر في مفصله خمس مسائل تابع فيها الكوفيون يونس، واستدل بالخلافات التي كانت تكثر بين الكسائي وتلميذه الفراء مؤيِّداً ادلته السابقة، على عدم وجود مدرسة كوفية[2].

ولا تعد هذه ادلة لجوتولد فايل على انكار وجود مدرسة كوفية أو التشكك في وجودها لان متابعة الكوفيين ليونس لاتدل على أنهم آخذون بمذهبه، وانهم غير مستقلين بآراء خاصة بهم، ولان هذه المسائل التسع التي ذكر فيها الانباري والزمخشري متابعة الكوفيين ليونس فيها لا تعد شيئًا اذا ما قيست بالآراء التي تابع فيها الكوفيون البصريين ولا سيما الخليل وسيبويه، فالنحو الكوفي انما اعتمد في وجوده على النحو البصري، ووافقه في أصول منهجه وفي اغلب الفروع، وقال الكوفيون بمعظم ما قال به البصريون من آراء، وما خالفوهم فيه انما هو آراء جزئية ومسائل فرعية خرجوا بها عنهم لتفسيرهم إياها تفسيرات جديدة، أو لسماعهم فيها أدلة وشواهد جديدة لم يسمعها البصريون استدرك بها الكوفيون أحكامًا جديدة أو اقيسة مخالفة. واما القول بوجود خلافات بين الكسائي وتلميذه الفراء في الآراء فهذا ايضًا لايعد دليلاً لـ «فايل» على انكار وجود مدرسة كوفية، لان نحاة مدرسة البصرة التي اثبت وجودها اختلفوا فيما بينهم في كثير من المسائل، فهذا سيبويه وهو المتابع للخليل -كما هو معروف- ونحوه نحو الخليل، يخالف الخليل في مسائل يرد عليه فيها ويضعف رأيه في بعضها مؤيِّداً يونس أو غيره من شيوخه الآخرين، وهذا يونس نفسه يخالف الخليل في ما يقرب من مائتي مسألة لغوية ونحوية وصرفية وصوتية وفي مسائل فرعية أو أصلية، أثبت سيبويه الكثير منها في كتابه، وهذا الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة يستدرك على سيبويه مسائل في كتابه، وهذا الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة يستدرك على سيبويه مسائل في كتابه ويرد عليه فيها مع انه حامل كتابه وراويه وناشر علمه وآرائه بين الدارسين بعد وفاة شيخه سيبويه، واخيراً هذا المبرد الذي عد خاتمة المدرسة البصرية، مع كونه بصريًا مدافعًا عن سيبويه وكتابه ناشراً علمه في بيئة بغداد لأول مرة مبينا ميزات النحو البصري يؤلف كتابًا في الاستدراك على سيبويه والرد عليه سماه «مسائل الغلط»، ومع كل هذا لم يقل أحد بأن سيبويه

---

(١) مقدمة الانصاف جوتولد فايل «نقلاً عن (أبو زكريا الفراء ٣٥٤ وعن المدارس النحوية ١٥٥ و ١٥٦) وينظر الدرس النحوي في بغداد ١٩٢-١٩٣.

(٢) ينظر المدارس النحوية، ١٥٦-١٥٧.

والخليل ويونس والاخفش والمبرد لا يكونون مدرسة، وأن لكل منهم مدرسة قائمة بذاتها.

وعلى كل حال فلم يكن جوتولد فايل الوحيد الذي انكر وجود مدرسة نحو كوفية انما حذت حذوه دائرة المعارف الاسلامية في انكار وجود هذه المدرسة[1].

وذهب الاستاذ علي أبو المكارم المذهب نفسه فقال بفساد «تلك الفكرة التي شغلت كثيراً من الدارسين في النحو العربي قدامى ومحدثين، وهي وجود مدارس نحوية يتميز كل منها بأسلوبها الخاص ومنهجها الذاتي، ويؤكد (ذلك)... أن المنهج الذي سارت فيه الدراسة النحوية واحد في مدنه المختلفة تحكمه قواعد عامة لم يخرج عليها وان تفاوت تأثير بعضها في بعض. وأن ليس ثمة مدارس بالمعنى الذي يقطع بوجود منهج متميز لكل منها في النحو، وانما هناك تجمعات مدنية، وهذه التجمعات تتحرك في اطارات متشابهة وتطبق اصولاً واحدة، وان اختلفت فيما بينها في بعض الجزئيات فإنه اختلاف لا ينفي عنها وحدة المنهج واتفاق الاصول[2]» ويرى أن «لاتناقض في أن يكون الخليل رأس المدارس النحوية جميعًا، لان وجود تجمعات مدنية في البصرة والكوفة ثم في بغداد ومصر والاندلس لا يسلم بالضرورة الى القول بتعدد مناهج هذه التجمعات وتباينها»[3].

واثبت فريق ثالث من النحويين وجود مدرستين بصرية وكوفية، وتردد في القول بوجود مدرسة بغدادية، ويمثل هذا الفريق الدكتور مهدي المخزومي الذي ذهب الى انكار وجود مدرسة بغدادية ورأى أن هناك مدرستين بصرية وكوفية قال: «تردد اسم البغداديين كثيراً في اثناء القرن الرابع بإزاء الكوفيين والبصريين حتى ليخيل للدارس أن البغداديين كانوا يمثلون جماعة ثالثة لهم طريقتهم الخاصة ومذهبهم المتميز، وجاء المتأخرون من النحاة فرأوا اسم البغداديين يذكر الى جانب الكوفيين والبصريين فذهب بهم الوهم بعيداً وراحوا يركبون الصعب في تصوير مذهب ثالث يقف بأزاء مذهب أهل البصرة ومذهب أهل الكوفة وهو مذهب البغداديين»[4].

وحاول ان يثبت أن ليس هناك الا مدرستان نحويتان هما: مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة التي سماها –مدرسة بغداد الكوفية– اما المدرسة البغدادية، أو مدرسة من خلط المذهبين، فلا وجود لها مستدلا بدليلين:

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة العربية) ١–٢٠٠ – ٢٠٢ مادة: (ثعلب) لـ (باريه R. Raret)

(٢) تقويم الفكر النحوي، ٢٤٣–٢٤٤.

(٣) تاريخ النحو العربي، ١٢١.

(٤) الدرس النحوي في بغداد ٥ ، وينظر ما بعدها.

الأول: ان ابن النديم لم يكن ليعني بـ «من خلط المذهبين» أن يكون له مذهب ثالث ليس بالبصري ولا بالكوفي، ولو كان ذلك مما دار في خلد ابن النديم لكان أبو اسحاق الزجاج عنده في مقدمة الفريق الذي كان يخلط المذهبين، ولكن ابن النديم لم يعده فيهم بل عده في العلماء البصريين وفي اصحاب ابي العباس المبرد، بل اقدم أصحاب ابي العباس المبرد، بل اقدم اصحاب المبرد قراءة عليه.

الثاني: ان الاساس الذي بنى عليه المحدثون فكرة المذهب البغدادي هو التلمذة لثعلب والمبرد والتعمق في مصنفاتهما ومصنفات شيوخهما من البصريين والكوفيين، وليس بين تلاميذ الرجلين من أفاد منهما وتعمق في مصنفاتهما، ووقف على علم الكوفيين وعلم البصريين كأبي اسحاق الزجاج، ومع ذلك لم يكن الزجاج معدودا في اعلام البغداديين، وذلك يدل في وضوح على أن الأساس الذي بنى المحدثون فكرتهم عليه متهافت لم يلبث أن ينهار[1].

ورأى أن القول بوجود مدرسة بغدادية افتعال لمذهب ثالث لا وجود له، وقد رد على من قال بهذا القول كهدى محمود قراعة التي قالت بوجود مدرسة بغدادية وعدت الزجاج مؤسساً لها[2]، ورد به على الدكتور احمد مكي الانصاري الذي اثبت وجود مدرسة بغدادية وعد الفراء مؤسس هذه المدرسة[3]، وعلى الدكتور شوقي ضيف الذي اثبت للمدرسة البغدادية وجوداً مستقلاً[4].

وكانت خلاصة رأيه في تلاميذ المبرد وثعلب ومن سار على طريقتهم في الاخذ بآراء المدرستين والجمع بين المذهبين أنهم لا يكوّنون مذهبا ثالثا ولا مدرسة ثالثة وان ما يظهر من بعض مزايا المدرستين في نحو هؤلاء لا يكوّن مذهباً ثالثاً وذلك «لان الدرس الكوفي قد ترك من خصائصه المذهبية في الدرس البصري آثاراً عميقة لم يستطع المتعصبون للبصرية أن يمحوها، كما لم يسلم الدرس الكوفي من التأثر بالدرس البصري، لذلك تجد كثيراً من اعلام الدرس الكوفي يرددون بعض المصطلحات البصرية ويصطنعون أوضاعًا ليست من أوضاعهم ويرددون عبارات ليست من عباراتهم ولم يكن ذلك ليعني بحال أنهم كانوا يخلطون المذهبين ويختارون مزاياهما ويوحدونهما في مذهب منتخب مادام الطابع العام لاسلوب هذا الدارس بصرياً، والطابع العام لاسلوب ذلك الدارس

---

(١) الدرس النحوي في بغداد، ١٢٥-١٢٦.

(٢) الدرس النحوي في بغداد، ١٢٦، وينظر ما ينصرف ومالا ينصرف للزجاج، ١٤.

(٣) الدرس النحوي في بغداد، ١٢٦، وينظر ابو زكريا الفراء ٣٥٨ و ٣٥٥ و ٣٥٦ و ٣٦٣ و ٣٥٨-٣٦٠.

(٤) الدرس النحوي في بغداد، ١٢٦، وينظر المدارس النحوية، ١٤٥.

كوفياً»[1].

وكان الدكتور المخزومي قد وقف موقفًا آخر من المدارس في كتابه «مدرسة الكوفة» وقال بوجود مدرستين «بصرية عمادها وقوامها كتاب سيبويه وهو محور نشاطها ومادة علم رجالها... وكوفية لم تكن عناية رجالها بالكتاب بأقل من عناية البصريين، الا انهم كانوا يقفون منه في اغلب الاحيان موقف الناقد، وقد عدوه مادة درسهم الأولى، وان لم يكونوا يصرحون بذلك انما يخفونه بدافع العصبية، وشيوخهم قد اخذوا من البصريين والكوفيين، ومادة الدرس عند هؤلاء وهؤلاء انما هو النحو البصري متمثِّلاً في كتاب سيبويه وكل ما في الامر انهم خلطوا اقوال هؤلاء وهؤلاء وانتخبوا من هؤلاء وهؤلاء»[2]. ورأى أن ليس المذهب البغدادي «الا مذهبًا انتخابيًا فيه الخصائص المنهجية للمدرستين جميعًا على نحو ما فعل ابن مالك في محاولته الجمع بين المذهبين وانتهاجه منهجًا وسطًا بينهما»[3]. ولم يكتف بهذا وانما شرح نشوءها وصرح بتسميتها «مدرسة بغداد النحوية» في قوله: «ونحن نعلم أن الكوفيين والبصريين قد اجتمعوا في بغداد واجتمع حولهم الطلاب وكان بين الشيوخ والطلاب من كلتا المدرستين اتصالات ومباحثات ومناظرات ووجد أخيراً كثيراً من الطلاب قد جلسوا الى شيوخ المدرستين وأخذوا عنهم جميعًا فكانت هذه الظاهرة نقطة تحول أو بادرة تومي الى نشأة اتجاه جديد فيه مزايا الاتجاهين اللذين عاشا جنبًا الى جنب فترة طويلة من الزمن وهما يسيران في اتجاهين متباعدين، ونشأ من هذا الاتجاه الجديد «مدرسة بغداد النحوية». فاذا سأل الدارس: متى نشأت هذه المدرسة الجديدة؟ فقد يطول سؤاله ثم لا ينتهي الى اجابة دقيقة»[4] ثم قال مجيبًا عن هذا التساؤل: «فَلَنا إذن ان نعتبر هذا الدور الذي تلاقت فيه المدرستان والذي تمخض عن اتجاه جديد فيه مزايا الاتجاهين القديمين جميعًا، لنا أن نعتبر هذا الدور صفحة جديدة تؤذن بانتهاء حركة ونشوء حركة اخرى»[5]. وفي موضع آخر أصر على أنها ثلاث مدارس فقال: «وأما اصحاب ثعلب الذين ذيلنا اسمه باسمائهم فليسوا جميعًا كوفيين بل اكثرهم ينتمون الى مدرسة جديدة هي «مدرسة بغداد» وهي المدرسة الانتخابية التي قامت على خلط المنهجين من المدرستين البصرية والكوفية، لانهم اخذوا عن بصريين وكوفيين، وتأثروا بهؤلاء

---

(١) الدرس النحوي في بغداد، ١٥٢.

(٢) مدرسة الكوفة ٨٩-٩٠، وتنظر ٨٥ و ٩١ و ٩٢.

(٣) مدرسة الكوفة، ٩١.

(٤) مدرسة الكوفة، ١٠٣، وتنظر ١٠١.

(٥) مدرسة الكوفة، ١٠٣ وتنظر ١٠٥ و ١٠٩.

وهؤلاء»[1].

وتوحي عبارة «بروكلمان» بما يشبه الانكار لوجود ثلاث مدارس لكنه يحتفظ بهذا التقسيم، قال: «وقد قسم علماء العربية مذاهب النحاة الى ثلاث مدارس: البصريون والكوفيون ومن مزجوا المذهبين من علماء بغداد، وسنحتفظ نحن أيضًا بهذا التقسيم على الرغم مما يبدو فيه من أن الخلاف المزعوم بين مناهج تلك المذاهب لم ينشأ الا على أساس المنافسة بين المبرد وثعلب، وان كان المظنون أنّ عناية الكوفيين قد اتجهت منذ نشأتهم الى جمع اللغات والنصوص أكثر من ملاحظة الظواهر النحوية»[2]. ثم رأى انه منذ القرن الثالث الهجري اخذت المدرستان المتنافستان في البصرة والكوفة تتقاربان وتندمجان احداهما في الاخرى باطراد، وسرعان ماغدت بغداد حاضرة الخلافة اللامعة ومركزاً للحياة العقلية كافة، وفيها أخذت تزول الخلافات بين المدرستين، وحل محلها التقارب والاندماج بينهما بانتخاب مزايا كلتا المدرستين وتوحيد هذه المزايا في مذهب جديد مختار متدرج نحو النمو والاكتمال[3].

وممن صرح من المحدثين بنفي وجود مدرسة ثالثة: الدكتور عبدالفتاح اسماعيل شلبي، الذي قال: انه لم تكن هناك -فيما يرى- «مدرسة بغدادية قائمة بنفسها لها تعاليمها، غاية ما في الامر أن رجالاً خلطوا بين المدرستين البصرية والكوفية، فرأوا رأيًا من هذه ورأيا من الاخرى وان كانوا في مذهبهم الاصيل يميلون الى هذه ويميلون الى تلك فيكونون بصريين أو كوفيين حسب»[4].

وذهب كثيرون إلى وجود ثلاث مدارس، وكان من أوائل الذين قالوا بهذا الاستاذ أحمد امين الذي رأى أن المدارس ثلاث: مدرسة البصرة التي توج النحو فيها بسيبويه وكتابه، ومدرسة الكوفة التي نشأت وعلى رأسها ابوجعفر الرؤاسي وتلميذاه الكسائي والفراء، وكان البصريون أكثر اعتداداً بأنفسهم وأكثر شعوراً بثقة ما يروون واشد ارتياباً فيما يرويه الكوفيون، لذلك كان الكوفي يأخذ عن البصري ولكن البصري يتحرج عن أن يأخذ عن الكوفي، وظل الحال كذلك حتى تأسست مدينة بغداد والتقى فيها المذهبان البصري والكوفي وعرض نحوهما ومنهجه واصوله امام الدارسين الذين قاموا بنقدهما والانتخاب منهما، ووجد بذلك مذهب منتخب[5].

---

(١) مدرسة الكوفة، ١٠٩.

(٢) تاريخ الادب العربي، ٢/١٢٤-١٢٥.

(٣) ينظر تاريخ الادب العربي، ٢/٢٢١.

(٤) أبو علي الفارسي ٤٤٧، وينظر ٤٤٥-٤٤٧.

(٥) ينظر ضحى الاسلام، ٢/٢٩٤-٢٩٨.

ومنهم الشيخ محمد الطنطاوي الذي ذهب الى وجود فريق بصري وفريق كوفي وفريق خالط بينهما أو مازج بينهما، ورأى ان هذا الفريق الخالط كان بعضهم ينحاز الى أحد الطرفين ويفضله على أن يخلط بين المذهبين، كان هذا في حياة شيوخهم -المبرد وثعلب- فلما قضى هؤلاء المجتهدون نحبهم في أواخر القرن الثالث انكسرت حدة النعرة الحزبية وعرضت آراء العلماء من المذهبين على بساط البحث والنقد، واستعرضوا القواعد والاسس التي بني عليها نحو كل مذهب، والاصول التي اتبعوها في الرواية وفي اختيار الشواهد، وفي المسموع الذي يقاس عليه. وكان هؤلاء المستعرضون من الفئتين منهم من تلقى عن البصري، ومنهم من تلقى عن الكوفي، ومنهم من تلقى عن الفريقين، وظل فيهم المحافظ على ترسم خطى سلفه الذي تغلب عليه النزعة الطائفية، ومنهم المنصف المتحلل من قيود الحزبية الذي ينظر الى العلم نظرة خالصة لا تشوبها عاطفة فآثر ما رجح عنده وتمذهب به، ولهذا «فلم يكن غريبا على من لقنه عن بصري ان يجنح بعد الى ايثار المذهب الكوفي أو المكون منهما، والعكس بالعكس، كما لم يكن بدعا على من تتلمذ لهما أن يؤازر أحدهما، نجم عن ذلك كله انهم اختلفوا على طرائق.. فكان منهم من غلبت عليه النزعة البصرية، ومنهم من غلبت عليه النزعة الكوفية، ومنهم من جمع بين النزعتين»[1]. والذي يتضح من ذلك ان الشيخ لم يسمهم «مدارس» وانما عدهم فرقا أو مذاهب أو نزعات.

وذهب هذا المذهب الاستاذ سعيد الافغاني فقال ان الكوفيين نشروا مذهبهم في حاضرة الخلافة العباسية بغداد، وقصدها البصريون بعدهم ونشأت عن هذين الفريقين طبقة جديدة في بغداد اتسمت بالاختيار من المذهبين وكونت ماعرف بالمذهب البغدادي[2].

وكان أكثر الباحثين المحدثين دفاعًا عن وجود مدرسة بغدادية وتصميمًا على القول بوجود ثلاث مدارس نحوية -في العراق- الدكتور احمد مكي الانصاري، فقد تحدث عن وجود مدرستين بصرية وكوفية، وأثبت وجودهما بعد أن طبق عليهما حد المدرسة، وبين منهج كل منهما في الدراسة النحوية، وخصائص هذا المنهج مما تشتركان فيه أو تختلفان، وبنى على هذا القول بوجود مدرسة ثالثة تقف بين المدرستين وتختار منهما بعض خصائصهما لتكوّن لها مذهبًا جديدًا أو مدرسة جديدة هي التي سميت «المدرسة البغدادية» التي لم تكن خصائصها الا امتزاج خصائص المدرستين البصرية والكوفية اللتين ظهر أثرهما معًا في المذهب الجديد، وبنى على ذلك أن منهج الفراء قام على المزج بين خصائص المدرستين ومنهجهما النحوي، ولهذا فهو عنده المؤسس الحقيقي للمدرسة البغدادية. ولذلك كان يرى ان القول بوجود مدارس لا يعني أن يكون بين كل مدرسة

---

(١) نشأة النحو ١٣٦، وتنظر ١٣٥-١٤٠.

(٢) ينظر في أصول النحو، ٢١٧-٢٢٠.

واخرى حدود وفواصل بالغة، بل هناك قدر مشترك بين الجميع ، وهذا الاشتراك لا يتنافى مع التميز والتشخيص، ويرى أنه اذا جاز لنا أن نضرب مثلاً بالانسان فاننا نجد قدراً مشتركًا بين الانسانية جمعاء ثم بعد هذا نجد خصائص فردية تميز كل شخص على حدة، وهي ما يسمونها بالفروق الفردية، وكذلك المدارس النحوية لها قدر مشترك بين الجميع، ثم لكل مدرسة خصائصها التي تميزها عن الاخرى[1].

وجعل بعضهم المدارس النحوية أربعا: اثنتان منها هي الأمات، واثنتان منها فرعان والقائل بهذا هو الاستاذ طه الراوي، قال: «وهكذا نجد لكل علم من اعلام العربية آراء ينفرد بها تكثر أو تقل بمقدار ما اوتيه من بسطة في العلم وبراعة في الابداع، ولكن مرجع ذلك كله الى الأُمات الاربع، وأصول تلك الامات اثنتان: البصرية والكوفية، اما مذهب البغدادية فمرجعه الكوفة، ومذهب الاندلسية يرجع الى البصرية»[2].

فالبصرية هي الاصل وقد بقي النحو ربيبا للبصريين الذين انشأوه حتى انتقل بعض أئمة البصريين الى الكوفة مثل عبدالرحمن التميمي وأبي جعفر الرؤاسي فنشروه في الكوفة وتخرج بهؤلاء الكوفية جماعة من البغدادية في بغداد حاضرة الخلافة العباسية، عرف مذهبهم بمذهب البغداديين[3]، وكثر الاخذ والرد بين هذه المذاهب الثلاثة في الفترة التي كانت الاندلس تبني فيها نحوها على نحو المشرق، وكان عماد الاندلسيين مذهب البصريين[4].

وقد أبرز الدكتور شوقي ضيف جميع هؤلاء الباحثين، وجعل المدارس النحوية خمسًا هي: المدرسة البصرية والمدرسة الكوفية والمدرسة البغدادية والمدرسة الاندلسية والمدرسة المصرية، وقد أوضح تقسيمه هذا بقوله: ولعل هذه أول مرة تبحث فيها المدارس النحوية بحثًا جامعًا وهو بحث يرسم في اجمال الجهود الخصبة لكل مدرسة وكل شخصية نابهة فيها وكان طبيعيًا أن أبدأ بالمدرسة البصرية لانها هي التي وضعت اصول نحونا وقواعده ومكنت له... وقد ذهبت الى أن الخليل هو المؤسس الحقيقي لمدرسة البصرة النحوية، ولعلم النحو العربي بمعناه الدقيق... وأخذت ابحث نشاط المدرسة الكوفية ولاحظت انه بدأ متأخِّرًا عند الكسائي... وتلميذه الفراء... ومضيت أبحث في المدرسة البغدادية وكانت قد ترامت عليها ظلال خدع كثيرة.... والنهج القويم للمدرسة

---

(١) ينظر أبو زكريا الفراء ٣٦٣ و ٣٦٣-٣٦٤، وفي الفراء مؤسس المدرسة البغدادية ٣٦٤، ٣٩٣ و ٣٩٣-٣٩٨ في خصائص المدرسة البغدادية.

(٢) نظرات في اللغة والنحو، ١١.

(٣) سيتضح مدى صحة هذا القول عند كلا منا على المدرسة البغدادية.

(٤) ينظر نظرات في اللغة والنحو، ٨ و ٩ و ١٠ و ١١.

البغدادية القائم على الانتخاب من آراء المدرستين البصرية والكوفية مع فتح الابواب للاجتهاد... وانتقلت ابحث في المدرسة الاندلسية متابعاً نشاطها النحوي، ولاحظت استظهار نحاتها منذ القرن الخامس الهجري لآراء أئمة النحو السابقين من بصريين وكوفيين وبغداديين.. وبحثت اخيراً في المدرسة المصرية ملاحظاً أنها كانت في أول نشأتها شديدة الاقتداء بالمدرسة البصرية ثم أخذت تمزج من القرن الرابع الهجري بين آراء البصريين والكوفيين وضمت سريعًا الى تلك الآراء آراء البغداديين»[1].

رأي:

يتبين مما تقدم أن الباحثين الأوائل كانوا ينسبون النحو أو النحوي الى البلد الذي عرف به واشتهر، فيقولون «من أهل البصرة» أو «من أهل الكوفة» أو «عالم البصرة» أو «عالم الكوفة» أو «من علماء البصرة» أو «البصريين» أو «الكوفيين» أو «البغداديين» أو «نحو البصرة» أو «نحو الكوفة» الى أمثال هذه التسميات، وأن أول من قسم النحاة تقسيمًا مُنَظَّمًا وصنفهم بحسب بلدانهم التي تعلموا فيها النحو وبحثوا فيه وعلموه واشتهروا بنحو ذلك البلد أو تلك المدينة أبو بكر الزبيدي الذي قسمهم بحسب المدن أو البلدان الى «البصريين» و «الكوفيين» و «المصريين» و «القرويين» و «الاندلسيين» وكان الزبيدي أول من استعمل كلمة «مذهب» للدلالة على الاتجاه النحوي الذي عرف به هذا البلد والآراء النحوية التي عرف بها نحاة البصرة، و «مذهب الكوفيين» يعني الاتجاه النحوي والآراء النحوية التي قال بها نحاة الكوفة و «القول بالمذهبين» مجموعة الآراء النحوية التي قال بها نحاة البلدين والمنهج أو الاتجاه الذي نهجوه فيها، ولم يقسم كتابه بحسب المذاهب وانما نسب اليها بعض النحاة ولا سيما من عدهم من أصحاب ثعلب والمبرد ممن سموا فيما بعد «نحاة بغداد». واتضح من تقسيم المرزباني لمجموعات النحويين في كتابه أنه أول من ذكر مجموعة من النحاة عدها من أهل بغداد، لكنه لم يشر الى مذهبهم النحوي، ولم يقل انهم ممن خلطوا المذهبين، وانما قصد الى تمييزهم عن البصريين والكوفيين، فالنحاة عنده «أهل البصرة» و «أهل الكوفة» و «أهل بغداد» ممن ولد ونشأ في هذه المدن ودرس فيها واستقر ودرَّس، أو رحل من احداها الى الاخرى واستقر فيها، أو انتقل من مدن اخرى أو بلدان اخرى واستقر في البصرة أو الكوفة أو بغداد وشارك اهلها في دراسة النحو وتدريسه. ونجد مثل هذا عند ابن النديم، الا انه سمى القسم الثالث «من خلط المذهبين» أي مذهب البصريين النحوي، ومذهب الكوفيين النحوي، ولم يسمهم «أهل بغداد» وهم فيما يبدو كل من خلط النحوين البصري والكوفي في مؤلفاته سواء

---

(١) المدارس النحوي، ٥-٧، وينظر الكلام على كل مدرسة في موضعها من الكتاب.

أكان من أهل بغداد أم من غيرها عرف بلده أم لم يعرف.

ومن هذا يبدو أن القدماء اعتمدوا في تقسيمهم النحاة والتمييز بينهم النسبة الى المدينة أو البلد، ولم يجمعوهم عند الترجمة لهم تحت «مدرسة» أو «مذهب».

أما المحدثون فقد رأينا اختلافهم في التسمية بـ «مدرسة» أتجوز أم لا تجوز؟ وما شروط ما يصح أن يسمى بـ «مدرسة» من بين هذه المجموعات؟ كما بينا اختلافهم في عدد هذه المدارس النحوية. وكل هذا الاختلاف لا نرى مبررًا له، ولا فائدة في وجوده لان الافضل أن نتبع في تقسيمنا للنحاة ما اتبعه الزبيدي من القدماء والدكتور شوقي ضيف من المحدثين، لانه من المعلوم أن أصل النحو «نحو البصرة» وتفرع عنه «نحو الكوفة» وعن هذين النحوين نشأ النحو البغدادي، الذي تميز بالاختيار منهما، ومن العراق بمدنه النحوية الثلاث انتقل هذا النحو الى اقطار العالم العربي والاسلامي الواسع، ونشأت في هذه البلدان دراسات نحوية كان المرجع في نحوها جميعًا «نحو البصرة»، وعلى هذا فإنه لا فرق ظاهرًا بين أن نسمي هذه المجموعات «مدارس» أو «مذاهب» أو «مجموعات» أو «نزعات» مادام التقسيم جاريًا على النسبة الى البلد، وسواء أسمينا النحو والنحاة في البصرة: «مدرسة البصرة النحوية» أم «مذهب البصرة النحوي» أم «نحو البصرة» أم «النحويين البصريين» فالمجموعة واحدة وانما تختلف الدلالة الجزئية حيث تكون كلمتا «نحو» أو «مذهب» دالتين على العلم وحده، وتدل كلمة «مدرسة» على مجموعة النحاة الواضعين لهذا العلم العاملين على إيجاده وتنميته وتنظيمه وتطبيق منهجه واصوله كما تشمل كل من اتبع هذه المجموعة النحوية، وهذا هو ما تدل عليه التسمية بـ «النحويين البصريين».

وعلى هذا فإن تسميتنا لهذه المجوعات النحوية أو البيئات النحوية «مدرسة البصرة» و «مدرسة الكوفة» و «مدرسة بغداد» و «مدرسة مصر» و «مدرسة الاندلس» و «مدرسة الشام» لن تغير من المفهوم الذي شاع وعرف عن نحو كل بيئة من هذه البيئات وخصائصه، ولن يغير استعمالنا لكلمة «مدرسة» من الواقع شيئًا، ولن يحتم علينا استعمالها وجود مناهج مختلفة كل الاختلاف للدراسة النحوية في كل بلد وذلك لانه مهما تعددت التسميات ومهما اختلفت المناهج فلن يظن ظان انها تكون مناهج متباعدة مستقلة لا رابط بينها ولا تشابه ولا مشاركة، ولن يكون هذا في نحو امة من الامم ولا في لغة جنس من الاجناس البشرية. فما دامت اللغة التي يستقى منها هذا الدرس على اختلاف بيئاته وازمانه ومناهجه هي اللغة العربية بكتابها العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وشعرها الفصيح، ولغة أعرابها السليمة الفصيحة النقية، وما دامت الاصول المتبعة في هذا الدرس قائمة على الاستنباط للظواهر النحوية والصرفية الواردة في هذه اللغة وحصرها واحصائها وتقسيمها الى ما اطرد وكثر، وما قل وندر، وما هو فصيح أو افصح أو أقل فصاحة،

فلن يختلف النحو، ولن تختلف الظواهر، وان اختلفت المدارس، أو اختلف أتباع هذه المدارس أنفسها فيما بينهم في عد هذا مقيساً، وهذا مسموعاً، وعد هذا جائزا في الشعر، وذلك جائزا في الشعر والنثر، فإن اختلافهم هذا لن يكوِّن نحواً متعدِّداً مختلفاً متباعداً وانما هو نحو عربي نابع من اللغة العربية الأصيلة نفسها، وان اختلفت الوسائل في الوصول اليه، وتنوعت اجتهاداتهم في تفسير ظواهره، واختلفت اتجاهاتهم في تفسيره وفهمه واختلف تبعا لهذا تقديرهم للمحذوف ما بين كونه رافعًا أو ناصبًا مادام المعنى أولاً وأخيراً مَبنِيًا على هذه اللغة وعلى ظواهرها، فالاختلاف في العلل والاختلاف في المصطلحات لا يكون الا نتيجة الجهود التي يبذلها هؤلاء النحاة ومردود فهمهم وتذوقهم لهذه الظواهر أو المسميات.

ولم يكن الاختلاف بين البصريين والكوفيين اختلافًا نشأ عنه نحوان متعارضان، وانما هو اختلاف في المنهج المعتمد وفي النظرة الخاصة التي فرضتها كل من البيئتين وما احاط بنحاتها من ظروف اجتماعية أو ثقافية أو لغوية أدت بهم الى التوسع في قبول لغات لم يعتدَّ بها البصريون وسماع اشعار ما وجدت في البيئة البصرية، وتكونت عن ذلك أقيسة مختلفة وتعليلات جديدة، وتقديرات أو تأويلات فرضتها هذه النصوص.

اما اختلافهم في المصطلحات والتسميات فلن يقدم أو يؤخر ولن يغير من النحو شيئًا فالتابع واحد سواء أسميناه صفة كما شاع عن البصريين أم نعتًا كما يسميه الكوفيون، وعلى هذا فلا فرق في الاعتماد على هذه اللغة وتفسير الظواهر الواردة فيها وتعليلها وتسميتها بين أن يكون الدارس بصريًا أو كوفيًا أو بغداديًا أو مصريًا أو أندلسيًا أو شاميًا ولا فرق بين أن نسمي فصول هذا الكتاب بـ «المذهب النحوي في البصرة» و «الدرس النحوي في مصر» أو الشام أو غيرها، لان هذا لن يغير كثيراً من الواقع، فلتكن «المدارس النحوية» أو «المذاهب النحوية» أو «الدرس النحوي» ما دامت كلها تلتقي في أصول واحدة تنبع من لغة عربية أصيلة.

الفصل الأول

المذهب النحوي في البصرة

المبحث الأول

بيئة البصرة

البصرة:

يجدر بنا قبل أن نخوض في نشأة النحو ورجاله ومراكز دراسته أن نلقي نظرة سريعة على «البصرة»، المدينة التي كانت منبع هذا العلم والمصدر الذي شمل بعلومه وثقافته الكثير من الامصار الاسلامية، والشمس التي بزغت على الناطقين بالضاد، وغمرت بضوئها بلاد العرب والمسلمين بعد أن استطاع رجالها القائمون على هذا العلم أن يضعوا اصوله وضوابطه وأقيسته التي بها يستطيعون أن يفسروا آيات كتاب الله وأحاديث رسوله الكريم (ﷺ)، واساليب اسلافهم من العرب الفصحاء، وان يفهموا من عاصرهم أو جاء بعدهم ممن دخلوا في الاسلام وانضووا تحت لوائه من ابناء الألسن المختلفة والجنسيات المتباينة.

والبصرة مدينة معروفة منذ بدايات التحرير الاسلامي للعراق، وقيل هي مدينة قديمة كانت تدعى في العصور الوسطى في أوروبا «بلسرة»: (Balsara) وهي مدينة تجارية تقع على شط العرب، وقد قامت منذ الازمان القديمة في تلك البقعة التي يصب فيها نهرا دجلة والفرات في البحر عدة مدن[(١)]. وقد اختلف اللغويون ومترجمو البلدان في اسمها والاصل الذي اشتق منه، وفي معناه[(٢)].

ولما تم لخالد بن الوليد تحرير المنطقة الجنوبية من العراق بعث عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- الى سعد بن أبي وقاص قائد الحركات العسكرية في وسط العراق، وفاتح «المدائن» التي هرب منها الفرس بعد الفتح -يقول له: «حُطَّ قيروانك بالكوفة وابعث بعتبة بن غزوان الى أرض الهند[(٣)] فان له من الاسلام مكاناً، وقد شهد بدراً»[(٤)]. وسار عتبة بن غزوان مع ثمانمائة من المقاتلين ونزلوا

---

(١) ينظر دائرة المعارف الاسلامية مادة (بصرة).

(٢) ينظر معجم البلدان ١/٤٣٠، ودائرة المعارف للبستاني، ٥/٤٥٣، ولسان العرب (بصر). وفتوح البلدان للبلاذري ٣٤١.

(٣) بهذا الاسم كانت تعرف منطقة البصرة وما جاورها في ذلك الزمن.

(٤) ينظر معجم البلدان، ١، ٤٣٢.

في الخريبة[1] في خيام، وبعد أن استقرت الامور وهدأت الحال في الجنوب كتب الى عمر يستأذنه في اختطاط البصرة، ووصفها له لتكون مشتى لهم اذا شتوا ومنزلاً للجند اذا عادوا من الغزوات والحروب، فوافقه عمر على أن تكون المدينة قريبة من الماء والمرعى وان تكون في مكان لا يفصل الماء بينهم وبين الحجاز مقر عمر (رضي الله عنه)، فكتب اليه عتبة بصفة البصرة وموقعها، وبدأ بتمصيرها بعد وصول موافقة عمر اليه وكان ذلك سنة أربع عشرة للهجرة في أرجح الروايات[2].

بني عتبة مسجدها الجامع ودار الامارة والسجن والديوان من القصب أول الامر فكانوا كلما ساروا للحرب نزعوا القصب وحزموه حتى يعودوا فيبنوه من جديد، فلما جاء أبو موسى الاشعري واليا على البصرة سنة ١٦هـ أو ١٧ هـ نزع القصب وبنى المسجد ودار الامارة باللبن، ولما ولّى معاوية زيادا على البصرة بنى دار الامارة باللبن والمسجد بالجص وسقفه بالساج وظل كذلك حتى جاء الرشيد فهدم دار الامارة وادخلها في قبلة المسجد[3].

وكان لهذه المنطقة أهمية تجارية عظيمة منذ القديم لموقعها على شط العرب ملتقى نهري دجلة والفرات وتحكّمها في مصبه بالبحر، ولفت اليها هذا الموقع انظار الفاتحين وجعلوا منها مركزا تجاريا مما ساعد على نموها وازدهارها. وكانت مستقر الحضارة العربية وملتقاها بالحضارات الاجنبية الاخرى، فالعرب الوافدون عليها كانوا ما زالت تغلب عليهم نزعة البداوة وما زالوا يميلون بطبعهم الى الحياة الفطرية، غير أنهم اتصلوا في هذه البلاد بشعوب كثيرة رسخت اقدامهم في المدنية فاخذوا الكثير من ثقافات تلك الشعوب وتعلموا منهم كل جديد طريف مع احتفاظهم بمقومات عروبتهم وأسلوب حياتهم، وقد أعانهم موقع البصرة على أطراف البادية والحضر على ذلك وهيأ لهم في الوقت نفسه حياة هينة رغبوا فيها وسعوا اليها وطلبوها.

لقد نزلت هذه القبائل العربية المحاربة والنازحة الى البصرة في ظاهر المصر الجديد، كما جرت عادتهم وانشئت الاسواق بينهم منها سوق كان يعرف بـ «سوق الابل» وكان متجراً لأهل المدينة وملتقى للقادمين من البادية بالحضر المقيمين فيها لتبادل السلع، وقد نمت هذه السوق واتسعت حتى صارت حيًّا كبيراً من أحياء البصرة ازدهرت فيه الحياة ونشطت فيه التجارة وصارت المواسم التي يفد فيها الأعراب على هذه السوق اشبه بالمهرجانات واقرب ما تكون الى ما عرفه العرب من اسواق عكاظ في الحجاز، ينشد فيها الشعراء اشعارهم ويتنابها الفصحاء من الأعراب وعلماء البادية ورواة الاخبار والايام، وأخذت حلقات الادب تقام في «المِربَد» الذي كان ميدانًا فسيحًا

---

(١) موضع بالبصرة (معجم البلدان – خريبة) ٢/٣٦٣.

(٢) ينظر معجم البلدان، ١/٤٣٢، وفتوح البلدان، ٣٥٤.

(٣) ينظر فتوح البلدان، ١/٤٣٣، ومختصر كتاب البلدان لابن الفقيه، ١٨٨.

لذلك ومتنفسًا واسعًا للخطباء والشعراءوالادباء.(١)

ولم ينته القرن الأول حتى كانت البصرة مركزًا لطلاب العلم والدارسين من مختلف الآفاق واصبحت مفخرة من مفاخر العرب والمسلمين ومركزًا ثقافيًا اتسعت شهرته وعمت الاقطار الاسلامية، وقد صحب هذا الازدهار الثقافي ازدهار عمراني على يد أبي موسى الاشعري وزياد بن أبيه من بعده فبنيت المنازل الكبيرة والقصور الجميلة الفخمة، والاسواق العامرة واصبحت مدينة زاهرة بعمارتها واسواقها وحماماتها واشجارها ومياهها يقصدها الناس للتجارة كما يقصدها الادباء والشعراء للمفاخرة، وغصت مساجدها بطلاب العلم الديني والدنيوي على اختلاف فروعهما(٢).

وأخذت البصرة تفخر آنذاك على سائر الامصار الاسلامية بالبيوتات التي نزلتها، وبالرجالات الذين لم ينجب مثلهم عصر تفقُّهًا وبلاغةً وزهدًا وعلمًا وادبًا ووَرَعًا، وكان المحاربون أول سكانها المهاجرين اليها، وتمثل عائلاتهم الوجبة الثانية من المستوطنين فيها، وتوافد الناس عليها من الحجاز حتى صار عدد سكانها بعد حوالي خمسين سنة من تمصيرها ثلاثمائة الف نسمة(٣).

قسمت البصرة عند تمصيرها الى خطط وكان سكانها من قبائل العرب المختلفة بعضهم من مقاتلة العرب وبعضهم من الراحلين اليها من القبائل العربية الساكنة في نجد والحجاز فاتسعت بهم البصرة وتضاعفت مساحتها. وكان يسكنها اقوام اخرى غير العرب، وقد امتزجت هذه الاقوام ببعضها وبمن يفدون اليها للتجارة أو الاطلاع وبمن كان فيها من الموالي من جنسيات متعددة جاءت بهم الفتوحات الاسلامية فنشأ عن هذا الخليط جيل من العلماء يجمعون الثقافات والعلوم العربية والاسلامية الى ما كان لديهم من عقليات ومواهب وعبقريات مكنتهم من أن يضعوا أسس علوم ما لبثت بعد فترة من الزمن أن اصبحت علومًا كاملة.

وكان للعرب عند مجيء الاسلام ثقافة دينية وتجارية واقتصادية كما يتضح من الآيات القرآنية الكريمة التي عالجت التنظيم الاقتصادي وشؤون المعاملات والعبادات والعهود(٤).

وقد رغبت هذه الاقوام الداخلة في الاسلام الذي وصل الى مجاهل الهند والصين في تعليم

---

(١) ينظر تأريخ آداب اللغة العربية – زيدان ٢٠٠/١.

(٢) ينظر: المعارف ٥٦٣-٥٦٤ ومعجم البلدان ٤٣٢/١-٤٣٣، وفتوح البلدان ٣٤١/١، وما بعدها.

(٣) ينظر معجم البلدان ٤٣٤/١، وفتوح البلدان ٣٤٢ و ٣٥٠ ودائرة المعارف الاسلامية (بصرة).

(٤) ينظر الخليل بن أحمد الفراهيدي، ١١.

لغة القرآن الكريم، لغة الدين الذي احبته وعملت جاهدة في سبيل تعلم احكامه بعد تعلم قراءته وفهم معانيه وحفظه لكي تنضوي تحت لواء الدولة العربية الاسلامية وتشارك في الحياة العامة.

واصبح للمساجد والمكتبات دور فعال في نشر الثقافة الاسلامية والعلوم العربية، بما وجد فيها من علماء عظماء اخذوا يعقدون حلقات الدرس لتلقي العلوم المختلفة فيها كعلوم القرآن والحديث والفقه وغيرها بعد أن كانت الاسواق ولاسيما المِربَد انشط مراكز الثقافة العربية اللغوية والادبية لما كان يجتمع فيها من شعراء وخطباء من مختلف قبائل العرب يتناشدون الشعر ويرتجلون الخطب وينسجون القصص، كل ذلك بلغة أدبية فصيحة، والناس يجتمعون ويستمعون ويحفظون ويوازنون وينقدون، الا ان مدى هذه الاسواق وتأثيرها كان محدوداً لان اقامتها لا تتم الا مرات معدودة في العام الواحد فلم تكن لتفي بالغرض الذي اصبحت تتطلبه الحياة المزدهرة في البصرة التي انتشر فيها الاسلام بين الاجناس المختلفة التي كانت تعيش فيها، وتدعو اليه رغبة هؤلاء المسلمين في قراءة القرآن وتعلُّمه والتفقه فيه وفي أحكامه.

مراكز الثقافة فيها:

واشتهر في البصرة مركزان قاما بنشر الثقافة والدعوة اليها وترغيب الناس فيها، وكانا صدري اشعاع في هذه البلاد الاسلامية التي بقيت ملتقى التجار ومجمع العلماء ومركز الحضارة وفي هذين المركزين الثقافيين اختلطت الافكار العربية الاسلامية بالحضارات الاجنبية واصبحت الثقافة مزيجًا اتضحت فيه الثقافة العربية الاسلامية اتّضاحًا بيّنًا، وكانت هي الغالبة لان القرآن عربي وطابع الحكم فيها عربي. وهذان المركزان هما: المسجد الجامع والمربد.

١- **المسجد الجامع:** كان أول ما أسس عتبة بن غزوان عند تمصيره البصرة مسجدها الجامع، وقد كان متوسطا المدينة تحيط به الدور والاحياء والسكك، وذلك لانه المكان الذي يجتمع فيه أهل المصر لاداء فريضة الصلاة وليتباحثوا في أمور دينهم ودنياهم ويعقدوا فيه الاجتماعات العامة التي يدعو اليها الخليفة اوولاته عنداعلان الجهاد، ثم أصبح مجمعًا للعلماء والفقهاء والمحدثين والمقرئين والقصاص واللغويين وفيه تعقد مجالس الدرس وحلقات الشيوخ التي كان من أشهرها:

مجلس الحسن البصري (-١١٠هـ): كان يجتمع فيه الناس على اختلاف نزعاتهم لسماع قراءته للقرآن الكريم التي كان يتبع فيها طريقة عبدالله بن عباس في اهتمامه بالتفسير والاستشهاد عليه باللغة، ولمتابعة ما يلقيه من مواعظ وما يسرده عليهم من قصص، فقد كان الحسن البصري زعيم المدرسة القرآنية بالبصرة التي كانت تعنى كذلك بفقه القرآن واستنباط الاحكام والنظم

الاجتماعية التي تحملها آياته. وكان يتمتع بقوة الحجة وفصاحة البيان والقدرة على المنطق والجدل لذلك استطاع ان يرد على أهل الاهواء والنزعات المختلفة[1].

ومجلس واصل بن عطاء (٨٠-١٣١هـ) وقد كان يجلس أول الامر في مجلس الحسن البصري ثم اعتزل مجلسه لاثارته اقوالاً كان يبثها بين المجتمعين فطرده الحسن، وكوّن له مجلساً مُسْتَقِلاً كان يثير فيه مسائل يشتد الجدل حولها ويقوى ويتجه اتجاهاً عقليًا كلاميًا وقد قام نتيجة نهذا مذهب الاعتزال وظهر بعده علم الكلام في هذا المجلس ايضاً[2].

ومجلس ايوب بن أبي تميمة السختياني المحدث الثقة الثبت الذي كان يعلم الحديث والفقه في مجلسه هذا فاصبحت له مكانة في نفوس معاصريه لورعه وزهده وتدينه[3].

ومجلس حماد بن سلمة (-١٦٥هـ) المحدث المشهور بالفصاحة والمعدود من متقدمي النحاة، كان يقول: «من لحن في حديثي فقد كذب علي» وكان يروي الحديث في مجلسه ويصحّحه لطلبته، ويعنى بألفاظه وسنده وتفسير معانيه واحكامه.

وكانت تعقد في المسجد حلقات للقراءة واللغة والنحو يزدحم فيها طلبة العلم والدارسون، من أشهرها حلقة أبي عمرو بن العلاء احد القراء السبعة، والعربي الوحيد فيهم، كان من أعلم الناس بالقرآن وقراءته. وحلقة الخليل بن أحمد الفراهيدي التي كان الدارسون فيها يزحم بعضهم بعضاً، حتى انكمشت من حولها الحلقات، ولم يتحدث التاريخ في حياة الخليل عن مجلس غير مجلسه، ولم تدب الحياة في المجالس الاخرى الا بعد موت الخليل[4].

ولم تكن مجالس الدرس في المسجد الجامع مقتصرة على هذه المجالس وعلى الدراسات القرآنية ودراسات الحديث والفقه واللغة وانما كانت مجالس الدرس وحلقاته تضم الدارسين على اختلاف اتجاهاتهم وتنوع علومهم من الشعر والادب الى النحو واللغة الى الحديث وروايته ورجاله، والقراءة وأصولها وتخريجاتها والبحث في صحتها واختلافها وتوجيهها بحسب لغات القبائل العربية المختلفة، وبحسب المعاني التي تتضمنها، هذه الدراسات التي كانت الاساس الذي قامت عليه فيما بعد الدراسات اللغوية، ونشأت منه وتفرعت عنه الدراسات النحوية، ثم اتجهت الى ميادين

---

(١) البيان والتبيين، ١/٣٧٤-٣٧٥ و ١/١١٤ و ٣١٧.

(٢) مرآة الجنان لليافعي، ١/٢٧٤ وما بعدها والفهرست ٢٠٢-٢٠٣ وتمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية، ٢٨٨.

(٣) المعارف ٤٧١. والفهرست ٢٣٥ ونور القبس ٥٦.

(٤) طبقات النحويين واللغويين، ص ٦٦ و ٤٨ و ٣٨ - ٣٩. والفهرست ٢٨٣ ونزهة الالباء، ٢٦-٢٨. ونور القبس ٩٥.

اخرى منها الشعر وروايته ونقده والمفاضلة بين الشعراء على أساس الصحة اللغوية والنحوية بعد الفصاحة وجودة الشعر، واذعن فيها الشعراء لاحكام النحاة ونقدهم واخذوا يلمون بمجالسهم يسمعون ما يذكر من عيوب الشعر واصبحوا يعرضون شعرهم بعد ذلك على النحاة قبل انشاده ليُقيموهُ وليأمنوا مخالفتهم اياهم وطعنهم عليهم[1].

٢- المِربَد:

كان المِربَد سوقا بظاهر البصرة ومناخا للابل، وكان يسمى «سوق الابل» وكان شبيها بسوق عكاظ الذي كان أصله سوقا لتبادل السلع، ثم أصبح مقصد القبائل العربية يجتمعون فيه. وقد اصبح المربد بعد تمصير البصرة مثابة للخطباء والشعراء من البادية والحاضرة يتناشدون الاشعار ويتفاخرون باحسابهم وأنسابهم ومآثرهم، ولم يكن هؤلاء الشعراء ممن يقيمون في الحاضرة وانما كانوا أعرابا، فمقام الفرزدق بادية البصرة ومقام جرير بادية اليمامة والاخطل بادية بني تغلب، وقد اشتهر ما كان بينهم من نقائض تضرمها العصبية القبلية. وكان غيرهم من الشعراء يفضلون الاقامة في البادية ويختلفون الى المِربَد في المواسم التي يلتقي فيها البدو والحضر والشعراء والنقاد واللغويون والنحويون الذين كانوا يحضرون لمشافهة الاعراب الذين مازالت سلائقهم سليمة وفصاحتهم لم تشبها شائبة التحضر، وليضعوا على ما يسمعونه عنهم اصولهم في الدرس النحوي واللغوي بعد ملاحظة اساليبهم في التعبير ورصدها ودراستها.

هذا ما كان لهذين المركزين الثقافيين -ولاسيما المسجد الجامع- من أثر كبير في نشأة العلوم الدينية في البصرة ثم نمت ووصلت أوجها بمدرسة الحسن البصري في الاقراء والتفسير فيما تذكر كتب التاريخ، ولم تتوفر لديَّ معلومات عن مجلس لابي الاسود في المسجد الجامع ولا يذكر ذلك من أرخ له من كتاب التراجم ومؤلفي الطبقات ويبدو أن مجالس الاقراء والتفسير والدراسات اللغوية بدأت قبل زمن أبي الاسود ومنذ تأسيس المسجد الجامع وبقي العلماء يعقدون فيه مجالسهم وحلقاتهم للاقراء ونشر علوم القرآن والحديث وغيرها من العلوم الدينية، ولرواية اللغة وانشاد الشعر وللمناقشة في المسائل اللغوية والنحوية. وفي المسجد نشطت الدراسات القرآنية في زمن أبي الاسود ومعاصريه وتلاميذه وعلى أيديهم تم نقط المصحف نقط الاعراب ونقط الاعجام، وكان ذلك بداية التفكير في المسائل اللغوية والنحوية والبذرة الأولى التي نمت وازدهرت واثمرت فيما بعد هذا النحو العظيم.

---

(١) ينظر الاغاني، ١٨/١٨٤، وعبقري من البصرة، ١٦-١٧.

نشأة النحو وأوائل النحاة

أصالة النحو العربي:

قبل أن نتحدث عن نشأة النحو العربي لابد لنا من أن نتطرق إلى قضية شغلت الباحثين ولا سيما المحدثون منهم، هي الكلام على أصالة النحو العربي بمناهجه وفكره وأصوله وتقسيماته. ووقف العلماء من هذه القضية مواقف، فظل بعضهم حائراً متردداً ووقف بعضهم الآخر موقف الحذر المتشكك، وأخذ فريق ثالث يبحث ويناقش. ولم تنشأ هذه المواقف المختلفة عن العرب انفسهم كما يقول المستشرق الفرنسي «جيرار تروبو» وإنما نشأت عن المستشرقين أنفسهم[1] وتعددت الاقوال في وجوه هذا التأثر كان أوضحها ما يأتي:

القول بأن الثقافات التي يرجع اليها هذا التأثر ثلاث: اليونانية والسريانية والفارسية:

١- **اليونانية:** يقول المستشرق «جيرار تروبو» معللا نشوء هذا القول بأن النظام العربي النحوي يحتل محلاً بارزاً بين النظم النحوية الكبرى الموجودة في العالم من أجل موقعه بين النظام اليوناني في الغرب، والنظام الهندي في الشرق فكان من الطبيعي أن يلفت المستشرقون انظارهم اليه ليدرسوا نشأته وتطوره[2]. وقد كان المستشرق الالماني "Merx" الذي نشر في القرن التاسع عشر كتاباً عنوانه «تاريخ صناعة النحو عند السريان» هو الذي زعم لاول مرة أن المنطق اليوناني أثر في النحو العربي، لان الثاني اقتبس من الأول بضعة من المفاهيم والمصطلحات.

وجاء بعده عدد من المستشرقين الذي اتخذوا هذا الرأي بلا تحفظ، منهم: المستشرق الفرنسي "Fleisch" الذي قال في كتاب ألفه في علم اللغة «انه من الواجب ان نشير الى تأثير يوناني في النحو العربي، فقد اقتبس الفكر النحوي العربي مفاهيم اصيلة من العلم اليوناني، لا من النحو اليوناني ولكن من منطق ارسطو».

وظهر مستشرقون رفضوا هذه الفكرة منهم المستشرق الانكليزي "Carter" الذي رفض هذا الرأي في مقالة: «في أصول النحو العربي» وبين فيها أن سيبويه يستعمل في الكتاب مجموعتين من المصطلحات: مجموعة قليلة العدد تتضمن مصطلحات لعلها يونانية الاصل، ومجموعة كثيرة العدد تتضمن المصطلحات العربية الاصل المنقولة من الفقه الى النحو.

---

(١) نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه – جيرارتروبو/١٢٥.

(٢) نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه – جيرارتروبو/١٢٥.

ولم يقتصر البحث في تأثر النحو العربي بالنحو اليوناني على المستشرقين الغربيين وانما نجد المستشرق الهندي "Verstecgh" قد نشر كتابا عنوانه: «العناصر اليونانية في الفكر اللساني العربي» دافع فيه عن نظرية التأثير اليوناني في النحو العربي، وذهب الى أن النحاة العرب القدامى قد اقتبسوا بضعة من المفاهيم والمصطلحات، لا من المنطق اليوناني كما زعم "Merx" بل من النحو اليوناني، وذلك بواسطة اتصالهم المباشر باستعمال النحو اليوناني الحسي كما يقول، في مراكز الثقافة اليونانية الموجودة في الشرق الادنى بعد الفتح العربي[١].

ومن الباحثين الذين وقفوا من هذه القضية موقفًا وسطًا بين الفريقين المستشرق «ليتمان» الذي قال: «اختلف الأورباويون في أصل هذا العلم فمنهم من قال: انه نقل من اليونان الى بلاد العرب، وقال آخرون: ليس كذلك، وانما كما تنبت الشجرة كذلك نبت علم النحو عند العرب، وهذا هو الرأي الذي روي في كتب العرب منذ زمن. ونحن نذهب في هذه المسألة مذهبًا وسطًا... وهو انه ابدع العرب علم النحو في الابتداء، وانه لايوجد في كتاب سيبويه الا ما اخترعه هو والذين تقدموه، ولكن لما تعلم العرب الفلسفة اليونانية من السريان في بلاد العراق تعلموا ايضًا شيئًا من النحو، وبرهان هذا أن تقسيم الكلمة مُختلف، قال سيبويه: فالكلمة اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، وهذا تقسيم أصلي، اما الفلسفة فينقسم فيها الكلام الى اسم وكلمة ورباط، وهذه الكلمات ترجمت من اليوناني الى السرياني، ومن السرياني الى العربي فسميت هكذا في كتب الفلسفة لافي كتب النحو. اما كلمات اسم وفعل وحرف فانها اصطلاحات عربية ما ترجمت ولا نقلت»[٢].

وقد وقف الباحثون في التأثر بالنحو اليوناني من كيفية الاقتباس، ومن الذي اقتبس موقفين متباينين، يرى الأول أن الاقتباس تم مباشرة عن طريق اليونان، وكان للترجمة عن اليونانية، وللمترجمين المتعصبين لها أكبر الأثر في توجيه هذا الفريق، ويمثل هذا الفريق عدد من الباحثين منهم: الاستاذ ابراهيم مصطفى الذي كان يرى أن أبا الاسود أخذ نقط المصحف عن اليونانية، وكان قد قرأها[٣]. والدكتور محمود السعران الذي يقول: «ان النحو العربي في مراحله الأولى تأثر شيئًا من التأثر بمنطق ارسطو»[٤] والدكتور علي أبو المكارم الذي كان يقول ان بعض المترجمين الذين اعجبوا بالثقافة اليونانية قالوا بهذا التأثير اليوناني في الثقافة العربية، لكنه يرى أن المنهج

---

(١) نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه - جيرارترووبو/١٢٥-١٢٦.

(٢) محاضرات «ليتمان» (نقلا عن نشأة النحو للطنطاوي ١٤-١٥ وضحى الاسلام ٢/٢٩٢-٢٩٣).

(٣) تنظر مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، م١٠ ج٢/٤ و ٥ لسنة ١٩٤٨.

(٤) علم اللغة، ٣٥٥.

المنطقي اليوناني ترك ظلالاً من التأثير في ميادين الدراسة التركيبية أو النحوية، الا أن النحو كان من آخر العلوم العربية تأثُّرًا بالمنطق اليوناني وظل فترة طويلة بمنأى عن هذا التأثر[1].

أما الفريق الثاني فقد كان يرى أن الاقتباس تم عن طريق السريان بعد أن اقتبس السريان أصول النحو اليوناني والنقط والحركات، ويمثل هذا الفريق عدد من الباحثين منهم: دائرة المعارف الاسلامية التي جاء فيها «ان المعاجم النحوية الاصلية للنحويين العرب أخذت من المنطق الارسطي عن طريق العلماء السريان الى العرب»[2] والاستاذ أحمد أمين الذي يرى أن الاتصال الثقافي بين العرب واليونان انما تم عن طريق السريان، وان تأثير اليونان والسريان في العصر الأول لوضع النحو كان ضعيفاً[3].

٢-السريانية:

وقد ذهب الى القول بتأثر العربية بالثقافة السريانية كثير من الباحثين العرب الذين يرى الدكتور عبدالرحمن السيد أن ليس لديهم دليل قاطع ولا أصل ثابت يرجعون اليه في هذا الاتهام أو يعتمدون عليه في مذهبهم هذا[4].

وخلاصة موقف هؤلاء الباحثين من التأثر بالسريانية انهم قالوا بثلاثة اقوال:

الأول: ان العربية قامت على نمط السريانية، ومن القائلين بهذا الاستاذ جرجي زيدان الذي ذهب الى أن العرب لما اضطروا الى تدوين العلوم وكانوا قد خالطوا السريان واطلعوا على آداب السريان ومؤلفاتهم التي كان النحو في جملتها نسجوا على منوالهم[5]. ومنهم الاستاذ احمد أمين الذي يرى انه لما تم «للعرب الاتصال بالآداب السريانية الموجودة في العراق قبل الاسلام والتي كانت لها قواعد نحوية كان من السهل أن توضع قواعد عربية على نمط القواعد السريانية»[6]. ومنهم الاستاذ احمد حسن الزيات الذي كان يرى أن النحو العربي سرياني الاصل، وأن ابا الاسود الدؤلي لم يضع النحو والنقط من ذات

---

(١) تقويم الفكر النحوي ٥٤-٥٥ و ٦٧ و ٦٥ و ٦٦ و ٧٨-٧٩ وينظر ٧٨ وما بعدها في هذا التأثر.

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ٣/٣٨٦.

(٣) ضحى الاسلام، ٢/٢٩٣٢-٢٩٤.

(٤) مدرسة البصرة النحوية، ص٩٥ وينظر فجر الاسلام، ١/١٨٧-١٨٨.

(٥) تأريخ آداب اللغة العربي، ٢٠٩ وننظر ٢١١ و ٢١٢.

(٦) فجر الاسلام، ١/٢٢٦ و ١٧٥.

نفسه وانما يرجع الى أنه ألم «بالسرياني وقد وضع نحوها قبل نحو العربية»[1].

الثاني: ان العربية اقتبست نحوها من السريانية وحصروا الاقتباس في ناحيتين: الأولى التقسيم الكلامي في النحو، والثانية النقاط العربية، ويمثل هذا الرأي جرجي زيدان الذي ذهب الى أن اقسام الكلام في العربية هي اقسام الكلام في السريانية نفسها[2]. وذهب الى أن نقط أبي الاسود كان نقط اعجام وانه اخذه عن السريان ايضًا[3]، ويمثله ايضاً الاب اسحاق ساكا الذي استدلَّ لرأي من ذهب الى وجود التأثر في هاتين الناحيتين بادلة ذكرها في بحث له عن النحو[4].

الثالث: ان العرب اقتبسوا عن النحو السرياني نقاطه فقط ويمثل هذا القول الاستاذ مصطفى نظيف الذي يرى أن أبا الاسود وضع النقط والحركات مقتبسًا اياهما من الاب يعقوب الرهاوي الذي ألّف كتابًا في النحو السرياني[5]. والاستاذ مصطفى صادق الرافعي الذي يرى أن دلالات الحركات لم تكن عند العرب بل اخترع اصولها السريان[6]. والدكتور حسن عون الذي ذهب الى أن النحو العربي اخذ الحركات التي كانت في السريانية[7].

٣-الفارسية: ذهب بعض المستشرقين والباحثين العرب إلى أن النحو العربي قد تأثر بالعنصر الفارسي وغيره من العناصر، فمنهم المستشرق «فون كريمر» الذي كان يرى أن وضعه كان لحاجة الاجانب الفرس والاراميين الى تعلم العربية، فأثر هؤلاء بنقل ثقافتهم وآرائهم الى النحو العربي[8]. ومنهم الدكتور شوقي ضيف الذي ذهب الى أن العرب تأثرت مناهجهم في العلوم الدينية واللغوية بمن كان في العراق اهدى هو وما وراءه من بلاد فارس الى العزب كل ما عرف الفرس من حضارة دفعت العرب دفعا الى أن يؤسسوا على مناهج صحيحة دراساتهم المختلفة[9]. ومنهم الاستاذ احمد

---

(١) تاريخ الادب العربي للزيات ٢٠٦.

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية، ٢٠٩/١.

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية، ٢١١/١ و ٢١٢.

(٤) مجلة العربي، ٥١، (العدد ١٠٦ لسنة ١٩٦٧م).

(٥) تنظر مجلة المجمع اللغوي، م٧/٢٤٨.

(٦) تاريخ آداب العرب ١٠٥/١.

(٧) اللغة والنحو ٢١٥.

(٨) الحضارة الاسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الاجنبية -تعريب مصطفى بدر ٩٠.

(٩) التطور والتجديد في الشعر الاموي، ٣٦-٣٩.

أمين الذي كان يرى أن الفرس الداخلين في الاسلام لما أعطوا حريتهم في العصر العباسي شاركوا في التأليف ونهضوا بالثقافة العربية وانشأوا اللغة العربية ودونوا علومها كما دونت علومهم[(١)].

وكان من اقدم القائلين بهذا ابن خلدون الذي كان يرى أن العرب لم يكونوا يعرفون امر التعليم والتأليف والتدوين في أول امر ملتهم وكانوا ابعد الناس عن هذه الصنائع، وان العجم هم الذين قاموا بهذه الامور وقد كان العرب فيها تابعين للفرس والعجم[(٢)].

ويبدو لي أن قول ابن خلدون هو الذي دفع الباحثين العرب الى القول نفسه كأحمد امين وشوقي ضيف.. كما تابعه عليه الاستاذ عبد الحميد حسن ولم يخرج عنه[(٣)].

ومع هذه الآراء التي تنوعت وتعددت في القول بالتأثير الاجنبي في النحو العربي خاصة والثقافة العربية عامة نجد كثيراً من الباحثين يردّون هذه الاقوال ويناقشونها، أو يردون بعضها كما فعل الاستاذ عبدالحميد حسن الذي رد القول بالتأثير اليوناني والسرياني وأثبت التأثر بالفارسية في أمور منها أن الفاعل في الفارسية والعربية متشابهان، وأن المبتدأ في العربية يقابل المبتدأ أو المسند اليه في الفارسية. وان المصدر في الفارسية اصل الافعال بجميع صيغها، وقال البصريون بمثل هذا وقد يكون الخلاف الواقع في هذا منشؤه اللغة الفارسية وتأثر النحاة العرب بالفرس فيه[(٤)].

واستدل الاستاذ عبدالحميد حسن في رده التأثير السرياني أو اليوناني في النحو العربي بكلام صاحب: «اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية» وهو الاب اقليميس يوسف داود، مطران دمشق الذي ذهب فيه الى أن نحو السريانية متأثر بالنحو العربي، ورأى أنه كان من الواجب على الباحثين السريان الا يبحثوا عن أصل النحو السرياني وتقسيماته في اللغة اليونانية، وانما يبحثون عنها في نحو اللغات السامية أخواتها ولاسيما اللغة العربية، وذهب الى أن اليهود قد سبقوا السريان الى بناء قواعد نحوهم على غرار القواعد العربية[(٥)].

وممن ناقش هذه الاقوال وردها الدكتور عبدالرحمن السيد، إذ ذهب الى أن النحو عربي وأن واضعيه عرب، ثم رد اقوال أولئك العرب والمستشرقين بأقوال بعض المستشرقين المنصفين من أمثال (ليتمان) الذي يرى أن العرب ابدعوا النحو ابتداء، وانه لا يوجد في كتاب سيبويه الا ما اخترعه هو

---

(١) فجر الاسلام، ١/١٤ وتنظر ص٢٥.

(٢) تنظر مقدمة ابن خلدون الفصل الخامس والثلاثون والسادس والثلاثون.

(٣) القواعد النحوية ٢٥٢ وتنظر ٢٤٨-٢٥٧.

(٤) القواعد النحوية ٢٥٢.

(٥) ينظر كتاب اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية ١/٢٠٣ وما بعدها - (نقلا عن كتاب القواعد النحوية ٢٥٣-٢٥٥) وينظر القواعد النحوية ٢٥٧.

والذين تقدموه. و «دي بور» الذي قال: «وبالرغم من هذا كله احتفظ علم النحو العربي بخصائصه... وهو على أية حال اثر رائع من آثار العقل العربي بماله من دقة في الملاحظة، ومن نشاط في جمع ما تفرق، ويحق للعرب أن يفخروا به» و «جوتولد فايل» الذي يقول: «حفظت لنا الرواية العربية في مجموعات مختلفة من كتب التراجم وصفا لمسلك نمو هذا العلم الذي هو أجدر العلوم أن يُعَدّ عربيًا محضًا» و «بروكلمان» القائل بأن علماء العرب يرددون دائمًا الرأي القائل بأن النحو العربي صدر عن روح عربية خالصة وبأنه ليس من الممكن ابداء رأي موثوق به في مسألة اتصال علماء اللغة الاوائل بنماذج اجنبية نسجوا على منوالها. و «برومليش Braumlich» الذي كان يرى أن الخليل كان عربيًا خالص العروبة وينفي عن نحوه التأثر بالاجانب في وضع النحو العربي[1].

ومن هؤلاء الدكتور عبدالعال سالم الذي قال: «وفي رأيي الخاص أن قضية نشأة النحو مرتبطة بالمعارف السابقة للعرب في الجاهلية وفي العصر الاسلامي وبخاصة في مجالي القراءة والكتابة». وكان يرى أن انكار نسبة النحو الى العرب في منشئه فكرة ضالة[2].

واقول ان مما يغنينا عن كل هذه الردود اقوال المؤرخين الذي ترجموا للنحاة منذ زمن علي بن أبي طالب (ﷺ) وأبي الاسود الدؤلي، وكانوا قريبي عهد بهم من أمثال ابن سلام والزبيدي وأبي الطيب اللغوي والسيرافي وابن النديم وكلهم يسمونه علم العربية وينصون على أن واضعه عربي، وان الذين حثوا على وضعه عرب، وان اصوله عربية وهي القرآن الكريم وكلام العرب[3].

وكان من المتحمسين للقول بأصالة النحو العربي، وببعده عن التأثيرات الاجنبية من أي نوع كانت ولا سيما اليونانية والسريانية المستشرق الفرنسي «جيرارتروبو» الذي نشر بحثًا في الرد على هؤلاء القائلين سماه: «نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه» ذهب فيه إلى أن القائلين بالتأثر يرون ان العرب قد اقتبسوا في دراساتهم النحوية أربعة مصطلحات عن المنطق اليوناني هي: الاعراب والصرف والتصريف والحركة، وانهم اقتبسوا عنهم ايضًا التقسيم الثلاثي للكلمة الى اسم وفعل وحرف ويقابلها في النحو اليوناني ثمانية وهي (الحرف، والمجموع، والرباط والفاصلة والاسم والكلمة والرقعة والقول) ثم يأخذ كل كلمة من هذه الثماني ويقابلها بالتقسيم الثلاثي العربي، وينتهي

---

(١) ينظر رأي الدكتور عبدالرحمن السيد ورده على القائلين بالتأثر الاجنبي في مدرسة البصرة النحوية ٩٦ و ٩٧، وتنظر آراء هؤلاء المستشرقين ومؤلفاتهم في مدرسة البصرة النحوية ٩٦-١٠٤.

(٢) الحلقة المفقودة في تأريخ النحو العربي ١١، وينظر تفصيل الرد ٩-١٥.

(٣) ينظر في هذه الاقوال على سبيل المثال طبقات فحول الشعراء ١٢/١، وطبقات النحويين واللغويين ١-١٠ و ١٤ واخبار النحويين البصريين ١٠ و ١٢ و ١٣، ومراتب النحويين ٦ وغيرها.

بعد هذه المقابلة الى أنه من الناحية اللسانية يظهر لنا أنه من المستحيل ان يكون التقسيم العربي منقولاً من التقسيم اليوناني، لان عدد الاقسام ومضمونها يختلف في النظامين اختلافًا تامًا»[1].

ثم ينتقل الى النوع الثاني من الكلمات وهي المصطلحات النحوية الاربعة التي قال الذاهبون الى التأثر باليونانية إنها مأخودة عن النحو اليوناني ويقول: «ثم يجب علينا أن نتساءل هل كان من الممكن من الناحية اللغوية أن يكون النحاة العرب القدامى اخذوا من النحو اليوناني تلك المصطلحات الأربعة التي هي: الاعراب والصرف والتصريف والحركة"»[2] ثم يرد على هذا التساؤل بأن يعرض لهذه الكلمات كلمة كلمة في النحو اليوناني مُبيِّنًا ما يقابلها ومعناها واستعمالها، ثم يعرض لها عند علماء العربية كابن جني وسيبويه و الانباري وغيرهم ويستخلص في كل منها انها اصطلاح نحويّ عربي وينتهي الى القول بان «النحو اليوناني لم يستطع النحاة القدامى أن يعرفوه بطريقة مباشرة اذ إنهم كانوا يجهلون اللغة اليونانية ولم يكن لديهم كتاب في النحو اليوناني مترجم الى اللغة العربية، فلم يستطيعوا اذن أن يعرفوا النحو اليوناني الا بواسطة النحو السرياني» يضاف الى هذا ان النحاة السريان انفسهم كانوا يرون النحو العربي مختلفًا عن النحو اليوناني من جهة وعن النحو السرياني من جهة أخرى اختلافًا تامًا[3] وأن النحو اليوناني لم يستطع أن يؤثر على النحو العربي بواسطة النحو السرياني[4].

وكان أبلغ رد قال به وأصحه وأفضله قيامه باحصاء المصطلحات النحوية واللغوية والصوتية والصرفية في كتاب سيبويه خارج الشواهد الشعرية والقرآنية فوجد أن عدد ما استعمل منها في العلم بمعناه الاصطلاحي الف وستمائة لفظ منها ما يتعلق بالمفاهيم النحوية العامة كاقسام الكلام وأنواع الألفاظ وأحوالها، ومنها ما يتعلق بالمفردات المختصة بتركيب الجمل وتشمل الألفاظ التي تعنى بمواقع الالفاظ في الكلام ومجراها من ناحية العمل، ومنها المفردات المتعلقة بالتصريف ومنها التي تتعلق بالأصوات، وأخيرًا المفردات التي تتعلق بالمنهاج وهي أكثرها. واستخلص من هذه الاعداد الكبيرة للالفاظ والمصطلحات المستخدمة في أصناف علم العربية الواردة في كتاب واحد هو كتاب سيبويه خطأ المستشرقين ومن تابعهم الذين اعتمدوا على بضعة مصطلحات وصلت الى العشرة عند الجميع ليبرهنوا على مضارعة النظام العربي للنظام اليوناني وقال ما معناه: فما تعني

---

(١) نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه ١٢٨ وتنظر ص ١٢٧.

(٢) نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه ١٢٨-١٢٩.

(٣) نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه ١٢٩، ٢٣١، ١٣٢، ١٣٣.

(٤) نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه ١٣٣ و ١٣٤ و ١٣٥. والبحث من ص ١٢٥-١٣٨.

تلك العشرة بالنسبة الى المئات والمئات من المصطلحات التي كانت متداولة في لغة العرب؟ ان كل واحد من هذه المصطلحات الالف والستمائة جزء من نظام معقد ليس له معنى خارجا عن هذا النظام[١].

وهكذا استطاع هذا المستشرق الفرنسي المخلص في بحثه البعيد عن كل تعصب للعرب أو للثقافات الاجنبية ان يرد على ابناء العربية المتابعين للمستشرقين والسائرين في ركابهم في القول بهذا التأثر، وان يثبت انه من المستحيل أن يكون النحو العربي القديم في نشأته، الاصيل في وجوده قد اقتبس مصطلحات معدودة لا تتجاوز اصابع اليدين عدا من النحو اليوناني وقد اثبت الاستاذ «جيرارتروبو» ذلك بطريقة عملية علمية. ولم يكتف بهذا وانما كرر في ختام بحثه اعتقاده باصالة النحو العربي وعروبته واستقلاله عن العلوم الاخرى وعدم تأثره بالعلوم الاجنبية فقال: «وفي الختام فانا اعتقد ان علم النحو أعرب العلوم الاسلامية، وابعدها عن التأثير الاجنبي في طوره الأول، كما حاولت ان ابين ذلك في ضوء كتاب سيبويه ذلك الكتاب المشهور الذي هو أقدم كتب العرب في النحو»[٢].

أما القول بأن الحركات أو نقط أبي الأسود مأخودة من النحو السرياني فلا صحة له لانه كما نشأت مصطلحات النحو وأبوابه نشأة أولية نشأت الحركات أول امرها على شكل نقاط وسواء أقيل أن اصلها سرياني أم لم يقل، فانها تطورت على يد الخليل الى الحركات المعروفة عليها الآن وهي بهذه الصورة عربية خالصة لم يقتبسوها من أحرف الالسنة الاخرى بل اخذوها من الابجدية العربية فاستخدموا حروفها الصوتية مختصرة لتدل على الحركات فقد كان الخليل يرى أن الضمة بعض الواو والفتحة بعض الألف والكسرة بعض الياء. وهذا يثبت أن الحركات بانواعها عربية خالصة[٣].

مصطلح النحو:

وكما اختلف الباحثون في أصالة النحو العربي اختلفوا في كلمة «نحو» واصلها، فقال بعضهم أنها مأخودة من السريانية ويمثل هذا القول الازهري صاحب تهذيب اللغة وقد نقل ابن

---

(١) نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه ١٣٤-١٣٥، وينظر ١٣٤-١٣٨، في التعليق على نتائج احصانه.

(٢) نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه ١٣٨، وينظر ١٣٦-١٣٨.

(٣) ينظر مدرسة البصرة النحوية ١٠٥، وتأريخ آداب اللغة العربية، ٢١٢/١ وأبو الأسود الدؤلي للدجني ٢٨٤ وأبو الحسن بن كيسان ١١٠-١١٣، في عرض الآراء في الحركات.

منظور قوله ولم يعلق عليه[1]. ولكنه فيما يبدو عده عربياً وعرفه بقوله: «النحو: اعراب الكلام العربي والنحو: القصد والطريق، يكون ظرفًا ويكون اسمًا. نحاه ينحوه نحوًا واستنحاء، ونحو العربية منه انما هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير والتكبير والاضافة والنسب وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل العربية باهلها في الفصاحة فينطق بها وان لم يكن منهم. وان شذ بعضهم عنها رد به اليها. وهو في الأصل مصدر شائع، أي: نحوت نحوًا، كقولك: «قصدت قصدًا» ثم خص به انتحاء هذا القبيل من العلم، كما أن الفقه في الأصل مصدر فقهت الشيء أي عرفته، ثم خص به علم الشريعة من التحليل والتحريم»[2].

وقد كفانا الدكتور عبدالفتاح الدجني مؤونة الرد على الازهري ومن قال بقوله الذي لا أساس له من الصحة بعد ما رأينا من استعمال كلمة «نحو» و مشتقاتها في كلام العرب[3].

ولم يستعمل النحاة الأوائل فيما يبدو كلمة «نحو» للدلالة على هذا العلم وما يتبعه من دراسات خاصة به وانما استعملوا كلمة «العربية» في مقابل كلمة «نحو» وظلت مستعملة حتى أواخر القرن الرابع عند الزبيدي صاحب كتاب «طبقات النحويين واللغويين» بقي يستعملها في عباراته الخاصة، مع استعماله كلمة «نحو»[4].

واستعملت كلمة «نحو» أو ما اشتق منها منذ زمن أبي الأسود الدولي وعلي بن أبي طالب، فالروايات وردت بقول ابي الأسود «لا أظن يسعني الا أن أضع شيئًا أصلح به نحو هذا، أو كلام هذا معناه فوضع «النحو» أو قوله بعد وضع ابواب من العربية «انحوا هذا النحو» أوقول علي (رضي الله عنه) لابي الاسود بعد أن دفع اليه الصحيفة التي وضع فيها بعض اقوال في النحو: «انح هذا النحو»[5].

وقد فصل الدكتور عبدالفتاح الدجني القول في استعمال هذه الكلمة ونقل الآراء في ذلك وناقشها، وفعل الدكتور محمد خير الحلواني مثل ذلك فاغنيانا عن اعادة الكلام عليه[6].

وتحدّث الباحثون المحدثون عن سبب تسمية هذا العلم «نحوًا» وناقشوا ذلك وذهبوا أكثر من

---

(١) لسان العرب (نحا) وتهذيب اللغة (نحا).

(٢) لسان العرب (نحا).

(٣) ينظر أبو الأسود الدؤلي للدجني، ١٦-١٩ وفيه تفصيل لذلك.

(٤) ينظر طبقات النحويين واللغويين ٣ و ٤ و ١٤ و ٢٥ و ٣٠ و ٣٤ وغيرها.

(٥) تنظر هذه العبارات وامثالها في ترجمة ابي الاسود في كتب طبقات النحاة وكتب النحو ومنها: مراتب النحويين ٥ و ١٢ و ١٣ والايضاح في علل النحو ٨٩ ونزهة الالباء ٢ وغيرها.

(٦) ينظر أبو الأسود الدؤلي ٢٠-٢٣ والمفصل في تاريخ النحو العربي، ١٤.

مذهب[1] والذي اراه أن الصحيح فيه من بين هذه الاقوال ما ذهب اليه القدماء وما نقله ابن النديم من انه: «انما سمي النحو نحوا؛ لان ابا الاسود الدؤلي قال متحدثا عن علي- رضي الله عنه- وقد ألقى اليه شيئًا في أصول النحو، قال أبو الاسود «فاستأذنته أن اصنع نحو ما صنع» فسمي ذلك نحوًا وقول ابي الأسود عندما سمع قارئًا يقرأ: «ان الله بريء من المشركين ورسوله» -بكسر اللام-: «لا اظن يسعني الا أن أضع شيئًا أصلح به نحو هذا، أو كلام هذا معناه، فوضع النحو»[2] فهذه الاقوال واضحة الدلالة على هذا الاشتقاق الذي رأيناه في استعمال العرب لكلمة «نحو» ومشتقاتها عند ابن منظور.

نشأة النحو:

نشأت في البصرة دراسات قرآنية كانت تهتم بإقراء القرآن ودراسة قراءاته ومناقشتها، وتفسير آياته وتخريجها على ما ورد في كلام العرب من معان للالفاظ أوظواهر اسلوبية توضح اختلاف قراءاته، هذه الدراسات التي أوجدتها وفرعتها مدرسة الاقراء والتفسير في البصرة كانت الباعث على نشوء البذرة الأولى للدراسات اللغوية والنحوية. وقد مرت هذه الدراسات بمراحل:

١- جمع القرآن الكريم وتوحيد نصه: تم جمع القرآن الكريم في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه من صدور الحفاظ ومما كتبه الصحابة من المصاحف الخاصة بهم، ووحد نصه وعملت منه نسخ وزعت على الامصار الاسلامية. وتعد هذه الخطوة الأولى في العمل القرآني لحفظه بتوجيه من اللّه سبحانه وتعالى حيث يقول: «انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون»[3] ويقول : «ان علينا جمعه وقرآنه»[4]، وبِهِمَّةِ المسلمين والقائمين بالامر في ذلك الحين، حيث يسر الله عليهم أمر جمعه والعناية به وهيأ له من يقوم بخدمته ويحافظ عليه مما قد يتسرب اليه من الزيادة أو النقصان[5].

---

(١) ينظر تفصيل هذه الآراء في المفصل في تاريخ النحو العربي، ١٤-١٦، وأبو الاسود الدؤلي ١٩-٢٤.

(٢) الفهرست ٤٥ وينظر مراتب النحويين ٨.

(٣) الحجر، ٩.

(٤) القيامه، ١٧.

(٥) ينظر الإتقان في علوم القرآن، ١/٥٨ وما بعدها.

٢- **إقراؤه وتفسيره:** واستتبعت عملية الجمع هذه عمليات اخرى كثيرة كان أولها العناية بقراءته قراءة صحيحة. وحفظه حفظًا واعيًا ثم العمل على تفسيره تفسيرًا لفظيًا لفهم معاني المفردات القرآنية التي وردت في آياته في أكثر من موضع وتكرر بعضها في أكثر من آية ولأكثر من معنى، ثم تفسيره تفسيرًا عامًا معتمدًا على ما عرفه الصحابة رضي الله عنهم من حوادث ومناسبات وظروف وأشخاص كانت سببًا في نزول بعض الآيات، وموضحة لما جاء بها من معان. وتطور ذلك الى العناية بدراسته دراسة واعية والتفهم لمعانيه الظاهرة، والغوص على معانيه الباطنة التي كانت تحتاج الى فهم ما يحيط بالآيات ومن ثم استنباط ما تتضمنه هذه الآيات الكريمة من أحكام دينية أو دنيوية. وقد كانت هذه الدراسات يأخذ بعضها برقاب بعض، ويبنى التالي منها على السابق ولهذا فقد ملأ القرآن منذ نزوله الحياة العقلية والنشاط الفكري للمسلمين قاطبة، وأوجد العلماء الذين انصرفوا عن كل ما في هذه الدنيا من مباهج الى الانكباب عليه والعمل على دراسته وتوضيح احكامه فهو دستور المسلمين وحافظ علاقاتهم ومسيِّر حياتهم ومصرِّف شؤونهم.

ولما كان القرآن الكريم قد نزل «بلسان عربي مبين»(١) كان لابد من أن يفسر باللغة التي نزل بها وهي اللغة العربية. ومن المعروف أن القرآن العزيز نزل بأفصح اللغات وهي لغة قريش، اللغة العربية التي جمعت الفصاحة والبلاغة والصفاء والنقاوة، واختارت ما هو فصيح من لغات القبائل الاخرى، وتركت ما استهجن من ظواهر في هذه اللغات وما استضعف منها، وكان لزاما على من يريد فهمه واستبطان معانيه أن يفسرها بلغات القبائل العربية الفصيحة وبأساليبها المختلفة في التعبير عن المعنى الواحد أو المعاني المختلفة، ولم يكن لهم بدّ من أن يجمعوا هذه اللغة من اصحابها المتكلمين بها انفسهم لا ممن يروونها عنهم، لان الراوي للغة قد يحرف بعض ماسمعه منها نتيجة غلبة لسانه أو طبيعة لهجته فلا يؤمن منه التحريف.

كانت الخطوة الأولى في سبيل هذا هي خروج علماء المسلمين من مفسرين وشراح ورواة وقرّاء الى البادية للسماع عن العرب الفصحاء اصحاب اللغات التي حافظت على سلامتها ونقاوتها وبعدت عن التأثر بلغات اخرى تأثرًا يفسدها ويجعلها غير صالحة لحمل معاني القرآن واساليبه عليها، وقد قام هؤلاء العلماء بالسماع عن اصحاب هذه اللغات وبتسجيل كل ما يسمعونه منهم، خالطوهم في حياتهم العامة وفي حياتهم العملية آكلوهم وشاربوهم وصحبوهم في مرعاهم ليستطيعوا الالمام بكل المفردات والعبارات التي يستخدمونها في شتى مجالات حياتهم البدائية السهلة، وهكذا عادوا بهذا المتاع الضخم الثمين الذي اصبح عدتهم ومعينهم الأول في دراساتهم القرآنية المبنية على تفسير الفاظه وفهم معانيه. والى جانب هذا الذي جمعوه من البوادي كانوا

---

(١) الشعراء، ١٩٥.

يسمعون في المِربَد قصائد الشعراء وخطب الخطباء ولغات الأعراب الذين كانوا يفدون عليه في المواسم التي تعقد فيه ويحضرها علماء اللغة والنحو ويضيفون هذا الى مسموعاتهم ويدخلونه في مدوناتهم وكان الدافع الى هذا كُلِّه حرص علماء المسلمين على ضبط النص القرآني والعمل على تفسير قراءاته والتمييز بينها وإفهام كل هذا للمسلمين الداخلين في هذا الدين من ابناء الجنسيات المختلفة الذين لم يكونوا ليستطيعوا فهمه من غير استعانة بهؤلاء العلماء ، وعلى هذا فقد اخذ هؤلاء العلماء بعد استقرار الفتوح واستتباب الاحوال ينظمون حلقات في المساجد ويعقدون المجالس ويجلسون في هذه وتلك يُقرئون هؤلاء المسلمين الموالي وغيرهم القرآن الكريم القراءة الصحيحة ويعملون في الوقت نفسه على تفسير ألفاظه وما تحمله من معان مفردة، ثم توضيح المعنى الذي أُوصل اليه هذا التفسير، مستعينين على ذلك كله بكلام العرب الذي وردت فيه هذه الالفاظ من عبارات منثورة والفاظ مفردة وحكم وأمثال وعبارات وردت في خطب الخطباء،وكان أول من فسر القرآن مستعيناً بالشعر كما قيل عبدالله بن عباس، واتّبع كثير من القراء والمفسرين طريقته لايضاح ما جاء في قراءتهم، ولهذا كانت مجالس الاقراء تغص بالمستمعين من مختلف الأجناس يستمعون ويدونون ويناقشون.

٣- نقطه نقط الإعراب:

ولما كانت اللغة العربية المنطوقة في جميع البيئات العربية لغة معربة هذا الاعراب الذي أوجدته السليقة العربية ونشأ عليه ابناؤها واعتادوا التعبير به عن المعاني التي يقصدون إليها عندما يتحدثون،ويفهمون به ما يرمي اليه المتكلم عندما يخاطَبون، أو الكاتب حينما يقرأون[١]، ولما كان الخط الذي كتبت به المصاحف غير معرب، لانهم لم يضعوا علامات في كتاباتهم توضح للقارىء العربي كيف ينطق هذه اللغة المكتوبة، وانما كان يقرؤها: صحيحة على سليقته، وفي القرآن كان المسلمون يقرأون المصاحف المكتوبة معتمدين على الحفظ والرواية والسليقة إن كانوا عربا، ولهذا واجه المسلمون من غير العرب صعوبات شتى في قراءة القرآن الكريم ومحاولتهم حفظه وتعلمه، ولاسيما ما كان بعد توسع رقعة الدولة الاسلامية وكثرة الداخلين في الاسلام ففكر علماء المسلمين في طريقة يعينون بها القارىء على القراءة الصحيحة التي تبعده عن اللحن وتجنبه الخطأ. واستطاع أبو الاسود الدؤلي (-٦٩هـ) بحثٍّ من الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم وولاتهم على العراق ولا سيما البصرة أن يبتدع طريقة نقط المصحف وقد تم ذلك بمساعدة كاتب نبيه متيقظ كان يتابع حركة شفتي

---

(١) هذا على رأي من يرى أن الإعراب أدلة على المعاني وهو ما ذهبت اليه. وفي ذلك أكثر من قول.

أبي الأسود في أثناء قراءاته آيات القرآن الكريم ويضع العلامات كما علّمه أبو الأسود بقوله: «اذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة على اعلاه واذا ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف واذا كسرت فمي فاجعل النقطة تحت الحرف، فان أتبعت شيئًا من ذلك غنة فاجعل النقطة نقطتين»، فابتدأ أبو الاسود يقرأ والكاتب ينقط حتى أتما نقط المصحف[1]. وهذا ما سمي فيما بعد «نقط أبي الاسود» أو «نقط الاعراب».

وقد اخذ القراء من معاصري ابي الأسود وتلاميذه في تعليم الناس عليه واشاعته بين الدارسين، وأصبح من السهل عليهم قراءة المصحف من غير خطأ إعرابي.

٤- نقطه نقط الإعجام:

اخذ المسلمون يقرأون المصاحف مستهدين بنقط أبي الاسود فواجهتهم صعوبة اخرى، ذلك أن مجموعات من حروف الهجاء العربي تتشابه في الخط وتختلف في النطق، وكان القرآن الكريم المكتوب شأنه شأن ما كان مكتوبًا من الكلام العربي -كما هو معروف- مهمل الحروف لا تمييز فيه بين الحروف المتشابهة الخط المختلفة النطق لذا عسر على غير العربي التمييز بين هذه الاحرف المتشابهة، وأدى بهم ذلك الى نشوء التصحيف في أحيان كثيرة ولكي يحافظ علماء المسلمين على القرآن الكريم من التصحيف انتدب الحجاج هؤلاء العلماء للتفكير في طريقة لوضع علامات تميز هذه الحروف، فهب إلى ذلك نصر بن عاصم الليثي فجمع الحروف العربية وأحصاها ثم صنفها الى مجموعات متشابهة وميّز بينها بالنقاط أيضًا فوضعها افرادًا وأزواجًا وخالف في اماكنها فوضع بعضها فوق الحروف وبعضها الآخر تحتها وكان ترتيب نصر هذا بداية الترتيب المعروف اليوم بالترتيب الألفبائيّ الذي رتبت فيه الحروف على هذه الصورة فيما بعد: أ، ب، ت، ث، ج، ح، خ، د، ذ، ر، ز، س، ش، ص، ض، ط، ظ، ع، غ، ف، ق، ك، ل، ......) وهكذا أتم نصر هذه الخُطوة[2]. ولما خيف التباس نقط الاعراب الذي وضعه أبو الأسود بنقط الاعجام الذي وضعه نصر بن عاصم أخذ علماء المسلمين يميزون بين النَّقطَيْن باستخدام حبر مخالف في اللون، حتى جاء الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي تنبه بذهنه الوقاد وبملاحظته الدقيقة لنطق الحروف العربية اللينة على أن الفتح أو الضم أو الكسر -كما سماها أبو الأسود انما هو نطق مخفف للألف والواو والياء فرمز للفتحة بما هي جزء منه وهي الألف وجعلها صغيرة مائلة فو الحرف، ورمز للضمة باصلها وهي الواو الصغيرة

---

(١) مراتب النحويين، ١٠-١١، وتنظر معظم كتب التراجم التي ترجمت لابي الاسود.

(٢) ينظر شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف العسكري ١٣، ووفيات الاعيان ١/٣٤٤، ترجمة الحجاج، رقم الترجمة (١٤٤).

فوق الحرف ايضاً، والكسرة بما هي جزء منها ايضاً وهي ياء راجعة استغنى اخيراً عن احد شقيها توضع تحت الحرف[1]. وانما وضع الخليل هذه العلامات التي ترجم بها ما عبر عنه أبو الأسود بقوله (فتحت، ضممت، كسرت) بناء على ما كان يراه من أن «الفتحة والكسرة والضمة زوائد... فالفتحة من الألف والكسرة من الياء والضمة من الواو»[2] أما عدم الحركة فسماه «البناء» وهو الساكن الذي لا زيادة فيه[3] ولهذا لم يضع له أبو الأسود علامة، وترك نقطه فهو خال من الحركة. ووضع الخليل لما نعرفه اليوم بالتنوين، ولما سماه أبو الاسود بالغنة علامة ثانية مشابهةً للعلامة الموجودة عند الغُنَّة، فوضع فتحةً ثانية للمفتوحِ بِغُنَّة وضَمَّةً ثانية للمضموم بغنة وكسرة ثانية للمكسور بغنة، وهو ما نعرفه اليوم بتنوين الفتح أو الضم أو الكسر.

بعد هذا نستطيع أن نقول -غير معتمدين على قول سابق -أن نقط أبي الأسود هذا الذي سمي «نقط الاعراب» لم يكن قد وضع من أبي الاسود ارتجالاً بلا سابق تفكير، أو اتباعاً لما عند الاقوام الاخرى كما زعم بعض الزاعمين وانما المنطقي القريب الى الواقع والعقل أن يكون ابو الأسود قد فكر زمناً طويلاً ولاحظ نطق الكلمات والحروف الواردة في كلام الناس أو الواقعة في آيات القرآن الكريم وتغيراته. وراقب حركة شفاه الناطقين بهذه الآيات وميز مواقع فتح الشفتين ومواقع ضمهما ومواقع كسرهما هذه الحركة التي اشتق منها «فتحت فمي وكسرت فمي وضممت فمي» كما لاحظ ان هذه الحركات للفم أو للشفة تصحبها غنة لكنها في الأصل مع فتح أو كسر أو ضم فاعطاها نقطة اخرى توضع مع الاصلية في الموضع نفسه «فوق الحرف» أو «بين يدي الحرف» أو «تحت الحرف» وهو ما ترجمه الخليل «بالفتحتين» و «الضمتين» و «الكسرتين» بعد أن لاحظ أيضاً أن نطق المفتوح جزء من نطق الالف، ونطق المضموم جزء من الواو ونطق المكسور جزء من الياء، ومعنى ذلك أن نقط أبي الأسود ما هو الا بداية التفكير في وضع ابواب النحو.

واضع النحو:

اتسعت رقعة الدولة الاسلامية بالفتوحات التي تمت في عصر الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، واختلط العرب في هذه الامصار المفتوحة بغيرهم من الاجناس والقوميات ولاسيما في البصرة الواقعة على طريق التجارة بين بلاد العرب من جهة والهندوالصين وبلاد فارس من جهة اخرى فتعددت الالسن واختلطت واحتاجت هذه الاقوام الى تعلم لغة الدين العظيم لكي تستطيع قراءة كتابه الكريم الذي لا تتم الصلاة الا بتلاوة بعض آياته، ولا يستطيعون معرفة اركان دينهم

(١) ينظر أحياء النحو، ٨٠-٨١.
(٢) الكتاب، ٤/٢٤١-٢٤٢.
(٣) الكتاب، ٤/٢٤٢.

واصوله وما حُلِّلَ وما حُرِّم وما أُثبت وما نُهي عنه الا بقراءته قراءة تفهُّم وتعمُّق في ألفاظه وعباراته ودلالتها.

لم يفكر المسلمون الأوائل: الخلفاء الراشدون والصحابة والتابعون بذلك في أول الأمر فلما استتب الامن وانتهت الفتوح واستقر الناس في الامصار وانصرف المسلمون الى امور دينهم ودنياهم لاحظ ولاة الامور وعلماء المسلمين ما تركته هذه الفتوحات من آثار سيئة طرأت على اللسان العربي لاختلاط العرب بالاقوام المسلمة أدت الى ظهور اللحن وانتشاره وفساد الالسن بذلك، ولم يقتصر الامر على خطئهم في الكلام وانما امتد الى قراءاتهم لآيات الكتاب العزيز ولاحظ المسلمون من حكام وعلماء هذا ففكروا في وضع علامات تعصم ألسنة العرب من الزيغ والخطأ، وتبعد غير العربيّ عن اللحن في كتاب الله فتمت أول خطوتين في صيانة الكتاب العزيز وهما نقط الاعراب الذي عد بداية التفكير النحوي، ونقط الاعجام.

واختلف المؤرخون قدماء ومحدثين في أول من وضع ابوابا من النحو أو تحدث فيه فكان بين أيدينا أكثر من رأي نذكرها بحسب قدم من نسب اليه وضعه:

الأول: يرى اصحابه أن عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه هو الواضع الأول لعلم النحو.

الثاني: يرى أن أبا الاسود الدؤلي هو الواضع لهذا العلم ويذكر معه نحويَّيْنِ آخَرينِ شاركا في هذا العمل هما: نصر بن عاصم الليثي وعبدالرحمن بن هرمز.

الثالث: يرى اصحابه أن أبا الاسود الدؤلي وحده هو الواضع لعلم النحو.

ولابد لنا قبل تحديد هذا الواضع من أن نعرض لهذه الروايات ومن قال بها، فقد كانت الرواية الأولى جاءت عند مؤرخي القرن الرابع قال أبو القاسم الزجاجي (-٣٧٧هـ) في أماليه: «حدثنا أبو جعفر محمد بن رستم الطبري قال: حدثنا أبو حاتم السجستاني... عن ابي الاسود قال: «دخلت على امير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه فرأيته مطرقا مفكرا، فقلت: فيم تفكر يا أمير المؤمنين؟ فقال: «اني سمعت ببلدكم هذا لحنًا فأردت أن أصنع كتابا في أصول العربية. فقلت: ان فعلت هذا أحييتنا وبقيت فينا هذه اللغة. ثم أتيته بعد ثلاث فألقى إليَّ صحيفة فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم، الكلام كله اسم وفعل وحرف، فالاسم ما أنبا عن المسمى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل. ثم قال: تَتَبَّعْهُ وزد فيه ما وقع لك. واعلم يا أبا الاسود أن الأسماء ثلاثة: ظاهر ومضمر وشيء ليس بظاهر ولا مضمر وانما تتفاضل العلماء في معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر. قال أبو الأسود: فجمعت منه اشياء وعرضتها عليه فكان من ذلك حروف النصب فذكرت منها: «إنّ وأنّ وليت ولعلّ وكأنّ» ولم اذكر «لكنّ» فقال لي: لم تركتها؟

فقلت: لم احسبها منها، فقال: بل هي منها، فزدها فيها»[1].

وترد في العصر نفسه رواية أبي الطيب اللغوي (-٣٥١هـ) التي تقول «أول من رسم للناس النحو أبو الأسود الدؤلي... وكان أبو الأسود اخذ ذلك عن أمير المؤمنين علي عليه السلام لانه سمع لحنا فقال لابي الأسود اجعل للناس حروفا واشار له الى الرفع والنصب والجر. فكان أبو الأسود ضنينًا بما أخذ من ذلك عن امير المؤمنين عليه السلام»[2].

ولا يخرج مافي الكتب المتأخرة عن هذين عما جاء في هاتين الروايتين اللتين لم يقل بهما المؤرخون الأوائل، والذي يبدو أن رواية الزجاج مفتعلة لا تثبت عند المناقشة والجدل، لانه من غير المعقول أن يكون الامام علي قد وضع أول ما وضع هذه التحديدات والرسوم والتقسيمات الناضجة المحددة للكلام واقسامه وتحديدكل قسم بلا أمثلة انما بتحديد نظري لم نجد مثله في كتاب سيبويه الذي جاء بعد عليٍّ (رضي الله عنه) وقوله هذا بمائة وأربعين سنة، وكذا تقسيمه الاشياء، أو الاسماء، الى ظاهر ومضمر غير منطقي ولا معقول وجوده في زمن كزمن الامام علي. أما وضع أبي الأسود لحروف النصب ونسيانه «لكنَّ» وقول عليٍّ له: «هي منها فزدها فيها» فيدل على أن النحو قد بلغ في أيامهما أوج نضجه واكتماله؛ لهذا فالرواية غير واقعية ولا مقبولة.

أما الرواية الثانية التي جاء بها أبو الطيب اللغوي فلا تثبت لعليّ بن أبي طالب دوراً في وضع النحو إلاّ دور المَوجّه والمشجّع لابي الاسود على هذا العمل وتجدر هنا ملاحظة أن الروايتين وردتا عندالمتأخرين للمرة الأولى.

أما الروايات التي تنسب وضع النحو الى أكثر من واحد بينهم أبو الأسود فهي متأخرة[3] ايضًا، وكان أول من قال بها أبو سعيد السيرافي (-٣٦٨هـ) الذي كان هو نفسه شاكا فيها، قال: «اختلف الناس في أول من رسم النحو، فقال قائلون: أبو الأسود الدؤلي، وقال آخرون: نصر بن عاصم الدؤلي وقيل الليثي، وقال آخرون: عبدالرحمن بن هرمز، وأكثر الناس على أبي الاسود»[4] وتابعه على القول بذلك الزبيدي (-٣٧٩هـ) وزاد فيها: «فوضعوا للنحو أبوابا، فذكروا عوامل الرفع والنصب والخفض والجزم، ووضعوا أبواب الفاعل والمفعول والتعجب والمضاف[5]». ثم تابعهما من جاء بعدهما ممن قال بهذا القول.

---

(١) امالي الزجاجي ٢٣٨-٢٣٩ والاشباه والنظائر/٨-٩.

(٢) مراتب النحويين، ٦.

(٣) ينظر في تعليل هذه الرواية وتفسيرها الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي، ٨٥.

(٤) أخبار النحويين البصريين، ١٧.

(٥) طبقات النحويين واللغويين، ٢.

والذي يبدو من هاتين الروايتين أن تعاصر هؤلاء الثلاثة هو السبب المباشر في التباس الأمر على المؤرخين اللذين جاء أولهما بعدأبي الاسود بثلاثمائة سنة وهي كافية للاختلاق والتزيد، اما الزبيدي فيظهر لي أنه أخذ ما نسب وضعه الى أبي الاسود في روايات ذكرها سابقوه من أبواب النحو ونسب وضعها الى هؤلاء جميعا لكي تتم لهم المشاركة والمتابعة له في تطبيق نقط المصحف نقط الاعراب[1].

أما أبو الأسود الدؤلي فقد اثبت له المؤرخون وكتّاب التراجم والباحثون في الاعمال القرآنية نقط المصحف نقط الاعراب، وكانت جميع روايات المؤرخين تذكره عند تعرضها لوضع النحو سواء أذكرته وحده ام مع الامام عليّ أم مع معاصريه، وقد كان ذلك منذ أول نص وصل الينا يتحدث صاحبه فيه عن النحو والنحاة حتى يومنا هذا.

كان أول من تعرض للحديث عن نشأة النحو ابن سلام الجمحي (١٣٩-٢٣١هـ) قال: «وكان أول من أسس العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها ووضع قياسها أبو الاسود الدؤلي[2]» ثم قال: «فوضع باب الفاعل والمفعول به والمضاف وحروف الرفع والنصب والجر والجزم»[3]. وقال ابن قتيبة (-٢٧٦هـ): «وهو أول من وضع العربية»[4].

وهذان أقدم المترجمين لأبي الأسود وأقربهم زمنًا اليه، وذهب مذهبهما المبرد (-٢٨٥هـ) فقال: «وذكر أن السبب الذي بني له أبواب النحو وعليه أُصّلت أصوله أن ابنة ابي الاسود قالت: يا أبتِ ما اشدُّ الحرِ؟ قال: الحصباءُبالرمضاء. قالت: انما تعجبت من شدته. قال: أَوَقَد لحن الناس؟ فأخبر بذلك عليا -رحمة الله عليه- فاعطاه اصولا بنى عليها وعمل بعده عليها.... وأبو الاسود أول من نقط المصاحف»[5] فقول المبرد هذا مبني على أن أبا الاسود واضع النحو، وهو قريب العهد من سابقيه.

ويذكر أبو الطيب اللغوي (-٣٥١هـ) روايات اخرى تُجمع على أن ابا الأسود هو الواضع لعلم النحو ولا تشير الى عليٍّ أو غيره[6]، وذكر أبو سعيد السيرافي (-٣٨٥هـ) بعد الرواية التي تشير الى اختلاف الناس في واضع النحو روايات متعددة تُجمع على أن أبا الاسود هو الواضع

---

(١) ينظر تفصيل هذا في الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي، ٨٤-٨٥.

(٢) طبقات فحول الشعراء، ١٢/١ وينظر المصون، ١١٨.

(٣) طبقات فحول الشعراء، ١٢/١.

(٤) المعارف ٤٣٤.

(٥) الفاضل، ٥.

(٦) ينظر مراتب النحويين ٦-١١.

لعلم النحو بعد قوله في الرواية السابقة «وأكثر الناس على أبي الاسود»[1].

ومع قول الزبيدي (-٣٧٩هـ) بكونِ أبي الأسود ومعاصريه مشتركين في وضع النحو متابعاً في ذلك السيرافي فانه ينص على أن «أبا الاسود أول من أسس العَربية ونهج سبيلها ووضع قياسها وذلك حين اضطرب كلام العرب وصار سراة الناس ووجوههم يلحنون فوضع باب الفاعل والمفعول به والمضاف وحروف النصب والرفع والجر والجزم» ويقول: «وكان لابي الاسود فضل السبق وشرف التقدم» وأورد روايات اخرى كثيرة تثبت لابي الاسود هذا السبق بِحَثٍّ من عليّ أو من زياد، أو بدافع ذاتي لسماعه بعض اللحن من ابنته وغيرها[2].

وعلى هذا فاننا نقول استناداً الى الروايات الكثيرة الواردة في وضع أبي الاسود للنحو أن أبا الاسود هو الذي يصح أن يُعدّ واضع النحو والمؤسس الحقيقي له، ولا يعنينا بعد ذلك ان كان عمله هذابدافع ذاتيّ أم بحثٍّ من الامام علي أو من زياد أو ابنه عبيد الله. ونؤيد كلامنا هذا بما ذكره ابن النديم (-٣٨٥هـ) وهو يتحدث عن اتصاله برجل جمّاعة للكتب لديه خزانة بها مصنفات قديمة وخطوط لعلماء كثيرين متقدمين ويختم الخبر بقوله، «ورأيت ما يدل على أن النحو عن أبي الاسود ما هذه حكايته، وهي أربعة أوراق أحسبها من ورق الصيني ترجمتها: هذه فيها كلام في الفاعل والمفعول عن أبي الاسود -رحمة الله عليه بخط يحيى بن يعمر، وتحت هذا الخط بخط عتيق: هذا خط علان النحوي وتحته هذا خط النضر بن شميل. ثم لما مات الرجل فقدنا القمطر وما كان فيه فما سمعنا له خبرا ولا رأيت منه غير المصحف، هذا على كثرة بحثي عنه»[3]، وفي قول ابن النديم هذا الصادر عنه نفسه ولم يكن قد رواه عن أحد أكبر دليل على صدق الرواية، ويؤكد صدقها ايضاً كون الأوراق بخط يحيى بن يعمر الذي اشتهر عنه أنه كان يعتمد التدوين في سماعه عن الشيوخ والمعاصرين[4].

---

(١) ينظر اخبار النحويين، ١٧ وما بعدها و ١٢ و ١٣-١٤ و ١٦.

(٢) ينظر طبقات النحويين واللغويين ١٣ و ١٤ و ١٥ و ٢٠ - ٢١.

(٣) الفهرست، ٤٦.

(٤) تنظر الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي، ٨٦-٨٧. وهناك رأي يرى اصحابه أن النحو كان موجودا في القديم واتت عليه الايام وقل في ايدي الناس. فلما جاء أبو الاسود أحياه، ينظر الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس ٣٨ ومصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية لناصر الدين الاسد ٣٤-٣٦ وغيرها. ولا نرى فائدة من الاطالة بذكره، لانه مبني على مبدأ ابن فارس في أن اللغة توقيف وليست من وضع الناس المتأخرين.

أبو الاسود:

هو ظالم بن عمرو بن سفيان الدؤلي ولد في الجاهلية وعاصر الرسول (ﷺ) لكنه لم يقابله وصحب عليًا وكان من شيعته ومن العاملين بتوجيهاته وهو من أفصح الناس، وكان يقول: «أني لاجد للحن غَمَرًا كغَمَر اللحم»[1] توفي سنة ٦٩هـ وهو الواضع لنقط المصحف نقط اعراب، هذا النقط الذي يدل دلالة واضحة على أنه وضع بعدجهد كبير بذله أبو الاسود في ملاحظة كل كلمة في آيات القرآن الكريم وكيف نطقت وميز مواضع الرفع من مواضع النصب أو الجر أو الجزم، ولاحظ المنون وغير المنون، ومعنى هذا انه تنبه على أن هناك أدوات يأتي بعدها الفعل منصوبًا واخرى يأتي بعدها الفعل مجزومًا، وأدوات يأتي بعدها الاسم مجرورًا واخرى يأتي بعدها اسمان منصوب ومرفوع، وذلك بتكرار قراءته للقرآن وإقرائه وتعليم الدارسين ضبطه، ولابد من أن يكون قد أثبت ما لاحظهُ من ذلك في أوراق اطلع عليها معاصروه أو تلاميذه فقالوا انه ذكر عوامل الرفع والنصب والخفض والجزم، وبأنه ذكر (إنّ وأنّ وليت ولعلّ وكأنّ) ثم استدرك عليه علي رضي الله عنه (لكنّ) والواضح أن القول بهذا لا يعني وضعها على الصورة المبوبة المفصلة التي وصلت الينا في كتاب سيبويه وغيره، أو على الصورة الناضجة التي وردت في رواية الزجاجي.

ويظهر ايضًا انه وضع باب: (الفاعل والمفعول به) بعد سماعه قراءة قوله تعالى «لا يأكله الا الخاطئون»[2] بالياء. أو ما قاله رجل جاء الى زياد وذلك: «توفي أبانا وترك بنونًا»[3] وأنه وضع باب العطف عند سماعه قراءة «ان اللّه بريء من المشركين ورسوله»[4] -بكسر اللام والهاء- ووضع بابي التعجب والاستفهام عندسماعه قول ابنته: «يا أبتِ ما اشدُّ الحرِّ؟» وهي تريد التعجب، وقد يكون وضع باب الفاعل أو التأنيث أو الاضافة عند سماعه قول القائل «سقطت عصاتي». وليس معنى هذا انه وضع ابوابا كاملة كما يفهم من تعبير الرواة بقولهم «وضع باب كذا....» وانما يعني انه تكلم عليه ببعض ما عنده، ولا نتوقع منه أن يشرح ويُؤَصِّلَ ويمثل كما في كتاب سيبويه أو كتب ابن مالك.

---

(١) أخبار النحويين البصريين، ١٤.

(٢) الحاقة، ٣٧.

(٣) تنظر معظم كتب الطبقات مثل اخبار النحويين البصريين، ١٣ وطبقات النحويين واللغويين ١٤.

(٤) التوبة، ٣.

الدوافع الى نشأة النحو:

تبين لنا من الروايات التي تحدثت عن وضع أبي الأسود لبعض ابواب من النحو، وعن وضع نقط المصحف أن الدافع اليهما ما سمعه ابو الاسود أو احد أولي الامر من المسلمين من قراءات قرآنية أو عبارات لحن الناطقون بها فحرضهم ذلك على البحث عن وسائل تحفظ كتاب الله وتحميه من التحريف، ولم يكن الحفاظ على القرآن هو الدافع الوحيد الى التفكير في وضع قواعد وأصول لحماية اللغة وضبطها، وإنما كانت هناك دوافع اخرى تضافرت جميعا على القيام بهذاالعمل الجليل وأوضح هذه الدوافع:

١- **الدافع الديني:** وهو الدافع الرئيس والسبب المباشر الذي ادى الى التفكير في وضع ما يسمى بعلم العربية على اختلاف فروعه وعلومه من اصوات ولهجات ومعجمات وغريب وصرف ونحو، فقد كانت خشية المسلمين على كتابهم أن يصيبه اللحن في قراءته أو التصحيف في أحرفه فيؤدي ذلك الى تحريف آياته وتغيير المفهوم منها وبذلك تتغير الاحكام المأخوذة منه والمبنية عليه ويصبح المفهوم من الآية كفراً وهو ايمان أو حراماً وهو حلال، ولهذا انصرف هؤلاء العلماء الى بذل الجهود في جمع اللغة ورواية الاشعار والغريب وتصنيف هذه المادة اللغوية، والاستفادة منها في تفسير القرآن الكريم وضبط نصوصه وتوجيه قراءاته على ما يرد في كلام العرب من إمالة وإدغام ومد وهمز وما اليها.

٢- **الدافع الاجتماعي:** ويأتي هذا الدافع مكملاً للدافع السابق ومرتبطاً به أشد الارتباط وأوثقه، فقد كانت البيئات الاسلامية كافة تغص بالقوميات المختلفة التي كانت تسكن في البلاد المفتوحة أو التي هاجرت اليها بعد الفتوح الاسلامية ولا سيما البصرة التي كثرت فيها الاجناس لوقوعها على الطريق الموصلة الى الهند والصين وبلاد فارس شرقا والاحباش وغيرهم غربا، وانتشرت نتيجة لتجمع هذه القوميات المختلفة لغات متعددة أثرت في ألسنة العرب الذين يخالطونهم في شتى مجالات الحياة فأخذت تنحرف عن اللغة الفصحى لغة القرآن الكريم والعرب الفصحاء فخشي علماء المسلمين على لغة القرآن من أن يصيبها التحريف نتيجة هذا الاختلاط ولكثرة الداخلين في الاسلام من الذين يؤدي بهم جهلهم باللغة الى الخطأ في قراءة القرآن فأخذوا يبذلون الجهود في سبيل ضبط اللغة وابعاد اللحن والخلل عن ألسنة العرب وتصحيح ألسنة غيرهم. وكان لرغبة الداخلين في الاسلام في تعلم العربية لغة القرآن والعبادات الدينية ولغة الدولة الحاكمة ليصلحوا بها أمور دينهم وليستطيعوا مشاركة العرب في ادارة شؤون الدولة وفي الامور الثقافية أثر كبير في أن يعمل الجميع جاهدين على وضع هذه العلوم ووضع الضوابط والاسس والقواعد والاصول واستعمال الجميع لها.

٣- الدافع اللغوي القومي: كان في البلاد العربية عند نشوء اللحن ووقوعه في اللغة العربية ثلاث لغات متداولة: ١- اللغة المحكية في الحواضر حتى نهاية القرن الأول أو اللغة المثالية وهي التي تسمى «اللغة الادبية» لغة الشعر والخطب والمواعظ وما اليها من فنون الادب وهذه تتقيد بالاعراب وضوابطه فلا تخل بشيء منه، ولا تستخدم الظواهر اللهجية الضعيفة والمتروكة كالكشكشة والعجعجة والعنعنة[1] وما اليها. وهذه هي التي نزل بها القرآن الكريم. ٢-اللغة البدوية التي كانت تستخدم في البوادي والتي كانت تراعي اصول الاعراب ولا تخل بضوابطه واصوله وهي التي اعتمد عليها النحاة واللغويون الذين كانوا يخرجون الى المتكلمين بها في بوادي نجد وتهامة والحجاز وما جاورها. ٣- لغة الحواضر المحكية بعد القرن الأول للهجرة وهي التي كانت تستخدم في مكة والمدينة والطائف والحيرة واطراف الشام، وهذه ليست على مستوى واحد وانما تختلف بحسب حظوظها من الاختلاط بالقوميات الاخرى. وقدادى اختلاط لغات هذه الحواضر بلغات القوميات المختلفة وغيرها الى فسادها وبدا ذلك في التخفف من بعض قيود الاعراب وظواهره، ولذلك اصبحوا يرسلون أولادهم الى البادية لتلقي اللغة الفصيحة والتمرن عليها بالممارسة والاستعمال كي ينشأوا فصحاء سليمي النطق[2]. ولما جاء الاسلام ارتفعت منزلة هذه اللغة العربية الفصيحة في عيون اصحابها وبدأوا يخافون عليها من التحريف والفساد، وبدأوا يبذلون الجهود في سبيل احصاء الظواهر الموجودة في اللغة المثالية وتحديدها وضبطها بقواعد وأصول يتبعها من بعد عن الفصاحة، ولكي لا تضيع اللغة العربية التي هي عماد القومية العربية ورمز وجود العرب الذين نزل بلغتهم القرآن الكريم الذي رفع من منزلة اللغة العربية وقوى القومية العربية وبعث فيها العزة والكرامة التي يجب ان يحافظ عليها بالمحافظة على هذه اللغة من الانحلال في لغات القوميات الاخرى.

---

(١) الكشكشة: ان يجعلوا بعد كاف الخطاب في المؤنث (شينا) فهم يقولون (رأيتكش) وهي لغة ربيعة. العجعجة: أن يجعلوا الياء المشدودة جيماً. فهم يقولون (تميمج) في (تميمي) وهي لغة قضاعة. العنعنة: ان يجعلوا الهمزة المبدوء بها (عيناً) فهم يقولون (عنك) في (أنك) في لغة قيس وتميم. (المزهر ١/٢٢١-٢٢٢).

(٢) ينظر المفصل في تاريخ النحو العربي ٢٣-٢٧.

أوائل النحاة:

بعد أن عرفنا أن الواضع الأول للنحو العربي في رأي معظم الباحثين القدماء والمحدثين هو أبو الاسود الدولي الذي ابتدع نقط الاعراب الذي عد الخطوة الأولى في تاريخ التفكير النحوي، وتحدث في أبواب من النحو، ومن الطبيعي أن يكون لابي الاسود حلقة أو مجلس لاقراء القرآن وتفسيره وضبطه وتوضيح قراءاته يجتمع اليه فيها من يحبون الاستماع الى ما يقوله وما يوضحه وان يكون له تلاميذ ملازمون حلقته يسألونه فيما يعرض لهم من مواضع ورد فيها اختلاف في القراءة فيوضحها لهم، وربما يعرضون لعبارات أو آيات وقع فيها اللحن فيجيبهم بما يعرف وبما لاحظه عند ضبطه المصحف ويقوم هؤلاء التلاميذ أو بعضهم بتدوين ما يقول كما علمناه من فعل يحيى بن يعمر، لذلك ذكر لنا المؤرخون اسماء عدد من تلاميذه النابهين وفصلوا في اخبارهم، واسماء آخرين اشاروا في ترجماتهم اشارات عابرة الى أنهم من تلاميذ أبي الاسود، نعرِّف بهم بايجاز لانهم يمثلون طبقة مكملة لابي الاسود وجهداً من جهوده. ومن اشهر هؤلاء: **نصر بن عاصم الليثي المتوفى سنة ٩٠هـ** أقام بالبصرة وفيها وضع نقط الاعجام الذي اشتهر بـ «نقط نصر» وذكر له ياقوت كتاباً في العربية. **ويحيى بن يعمر العدواني المتوفى سنة ١٢٩هـ** الذي قيل فيه انه زاد في النحو أبواباً بعد أن وضع أبو الاسود باب الفاعل والمفعول به ثم نظر فاذا في كلام العرب ما لا يدخل فيه، فأقصر عنه. **وعبدالرحمن بن هرمز المتوفى ١١٧هـ** في الاسكندرية بعد أن استقر في المدينة مدة اقرأ بها النحو الذي اخذه عن أبي الاسود. **وعنبسة بن معدان الفيل** الذي كان ابرع اصحاب ابي الأسود. **وميمون الاقرن**، قال ياقوت انه زاد على أبي الاسود في حدود العربية وكان أحد أئمة العربية الخمسة الذين يرجع اليهم في المشكلات. **وعطاء بن أبي الاسود** وهو الذي اتفق مع يحيى بن يعمر بعد موت ابيه على بسط النحو وتعيين ابوابه وبعج مقاييسه فلما استوفيا جزءاً من أبواب النحو نسب بعض الرواة اليهما أنهما أول من وضع النحو[1]. **ومعاوية بن عمر بن أبي عقرب أبو نوفل الدؤلي**[2].

وهناك نحاة آخرون اقل شهرة من هؤلاء ذكرتهم بعض كتب التراجم وورد ذكر بعضهم عرضاً في مؤلفات النحاة هم: **عليّ الجمل** الذي كان بالمدينة ووضع في النحو كتاباً لم يكن شيئاً. **وابن قسطنطين** الذي وضع بمكة شيئاً من النحو ثم قدم البصرة فسمع النحو وطرح ما كان عمل ووضع شيئاً آخر لا يساوي شيئاً، **والحر النحوي** الذي طلب اعراب القرآن، اربعين سنة. **وسعد**

---

(١) إنباه الرواة، ٣٨٠/٢، وينظر أخبار النحويين البصريين، ١٧.

(٢) معجم الادباء ٢١٠/٧ و ٢٠٠ وأخبار النحويين البصريين ١٧ وإنباه الرواة ١٧٢/٢-١٧٣ و ٣٨٠/٢-٣٨١ و ١٧٩/٤. فيها اخبار هؤلاء وتراجم خاصة بهم جميعاً.

بن شداد المعروف بـ «سعد الرابية» للمكان الذي كان يدرس فيه النحو. **وزهير الفُرقبي** اخذ من تلاميذ ابي الاسود توفي سنة ١٥٠هـ، **وأبو سفيان بن العلاء** اخو أبي عمرو بن العلاء توفي سنة ١٦٥هـ[١].

هؤلاء من استطعنا التعرف عليهم من تلاميذ أبي الاسود أو تلاميذهم الذين يمثلون امتداداً لأبي الاسود وهم وتلاميذهم ناشرو علم أبي الاسود وموصلوه الى طبقة الحضرمي وابن العلاء.

ومن النحاة الذين جاءوا بعد أبي الاسود وتلاميذه، نحاة مشهورون لهم آراء في النحو مذكورة في كتاب سيبويه وهم شيوخ الخليل أو سيبويه أو شيوخهما معاً. وهؤلاء هم:

عبدالله بن أبي اسحاق الحضرمي:

هو أحد الأئمة في القراءات والعربية، أخذ القرآن عن يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم واخذ النحو والعربية عن ميمون الاقرن وعن أبي حرب بن أبي الاسود. وتوفي سنة ١٢٧هـ على الأرجح. اعلم أهل البصرة وأعقلهم فرَّع النحو وقاسه، وتكلم في الهمز حتى عمل فيه كتابا مما املاه، وكان رئيس الناس وواحدهم، وكان أشد تجريداً للقياس[٢]. وقياسه هذا الذي تحدثوا عنه كان يعني قياس مشابهة بين الظواهر المطردة في كلام العرب ولا يعني قياس جدل أو منطق.

ومما يوضح القياس عند ابن أبي اسحاق ما حدّث به يونس من أن الفرزدق مدح يزيد بن عبدالملك بقوله:

على عمائمنا يلقى وأرحلنا على زواحفَ تزجى مخاريرِ

فقال له ابن أبي اسحاق: أسأت، انما هي «ريرُ»، وكذلك قياس النحو في هذا الموضع[٣]. فالقياس الذي يعلمه ابن أبي اسحاق من ملاحظته كلام العرب الفصيح المطرد أن ترفع كلمة «رير» لان ما قبلها مبتدأ مرفوع يحتاج الى خبر مرفوع يكمل معناه، والجر هنا لا معنى له ولا يصح لعدم وجود كلمة مجرورة قبلها يصح أن تكون تابعة لها، فقياس ابن أبي اسحاق هو: حمل العبارة أو الظاهرة على المطرد الكثير في لسان العرب، وما خالفه فهو خطأ. هذا قياسه في النحو:

ويتضح قياسه ايضاً في تخطئة الفرزدق في هجائه اياه بقوله:

---

(١) مراتب النحويين ١٠٠ و ١٠١ وبغية الوعاة، ٤٩٣/١ و ٥٧٩ ونور القبس ٢٦٧ وإنباه الرواة، ١٢٢/٤ في أخبارهم على التوالي.

(٢) طبقات فحول الشعراء ١٤/١٠ ومراتب النحويين ١٢-١٣ وأخبار النحويين البصريين ٢٠ وأنباه الرواة ١٠٧/٢-١٠٨ وتنظر أخباره فيها وفي طبقات النحويين واللغويين ٢٥-٢٧ والفهرست ٤٧ ونزهة الالباء ١٠-١٣ ونور القبس ٢٤ وبغية الوعاة ٤٣/٢.

(٣) طبقات فحول الشعراء ١٧/١ وأخبار النحويين البصريين ٢٦ ونزهة الالباء ١١-١٢.

فلو كان عبدالله مولى هجوته ولكن عبداله مولى مواليا

الذي ما كاد ابن أبي اسحاق يسمعه حتى قال له: «أخطأت أخطأت انما هو «مولى موالٍ»[١]
ومعنى هذا انه لاحظ استعمال الكلمات التي مثل «موالٍ» هذه من المنقوص الذي على وزن «مفاعل» فوجدها في كلام العرب لا تستعمل استعمال الممنوع من الصرف، انما تعل اعلال «قاضٍ» وذلك بحذف الياء منها تشبيهًا لها بياء «قاضٍ» وان كانت غير منونة فيها، والتعويض عنها بالتنوين فيقال: «مولَى موالٍ» مثل «كلام قاضٍ» لا «مولى مواليَ». أما مده للعلل فهو أن يلتمس لمخالفات الشعراء للمطرد في كلام العرب تفسيرا يعود به الى الصحيح من كلامهم، وهو ما سمي: التقدير أو التأويل، ولا يُعنَى به ما نعرفه من العلة التي هي السبب الداعي الى هذا الوجه أو ذاك، ومما يوضح التعليل عند ابن أبي اسحاق ما رواه الفراء قال: مر الفرزدق بعبد الله بن أبي اسحاق الحضرمي النحوي فأنشده ابياتًا من الشعر حتى انتهى الى قوله:

وعضّ زمان يا ابن مروان لم يدع

من المالِ الا مُسحتا أو مجلفُ

فقال للفرزدق: علام رفعت؟ فقال: على ما يسوءك وينوءك، علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا.[٢]
وعلى الرغم من اعتراض ابن ابي اسحاق على الفرزدق عاد يتلمس له مشابهًا في العربية أو تقديرًا يفسره به كي يصبح جاريًا على قياس كلام العرب المطرد والصحيح فيه، ولذا قال في رواية اخرى «وللرفع وجه»[٣] وكأن هذا الرفع الذي فهمه من قول الفرزدق انه يريد المعنى لا اللفظ فكأنه قال: «لم يبق لنا من المال الا مسحت أو مجلف» وهو التقدير الذي يصحح رواية الرفع الذي التمسه ابن أبي اسحاق ولم يصرح به. ويبدو في هاتين الروايتين لابن ابي اسحاق قولُه بالقياس الذي يجب أن يكون عليه «مجلفُ» وهو النصب عطفا على «مسحتا» كما هو مفهوم من معنى البيت وقياسا على ما عرف في العطف في كلام العرب المطرد الذي لاحظه ابن أبي اسحاق، كما يتضح في الثانية القول بالتعليل أو التأويل.

وقد شاع هذا التعليل أو التماس التخريج لما يأتي مخالفا لكلام العرب المطرد وسمّاه الفرزدق «التماس الحيلة» ولهذا عرف ابن أبي اسحاق بأنه كان يلتمس الحيلة في توجيه ما يخالف القياس في كلام العرب المطرد يدل على هذا قول الفرزدق بعد أن وصل اليه أن الناس ينسبون الى

---

(١) ينظر الكتاب، ٣/٣١٣، والخزانة ١/١١٥ والمدارس النحوية ٤.

(٢) معاني القرآن للفراء ٢/١٨٢، وتنظر المدارس النحوية ٢٣، ونشأة النحو ٥٧.

(٣) طبقات فحول الشعراء، ١/١٢، وينظر في تأويله لما يرد في الشعر من مخالفات الخصائص، ٣/٣٠٢ والموشح ١٦٦.

بيت من أبياته الاقواء: «مابال هذا ... لا يجعل له وجها؟ يعني ابن ابي اسحاق»[1] فعبارة الفرزدق تحمل المعنى نفسه وان اختل اللفظ.

ولم يقتصر توجيه ابن أبي اسحق في التصحيح على الشعر المخالف للقياس وانما نبه الى وقوع مثل هذا الخروج عن القياس الذي يفسد المعنى في قراءات القرآن الكريم المخالفة لما هو كالمجمع عليه. من ذلك ما رواه القفطي من أن ابن ابي اسحاق اجتمع هو وابن سيرين في جنازة، فقال ابن سيرين «انما يخشى الله من عباده العلماء» برفع لفظ الجلالة ونصب «العلماء» فقال ابن أبي اسحق «كفرت يا أبا بكر بعيبك على هؤلاء الذين يقيمون كتاب الله، فقال ابن سيرين: «ان كنت اخطأت فانا استغفر الله»[2].

وفي عهد ابن ابي اسحق كثرت المناظرات النحوية كالتي جرت بينه وبين أبي عمرو بن العلاء وبينه وبين ابن سيرين، وبينه وبين يونس بن حبيب[3]. وأورد له سيبويه عدداً من الآراء النحوية في كتابه هي:

١- تجويزه نصب الاسم الصَّريح على التحذير بعد «إيا» وفروعها بلا عاطف، قال سيبويه «واعلم انه لا يجوز أن نقول: «اياك زيداً» كما انه لا يجوز أن تقول: «رأسك الجدار» حتى تقول: «من الجدار» أو «والجدار»... ولو قلت: «اياك الاسد» تريد: «من الاسد» لم يجز... الا انهم زعموا ان ابن اسحق اجاز هذا البيت في شعر:

ايــاك ايــاك المـراء فانــه   الى الشرِّ دعَّاء وللشرِّ جالب

كأنه قال: «اياك» ثم اضمر بعد: «اياك» فعلا آخر فقال: «اتق المراء»[4].

٢- تجويزه قطع النعت الى الرفع بعد منعوت منصوب أو مجرور في الترحم، وتابعه فيه الخليل وذلك في مثل «مررت به المسكين» على البدل، وجوز فيه الخليل الرفع من وجهين «كأنه لما قال: «مررت به» قال: «المسكين هو»... وأما يونس فزعم انه ليس يرفع شيئًا من الترحم على اضمار شيء يرفع ولكنه ان قال: «ضربته» لم يقل ابدا الا «المسكين» يحمله على الفعل، وان قال: «ضرباني» قال: «المسكينان» حمله ايضًا على الفعل وكذلك: «مررت به المسكين»

---

(١) طبقات فحول الشعراء، ١٦/١، والموشح ١٥٩.

(٢) ينظر إنباه الرواة على أنباه النحاة، ١٠٧/٢، وينظر في مثل هذا في موقفه من القراءات مجالس العلماء للزجاجي ٢٤١-٢٤٢. سورة فاطر ٢٨ وهي في المصحف بنصب لفظ الجلالة ورفع (العلماء).

(٣) ينظر مجالس العلماء للزجاجي، ٢٤١-٢٤٢ و ٢٤٣ والحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي، ١١٥-١١٧ وغيرهما.

(٤) الكتاب، ٢٧٩/١.

ويحمل الرفع على الرفع والجر على الجر والنصب على النصب ويزعم ان الرفع الذي فسرنا خطأ، وهو قول الخليل -رحمه الله- وابن أبي اسحاق»[١].

٣- نصب المضارع في جواب «ليت»، فكان يقرأ: «يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين» بنصب الافعال الثلاثة[٢].

٤- ذهابه الى منع صرف الاسم المذكر اذا سمي به مؤنث وهو ثلاثي ساكن الوسط، قال سيبويه: «فان سميت المؤنث بـ «عمرو» أو «زيد» لم يجز الصرف، هذا قول ابن ابي اسحاق وابي عمرو فيما حدثنا يونس وهو القياس[٣].

وروى له الزبيدي آيتين قرأهما بنصب المشغول عنه، وهما قوله تعالى: «والزانيةَ والزانيَ»، وقوله تعالى: «والسارقَ والسارقةَ» قرأهما بالنصب[٤] وأورد له قراءة ثانية في قوله تعالى: «من قبلٍ» و «من دبرٍ» بالبناء على الضم «من قبلُ» و «من دبرُ»[٥].

ولابن ابي اسحاق آراء اخرى في التصريف والاصوات، وله قراءات خاصة خالف فيها اجماع القراء[٦].

عيسى بن عمر الثقفي:

بصريّ ثقة من أشهر تلاميذ ابن أبي اسحاق من طبقة أبي عمرو بن العلاء توفي سنة ١٤٩هـ. كان حافظًا للقرآن ولغريب كلام العرب، كثير التقعير في كلامه واستعمال الغريب حتى في أحلك الظروف، كثير التأليف والكتابة وكان يقول: «كنت وأنا شاب اقعد بالليل فاكتب حتى ينقطع سوائي- أي: وسطي-»، وكان واسع الثقافة ذكر له الرواة كتابين في النحو سماهما «الإكمال» أو «المكمل» و «الجامع» نسب الى الخليل أنه مدحهما ببيتين مشهورين فقال:

---

(١) الكتاب ٢/٧٤ و ٧٥ و ٧٦ و ٧٧.

(٢) الانعام ٢٧ وهي في المصحف برفع (نرد) ونصب الاخرين. الكتاب، ٣/٤٤.

(٣) الكتاب، ٣/٢٤٢.

(٤) النور، ٢ وهي في المصحف بالرفع. والمائدة ٣٨ وهي في المصحف بالرفع أيضًا. وطبقات النحويين واللغويين، ٢٧.

(٥) طبقات النحويين واللغويين ٢٧، ويوسف ٢٦ و ٢٧.

(٦) ينظر فيها المقتضب ١/٢٢٦ و ٢٦٢ و ٢٨٠ والمحتسب ١/٧٦ و ٢٠٢ و ٢٨٤ والحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي ١٢٥-٢٣٤. والقرآن الكريم واثره في الدراسات النحوية، ٧٣.

بطل النحو جميعا كله غير ما احدث عيسى بن عمر
ذاك إكمال وهذا جامع فهمـا للنـاس شمـس وقمـر[1]

وكان مثل ابن ابي اسحاق استاذه يستخدم القياس على كلام العرب، لذلك فهو يرى نصب المنادى العلم المنون في الشعر في قول الشاعر:

سلام الله يامطرا عليها وليس عليك يا مطرُ السلام

قياسا على النصب في كلمة «يا رجلا» في نداء النكرة غير المقصودة، ويستخدم التعليل لذلك فيقول: «وذلك لانه ينون ومن شأن التنوين أن يرده الى الأصل»[2]، واتبع طريق ابن ابي اسحاق في الطعن على العرب وفي استخدام القياس والتعليل وذلك واضح في قوله: أساءَ النابغة في قوله:

فبت كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم ناقعُ

لان وجهه عنده «السم ناقعا». وهو ينزع الى النصب فيما اختلفت فيه العرب، ويتبع ابن أبي اسحاق في قراءة قوله تعالى: «ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المومنين» بنصب: «نرد» وهو في المصحف مرفوع. وتابعه كذلك في قراءة النصب في قوله تعالى: «الزانية والزاني» و «السارق والسارقة» وينصب المنادى المعرف بأل المعطوف على المفرد المبني فيقرأ «ياجبال أوبي معه والطير»[3] وكان يعلل النصب بقوله: «على النداء كقولك: «يا زيد والحارث» لما لم يمكنه «يا زيد يا الحارث»[4] وذلك لان الاسم المعرف بـ «أل» لا يصح نداؤه مباشرة. وكما اتضح عند عيسى بن عمر القياس والتعليل اتضح عنده الافتراض وهو أن يفترض ظاهرة لم ترد عن العرب ويضع لها حكما من ذلك افتراضه تسمية المؤنث بالاسم المذكر وذهابه فيه الى جواز الصرف مخالفا استاذه، وافتراضه التسمية بالفعل ويرى: «انك اذا سميت رجلا بالفعل، «ضرب» أو «ضارَبَ» أو «ضارِبْ» يكون اسمه ممنوعًا من الصرف»[5].

---

(١) تنظر أخباره في طبقات فحول الشعراء ١/١٥ و ١٦ و ١٩-٢٠ واخبار النحويين البصريين ٢٥-٢٦ ومراتب النحويين ٢١ وطبقات النحويين واللغويين ٣٥-٤١ ومعجم الادباء، ٦/١٠٠ ووفيات الاعيان، ٣/١٥٤-١٥٦.

(٢) الكتاب، ٢/٢٠٣، والمقتضب ٤/٢١٤ و ٢٢٤، وينظر المدارس النحوية ٢٥.

(٣) الانعام، ٢٧، والنور ٢ والمائدة ٣٨ وسبأ ١٠.

(٤) طبقات فحول الشعراء، ١/١٩-٢١. وينظر المدارس النحوية، ص٢٦.

(٥) ينظر الكتاب، ٣/٢٤٢، والمقتضب، ٣/٣٥٢ وينظر ٣٥١ و ١٥٤-١٥٦.

وقد جرت بينه وبين معاصريه مناظرات ومناقشات توضح الكثير مما كان قد عرف من أصول نحوية في زمانهم من ذلك ما حدّث به اليزيدي قال: «جاء عيسى بن عمر الى أبي عمرو بن العلاء ونحن عنده، فقال: يا أبا عمرو، ماشيء بلغني أنك تجيزه؟ قال: وما هو؟ قال: بلغني أنك تجيز «ليس الطيب الا المسكُ» -بالرفع- قال: فقال أبو عمرو: نمت يا أبا عمر وأدلج الناس، ليس في الارض حجازي الا وهو ينصب ولا تميمي الا وهو يرفع. قال اليزيدي ثم قال لي أبو عمرو: تعال أنت يا يحيى وتعال أنت يا خلف -لخلف الاحمر- اذهبا الى أبي المهدي[1] فلقناه الرفع فانه لايرفع، واذهبا الى المنتجع التميمي ولقناه النصب فانه لا ينصب، قال: فذهبت أنا وخلف وأتينا أبا المهدي... فقال: ما خطبكما؟ قلنا: جئنا نسألك عن شيء من كلام العرب. فقال: هاتيا. فقلت له: كيف تقول: ليس الطيب الا المسك؟ فقال أتأمراني بالكذب على كبرة سني فأين الجادي؟... واين كذا؟ واين كذا؟ قال اليزيدي: فقال له خلف: «ليس الشراب إلا العسل» قال: فما يصنع سودان هجر، مالهم شراب الا هذا التمر: قال اليزيدي: فلما رأيت ذلك منه قلت له: «ليس ملاك الامر الا طاعةُ الله والعمل بها» قال: هذا كلام لا دخل فيه، «ليس ملاك الامر الا طاعة الله والعمل بها» فنصب... قال اليزيدي أفقلت: «ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله والعمل بها» ورفعت، فقال، لا، ليس هذا من لحني ولا من لحن قومي. قال: فكتبنا ما سمعنا منه... قال... ثم أتينا المنتجع، فأتينا: رجلا يعقل، فقال له خلف: «ليس الطيب الا المسك» قال: فرفع، ولقناه وجهدنا به في ذلك لم ينصب وأبى الا الرفع. قال: فأتينا أبا عمرو فاعلمناه وعنده عيسى بن عمر لم يبرح، قال فأخرج عيسى خاتمه من يده ثم قال: لك الخاتم، بهذا والله فقت الناس»[2].

نستدل من هذه المناظرة على أشياء منها: ان المصطلحات النحوية قد استقر امر الكثير منها، وظهرت آراء نحوية واضحة ووجوه إعرابية مختلفة. وان هؤلاء النحاة قد تتبعوا كلام العرب ولغاتها تتبعا يكفي لاصدار احكام قاطعة تبينت من قول أبي عمرو «ليس في الأرض حجازي الا وهو ينصب ولا تميمي الا وهو يرفع»، وهذا الإحصاء -وان لم يكن تاما لاستحالته- له دلالة على اتساع الاستقراء. وانهم كانوا يجلسون في حلقات تضم النحاة واللغويين من الشيوخ والدارسين وانهم يحتكمون الى من يثقون بهم من الأعراب الفصحاء لاثبات الاحكام والاقيسة وتصحيح ما يختلفون فيه من أساليب أو تخطئتها معتمدين في ذلك كله على ما جاء في كلام العرب، وان عيسى بن عمر مع سعة اطلاعه على الغريب وكلام العرب والنوادر واستخدامها لم يبلغ من الاحاطة مبلغ ابي عمرو. وبهذا ننتهي الى القول بان ابا عمرو استعمل القياس والتعليل والتقدير والافتراض

---

(١) اعرابي مشهور بـ «أبي المهدية» وورد في المجالس هكذا.

(٢) مجالس العلماء، ١-٤، وينظر طبقات النحويين واللغويين ٣٨-٣٩. والجاديّ: الزعفران

والمناقشة والاستفسار من معاصريه عما يجيزونه من ظواهر اعرابية.

أبو عمرو بن العلاء:

هو زيان بن العلاء بن عمار المازني المتوفى سنة ١٥٤هـ[١]، أحد القراء السبعة المشهورين وهو العربي الوحيد فيهم، بصري ثقة، كان يتتبع وهو في العراق القراءات القرآنية التي بمكة ويكتب له عنها. لم يكن أبو عمرو مثل سابقيه في الطعن على العرب وانما كان يهتم بالكلمة التي سمعها عن اعرابي أو أعرابية ويفرح بها وليس ادل على ذلك مما روي عنه من أنه كان يتستر من الحجاج لاخافته اياه «قال فخرجت في الغلس اريد التنقل من الموضع الذي كنت فيه الى غيره، فسمعت مُنشدًا ينشد:

ربما تكره النفوس من الأمر   لـه فَرجـة كحـل العقـال

وسمعت عجوزا تقول (مات الحجاج). فما أدري بأيهما كنت أسر، أبقول المنشد «فرجة» بالفتح، أم بقول العجوز: «مات الحجاج». وكان بارعًا في فهم لغة العرب يفهمها من اللمحة والاشارة العابرة الى المعنى[٢]، واستخدم القياس في آرائه النحوية، من ذلك قياسه على ما جاء في قوله تعالى: «وعصى آدم ربه فغوى» و «ماظل صاحبكم وما غوى» وذلك انه سمع رجلاً ينشد:

*** ومن يغَو لا يعدم على الغي لائما***

فقال: أقومك أم اتركك تتكسع في طمتك؟ فقال: بل قومني. فقال: قُل: «ومن يغوِ» بكسر الواو، الا ترى الى قول اللّه عز وجل: «فغَوى»[٣]؟ واستخدم التقدير والتفسير في تخريج ما ورد عن العرب من عبارات توحي بالخطأ من ذلك ما رواه الزبيدي عن الاصمعي قال «سألت الخليل بن أحمد النحوي عن قول الراجز»:

حتى تحاجزن عن الذُّوَّادِ   تحاجز الريِّ ولم تكادي

لم قال: «تكادي» ولم يقل: «تكد»؟ قال: فطحن يوما أجمع، قال: وسألت أبا عمرو بن العلاء –وكأنما كان على طرف لسانه– فقال: «ولم تكادى أيتها الابل»[٤] فكانت اجابة ابي عمرو هذه تدل

---

(١) تنظر ترجمته في طبقات فحول الشعراء ١١، ومراتب النحويين ١٣–٢٠ وأخبار النحويين البصريين ٢٢–٢٤ وطبقات النحويين واللغويين ٢٨–٣٥ والفهرست ٣٠–٣١، وإنباه الرواة على أنباه النحاة، ٤/١٢٥ وغيرها.

(٢) طبقات النحويين واللغويين، ٢٨–٣٠، ونزهة الالباء، ١٦.

(٣) سورة طه ١٢١، والنجم ٢، وينظر طبقات النحويين واللغويين، ٢٩–٣٠.

(٤) طبقات النحويين واللغويين ٣٢.

على أنه فسر على المعنى الذي فهمه من العبارة من غير تفكير في ماقالته العرب في امثال ذلك. وكان ابن جني يقول فيه انه «كان ممن نظروا في النحو والتصريف وتدربوا أو قاسوا»[1] وكان اهتمامه باللغة وروايتها أكثر من اهتمامه بالأقيسة والقواعد ومع هذا فله آراء نحوية غير ما ذكرنا منها: انه كان يرى ان المنصوب في قولهم «حبذا محمد رجلا» تمييز لا حال، وان بني تميم تهمل «ليس» اذا انتقض نفي خبرها بـ «إلاّ» في قولهم «ليس الطيب الا المسك» حملا على «ما» النافية، وانه كان يترك صرف «سبأ» في قوله تعالى: «وجئتك من سَبَأٍ بنبأ يقين» وكأنه جعله اسمًا للقبيلة. وذهابه الى أن «كم» اسم لانها يخبر بها. وتجويزه في المبدل المفرد من المنادى المضاف البناء على الضم فيجيز: «يا أخانا زيد» على تكرير النداء ويقيسه على قول العرب: «يا زيد أخانا»[2]، وقوله بأن «يا» المستعملة في النداء قد ترد لمجردالتنبيه في مثل «يا ويل لك» و «ياويح لك» قال: كأنه نبه انسانا ثم جعل الويل له. وذهابه الى أن المثنى في قولنا: «لاغلامين ولا جاريتين لك» اسم «لا» وان شبه الجملة خبر لاسمي الاداتين وليست اللام زائدة والا لحذفت النون للاضافة كما يحذف التنوين وكما تكون علامة النصب الالف في مثل: «لا أبا لك». ومن آرائه استخدامه «من» الجارة مع الظروف بمنزلتها مع الاسماء الاخرى فأجاز قولهم: «داري من خلف دارك فرسخان» قياسا على «دارك مني فرسخان» وذهابه الى أن الرفع في الفعل المضارع الواقع بعد «أما» في مثل قول العرب «أما أنت منطلقا انطلق معك» هو الصحيح لانه مسبوق بـ «أن» و «أن» ليست من حروف المجازاة[3]. وتجويزه اتباع المضاف اليه في التذكير والجمع العاقل وذلك بجعله «خاضعين» في قوله تعالى: «فظلت اعناقهم لها خاضعين» مما روعي فيه المضاف اليه وهو ضمير جماعة الذكور العقلاء. جاء في مجاز القرآن: «وزعم يونس عن أبي عمرو أن: «خاضعين» ليس من صفة «الاعناق» وانما هي من صفة الكناية عن القوم التي في آخر «الاعناق» فكأنه في التمثيل «فظلت اعناق القوم» في موضع «هم»، والعرب قد تترك الخبر عن الأول وتجعل الخبر للآخر»[4].

ولاهتمام أبي عمرو باللغة وفهمه اياها فهمًا سريعًا وعميقًا كان يفسر الظواهر الاعرابية تفسيراً لغوياً ويقدر العامل فيها بحسب المعنى الذي يفهمه منها من ذلك ما ذكره سيبويه قال:

---

(١) الخصائص، ٢٤٩/١.

(٢) النمل، ٢١ و تنظر آراؤه في: الكتاب ١٦١/٢ و ١٨٥، وطبقات النحويين واللغويين، ٣٨، ومجالس العلماء ٤٠١، والانصاف، ٢٩٣/٢، ووفيات الاعيان، ١٣٦/٣-١٤٠ ومغني اللبيب، ٥١٥/١.

(٣) تنظر هذه الآراء في الكتاب، ٢١٩/٢ و ٢٨٢ و ٤١٧/١ و ١٠١/٣.

(٤) الشعراء، ٤، ومجاز القرآن، ٨٣/٢.

«ومثل ذلك أيضًا قول الخليل وهو قول أبي عمرو: «ألا رجل اما زيدًا واما عمرًا»، لانه حين قال: «الا رجل» فهو متمن شيئاً يسأله ويريده، فكأنه قال: «اللهم اجعله زيداً أو عمراً»، أو «وفق لي زيداً أو عَمْرًا»[1] وله بعد هذا آراء كثيرة ذكرها سيبويه في الكتاب[2].

ويبدو أنه شارك في التأليف فقد قال «ابن نوفل»: سمعت ابي يقول لابي عمرو بن العلاء: اخبرني عما وضعت مما سميته عربية أيدخُلُ فيه كلام العرب كله؟ فقال: لا، فقلت: كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة؟قال: اعمل على الاكثر واسمي ما خالفني لغات»[3]. وهذا يدل على أنه كان كثير الاستقراء لكلام العرب متتَبِّعًا لاكثره، ولم يخرج عن علمه الا ما شذ من لغات القبائل، ولهذا فانه يقيس على ما ذكره في كتابه وما خرج عن قياسه يعده لغة. وكان يرى أن اللغة تتطور وتتغير باحتكاكها بغيرها من لغات العرب أو غيرهم وانه يخرج احيانا عن الاقيسة التي يضعها ان جاء ما يخالفها عن اعرابي يثق بفصاحته ونقله من ذلك: «أنه» سأل أبا خيرة عن قولهم: «استأصل الله عرقاتهم» فنصب ابو خيرة «التاء» من «عرقاتهم» فقال له أبو عمرو: «هيهات يا أبا خيرة لان جلدك» وذلك أن أبا عمرو استضعف النصب بعدما كان سمعها منه بالجر وكان ابو عمرو بعد ذلك يرويها بالنصب والجر[4]، ولهذا فقد كان يقول: «ما انتهى اليكم مما قالت العرب إلاّ أقلّه، ولو جاءكم وافرًا لجاءكم علم وشعر كثير»[5].

يونس بن حبيب البصري:

هو أبو عبدالرحمن يونس بن حبيب الضبي المتوفى سنة ١٨٢هـ في خلافة الرشيد[6]. كان كثير الحفظ لاشعار العرب ولاسيما اشعار رؤبة، قال أبو عبيدة «اختلفت الى يونس اربعين سنة أملأ

---

(١) الكتاب، ٢٨٦/١.

(٢) ينظر الكتاب ٣١١/٢ و ٣٦٩ و ٣٩٣ و ٣٩٧ و ٢١٧/٣ و ٢٢٥ و ٢٥٣ و ٢٩٣ و ٢٩٤ و ٢٩٥ و ٣٤٥ و ٣٦١ و ٤٣٧ و ٥٤٩ و ٥٥١ و ٦٣/٤.

(٣) طبقات النحويين واللغويين، ٣٤.

(٤) ينظر الخصائص، ٣٨٤/١ و ١٣/٢ و ٣٠٤/٣ ونزهة الالباء ١٦. ويعني بالنصب فتح التاء على أنه مفرد منصوب بالفتحة والجر كسر التاء على أنه جمع مؤنث سالم منصوب بالكسرة.

(٥) طبقات فحول الشعراء، ٢٥/١.

(٦) تنظر ترجمته في مراتب النحويين ٢١-٢٣ واخبار النحويين البصريين ٢٧-٣٠، وطبقات النحويين واللغويين ٤٧-٥١ ونور القبس ٤٨ و ٥٥ ووفيات الاعيان ٢٤٢/٦-٢٤٦، ومعجم الادباء ٣١٠/٧-٣١٢ وبغية الوعاة، ٣٦٥/٢.

كل يوم أوراقي من حفظه، وكان النحو أغلب عليه وله قياس فيه. وحلقته في البصرة مشهورة بعد الخليل بن أحمد فقد تصدر فيها وبقي ينتابها معاصروه من النحويين واللغويين البصريين والكوفيين والرواة وفصحاء الاعراب وطلاب العلم ومريدوه، يسمعون ويروون ويتناظرون ويناقشون في مسائل النحو واللغة من ذلك ما روي فيها من أخبار مناظرات الكسائي الذي كان يلم بها كلما زار البصرة بعد وفاة الخليل، وقد جرت مناظرة بين مروان بن سعيد والكسائي سأل مروان فيها الكسائي عن «أيٍّ» واستعمالها موصولة، ورده عليه في نصبها في قولهم: «ضربت أيهم في الدار» بقوله: لا يجوز، قال مروان: لم؟ قال الكسائي: «أيٍّ» هكذا خلقت. فأغضبت هذه المناظرة يونس وقال للحاضرين: تؤذون جليسنا، ومؤدب ولد أمير المؤمنين[1]. وقد كان يطلب الحق دائمًا فيما يسمع وفيما يقول ولا يحكم على شيء من غير مشاهدة أو سماع، قيل له لما مات سيبويه: ان سيبويه الف كتابًا من الف ورقة في علم الخليل، فقال يونس: ومتى سمع سيبويه عن الخليل هذا كله؟ جيئوني بكتابه، فلما نظر فيه ورأى ما حكاه قال: يجب أن يكون هذا الرجل قد صدق عن الخليل فيما حكاه كما صدق فيما حكاه عني[2]. وقد أخذ عنه سيبويه وحكى عنه كثيراً كما يتضح من هذه الرواية ومما في الكتاب وأخذ عنه الكسائي والفراء شيخا مدرسة الكوفة، وأبو زيد الانصاري الذي كان يقول: جلست الى يونس بن حبيب عشر سنين وجلس اليه قبلي خلف الاحمر عشرين سنة[3]، وروى عنه كثيرون. وكان يحتج بلغة الأعراب المعاصرين في تفسير ما يراه من معاني آيات الكتاب الحكيم، روى أبو عبيدة: قال: كنت في حلقة يونس فجاء أعرابي فوقف علينا، فقال: «من ينصرني ينصره الله» فقال يونس: أتتكم والله من قرب، «من يرزقني يرزقه الله». قال الله عز وجل: «من كان يظن أن لن ينصره الله»[4] أي: يرزقه الله.

صنف كتبًا، منها: «معاني القرآن» و «كتاب اللغات» و «كتاب النوادر الكبير» و «كتاب النوادر الصغير» وهي تدل على عنايته بالنوادر والغريب واللغات مع علمه بالنحو الذي ترك لنا فيه آراءً كثيرة استخدم فيها التعليل والقياس والافتراض الا ان اعتماده على السماع كان كثيراً وواضحًا يأخذ به ويبني عليه الحكم النحوي. من ذلك انه لم يكن يرى وجوب النصب اذا تقدم المستثنى على المستثنى منه فكان يجيز الاتباع لانه «سمع بعض العرب الموثوق بهم يقولون «مالي

---

(١) مجالس العلماء للزجاجي، ٢٤٤، وأخبار النحويين البصريين، ٢٧-٢٨، وينظر في مثلها من المناظرات انباه الرواة على أنباه النحاة، ٧٢/٤.

(٢) طبقات النحويين واللغويين، ٤٩.

(٣) انباه الرواة على انباة النحاة، ٧١/٤.

(٤) الحج، ١٥، وينظر انباه الرواة على أنباه النحاة، ٧١/٤.

الا ابوك أحد» ويجيز اثبات الياء في آخر المنادى المضاف الى «ياء المتكلم» في مثل «ياعباد فاتقون»[1]. «ونقل يونس عن العرب كثيراً من العبارات المخالفة لما عليه القياس في كلام العرب المطرد، كما نقل عن رؤبة الشاعر الذي يحتج بشعره كثيراً ويفضله على غيره عبارات أو أبياتاً مخالفة للمسموع ينقلها يونس من غير أن يعلق عليها بجواز أو رفض[2]. غير أن نقله احياناً يوحي بتجويزه اياها كما في نقل سيبويه عنه، قال: «وتقول: «يا زيدُ الطويلُ» وهو قول أبي عمرو، وزعم يونس أنَّ رؤبة كان يقول: «يا زيدُ زيداً الطويلَ»[3] فما دام النقل عن رؤبة، وهو يقيس على كلامه فمعنى هذا أنه يعد هذا التعبير جائزاً. وهذا الاسلوب من تعبير يونس عن آرائه النحوية وقياسه على المسموع أو اجازته من غير التزام بأقيسة الخليل وأبي عمرو وغيرهما دليل على اتباعه المنهج الوصفي المعتمد على السماع والاستقراء. ويتضح ذلك أيضاً في تحليله العبارات وتجويزه في الاسماء والأدوات ما يفهمه من العبارة لا ما اطرد في كلام العرب، وذلك انه كان يجيز مجيء «الذي» حرفاً مصدرياً يقوم بوظيفة «أن» و «ما» المصدريتين، وحجته في ذلك مجيئها في قوله تعالى «وذلك الذي يبشر الله عباده» بهذا المعنى[4]. ومن ذلك انكاره كون «إما» الثانية عاطفة في مثل «جاء اما زيد واما عمرو» ورفضه أن تكون «لكن» عاطفة في مثل: «ماقام زيد ولكن عمرو» وحجته في ذلك انه لا يتباشر في العربية حرفان بمعنى واحد كحرفي العطف أو حرفي الاستفهام[5] وهذه الحجة التي ذكرها مبنية على استقراء شبه شامل للأدوات واستعمالها في كلام العرب.

ومن أمثلة استخدامه التعليل ما جاء في قول سيبويه أن يونس كان يقول: «من قُدَّامَ» ويجعلها معرفة، وزعم أنه منعه الصرف أنها مؤنث، فالحكم منع الصرف، والتعليل كونها مؤنثة. ومثله ما جاء في قول سيبويه: «ومن ذلك قول العرب «من أنت زيداً؟» فزعم يونس انه على قوله: «من أنت تذكر زيداً؟» ولكنه لما كثر في كلامهم واستعمل استغنوا عن إظهاره[6] «فالعلة هنا لحذف الفعل الناصب «زيداً» كثرة الاستعمال.

---

(١) ينظر الكتاب، ٣٣٧/٢، والزمر، ١٦ والكتاب ٢٠٩/٢.

(٢) ينظر في مثل هذه: الكتاب ١١٢/٢ و ٢٧٦ و ٣٦٦ و ١٨٥ و ١٤٣.

(٣) الكتاب، ١٨٥/٢.

(٤) الشورى، ٢٣، وينظر أبو علي الفارسي ٥٤٧ – ٥٥٧، والمفصل في تاريخ النحو العربي ٢١٧.

(٥) ينظر مغني اللبيب، ٦١/١–٦٢ و ٣٢٤. وينظر في أمثال هذا من بنائه الاحكام على نظرته اللغوية الشاملة الكتاب، ٢٢٧/٢ و ٤٠٠ و ٣٥١/١ و ٣٣٩/٣ و ٣١٨ و ١٨٤/٤.

(٦) الكتاب، ٢٩١/٣ و ٢٩٢/١

واستخدم التأويل في رد الظواهر اللغوية والنحوية الخارجة عن المطرد في كلام العرب كما استخدمهُ من سبقه، من ذلك أن المعروف والشائع في كلام العرب استعمال الضمير الواقع بعد «لولا» ضمير رفع منفصل كما يقع بعدها الاسم الظاهر المرفوع وهذا ما دل عليه استقراء آيات الكتاب العزيز وكلام العرب فيقال: «لولا أنت» و «لولا هو» و «لولا أنا» ولا يقال: «لولاك ولولاه ولولاي» فلما وقع في قول يزيد بن الحكم:

وكم موطن لولاي طحت كما هوى بأجرامه من قلة النيق منهوي

كان لابد من أن يلتمس وجهًا يرده الى القياس العام. فذهب الى عد «لولا» حرف جر، والضمير في موضع جر بها. وأوضح من ذلك ما جاء في قول سيبويه: «وسألت الخليل –رحمه الله– ويونس عن نصب الصلتان العبدي:

يا شاعرًا لا شاعرَ اليومَ مثلَهُ جريرٌ ولكنْ في كُلَيبٍ تَواضُعُ

فزعما أنه غير منادى، وانما انتصب على اضمار، كانه قال: «ياقائل الشعر شاعراً» وفيه معنى: «حسبك به شاعراً» كأنه حيث نادى قال: «حسبك به» ولكنه اضمر كما اضمروا في قوله: «تالله رجلاً» وما اشبهه[1].

ونلاحظ هنا أن يونس والخليل قد ذهبا الى التأويل في نصب «شاعر» على التميز مع وقوعه بعد اداة النداء، وذلك لمخالفته القياس العام في النكرة المقصودة وهو البناء على الضم، فلما جاء منصوبا فسروا نصبه بتقدير محذوف هو «حسبك به» كي يصبح نصبه على التمييز. وهو هنا يقيس «ياشاعرًا» على «حسبك به شاعرًا» فيستخدم القياس مع التعليل. ومن استخدامه القياس ايضاً ما جاء في كلامه على سبب قلب الف «لبيك» ياءًا مع الضمير مع بقائها الفًا مع الظاهر وذلك أنه زعم أن «لبيك» اسم واحد ولكنه جاء على هذا النمط في الاضافة، كقولك: «عليك»[2].

وكما استخدم التعليل والتأويل والقياس في احكامه النحوية استخدم الافتراض في مسائل التصريف غالبًا، وذلك بأن يفترض استعمال اسلوب معين ثم يبني لهذا المفترض احكامًا ويستخدم في خلال ذلك القياس والتعليل مما هو ظاهر في قول سيبويه: «واذا حقرت رجلاً اسمه «قبائل» قلت: «قُبَيئل» وان شئت قلت «قُبَيئيل» عوضًا مما حذفت، والالف أولى بالطرح من الهمزة... وهذا قول الخليل. واما يونس فيقول «قُبيِّل» يحدفُ الهمزة اذ كانت زائدة. ويقيس المفترض في المعتل على شبهه من الصحيح ثم يبني حكم المفترض على ذلك، قال سيبويه: «وسألت الخليل عن رجل يسمى بـ «جوارٍ» فقال: هو في حال الجر والرفع بمنزلته قبل أن يكون اسمًا ولو كان من شأنهم ان يدعوا

---

(١) الكتاب، ٢/٢٣٧–٢٣٨.

(٢) الكتاب، ١/٣٥١.

صرفه في المعرفة لتركوا صرفه قبل أن يكون معرفة، لانه ليس في الانصراف أبعد من «مَفَاعِل»... وأما يونس فكان ينظر الى كل شيء من هذا اذا كان معرفة كيف نظيره من غير المعتل معرفة، فاذا كان لاينصرف لم يصرف، يقول: هذا جواري قد جاء، ومررت بجواري قبل[1]» وله آراء نحوية اخرى مبثوثة في كتاب سيبويه وغيره من كتب النحو[2].

من هذا العرض يتبين لنا أن يونس بن حبيب كان يمثل اتجاها الى السماع والاخذ به وعده ظاهرة جائزة وان خرجت عن أقيسة سابقيه اذا كان من شاعر فصيح كرؤبة أو عن اعرابي يثق به وبلغته، ومع اعتداده بالسماع نجده يأخذ بالقياس والتعليل والافتراض في مسائل اخرى، اما التأويل والتفسير فقد استفاد منهما في تخريج ما ورد من عبارات من أعراب موثوق بهم أو شعراء يثق بفصاحتهم ونقاء لغتهم خرجت عن أقيسة النحاة التي بنوها على الكثير الشائع في كلام العرب.

تطور النحو البصري عند الخليل

وصل النحو الى الخليل وتلاميذه وقد قطع مرحلة كبيرة من التطور بفضل هؤلاء الاعلام الذين تعاقبوا على تطويره ومتابعة كلام العرب الموثوق به وآيات كتاب الله وما فيها من ظواهر ووضع الاصول والاقيسة وتخطيط المنهج الذي اتبعوه في كل هذا من استقراء ودرس واستنباط وقياس وتعليل وتأويل وافتراض والقول بالعوامل وتقديرها، وكان للخليل بعد هذا فضل التطوير والوصول به الى ما وجدناه في كتاب سيبويه.

ولا نرى حاجة الى التفصيل في التعريف بالخليل فهو الخليل بن أحمد بن عبدالرحمن الازديّ الفراهيدي من أزد عمان، ولد سنة (١٠٠هـ) وتوفي سنة (١٧٠هـ)[3] قضى حياته في البصرة، كان أعلم الناس واذكاهم وانبههم، ومن أكثرهم ورعاً وتقى وزهدا في مباهج الحياة وفي الجاه والسلطان، انصرف الى العلم عن كل ما يشغله عنه سوى العبادة والحج بين عام وآخر.

ابتدع ترتيب المعجم الذي حصر فيه بطريقة رياضية ما في لغة العرب من مفردات وأثبت فيه

---

(١) الكتاب، ٤٣٩/٣ و ٣١٠/٣-٣١٢.

(٢) ينظر الكتاب، ٢٢٦/٢ و ٥٢٧/٣ والانصاف المسألة ٥٧ والتسهيل ١٤٩ وكتاب يونس بن حبيب النحوي، فقد جمعت فيه آراؤه.

(٣) تنظر ترجمته في طبقات فحول الشعراء، ٢٢/١، ومراتب النحويين ٢٧-٣٩، وأخبار النحويين البصريين، ٣٠-٣١ والفهرست ٤٨-٤٩ وطبقات النحويين واللغويين ٤٣-٤٧ ونزهة الألباء ٢٩-٣١ ونور القبس ٥٦-٧٢ وإنباه الرواة ٣٤١/١ وعبقريّ من البصرة والخليل بن أحمد الفراهيدي وغيرها.

المستعمل وفسره وترك ما أهمل مما لم يصل اليه علمه مع كثرة حفظه وسعة روايته لكلام العرب، وابتدع علم العروض على غير منهاج سابق[1]، واطلع على علوم عصره من فلك ورياضة وموسيقى وفلسفة وما شاع في زمانه، وهو على كل حال قد بلغ الغاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه كما يقول السيرافي، ووصل مرحلة القول بأن القراء والمحدثين والفقهاء والعلماء عامة أولياء اللّه، وقد كان قارئًا مطّلعًا على الفقه والحديث.

الف الخليل في النحو كتابا «في العوامل» والف في «الامالة»، واشهر كتبه في اللغة كتاب «العين» المشهور وكتاب «الشواهد» وفي الموسيقى «النغم» و «الايقاع»[2] وليس معنى أنه لم يترك كتبًا مهمة في النحو، انه لم يطور النحو ويبلغ به درجة النضج والكمال.

وصل النحو الى الخليل على الصورة التي رأيناه عليها من التطور في أصول درسه وبحثه وفي مسائله وأبوابه وفي مصطلحاته بفضل شيوخه الذين توفي آخرهم قبله بما يتراوح بين خمس عشرة وعشرين سنة، وكان الخليل متابعًا لاقوالهم عاملاً على تطورها، وقد بذل في سبيل ذلك جهوداً ضخمة بخروجه الى بوادي نجد وتهامة والحجاز، وسماعه عن الاعراب المقيمين في وسط هذه الصحراء وتدوينه عنهم وحفظه لمعظم ما سمعه، ولم يقصر رحلاته على البادية وانما كان كثير الرحلات الى الحجاز لاداء فريضة الحج وليقابل هناك من تسنح له الفرصة بمقابلته من العلماء المقيمين فيها أو الوافدين عليها لاداء هذه الفريضة الاسلامية. ووصل الى خراسان والاحواز وزار بغداد، اصله من عمان قدم الى البصرة وهو شاب[3].

قيل في الخليل إنّه أعظم نحويٍّ حملته الارض بل اعظم نحويٍّ على مدى العصور وانه «كان الغاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه» وقد انعقد الاجماع على أنه «لم يكن أعلم بالنحو منه» وأنه أتى في علم النَّحو بما لم يأت بمثله احد قبله في تصحيح القياس واللطافة والتصريف[4]. فهل كانت هذه النعوت صحيحة أو أنها من باب المبالغة وتدبيج العبارات للمدح بما ليس فيه؟. ان الناظر في كتاب سيبويه نظرة تمعن ومقارنة يستطيع أن يرى مبلغ صحة هذه الاقوال، فقد تمت على يد الخليل دراسة النحو العربي وبلغت مرحلة النضج والكمال على يديه ولا نعني بذلك تنظيمه أبواب الكتاب أو ترتيب منهجه وانما نعني ما ملىء به من آراء في علوم العربية

---

(١) وقد ذهب احمد بن فارس ومن تابعه الى أن علم العروض قديم وان الخليل احياه (يراجع الصاحبي، ٣٨).

(٢) تنظر في الفهرست ٤٩، والخليل بن أحمد الفراهيدي، ٥٦–٥٧.

(٣) نور القبس، ٥٩ و ٦٥ و ٥٦، وينظر المزهر ٧٧/١ وما بعدها.

(٤) ينظر في هذه الاقوال وغيرها اخبار النحويين البصريين، ٣٠ والفهرست ٤٨ والمصون، ١١٩.

كالنحو والصرف واللغة بدراساتها المختلفة ولا سيما الصوتية كمخارج الحروف وصفاتها وما يحدث فيها من قلب واعلال وابدال وادغام وإمالة ووقف وابتداء وتخفيف همز وما الى ذلك من موضوعات يبدو أن السبب في تفصيله فيها هذا التفصيل الذي اعترف ببراعته فيه القدماء والمحدثون، انما كان لحاجة القراء إليه، وهو أحد القراء المطلع على القراءات وأصولها، والقرآن وعلومه، ونجد فيه الى جانب ذلك أبوابا في الشعر وما يحتمله من تغييرات وفي القوافي وما يجوز فيها عند الانشاد وما رخمته الشعراء في غير النداء[1]، وربما كان قد تحدث فيها ليبينها للشعراء الذين كانوا يؤمون حلقته شأنهم شأن القراء والأدباء واللغويين والنحاة، ولو نظرنا الى آراء الخليل في كل ذلك، لوجدناها تكون العمود الفقري لمعظم أبواب الكتاب إلا النادر الذي بناه على أقوال يونس في النسب والامالة وغيرهما، ولوجدناه قد وضع مصطلحات معظم أبواب الكتاب وما يدور في مسائله مثل المسند والمسند اليه والحذف والاستغناء والعوض والفاعل والمفعول به والفعل والمبتدأ والخبر والرفع والنصب والجر والجزم والاستفهام والامر والنهي والتعجب والدعاء وما إليها، ولم يشذ عنه منها الا مواضع قليلة وضع المتأخرون اسماءها. ولم يقتصر الامر على الكثرة في المصطلحات وانما أكمل ما وضعه شيوخه من أصول وأقيسة بناها على كلام العرب الذي سمعه ودرسه وتباحث فيه في مجلسه ومع شيوخه وتلاميذه فوضحت واستقرت وتطورت الاصول الاخرى كالتعليل والتأويل والقياس المبني على السماع الكثير المطرد لكلام العرب، وأخذ يعمق الاصول التي وضعوها، والتعليلات لما يعرض من ظواهر اختلف فيها أم لم يختلف وهي في معظمها مما يكون سيبويه الدافع اليها. واتضحت تحليلاته للعبارات ولما يرد فيها من ظواهر اعرابية وضوحًا ابرز مما كان عند شيخه ابي عمرو بن العلاء، ولجأ الى القول بتقدير العوامل التي يستدعيها المعنى اللغوي وتنسجم معه، ويربط بين كل هذه الأنماط والجزئيات ليكون للدراسة النحوية هذا البنيان الشامخ الذي بلغ عنده مرحلة النضج والاكتمال ولكي نوضح هذا بالدليل نمثل لابرز الظواهر في منهج بحثه النحوي.

كان أول من فصل القول في تحليل التراكيب والعبارات المسموعة عن العرب مثل قولهم: «لاسيما» قال سيبويه: «وسألت الخليل رحمه الله عنه عن قول العرب «ولا سيما زيد» فزعم انه مثل قولك: «ولا مثل زيد» و «ما» لغو. وقال: «ولاسيما زيد» كقولهم: «دع ما زيد» وكقوله: «مثلا ما بعوضة» فـ «سيّ» في هذا الموضع بمنزلة «مثل» فمن ثم عملت فيه «لا» كما تعمل «رب» في «مثل». وذلك قولك: «رب مثل زيد»[2] ومن ذلك تحليله لقول العرب «أَحَقًّا أنك ذاهب» قال سيبويه «وسألت

(١) ينظر الكتاب، ١/٢٦ و ٤/٢٠٤ و ٢٥٩.

(٢) سورة البقرة، ٢٦، والكتاب ٢/٢٨٦.

الخليل فقلت: ما منعهم أن يقولوا: «أَحَقًّا إنك ذاهب؟» على القلب، كأنك قلت: «إنك ذاهب حَقًّا»، و «إنك ذاهب الحق» و «إنك منطلق حَقًّا؟» فقال: ليس هذا من مواضع «إن» لان «إن» لا يبتدأ بها في كل موضع، ولو جاز هذا لجاز: «يوم الجمعة إنك ذاهب» تريد: «إنك ذاهب يوم الجمعة»، ولقلت أيضًا «لامحالة إنك ذاهب» تريد «إنك لا محالة ذاهب» فلما لم يجز ذلك حملوه على: «أفي حق أنك ذاهب؟» وعلى «أفي أكبر ظنك أنك ذاهب؟» وصارت «أَنَّ» مبنية عليه كما يبنى «الرحيل» على «غد»، إذا قلت: «غداً الرحيل» والدليل على ذلك انشاد العرب هذا البيت كما اخبرتك، زعم يونس أنه سمع العرب يقولون في بيت الاسود بن يعفر:

أحقا بني أبناء سلمى بن جندلٍ تهدُّدكم إياي وسط المجالس؟

فزعم الخليل أن «التهدد» هنا بمنزلة «الرحيل بعد غد» «وأن»أن» بمنزلته، وموضعه كموضعه...[1] ففي هذين النصين تحليل وتعليل وقياس واحتجاج بالنظير والقياس عليه. اجتمع كل هذا ليكون هذا الاسلوب من العرض والايضاح وفي النص الأول تتضح احكام منها: ان «ما» تجيء زائدة. وان الفصل بـ «ما» الزائدة بين المضاف والمضاف اليه لا يمنع العمل فهو جائز. وان «ما» تأتي موصولة ويحذف صدر صلتها ويبقى الاسم الذي بعدها مرفوعًا دلالة على ذلك كما في قوله تعالى: «مثلا ما بعوضة» وأن «سيَّ» بمعنى «مثل» ولها حكمها فهي مثلها وما بعدها مجرور باضافتها اليه وليست حرف جر مثل «رب». وانها تضاف الى الاسم المعرب وهو «زيد» والى الاسم المبني وهو «ما». ونستطيع أن نستخلص من تحليله للعبارة الثانية أحكامًا كثيرة، منها حكم «إن» وجوب الابتداء بها، وحكم «أن» وجوب كونها معمولة. واتضح فيه اعتماده على العامل واثره في التقدير والتقديم والتأخير.

ومنه ما تظهر فيه نظرية العمل بأجلي صورها وأنواع العامل من حيث القوة أو الضعف، وما يجوز في معمولاته من تقديم وتأخير مقارنا بين عمل «كان وأخواتها» وهي فعل و «إن واخواتها» وهي حرف من حيث قوة كل منهما أنها «عملت عملين: الرفع والنصب، كما عملت «كان» الرفع والنصب حين قلت: «كان اخاك زيد»، الا انه ليس لك أن تقول: «كأن اخوك عبدَ اللّه» وتريد: «كأن عبدَ اللّه اخوك»، لانها لا تصرَّف تصرُّف الافعال، ولا يضمر فيها المرفوع كما يضمر في «كان» فمن ثم فرقوا بينهما كما فرقوا بين «ليس» و «ما» فلم يجروها مجراها، ولكن قيل: هي بمنزلة الافعال فيما بعدها وليست بأفعال[2]»، وتتضح من هذا نظرته الى العوامل فـ «كان» فعل وهي عامل أصلي لذلك يجوز التقديم والتأخير بين أسمها وخبرها، ويجوز اضمار اسمها فيها، و

---

(١) الكتاب، ١٣٥/٣، وينظر في هذه العبارة، ص١٣٤-١٣٧.

(٢) الكتاب، ١٣١/٢، وينظر في كف العامل عن العمل، ١١٦/٣ و ٣٨٢/١.

«أنَّ» حرف بمنزلة الفعل فهي عامل غير اصلي في هذا العمل وانما هو محمول على الفعل لذلك ضعف عنه ولم يصح فيه تقديم خبره ولا الاضمار فيه. وظهرت عنده فكرة تعليق العامل وهو اعماله معنى دون لفظ لعروض أداة تمنع تأثيره اللفظي فيما بعده قال في الفرق بين «إن» و «أن»: «تقول: «أشهد إنه لمنطلق» بمنزلة قوله: «والله إنه لذاهب» و «إن» غير عاملة فيها «أشهد» لان هذه «اللام» لا تلحق ابداً الا في الابتداء، الا ترى انك تقول: «أشهد لعبدالله خير من زيد» كأنك قلت: «والله لعبداللّه خير من زيد»؟ فصارت «إن» مبتدأة حين ذكرت «اللام» هنا، كما كان «عبداللّه» مبتدأ حين أدخلت فيه «اللام» فاذا ذكرت «اللام» ههنا لم تكن الا مكسورة، كما أن «عبداللّه» لا يجوز هنا الا مبتدأ، ولو جاز أن تقول: «أشهد أنك لذاهب» لقلت: «أشهد بلذاك».

فهذه «اللام» لا تكون الا في الابتداء... وقال الخليل: «أشهد بأنك لذاهب» غير جائز، من قبل أن حروف الجر لا تعلق وقال: أقول: «أشهد إنه لذاهب وإنه لمنطلق» أُتبع آخره أوله، وإن قلت: «أشهد أنه ذاهب، وإنه لمنطلق» لم يجز الا الكسر في الثاني لأن «اللام» لا تدخل ابدا على «أنَّ» و «أنَّ» محمولة على ما قبلها، ولا تكون إلا مبتدأة باللام[1]».

ومثله في التعليق قوله متحدثا عن الآية: «إن اللّه يعلم ما تدعون من دونه من شيء»: فـ «ما» ههنا بمنزلة «أيّهم» و «يعلم» معلقة[2].

وكما يعمل العامل ظاهرا عنده يعمل مُقدَّرًا في قول سيبويه: «ومن ذلك قولهم «مرحبًا» و «أهلاً» و «إن تأتني فأهل الليل والنهار». وزعم الخليل رحمه الله حين مثله أنه بمنزلة رجل رأيته قد سدد سهما فقلت: «القرطاس» أي: «أصبت القرطاس» أي: انت عندي ممن سيصيبه، وان أثبت سهمه قلت: «القرطاس» أي «قد استحق وقوعه بالقرطاس» فإنما رأيت رجلاً قاصداً الى مكان أو طالبًا أمراً فقلت: «مرحبًا وأهلاً» أي: أدركت ذلك وأصبت، فحذفوا الفعل لكثرة استعمالهم»[3].

ومما قدر فيه الخليل فعلا محذوفا لا يحتاج الكلام إليه ماجاء في قول سيبويه: «وسألت الخليل رحمه اللّه عن قوله:

الا رجلا جزاه اللّه خيرًا ... يدلُّ على محصّلةٍ تَبيتُ

فزعم انه ليس على التمني، ولكنه بمنزلة قول الرجل: «فهلا خيراً من ذلك» كأنه قال: «ألا ترونني رجلاً جزاه اللّه خيرًا؟»[4] ويمكن أن نعدَّ هذا من باب التفسير بالمعنى.

---

(١) الكتاب، ١٤٦/٣-١٤٧.

(٢) العنكبوت، ٤٢ والكتاب ١٤٨/٣.

(٣) الكتاب، ٢٩٥/١، وينظر ٢٨٠-٢٩٥ و ٢٩٥ - ٢٩٧ في مثل ذلك الحذوف.

(٤) الكتاب، ٣٠٨/٢، وينظر ٦٥/٢-٦٦ و ٦٩ و ٧٠-٧٧ وغيرها كثير.

أما استخدامه القياس فكثير جداً ومن أقربه وأكثره اختصاراً قياسه دخول «ما» على «الكاف» وكفها عن العمل وتهيئتها للدخول على الافعال بدخولها على «رُبَّ» وكفها عن عمل الجر وتهيئتها للدخول على الافعال. قال سيبويه: «وسألت الخليل عن قول العرب: «انتظرني كما آتيك» و «ارقبني كما ألحقك» «فزعم أن «ما» و «الكاف» جعلتا بمنزلة حرف واحد وصيرت للفعل كما صيرت للفعل «ربما»، والمعنى «لعلي آتيك» فمن ثم لم ينصبوا به الفعل كما لم ينصبوا بـ «ربما»......»[1] واستخدم التأويل كثيراً والتقدير للفعل العامل النصب، ولا سيما في باب «ما ينتصب على التعظيم والمدح» و باب «ما يجري من الشتم مجرى التعظيم وما أشبهه» و «باب ما ينتصب لانه خبر للمعروف المبني على ما هو قبله من الأسماء المبهمة» وغيرها كثير، يوضح ذلك قوله في بيتي ذي الرمة:

لقد حملت قيس بن عَيلان حربَها　　　علــى مستقـلٍّ للنوائـبِ والحــربِ

أخاها اذا كانت عَضاضًا سمالها　　　على كل حالٍ من ذَلول ومن صعبِ

«ان نصب هذا على أنك لم ترد أن تحدث الناس ولا من تخاطب بأمر جهلوه، ولكنهم قد علموا من ذلك ما قد علمت، فجعله ثناءً وتعظيماً ونصبه على الفعل فكأنه قال: «اذكر اهل ذاك»..... ولكنه فعل لا يستعمل اظهاره».

وأوضح من هذا في الدلالة على تخريج العبارة الغريبة الخارجة عن القياس وردها الى ما عليه القياس قوله في مجيء المنادى العلم المختوم بالتاء مفتوح الآخر «وزعم الخليل رحمه الله أن قولهم: «يا طلحةَ أقبلْ» يُشبه «يا تيمَ تيمَ عَديٍّ» من قبل أنهم قد علموا أنهم لو لم يجيئوا بالهاء لكان آخر الاسم مفتوحًا، فلما الحقوا «الهاء» تركوا الاسم على حاله التي كان عليها قبل أن يلحقوا الهاء» وقال النابغة الذبياني:

كِليني لِهَمٍّ يا أُميمةَ ناصبِ　　　وليلٍ أُقاسيه بطيءِ الكواكبِ

فصار «يا تيمَ تيمَ عَديٍّ»، اسما واحدا، وكان الثاني بمنزلة «الهاء» في «طلحة» تحذف مرة ويجاء بها اخرى، والرفع في «طلحة» وفي «يا تيم تيم عدي» القياس»[2] من هذه الامثلة ومن معظم مالم نذكره يتضح مدى ما وصلت اليه قواعد النحو وأقيسته وأُصوله وبحوثه من نضج وكمال. ولو تتبعنا الاصول التي اعتمد عليها الخليل في ذلك كله لوجدناه يعتمد كثيراً على السماع ويعتد به وهو الاصل الذي وضعت عليه الأقيسة وقعدت عليه القواعد بعد النظر الى كثرة المسموع واطِّراده أو قلته لكنه هو كل ما سمع في الموضوع وذلك ما جاء في قول سيبويه: «زعم الخليل -رحمه الله-

---

(١) الكتاب، ٣/١١٦، وينظر مثله ١/٢٨٢.

(٢) الكتاب ٢/٦٥-٦٦. وعضاضاً: عاضة يعني الحرب و ٢/٢٠٧-٢٠٨.

أنه سمع من العرب رجلا يقول: «ما أنا بالذي قائل لك سُوءًا، و«ما أنا بالذي قائل لك قبيحًا»[1]. وفي قوله متحدِّثًا عن «كُلّ» و«أوّل» و«خير» وما أشبهها مما يلازم التنكير مع إضافته: «ومما يدُلُّكَ على أنهنَّ نكرة، أنّهنّ مضافات إلى نكرة وتوصف بهنّ النكرة؛ وذلك أنك تقول فيما كان وصفا: «هذا رجلٌ خيرٌ منك» و«هذا فارسٌ أوّلُ فارسٍ» و«هذا مالٌ كُلُّ مالٍ»... وحدثنا الخليل أنه سمع من العرب من يوثق بعربيته يُنشد هذا البيت، وهو قول الشَّمّاخ:

وكلُّ خليلٍ غيرُ هاضِمِ نفسهِ لوصلِ خليلٍ صارِمٌ أو مُعارِزُ[2]

فجعله صفة (كلّ). فالخليل يؤكد الحكم بما جاء مسموعًا في الشعر، وقد يكون المسموع في النثر، يرويه ويفترض عبارات أو استعمالات يقيسها على المسموع ويجيزها، ويتضح ذلك في قول سيبويه: «وحدثني من لا أتّهمُ عن الخليل أنه سمع أعرابيًا يقول: «إذا بلغ الرجلُ الستين فإيّاهُ وإيّا الشوابِّ» ولهذا قال بانيًا عليه: «لو أن رجلاً قال: «إيّاك نفسكَ» لم أعنِّفْهُ؛ لأن هذه الكاف مجرورة»[3]. فالمسموع هو الأصل عنده. فإذا تعارض السماع والقياس لجأ إلى السماع. يتضح ذلك مما نقله سيبويه عنه، قال: «قال الخليل: كل شيء من ذلك عدلته العرب تركته على ما عدلته عليه، وما جاء تاما لم تحدث العرب فيه شيئًا فهو على القياس، فمن المعدول الذي هو على غير قياس قولهم في «هُذَيلٍ» : «هُذَليّ» وفي «فُقَيم كِنانة»: «فُقَمِيّ»، وفي «مُلَيح خُزاعة»: «مُلَحِيّ»، وفي «ثَقيف» «ثَقَفِيّ»[4]....»، وقوله في أمثلة يفترضها سيبويه فيقول: «وسألته عن رجلٍ اسمه «فو» فقال: العرب قد كفتنا أمر هذا، لما أفردوه قالوا «فم» فأبدلوا «الميم» مكان «الواو» حتى يصير الى مثال تكون الأسماء عليه... فإذا سميته بهذا فَشَبِّهْهُ بالأسماء كما شبّهت العرب، ولو لم يكونوا قالوا «فم» لقلتَ: «فَوْهُ» لانه من الهاء، قالوا: «أفواه» كما قالوا: «سوْط» و«أسواط»[5]..».

واستخدم الخليل لوصف هذا المسموع معايير مثل: «مطرد» و«حسن» و«كثير» و«غالب» و«نادر» و«شاذ» وهذا كثير في وصف الظاهرة أو البناء أو اللغة. واستخدامه القياس والتعليل بأنواعه والتأويل كثير جدا لا يحتاج الى زيادة تمثيل.

ومن منهجه الاعتداد بالقراءات وقد رأينا بداية ذلك عند أبي عمرو بن العلاء من شيوخه فهو لم يطعن بالقراءات كما فعل الفراء والكسائي، ولم يخطيء قراءة وانما كان يقيس عليها ما يضعه

---

(١) الكتاب، ١٠٨/٢.

(٢) المعارز: المنقبض.

(٣) الكتاب، ١١٠/٢ و ٢٧٩/١.

(٤) الكتاب، ٣٣٥/٣-٣٣٦.

(٥) الكتاب، ٣/ ٣٣٦.

من عبارات أو يقيسها على ما جاء في كلام العرب الفصيح ويكفينا للاستدلال على ذلك قول سيبويه:

«وسألته عن قوله عز وجل:«وما يُشعِرُكُم إنها اذا جاءت لا يؤمنون» ما منعها أن تكون كقولك: «ما يدريك أنه لا يفعل»؟ فقال: لا يحسن ذا في ذا الموضع انما قال: «وما يشعركم» ثم ابتدأ فأوجب فقال: «إنها اذا جاءت لا يؤمنون»، ولو قال: «وما يشعركم» «أنَّها اذا جاءت لا يؤمنون»، كان ذلك عذراً لهم. وأهل المدينة يقولون «أنها» فقال الخليل هي بمنزلة قول العرب «ائْتِ السوق أنك تشتري لنا شيئًا» أي: «لعلَّك» فكأنه قال: «لعلها اذا جاءت لا يؤمنون»[1].

أما غير ذلك من دراسات في الابنية والاساليب العربية التي نماها ووسعها فمنه ظاهرة الافتراض التي رأينا أمثلة منها عند يونس وأبي عمرو بن العلاء ونجد هذه الظاهرة عند الخليل عامة شائعة ولاسيما في مسائل التصريف، وفيما يقلب اليه العبارة على الأوجه الجائزة فيها مما ورد عن العرب ومما لم يرد ولو قال به قائل صح. ومنه ظاهرة اهتمامه بالأدوات وتحليلها والقول بتركيب الكثير منها نوجز ذكر أمثلة منها، وذلك قوله في: «ليس» أنها مركبة من «لا أيس» ثم طرحت الهمزة والألف والزقت اللام بالياء، وفي «مهما» أن أصلها «ما» الشرطية ادخلت عليها «ما» الزائدة كما دخلت في: «أينما» و «حيثما» و «كيفما»، وفي «لن» أنها مركبة من «لا أن» ثم خففت بحذف الهمزة، ثم الألف لالتقاء الساكنين... وغيرها[2].

وهكذا استتب كثير من موضوعات النحو وأبوابه وأصوله وأقسامه وفروعه على الصورة التي جاءت عند الخليل، واتضحت في كتاب سيبويه، ولم يزد عليه سيبويه ويونس وتلاميذهما ومن جاء بعدهم سوى بعض التفسيرات والمخالفات في التعليل والاحكام، وسوى ما جره تأثر المتأخرين بالفلسفة وعلم الكلام وما ترجم من علوم من ادخال الجدل والتعليل والقياس الجاري على أصول هذه العلوم، وقد اتضح ذلك منذ زمن المبرد. أما الكوفيون فلم يزيدوا شيئاً ذا بال الا ادخالهم بعض

---

(١) سورة الانعام ١٠٩، وهي في المصحف بفتح الهمزة، والكتاب ١٢٣/٣، وينظر في موقفه من السماع والقياس والعلة والقراءات والحديث (كتاب الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه).

(٢) ينظر في ذلك لسان العرب (ليس) والكتاب ٢٣٣/٤ و ٥٩/٣ -٦٠و٣/٥و٢٥/١ و ١٩٥/٢ و ١٩٦ و ٥١/٣ و ١٥١ و ١٦٤ و ٣٣٢ و ٥٣٢ و ٤ / ٢٢٢ و ٣٢٣ وينظر فيها بتفصيل الخليل بن أحمد الفراهيدي، وعبقري من البصرة، ومدرسة الكوفة.

المسموع والنادر ضمن المقيس، وقولهم بظواهر جديدة لا تعد شيئًا اذا ما قورنت بما جاء به الخليل، وكان ذلك نتيجة توسُّعهم في السماع ورواية الشعر الذي لم يحتجّ به البصريون مما جاءت فيه ظواهر لم يستخدمها الشعراء الجاهليون والاسلاميون. أما ما جاؤا به من مصطلحات فلم يستنبطوا أبوابها وأقيستها وقواعدها وانما هي الابواب والبحوث نفسها وان حدث تغيير في التسميات.

المبحث الثاني

خصائص المذهب النحوي في البصرة

تميز النحو البصري في مراحل نشوئه ونموه وتكامله ونضجه على يدي الخليل بن أحمد بخصائص لمسناها من مناهج النحاة الذين بذلوا الجهد العظيم في سبيل بنائه على أصول سليمة وعلى مادة فصيحة اقرب ما تكون الى لغة الكتاب العزيز ولغة القبائل التي عدت لغتها قمة الفصاحة والنقاء واتبعوا في سبيل ذلك منهجًا اقتنعوا بسلامته وجودته بعد طول التتبع والمباحثة والمناقشة في مجالسهم. ولهذا فقد وصل إلينا هذا النحو بمجموعه -الا ما شذ- ممثلا في كتاب سيبويه الذي حوى آراء السابقين وجهودهم منذ زمن أبي الاسود الى زمن الخليل ويونس وسيبويه المتعاصرين الذين اكتمل في زمانهم بناء النحو وثبتت أركانه وتبينت أبوابه وفصوله وأقسامه، واتضحت اصولهم التي اعتمدوا عليها في كل هذا. ونستطيع في ضوء ما تتبعناه في نحوهم أن نجمل خصائص هذا الدرس النحوي عند البصريين بأمور لا نود الإطالة فيها لاتضاحها وظهورها في مناهج النحاة أنفسهم.

١- اعتمدوا على السماع، وقد وجدنا علماء اللغة ورواتها وعلماء النحو عامة وعلى رأسهم عيسى بن عمر وأبو عمرو بن العلاء والخليل يبذلون الجهود الجبارة في السماع عن العرب وتدوين ما يسمعون أو حفظه سواء أكان ذلك بالخروج الى بوادي نجد وتهامة والحجاز وما جاور البصرة من بوادي الجزيرة العربية التي كانت مقرا للاعراب الفصحاء أم بالسماع ممن يفدون في المواسم الادبية الى المربد من الأعراب والشعراء والخطباء والفصحاء. ثم اخذوا هذا المسموع الذي جمعوه من شعر ونثر فدرسوه وصنفوه الى فصيح وأفصح وهذا الفصيح منه ما هو مطرد شائع كثير، ومنه ما هو ظواهر قليلة اذا ما قيس الى الأصل والمسموع في اللغات نفسها، فعدوا المطرد الشائع من الفصيح اصلا يقاس عليه وبنوا عليه الاقيسة التي جعلوها ثابتة، واتخذت صورتها النهائية على يدي الخليل بعد أن كان سابقوه الذين عاشوا قبل منتصف القرن الثاني للهجرة يعدلون من أقيستهم اذا سمعوا ظاهرة جديدة عن شاعر مطبوع أو أعرابي صحيح السليقة فصيح اللغة، وفي زمن الخليل ثبتت هذه الاقيسة، وسموا ما كان واردًا في لغات العرب أنفسها مما هو قليل «مسموعًا»، وان كان مقاربًا لاقيستهم عدوه جائزًا الا انه لا يصح القياس عليه، وسموا ما خالف هذا الفصيح مما سمعوه من لغات العرب الذين لم يعدوا ظواهر لغتهم مما يصح القياس

عليها لمخالفتها الظواهر في اللغات الاخرى، سموا هذا لغة. فان وقع في شعر ونثر وقل فهو مسموع نادر أو قليل. وان كان ظاهرة مفردة فيهما فهو الشاذ، وان وقع في شعر ولم يقع في نثر فإن اجازوه فيه سموه ضرورة، ومالم يتقبلوه سموه شاذًا، ولم يقيسوا على المفرد الشاذ المخالف للكثير المطرد.

٢- وضعوا الاقيسة كما بينا على الكثير المطرد من كلام العرب المسموع، وأول هذا المسموع كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وجعلوا هذه الاقيسة ثابتة منذ زمن الخليل ولم يغيروا بتغير المسموع الذي يرد اليهم بعد ذلك، فقد وقفوا في اللغة المنثورة المقيس عليها عند منتصف القرن الثاني للهجرة أي بنهاية العصر الاموي وبداية العصر العباسي، واشترطوا في اللغات التي يقاس عليها أن تكون فصيحة مختارة لذلك عدوا لغة قريش أفصحها وهي قبيلة الرسول الكريم (ﷺ)[1] وقد كانت «أجود العرب انتقاداً للافصح من الالفاظ على اللسان عند النطق، واحسنها مسموعًا وإبانة عما في النفس» وكانت مع «فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها اذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى كلامهم فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات الى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها فصاروا بذلك افصح العرب». ونقلت اللغة العربية عن قبائل اخرى اقتدي بلغتها وهم قيس وتميم وأسد ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين فعن هؤلاء معظم ما أخذه البصريون واعتمدوا عليه في دراسة الغريب والإعراب والتصريف. أما الشعر فقد احتجوا بأشعار الطبقات الثلاث الأول في تقسيم ابن رشيق في «العمدة» وهي طبقة الشعراء الجاهليين وطبقة المخضرمين وطبقة متقدمي الاسلاميين كجرير والفرزدق والاخطل ومن عاصرهم، وبابن هرمة (ت بعد ١٤٠هـ) وقف الاحتجاج عند البصريين[2]. على هذين النوعين المسموعين من كلام العرب وبهذه الشروط وضع النحويون البصريون أقيستهم التي اعتمدوا عليها وأكثروا منها وفرعوها وبنوا عليها قواعد النحو

---

(١) ينظر المزهر، ٢٠٩/١، وما بعدها.

(٢) هو ابراهيم بن علي بن سلمة بن هَرْمَة بن هُذيل: ولد سنة ٩٠هـ، أنشد ابا جعفر المنصور في سنة اربعين ومائة (١٤٠هـ) قصيدة فيه. ثم عمّر بعدها مدة طويلة (الأغاني ٣٩٧/٤) ، انظر ترجمته فيه (٤-٣١٧-٣٩٧) ط دار الكتاب والشعر والشعراء ترجمة رقم ١٧٩ . وينظر في شروط اللغة المسموعة التي يقاس عليها ورواتها وزمانها وقبائلها: الصاحبي في فقه اللغة ٥٢-٥٣ و٦٢-٦٣. والخصائص ٣١/٢-٣٥ و ٢٥و٥-٨و٣٠و٣٣و٩٣/١-٩٤و٩٩ وغيرها، ولمع الأدلة ٨٤-٨٥ و ٨٠-٩٢ وكتب السيوطي الاقتراح والمزهر والاشباه والنظائر وهمع الهوامع في مواضع متعددة منها وخزانة الادب للبغدادي ٦/١-٨ والعمدة ١١٣/١ . والشعر والشعراء، ٦٣/١، والشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه القسم الثاني السماع والقياس.

النحو والصرف، وجعلوا للقياس أركانًا ولهذه الأركان شروطًا وقسموها أقسامًا[1]، وهكذا وضعوا أقيستهم على أصول ثابتة لا يغيرها ما يجدُّ من مسموع بعد هذه.

٣- وقفوا من القرآن الكريم وقراءاته موقف المدافع عما يرد في الكتاب العظيم فقاسوا على آياته ما اجازوه من قواعد، وأجازوا ما جاء في قراءاته المتواترة، ولم يصدر عنهم طعن في قراءة أو تخطئة لقارىء شاذة كانت قراءته أم غير شاذة كما قسمها أبو بكر بن مجاهد (٢٤٥-٣٢٤هـ) لم يختلف في ذلك أحد منهم فليس في كتاب سيبويه ما نسبه المتأخرون المتعصبون للكوفيين من أنهم أول من خطأوا القراء، وقد كان هذا اتهامًا باطلاً لهؤلاء النحاة القائمين على لغة القرآن الكريم، وكل ما هنالك أنهم كانوا يخرجون بعض القراءات الشادة عن اقيستهم اما بتفسير وتقدير يتطلبه المعنى ويوحي به، واما بِعدِّها واردة على لغات العرب التي لم يبن البصريون عليها أقيستهم لضعفها وقلتها، ومع ذلك فهي لغة عربية يؤخذ بما جاء فيها من ظواهر نحوية وصرفية ولغوية وان كان لا يقاس عليها.

وأود أن أشير هنا -وان كان في هذا سبق لما يجب أن يكون عليه هذا البحث- الى أن الذي صح وثبت بمراجعتي للقراءات التي اتُّهِم البصريون بتخطئتها أو الطعن فيها- في كتاب سيبويه ممثل النحو البصري و «معاني القرآن» ممثل آراء الكوفيين ونحوهم. ما أثار دهشتي. وذلك أن أول تخطئة وطعن وجه الى هذه القراءات كان صادراً عن الكسائي شيخ القراء والنحاة الكوفيين، وتابعه تلميذه الفراء الذي انصرف الى العمل القرآني فجسر النحاة الذين عاصروه أو جاءوا بعده على تخطئة القراء والطعن في القراءات ابتداء من المازني والمبرد وابن جني، الذين اقتدوا بهذين الشيخين الكوفيين...

اما الاحتجاج بالحديث النبوي فلم يرد في كتب النحاة الأوائل كوفيين كانوا أم بصريين أنهم عدوه من أصول الاحتجاج، ولا اعتمدوا عليه في استنباط قاعدة أو اثبات ظاهرة يؤخذ بها ويقاس عليها مما خالف منه الوارد في كتاب الله وكلام العرب الفصحاء منثوره ومنظومه، وقد كان أبو الحسن بن الضائع (-٦٩٠هـ) أول من تنبه على أن ابن خروف قد احتج بالحديث وخالف بذلك سنة النحاة السابقين، ثم جاء أبو حيان ولاحظ مبالغة ابن مالك في بناء الاقيسة والقواعد عليه فردّ عليه، وعلل هذا الرد بأن الحديث روي بالمعنى، وان معظم رواته غير عرب ولا يستطيعون التعبير عن معنى الحديث بعبارات يصح تركيبها وتأتي على أسلوب الرسول (ﷺ). وما يزال الباحثون مختلفين

---

(١) ينظر هذا في الكتب السابقة وفي الشواهد: كتاب الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه قسم ٢، القياس ٢٢١، ومابعدها.

في الاسباب التي دعت الي ابعاد الحديث عن مجال الاحتجاج وكل منهم يعلل بعلة يراها، ويقترح رأيا يعرضه ويدافع عنه[1].

وبعد هذا العرض لما بنى عليه البصريون نحوهم نوجز موقفهم من هذين الاصلين وهما السماع والقياس. وذلك انهم كانوا يعدون السماع الاصل وان وجد القياس، فاذا اجتمع السماع والقياس في الظاهرة الواحدة اخذوا بكل منهما وان اختلف السماع والقياس فيها فضلوا السماع على القياس واخذوا بالمسموع ولم يقيسوا، وان لم يكن لديهم المسموع فيها لجأوا الى قياسها على امثالها. فإن ورد عن العرب الفصحاء أو عن شاعر من الشعراء الذين يحتج بشعرهم أو في قراءة قارئ غير متواترة ما خالف اقيستهم مما لا يستطيعون تخطئته أو رده لجأوا الى التفسير والتأويل بتقدير محذوف ونحوه ينسجم مع المعنى ويوافق الاقيسة، وقد كثر هذا عندهم، الا انه لم يكن كما وصفه بعض الباحثين من أن نحوهم يعتمد على التأويل، أما التعليل، فلم يتضح عندهم ما رموا به من أنهم أفسدوا النحو بتعليلاتهم وانما كان تعليلهم -كما لاحظنا عند النحاة ومنهم الخليل وسيبويه- يرد على الصورة السهلة الواضحة التي يدعو اليها البحث في الظاهرة وعرض احكامها واصولها من تبيين لعلل ورود هذه الموضوعات أو الظواهر الاعرابية والصرفية والصوتية على الصورة التي وردت وايضاح اسباب ذلك للدارسين من العرب وغيرهم من الاقوام التي دخلت في الاسلام والتي وُضع النحو ودراسات العربية من أجلهم مما كان لابد منه ولا مفر منه، وهو ما سماه الزجاجي العلة التعليمية، وهي أول العلل وأوضحها[2].

(١) ينظر الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه موضوع الحديث في القسمين، وكذا موضوع القراءات فيهما وينظر ذلك مفصلا في كتاب: «موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث الشريف».

(٢) ينظر في العلة واقسامها الايضاح في علل النحو ٦٤-٦٥ والخصائص ٢٤٩/١ والاغراب في جدل الاعراب في فصول متعددة منه. والاقتراح للسيوطي ٢ و ٤٧ -٤٨ و ٥٦-٥٧ وغيرها والشاهد وأُصول النحو في كتاب سيبويه، في أنواعها ومن بحث فيها وموقف سيبويه والخليل منها ٣١٧ وما بعدها.

سيبويـــه

حياته:

هو عمرو بن عثمان بن قنبر مولى بني الحارث بن كعب[1]، اشتهر بين النحاة بلقبه هذا، ولد في دولة بني العباس ويرجح ان ولادته كانت في حدود سنة ١٣٥هـ، انتقل واهله من قرية البيضاء بشيراز واستقر في البصرة التي كانت مركزا للثقافة الاسلامية ومقرا للدراسات الدينية والنحوية، وكان صبياً، فأخذ فيها علم القراءات ثم طلب الفقه والحديث على حماد بن سلمة المحدث المشهور الفصيح الذي كان يعنى بالعربية، وكان يقول «من لحن في حديثي فقد كذب عليّ[2]» وحدث أن قال حماد يوماً «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم» ليس أحد من أصحابي الا وقد اخذت عنه ليس أبا الدرداء» فقال سيبويه «ليس أبو الدرداء» ظانا انه اسم ليس فقال له حماد«لحنت يا سيبويه، ليس هذا حيث ذهبت، انما «ليس» «استثنت» فقال سيبويه سأطلب علما لا تلحنني فيه ابدا. وطلب النحو أولا على عيسى بن عمر الثقفي فيما يقال وهو صبي فلما مات لزم حلقة الخليل واختص به. وكان هذا اللحن سبباً لان يندفع في سماع اللغة وروايتها عن حلقات اللغويين مثل أبي عمرو بن العلاء والاخفش الكبير أبي الخطاب ويونس بن حبيب مع ملازمته حلقة الخليل وأخذه عنه كل ما عنده من آراء ومناهج نحوية اتبعها في تحديد هذه الآراء وتقريرها، فكان يكتب عنه كل ما يسمع منه ويدون كل ما كان يدور في هذه الحلقة من مناقشات بين شيوخه في الآراء النحوية والصرفية واللغوية، ويثبت كل ما يروون من اشعار الشعراء وما يحتجون به من كلام العرب وما يردّونه منها، ولا ينصرف إلى تدوين ما يتّفقون فيه فقط، وإنما كانوا يدوِّن ما يتفقون فيه وما يختلفون مثبتًا لكل منهم دليله وحجته، ولم يكتف بما يكتبه عن طريق السماع ولم يكن دوره دور المتفرج والمدون وانما شارك في المناقشات التي كانت تجري في هذه الحلقات وكان مثال التلميذ الواعي يسأل عن كل مالم يفهمه مما يجري البحث فيه، ويستفسر عن أمور لم يكن الخليل قد تنبه عليها، أو اهتم بشرحها أو توضيحها، ويفترض ظواهر لم ترد في الكلام متوقّعًا ورودها طالبًا معرفة الحكم فيها، يتضح كل هذا في مسائل كتابه الذي كان موسوعة علمية لرجال النحو البصري وآرائهم واتفاقهم واختلافهم، وكانت شخصية سيبويه ظاهرة بارزة في معظم الابواب فهو المحور الذي يوجه هذه

---

(١) تنظر ترجمته في معظم كتب الطبقات ومنها: مراتب النحويين ٦٥ واخبار النحويين البصريين ٣٧ وطبقات النحويين واللغويين ٧٣-٧٤ ونزهة الالباء ٣٨ ونور القبس ٩٥-٩٧ وينظر سيبويه امام النحاة وسيبويه حياته وكتابه وغيرها كثير مما اختص به.

(٢) اخبار النحويين البصريين، ٣٤.

المناقشات، وبذلك اغنانا بذهنه المتوقد وبحرصه على الا يضيع شيئًا مما يسمع عن أيٍّ من الكتب التي قيل انها الفت في زمانه أو قبله، والتي ربما يكون قد اطلع على بعضها.

لم تذكر كتب التراجم أخباراً تدل على خروجه الى البوادي للسماع ولتدوين اللغة كما فعل شيخه الخليل ومعاصره الكسائي، الا ان كثرة مافي كتابه من عبارات تدل على السماع للشعر والنثر اللذين يوردهما مصحوبين بقوله: «سمعنا العرب يقولون» و «وسمعناه ممن ترضى عربيته» و «وسمعنا من يوثق بعربيته يقول..» و «هذا على ما سمعنا العرب تتكلم به رفعا» و «سمعت أعرابيًا يقال له أبو مرهب يقول» و «سمعت رجلين عربيين يقولان»، وغيرها من عبارات توضح سماعه عن غير شيوخه، وظل كذلك يرفد العربية حتى توفي سنة ١٨٠هـ مخلفا لنا كتابه الذي لا يزال عمدة الدارسين.

الكتاب:

اختص بهذا الاسم من بين الكتب المؤلفة في النحو حتى أصبح هذا علمًا عليه بعد موته فلم يحاول أحد من تلاميذه بعده -وفيهم الاخفش سعيد بن مسعدة ابو الحسن الذي كان حامل الكتاب وراويه- أن يضع له اسماً يعرف به وأبقاه كما تركه صاحبه كتابًا منفرداً في هذا العلم لا ثاني له في عصره لشموله واتساعه وأهميته، فقدأعجلته المنية عن أن يفكر في وضع اسم له، فذاع واشتهر باسم «كتاب سيبويه» أو «الكتاب»، وعرفه النحاة من تلاميذه وتلاميذهم الى يومنا هذا بهذا الاسم، مع أن سيبويه لم يقرأه على أحدفي حياته سوى ما ذكره معاصره وتلميذه أبو الحسن الاخفش من أن سيبويه كان اذا وضع شيئًا من كتابه عرضه عليه[1]. وهو الوحيد الذي كان عارفًا بوجوده مالكًا لنسخته الفريدة فيما يروي المؤرخون، الا أن صالح بن اسحاق ابا عمر الجرمي بذل للاخفش شيئًا من المال على أن يقرئه هو وزميله ابا عثمان المازني كتاب سيبويه فأجاب طلبهما وشرعا في القراءة عليه واستنساخه منه حتى أتماه، ثم أظهراه، وأذاعا بين الناس أنه لسيبويه بحسب ما اتفقا عليه[2]، ففوتا على أبي الحسن فرصة اخفائه ثم ادعائه انه كتابه كما كانا يظنان. وسواء أصح ما ذهب اليه ظن هذين في الاخفش ونيته أم لم يصح، فقدقاما بأول خطوة خدمت الكتاب وصاحبه، ومكنت الدارسين من بعده بصريين وكوفيين، ومن جاء بعدهم من نحاة الاقطار الاسلامية الاخرى -كما سنرى- من الاستفادة منه، وعن الأخفش اخذه الكسائي واستنسخ له نسخة منه، وعنها عمل الفراء نسخته واهتما به واستفادا منه في نحوهما من غير أن يظهرا للناس

---

(١) مراتب النحويين ٦٩ وطبقات النحويين واللغويين ٦٩، وانباه الرواة، ٢/٣٥٠.

(٢) نزهة الالباء، ٩٧.

ذلك[1]. واهتم الناس به وقدروه وعدوه أكبر هدية تقدم الى الملوك والوزراء، حدث الجاحظ قال: «اردت الخروج الى محمد بن عبدالملك الزيات وزير المعتصم ففكرت في شيء أهديه له، فلم أجد شيئًا أشرف من كتاب سيبويه، فلما وصلت اليه قلت له: لم أجد شيئًا أهديه لك مثل هذا الكتاب، وقد اشتريته من ميراث الفراء، فقال: والله ما اهديت لي شيئًا أحب إليَّ منه. قال ابن خلكان: «ورأيت في بعض التواريخ أن الجاحظ لما وصل الى ابن الزيات بكتاب سيبويه اعلمه به قبل احضاره، فقال له ابن الزيات: أو ظننت أن خزانتنا خالية من هذا الكتاب؟ فقال الجاحظ: ما ظننت ذلك، ولكنها بخط الفراء ومقابلة الكسائي وتهذيب عمرو بن بحر الجاحظ -يعني نفسه- فقال ابن الزيات: هذه أجلُّ نسخة توجد وأعزّها، فأحضرها اليه فسّر بها ووقعت منه أجل موقع[2]. هذه الرواية تدلنا على مبلغ عناية المثقفين وعلماء النحو بالكتاب فالكسائي والفراء والجاحظ وابن الزيات جميعًا من خيرة العلماء والادباء والوزراء والمثقفين، وهذه هي عنايتهم بالكتاب ورعايتهم له، وقد استمرت هذه العناية وما زال المحدثون مهتمين به، ومازالت بحوثهم تَتَتَابعُ في مختلف فروع العلم فيه.

شهد بحقه ابن خلدون وذهب الى: انه سمي: «قرآن النحو» واصبح علما عند النحويين ولا غنى لامرىء في أنواع العلوم عنه ولا سيما الاسلامية فإنه فيها أساس وأيُّ أساس». وعده ابن حمزة الاصبهاني «زينة دولة الاسلام»[3] فهل يستحق «الكتاب» هذا الثناء والتعظيم؟ ان مما يدل على صحة هذه الأقوال ما يلاحظه كل من اطلع على تاريخ المدارس النحوية في الكوفة وبغداد ومصر والشام والاندلس، فقد كان «الكتاب» عدة للدارسين في هذه المدن والاقطار، لانه لم يكن للبصريين كتاب يجمع نحوهم قبله، ولم يظهر كتاب له قيمته بعده غير «المقتضب» للمبرد الذي كان معظم مسائله وابوابه مبنيًا على الكتاب مُسْتمدًا منه، وكانت كتب الصرف للمازني وابن جني وغيرهما مستمدة من أبواب الصرف في الكتاب ولهم فيها فضل الجمع والترتيب والتصنيف الذي ارتأوه[4].

أما نسبته الى سيبويه فلم يشك فيها أحد منذ أن كان في حوزة ابي الحسن الاخفش وان

---

(١) نزهة الالباء ٩٧، ووفيات الاعيان ١٧٧/٣، وينظر مراتب النحويين ٨٧-٨٨، وأخبار النحويين البصريين ٤٥، وطبقات النحويين واللغويين ٧٣ و ٧٤، ومعظم من ترجم له.

(٢) وفيات الاعيان، ١٣٣/٣.

(٣) مقدمة ابن خلدون ٥٤٧ ومفتاح العلوم ١٣٠ وينظر ضحى الاسلام ٣٨٥/٢.

(٤) تنظر الكتب التي ارخت لنحاة هذه البلدان ومن بينها طبقات النحويين واللغويين ٧٦ و ١١٩ و ٢٣٤ و ٢٥٦ ومقدمة الكتاب لعبد السلام هارون ومقدمة المقتضب، وتاريخ آداب العرب للرافعي، ٣٣٢/٣.

اختلفوا في استفادة سيبويه من كتابي عيسى بن عمر «الاكمال» و «الجامع»، ونرجح انه استفاد منهما أو من احدهما في الآراء التي أوردها في الكتاب، وهي كثيرة يرجح انه لم يحفظها عنه عندما كان يرتاد حلقته، لان عيسى توفي وما يزال سيبويه صبيًا غير قادر على حفظ هذا المقدار المتنوع من الآراء والروايات والاخبار، الا انه كان يسجل ما يدور في حلقته وما يرويه ويقول به من آراء كما كان يفعل بعد ذلك في حلقة الخليل. كما وردت روايات في استفادته من كتاب اسمُهُ «الفيصل» قيل ان ابا جعفر الرؤاسي كان قد ألّفه وان الخليل اخذه منه وحشاه وكوّن «الكتاب». وهذا القول مردود بأن من ترجموا للرؤاسي من القدماء والمحدثين عدوه في طبقة المؤدبين وأنه كان مطروح العلم ليس بشيء[1].

أما زمن تأليفه فيبدو أنه ألّف بعضه في حياة شيخه الخليل، وألّف بعضه الآخر بعد وفاته، لانه بدأ يترحم على شيخه في هذا القسم ويلمح من رواية نصر عن ابيه انه قال لسيبويه حين أراد أن يضع كتابه، تعال نتعاون على أحياء علم الخليل، ما يدل على أنه الفه جميعه بعد وفاة الخليل، وان كنا نرجح الأول مع أن رواية نصر لا تتعارض معها، لانه قد يكون سيبويه ابتدأ بالتأليف قبل عرض أبي نصر ذلك عليه.

منهجه ومادته:

للكتاب منهج واضح بناه سيبويه وحدده ونظمه ورتب عليه العلوم التي ضمها هذا الكتاب، وان خلو الكتاب، من مقدمة يشرح فيها سبب التأليف أو زمانه أو مصادره أو سبب اتباعه هذا المنهج في التأليف، ومن خاتمة يبين فيها نتائج بحثه لا يعنى خلوه من منهج منظم جار على أسلوب منطقي رتبت فيه مواد الكتاب وأبوابه وقدم فيه منها ما رآه يستحق التقديم من الابواب والبحوث التي تعد مدخلاً لابواب الكتاب الاخرى. والذي يتضح للناظر فيه أنه عد علوم العربية البارزة ثلاثة هي النحو والصرف والدراسات الصوتية، وعلى هذا الاساس رتب كتابه فجاء الجزء الأول من طبعة بولاق وأول الجزء الثاني خاصًا بموضوعات النحو المستقلة، وجاءت بعدها موضوعات هي مما يدرس دراسة نحوية وصرفية وهي أبواب النسب والتصغير وجمع التكسير ووضع بعدها ما يتعلق بالصرف من ابنية الافعال وما يشتق منها ومصادرها وختم الكتاب بابواب في الدراسة الصوتية من الابدال والاعلال والإمالة والوقف والادغام، وكان هذا الترتيب فيما نرى

---

(١) ينظر: مراتب النحويين ٢٣ و ٢٤ وطبقات النحويين واللغويين ٢٣ و ١٣٥ والفهرست ٧١، ونزهة الالباء ١٣ و ٣٤ وإنباه الرواة، ٣٤٦/٢ و ٣٤٧ وبغية الوعاة ٢٣٧/٢ و ٨٢/١ وكشف الظنون ١٤٥/١ و ٥٧٦.

واضحًا منطقيًا دالاً على عقلية سيبويه التنظيمية، وعلى احساسه بتميز البحوث النحوية عن الصرفية عن اللغوية الصوتية. ولم يكن التنظيم والترتيب المنهجي واضحًا في هذا فقط وانما اتضح ايضًا بما جعله بداية افتتح به الكتاب من أبواب لابد من جعلها سابقة لغيرها لانها مقدمات لما سيجيء بعدها مما يرتكز عليها ويقوم بها، لهذا بدأ كتابه بـ «باب علم ما الكلم من العربية» قسم فيه الكلام الى اسم وفعل وحرف، وحاول ان يحدَّ كل نوع منها حداً وصفيًا يعتمد على الأمثلة التي توضح المحدود بعيداً عما عرف فيما بعد من الحدود المنطقية العقلية النظرية، وقسم فيه الفعل الى انواعه الثلاثة، ومثّل لكل نوع منها. وهذه المقدمة التي عدها سيبويه فاتحة الكتاب ظلت متبعة حتى عصرنا الحاضر. أو فلنقل حتى زمن ابن مالك الذي استقر في زمانه التأليف النحوي وترتيب الموضوعات والابواب فهو يبدأ ألفيته بهذا عينه فيقول مستخدمًا التحديد الذي عرف في زمانه متَّبعًا التقسيم نفسه:

كلامنا لفظ مفيد كـ: «استقم» واسم وفعل ثم حرف الكلم

وتبع هذا الباب آخرُ سماه: «باب مجاري أواخر الكلم من العربية» ذكر فيه أحوال الاعراب وهي أربعة الرفع والجر والنصب والجزم، واحوال البناء وهي اربعة الفتح والكسر والضم والوقف. وبين اقسام الكلام الذي تدخله علامات الاعراب وهي الاسماء المتمكنة، والافعال المضارعة لأسماء الفاعلين التي في أوائلها الزوائد الأربع الهمزة والتاء والياء والنون... وان النصب والرفع والجر والتنوين معها تقع في الاسماء، في حين يلحق الفعل المضارع الرفع والنصب والجزم، وهو في هذا كله يمثل لكل نوع. اما علامات البناء فتقع في الاسماء غير المتمكنة المضارعة عندهم ماليس باسم ولا فعل مما جاء لمعنى ليس غير[1]، نحو: سوف وقد. وللافعال التي لم تجر مجرى المضارعة وللحروف التي ليست باسماء ولا أفعال ولم تجِيءْ الا لمعنى[2]، ومثّل لك هذا بامثلة واضحة محددة وبين بعدها علامات بناء الماضي وسبب بنائه على الفتح لا السكون وبين أن الوقف للامر نحو «اضرب» وذكر علة اختصاصه بالوقف وتابع تمثيله لهذه الانواع التي تعرب بالحركات أو تبنى[3] عليها ثم انتقل الى ما يعرب بعلامات نائبة عن الحركات، وذلك المثنى وعلَّل الاحوال التي جاء عليها رفعا ونصبا وجرا ولماذا كانت الألف والياء المفتوح ما قبلهما وبعدهما نون مكسورة[4]، وأعقبه بذكر

---

(١) يقصد به الحرف.

(٢) الكتاب، ١/١٢-١٥.

(٣) الكتاب، ١/١٦-١٧.

(٤) الكتاب، ١/١٧-١٨.

ما جمع على حد التثنية والزائدتين اللتين تلحقانه ومثّل هذا وعلّله أيضًا[1]. ولم يقتصر على هذا وانما ذكر معه ما جمع بالالف والتاء وحكم اعرابه فجعلوه مقابلاً لاعراب الجمع الذي على حد المثنى، فالضمة في مقابل الواو رفعا، والكسرة في مقابل الياء جرا واعطيت للمنصوب كما نصب ذاك بالياء أيضًا[2].

وتحدث بعد الانتهاء من علامات هذه الأسماء عن علامات اعراب الفعل المضارع اذا لحقته علامة التثنية أو الجمع وفصل فيها وفي كون نونهما تابعة لنون الاسم المشابه لهما وزاد عليه ما أُلحقت به علامة التأنيث للمخاطبة وعلل فتح نونها، وذكر حكم النون في هذه الافعال التي سميت فيما بعد «الافعال الخمسة» في حالات الرفع والنصب والجزم ومثل لها، ثم تحدث عن علامات اعراب الممنوع من التنوين، وهو في خلال ذلك يذكر أُصولاً نحوية لغوية منها قوله «اعلم أن بعض الكلام أثقل من بعض، فالافعال اثقل من الاسماء، لان الاسماء هي الاولى وهي أشد تمكُّنًا فمن ثم لم يلحقها تنوين ولحقها الجزم والسكون وانما هي من الاسماء»، و «اعلم ان النكرة أخف عليهم من المعرفة، وهي اشد تمكُّنًا، لان النكرة أول ثم يدخل عليها ما تعرّف به، فمن ثم اكثر الكلام ينصرف في النكرة» و «واعلم ان الواحد اشد تمكُّنًا من الجميع، لان الواحد الأول ومن ثم لم يصرفوا ما جاء من الجميع على مثال ليس يكون للواحد نحو: مساجد ومفاتيح». و «واعلم ان المذكر أخف عليهم من المؤنث لان المذكر أول، وهو أشد تمكُّنًا ، وانما يخرج التأنيث من التذكير...» ذكر هذه الأصول جميعًا ليبين أنواع الممنوع من الصرف وعلل المنع فيه[3]. ثم عقد بابًا تحدث فيه عن ركني الجملة الاصليين وهما «المسند» و «المسند اليه» وبين فيه ما يشمل المبتدأ والخبر وما يدخل عليه من رافع أو ناصب، والفعل والفاعل. وتكلم على «باب اللفظ للمعاني» ذكر فيه ما اتفق لفظه واختلف معناه وما اتفق لفظه ومعناه وما اختلف لفظه ومعناه. ثم «باب ما يكون في اللفظ من الاعراض» ذكر فيه حذف ما يحذف لغير علة تصريفية أو إعرابية، وانما هو لمجرد التخفيف لكثرة دورانه على ألسنتهم، وترك ما ترك من الابنية لاستغنائهم عنها بغيرها لثقلها، وتعويض ما عوض فيه عن المحذوف. وبعده «باب الاستقامة من الكلام والاحالة» ذكر فيه ما يصح لفظًا وله في الخارج واقع يطابقه أو لا يطابقه وما لا يصح لفظًا ومعنى سواء أكان له واقع يطابقه أم لم يكن. نحو: «أتيتك أمس» و «سآتيك غدًا» و «أتيتك غدًا» و «سآتيك أمس» و «حملت الجَبَل» و «شربت ماء البحر» ونحوها. وختم هذه الابواب التي عدها مقدمة لابواب الكتاب النحوية والصرفية والصوتية بـ

---

(١) الكتاب، ١٨/١.

(٢) الكتاب، ١٨/١.

(٣) الكتاب، ١٩/١-٢٣ (هرون) و ٧/١ (بولاق).

«باب ما يحتمل الشعر» مما لا يجوز في النثر من حذف، أو زيادة بمد أو غيره، أو استعمال أصل متروك، أو مخالفة الاصل واجراء الوصل مجرى الوقف، واستخدام الظروف استخدام الاسماء وغيرها من الامور التي جاز وقوعها في الشعر ولم تجز في النثر[1]. ومما يدل على أن هذه الابواب جميعًا كانت مقدمات للكتاب انه ابتدأ بعدها مباشرة ابواب الكتاب الاصلية: باب الفاعل للفعل اللازم والمتعدي الى واحد أو الى اثنين أو الى ثلاثة... وهكذا مضى في ذكر ابواب النحو، وبعدها ابواب الصرف ثم أبواب الدراسات الصوتية وختمه بباب «ما كان شاذًا مما خففوا على ألسنتهم وليس بمطرد مثل قولهم: «بِلْعَنْبَر» و «بِلْحارِث» و «مَسْت» في «مَسِسْت» و «علماءَ بنو فلان» في «علَى الماء بنوفلان»[2] وأمثالها من عبارات وأبنية متفرقة جرت فيها تغييرات غير قياسية، وبهذه انتهى الكتاب.

أما مادته فقد شملت جميع ما يعرف اليوم من أبواب نحوية وصرفية بتقسيماتها المعروفة، وقد لاحظنا ذلك مما قدمناه من عرض واف للابواب الأولى ولم يشذ عنه من الابواب شيء ذوبال.

ولقد تكلمنا على منهج الكتاب ومادته لنبين عقلية سيبويه التنظيمية أولا، ولنوضح ما وصلت اليه الدراسات النحوية ومنهج التأليف فيها وأبوابها ومادتها من اكتمال ونضج على أيدي هؤلاء النحاة البصريين، ولا عجب بعد هذا أن يشيع الدرس النحوي البصري ويغلب على مناهج الدرس النحوي في الاقطار العربية والاسلامية.

اسلوبه وشواهده:

لكل مؤلف اسلوبه الخاص في التعبير عن آرائه وفي عرض مادته وتوضيحها للقراء مبنيًا على ما وصل اليه من ثقافة لغوية وأدبية وعقلية، ولكل علم من العلوم ألفاظه وعباراته الخاصة ومنهج يلتزم به الباحث. ولما كان النحو من العلوم التي يحتاج اليها كل عربي أو دارس للعلوم العربية أو كاتب بها عربيًا كان أم غير عربي احتاج من يؤلف فيه الى أن يتخذ اسهل الاساليب وأوضحها، وان يستخدم أوضح الالفاظ وابعدها عن التعقيد، ولأن النحوي يحتاج الى ايصال الفكرة والقاعدة النحوية الى ذهن المتكلم بأسرع صورة وأوجزها كان عليه أن يتبع أُسلوبًا بعيدًا عن الاطالة، وأن يتجنب اسلوب الاسترسال والوصف الانشائي، لكل هذا نجد اسلوب سيبويه في كتابه سهل المتناول قريبًا من الافهام يتقبله الذوق العربي النحوي العلمي في أغلب ما ورد من أبواب نحوية أو صرفية أو صوتية، وكان عرضه لهذه المادة النحوية الضخمة عرضًا يستطيع إدراكه وفهمه كل من

---

(١) الكتاب ١/ ٢٣- ٢٤.

(٢) الكتاب، ٤/٤٨١-٤٨٥.

يريد الاستفادة منه مبنيًا في الغالب على عرض آراء الشيوخ ومناقشاته لهم أو مناقشاتهم لبعضهم، معقوداً بلفظ هؤلاء الشيوخ -في احيان كثيرة- وهي قريبة من أسلوب سيبويه نفسه لان اللغة والموضوعات وطريقة عرضها واحدة. وهو في خلال ذلك كله يعرض شواهدهم وشواهده في الآراء التي يراها للاستدلال بها على هذه القواعد النحوية، والظواهر الإعرابية أو الصرفية أو الصوتية. وقد كانت هذه الشواهد تختلف بحسب الموضوع الذي يعرض له ففي الموضوعات الصرفية معظم شواهده مفردات وأبنية وأسماء منها أعلام ومنها غير أعلام، وأفعال مسموعة عن العرب مع مشتقاتها وأبنيتها، وهي في الموضوعات الصوتية تتراوح بين المفردات والعبارات القرآنية التي يرد فيها شاهد على ظاهرة من الظواهر مثل الامالة، أو الادغام أو الهمز أو تخفيف الهمز أو الوقف وغيره. وقد يستخدم بين هذا وذاك بعض العبارات المنثورة الواردة فيها هذه الظواهر اما في الموضوعات النحوية فقد كان يعتمد على العبارات المنثورة الواردة في فصيح الكلام العربي بعد آيات القرآن الكريم وعباراته التي هي أرقى الشواهد واسماها وأفصحها وأعلاها[1] مع الشواهد الشعرية التي كان قائلوها من احدى الطبقات الثلاث التي كان من منهج النحاة البصريين الاحتجاج بشعرها، وسنوضح ذلك ببعض الامثلة الدالة على سهولة الاسلوب وسلاسته. ومع هذا فلم يَخْلُ الكتابُ من عبارات معقدة متشابكة كما في قوله عند كلامه على باب «الامر والنهي»: «واما قول عَدِيّ بن زيد:

أرواحٌ مودِّعٌ أم بُكُورُ أنت فانظُرْ لأَيِّ ذاك تصيرُ؟

فانه على أن يكون في الذي يرفع على حالة المنصوب في النصب، يعني: أن الذي من سببه مرفوع فترفعه بفعل هذا يفسره، كما كان المنصوب ما هو من سببه ينتصب، فيكون ما سقط على سببيه تفسيره في الذي ينصب على أنه شيء هذا تفسيره، يقول: ترفع «أنت» على فعل مضمر، لان الذي من سببه مرفوع وهو الاسم المضمر الذي في «انظُر»، فهذه العبارة مع سهولة القاعدة التي يعرضها سيبويه فيها جاءت متشابكة متداخلة معقدة التركيب بحيث ضيعت على القارىء ما يريد سيبويه قوله، لكنه فسره بالعبارة الاخيرة وهي قوله «ترفع» «أنت على فعل مضمر...» وزاد بعده ما يوضح وجهًا آخر أو تفسيراً آخر لرفع «أنت» في البيت، جاء بأسلوب واضح سهل مفهوم هو قوله: «وقد يجوز أن يكون «أنت» على قوله: «أنت الهالك» كما يقال اذا ذكر انسان لشيء: قال الناس: «زيد» وقال الناس: «أنت»، ولا يكون على أن تضمر «هذا» لانك لا تشير للمخاطب الى نفسه ولا

(١) ينظر موقفه من الاحتجاج بالقراءات والحديث ما مر في خصائص المذهب النحوي في البصرة، وللتفصيل يرجع الى كتاب الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه بحث القراءات والحديث في القسمين منه. وكتاب موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث النبوي الشريف.

تحتاج الى ذلك، وانما تشير له الى غيره، الا ترى أنك لو اشرت له الى شخصه فقلت: «هذا أنت» لم يستقم[1]»، وقد تكون العبارات شواهد نثرية حذف منها كلمات وظل الباقي لا يدل على المحذوف وذلك قليل أيضاً منه ما جاء في قوله: «... ومثل ذلك «حينئذ الآن» وانما تريد: «واسمع الآن» و «ما اغفله عنك، شيئًا» أي: دع الشك عنك، فحذف هذا لكثرة استعمالهم». قال ابن قتيبة فيها: «وقال المازني: سألت الاخفش عن حرف رواه سيبويه عن الخليل في باب «من الابتداء يضمر فيه ما بني على الابتداء وهو قوله: «ما أغفله عنك شيئًا» أي: «دع الشك» ما معناه؟ قال الاخفش: «انا منذ ولدت أسأل عن هذا» وقال المازني: فسألت الاصمعي وأبا زيد وأبا مالك عنه، فقالوا: ماندري ما هو». وقال السيرافي: «قوله: «ما اغفله عنك شيئًا» الخ، قال أبو سعيد: لم يفسر هذا الحرف فيما مضى الى أن مات المبرد ففسره ابو اسحاق الزجاج بعد ذلك فقال: «معناه على كلام تقدم، كأن قائلاً قال: «زيد ليس بغافل عني» فقال المجيب: «بلى ما أغفله عنك، انظر شيئًا» أي: «تفقد امرك» فاحتج به على الحذف، يريد: حذف «انظر» الناصب «شيئًا»[2]. فهذه عبارة من كلام العرب احتج بها وفسرها ومع ذلك تحيَّر فيها المتقدمون لانهم قد تأخر بهم زمنهم عن قائليها فلم يعرفوا أين المحذوف؟ وما تقديره؟ وعلى العموم فقد كان اسلوب سيبويه في معظم كتابه الا فيما ندر سهلاً متسلسلاً سلساً، تتتابع فيه الآراء والمناقشات والشواهد آخذاً بعضها برقاب بعض. مثال ذلك قوله في «هذا باب ما ينتصب على التعظيم والمدح»: «وان شئت جعلته صفة فجرى على الأول وان شئت قطعته فابتدأته. وذلك قولك: «الحمد لله الحميد هو» و «الحمد لله أهل الحمد»، و «الملك لله أهل الملك»، ولو ابتدأته فرفعته كان حسنًا كما قال الاخطل:

نفسي فداءُ أمير المؤمنين إذا ... أبدَى النواجذَ يومٌ باسلٌ ذكرٌ[3]

الخائضُ الغَمْرَ والميمونُ طائرُهُ ... خليفةُ اللهِ يُستسقَى بـه المطرُ[4]

وأما الصفة فإن كثيراً من العرب يجعلونه صفة، فيتبعونه الأول، فيقولون: «أهلِ الحمدِ» و «الحميدِ هو» وكذلك: «الحمدُ للهِ أهلِه» ان شئت جررت وان شئت نَصبت، وان شئت ابتدأت كما قال مهلهل:

---

(١) الكتاب، ١/١٤٠-١٤١.

(٢) الكتاب، ٢/١٢٩، وتأويل مشكل القرآن ٦٥، وحاشية السيرافي على الكتاب، ١/٢٧٩ (بولاق)

(٣) ابداء النواجذ: كناية عن شدة اليوم. والباسل: الكريه المنظر. والذكر: الشديد.

(٤) الغمر: الماء الكثير، ويقال: هو ميمون الطائر للكثير الخير الذي يتيمن به، وكانوا يستسقون به المطر.

وقد خَبَطْنَ بُيوتَ يَشْكُرَ خَبْطَةً   أخوالُنا وَهُمُ بنـو الأعمـام[1]

وسمعنا بعض العرب يقول: «الحمدُ لله ربَّ العالمين» فسألت عنها يونس فزعم أنها عربية. ومثل ذلك قول الله عز وجل: «ولكن الراسخونَ في العلمِ منهُم والمؤمنون يؤمنون بما أُنزلَ إليكَ وما أُنزلَ من قَبْلِكَ والمقيمين الصلاةَ والمؤتون الزكاةَ»، فلو كان كله رفعا كان جيِّدًا. وقال جل ثناؤه: «ولكنَّ البِرَّ من آمنَ باللهِ واليومِ الآخرِ والملائكةِ والكتابِ والنبيينَ وآتى المالَ على حُبِّهِ ذوي القربَى واليَتامَى والمساكينَ وابنَ السبيلِ والسائلين وفي الرقابِ وأقامَ الصلاةَ وآتى الزكاةَ والموفونَ بعهدهم اذاعاهَدُوا والصابرين في البأساءِ والضَّرَّاءِ وحينَ البأسِ»[2]. ولو رفع «الصابرين» على أول الكلام كان جيداً، ولو ابتدأته فرفعته على الابتداء كان جيداً كما ابتدأت في قوله تعالى: «والمؤتون» الزكاةَ». ونظير هذا النصب من الشعر قول الخرنق:

لا يَبعَدَنْ قومي الذين هُمُ   سُمُّ العُداةِ وآفَةُ الجُزْرِ
النـازلـيـن بكُـلِّ مُعتَرَكٍ   والطيبون معاقِدَ الأُزْرِ

فرفع «الطيبين» كرفع «المؤتين». ومثل هذا في الابتداء قول ابن خياط العُكْلِيِّ:

وكُلُّ قومٍ أطاعُوا أمْرَ مُرْشِدِهِم   إلاّ نُمَيْرًا أطاعت أمرَ غاوِيها
الظاعنين ولما يُظعِنوا أحـدا   والقائلون لِمنْ دارٌ نُخَلِّيْهـا

وزعم يونس أن من العرب من يقول: «النازلون بكلّ مُعتَرَكٍ والطيبين»، فهذا مثل «والصابرين». ومن العرب من يقول: «والظاعنون والقائلين» فنصبه كنصب: «الطيبين» الا أن هذا شتم لهم وذم كما أن «الطيبين» مدح لهم وتعظيم، وان شئت اجريت هذا كله على الاسم الأول، وان شئت ابتدأته جميعًا فكان مرفوعًا على الابتداء كل هذا جائز في ذين البيتين وما اشبههما، كلُّ ذلك واسع. وزعم عيسى أنه سمع ذا الرمة ينشد هذا البيت نصبا:

لقَد حَمَلَتْ قَيسُ بنُ عَيلانَ حَرْبَهَا   علـى مُسْتَقِلٍّ للنـوائـبِ والحَـرْبِ
أخـاها إذا كانت عِضاضاً سَمَا لَها   على كُلِّ حالٍ من ذَلولٍ ومن صَعْبِ

زعم الخليل أن نصب هذا على أنك لم ترد أن تحدّث الناسَ، ولا من تخاطب بأمر جهلوه، ولكنهم قد علموا من ذلك ما قد علمتَ، فجعله ثناءًا وتعظيماً ونصبه على الفعل، كأنه قال: «اذكُرْ أهلَ ذاك» و «أذكرِ المقيمين» ولكنه فعل لا يستعمل إظهاره»[3].

---

(١) خبطن: يعني الخيل وفرسانها، أي: ضربن، والخبط: الضرب الشديد، والبيوت: القبائل والاحياء.

(٢) سورة الفاتحة، ٢، والنساء ، ١٦١، والبقرة، ١٧٧. على التوالي.

(٣) الكتاب، ٢/٦٢-٦٦.

نكتفي بهذا المثال للدلالة على أسلوب سيبويه وطريقته في عرض الآراء والاحتجاج لها وتفسيرها وسؤاله شيوخه عنها وعرضه لبعض مزاعم شيوخه الاخرين وتبين في كل ذلك انواع الشواهد التي يحتج بها من القرآن والشعر والنثر، وبدت نظرته الى العامل وكيفية تقديره ان كان المعمول للمحذوف مرفوعًا ويختلف ان كان المعمول منصوبًا وقد عرض سيبويه كل هذا باسلوب واضح وتساوق الحديث عن كل هذا بسهولة ويسر.

أما ما وقع في بعض عباراته من غموض فقد يكون لعدم وضوح الفكرة أو بسبب النساخ وغلطهم في النسخ وإلاّ فإن معظم الكتاب سهل يسير. ولا أرى أن هذا الغموض والابهام متعمد من سيبويه كما يرى علي بن سليمان إذ قال «عمل سيبويه كتابه على لغة العرب وخطبها وبلاغتها، فجعل فيه بيتًا مشروحًا، وجعل فيه مشتبهًا ليكون لمن استنبط ونظر فضل، وعلى هذا خاطبهم الله عز وجل في القرآن «وقد تابعه البغدادي وأيده فقال: «قال أبو جعفر: وهذا الذي قاله علي بن سليمان حسن، لان بهذا يشرف قدرُ العالم وتفضل منزلته، اذ كان ينال العلم بالفكرة واستنباط المعرفة، ولو كان كله بَيِّنًا لاستوى في علمه جميع من سمعه فيبطل التفاضل، ولكن يستخرج منه الشيء بالتدبر، ولذلك لا يمل لانه يزداد في تدبره علمًا وفهمًا»[(١)]» فكأن سيبويه في رأي عليّ بن سليمان والبغداديّ قد تعمد جعل بعض عباراته غامضة معقدة حتى يستفيد من هذا الابهام وبهذه التعمية رفع قيمة الكتاب وإظهار أهميته شأن أبي الحسن الاخفش الذي يقول له الجاحظ: «أنت اعلم الناس بالنحو، فلم لا تجعل كتبك مفهومة كلها؟ وما بالنا نفهم بعضها، ولا نفهم اكثرها؟ وما بالك تقدم بعض العويص وتؤخر بعض المفهوم؟ قال: أنا رجل لم اضع كتبي هذه لله، وليست هي من كتب الدين، ولو وضعتها هذا الوضع الذي تدعوني اليه لَقلّت حاجتهم إليَّ فيها، وانما كانت غايتي المنالة، فانا أضعُ بعضها هذا الوضع المفهوم لتدعوهم حلاوة ما فهموا الى التماس فهم مالم يفهموا، وانما قد كسبت في هذا التدبير، اذ كنت الى التكسب ذهبت[(٢)]»، ولا ينطبق على سيبويه ما قاله الاخفش المتكسب بكتبه والذي يتعمد جعل بعضها غامضًا لهذا السبب باعترافه. وأرى أن سيبويه كان يعبر عن أفكاره باسلوب زمانه وباسلوبه الخاص، ولكل عالم اسلوبه، وقد عرف سيبويه انه يستعمل «مما» بمعنى «ربما» وشاع ذلك عنه وعرف جاء منه قوله: «اعلم أنهم مما يحذفون الكلم» أي: «ربما يحذفون...».

وهو في بحوثه التي يتكلم فيها على مالم يرد من الابنية والاسماء ويفترض وجودها يخلط شرح القاعدة وبيان الاحكام معللة موضحة، مع ذكر وجه القياس في كل ظاهرة أو حكم ثم يعرض

---

(١) خزانة الادب، ١/١٧٩–١٨٠.

(٢) الحيوان، ١/٩١–٩٢.

الآراء المختلفة فيه ويفضل بعضها على حسب ما يراه الصحيح الجاري على القياس من ذلك قوله: «وإذا سميت رجلاً بـ: «إِثْمِد» لم تصرفه، لانه يُشبِهُ «اضْرِب»، وإذا سميت رجلا، بـ «إصْبَع» لم تصرفه لانه يُشبِهُ «اصْنَعْ»، وان سميته بـ «أُبْلُمْ» لم تصرفه لانه يُشْبِه «اقتُل»، ولا تحتاج في هذا الى ما احتجت اليه في «تُرْتُب» وأشباهها لانَها «الف»، وهذا قول الخليل ويونس. وانما صارت هذه الاسماء بهذه المنزلة لانهم كأنهم ليس أصل الاسماء عندهم على أن تكون في أولها الزوائد، وتكون على هذا البناء. الا ترى أن «تفعل» و «يفعل» في الاسماء قليل، وكان هذا البناء انما هو في الاصل للفعل، فلما صار في موضع قد يستثقل فيه التنوين استثقلوا فيه ما استثقلوه فيما هو أولى بهذا البناء منه. والموضع الذي يستثقل فيه التنوين المعرفة. الا ترى أكثر ما لا ينصرف في المعرفة قد ينصرف في النكرة؟»[1].

عنوانات أبوابه ومصطلحاتها:

لم تكن لموضوعات النحو وعلوم العربية الاخرى في زمن سيبويه مصطلحات ثابتة تدل على أبوابه، لان العلم كان جديداً ولم تكن مصطلحاته قد استقرت بعد لان أي مصطلح علمي جديد لا يستقر ويعبر عن مضمونه الا بعد أن يستقر ذلك العلم وتشيع مصطلحاته وتثبت بتتابع الدارسين عليه وتعهدهم اياه بالاستعمال، وتصقله الالسن والاقلام فيثبتوه أو يغيروه أو يضعوا ما هو أدل منه على مضمونه وما اطلق عليه، ولهذا فإننا نجد في الكتاب مصطلحات وتسميات للابواب والموضوعات يختلف بعضها عما نعرفه في الكتب المتأخرة، في حين اشتهر بعضها الآخر وعرف كما جاء عليه في الكتاب وبقي مستعملاً على اختلاف الازمنة وتعاقبها، كما نجد عنوانات قد طالت عند سيبويه واختصرها النحويون المتأخرون بكلمتين مثل ما نعرفه اليوم بـ «إن واخواتها» فقد عنون لها سيبويه بعنوان استخدم فيه الشرح والتمثيل لكي يقربها من ذهن المتعلم ويوضحها له فجاء على هذا النحو: «هذا باب الحروف الخمسة التي تعمل فيما بعدها كعمل الفعل فيما بعده وهي من الفعل بمنزلة «عشرين» من الاسماء التي هي بمنزلة الفعل، لا تصرف تصرف الافعال، كما أن «عشرين» لا تصرف تصرف الاسماء التي اخذت من الفعل وكانت بمنزلته، ولكن، يقال: بمنزلة الاسماء التي اخذت من الافعال وشبهت بها في هذا الموضع، فنصبت «درهماً» لانه ليس من نعتها ولا هي مضافة اليه، ولم ترد أن تحمل «الدرهم» على ما حمل «العشرون» عليه، ولكنه واحد بين به العدد فعملت فيه كعمل «الضارب»، ولا محمولاً على ما حمل عليه «الضارب»، وكذلك

---

(١) الكتاب، ١٩٧/٣.

هذه الحروف منزلتها من الافعال، وهي: أنّ ولكنّ وليت ولعلّ وكأنّ[1]». وقد يكون الموضوع نفسه غير متميز ولا متحدد ولا اتضحت معالمه والمقصود منه ولهذا نجده يعقد له أبواباً متعددة بحسب نوع ما قبله فتتكرر الابواب وتختلف والموضوع واحد، وذلك يتضح في بحثه لما سمي فيما بعد «التمييز» فقد تحدث عنه في «باب ما ينتصب لانه قبيح ان يكون صفة» و «باب ما ينتصب لانه ليس من اسم ما قبله ولا هو هو» و «باب هذا شيء ينتصب على أنه ليس من اسم الأول ولا هو هو»[2]. وقد يلجأ الى التفصيل في وصف الباب وتوضيحه بالأمثلة كما في عنوان «باب اسماء الافعال» كما نسميها اليوم، قال: «هذا باب من الفعل سمي الفعل فيه باسماء لم تؤخذ من امثلة الفعل الحادث، وموضعها من الكلام الامر والنهي، فمنها ما يتعدى المأمور الى مأمور به، ومنها مالا يتعدى المأمور، ومنها ما يتعدى المنهي الى منهي عنه ومنها ما لا يتعدى المنهي «وعقد لها باباً آخر سماه «هذا باب من الفعل سمي الفعل فيه باسماء مضافة ليست من أمثلة الفعل الحادث ولكنها بمنزلة الاسماء المفردة التي كانت للفعل نحو: «رويد» و «حيهل» ومجراهن واحد وموضعهن من الكلام الامر والنهي اذا كانت للمخاطب المأمور والمنهي». ومثل هذا ماعنون به باب «كان وأخواتها» و «الفعل اللازم» و «المبني للمجهول»[3] وغيرها. وبعض هذه الابواب جاءت عنواناتها مختصرة مفهومة الا انها على هيئة عبارة ولم تكتسب معناها الاصطلاحي بعد، من ذلك تسميته «باب ظن وأخواتها»: «باب الافعال التي تستعمل وتلغى» و «باب المفعول المطلق»: «باب ما يكون من المصادر مفعولاً» و «باب الاغراء والتحذير»: «باب ما يجرى على الامر والتحذير». ومنها ما ثبت المصطلح الذي وضعه عليه سيبويه مثل «باب الفاعل» و «باب النداء» و «باب الندبة» و «باب الترخيم» و «باب الامالة» و «باب الاضافة وهي باب النسبة» و «باب التصغير» وقد يسميه «التحقير».

ويبدو لي أن سبب عدم استقرار المصطلحات وعنوانات الابواب عنده، أن النحو لم يوضع قبل سيبويه الوضع النهائي، وان العلم ما زال حديثاً وما زالت بحوثه بحاجة الى استقرار ووضوح وان سيبويه لم يضع كتابه على الصورة الأخيرة، وانما كان في سبيل تغييره واعادة النظر فيه، الا انه مات مبكّراً وتركه على الصورة التي نراها. ومع هذا فقد رأيناه مُنظَّماً مبوباً ذا منهج واضح ما زال المؤلفون في النحو والصرف ينهجون على منواله وينهلون من موضوعاته وما جاء فيه من آراء.

---

(١) الكتاب، ١٣١/٢، وينظر في مثله في الطول باب الفاعل الذي عنون به لابواب الفعل اللازم والمتعدي لواحد أو لاثنين أو لثلاثة والفعل المبني للمجهول من هذه كلها والمشتقات العاملة عمل الفعل. وكان واخواتها وغيرها وهو عنوان واحد جمع كل هذه الابواب وغيرها. الكتاب، ٣٣/١.

(٢) الكتاب، ١١٧/٢ و ١١٨ و ١٢٠.

(٣) الكتاب، ٢٤١/١ و ٢٤٨ وينظر ٤٥/١ و ٣٣ و ٤٣ و ٥٧ وغيرها.

وبعد هذا كله نستطيع أن نقول أن سيبويه لم يكن يمثل دور الجامع المدون فقط وانما كانت له شخصيته الواضحة في العرض والمناقشة والترجيح والتفصيل، وقد يكون الموضوع مبنيًا على رأيه هو ولم ينقل عن أحد شيوخه فيه كما في قوله:

«ولا يحسن في الكلام أن يجعل الفعل مبنيًا على الاسم ولا يذكر علامة إضمار الأول حتى يخرج من لفظ الاعمال في الأول ومن حال بناء الاسم عليه، ويشغله بغير الأول، حتى يمتنع من أن يكون يعمل فيه، ولكنه قد يجوز في الشعر، وهو ضعيف في الكلام، قال الشاعر وهو ابو النجم العجلي:

قد اصبحت أمُّ الخيار تدَّعي   عليَّ ذنباً كلُّه لم أصنع

فهذا ضعيف، وهو بمنزلته في غير الشعر، لان النصب لا يكسر البيت ولا يخل به ترك اظهار «الهاء». وكأنه قال «كلُّه غيرُ مصنوع». وقال امرؤ القيس:

فاقبلتُ زحفا على الركبتينِ   فثوبٌ لبستُ وثوبٌ أجُرّ

وقال النَّمرُ بنُ تَوْلَبَ:

فيومٌ علينا ويومٌ لنا   ويومٌ نُساءُ ويومٌ نُسَرّ

سمعناه من العرب ينشدونه، يريدون «نُساءُ فيه ونُسَرُ فيه...»[1]

وهو كثيرا ما يرد على شيخه الخليل بأن ما أجازه من ظواهر غير صحيح من ذلك اجازته وصف النكرة بالمعرفة أو ابدال المعرفة من النكرة ورد سيبويه عليه بانه قبيح قال: «وزعم الخليل انه يجوز أن يقول الرجل: «هذا رجلٌ اخو زيد» اذا اردت أن تشبهه بأخي زيد. وهذا قبيح ضعيف لا يجوز الا في موضع الاضطرار ولو جاز هذا لقلت: «هذا قصير الطويل» تريد «مثل الطويل» فلم يجز هذا كما قبح ان تكون المعرفة حالاً للنكرة الا في الشعر، وهو في الصفة اقبح، لانك تنقض ما تكلمت به، فلم يجامعه في الحال كما فارقه في الصفة»[2]. هذا مع العلم أن الخليل شيخه الذي شهر عنه متابعته اياه.

وقد اتضحت في الكتاب الاصول التي تحدثنا عنها عند سابقيه مثل اهتمامه بالقياس كثيراً واعتماده عليه فيما لم يرد به سماع عن العرب فان ورد السماع وقف عنده ولم يجاوزه. واهتم بالتعليل وأغلب مسائل كتابه معللة التعليلات الخالية من التعقيد، التي تبين العلة في وجود الحكم أو الظاهرة الاعرابية أو التركيبية مما يحتاج اليه المتعلم والمتلقي، واستخدم الاحكام التي تميز بها فصاحة الاساليب وضعفها ويفاضل بها بينها، وتتحدد صحة الوجه الاعرابي من خطئه وحكمه

---

(١) الكتاب، ١/٨٥-٨٦.

(٢) الكتاب، ١/٣٦١.

على هذا كله بأنه «مطرد» أو «فصيح» أو «ضعيف» أو «جيد» أو «وهو الوجه» أو «حسن» أو «افضل من غيره» وما الى هذا. واحتاج الى استخدام التأويل للشواهد الفصيحة الخارجة عن الكثير المطرد في شعر أو قراءة أو نحوهما فيلجأ الى التفسير والتقدير لكي يرد هذا المخالف الى القياس المطرد. ورأينا ان سيبويه هو الذي كان يفترض المسائل ويسأل شيوخه عن حكم هذا المفترض كأن يقول: «لو سمينا الرجل «قبائل» كيف نصرفه؟» أو «لو» سمينا المذكر بالفعل نحو «ضرب» و «ضارَبَ» و «اضرب» و «ضارِبْ» اينون أم يمنع من التنوين؟ «وكل هذه مسائل مفترضة، وقد عقد لها ابوابًا كثيرة ولا سيما أبواب «التسمية بالشيء.. الفعل .. الجمع .. الحرف.. وغيرها» وهي كثيرة ومتعددة. ويهتم بالعامل، وقد بني الكتاب بموضوعاته النحوية على العامل، ما يرفع، وما ينصب وما يجر وما يجزم. وكل هذه الاصول واضحة في الكتاب، في أي موضوع يرجع اليه القارىء. فلا نحتاج الى الاطالة بالتمثيل، لانه لم يخرج في شيء منه عمّا في النصوص المتقدمة وعما كان عند سابقيه، ولان معظم آرائه فيها مبنية على أقوال شيوخه وله في معظمها الاستحسان أو الرد، أو إثارة القضية النحوية. والكتاب بعد هذا وذاك مملوء بالشواهد الشعرية التي عدت أصح الشواهد لوثوق النحاة به ولتوثيقه اياها بتوثيق روايتها وان كان قد ترك الكثيرمنها غير منسوب، وهو يزخر بالآيات القرآنية الكريمة. واحتج ببعض الاحاديث ولم يبن عليها رأيا أو يَقِسْ عليها اثبات حكم شأنه شأن شيوخه ولَاحِقِيْهِ حتى زمن السهيلي وابن مالك[1]. وهكذا كان لسيبويه فضل حصر أقوال شيوخه وآرائهم وتنظيمها وحفظها -بعد مناقشته اياها وحكمه عليها، ولو لم يكن له من رأي الا عمله الذي بيناه في الكتاب لكفاه ذلك فخراً.

---

(١) تنظر امثلة لكل هذه الاصول وموقفه من هذه الشواهد في كتاب «الشاهد واصول النحو في كتاب سيبويه» وفي كتاب «دراسات في كتاب سيبويه» وفي كتاب «موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث الشريف».

المبـرد

حياته:

هو أبو العباس محمد بن يزيد بن عبدالاكبر الثمالي الأزدي، أبوه من اليمن ثم سكن البصرة. ولد أبو العباس المبرد سنة (٢١٠هـ) وتوفي سنة (٢٨٥هـ)[١]. نشأ بالبصرة وشغف بالعلم ولا سيّما النحو والتصريف، فأخذهما عن المازني، فلما توفي اخذ عن الجرمي، ونبغ فيهما ولم يكن في وقته ولا بعده مثله. وقد كان آخر أئمة النحو البصري المشهورين -كما يقول السيرافي الذي ختم به كتابه أخبار النحويين البصريين وقد توفي بعد المبرد بحوالي ثمانين سنة ولم ير نحويا نبغ نبوغ المبرد فعده خاتمة البصريين، وأيد ذلك معظم من ترجموا للمبرد. رويت في علمه الاخبار عن المشهورين في زمانه من علماء المسلمين اشهرهم أبو بكر بن مجاهد الذي قال فيه «ما رأيت احسن جوابا من المبرد في معاني القرآن فيما ليس فيه قول لمتقدم»، وقل: «لقد فاتني منه علم كثير لقضاء ذمام ثعلب». شهد له المورخون بأنه كان يتصدر حلقة استاذه المازني وهو حديث السن يقرأ عليه كتاب سيبويه، والمازني جالس بين المستمعين كأنه واحد منهم يستمع الى شرح تلميذه الذكي معجبًا بقدرته وتمكنه في مسائل الكتاب، حتى أصبح شيوخه يبعثون اليه الطلبة الذين يقصدون البصرة لتعلم النحو، كما فعل ابو حاتم السجستاني حين اتاه شاب من أهل «نيسابور» فقال له: «اني قدمت بلدكم بلد العلم والعلماء وأنت شيخ هذه المدينة، وقد احببت أن اقرأ عليك كتاب سيبويه» فقال له: الدين النصيحة، ان أردت أن تنتفع بما تقرأ فاقرأ على هذا الغلام محمد يزيد[٢]».

ذاعت شهرة ابي العباس في البصرة ووصلت الى مجالس الخلفاء في بغداد وسامراء ولم يكن عندهم الا ثعلب الكوفي الذي كان يحدث بما يحفظ من نحو الكسائي والفراء، ويردد ما يقولان واذا سئل عن مسألة لم يكن لهما فيها رأي قال: «لا أدري» أو سئل عن الحجة والحقيقة في اقوالهما لم يغرق في النظر[٣]. ولهذا نجد المتوكل يرسل الى المبرد للقدوم الى سامراء ليحكم في خلاف وقع بينه وبين وزيره الفتح بن خاقان في قراءة قوله تعالى: «وما يُشعِركم أَنها اذا جاءت لا

---

(١) تنظر ترجمته في مراتب النحويين ٨٢-٨٥ وأخبار النحويين البصريين ٧٢-٨٠ وطبقات النحويين واللغويين ١٠٨-١٢٠ والفهرست ٦٤-٦٥ ونزهة الالباء ١٤٨-١٥٧ وانباه الرواة ٢/٢٤١-٢٥٣ وبغية الوعاة ١/٢٦٩-٢٧١.

(٢) طبقات النحويين واللغويين، ١٠٨-١٠٩.

(٣) ينظر طبقات النحويين واللغويين ١٥٦.

يؤمنون[1]» فقد قرأ المتوكل بالفتح –وهي قراءة ضعيفة وان كانت واردة عن أهل المدينة، وقرأ الفتح بن خاقان بالكسر –وهي– القراءة–المتواترة[2].

فلما وصل المبرد من البصرة حكم فيها، وظل ملازمًا المتوكل يحضر مجالسه ويشارك في ندواته ومنادماته وينال عطاياه حتى قتل المتوكل سنة (٢٤٧هـ) فرحل إلى بغداد ودخلها للمرة الأولى وأقام فيها ولم يكن يعرف أحداً ولا يعرفه احد فيها، وضاق عليه الرزق الا انه كان ذكيًّا، مُتَنَبِّهًا استطاع بطريقة ما أن يلفت اليه انتباه المصلين في يوم جمعة. «فانتظر شهود صلاة الجمعة، فلما قضيت الصلاة أقبل على بعض من حضره وسأله أن يفاتحه السؤال ليتسبب له القول، فلم يكن عند من حضره علم، فلما رأى ذلك رفع صوته، وطفق يفسر، يوهم بذلك أنه قد سئل، فصارت حوله حلقة عظيمة، فتشوف أحمد بن يحيى ثعلب الى الحلقة، وكان كثيراً ما يرد الجامع قوم خراسانيون من ذوي النظر فيتكلمون ويجتمع الناس حولهم فاذا أبصرهم ثعلب أرسل من تلاميذه من يناقشهم، فإذا انقطعوا عن الجواب انفض الناس عنهم. فلما نظر ثعلب الى من حول أبي العباس المبرد أمر الزجاج وابن الخياط بالنهوض اليه وقال لهما: فُضَّا حلقة هذا الرجل، ونهض معهما من حضر من أصحابه فلما صاروا بين يديه قال له الزجاج أتأذن –أعزك الله– في المناقشة؟ فقال له المبرد: سل عما أحببت، فسأله عن مسألة فأجابه فيها بجواب أقنعه، فنظر الزجاج في وجوه أصحابه متعجِّبًا من تجويد أبي العباس للجواب، ثم سأله عن اخرى واخرى حتى بلغت مسائله أربع عشرة مسألة وهو يجيب عن كل واحدة منها بما فعله في المسألة الأولى «قال الزبيدي واذا ما انتهى المبرد من الاجابة عن مسألة سأل الزجاج: أقنعت بالجواب؟ فيقول نعم، فيقول: فان قال لك قائل في جوابنا هذا: كذا، ما أنت راجع اليه؟ ويأخذ المبرد بتوهين جواب المسألة وإفساده ويعتل فيه، فيقول له الزجاج بعد أن يندهش من فعله: ان رأى الشيخ –أعزه الله– أن يقول في ذلك؟ فيقول أبو العباس: فان القول على نحو كذا فيصحح الجواب الأول ويوهن ما كان أفسده به، حتى والى بين اربع عشرة مسألة يجيب عن كل واحدة منها بما يقنع، ثم يفسد الجواب، ثم يعود إلى تصحيح القول الأول. فلما رأى الزجاج ذلك منه قال لأصحابه: عودوا الى الشيخ فلست مفارقًا هذا الرجل ولابد لي من ملازمته فعاتبه أصحابه وقالوا: تأخذ عن مجهول لا تعرف اسمه وتدع من قد شهر اسمه وانتشر في الآفاق ذكره. فقال لهم: لست اقول بالذكر

---

(١) الانعام، ١٠٩.

(٢) هذا ما قاله المترجمون والمؤرخون الذين ذكروا الخبر. لكن الذي أُثبت في المصحف فتح همزة (أنها) ولهذا لا يمكن وصفها بانها ضعيفة.

والخمول ولكني اقول بالعلم والنظر»[1].

وكان هذا مبدأ دخول المبرد بغداد واستقراره فيها حتى صنفه صاحب نور القبس في نحاة بغداد[2]، ثم واصل اشتغاله بتدريس النحو في مسجدها حيث كون له حلقة أخذ يؤمها تلاميذ ثعلب وغيرهم ممن أعجبته طريقة المبرد في عرض مسائل النحو ورغبوا في الاطلاع على هذا النحو الذي لم يكن لهم به سابق معرفة، وهو النحو البصري المتمثل بكتاب سيبويه فذاع علمه في مجالس الدرس ببغداد بعد هذه الحادثة التي انضم على أثرها كثير من تلاميذ ثعلب واصحابه الى مجلس المبرد لقراءة كتاب سيبويه عليه ومنهم أبو علي الدينوري زوج ابنة ثعلب[3]. ولعل سبب اشتهاره في مجالس الدرس ببغداد يرجع الى قدرته على الجدل والمناقشة، والى حفظه لمعظم اللغة، هذا الحفظ الذي مكنه من الاجابة عن كل ما يسأل والافتاء في أية مسألة لغوية أو نحوية ترد على بال السائلين.

قرأ المبرد ما وصلت اليه يده في حينه من مؤلفات سابقيه واستنسخ ما رغب في استنساخه. فقد وردت الاخبار بأنه قرأ أوراقًا من أحد كتابي عيسى بن عمر فكان كالاشارة الى الاصول وانه كان يحتفظ بنسخة من كتاب سيبويه، وهي نسخة نفيسة كان يضن بها على من يريد نسخها[4]. وهو آخر أئمة المدرسة البصرية في النحو، حمل آراء البصريين ومنهجهم في دراسته وأصولهم التي بنوا عليها نحوهم من البصرة الى سامراء ومنها الى بغداد حيث اشتهر نحوه وذاع صيته ولم يأت بعده من تلاميذه الذين حملوا آراءه من له شهرته واطلاعه على نحو البصريين ولا قدرته على الجدل والمناقشة ولا حفظه للغة.

المقتضب:

وهو أشهر كتاب ظهر في علمي النحو والصرف وما يتبعهما من دراسة صوتية بعد كتاب سيبويه، عالج فيه المبرد مسائل هذين العلمين من غير أن يخلطهما ببحوث ادبية أو لغوية كما فعل في كتابيه «الفاضل» و «الكامل» وانما جعله كتابًا قائمًا برأسه مستغنيًا بنفسه، فلم يشر فيه الى غيره[5]». وكان يحيل عليه في المسائل النحوية أو الصرفية التي تعرض لها في كتبه التي الفها بعده

---

(١) نور القبس ٣٢٤-٣٣٣.

(٢) نور القبس، ٣٢٤-٣٣٣.

(٣) طبقات النحويين واللغويين، ١٥٦، وما بعدها و ٢٣٤، وانباه الرواة ٣/٢٤٩.

(٤) طبقات النحويين واللغويين ٢٣٦.

(٥) مقدمة المقتضب، ١/٥.

كالكامل، وكان يسميه «الكتاب المقتضب» وقد كان لسيبويه وكتابه وآرائه أثر ظاهر في جميع ابواب النحو ومسائله وبحوث الصرف التي فيه، فقد اعتمد المبرد اعتماداً كبيراً عليه، وان خالفه في بعض المسائل والفروع والآراء. وزاد عليه تحديد بعض الابواب ولمَّ بعض المتشابهات تحت عنوان واحد مستقر وقد تبين الاستاذ محمد عبدالخالق عضيمة فيه هذا التأثر فاهتم بذكر نصوص كتاب سيبويه في كل مسألة عرض لها المبرد وإثباتها في هوامش «المقتضب» ليبين مدى اعتماد المبرد عليه، وليتضح الاختلاف بين آرائهما ولا سيما ما ردَّ به المبرد على سيبويه وكان للاستاذ المحقق هدف آخر في الربط بين نصوص الكتابين بيَّنه بقوله: «ثم ان كتاب سيبويه والمقتضب اقدم وأضخم ما وصل الينا من كتب النحو والصرف، فالربط بينهما تسجيل لخطوات نشأة النحو وتدرجه في القرنين الثاني والثالث، وفي ذلك كشف عن منابع المقتضب ومصادره، كما يعتبر ذلك دعامة قوية في الدراسات المقارنة[1]» وقد بلغت شواهد المقتضب الشعرية التي أخذها من الكتاب (٣٨٠) شاهداً وبلغ مجموع ما أورده المحقق من نصوص الكتاب التي تضمنها التعليق على المقتضب (١٥٥٠) نَصّاً[2]. وقد اثبت المحقق أن معظم ما نُسب الى المبرد من آراء يرد بها على سيبويه أو يعارضه فيها مما نسبتهُ اليه كتب التراجم والتأريخ، عار عن الصحة، فقد كان مُتَّفِقاً مع سيبويه في معظمها وانما دفعهم الى وضعها ونسبتها اليه اقدامه على نقد كتاب سيبويه في «مسائل الغلط». فقد نسبت اليه آراء قال بخلافها «وليس أدل على هذا من أن سيبويه استشهد للعطف على الموضع بقول الشاعر:

معاويَ، إننا بشرٌ فأسْجِحْ   فلَسنا بالجبالِ ولا الحديدا

في أربعة مواضع من كتابه، وجاوزها كلها المبرد في نقده للكتاب، ثم استشهد بهذا البيت للعطف على الموضع في ثلاثة مواضع من المقتضب، وبعد هذا كله يقال: «ان المبرد ردَّ على سيبويه روايته لهذا البيت»[3].

---

(١) مقدمة المقتضب، ٦/١.

(٢) تنظر مقدمة المقتضب ١١٥/١ و ١١٩ و ٦.

(٣) مقدمة المقتضب، ٦/١.

شهرته:

والمقتضب أكبر كتاب ألف في النحو والصرف ضم اصول هذين العلمين ومسائلهما وبينها بعد كتاب سيبويه، فهو يعد المرجع الثاني لنحو البصريين بعد أن ظهر محققًا.

لقد تهيأ لكتاب سيبويه من الشهرة والذيوع والانتشار مالم يتهيأ لأي كتاب آخر من كتب هذا العلم فاهتم الناس بنسخه وقراءته وحفظه، وتواصل الاهتمام بشرحه وشرح شواهده، ومسائله والرد عليه وأصبح عدة الدارسين في مجالس الدرس ببغداد ومصر والاندلس والشام وبلاد المغرب، وكان المبرد نفسه من أوائل المهتمين به فقد توفر على قراءته ودرسه على شيخيه المازني والجرمي، وانصرف الى تدريسه وشرح مسائله لطلبته منذ أن كان غلامًا في مجلس شيخه المازني، وبعد حمله معه الى سامراء ومنها الى بغداد حيث تصدر لاقرائه وتفسير مشكلاته وشرح مسائله. ولم يكتب للمقتضب من الذيوع والشهرة ما كتب له، فقد طغت شهرة الكتاب عليه وكان المبرد أحد الذين انصرفوا الى الاهتمام بالكتاب، ولم يذكر عنه انه اهتم بتدريس كتابه، أو عرّف به أحدًا من أهل زمانه وربما كان رأي النحاة فيه ما جاء في قول أبي علي الفارسي: «نظرت في كتاب «المقتضب» فما انتفعت منه بشيء إلا بمسألة واحدة وهي وقوع «اذا» جوابًا للشرط في قوله تعالى: «ان تصبْهُم سيئةٌ بما قدَّمت ايديهم اذا هم يقنَطُون[1]». وعلل الانباري هذا الانصراف عن «المقتضب» بقوله: «وكان السرُّ في عدم الانتفاع به أن أبا العباس المبرد لما صنف هذا الكتاب اخذه عنه ابن الراوندي المشهور بالزندقة وفساد الاعتقاد وأخذه الناس من يد ابن الراوندي وكتبوه منه فكأنه عاد عليه شؤمه فلا يكاد ينتفع به[2]». والظاهر أن انصراف الناس عنه انمّا كان لانشغالهم بكتاب سيبويه وربما اطلع عليه بعض الدارسين فلم يجدوا فيه ما يزيدهم علما بمسائل هذين العلمين، ولعل لطريقته في العرض واستخدامه اسلوب الاحتجاج والمناقشة –مع مجيئه بعقب كثير من أبوابه بمسائل مشكلة– آثرا في نفور الدارسين منه وانصرافهم عنه والتزامهم بكتاب سيبويه

اما زمن تأليفه فغير معلوم. ويبدو من موضوعاته وطريقة عرضه للمسائل ومناقشته اياها وردوده على سيبويه فيه أنه الفه بعد أن استقر في بغداد حيث نضجت آراؤه النحوية واتقن آراء سيبويه وادرك ما فيها من صحيح وأحس بما في بعضها من قصور وأخطاء لطول ممارسته تدريسه ولكثرة ما سمع في مسائله من آراء تلاميذه ولاسيما البغداديون الذين كانوا قد اطلعوا على نحو الكسائي والفراء وثعلب، وعرفوا آراءهم في مسائل كتاب سيبويه ونبهوا باسئلتهم ومناقشاتهم المبرد الى بعض المسائل التي كانت له منها مواقف خاصة في كتابه، ويؤكد ما نذهب

---

(١) الروم، ٣٦، ونزهة الالباء ١٥٦.

(٢) نزهة الالباء ١٥٦. وابن الراوندي هو أحمد بن يحيى بن اسحاق (–٢٤٥هـ).

اليه ما احس به الاستاذ المحقق فقال: «لم يكن من تأليف زمنِ الحداثة والصبا وانما كان في زمن الشيخوخة» لأدلة ذكرها[1].

وتميز المقتضب بميزات متعددة منها: ان المبرد وقف في مسائل سيبويه مواقف منها:

١- أنه لجأ فيه الى اختصار عبارات سيبويه وما ذكره من أبنية في بعض المواقع مع زيادته امثلة اخرى وذلك أن سيبويه قال: «يكون على مثال: «فَعْلَلِل» في الصفة قالوا: قهبلس وجحمرش وصهصلق ولا نعلمه جاء اسما. وقال المبرد في «المقتضب»: «ويكون على «فَعْلَلِل نعتًا» وذلك قولهم: عجوز جحمرش، وكلب نخورش» قال المحقق: «وقد أخطأ في هذا الاختصار، فقد جاء سيبويه بثلاث كلمات صحيحة، استخدم منها المبرد واحدة وأضاف اخرى أخطأ فيها وهي: «نخورش»، لانها رباعية مزيدة بحرف»[2].

٢- انه جاء بآراء كان سيبويه قد سبقه الى القول بها إلا أنه لم يشر الى سيبويه أو ينسبها اليه، وربما لم يتنبه عليها، من ذلك: اجازته تصحيح عين اسم المفعول من الاجوف الواوي نحو «مقوول» في ضرورة الشعر ونفى أن يكون قد قال به النحاة البصريون السابقون فقال: «فلهذا لم يجز في «الواو» ما جاز في «الياء»، هذا قول البصريين أجمعين، ولست اراه مُمتنِعًا عند الضرورة» مع سبق سيبويه إلى القول: «قالوا «مخيوط»، ولا يُستنكر أن تجيء الواو على الأصل» وقوله أيضًا: «وبعض العرب يُخرجه على الأصل فيقول: «مخيوط» و «مبيوع» مع قوله في (الواو) في موضع آخر: «ولا نعلمهم أتموا في الواوات، لان الواوات اثقل عليهم من الياءات»[3].

٣- انه تابع سيبويه في أحد قولين قال بهما في كتابه، ولم يشر الى الآخر، فقال النحويون: ان المبرد خالف سيبويه، من ذلك انه جعل علة منع الصرف في الصفات مثل: «عطشان» و «سكران» مشابهة «الألف والنون» لألفي التأنيث الممدودة وعدَّد وجوه هذا الشبه. وقال في موضع آخر بأن «النون» بدل من «الهمزة» وتابعه المبرد في القول الثاني وذهب الى أن «النون» بدل من «الهمزة» فنسبت اليه مخالفة سيبويه في القول الأول ولم يتنبهوا على أنه متابع له في قوله هذا[4]، وعلى أن القولين نتيجتهما واحدة، لان كون «الالف والنون» تقابلان

---

(١) مقدمة المقتضب، ١/٧١-٧٢.

(٢) مقدمة المقتضب، ١/١٢٠، وينظر كتاب سيبويه، ٤/٣٠٢، والمقتضب، ١/٦٨.

(٣) المقتضب،١/١٠٢، والكتاب، ٤/٣٥٥ و ٣٤٨ و ٣٤٩. وقد جاء في طبعة (هرون) (أثقل عليهنَّ) والتصحيح من طبعة بولاق. جـ ٢ ص ٣٦٤.

(٤) الكتاب، ٣/٢١٥-٢١٦ و ٤/٢٤٠ ومقدمة المقتضب، ١/١٢٣.

«الفي التـأنيث المـدودة» مـعناه أن «الألف» التي قـبل «النون» تقـابل «الألف» التي قـبل «الهمزة» وان «النون» تقابل «الهمزة».

٤- انه يذكر بعض الموضوعات في كتابه مرتين أو أكثر من ذلك، فيـأتي به مجملاً في موضع ومفصلاً في مواضع أخرى من ذلك قوله: و «لـ «إذا» موضع آخر وهـي التي يقال لها «حرف المفاجأة» وذلك قولك: «خرجت فاذا زيد» و «وبينا اسير فاذا زيد» فهذه لا تكون ابتداء وتكون جـوابا للجـزاء كالفـاء. قـال الله عـز وجل: «وإنْ تُصِـبْـهُم سـيـئَـةٌ بما قـدَّمت أيدِيْهِمْ إذا هم يقنَطون»،[1] لان مـعناها «قنطوا» كمـا ان قـولك: «ان تأتني فلك درهم» انما مـعناه: «أعطك درهمًا». فهو هنا يراها حرفًا لا ظرفًا. وتحدث عنها في موضعين آخرين من كتابه وعدها من الظروف فـقـال: فـأمـا «اذا» التي للمفاجـأة فـهي التي تسد مسد الخبر، والاسم بعدها مبتدأ، وذلك قولك: «جئتك فاذا زيد»... وهذه تغني عن «الفاء» وتكون جوابًا، نحو: «ان تأتني اذا أنا افـرح» على« حـد قـولك: «فـأنا أفـرح». وقـال في الموضع الثـاني: «وظروف الزمـان لا تضمن» الجثث، وكل ما كان فـعلاً أو في معنى الفعل فعمله في ظروف الزمان كعمله في الحال... وتقول «خرجت من الدار فاذا زيد» فمعنى «اذا» هاهنا المفاجأة. فاذا قلت على هذا «خرجت فاذا زيد قائمًا» كان جَيِّدًا، لان معنى «فاذا زيد»، أي: فـاذا زيد قد وافقني»[2]. وعلى هذا فـان الواضح من هذين النصين الاخـيرين أن المبرد بتسميته «اذا» في النص الأول: «حرف المفاجأة» أي: «أداة» وهي تشمل الحرف والاسم المضمن معنى الحرف ظرفا كان أم اسم استفهام أو شرط أو غيرهما. فيردُّ بهذا المعنى القول الأول الى القولين الآخرين.

منهجه:

سار المبرد على خطى سيبويه في بحثه لعلوم العربيـة الثلاثة النَّحو والصـرف والاصوات اللغوية، فـقد تحدث عن ابواب نحوية كثيـرة وان لم تكن كل النحو وتحدث عن موضـوعات علم الصرف كالمجرد والمزيد وأبنيتهما في الاسماء والافعال وحروف الزوائد وأماكن زيادتها، والصحيح والمعتل من الافـعال وأبنيتـها، وتحدث في خلال ذلك عن أبنية اسم الفاعل والمفعول وغيـرهما من المشتقـات منها، وعن جمع ما يجمع من هذه الاسمـاء معتلة العين أو اللام وما يحدث فـيها من تغيير بقلب أو حذف أو غيرهما من صور الاعلال والابدال، وعن غيرها من الموضوعات الصرفية[3]،

---

(١) الروم، ٣٦.

(٢) المقتضب، ٢/٥٧-٥٨ و ٣/١٧٨ و ٢٧٤، وتنظر المقدمة، ١/١٢٤-١٢٥.

(٣) ينظر المقتضب، ١/٣٢-١٩٢.

وتكلم على الادغام وما يتبعه من دراسات لمخارج الحروف، ومواقع الادغام في الفعل وغيره، وفي الكلمة والكلمتين، وعلى الابدال في الحروف الصحيحة عند الادغام، والاعلال في الحروف المعتلة، وانواعه، وهي عين المواضع الصرفية والصوتية التي في كتاب سيبويه. الا أن سيبويه كان أكثر تنظيمًا واحسن تبويبًا لموضوعات هذه العلوم في كتابه فجاءت موضوعات النحو أولا ولم يتحدث عن موضوعات اخرى الا بعد أن أتى على مسائل النحو وأبوابه جميعها حيث تحدث عن موضوعات الصرف، وختم كتابه بموضوعات صوتية كالاعلال والابدال والادغام وما اليها. اما المبرد فلم يكن له منهج واضح في بحثه لموضوعات هذه العلوم، فلم يتبع طريقة سيبويه، ولا جرى على طريقة واضحة في ترتيب موضوعات كتابه أو أبوابه ولا نحس انه ادرك الفرق بين موضوعات النحو والصرف والصوت، ويبدو كتابه وكأنه اخلاط من هذه وتلك بلا تمييز بينها ولا فصل للمتشابهات منها في مواضع من الكتاب وانما كان يتحدث عما يعن له الحديث عنه، وهو وان تحدث عن موضوعات نحوية لا نحس بينها من الترابط ما أحسسناه في الكتاب، فأبواب الفعل مشتتة، وأبواب المبتدأ والخبر ونواسخه تفرقت في أكثر من جزءين، ولهذا فيما يبدو كان نفور الدارسين منه واعراضهم عنه، لان قراءته متعبة مشتتة لذهن المتعلم، ولم يكتف بهذا وانما كان يعقد أبوابًا في مسائل عويصة مشكلة بين آن وآخر يمتحن بها الدارسين، ونمثل لبعضها لتكون دليلا على غيرها. فمن أمثلة مسائل باب الفاعل هذه المسألة: «الضارب الشاتم المكرم المعطيه درهمًا القائم في داره اخوك سوطًا أكرم الآكل طعامه غلامه زيد عمرا خالد بكرًا عبدالله اخوك[1]»، هذه كلها مسألة واحدة يطلب فيها من المتعلم أن يعيد كل عامل الى معموله ويوضح المعنى المقصود بهذه العبارة، ومثلها من المسائل التي يمتحن بها المتعلمون في باب المفعول: «علم المدخل المدخلةُ السجن زيد أخوه غلامه المظنون الآخذ دراهمه زيد[2]» وامثالها كثير مما دفع بعضهم الى شرحها وحدها كأبي سعيد بن سعيد الفارقي (-٣٩١هـ) أو شرح الكتاب بأكمله كما فعل الرماني (-٣٨٤هـ) وابن الباذش (-٥٢٨هـ).

واختلفت عنوانات «المقتضب» عما كانت عليه في كتاب سيبويه إذ تحدد بعضها مثل باب «اياك في الامر» وهو عند سيبويه «ومن ذلك أيضًا قولك: اياك والاسد واياي والشر..» و «باب من التسعير» وكان اسمه «ما ينتصب على اضمار الفعل المتروك اظهاره..» و «باب الأحرف الخمسة المشبهة بالافعال» وقد رأينا سيبويه يعنون لها بما يقرب من عشرة اسطر. واتضحت عنده بعض الابواب مثل «باب التبيين والتمييز» و «باب النكرة والمعرفة» و «باب المفعول الذي لم يذكر فاعله»

---

(١) المقتضب، ٢٢/١، وما بعدها.

(٢) المقتضب، ٥٩/٤، وما بعدها. وينظر فيها وفي امثالها المقتضب، ٢١٦/٤.

وهو أوضح من عنوان سيبويه: «باب المفعول الذي تعداه فعله الى مفعول».

اما اسلوبه في عرض المسائل النحوية فقد اصبح أكثر اسهاباً في الجدل واطالة في التعليل والاستطراد الى مسائل جانبية تعرض في أثناء شرح المسألة النحوية أو الصرفية مما كان عند سيبويه فمن أمثلة تعليلاته العقلية البعيدة عن روح تعليلات سيبويه السهلة الموضحة قوله في «باب الفاعل»: «هذا باب الفاعل وهو رفع وذلك قولك: «قام عبدالله»، «وجلس زيد» وانما كان الفاعل رفعًا لانه هو والفعل جملة يحسُنُ عليها السكوت، وتجب بها الفائدة للمخاطب، فالفاعل والفعل بمنزلة الابتداء والخبر اذا قلت: «قام زيد» فهو بمنزلة قولك: «القائم زيد». والمفعول به نصب اذا ذكرت من فعل به، وذلك لانه تعدى اليه فعل الفاعل، وانما كان الفاعل رفعًا والمفعول به نصبًا ليعرف الفاعل من المفعول به، مع العلة التي ذكرت لك، فإنْ قال قائل: انت اذا قلت: «قام زيد» فليس ههنا مفعول يجب أن تفصل بينه وبين هذا الفاعل، فان الجواب فيَ ذلك أن يقال له: لما وجب ان يكون الفاعل رفعًا في الموضع الذي لا لبس فيه للعلة التي ذكرنا، ولما سنذكره من العلل في مواضعها فرأيته مع غيره علمت ان المرفوع هو ذلك الفاعل الذي عهدته مرفوعًا وحده، وأن المفعول الذي لم تعهده مرفوعًا. وكذلك اذا قلت «لم يقم زيد» و «لم ينطلق عبدالله» و «سيقوم اخوك». فان قال قائل: انما رفعت (زيد) أوّلاً لأنه فاعل، فاذا قلت: «لم يقم» فقد نفيت عنه الفعل فكيف رفعته؟ قيل له: إن النفي إنما يكون على جهة ما كان موجبًا، فانما أعلمت السامع من الذي نفيت عنه أن يكون فاعلاً. فكذلك إذا قلت: «لم يضرب عبدالله زيداً» علم بهذا اللفظ من ذكرنا أنه ليس بفاعل، ومن ذكرنا أنه ليس بمفعول، الا ترى أن القائل اذا قال: «زيد في الدار» فأردت أن تنفي ما قال أنك تقول: «ما زيد في الدار» فترد كلامه ثم تنفيه...». فأين هذا من تعليل سيبويه المختصر الدال وهو قوله: «ضرب عبدالله زيداً» فـ «عبدالله» ارتفع ههنا كما «ارتفع في «ذهب» وشغلت «ضرب» به كما شغلت «ذهب»، وانتصب «زيد» لانه مفعول تعدى اليه فعل الفاعل»[1].

ومن أمثلة استطراده ما جاء في أثناء كلامه على «في» الجارة قال: «ومعناها ما استوعاه الوعاء، نحو قولك: «الناس في مكان كذا» و «فلان في الدار». فاما قولهم: «فيه عيبان» فمشتق من ذا، لانه جعله كالوعاء للعيبين، والكلام يكون له أصل ثم يُتَّسَع فيه فيما شاكل أصله، فمن ذلك قولهم: «زيد على الجبل» وتقول: «عليه دين» فانما ارادوا أن الدين قد ركبه وقد قهره. وقد يكون اللفظ واحداً ويدل على اسم وفعل نحو قولك «زيد على الجبل يا فتى» و «زيد علا الجبل» ومن كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين واختلاف اللفظين والمعنى واحد، واتفاق اللفظين،

---

(١) المقتضب، ١/٨-٩ والكتاب ١/٣٤.

واختلاف المعنيين، فأما اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين فهو الباب نحو قولك: «قام» و «جلس»[1] ...» ثم يمضي في شرح هذه الأنواع والتمثيل لها ثم يقول: وكذلك «وجدتُ» تكون من «وجدان الضالة»... وفي معنى «الموجدة» نحو: «وجدت على زيد» ويبدو أنه لم يكن غافلا عن هذا الاستطراد الطويل وانما هو متعمد له ولهذا يقول بعده: «فهذا عارض في الكتاب ثم نعود الى الباب[2]» ويتحدث بعده عما كان من حرفين وهو «لم»... ويستخدم التقرير النظري العقلي أكثر من اعتماده اللغة فهو يشرح أموراً نظرية كثيرة ثم يمثل لها على خلاف ما كان واضحًا عند سيبويه وشيوخه من بناء القاعدة على المثال لا المثال على القاعدة. ومن ذلك ما ذكرناه من لجوئه الى افتراض أمثلة مطولة معقدة التركيب يَمتحِن بها المتعلمين لكنه مع هذا يشرحها ومن ذلك أيضًا قوله «ما أعجبَ شيءٌ شيئًا اعجابَ زيدٍ ركوبَ الفرسِ عمرو».[3] ولهذا عيب المبرد على جعله هذه المسائل العويصة في أول كتابه مما نفر الناس منه.

واتضح تأثير الفلسفة والمنطق في شرحه مسائل النحو كما مر بنا في كلامه على «الفاعل» واتضح فيه استخدام العلل المركبة وذلك بالسؤال عن العلة وعلتها الى أن تداخلت اربعة تعليلات فيه، واستخدم المَحاجَّة في ذلك كله.

وكان أول من أحس باستخدام المبرد للتعليل والاحتجاج وأسلوب المناطقة وعلماء الكلام في عرض الحجة والتفكير في ابطالها من الخصم، ثم ابطال حجة الخصم أيضًا، أبو اسحاق الزجاج في أول لقاء له بالمبرد في مسجد بغداد عند قدومه من سامراء. وأحس بذلك الباحثون المحدثون ومنهم الدكتور مازن المبارك الذي تحدث عن تعليلات المبرد فقال ان المبرد ومن عاصره من نحاة القرن الثالث كانوا يعدون العلة رديف الحكم النحوي لاتفارقه ولا ينبغي لها في اعتقادهم أن تفارقه، وكان شديد الاهتمام بالتعليل يتخذ منه سلاحًا للمناقشة والبحث، وكانت له يد طولى وحظ في التعليل لانه كان من المجتهدين فيه حتى كانت المطالبة بالعلة هي السلاح الذي شهر في مناقشاته مع الزجاج ومن معه من حلقة ثعلب، كما وقف في وجه سيبويه لانه قبل قول الخليل خاليًا من التعليل[4].

ويلاحظ انه كان يميل الى التكرار ويبحث الموضوع الواحد في أكثر من موضع كما فعل في بحثه باب «كان واخواتها» في الجزء الثالث ثم عاد وبحثه في الجزء الرابع. وفي كلامه على التوكيد

---

(١) هذا كلام سيبويه عينه في: باب اللفظ للمعاني، ١/٢٤ نقله نصاً وبأمثلته نفسها.

(٢) المقتضب، ١/٤٥-٤٦. وينظر في مثله من الاستطراد، ١/٦٩-٧٠.

(٣) تنظر هذه الامثلة مجموعة في المقتضب، ٤/٢١٦.

(٤) النحو العربي، ٦٧-٦٩.

بالنونين فعل مثل هذا، ومثلهما أبنية الافعال المجردة والمزيدة وما يشتق منها تكلم عليها في الجزء الأول وعاد الى الكلام عليها في الجزء الثاني[1] واظن ان هذا انما وقع لعدم تنظيم ابواب الكتاب ولاضطراب منهجه فيه.

شواهده:

وكانت معظم شواهد المبرد في المقتضب من آيات الكتاب العزيز وقراءاتها فقد تجاوزت شواهده منها خمسمائة آية[2]، وقد كان يفصل القول في بعض الآيات ويأتي بالقراءات في بعضها الآخر مبيناً ما ورد فيها مما يخص الباب، مخرِّجا اياها على الاوجه الواردة، موجها كل وجه، وهو يفاضل بين القراءتين ان وردتا في آية واحدة فيذكر المفضلة من غير أن يصرح بالقراءة الاخرى، اتضح ذلك في قوله متحدثا عن «النون» وعدم ادغامها في حروف الحلق: «فان كان معها حرف من حروف الحلق أمن عليها القلب فكان مخرجها من الفم لا من الخياشيم لتباعد ما بينهما، وذلك قولك: «من هو؟» فتظهر مع «الهاء» وكذلك: «من حاتم؟» ولا تقول: «من حاتم؟» فتخفي، وكذلك «من علي؟»، وأجود القراءتين «ألا يعلم من خلق؟» فتبين» ويعلل تفضيله لهذه القراءة فيقول: «وانما قلت «أجود القراءتين» لأن قوماً يجيزون أخفاءها مع «الخاء» و «العين» خاصة لانهما اقرب حروف الحلق الى الفم، فيقولون «منخل» و «منغل» وهذا عندي لايجوز، ولا يكون أبداً مع حروف الحلق الا الاظهار»[3].

وقد يذكر القراءتين ويبين ايتهما الاكثر وذلك في قوله متحدثًا عن جواز الفك والادغام فيما كانت عينه ولامه معتلتين مثل «حيي» يقول: «فأنت فيه مخير ان شئت ادغمت وان شئت بيَنت.. فمثل الادغام قراءة بعض الناس: «ويحيا من حَيَّ عن بينة» وهو أكثر، وترك الادغام: «من حَيِيَ عن بينة»، وقد قرىء بهما جميعًا.»[4]. وقد يعرض للقراءة من غير أن يرجحها أو يرجح عليها وذلك في قوله: «فان كان «اللام» لغير المعرفة جاز الادغام والاظهار، والادغام في بعض أحسن منه في بعض، إذا قلت: «هل رأيت زيداً؟» و «جعل راشد»... والادغام ههنا احسن اذا كان الأول ساكنًا

---

(١) ينظر في الحديث عنه المقتضب، ٩٧/٣ و ٩٨/٤ و ١١٥/٤، ٢١٧/٤، ومثله الكلام على نوني التوكيد بحثها في المقتضب، ٢٦٠/١ و ١١/٣ وتكلم على الافعال وأبنيتها وما اشتق منها في ١٣٦/١-١٨١ و ٩٥/٢-١٣١ وغيرها من مواضع متفرقة.

(٢) تنظر مقدمة المقتضب، ١١٦/١.

(٣) الملك، ١٤، والمقتضب، ٢١٥/١-٢١٦.

(٤) الانفال، ٤٢، والمقتضب ١٨١/١.

فان كان متحركًا اعتدل البيان والادغام، فان قلت: «هل طَرقك؟» أو «هل دَفعك؟» أو «هل تَم لك؟» فالادغام حسن والبيان حسن، وهو عندي احسن لتراخي المخرجين. وقرأ أبو عمرو «بَتُّؤْثِرونَ» فأدغم، وقرأ: «هَثُّوبَ الكفـار؟»[1].

وقد يعرض لآية ويبين ما يجوز في قراءتها من أوجه من غير اشارة الى انها قرئت بها جميعًا أو لم تقرأ، وذلك في مثل قوله متحدثًا عن حكم «النون» في الادغام فيما بعدها: «اعلم ان «النون» اذا وليها حرف من حروف الفم فان مخرجها معه من الخياشيم، ولا يصلح غير ذلك... وذلك قولك: «مَن قال؟ «و «مَن جاء؟» ولا تقول: «مَنْ قال؟» و «مَنْ جاء؟» فتبين، وكذلك «مَن سليمان؟» و «ويل يومئذ للمكذبين» ولا تقول: «مَنْ سليمان؟» ولا «ويل يومئذ للمكذبين» فتبين»[2]. وقد يصف القراءة بانها لحن وذلك في قوله: «وأما قراءة من قرأ: «ثمَّ لِيقطع فَلْيَنظُر» فان الاسكان في «لام»: «فلينظر» جيد وفي «لام «ليقطع» لحن، لأن «ثم» منفصلة من الكلمة وقد قرأ بذلك يعقوب بن اسحاق الحضرمي[3]». وقد يصفها بأنها خطأ في الكلام، قال متحدثًا عن قوله عز وجل «ولبثوا في كهفهم ثلاثمائةِ سنينَ» «فأمّا قوله عزّ وجلّ: «ولَبِثُوا في كهْفِهِمْ ثلاثَمائَةٍ سنينَ» فانه على البدل؛ لأنه لما قال: «ثلاثمائَةٍ» ثم ذكر السنين لِيُعْلَم ما ذلك العدد؟... وقد قرأ بعضُ القُرّاءِ بالإضافة، فقال: (ثلاثمائَةِ سنينَ)[4] وهذا خطأ في الكلام غير جائز، وانما يجوز مثله في الشعر للضرورة» وعلل جوازه في الشعر وعدم جوازه في النثر بقوله: «وجوازه في الشعر انا نحمله على المعنى، لانه في المعنى جماعة، وقد جاز في الشعر أن تفرد وأنت تريد الجماعة اذا كان في الكلام دليل على الجمع»[5]. وقد يكتفي بوصف القراءة بأنها غير جائزة، قال متحدثاً عن العطف على معمولي عاملين معًا وانه ممتنع عنده: «وكان أبو الحسن الاخفش يجيزه، وقد قرأ بعض القراء: «واختلافِ الليلِ والنهارِ وما أنزلَ اللهُ من السماءِ من رزقٍ فأحيا به الأرضَ بعدَ موتِها وتصريفِ الرياحِ آياتٍ لقومٍ يعقلون» فعطف على «إن» وعلى «في» وهذا عندنا غير جائز[6]» وقد جاءت «ان» و «في» في قوله تعالى في آية سابقة

---

(١) الاعلى، ١٦ والمطففين، ٣٦ والمقتضب، ٢١٤/١.

(٢) المطففين، ١٠، والمقتضب، ٢١٥/١، وتنظر مقدمته– وضبطت فيه نون (مَن سليمان) بالسكون في الموضعين والصحيح أنها لا تسكّن في الموضع الأول.

(٣) الحج، ١٥، والمقتضب ١٣٤/٢، وتنظر مقدمته.

(٤) الكهف، ٢٥، والمقتضب.

(٥) ١٧١/٢، وتنظر مقدمته.

(٦) الجاثية ٥، والمقتضب ١٩٥/٤. وهي في المصحف «آيات» بالرفع.

«إن في السموات والارض لآيات للمؤمنين[1]» وقد يراها غلطًا وذلك في قوله:

«فاما قراءة من قرأ: «معائش «فهمز فانه غلط» ثم يصف القارىء بها وهو نافع ابن أبي نعيم بانه لم يكن له علم بالعربية[2]. وعد احدى القراءات لحنا فاحشا فقال: «وأما قراءة أهل المدينة: «هؤلاء بناتي هُنَّ أطهرَ لكم» فهو لحن فاحش، وانما هي قراءة ابن مروان، ولم يكن له علم بالعربية[3]». وهناك قراءات اخرى نسب فيها المبرد القراءة الى اللحن والخطأ، وقد ذكرها المحقق في مقدمة التحقيق. وذكر قراءات اخرى فاضل المبرد بينها. وقال معلقا على تخطئة المبرد للقراء: «وهذه الحملة الآثمة على القراء بتلحينهم، ورد قراءاتهم استفتح بابها وحمل لواءها نحاة البصرة المتقدمون ثم تطاير شررها الى بعض نحاة الكوفة فأسهم فيها، فالفراء ينسب الوهم الى بعض القراء الذين تواترت قراءاتهم في السبعة، كما كان للكسائي مشاركة في هذه الحملة، وقد كان للمازني استاذ المبرد نصيب موفور في قيادة هذه الحملة الآثمة فقد طاب له أن يختم كتابه «التصريف» بالطعن على القراء والسخرية منهم، وعدهم من الجهلاء الذين يتعلقون بالالفاظ ويجهلون المعاني وقد اقتدى به تلميذه، ونقل في المقتضب ما اثبته المازني في تصريفه من الطعن على «خارجة» من رواة نافع[4] «هذا ما قاله الاستاذ محمد عبدالخالق عضيمة، ولنا في تخطئة القراء رأي آخر حيث لاحظنا أن أول من صرح بهذه التخطئة ونسب اللحن الى القراء الكسائي ثم تلميذه الفراء وهما تاريخيًا قبل المبرد، وعنهما أخذ المبرد هذا الموقف فيما يبدو لا عن البصريين وتابعهما مَنْ بعدَهما. اما سيبويه وبما نقله عمن سبقه فقد وضع قواعد عامة لما يجوز في اللغة من همز وادغام وما اليهما ولم يذكرهما في قراءات معينة ولم يلحن قارئًا أو يصرح بنسبة الخطأ اليه كما فعل الكوفيون.

واعتمد المبرد في الاحتجاج لمسائل النحو والصرف والاصوات على ما ورد في كلام العرب الفصحاء من منثور اقوالهم ومنظومها والتزم في الشعر المحتج به ما التزمه شيوخه البصريون من الاحتجاج بشعر الشعراء الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين. وكان آخر من احتج بشعرهم منهم جرير والفرزدق والاخطل ومن في طبقتهم[5]. اما المنثور من الامثال والاقوال التي احتج بها

---

(١) الجاثية، ٣.

(٢) الاعراف، ١٠ والحجر ٢٠، والمقتضب ١٢٣/١.

(٣) هود ٨٧ والمقتضب، ١٠٥/٤.

(٤) تنظر مقدمة المقتضب، ١١١/١-١١٣.

(٥) يراجع فهرس الشعراء في المقتضب، ٣٢٤/٤-٣٣١.

فهي لا تخرج عما جاء في كلام العرب الفصحاء ومعظمها مما احتج به سيبويه وشيوخه[1].

أما الحديث النبوي فلم يكن مما احتج به المبرد أو بنى عليه قاعدة، وقد جاءت عبارات مثّل بها مع شواهد اخرى، أو وحدها في مواضع من المقتضب وليس فيها الا حديث نبوي واحد وهي جميعها من الاخبار وذلك في قوله متحدثًا عن العدد«فاذا بلغت المائة قلت: «كانوا تسعة وتسعين فأمأيتهم، إذا جعلتهم مائة» و «كانوا تسعمائة فَأَلَفْتُهُمْ» اذا اردت: «فعلّتهم» و «آلَفْتُهُم؟» اذا اردت: «أَفعَلْتُهم» كل ذلك يقال، وجاء في الحديث: «أول حي آلف مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- جهينة وقد آلفت معه بنو سُلَيم بَعدُ »[2]. وفي قوله متحدثًا عن جواز جمع ما كان على وزن «أفعَل» و «فعلاء» من الصفات: «فان جعلت «أحمر» اسما جمعته بالواو والنون... وقلت في المؤنث «حمراوات» و «صفراوات» وجاء عن النبي (ﷺ): «ليس في الخضراوات صدقة» لانه ذهب مذهب الاسم، والخضراوات في هذا الموضع ما أكل رطبا، ولم يصلح ان يدخر فيؤكل يابسًا[3]» وهذا الحديث هو الوحيد الذي كان من كلام النبي صلى الله عليه وسلم. وجاء به في موضع احتجاج لم يرد فيه شاهد غيره، وان كان في موضع يبدو منه أنه جائز ووارد فيما سمي به ولم يُعَدَّ وصفا. وهناك عبارتان اخريان أوردهما في معرض كلامه ولم يَبْنِ عليهما قاعدة وهما: «وفي الحديث: لما طعن العلج أو العبدعمر -رحمه الله- صاح: ياللّه للمُسلمين» وقوله: «قال امير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: «العين وَكاءُ السَّهِ» رفي موضع آخر قال: «وفي الحديث «العينُ وُكاءِ السَّه»[4].

مصطلحاته:

المبرد بصري ونحوه بصري ومصطلحاته في الاعم الاغلب بصرية، الا انه استخدم في المقتضب بعض المصطلحات التي انفرد بها فلم تكن بصرية ولا كوفية من ذلك تسميته «الحال» «المفعول فيه» والضمير المنفصل المؤكد للمتصل: «الصفة» و «جواب الشرط»: «الخبر» و «التوكيد المعنوي»: «النعت»، و «النهي»: «النفي». وقد يتابع سيبويه فيعبر عن «الهمزة» بـ «الالف» وصلاً كانت أم قطعًا، ويصف الحرف المتحرك بأنه حرف «حيّ» مثل سيبويه، كما انه سمى الحرف

---

(١) يراجع فهرس الاقوال والامثال في المقتضب، ٤/٢٦٥-٢٦٦، وتقارن بما ورد في كتاب سيبويه، ٥/٢٥-٣٤.

(٢) المقتضب، ٢/١٨٤.

(٣) المقتضب، ٢/٢١٧-٢١٨.

(٤) ينظر ذلك في المقتضب ١/٢٣٣٣٤ والمقدمة ١/١١٦ وموقف النحاة من الاحتجاج بالحديث الشريف، ص٥٧، ومابعدها.

الساكن «الميت» وهو ممّا وجدته عند سيبويه أيضاً[1].

أما الكوفيون فلم يرد لمصطلحاتهم ذكر في المقتضب، ولم يصرح باسم الكوفيين الا في موضع واحد مع أنه عاصر ثعلبًا من شيوخهم ونافسه في استقطاب طلبته واطراح كتب الكوفيين عامة. وقد ذكرهم في اثناء كلامه على اعراب الاسماء الستة حيث قال: «وجميع هذه التي يسميها الكوفيون معربة من مكانين لا يصلح في القياس الا ما ذكرنا»، واستخدم كلمة «النحويون» أو تعبير «وزعم قوم من النحويين»[2]، ولم يحدد المقصود بهما فقد يكون المقصود بهما الكوفيين، وقد يكون غيرهم من النحويين وهم كثر في زمانه.

اصول النحو:

اتضح في المقتضب وفي غيره من كتب المبرد اهتمامه بالقياس على الكثير الغالب في كلام العرب وصرح بأن «القياس المطرد لا تعترض عليه الرواية الضعيفة»[3]، ولا يصح القياس على الشاهد المفرد والرواية النادرة فيقول: «إذا جعلت النوادر والشواذ غرضك واعتمدت عليها في مقاييسك كثرت زلاتك»[4] وهذا يعني انه يحتكم الى القياس فيما لم يكن فيه مسموع، فان ورد السماع ترك القياس في هذا المسموع بعينه ولم يقسه على نظائره مما ورد في الكثير الشائع من كلام العرب، ولم يقس عليه -لان هذا المسموع قليل ومخالف لقياس أمثاله. فان لم يكن لهذا المسموع القليل في كلام العرب نظائر جرى عليها قياس مطرد وكان هذا هو كل المسموع في بابه صح أن يُعد أصلاً للقياس عليه وتبنى عليه قاعدة كما فعل سيبويه في وضع قاعدة النسَب الى «فَعُولة» على «فَعلِيّ» قياسا على كلمة واحدة وردت على هذا الوزن في كلام العرب وهي «شنوءة» التي سمع في النسب اليها «شَنَئيّ» ولم تسمع في اللغة كلمة اخرى على هذا الوزن. فقاس عليها النسب الى «رَكوبة»: «رَكبي» لو استعملت اسما منسوبا اليه[5]. ومن أقيسة المبرد إجازته صياغة

---

(١) تنظر هذه في: المقتضب ١٦٦/٤ و١٦٨و ١٧١ و ١٠٥/٤ و ٨/٢ و ٢١٠/٣ و ٢٣/٢ و ٤٤ و ١٣٤ و ١٣٥ و ٨٤/٤و٨٤/٢و ١/٧٤و٨٧و١٣٣/٣ . وينظر الكتاب ٣٠٧/٤ و ٤٥٤/٣ و ٤٣٩ حيث سمى الهمزة كلمة حية، وسمّى الواو في جُدْيَول» وأمثالها «حية» ينظر الكتاب ٤٧٩/٣ و ٤٢٣ و ٣٥٥ – ٣٥٦ و ٤٦٩ و ٣٦٣ و ٤٢٢ و ٤٢٣ وغيرها وفي تسمية الميِّت.. ينظر اطلاقه اياها على الواو في (عجوز) والالف في (رسالة) والياء في صحيفة الكتاب، ٣٥٦/٤ وعلى الألف في (قَرْقَرَى) و (مبارك) و (جوالق) (ينظر كتاب ٤١٩/٣ و ٣٥٦ و ٥٤٤ و ٤٢٣) وينظر تفصيل هذين المصطلحين وغيرهما من المصطلحات الصرفية في كتاب سيبويه.

(٢) المقتضب، ١٥٥/٢، وينظر ٣٤٧/٢ و ٣٣٧/٤ ففيها فهرسة لمواضع ذكر هذه الكلمة.

(٣) تنظر مقدمة المقتضب، ١٠٧/١.

(٤) تنظر مقدمة المقتضب، ١٠٧/١.

(٥) ينظر شرح المفصل، ١٤٦/٥، في مخالفة المبرد سيبويه في النسب اليها والكتاب، ٣٤٥/٣.

«فعّال» للدلالة على صاحب الشيء كالمهنة ونحوها فقال في باب «ما يبنى عليه الاسم لمعنى الصناعة لتدل على النسب على ما تدل عليه الياء»: «وذلك قولك لصاحب الثياب «ثوّاب» ولصاحب العطر: «عَطّار «ولصاحب البز: «بزّاز» وإنما اصل هذا التكرير الفعل كقولك: «هذا رجل ضرّاب» و «رجل قتّال» أي يكثر هذا منه وكذلك «خيّاط». فلما كانت الصناعة كثيرة المعاناة للصنف فعلوا به ذلك وان لم يكن منه، نحو: «بزّاز» و «عطّار». فان كان ذا شيء، أي صاحب شيءٍ بني على «فاعِل» كما بني الأول على «فعّال» فقلت: «رجل فارس» أي: «صاحب فرس» و «رجل دارع» «ونابل» و «ناشب»، أي هذا آلته. قال الشاعر:

وغررتني وزعمتَ أنك لابنٌ في الصيف تامِرِ

فهو هنا يرى أن القياس في النسب الى الصناعة «فعّال» وفي صاحب الشيء «فاعل» ولذلك قال بعد ذلك: «فاما قوله:

فليس بذي رمحٍ فيطعَنُني به   وليس بذي سيفٍ وليس بنبّالِ

فانه كان حقه أن يقول: «وليس بنابل» ولكنه كثر ذلك منه ومعه»[1]. وعلى هذا خرج قوله تعالى: «عيشة راضية»، وقول الحطيئة «الطاعم الكاسي» بأنه على معنى: عيشة فيها رضا، ورجل له طعام وكسوة»[2]، وقاس النسب الى ما كان على وزن «ثقيف» و «هُذيل» بحذف «الياء» وابقائها وعد الحالتين جائزتين. أما ما آخره «الهاء» التي للتأنيث منهما فالقياس حذف «الياء» ولا يجوز غيره[3]. ومن ذلك قياسه عمل «لكن» المخففة على «ان» المخففة، لانه يرى أن «لكن» بمنزلة «إن» في تخفيفها وتثقيلها في النصب والرفع وما يختار فيهما لانها على الابتداء داخلة[4]. وذهابه الى أن عمل «إن» النافية عمل «ليس» قياس[5]. ومن اقيسته تجويزه الجمع بين فاعل «نعم» و «بئس» الظاهر وتمييزهما المنصوب. ومن ذلك أيضاً قياسه قلب «الواو» الاصلية المكسورة في أول الأسماء همزة مثل «وسادة» و «اسادة»[6].

ومما اهتم به المبرد في آرائه النحوية وبحوثه الصرفية التعليل، وقد مر بنا انه كان يستخدم التعليل المنطقي المبني على ايجاد علة للحكم وعلة للعلة وعلة ثالثة أو رابعة بحسب ما يحتاج إليه

---

(١) المقتضب، ١/١٦١-١٦٢.

(٢) القارعة ٧، والحاقة ٢١، والمقتضب ٣/١٦٣.

(٣) ينظر المقتضب، ٣/١٣٣، وينظر في القياس عنده ١٣٤ و ١٤٥ و ١٤٦.

(٤) ينظر المقتضب، ١/٥٠-٥١.

(٥) ينظر المقتضب، ٢/٣٦٢.

(٦) ينظر المقتضب، ٢/١٥٠ و ٢/٩٤.

احتجاجه للمسألة أو الرأي، واستخدم التأويل في رد ما خالف القياس من الظواهر بتقديرات بعيدة، من ذلك قوله في تخريج استعمال الشاعر كلمة «فمويهما» -بالجمع بين الميم والواو- في قوله:

هما نفثا في فيَّ من فمويهما على النابح العاوي أشد رجام

«فإنما «فم» أصله «فوه «لانه من «تفوهت بكذا»، وجمعه : «أفواه» على الاصل. فاذا قلت: «هذا فو زيد» فقد حذفت موضع اللام، ولولا الاضافة لم يصلح اسم على حرفين احدهما حرف لين، ولكن تثبت في الاضافة لانها تمنعه التنوين...». وقوله بعده: «فأما قوله: «فمويهما» فانه جعل «الواو» بدلاً من «الهاء» لخفائها للين، وأن «الهاء» «خفية»[1].

ومما ذهب الى التأويل فيه من الابنية مجيء «فاعل» قياسا لصاحب الشيء في كل ما جاء من أوصاف المؤنث بلا «هاء» تأنيث، وان كانت من ألفاظ لا تقع الا في المؤنث فعدها بمعنى «صاحبة الشيء» وذلك في نحو «طالق» و «متئم» و «مرضع» فهي بلا «هاء» بمعنى: «ذات طلاق» و «ذات توأم» و «ذات ارضاع» فان اريد الوصف العادي قيل فيها «طالقة» و «مرضعة»[2].

ومن التأويل الظاهر الواضح قوله مخرجا قول العجاج:

خالَطَ من سلمَى خياشيمَ وفا

«فاما «فوك» فانما حذفوا لامه لموضع الاضافة، ثم ابدلوا منها في الافراد «الميم «لقرب المخرجين فقالوا: «فم» «كما ترى. لا يكون في الافراد غيره، وقد لحن كثير من الناس العجاج في قوله:

خالَطَ من سلمَى خياشيمَ وفا

وليس عندي بلاحن لانه حيث اضطر أتى به في قافية لا يلحقه معها التنوين في مذهبه، ومن كان يرى تنوين القوافي فيقول:

أقلي اللوم عاذلَ والعتابَن

لم ينون هذا، لان ترك التنوين هو الاكثر الاغلب لما في هذا الاسم من الاعتلال[3]».

هذا هو موقف المبرد من الشاهد النحوي ومن اصول النحو وقد تبين انه تابع البصريين في معظمها وخالف سيبويه في بعض الاقيسة، وزاد عليهم ما جد في عصره من ميل الى الاحتجاج واكثار من التعليل والتأويل.

---

(١) المقتضب، ١٥٨/٣ وينظر في مثل هذا من التأويل ١٦٣/٣.

(٢) المقتضب، ١٦٤/٣-١٦٥.

(٣) المقتضب، ٢٤٠/١، وينظر في التأويل، ٢٣٨/١-٢٣٩ و ٧١/٣-٧٢.

الفصل الثاني

المذهب النحوي في الكوفة

المبحث الأول

بيئة الكوفة

الكوفة:

اختلف في اسم «الكوفة» فقيل انه لم يكن معروفًا قبل التحرير العربي، قال ابن سيدة: «الكوفة بلد سميت بذلك لان سعداً لما أراد أن يبني الكوفة ارتادها لهم، وقال لهم: تكوفوا في هذا المكان، أي اجتمعوا فيه، وقيل: انه كان معروفًا قبلها، قال الكسائي: كانت الكوفة تدعى «كوفان»، وقال الازهري «كوفان اسم ارض وبها سميت الكوفة[1]».

مصر الكوفة سعد بن أبي وقاص في السنة السابعة عشرة للهجرة[2]. وقد تضافر على اختيار موقعها عاملان: حربيّ، هو وقوعها على الجانب الغربيّ من الفرات على طريق الامدادات العسكرية كي يسهل الاتصال بين مقر الخلافة الإسلامية من جهة والجيش من جهة أخرى. وعامل جغرافي هو وقوعها على اطراف الصحراء العربية، وكون بيئتها شبيهة ببيئة الحجاز واليمن التي صدروا عنها فلما انتهت الفتوحات وهدأت الاحوال رغبوا في بناء المدينة، الا أن عمر بن الخطاب لم يكن يريد لهم حياة الاستقرار كي لا ينسوا الجهاد وهي المهمة التي نزلوا الكوفة من أجلها فكتب اليهم: «العسكر أجدّ لحربكم، وأذكى لكم، وما أحب أن اخالفكم[3]» فبنوا مدينتهم بالقصب، ثم باللبن بعد أن شب حريق فيها، وبقيت على هذه الحال حتى جاء زياد واليا على العراق سنة خمسين للهجرة فبناها بالآجرّ وجاء بأساطين المسجد من الاحواز[4].

كان المسجد ودار الامارة أول ما يختطه المسلمون في أية مدينة يمصرونها، وبعد أن اختطوهما وزع العرب حولهما توزيعًا قبليًا، وجعلت خطط أهل اليمن في الجانب الشرقي، وجعلت

---

(١) ينظر معجم البلدان، ٤/٤٩٠-٤٩١، واللسان (كوف).

(٢) ينظر فتوح البلدان ٢٧٥-٢٧٦، ومعجم البلدان، ٤/٤٩١.

(٣) الطبري، ١/٥/٢٤٨٧، وينظر الكامل لابن الاثير، ٢/٤١١.

(٤) معجم البلدان، ٤/٤٩١.

خطط نزار في الجانب الغربي[١]. وكانت هاتان المجموعتان تمثلان القبائل التي ينتمي اليها المحاربون، ثم وزعهم سعد توزيعًا عسكريًا على سبع مجموعات ليسهل عليه تنظيم المقاتلين وتوزيع ارزاقهم[٢] واجرى زياد بعد سنة خمسين للهجرة تعديلا اساسيًا على هذا التقسيم وجعله رباعيًا[٣]، ولم يجعله على أساس قبلي، وذلك لأنه تعمد مزج هذه القبائل لتنمو بينهم علاقات من نوع جديد مبنية على الحياة المدنية، لا على العصبية القبلية، وبهذا الاختلاط أصبح أبناء القبيلة الواحدة يتسمون باسم المدينة: «ازد البصرة» و «أزد الكوفة» و «تميم البصرة» و «تميم الكوفة» بعد أن كان النسب الى «الأزد» و «تميم» حسب، واصبحت العصبية الى المدينة لا الى القبيلة، واصبح العرب عربين: «عرب البصرة» و «عرب الكوفة»، واصبحت المفاخرات والمساجلات تقوم بين أبناء هاتين المدينتين، واخذت القبائل العربية في كل مدينة تفخر بمدينتها وموقعها وطبيعتها وخيراتها، وبما قامت به من فتوحات وبمن نزل بها من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبما جد فيها من علوم وبمن اشتهر فيها من علماء. وتسربت هذه المفاخرات الى شعر شعرائهم وخطب خطبائهم، وبدأت كل مدينة تحاول أن تحقق لنفسها شخصية مستقلة متميزة عن غيرها من الحواضر والمدن، وكانت البصرة والكوفة المدينتين اللتين تمثلان هذا التطور بوضوح واصبح اذا قيل «العراق» فمعناه البصرة والكوفة، واطلق عليهما اسم «العراقين[٤]».

قامت الكوفة بدور خطير في حركة الفتح الاسلامي، وأول قتال اشترك جند الكوفة فيه كان بعد تأسيسها بقليل في سنة سبع عشرة للهجرة، حيث شاركوا في تحرير حلب، وفي السنة نفسها تم لهم تحرير الجزيرة واخضاعها، وكثرت فتوحاتهم في أرض فارس وما جاورها كـ «رامهرمز» و «تستر» و «السوس» و «نهاوند» وغيرها، وشاركت في قتال الخوارج الازارقة في الاحواز بامر معاوية[٥]. ولما بويع علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) بالخلافة استقر في الكوفة واتخذها عاصمة له، وانقسم العراق في زمانه الى معسكرين: البصرة التي شق اهلها عصا الطاعة عليه، والكوفة التي كانت أول من بايعه بالخلافة، ولهذا مر علي بالبصرة وخطب في أهلها وعنفهم وذمهم وولّى

---

(١) ينظر البلاذري ٢٧٧، وخطط الكوفة (ماسنيون) ٢٧ و ٢٨ و ١٧، والطبري ١/٥/٢٤٨٩-٢٤٩٠.

(٢) ينظر الطبري، ١/٥/٢٤٩٠، وخطط الكوفة ١١.

(٣) ينظر خطط الكوفة، ١٠.

(٤) ينظر مختصر كتاب البلدان، ١٧ و ١٦٣ - ١٧٣. والطبري ١/٦/٣٢١٠، وانساب الاشراف للبلاذري ٥/٢٥١. وفجر الاسلام، ١/٢٢٣ و ٢٢١ و ٢٥٣ و ٢٥٦.

(٥) ينظر الطبري، ١/٥/٢٤٩٨-٢٥٠٥ و ٢٥٦٩ و ٢٦٠١ و ٢٦١٤ و ٢٦١٥ و ٢٦٨٣ و ٢٨٤١ و ٢/١/٩ و ١٠ و ٢/٢/٨٢٥ وخطط الكوفة ٤.

عليهم عبدالله بن عباس وسار الى الكوفة حيث استقر فيها[1]. وظلت الكوفة منشأ الثورات على الامويين حتى ولّى عبدالملك ابن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي سنة خمس وسبعين للهجرة فضرب على يد كل معارض منهم، واخضع اهل الكوفة واستطاع أن يعيد اليها سيرتها الأولى فيجعلها معسكراً للجيوش الاسلامية، ويشغل أهلها بالحروب[2]. ولما قامت الدولة العباسية اصبحت الكوفة حاضرتها واستقرت بها الاحوال بعد أن بويع للسفاح فيها واتخذها عاصمة فترة من الزمن. وفي سنة ١٣٤هـ تحول الى «الانبار» وفيها توفي سنة ١٣٦هـ وتولى المنصور الخلافة في «الانبار»، ثم بنى «الهاشمية» واتخذها مقرًّا له حتى فكر ببناء مدينة «بغداد» ووضع اساسها سنة ١٤٥هـ وتم بناؤها سنة ١٤٩هـ واصبحت حاضرة الخلافة العباسية.

انشئت الكوفة على حدود العراق الصحراوية، وصارت مركزاً للتبادل التجاري بين كبار أصحاب الابل القادمين من البادية والمدن المختلفة، واصبحت ملتقى القبائل العربية القادمة من الحجاز واليمن. ونزل في الكوفة عدد من البيوتات العربية وعدد من الصحابة الذين شهدوا بدراً، وكان قي مقدمتهم عمار بن ياسر وعبدالله بن مسعود اللذان بعث بهما عمر رضي الله عنه فكان عمار أميراً وعبدالله مؤذّنًا ووزيراً، وقد كانت الكوفة محط انظار العرب ووجهتهم، لهذا ولكونها مقراً لقيادة الجيوش الاسلامية في المنطقة الوسطى، ومركزاً للحركات العسكرية في العراق منذ تأسيسها، وقاعدة للخلافة الراشدية في زمن علي بن أبي طالب أصبحت متجه انظار الجميع وأُطلق عليها اسم «كوفة الجند».

مراكز الثقافة فيها:

وكان في الكوفة كما كان في غيرها من الامصار الاسلامية يومذاك مراكز ساعدت على نشر الثقافة ونموها وازدهارها فقهية كانت أم لغوية أم أدبية أم نحوية، وقد كانت بداية العلم في الكتاتيب التي تعلم القراءة والكتابة والقرآن ثم تعلم اللغة والنحو والصرف وعلوم الأدب للصبيان خاصة. وكان الدارس فيها ينتقل بعدها الى أحد مراكز الثقافة الاخرى التي كانت منتشرة في هذا المصر الاسلامي، والتي كان من أشهرها:

١- مسجد الكوفة: وكان من أكبر معاهد العلم فيها، فلم يكن يتخذ للعبادة واقامة الصلاة والقاء الخطب فحسب، وانما كان مركزاً للعلوم المتنوعة تعقد فيه حلقات لتعليم القرآن

---

(١) ينظر مروج الذهب للمسعودي ١٣/٢ و ٣٩ و ٣٣٧/١ ومختصر فتوح البلدان ٣١٥. والطبري ٢٩٢٢/٦/١ و ٢٩٤٢ و ٢٨٥١ و ٣٠٧٤/٦/١ و ٣٠٧٥.

(٢) ينظر التنبيه والاشراف للمسعودي ٣١٤، والطبري ١٠٧٢/٢/٢.

وقراءاته وتفسيره وفقهه، للحديث وروايته ودرسه والقصاص والوعاظ والفقهاء منذ العهد الاموي. ولما تنوعت العلوم في العصر العباسي تنوعت حلقات الدرس فيه واستمرت حلقات اقراء القرآن ودراسة قراءاته والتفقه في آياته واحكامه، وحلقات الحديث وروايته وعلم رجاله، ونمت حلقات الدرس الأدبي واللغوي والنحوي فكان للفراء حلقة، وللشعراء والادباء اجتماعات يروون فيها الشعر وينشدونه، حدَّث الزبيدي قال: ان الفراء أملى على أصحابه كتاباً في القرآن في المسجد في الف ورقة. وجاء في الاغاني ان الكميت بن زيد وحماد الراوية اجتمعا في مسجد الكوفة فتذاكرا اشعار العرب وأيامهم وتنازعا ثم تناظرا وتساءلا[1].

وبذلك كان للمسجد اليد الطولى في نشر العلوم وازدهارها وتنوعها، فقد كان العلم فيه مُشاعاً للعربي والمولى وللكوفي والوافد وكان الدافع اليه الرغبة الخاصة.

٢- دور الخلفاء والامراء والوزراء والأغنياء من أهل الكوفة التي كانت مركزاً لنشر العلم والثقافة على اختلاف علومها المعروفة يومذاك، فقد كان اصحاب هذه الدور يتخذون لاولادهم معلمين خاصين، فشرقي بن القطامي كان وافر الادب عالماً بالنسب وكان يعلم أولاد الخلفاء والموسرين، وكانت الطبقة المكونة من القبائل العربية الأصيلة تؤدب أولادها وتعلمهم في دورهم علوم العصر، وكان المؤدبون امثال أبي معاوية شيبان بن عبدالرحمن التميمي النحوي (-١٦٤هـ أو ١٧٠هـ) من الذين شاركوا في هذا النوع من التعليم لأولاد الخاصة والاشراف، فقد كان يعلم بالكوفة أولاد داود بن علي بن عبدالله بن عباس، وكان قارئاً محدِّثاً نحوياً من متقدمي النحويين[2]. وهكذا كان لهذه الدور أثر في نشر العلوم وازدهارها.

٣- مجالس المناظرة: كان لمجالس المناظرة التي يتهيأ لها المتناظرون سواء أكانوا فقهاء أم شعراء أم نحاة أم لغويين أكبر الأثر في نشر الثقافة على اختلاف علومها، وازدهارها بما يأخذ به المتناظرون انفسهم من الاطلاع على هذه العلوم اطّلاعاً يؤهلهم لخوضها امام حشد كبير من المستمعين على اختلاف طبقاتهم ولا سيما الولاة والامراء والعلماء المختصين أوّلاً ثم شارك الخلفاء والوزراء في ذلك ولم يقتصر الامر في انتشار الثقافة على هذه المراكز

---

(١) طبقات الزبيدي ١٤٥، وضحى الاسلام ٢/٥٣ وتنظر ص٥٢-٥٤، وينظر تاريخ بغداد، ١٣/٣٢٤ و ٣٣٤ والنشر لابن الجزري، ١/٤٢٣ ومدرسة الكوفة، ٤٠ وحياة الشعر في الكوفة، ٢٥٠-٢٥١.

(٢) نزهة الالباء ١٩، وتاريخ النحو العربي ٩٩-١٠٠ وضحى الاسلام، ٢/٥٤.

وانما كان للرحلة اثرها في تنمية العلوم وانتشارها بين الكوفة وغيرها من الاقطار حيث يرحل الكوفي الى البصرة أو الى بوادي نجد والحجاز للسماع والمناقشة والاطلاع ويعود محملاً بعلم هذه البيئات الى الكوفة، كما فعل كثير من المؤدبين والمعلمين الكوفيين واشهرهم ابو جعفر الرؤاسي (-١٩٠هـ) والكسائي الذي رحل الى البصرة اكثر من رحلة قابل في أولاها الخليل وسمع منه وأخذ عنه ثم رحل الى البوادي حيث دون ما سمع وعاد بعد وفاة الخليل الى الكوفة، ورحل رحلة أخرى اليها أيام يونس وجلس في حلقته وشارك في المناظرات الجارية في هذه الحلقة.

وكان للبصريين الذين رحلوا الى الكوفة اثرهم في نشر علوم اللغة كما فعل أبو معاوية شيبان الذي اخذ النحو عن الخليل ورحل الى الكوفة حيث بث هذا العلم بين الدارسين فيها. كما رحل الفقهاء الى المدينة ومكة للأخذ عن علماء الفقه فيهما، فكان لهذه الرحلات أكبر الأثر في انتقال الثقافات الاسلامية والعربية بين الامصار الاسلامية، ولا سيما بين البصرة والكوفة مركزي الثقافة في العراق بحيث لا يكاد يظهر العلم أو الرآي أو العالم في البصرة حتى يصل صدى ذلك الى الكوفة، وتصل اخبار من يظهر في الكوفة من فقهاء وشعراء ورواة ونحويين الى البصرة بمساعدة رحلات هؤلاء العلماء[1].

---

(١) ينظر ضحى الاسلام، ٢/٦٩ وما بعدها، وحياة الشعر في الكوفة، ٢٣٩-٢٤١.

نشأة النحو الكوفي وأوائل رجاله

لقد لاحظنا بتتبعنا لكتب التراجم والطبقات التي أرخت للنحو العربي منذ نشأ انه لم ينكر أحد وجود مدرسة نحوية بهذا الاسم فجميعهم يثبتون لها وجوداً وآراءً ونحاة طوروا هذا النحو وكونوا منه مذهباً مستقلاً أو مدرسة ثانية بعد البصرية وسواء في ذلك من أرخ لنحاة المدرستين ومن ذكر الخلاف بينهما، ومن أرخ للبصريين فقط كالسيرافي الذي اعترف بوجود مذهب آخر يقابل المذهب البصري واعترف بنحاتهم ولاسيما الكسائي والفراء[1].

اما المحدثون فقد اعترف معظم الباحثين بوجود مدرسة نحوية كوفية تقابل مدرسة البصرة النحوية -سواء في ذلك من أجاز اطلاق لفظ مدرسة عليها ومن لم يجز، واكتفى باطلاق تعبير الدرس النحوي أو ما يقاربه -وذهب بعض المحدثين الى الشك في وجود مدرسة كوفية وكان أولهم «جوتولد فايل» وتابعه في ذلك كاتب مادة «ثعلب» في دائرة المعارف الاسلامية، و «بروكلمان» في كتابه «تاريخ الشعوب الاسلامية».

قال جوتولد فايل: «ومع عظيم الاجلال لمناقبهم في غير ذلك من النواحي فانهم لم يؤسسوا مدرسة نحوية خاصة» وعلل ذلك بكثرة الخلافات بين شيخيها الكسائي والفراء مما يدل على أنهما لا يكونان مدرسة واحدة، ومتابعتهما ليونس في بعض آرائه وهو بصري. أما ما جاء في دائرة المعارف الاسلامية فقول الباحث: «على أننا لا نستطيع في الحقيقة أن نقول بوجود مذهب مكتمل لنحاة الكوفة»، أما بروكلمان فقد كان شكه أقرب الى القول بوجودها[2].

وقد نشأ النحو في الكوفة نشأته في معظم الامصار الاسلامية بعد نشوء العلوم الدينية وانتشارها وعلى أيدي علماء القرآن وقراءاته. وقد اهتمت الكوفة منذ تأسيسها بالعلوم الدينية، وكان الاساتذة القائمون بهذا جماعة من الصحابة الذين بعث بهم عمر بن الخطاب الى الكوفة لتعليم اهلها القرآن وعلوم الدين كما كان مُتَّبَعًا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كان يرسل الى كل مصر من الامصار الاسلامية التي يحررونها مجموعة من الصحابة لتولي هذه المهمة. وكان في الكوفة الامام علي بن آبي طالب رضي الله عنه الذي انصرف الى الشؤون

---

(١) ينظر اخبار النحويين البصريين ٢٧ و ٢٨ و ٣٢ و ٣٥ و ٤٠ و ٤٤ و ٤٦ و ٤٧ و ٨١.

(٢) ينظر مقدمة الانصاف (طبعة اوربا) نقلا عن مدرسة الكوفة ٤٠١، وتاريخ الشعوب الاسلامية ٢٨/٢ ودائرة المعارف الاسلامية، ٢٨/٦، والمدارس النحوية ١٥٧ وأبو زكريا الفراء ٣٥٤ وما بعدها.

السياسية وعمار بن ياسر، وانصرف عبدالله بن مسعود الى الناحية التعليمية الدينية وكان يحفظ القرآن كله ويعرف اسباب نزوله وأوقاته واماكنه لطول ملازمته للرسول صلى الله عليه وسلم، فالتف الناس حوله في الكوفة يسمعون قراءة القرآن ويتعلمونها، ويسمعون فتاواه الشرعية ويأخذون بها، وتكونت من هؤلاء مدرستان تخصصت الأولى في علوم القرآن من قراءة واقراء وتفسير وشرح، واشتهر فيها خمسة عرفت بهم الكوفة وهم: يحيى بن وثاب (-١٠٣هـ) وعاصم بن أبي النجود (-١٢٧هـ) وحمزة بن حبيب الزيات (-١٥٦هـ) وسليمان الأعمش والكسائي (-١٨٩هـ) الذي لازم حمزة وتصدر للاقراء في مجلسه بعد وفاته. وكان عاصم وحمزة والكسائي من القراء السبعة المشهورين. وتخصصت المدرسة الثانية بالتشريع وبرز من رجالها ابراهيم بن يزيد النخعي (-٩٦هـ) وتلميذه حماد ابن ابي سليمان (-١٢٠هـ) الذي لازمه أبو حنيفة النعمان (-١٥٠هـ) ثماني عشرة سنة ثم جلس في مجلسه بعد وفاته. واشتهرت هذه المدرسة التي كان زعيمها الاكبر عبدالله بن مسعود باتباع منهج الخليفة عمر بن الخطاب في الاجتهاد بالرأي في الشريعة فيما لم يكن فيه نص من قرآن أو سنة[1]. ومن هؤلاء تكونت مدرسة الرأي الفقهية في الكوفة، فكانت مدرسة الرأي في العالم الاسلامي[2].

هذان هما الاتجاهان اللذان اتجهت اليهما مدرسة الكوفة الدينية، والذي يهمنا منهما هنا اتجاه مدرسة الاقراء التي نشأت عنها مدرسة الكوفة النحوية. فقد اخذ الكسائي وشيوخه القراءة عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه وعن عدد من الصحابة منهم عبدالرحمن السلمي (-٧٤هـ) أول من اقرأ القرآن في مسجد الكوفة وقعد للاقراء فيه أربعين سنة وكان قد أخذ القرآن عن الامام علي بن أبي طالب. وزر بن حبيش (-٨٢هـ) وكان من شيوخ الاقراء في الكوفة اخذ قراءته عن عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما. وعاصم بن أبي النجود (-١٢٧هـ) الذي كان ممن أخذ عنه حمزة ابن حبيب الزيات (-١٥٦هـ) واصبح امام الاقراء في الكوفة. وعنه أخذ الكسائي علي بن حمزة (١١٩-١٨٩هـ) الذي انتهت اليه رياسة الاقراء في الكوفة بعد شيخه حمزة بن حبيب الزيات فتصدر حلقته فكان أوحد زمانه في القراءات وأعلمهم بها. فكان الناس «يكثرون عليه حتى لا يضبط الاخذ عليهم فيجمعهم في مجلس، ويجلس على كرسي ويتلو القرآن من أوله الى آخره، وهم يسمعون ويضبطون عنه»[3].

---

(١) ينظر فجر الاسلام، ٢٩٢/١، وما بعدها، وحياة الشعر في الكوفة، ٢٤٨ وما بعدها.

(٢) ينظر حياة الشعر في الكوفة، ٢٤٨-٢٥٣.

(٣) النشر في القراءات العشر لابن الجزري ١٧٣/١، ومدرسة الكوفة ٤٢.

وكان الى جانب هذا الاهتمام الواسع بالقرآن واقرائه وعلومه وبالتشريع وتطويره ووضع اصوله وأحكامه اهتمام من نوع آخر، اهتمام باللغة العربية من منثور ومنظوم فاختصت بذلك جماعة من العلماء الذين عنوا بالخروج الى البوادي لجمع اللغة وتدوينها، والسماع عن الاعراب والشعراء والخطباء الوافدين الى المربد في المواسم، وقد تكونت من هؤلاء طائفة من الرواة واللغويين اشتهروا في البصرة التي كانت سباقة الى الاهتمام بالعلوم اللغوية والتي بذل علماؤها الجهد الاكبر في إرساء قواعد النحو والصرف وغيرهما من العلوم اللغوية. وشاركت الكوفة بنوع آخر من الرواية اللغوية، تلك هي رواية الشعر والاهتمام به نَظَرًا لما اختصت به من وجود القبائل العربية المتمسكة بالعصبية القبلية والتي كانت تمثل الطبقة العليا في المجتمع الكوفي. فكانت تهتم برواية الشعر للتغني بمفاخر الآباء والاجداد والمناظرة والمساجلة فيما بينها، فانصرف أهل الكوفة عن شؤون الحياة الاخرى واهتموا بالشعر وأسهموا في ايجاد هذا التراث الضخم من اشعار العرب جاهليين واسلاميين، هذا الشعر الذي أصبح عدة الدارسين وعمدتهم في الدرس اللغوي والنحوي الذي شاركت فيه الكوفة في عهد متأخر عن البصرة التي سبقتها الى ذلك بمائة عام مع أنهما انشئتا في عهد واحد ولم يكن بينهما أكثر من سنتين.

كان الكسائي ابرز من اهتم بالدراسات النحوية وأدخلها في الكوفة ونشطها -وان كان قبله عدد ممن سموا بالنحاة الا ان دورهم لم يكن ظاهرًا في ذلك- فقد وجد الكسائي نفسه محتاجًا الى الالمام بعلوم اللغة ليخدم قراءته وليساعده على تفسير القرآن الكريم لمن كان يلم بحلقته من الدارسين الذين كثر فيهم الموالي الذين كونوا الطبقة الثانية من سكان الكوفة، وليستطيع أن يشرح لهم ألفاظه ومعانيه معتَمِدًا على ما جاء في كلام العرب منظومه ومنثوره، وما وجد في غريبه وما عرف في أساليبه من دراسات لضبط الابنية أو العبارات أو لمعرفة ما فيها من ظواهر صوتية تختلف باختلاف الناطقين بهذه اللغة وتتنوع بتنوع بيئتهم وقبائلهم مثل الاعلال والابدال والادغام والامالة والوقف والابتداء والهمز وأصولها وقواعدها، فعزم على تعلم مبادىء ذلك كله على أيدي من كان بالكوفة من النحويين الصغار الذين هم بمنزلة المؤدبين ولهم المام بالنحو واللغة وعلومها الاخرى أكثر من غيرهم فأخذ عنهم ما عندهم كأبي جعفر الرؤاسي وأبي مسلم معاذ الهراء الذي اخذ عن أبي معاوية شيبان بن عبدالرحمن التميمي[1]. ثم شد الرحال الى البصرة ليطلع على علم الخليل وشيوخه وعلى ما عند الرواة واللغويين فيها فجلس في حلقة الخليل واخذ عنه نحوًا كثيرًا ثم خرج

---

(١) **طبقات النحويين واللغويين**، ١٣٨ وما بعدها و ١٣٧ ونور القبس ٢٧٦ و ٢٧٩ ونزهة الالباء ١٩ و ٣٤ و ٤٢ - ٤٨ ومعجم الادباء ١٨٤/٥، وينظر ١٨٢-٢٠٠ وتاريخ النحو العربي، ١٠١، والدرس **النحوي في بغداد** ١٦-١٧.

الى البادية وسمع عن الاعراب ودوّن ما سمعه حتى انفد خمس عشرة قنينة، وعاد الى البصرة وجلس في حلقة يونس حيث كان الخليل قد مات، ومنها عاد الى الكوفة وأخذ يبحث في نحو الخليل ويحاول تنمية الدرس النحوي وتطويره، وبه بدأت الدراسات النحوية بالكوفة وبتلميذه الفراء نمت وتطورت حتى أصبح للكوفة نحو يعرف بها.

أوائل النحاة:

ليس بين أيدينا من اخبار مدرسة الكوفة ونشأتها وأوائل رجالها ما وجدنا في نحو البصرة، وذلك لأن الدرس النحوي نشأ بالبصرة وقام على أكتاف رجال بصريين بذلوا ما وسعهم الجهد والوقت في سبيل ارساء قواعده ووضع أصوله وتحديد اقيسته بعد العمل على جمع مادته ودرسها بحرص وأمانه ووعي. وأما الكوفة فلم يكن لها تأريخ في الدرس النحوي، والنحاة الذين عرفتهم الكوفة كانوا تلاميذ البصريين لم يتعمقوا في الدرس ولم يبرعوا فيه، واكتفوا من محصولهم النحوي بأن يشتغلوا في الكوفة بتأديب أولاد الامراء والموسرين. ولم يضيفوا الى ما تلقوه عن أشياخهم البصريين جديداً ولم يغيروا من أسلوبه شيئًا»[1] فَمَن أوائل رجالِ هذا الدرس النحوي الكوفي؟ لقد ظلت نشأة الدراسة النحوية في الكوفة غامضة لانعلم عنها أكثر من روايات متفرقة لا تكون مادة تؤرخ لهذه المدرسة، وذلك لقلة ما وصل الينا من أخبار الكوفيين ومصنفاتهم. وقد رجعنا الى كتب الطبقات والتأريخ نستفتيها في هؤلاءالنحويين فلم نجد الا نتفا من اخبار، واشارات استهدينا بها في معرفة بعض هؤلاء النحاة الذين يحق لهم أن نعدهم أوائل من سمي نحاة كوفيين، واشهر هؤلاء **سعد بن شداد الكوفي النحوي** كما سماه السيوطي ويعرفُ (سعد الرابية) قيل انه لقب بموضع كان يعلم فيه النحو. اخذ النحو عن أبي الاسود الدؤلي[2]. **وتوبة الملائي** ذكره أبو بكر بن مجاهد وقال عنه «كان من أعلم أهل الكوفة بالنحو»[3] وكان معاصراً لعاصِم المقرىء (-١٢٧هـ)، وهذا يعني أنه ممن أخذ عن أبي الأسود كما أخذ عنه سابقه، وربما كان من شيوخ الرؤاسي والهراء، **وحمران بن أعين الطائي المقرىء النحوي أبو عبدالله**، قال المرزباني: قرأ على حمران حمزةُ بنُ حبيب، وقرأ حمران على أبي الاسود، وقرأ أبو الأسود على علي وعثمان رضي الله عنهما، ويبدو أنه كان ضعيفًا في النحو مع أن الفراء وصفه بأنه قارىء نحوي[4]. **وزهيرالفرقبي** من أوائل من

---

(١) الدرس النحوي في بغداد، ١٤.

(٢) بغية الوعاة، ١/٥٧٩، ونور القبس ٢٤.

(٣) كتاب السبعة في القراءات، ٧٠، وينظر المفصل في تاريخ النحو العربي، ٨٨-٨٩.

(٤) نور القبس ٢٦٧، وانباه الرواة، ١/٣٣٩-٣٤٠.

أشارت اليه كتب الطبقات وعدته من النحويين الكوفيين، ويبدو أنه جاء بعد تلاميذ أبي الأسود السابقين لانه لم يأخذ عن أبي الاسود وانما اخذ النحو من اصحاب أبي الاسود ومات سنة (١٥٦هـ) نحوي قارىء كان من أهل الكوفة وسافر الى مكة كما روى الهيثم بن عدي قال «رأيت زهيراً الفرقبي وقد اجتمع عليه ناس يسألونه عن القراءات والعربية ويجيبهم ويحتج على مايقول بأشعار العرب، وكان يروي كثيراً عن ميمون الاقرن تلميذ أبي الأسود ويبدو أنه أخذ القراءة عنه، وكان أبو جعفر الرؤاسي يأخذ عنه، وقال عنه الفراء: من أهل القرآن[1]. وكان ممن عاصره نحوي اسمه **العلاء بن سيابة** لم تترجم له كتب الطبقات لانه فيما يبدو من المعلمين، قال الفراء في كلامه على نصب المضارع بعد «الفاء»: «والائتناف بالفاء على جواب الامر حسن، وكان شيخ لنا يقال له العلاء بن سيابة، وهو الذي علم مُعاذاً الهراء واصحابه يقول: لا انصب بالفاء جواباً للامر[2]» فهو اذن متأخر عن زهير الفرقبي لانه علم معاذاً الهراء، والفراء كما يظهر من قوله فيه: «شيخ لنا» وربما يقصد به أنه شيخ شيخه فهو من معلمي معاذ الكوفيين، ومعاذ شيخ الفراء. وهو مثل الفرقبي ممن أخذ عن طبقة تلاميذ أبي الأسود. وممن سمي نحويًا ايضًا من الكوفيين قارىء الكوفة وأحد القراء السبعة **عاصم بن أبي النجود المتوفى (١٢٧هـ)** قال فيه أبو الطيب اللغوي: فأما ما يذكر عن عاصم القارىء أنه كان نحويًا، فلعل ذلك شيئًا يسيراً من جليل النحو فلم يذكر قوله ولم يحفظ»[3]. وهذه الاشارة لا تعني أنه درس النحو وانما يفهم منها تعلم النحو كما يتعلمه كل قارىء للقرآن، وربما أجاده فعرف به. ومنهم أيضًا **محمد بن عبدالرحمن بن محيصن (-١٢٣هـ)** قال عنه أبو الطيب اللغوي: «وكذلك ابن محيصن، وكان يحسن شيئًا يسيراً من جليل النحو، واسمه محمد وأهل الكوفة يعظمون من شأنه ويزعمون أن كثيراً من علمهم وقراءاتهم مأخوذة عنه»[4].

هذه الاشارات العابرة الى بعض الاعلام في كتب التأريخ والقراءات والنحو تدلنا على أنه كان بين الكوفيين ممَّن أخذوا عن أبي الاسود الدؤلي من عرفوا بالنحو، وان كنا لا نعلم مبلغ اطلاعهم على النحو أو معرفتهم به الا انها على كل حال ظاهرة نستطيع أن نتتبع بها تأريخ النحو في الكوفة، وجاء بعدهم من كانوا من تلاميذ اصحاب ابي الاسود مثل زهير الفرقبي والعلاء بن سيابة ممن علموا ابا جعفر الرؤاسي ومعاذاً الهراء فكانا بهذا معاصرين لشيخ آخر لهما اشتهر بالنحو وعرفت أخباره فيه هو **أبو معاوية شيبان بن عبدالرحمن التميمي النحوي المتوفى**

---

(١) نور القبس ٢٦٧، وانباه الرواة، ٢/١٨-١٩، ومعجم البلدان ٤/٢٥٤.

(٢) معاني القرآن، ٢/٧٩.

(٣) مراتب النحويين، ٢٤.

(٤) مراتب النحويين، ٢٥.

(١٦٤هـ) **وقيل** (١٧٠هـ) عالم بصري اشتغل بالقراءة والحديث والنحو، انتقل من البصرة الى الكوفة وفتح امام تلاميذه الكوفيين ميدان الدرس النحوي الجديد على بيئة الكوفة فعلم أولاد داود بن علي بن عبدالله بن عباس. ووجد منَ الكوفيين مَنْ شُغِفوا بالاطلاع على العلم الجديد الذي ظهر في البصرة فأخذوا عنه وتعلّموا عليه واشتهر منهم **معاذ بن مسلم** الهراء وربما اخذ عنه الرؤاسي والكسائي وإن لم يَرِد ذلك في ترجمته. ثم رحل الى بغداد ومات فيها سنة ١٧٠هـ في خلافة الهادي[1]. فهذا النحوي وان لم يكن كوفيًا قد انصرف الى تدريس الكوفيين علم النحو الذي اخذه في البصرة حيث كان من طبقة أبي عمرو بن العلاء والخليل، ولا ندري إن كان قد لقي الخليل واستفاد من علمه أولا. وهكذا يتصل نحو أبي الاسود المؤسس والمنشيء لهذا العلم بشيوخ المدرسة الكوفية عن طريق هؤلاء التلاميذ الذين حاولنا أن نصل بأخبارهم ما جهل من تاريخ النحو في الكوفة، ولا يعني ذلك انهم في منزلة معاصريهم من تلاميذ أبي الأسود وتلاميذهم من البصريين وانما عرفوا بتعليم النحو وبأخذهم أيضًا عن أبي الاسود وأصحابه. ومن تلاميذ شيبان الذي نصّ المؤرخون على أنه أخذ عنه **أبو مسلم الهراء المتوفى سنة** (١٨٧هـ) وقيل (١٩٠هـ) عاش عمرًا طويلاً، وكان تاجرًا ونحويًا. وقال ابن خلكان قرأ عليه الكسائي وروى عنه، وحكيت عنه في القرءات حكايات كثيرة، وصنف في النحو كثيرًا، ولم يظهر له شيء من التصانيف. ولم يورد أحد من المترجمين أن له مصنفات في النحو أو آراءً نحوية تعرف عنه سوى ابن خلكان، مع أن ابن النديم المتقدم عليه والمهتم بذكر المصنفات قال: «ولا كتاب له يعرف»[2] وقد أورد الزبيدي في طبقاته هذا الخبر في ترجمة ابي مسلم مؤدب عبدالملك بن مروان الذي كان قد نظر في النحو فلما أحدث الناس التصريف لم يحسنه، وانكره فهجا اصحاب النحو فقال:

قد كان اخذُهُمُ في النحو يُعجِبني ... حتى تَعاطَوا كلامَ الزِّنجِ والرومِ
لمّا سمعت كلاما لستُ أفهمُهُ ... كأنّهُ زَجَلُ الغِربانِ والبومِ
تركتُ نحوَهَمُ واللّه يُعصِمُني ... مِنَ التقحُّم في تلك الجَراثيمِ

فأجابه معاذ الهراء استاذ الكسائي فقال:

عالجتَها أمردَ حتى إذا ... شِبْتَ ولم تُحْسِنْ أبا جادِها
سمّيتَ مَنْ يَعرِفُها جاهِلاً ... يُصْدِرُها مِن بَعْدِ إيرادِها

---

(١) نزهة الالباء ١٩-٢١، وانباه الرواة، ٢/٧٢-٧٣، ووفيات الاعيان ٤/٢٦٣، وتاريخ النحو العربي، ص٩٩، وما بعدها.

(٢) طبقات النحويين واللغويين ١٣٥، ونور القبس ٢٧٦، والفهرست ٧٢، ونزهة الالباء ٣٤، ووفيات الاعيان ٤/٣٠٩.

سَهْلِ منها كُلُّ مُستصْعَبٍ   طودٌ علا القرنَ مِنَ اطْوادِها

وكان أبو مسلم جلس الى معاذ بن مسلم الهراء النحوي فسمعه يناظر رجلا في النحو فقال له معاذ: كيف تقول من «تَؤزُّهم أزًّا». «يا فاعلُ افْعَلْ» وصِلْها بـ «يا فاعلُ افْعَلْ» من: «وإذا المَوءُودَةُ سُئِلَتْ»[1] فسمع ابو مسلم كلامًا لم يعرفه فقام عنهم وقال الابيات».

فقال الزبيدي: وجواب هذه المسألة: » «يا آزُّ ازَّ» وان شئت: «ازِّ» وان شئت «أُزُّ» وان شئت «أُوْزُزْ»، فالفتح لانه اخف الحركات والكسر لانه أحق بالتقاء الساكنين، والضم للاتباع، وكذلك «يا وائِدُإدْ» مثل: «يا واعِدُ عِدْ». وقد نقل السيوطي هذا الخبر عنه وعلق عليه بقوله: «ومن هنا لمحت أن أول من وضع التصريف معاذ هذا»[2]. ولم تورد لنا كتب النحو آراءً تدل على علم معاذ الهواء هذا في النحو أو الصرف، وعدت الى كتاب تلميذه الفراء «معاني القرآن» في هذه الآية فلم أجده يذكر ما يؤيد هذه الرواية، وكان كل ما أثبته له المترجمون هذا الخبر، وانه استاذ الكسائي والفراء الذي لزمه حتى أنفد ما عنده وانه قال لمن سأله: «انما كتبوا» و «الذي هو يطعمني» بياء لانها رأسُ آية وكتبوا «ويسقين» بلا ياء، لانها رأس آية»[3]. وعدوا هذا القول رأيًا صرفيًّا يضاف الى الرأي الصرفي السابق اللذين اشتهر من أجلهما بعلم النحو والصرف وبأنه من مؤسسي مدرسة الكوفة النحوية. هذا ما عند القدماء في «معاذ الهراء». أما المحدثون فقد اختلفوا فيه فذهب الشيخ الطنطاوي الى أن ولوعه بالابنية غلب عليه حتى عده المؤرخون واضع الصرف. وقال بروكلمان بأسلوب الشاك: «كما قيل ان ... معاذ بن مسلم الهراء... هو الذي وضع علم الصرف» ولم يناقش القول. أما الدكتور احمد مكي الانصاري فلم يبد رأيه في معرفته بالنحو، وأثبت له علمه بالصرف فقال: «ومن قبيل الدراسات النحوية ما سمي أخيرًا بـ (علم الصرف)... وقد ضرب الفراء فيه بسهم وافر وليس غريبًا عليه ذلك بل ليس غريبًا على أهل الكوفة جمعاء، فقد عرفوا بهذه العناية الصرفية وربما كان مردُّ ذلك إلى أن مبتكر علم الصرف كان من الكوفيين -اذا صحت الروايات التاريخية- وهو معاذ بن مسلم الهراء..» فجعلها روايات وهي رواية. ونفى الدكتور المخزومي نفيًا قاطعًا ان يكون هناك كوفي كان نحويًا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة قبل الكسائي فلا معاذ الهراء ولا أبو جعفر الرؤاسي ممن نضعهم في طبقة المؤسسين لهذه المدرسة النحوية الناشئة...» وقد رد بهذا على أصحاب الطبقات وعلى «اوليري» من المستشرقين. وعرض الدكتور شوقي ضيف لرواية الزبيدي ولتعليق السيوطي وغيره عليها وقال: «ويظهر انه اختلف الى نحاة البصرة فتلقى عنهم النحو

---

(١) التكوير، ٨.

(٢) طبقات النحويين واللغويين ١٣٦-١٣٧، وبغية الوعاة ٢/٢٩١.

(٣) بغية الوعاة، ٢/١٦٣، وينظر انباه الرواة، ٣/٢٩٥ و ٢٨٩-٢٩٥، الشعراء ٧٩.

والصرف ثم رجع الى الكوفة وقعد للاملاء، وأخذ عنه فيمن اخذوا، الفراء. وكل ما اثر عنه انه كان يعرض لبعض مسائل التصريف «ثم قال «وبنى السيوطي على هذا الخبر انه واضع علم الصرف، والخبر لا يسنده كتاب وضعه في هذا العلم، وهو لا يعدو معرفته بالتصريف، وكتاب سيبويه زاخر به وبما لا يكاد يحصى من أمثلته وأبنيته، ومنه خلصها المازني ووضع فيها كتابه «التصريف، ومما يؤكد وهم السيوطي فيما ادعاه انه ليس لمعاذ في كتب التصريف آراء تنسب اليه ذات قيمة، وكأن علمه بالصرف مثل علم الرؤاسي في النحو كان علمًا محدوداً لا غناء فيه ولا شيء يميزه من علم البصرة»[1].

ولم يثبت احد من الباحثين المحدثين علم معاذ بالنحو والصرف مثل الدكتور علي أبو المكارم الذي ذكر اضطراب الباحثين في اثبات ذلك له، ودافع عنه فقال: «ودور معاذ الهراء في النحو محور خلاف كبير، فعلى حين يذكر بعض المؤرخين انه «لا كتاب له يعرف» يقرر اسحاق بن الجصاص انه كان «يصنف كتب النحو في أيام بني أمية. وهي دعوى عريضة لاشاهد عليها، وابن الجصاص نفسه لم يرو شيئًا عن كتبه، بل أنه لم يذكر حتى اسماءها مما يضعف روايته ويشكك في صحتها وبخاصة أن الكثير من محققي المؤرخين يقررون أن أول من وضع من الكوفيين كتاباً في النحو هو تلميذ معاذ، أبو جعفر محمد بن الحسن بن أبي سارة الرؤاسي الذي الف كتاب «الفيصل»... واذا كان معاذ ممن لم يسهموا في التأليف النحوي فقد أسهم في جوانب اخرى من البحث النحوي، اذ كان يفضل نشر معلوماته عن طريقين: أولهما: تلقين تلاميذه، وثانيهما: المشاركة في مناظرات علمية تكون المناقشة فيها نابعة عن موردين يتضافران على اظهار مدى التألق الفكري امام جمهور يشهد ويتابع، وهذان الموردان هما: حفظ المادة اللغوية، ثم القدرة الفعلية على استخدام هذه المادة وتفريعها، وهذه القدرة حفزته الى درس الصيغ والمفردات، ووضع بذلك في الصف الأول من علماء الصرف في نشأته الباكرة[2]» هذا الدفاع الحار عن معاذ وعن كونه من المؤسسين لعلم الصرف لا يثبت أمام الواقع فقد سبق أن تحدثت في «ابنية الصرف في كتاب سيبويه» عن نشأة الصرف وبينت ان تكلم معاذ الهراء في بعض المسائل الاشتقاقية– التي لم تصل الينا منها الا رواية واحدة في بعض كتب التراجم، ولم يوردها معظم المؤرخين –لا يتخذ مُستنَداً للقول بما قال به الدكتور علي أبو المكارم من وضعه في الصف الأول من علماء الصرف في نشأته المبكرة، ودليلنا على هذا أن مُعاذاً الهراء توفي في اقرب التواريخ سنة (١٨٧هـ) وقيل (١٩٠هـ) ومعنى هذا انه متأخر عن الكسائي

---

(١) ينظر نشأة النحو ٩١، وتاريخ الأدب العربي، ١٩٧/٢ وأبو زكريا الفراء، ٣٥٧ و ٤١٧، ومدرسة الكوفة ٨٨، والدرس النحوي في بغداد ١٤، والمدارس النحوية ١٥٣–١٥٤.

(٢) تاريخ النحو العربي، ١٠٢.

من أصحابه وعن جميع شيوخ المدرسة البصرية كسيبويه والخليل واساتذتهما، ونحن نعلم ما وضعه هؤلاء من آراء في علم الصرف بمختلف ابوابه بحيث لم يزد عليها من جاء بعد سيبويه من البصريين أو الكوفيين ما يمكن أن يعد ابتكاراً أو تأسيساً لعلم صرف كوفي يختلف عن الذي وجد، وكل ما زاده المتأخرون مخالفات في كون بعض الأبنية مقيسة أو مسموعة وفي بعض ما فيها من ظواهر اعلال أو ادغام أهي قياسية مطردة أم ممتنعة. والذي يمكن أن نخلص اليه ان مُعاذاً الهراء كان مثل سابقيه من أمثال أبي معاوية شيبان التميمي أو زهير الفرقبي تعلم النحو والصرف عمن ورد من البصريين الى الكوفة حاملين علم البصريين المتقدم في ذلك الزمان من نحو وصرف، فقد اخذ عن شيبان هذا وهو من جيل ابي عمرو بن العلاء والخليل وسيبويه، ولا شك انه كان مطّلعًا اطّلاعًا كافيًا على آرائهم فاستفاد معاذ من هذه الآراء ان لم يكن قد رحل الى البصرة واخذ عن العلاء بن سيابة وهو معاصر لشيبان هذا ومعروف بأنه من نحاة الكوفة الأوائل، وانه جلس للتدريس والتعليم في الكوفة فأخذ عنه أبو جعفر الرؤاسي والكسائي والفراء ما أخذ هو عن السابقين. الا أن العلم ينمو بالدرس والتدريس والمناقشات بين الطلبة وشيوخهم، فنما ما عند معاذ من معرفة بعلم الاشتقاق والتصريف مع وجود الرغبة في متابعته والتكلم في مسائل منه، فذاعت عنه اقوال معدودة اخذها لاحق عن سابق وبالغوا فيها حتى أصبحت ابتكاراً وتأسيساً.

وكان **أبو جعفر الرؤاسي محمد بن أبي سارة** أحد النحاة الثلاثة الذين ذكرت المصادر انهم تتلمذوا على معاذ الهراء[1] وهو ابن اخيه، أخذ العربية عن أبي عمرو بن العلاء وتقدم في النحو حتى قال الكسائي: ما وجدت بالكوفة أحداً أعلم بالنحو من أبي جعفر الرؤاسي، وقال: كنت آخذ المسائل فاقدمها وأؤخرها فلا يحسنها احد الا الرؤاسي. وقال ثعلب: كان الرؤاسي استاذ الكسائي والفراء، وزعم ان أول من وضع من الكوفيين كتب النحو أبو جعفر الرؤاسي وان له كتاباً معروفاً عندهم بعد موته، وسئل الفراء عن الرؤاسي فأثنى عليه وقال: قد كان دخَل البصرة دخلتين وقل مقامه بالكوفة، فلذلك قل اخذ الناس عنه. ومما يؤيد زعم ثعلب أن أول من وضع في النحو كتبا الرؤاسي ما جاء في اقوال معظم المترجمين له فقد تكرر قولهم «وهو أول من وضع من الكوفيين كتاباً في النحو». وذكر له الزبيدي كتاباً واحداً هو «كتاب في الجمع والافراد» اما ابن النديم فقد ذكر له عدداً من الكتب هي: «الفيصل» رواه جماعة، و «كتاب التصغير» و «كتاب معاني القرآن» يروى الى زمن ابن النديم وكتاب «الوقف والابتداء الكبير» و «الوقف والابتداء الصغير» وقال أيضاً

---

(١) تنظر ترجمته في مراتب النحويين ٢٤ وطبقات النحويين واللغويين ١٣٥. ونور القبس ٢٧٩، والفهرست ٧١، ونزهة الالباء ٣٤-٣٥، وانباه الرواة، ٤/٩٩-١٠٣، وبغية الوعاة ١/٨٢ وما بعدها.

نقلاً عن أبي الطيب أخي الشافعي: إن الرؤاسي قال: «بعث اليَّ الخليل بطلب كتابي فبعثت به اليه فقرأه ووضع كتابه، قال: وفي كتاب سيبويه قال الكوفي يعني الرؤاسي: اما المرزباني فاورد الرواية عن الرؤاسي في طلب الخليل كتابه بهذه الصورة: «.. فبعثت به اليه فوضع كتاب «العين» واذا قال في كتابه: قال الكوفي كذا فانما يعني به الرؤاسي «وهذا أول نص يورده المترجمون للرؤاسي يشار فيه إلى أن الكتاب الذي وضعه الخليل على كتاب الرؤاسي واشار اليه بقوله «قال الكوفي» هو كتاب «العين» يعني أن الكتاب الذي استفاد منه الخليل كتاب لغة، قد يكون منظم المادة اللغوية على هيئة معجم بدائي بترتيب ما، وقد يكون حاوياً لمادة لغوية مدونة. جمعها من سفراته الى البصرة واقامته الطويلة فيها مما سمعه من الأعراب والشعراء واللغويين الوافدين على المربد في مواسمه، أو الذين قابلهم في حلقات الشيوخ الموجودين في زمانه وهم: الخليل ويونس وسيبويه، في اغلب الظن، وقد كان يحضر هذه الحلقات ولا سيما حلقة الخليل الذي تعرف عليه فيها واخذ منه كتاباً واستفاد منه. ويلاحظ أن هذه الروايات لم تنص على اسم الكتاب الذي تحدث عنه الرؤاسي بقوله كتابي، ولم تقل الرواية انه كتاب: «الفيصل» كما لم تنص على أنه قال «كتاب في النحو» مثلاً، ومعنى هذا أنه قد يكون للرؤاسي كتاب في النحو هو «الفيصل» الا أن له كتباً لغوية اخرى، وان الخليل اخذ عنه أحد كتبه ووضع عليه «كتابه» «العين» ولم يذكر أحد أن للخليل كتاباً معروفاً في النحو، فالنص على «كتابه» يعني «العين» فيما اذهب اليه، ويعني ان الخليل هو المستفيد، أما تعليق أخي الشافعي بـ «وفي كتاب سيبويه...» فقد كان تحلية للخبر وتأكيداً له، وربما يكون بغير دليل. والذي يرجح لديّ أنَّه أقرب إلى العقل والصحة، قولُ المرزباني بعد هذا مباشرة: «وهو أول من وضع النحو من الكوفيين» ولو كان الكتاب الذي تحدث عنه قبل هذا في النحو لقدم هذه العبارة عليه، ولانه مع تعدد من قال بأن الخليل طلبه واستفاد منه في كتابه فانهم يصدرون عن قائل واحد نقل عنه ابن النديم هو أبو الطيب أخو الشافعي وهو الذي علق على قول الكسائي بقوله: «وفي كتاب سيبويه: قال الكوفي، يعني الرؤاسي»، ويؤيدني فيما أقول -وأن عُدّ قولي غريباً لكثرة الروايات التي تثبت انه في النحو- أن المبرد قال: «ما عرف الرؤاسي بالبصرة، وقد زعم بعض الناس انه صنف كتاباً في النحو فدخل البصرة ليعرضه على أصحابنا فما التفت اليه، ولم يجسر على اظهاره لما سمع كلامهم»[1]. وهذا يدل على أن كتاب النحو الذي لم يلتفت اليه غير الكتاب الذي اخذه الخليل واستفاد منه. والمبرد اقرب الرواة زمناً منهما، وهو ثقة يصح الاعتماد على قوله الا إن كان التعصب للبصريين هو الدافع الى ما ذهب اليه. ومع هذا فإنه لن يغير من الواقع شيئاً. وقد جاء أبو الطيب اللغوي برواية عن أبي حاتم يصف فيها الرؤاسي بانه «مطروح العلم ليس بشيء». ومهما يكن أمر الكتاب الذي

(١) انباه الرواة، ٤/١٠٢.

أخذه الخليل ومهما تكن استفادته منه فاننا لا نستطيع أن ننكر أن أبا جعفر الرؤاسي كان على علم بالنحو، وانه أول الكوفيين عناية به بعد هذه الاقوال، وبعد ما حكاه الانباري من أن الفراء ذهب الى بغداد بتحريض من الرؤاسي الذي لم يكن يريد بقاء الفراء في الكوفة منافساً له، فقال له: لقد خرج الكسائي الى بغداد وأنت أميز منه. يقول الفراء: «فجئت الى بغداد فرأيت الكسائي فسألته عن مسائل الرؤاسي فأجابني بخلاف ما عندي فغمزت قوماً من علماء الكوفة كانوا معي فقال: مالك قد انكرت؟ لعلك من أهل الكوفة. فقلت: نعم، فقال: الرؤاسي يقول كذا وكذا وليس صواباً، وسمعت العرب تقول: كذا وكذا. حتى أتى على مسائلي، فلزمته»[1] فهذه الرواية تشير إلى أن أبا جعفر الرؤاسي تكلم في النحو وكانت له مسائل كثيرة بدلالة قول الفراء: «فسألته عن مسائل من مسائل الرؤاسي».

وان هذه المسائل اخذها الكسائي عنه كما اخذها الفراء بعده، الا أن الكسائي كان قد سافر الى البصرة بعد اخذه عن الرؤاسي وجلس في حلقة الخليل وأخذ عنه علماً كثيراً وخرج الى البادية وشافه الأعراب فصحح ما كان اخذه عن الرؤاسي وهو في بغداد التي رحل اليها أثر عودته من البادية. وتخطئة الكسائي لا تعني ان ليس للرؤاسي نحو، وقد كانت آراؤه تتداول في مجالس الدرس في بغداد ويقارن الدارسون بينها وبين آراء شيوخ الكوفيين، روى القفطي أن شيخاً كان يتوكأ على عصاً دخل حلقة احمد بن يحيى ثعلب وسأله عن مسألة فقال ثعلب: قال أبو جعفر الرؤاسي فيها كذا، وقال الكسائي فيها كذا، وقال هشام فيها كذا، وقلت انا فيها كذا...»[2] وله آراء نحوية وصرفية مبثوثة في كتب التراجم تدل على مشاركته فيهما[3] ولهذا عدوه شيخ المدرسة الكوفية ومؤسسها[4].

هذه أقوال القدماء في علم أبي جعفر الرؤاسي بالنحو، ولكن اقوال المحدثين لا يثبت معظمها للرؤاسي هذه المنزلة التي ارتآها القدماء، وهم اقرب منا زماناً اليه، واصبحوا فيه فريقين، الأول يثبت له هذه الرئاسة وممن يمثله الشيخ محمد الطنطاوي الذي عده في الطبقة الأولى من الكوفيين ومؤسس مدرسة الكوفة النحوية[5]،

---

(١) نزهة الالباء، ٣٥، وانباه الرواة، ٤/ ١٠٠.

(٢) انباه الرواة، ٣/١٥٧.

(٣) ينظر انباه الرواة، ٤/ ١٠٣ و ٩٩ وبغية الوعاة ١/ ٨٣، ونور القبس ٢٧٩ ومعاني القرآن للفراء، ١/ ٩.

(٤) ينظر طبقات النحويين واللغويين، ١٣٥ ومعظم المصادر التي ترجمت له.

(٥) ينظر نشأة النحو، ٩٠ و ٣٠.

وذكر بروكلمان رواية القدماء بأنه مؤسس مدرسة الكوفة ولم يعلق عليها مما يوحي باقتناعه [1] بها. وأيد الاستاذ احمد أمين نشوء مدرسة كوفية على رأسها الرؤاسي والكسائي والفراء [2]، وعده الدكتور يوسف خليف استاذ المدرسة الكوفية مع قول البصريين فيه انه مطروح العلم[3] وذكر الدكتور احمد مكي الانصاري مثل ذلك[4]. ويمثل الفريق الرافض لفكرة أن الرؤاسي مؤسس هذه المدرسة عددمن الباحثين منهم الدكتور شوقي ضيف الذي يرى أن النحو «انما بدأ بدءاً حقيقيًا بالكسائي وتلميذه الفراء فهما اللذان رسما صورة هذا النحو ووضعا اسسه وأصوله وأعداه بحذقهما وفطنتهما لتكون له خواصه التي يستقل بها عن النحو البصري، مرتبين لمقدماته ومدققين في قواعده ومتخذين له الأسباب التي ترفع بنيانه»[5]، والدكتور مهدي المخزومي الذي كان أكثر المحدثين معارضة لفكرة كون الهراء أو الرؤاسي مؤسس مدرسة الكوفة النحوية ولهذا ردَّ على القدماء الذين عدوا الهراء مؤسسًا لها بأمور كثيرة مبنية على عدم وجود مصنفات له، وان ما قاله القدماء مجرد مزاعم تطلق، وان الذين أشاعوها الكوفيون بعد المنافسة بينهم وبين البصريين، ورد على الذين رأوا الرؤاسي مؤسس المدرسة الكوفية بأن كل ما قيل مبالغات دفع اليها التنافس بين المدرستين في زمن المبرد وثعلب، وان الكوفيين هم مصدر هذه المزاعم، وانه لم يقف على آراء للرؤاسي أو أقوال نحوية يستطيع بها الدارس أن يكوّن منها رأيًا واضحًا أو فكرة معينة عن منزلته العلمية، وليس هناك إلا القليل النادر[6]. وانتهى إلى القول بأننا «لا نعلم كوفيًا كان نحويًا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة قبل الكسائي، فلا معاذ الهراء ولا أبو جعفر الرؤاسي ممن نصنفهم في طبقة المؤسسين لهذه المدرسة النحوية الناشئة، ولم نسمع ان أحداً من الكوفيين تخرج بهما أو اكتفى بما تلقاه عنهما، وعرف بنحو خاص استمده منهما لا ينتمي إلى نحو أهل البصرة، والكسائي والفراء، وهما عماد المدرسة الكوفية إنما عرفا النحو الاصطلاحي بدراستهما نحو البصرة، وتخرجهما بشيوخ بصريين[7]».

---

(١) ينظر تاريخ الادب العربي، ٢/١٩٧.

(٢) ينظر ضحى الاسلام، ٢/٢٩٤.

(٣) ينظر حياة الشعر في الكوفة، ٢٦٢-٢٦٣.

(٤) ينظر ابو زكريا الفراء ٣٥٧-٣٥٨.

(٥) المدارس النحوية ١٥٣- ١٥٤.

(٦) ينظر مدرسة الكوفة ٨٧- ٨٨ و ٩٦- ٩٨ و ١٠١- ١٠٢ و ٩٨- ١٠٣.

(٧) مدرسة الكوفة ٨٧- ٨٨.

فقول الدكتور شوقي ضيف والدكتور مهدي المخزومي بأن الكسائي شيخ المدرسة الكوفية لا يعني انه لم يكن هناك نحاة قبله، فقد رأينا عدداً من الدارسين سمي كل منهم كوفيًا ولم تصل الينا آراؤهم، إلا أن بعضهم أخذ عن بعض حتى اتصلت حلقتهم بمعاذ الهراء وأبي جعفر الرؤاسي اللذين كانا أول من نقل عن القدماء عدَّهم إياهما من مؤسسي المدرسة الكوفية واتضحت للرؤاسي- آراء وقراءات وأقوال نحوية وصرفية، الا اننا نعد الكسائي والفراء قمة النضج والتكامل في النحو الكوفي كما كان الخليل قمة نضج النحو البصري وشيخ المدرسة البصرية فقد طور هذان الكوفيان النحو البصري وجددا في منهج درسه وفي كثير من مصطلحاته.

تطور الدراسات النحوية في الكوفة

١- كان الكسائي أول من تنبه على أن ما عند المؤدبين والمعلمين من النحاة الكوفيين أمثال معاذ والرؤاسي لا يمثل النحو العربي الذي ظهر في البصرة وبلغ أوج نضجه واكتماله على يد الخليل وسيبويه، ووجد أن علمهم بالنحو ما زال قاصراً عن أن يفي بحاجة الدراسات القرآنية التي كان مهتمًا بها منصرفًا اليها عاملاً على أن يفيها حقها من الفهم والضبط والتفسير. ولهذا فقد شد الرحال إلى البصرة مدينة النحو وعلوم العربية الأخرى وحضر حلقات الدرس فيها على اختلافها لكنه اقتصر بعد حين على حلقة الخليل لما رآه عنده من علم لا ينضب وجديد لا ينتهي فأُعجب به وبنحوه وبما حفظه من شواهد لغوية كانت عدته في هذا الدرس وفي تثبيت أصوله واستنباط قواعده ووضع أقيسته. فاستفسر منه عن مصادر علمه، وعرف أنه من بوادي الحجاز ونجد وتهامة فاقتدى بشيخ النحو وخرج إلى البادية يسمع أعرابها ويدوّن ما يسمع ثم عاد بكل هذا المسموع المدوّن إلى البصرة ليعرضه على الخليل لكنه لم يجده، فقد رحل وخلف يونس على حلقته فجلس فيها ورجع منها إلى الكوفة بلده الأصلي لينشر ما أخذه من الخليل، وليدرس ما وصل اليه من لغة جديدة يستنبط منها ما فيها من ظواهر وأساليب تعبيرية إعرابية وصرفية وصوتية، وقبل أن يستقر به الحال في الكوفة أوعز اليه بالسفر إلى بغداد حيث طلبه الخليفة المهدي ليسأله في مسألة نحوية صرفية، فأعجب به وجعله مؤدِّبًا للرشيد ثم جعله الرشيد مؤدبًا للأمين والمأمون من بعده. واستقر في بغداد يوسع سماعه عمن يرد إلى مجالس الخلفاء من الشعراء والخطباء والأدباء والأعراب، ويسمع عمن يجاور بغداد من قبائل سكنت في الحواضر فسدت ألسنتها

بهذه المجاورة أم لم تفسد. فتجمع لديه من هذه محصول كبير ومادة لغوية كثيرة أُضيفت إلى ما كان عنده مما سمعه من أعراب الكوفة وشعرائها- فقد كان للكوفة عناية بالشعر وروايته وكان بعض رواة اللغة من البصريين يرحلون إلى الكوفة للسماع عن شعرائها- وقد كان للكسائي حلقة في مسجد الكوفة روي أنها أكبر الحلقات وأكثرها طُلَّابًا. كان يتلو عليهم القرآن وهم يسمعون ويضبطون عنه[1]، وكان الشعراء والأدباء يفدون إلى حلقته للاستماع والاستفادة والرواية والانشاد.

ولم يكن الكسائي الوحيد من علماء الكوفة الذي رحل إلى البصرة وأخذ عن شيوخها ثم عاد ووسع سماعه في اللغة وانما تتبع تلميذه الفراء خطاه فرحل إلى البصرة وسمع من يونس بن حبيب شيخ البصرة في ايامه، ولقي في حلقته من لقي من الرواة واللغويين والشعراء والأدباء وعاد إلى الكوفة واسقر فيها وأخذ بوسع روايته من أشعار ولغة اختصت بها الكوفة. فنما ما عنده من مسموع غير مدروس كما نما ذلك عند شيخه الكسائي قبله. وكان يتنازع الكسائي منهجان أحدهما: ما شب عليه ونشأ وهو منهج مقيد بالنقل والرواية وليس للعقل عليه سلطان، وهو منهج القراء القائم على الرواية وحفظها واتباعها ولا يدخلون العقل أو يحكمونه فيما روي من قراءات لأن عمادهم السماع والأخذ به كما ورد عن الرسول (ﷺ). ومنهج مقيد بالعقل يحاول اخضاع المسموع لأحكامه وهو منهج علماء النحو القائم على القياس وتنظيم ما تشابه من ظواهر ودراستها دراسة عقلية ووضع الاحكام والأصول التي تحكمها وتقيدها ولهذا فقد اتخذ له منهجًا وسطًا بين المنهجين اتضح في اختياره قراءاته من بين قراءات كثيرة جميعها تعتمد النقل، الا انه حكّم مقاييس النحاة في التمييز بينها، وحكم الرواية والسماع في منهج درسه اللغوي النحوي فوسع مسموعه من لغات الاعراب المحيطين بالكوفة وبغداد حتى قال فيه البصريون: «قدم علينا الكسائي فلقي عيسى والخليل وغيرهما، وأخذ منهم نحوًا كثيرًا ثم صار إلى بغداد فلقي أعراب الحطمة، فأخذ عنهم الفساد من الخطأ واللحن، فأفسد بذلك ما كان أخذه بالبصرة كله»[2] ولم يكونوا يدركون أن للقراءة ومنهجه فيها أثرًا فيما مال اليه من توسيع روايته. وهكذا كان لهذين الشيخين الكوفيين اللذين وضعا أسس المنهج النحوي الكوفي وقواعده أثرهما في تغيير منهج الدرس عما كان عليه عند البصريين وكان هذا التوسع في السماع

---

(١) النشر في القراءات العشر ١/ ١٧٣. وينظر نزهة الالباء ٤٢ وما بعدها.

(٢) معجم الأدباء ٥/ ١٩٠.

والرواية أول ما اتصف به منهج الكوفيين من تطور عن المنهج البصري ولهذا عابوهم عليه.

٢- أما التطور الثاني فقد بدا في موقفهم من القياس حيث أدى بهم هذا المسموع إلى تغيير كثير من الأقيسة التي وضعها البصريون وعدوها مقدسة لا تنقض ولا تغير ولا تخالف تبعاً لما سمعوه بعد وضعها من ظواهر، وذلك لأنهم لم يضعوها إلا بعد أن خرجوا إلى البوادي وشافهوا الاعراب وجمعوا كل ما وجدوه عندهم وعند غيرهم ممن يرد إلى المربد أو ما رووه عن شعراء الكوفة وكوّنوا حصيلة لغوية وجدوها كافية للدرس وبناء القواعد والأقيسة على ما وجدوه في هذا المسموع الذي كان من أول شروطه عندهم الفصاحة والنقاء، ثم الكثرة والاطراد والشمول، ولما لم تكن أقيستهم وأصولهم قد وضعت إلا بعد تفكير وموازنة وتدبر ولم توضع ارتجالاً واعتباطاً لم يجيزوا تغييرها أو الاستدراك عليها بما يجدّ من صور قليلة واردة عن الفصحاء أو كثيرة مأخوذة عن غيرهم. ولهذا عدوا ما جاء في لغاتها مسموعاً أو نادراً، وان قل وفارق ما عليه بقية بابه وانفرد عن ذلك إلى غيره عدّوه شاذاً، وسمى ياقوت الشاذ: بالخطأ واللحن[1]، وان قل وكان لغة قبيلة فصيحة لكنها لم تشع عدّوه لغة واستخدموها إلا أن غيرها أفضل منها، فإن وقع وكان مما يكثر في الشعر أو يقل ولم يرد في النثر فهو الضرورة ولهذا كثرت عند البصريين الضرورات والشواذ واللغات وما عدوه مما يسمع ويحفظ ولا يقاس عليه مع كونه لغة قبيلة عربية فصيحة إلا أنها مع فصاحتها ليست لغتها من الشيوع والكثرة بمنزلة المقيس عليها وهذا ما أشار اليه الباحثون من القدماء والمحدثين باعتداد البصريين بالقياس، أي احترامهم لما وضعوه من أقيسة على ما اطرد وشاع وكان لغة قوم فصحاء أما الكوفيون فقد كسروا هذه القاعدة البصرية، ولم يهتموا بهذا التقديس الذي فرضه البصريون لأقيستهم، بعد أن وجدوا في اللغة التي جمعوها ظواهر وردت في مجموعة كبيرة من الشواهد وجدت عند البصريين وعدوها من المسموع أو استنبطوها من اللغة التي لم يسمعها البصريون ولم يطلعوا عليها إما لعدم اعتدادهم بلغات الناطقين بها، أو لأنها لغات قبائل تسكن في مناطق لم يمتد اليها سماع البصريين وروايتهم. درس الكوفيون هذه المادة الجديدة ووضعوا لها أقيسة جديدة أطلقوا بها الاستعمال، ولم يكتفوا بهذا بل توسعوا في القياس على كل ظاهرة واردة في هذا المسموع إن اقتنعوا بصحتها وجواز القياس عليها، ولهذا كثرت أقيستهم على كل ما ورد

---

(١) معجم الأدباء (ترجمة الكسائي ٥/ ١٩٠) وينظر في معنى الشاذ: ظاهرة الشذوذ في النحو العربي ١٧ وما بعدها

لأن النحو عندهم اتباع لكل ما سمع والقياس عليه وهذا منهج الكسائي الذي يقول:

انما النحو قياس يتبع وبه في كل علم ينتفع

ولهذا قال قائل البصريين: ان الكسائي كان يسمع الشاذ الذي لا يجوز من الخطأ واللحن وشعر غير أهل الفصاحة والضرورات فيجعل ذلك أصلاً يقيس عليه حتى أفسد النحو.[1] وبالغ الكسائي في أقيسته فأجاز وضع أقيسة لا تعتمد على مسموع في الظاهرة نفسها وانما بناها على المُشابِه والمخالف والمعاكس. أما الفراء فقد خالف شيخه في هذا الموقف من القياس وكان يلتزم الكثرة فيما لم يكن لغة فصيحة ويأخذ بالشاهد الواحد أيضًا بشرط التأكد من فصاحة قائله وراويه، غير أنه لم يطلق القياس النظري الذي لا شاهد فيه، ولم يقس على كل ما ورد في اللغة المسموعة، واعترف بوجود نادر وشاذ ووهم، وما لم يسمع عن العرب من الظواهر النحوية والصرفية والصوتية وبهذا اختلف مع شيخه في كثير من الآراء والأحكام والأقيسة التي سنبين أمثلة منها.

٣- أما التطور الثالث فهو مبني على التطورين السابقين، وهو الأخذ بالقراءات الشاذة وإجازة القياس عليها تطبيقًا لما وضعوه من قاعدة القياس على كل مسموع فأي شيء أولى بالاتباع من هذه القراءات التي مهما بلغ شذوذها فلن تصل إلى ما أجاز الكسائي القياس عليه من آحاد الشواهد ومفردات الظواهر من غير تمحيص وتدقيق. وهي على كل حال أصل موجود ثابت تداوله الناس وهي أفضل وأصح في القياس عليه من أن يفترضوا الأقيسة افتراضًا بلا برهان أو دليل مما عدّه بعض الباحثين تطورًا جاء به الكوفيون لأجل مخالفة البصريين حسب، وليس وراءه دافع آخر ليباهوا بهذه المخالفة ويثبتوا للنحو الكوفي آراءًا كثيرة ومنهجاً جديداً ونحواً متطوراً عن نحو البصريين الموضوع على القواعد الدقيقة المحكمة التي لا يفسدها شذوذ، مما أدى إلى اختلاط قواعدهم وتشويشها[2]. قال الدكتور شوقي ضيف: «ان المدرسة الكوفية توسعت في الرواية وفي القياس توسعًا جعل البصرة أصح قياسًا منها..» وهذا هو السر في استمرار نحو البصريين وثبوته وبقائه مسيطراً على مجالس الدرس النحوي حتى يومنا هذا[3].

---

(١) ينظر معجم الأدباء ٥/ ١٩٤ و ١٩٠.

(٢) ينظر رأي الدكتور شوقي ضيف هذا في المدارس النحوية ١٩٥ و ١٦١ وما بعدها.

(٣) المدارس النحوية ١٦٣ وينظر ١٦١.

٤- وتطور النحو الكوفي تطوراً آخر واضحاً وذلك في وضع مصطلحات خاصة به لمسائل النحو والصرف وفروعهما أو لأبوابهما يبدو أنهم رأوها أقرب دلالة على صفات ما اصطلحوا عليه من مصطلحات البصريين مثل تسميتهم التمييز- تبييناً وتفسيراً، والصفة نعتاً، والمضارع مستقبلاً، والعطف نسقاً، والنفي جحداً والمصروف ما يجري وغير المصروف ما لا يجري، والبدل ترجمة، والجر خفضاً، والضمير مكنياً أو كناية، وضمير الفصل، وضمير الشأن: المجهول أو العماد، وحروف الجر: حروف الصفات، والحال قطعاً وغير ذلك من المصطلحات التي كان للبصريين ما يقابلها، وربما كانت هذه المخالفة في التسميات للتوضيح والتسهيل، وربما كانت لمجرد المخالفة، ولاثبات وجود بارز للنحو الكوفي، علماً بأن الكثير من هذه المصطلحات قد استعملها سيبويه بالصيغ نفسها أو بصيغة فعلية يشرح بها المقصود بالباب، ومن المصطلحات ما لم يكن له مصطلح يقابله في النحو البصري وانما كانت الظاهرة الاعرابية التي اطلق عليها هذا المصطلح متفرقة في أبواب متعددة من النحو البصري وذلك مثل مصطلح «الخلاف» أو «الصرف» وهو عامل النصب عند الكوفيين في أبواب متعددة منها: نصب الظرف الواقع خبراً في مثل «زيد أمامك» ونصب المفعول معه في مثل: «استوى الماء والخشبة» و «لو تركت الناقة وفصيلها لرضعها» و «لو تُرِكت والاسدَ لأكلك» وهو الناصب للفعل أيضاً بعد «الواو» و «الفاء» و «ثم» في جواب النفي والطلب وبعد «أو» مما عده البصريون منصوباً بـ «أن» مضمرة في مثل: «لا تنهَ عن خُلقٍ وتأتيَ مثله» و «لأستسهلن الصعب أو أُدركَ المنى» و «ما تأتينا فتُحَدِّثَنا» وأمثالها.[1] ويبدو أن القول بهذا المصطلح مأخوذ من اشارات سيبويه في أبواب متعددة إلى مخالفة المنصوب لما قبله ومغايرته له، وذلك في «باب ما ينتصب لأنه قبيح أن يكون صفة» و «باب ما ينتصب لأنه ليس من اسم الأول ولا هو هو»، ومثل للاول بـ «هذا راقود خَلاًّ» وللثاني بـ «هو جاري بيت بيت» و «باب ما ينتصب على انه ليس من اسم الأول ولا هو هو» ومثل له بـ «هذا عربي محضاً»، قد قال بعد ذكرها: «اعلم أن جميع ما ينتصب في هذا الباب ينتصب على أنه ليس من اسم الأول ولا هو هو»[2] واتضح في قول الخليل: «لا يكون المستثنى فيه إلا نصباً لأنه مخرج مما ادخلت فيه غيره»[3]. غير ان سيبويه ذهب إلى البحث عن عامل له في العبارة مع

---

(١) ينظر معاني القرآن ١/ ٣٣- ٣٤. و ٣٤- ٣٥ و ٢٣٥- ٢٣٦.

(٢) ينظر الكتاب ٢/ ١١٧ و ١١٨ و ١٢٠ و ١٢١.

(٣) الكتاب ٢/ ٣٣٠.

قوله بمخالفته لما قبله، وعد الكوفيون الخلاف هو العامل فهو عامل معنوي يؤدي إلى النصب، وهو نفسه الذي سماه الفراء: «الصرف» أيضًا من حيث المعنى، قال في شرحه قوله تعالى: «ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحقَّ وأنتم تعلمون»: «ان شئت جعلت «وتكتموا» في موضع جزم تريد به «ولا تلبسوا الحق بالباطل ولا تكتموا الحق»... وان شئت جعلت هذه الأحرف المعطوفة بالواو نصبًا على ما يقول النحويون من الصرف[1]». ثم أوضح «الصرف» بقوله: «فان قلت: وما الصرف؟ قلت أن تأتي بـ «الواو» معطوفة على كلام في أوله حادثة لا تستقيم إعادتها على ما عطف عليها، فإذا كان كذلك فهو الصرف كقول الشاعر:

لا تنهَ عن خلق وتاتيَ مثله　　　عار عليك إذا فعلت عظيم

ألا ترى انه لا يجوز اعادة «لا» في «وتأتي مثله» فلذلك سمّي «صرفًا» إذ كان معطوفًا ولم يستقم أن يعاد فيه الحادث الذي قبله. ومثله من الأسماء التي نصبتها العرب وهي معطوفة على مرفوع قولهم: «لو تُركت والأسدَ لأكلك» و «لو خُلِّيتَ ورأيَك لضللت» لما لم يحسن في الثاني أن تقول: «لو تُركتَ وتُركَ رأيك لضللت»، تهيبوا أن يعطفوا حرفًا لا يستقيم فيه ما حدث في الذي قبله...»[2]. هذا في الاسم، وقد تحدث الفراء عنه في الفعل وذلك عند شرحه قوله تعالى: «ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين» فقال: «خفض الحسن «ويعلمِ الصابرين» يريد الجزم، والقراء بعد ذلك تنصبه وهو الذي يسميه النحويون «الصرف» كقولك: «لم آتِهِ وأُكْرِمَهُ إلا استخف بي» و «الصرف ان يجتمع الفعلان بالواو أو ثم أو الفاء أو «أو» وفي أوله جحد أو استفهام ثم ترى ذلك الجحد أو الاستفهام ممتنعًا أن يكر في العطف، فذلك «الصرف» ... وكذلك يقولون: «لا يسعني شيء ويضيقَ عنك»، ولا تكر «لا» في «يضيق» فهذا تفسير الصرف[3].

ومصطلح «التقريب» واختصوا به اسم الاشارة المتبوع باسم معرفة بعده نكرة منصوبة على أنها حال عند البصريين وباسم الاشارة الذي سموه «التقريب» عند الكوفيين، فهم يعدونه عاملاً عمل «كان» وأخواتها وذلك في مثل قوله تعالى: «هذا بعلي شيخًا»[4] قال الفراء: « ... وكقوله في حرف عبدالله: «أألد وانا عجوز وهذا بعلي شيخ» وهو في قراءتنا

---

(١) سورة البقرة ٤٢ ومعاني القرآن ١/ ٣٣- ٣٤.

(٢) معاني القرآن ١/ ٣٣- ٣٤.

(٣) آل عمران ١٤٢ ومعاني القرآن ٢٣٥- ٢٣٦ وينظر ٣٤- ٣٥.

(٤) هود ٧٢.

«شيخًا».. واعلم أن «هذا» إذا كان بعد اسم فيه الألف واللام جرى على ثلاثة معان: أحدها: ان ترى الاسم بعد «هذا» كما ترى «هذا» إذا كانا حاضرين، ولا يجوز ها هنا النصب. والوجه الآخر: أن يكون ما بعد «هذا» واحداً يؤدي عن جميع جنسه، فالفعل حينئذ منصوب، كقولك: «ما كان من السباع غيرَ مخوف فهذا الأسد مخوفًا» الا ترى أنك تخبر عن الأُسْدِ كلِّها بالمخوف؟

والمعنى الثالث: أن يكون ما بعد «هذا» واحداً لا نظير له فالفعل حينئذ أيضًا منصوب، وانما نصبت الفعل لأن «هذا» ليست بصفة للاسد وانما دخلت تقريباً، وكان الخبر بطرح «هذا» أجود، الا ترى انك لو قلت: «ما لا يضر من السباع فالأسد ضار» كان أبين؟ وأما معنى «التقريب» فـ«هذا» أول ما أخبركم عنه، فلمَّا يجدوا بُدًّا من أن يرفعوا «هذا» بـ «الاسد» وخبره منتظر، فلمَّا شغل «الاسد» بمرافعة «هذا» نصب فعله الذي كان يرافعه لخلوته، ومثله: «والله غفور رحيم»[1] فإذا ادخلت عليه «كان» ارتقع بها والخبر منتظر يتم به الكلام فنصبته لخلوته»[2].

ومصطلح «الدائم» أو «الفعل الدائم» ويعنون به «اسم الفاعل» العامل عمل فعله، حيث عدوه قسيماً للاسم والفعل عندهم، ودل عليه قول الفراء «قال الكسائي في ادخالهم» «أن» في «مالك»: هو بمنزلة قوله: «ما لكم ألا تقاتلوا؟» ولو كان ذلك على «قال» لجاز في الكلام أن تقول: «مالك أن قمت؟» و «مالك أنك قائم؟». وذلك غير جائز لأن المنع انما يأتي بالاستقبال، وتقول: «منعتك أن تقوم» ولا تقول: «منعتك أن قمت» فلذلك جاءت في «مالك» في «المستقبل» ولم تأت في «ماض» ولا «دائم»[3] فالمستقبل المضارع «تقوم» والماضي «قمت» والدائم اسم الفاعل منهما ولم يمثل له.

هذه أهم المصطلحات التي بدا لنا ذكرها، وهناك مصطلحات أخرى دلت على تطور الدلالات والتسميات في النحو الكوفي وأوجدت له هيكلاً خاصًا به يختلف عما كان عليه عند البصريين.

---

(١) جاءت في آيات كثيرة منها: سورة البقرة ٢١٨ و ٢٢٥ وآل عمران ٣١ و ٢١٢٩ والمائدة ٧٤.

(٢) معاني القرآن ١/ ١٢- ١٣ وننظر في مثل هذا مجلس ثعلب ١/ ٤٢ والخزانة ١/ ٣٥٩- ٣٦٥ ، ١/ ٤٣ هـ ٥ من مجالس ثعلب ومعاني القرآن ٢١/ ٢٣١- ٢٣٢.

(٣) معاني القرآن ورقة ٢٠ نقلاً عن مدرسة الكوفة ٢٧٧- ٢٧٨ ولم استطع العثور على هذا النص في معاني القرآن المطبوع وينظر في تسميته «الفعل» مجالس ثعلب ٢/ ٤٧٧.

٥- وآخر ما يلاحظ من تطورات في النحو الكوفي تركهم القول بالتأويل البعيد والتعليل الذي اضطر اليه البصريون عندما وجدوا ان شواهد كثيرة من قراءات آيات اللّه البينات أو من الشعر الفصيح الصحيح الذي لا يمكن أن يقع الخطأ من قائله، أو في عبارات واردة عن العرب الفصحاء، قد خالفت اقيستهم التي وضعوها والتزموا بها ولم يكن من مبدئهم كسرها أو الاستدراك عليها، في حين لم يحتج اليه الكوفيون لأنهم جعلوا باب القياس مفتوحًا يدخلون فيه ما أرادوا مما عدوه مقيسًا.

٦- ان النحو الكوفي قد تطور في أمور أخرى غير ما ذكرناه منها: أقسام الكلام وتأصيلها، فقد خالف الكوفيون البصريين في ما قسموا اليه الكلام، ونحن نعرف انها ثلاثة عند البصريين، وهي الاسم والفعل والحرف، وجعلها الكوفيون ثلاثة أيضًا هي: الاسم والفعل والاداة. وقد أمنوا في تسميتهم الحرف الدال على معنى- عاملاً كان أم غير عامل- «الأداة» الالتباس الذي قد يقع بين حرف الهجاء وحرف المعنى، وقسم البصريون الفعل إلى ماضٍ ومضارع وأمر، أما الكوفيون فقسموه إلى ماض ومستقبل ودائم. فالمستقبل المضارع والأمر، لأن الأمر عندهم هو المضارع المسبوق بـ «لام الأمر» يوضح ذلك قول الفراء في تفسيره قوله تعالى: «قل بفضل اللّه ورحمته فبذلك فليفرحوا»: هذه قراءة العامة، وقد ذكر عن زيد بن ثابت انه قرأ: «فبذلك فلتفرحوا» أي: يا أصحاب محمد- بالتاء وقوّى قول زيد أنها في قراءة أُبَيّ: «فبذلك فافرحوا» وهو البناء الذي خلق للامر إذا واجهت به أو لم تواجه، إلا أن العرب حذفت «اللام» من فعل المأمور المواجه لكثرة الأمر خاصة في كلامهم فحذفوا «اللام» كما حذفوا «التاء» من الفعل، وأنت تعلم أن الجازم أو الناصب لا يقعان إلا على الفعل الذي أوله «الياء و «التاء» و «النون» و «الألف» فلما حذفت «التاء» ذهبت باللام وأحدثت «الألف» في قولك: «اضرب» و «افرح». لأن «الضاد» ساكنة فلم يستقم أن تستأنف بحرف ساكن، فأدخلوا «ألفًا» خفيفة يقع بها الابتداء كما قال: «ادّاركوا» و «اثّاقلتم»[1]. وكان الكسائي يعيب قولهم: «فلتفرحوا» لأنه وجده قليلاً فجعله عَيْبًا، وهو الأصل، ولقد سمعت عن النبي (ﷺ) أنه قال في بعض المشاهد: «لتأخذوا مصافكم» يريد: «خذوا مصافكم»[2]. وهذا القول للفراء ولا يراه الكسائي ومع ذلك عد رأي الكوفيين، لأن الفراء ونحوه يمثلان الكوفيين لأنهما قمة النحو الكوفي كما يمثل الخليل أو سيبويه البصريين لذلك.

---

(١) الأعراف ٣٨. والتوبة ٣٨.

(٢) معاني القرآن ١/ ٤٦٩- ٤٧٠.

أما عدهم اسم الفاعل فعلاً قسيماً للماضي والمستقبل فقد جاء في مواضع كثيرة في كتب الكوفيين وآرائهم من ذلك قول ثعلب: «وأملى علينا: إذا قلت: «ما فيك راغب زيد» و «ما طعامك آكل زيد» كان الاختيار هكذا الرفع، لأن «الفعل» أولى بالجحد من المفعول والصفة، وكان كأن «الفعل» مع الجحد فإذا أدخلوا «الباء» فيهما كان قبيحًا، لأنه قد جاء الاسم بعدهما لأنه لما جاء ثانيًا احتاجوا إلى أن يعلموا أنه «الفعل»، وانما تدخل «الباء» «للفعل» فإذا اخروا «الفعل» فقالوا: «ما طعامك زيد بآكل» و «ما فيك زيد براغب» ثم نزعوا «الباء» كان الاختيار الرفع، لأن «الباء» قد حالت بين الاسم و «ما» فكأن «الفعل» معها، وكذلك اختاروا الرفع. فان نصبوا فقالوا: «ما طعامك زيد آكلاً» و «ما فيك زيد راغبًا» لم يعبأوا بالصفة ولا المفعول لأنها من صلة «الفعل» فكأنهم قالوا «ما زيد آكِلاً طعامك» وَ «ما زيد راغِبًا فيك»[1]، وهذا النص وان كانت كلمة «الفعل» فيه تعني «آكِلاً» وهو اسم الفاعل الا انها توحي بان المقصود بها الخبر. وقد جاء في مجالس العلماء من قول ثعلب ما يوضحه، قال ثعلب: «كلمت ذات يوم محمد بن يزيد البصري، فقال: كان الفراء يناقض: يقول «قائم» فعل، وهو اسم لدخول التنوين عليه. فان كان «فعلاً» لم يكن اسمًا، وان كان اسمًا فلا ينبغي أن تسميه فعلاً. فقلت: الفراء يقول: «قائم» فعل دائم، لفظه لفظ الأسماء لدخول دلائل الأسماء عليه، ومعناه معنى الفعل لأنه ينصب فيقال: «قائم قيامًا» و «ضارب زيدًا»، فالجهة التي هو فيها اسم ليس هو فيها فعلاً، والجهة التي هو فيها فعل ليس هو فيها اسمًا...» وسماه ثعلب «الدائم» فقال: «ولا يحال بين الدائم والاسم بـ «ما» «طعامك ما آكل عبدالله» قال: جائز في قول الكسائي»[2]. وهذا التقسيم عند الكوفيين لم يفد النحو تسهيلاً وتيسيراً وانما زاده إلباسًا وتعقيدًا وبعدًا في التقدير والتأويل للمحذوفات. ففي الحين الذي يذهب فيه البصريون إلى أن صيغة الأمر فعل قائم بذاته ويعربونه مبنيًا على السكون أو ما ناب عنه، يذهب فيه الكوفيون إلى عده مضارعًا مجزومًا بلام الأمر التي حذفت للتخفيف وحذفت تاء المضارعة منعًا للالباس بالمرفوع وجيء بهمزة وصل لبقاء الأول ساكنًا، وهذه اطالة في تعدد التغيير وتقدير المحذوفات. وكذا قول البصريين أن بناء «آكل» وما اشبهه في المثال السابق «اسم» وانه اسم فاعل عامل عمل الفعل طردًا لباب عمل الاسماء عمل افعالها من مصدر

---

(١) مجالس ثعلب ٢/ ٤٧٧. والصفة: الجار والمجرور. وصلة الفعل: معمولُهُ.

(٢) مجالس العلماء ٣٤٩- ٣٥٠ ومعاني القرآن ٢/ ٤٢٠، ومجالس ثعلب ١/ ٢٧١ وينظر ١/ ٤٤ ومدرسة الكوفة ٢٧٩.

واسم مصدر واسم فاعل واسم مفعول وصيغة مبالغة وصفة مشبهة، وطردا للقول بأن الاسم يتميز بـ «أل» والتنوين والاضافة وكونه يُجمع ويثنّى ويصغر ويقع فاعلاً ومفعولاً وما إلى ذلك من خصائص الأسماء وكلها تدخل «اسم الفاعل» مع الأسماء الأخرى لتميزه بقبول هذه العلامات، ولكي لا يتحيَّر الباحثون في عدّه اسماً مرة وعده فعلاً أخرى، مع عدم استقرار قوله هذا.

ومن البحوث التي تطورت عندهم موقفهم من العامل النحوي، فقد قال البصريون بالعامل النحوي في كل ظاهرة تمر بهم مما يجدون فيه معمولاً وليس في الكلام عامل فيها، أو يجدون فعلاً عاملاً وليس معه معمول، ولهذا قالوا: بأنه لابد لكل معمول من عامل ان لم يكن ظاهرًا فهو مقدر. في حين أجاز الكوفيون مجيء أسماء وأفعال كثيرة منصوبة على المعنى لا بتقدير لفظ عامل كما رأينا في قولهم بـ «الخلاف» أو «الصرف». وذهب البصريون إلى أنه لا بد لكل فعل من فاعل ظاهر أو مقدر أو مستتر ولا يجيزون كونه محذوفًا، وأجاز الكسائي خلو الفعل من الفاعل في باب التنازع إذا أُعمل ثاني المتنازعين في مثل «قام وقعد زيد». وقال البصريون بأنه لا يتوالى عاملان على معمول واحد. وأجازه الكوفيون في القول بأن الفعل والفاعل عملا معًا في المفعول. وقال البصريون إنَّ العامل لا يعمل من جهة واحدة في الظاهر وضميره، ولذلك عدوا الاسم المشغول عنه العامل في ضميره منصوبًا بفعل محذوف وجوباً في قولنا «زيداً ضربته» أو مرفوعًا بفعل محذوف وجوبًا في مثل: «وان أحدٌ من المشركين استجارك فأَجِرْهُ...»[1]. إلى آخر ما هنالك من مواضع يطول حصرها أدى إلى القول بها التزام البصريين بنظرية العامل، أما الكوفيون فقد تساهلوا في ذلك. هذا وغيره نمّى النحو الكوفي وطوّره منهجًا كما طوّره مادة وآراءًا.

---

(١) التوبة ٦.

المبحث الثاني

خصائص المذهب النحوي في الكوفة

أخذ الكوفيون ولا سيما شيخاهما الكسائي والفراء النحو من البصريين سواء بالرحلة إلى البصرة وحضور مجلس الخليل ويونس كما فعل الكسائي[1]، أو حضور مجلس يونس كما فعل الفراء، أم بالاتصال بعلماء النحو البصري كالاخفش سعيد بن مسعدة الذي رحل إلى بغداد للأخذ بثأر سيبويه من الكسائي، فاستماله هذا وأجرى له راتباً وجعله مؤدباً لاولاده واستفاد منه هو والفراء في الحصول على نسخة من كتاب سيبويه سراً، أم باطلاعهما على نحو شيوخ المدرسة البصرية بدءاً بعبد الله بن أبي اسحاق وانتهاء بيونس مجموعاً في كتاب سيبويه، وزادوا فيه. ولهذا فلم يكونوا قد عانَوا ما عانى نحاة البصرة في سبيل تكوين هذا النحو وجمع لغته ودراستها واستنباط الظواهر منها والتمييز بينها في القيمة والقوة وجمع المتشابه منها في أبواب معينة، وتحديد الأصول التي يسيرون عليها في كل هذا، وتقعيد الأقيسة وفرضَ الأحكام وما إلى ذلك مما يحتاج إليه أي علم في بداية نشأته. ووجد الكوفيون هذا كله بين أيديهم، فانصرفوا إلى أمور جديدة ميزت نحوهم بخصائص تفرده عن النحو البصري بنوها على مادة مهيأة هي:

١- النحو البصري كما تلقوه عن عيسى بن عمر والخليل ويونس بن حبيب والاخفش وكما سمعوه في مجالسهم ودوّنوه عنهم، وكما وجدوه في كتاب سيبويه الذي كان لا يفارقهم، وكان الفراء ينام وهو تحت وسادته.

٢- لغات الأعراب التي اعتمد عليها البصريون في وضع قواعدهم وإرساء أصول نحوهم وهي متوافرة فيما أخذه الكوفيون عنهم وألفوا فيه مصنفاتهم وفيما اثبته البصريون في مصنفاتهم اللغوية، وهي اللغات الفصيحة التي لم تختلط بلغات الحواضر[2].

٣- مادة لغوية مكونة من لغات القبائل الأخرى التي كانت تسكن بجوار الكوفة كتميم وأسد ونزار ومن جاور بغداد من أعراب الحطمية وغيرهم، وما جمعه الكسائي عند خروجه إلى بوادي الحجاز ونجد وتهامة مما لم يكن قد سمع بعضه البصريون.

---

(١) ينظر في ذلك: معجم الأدباء ٤/ ١٨٤ و ١٩٠ و ٧/ ٣١٠.

(٢) ينظر فيها: الاقتراح والمزهر في أبواب وفصول متعددة.

٤- الشعر العربي الذي احتج به البصريون من شعر شعراء الطبقات الثلاث الأول- الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين من طبقة جرير والفرزدق والأخطل ومن عاصرهم مضيفين اليه ما كان يروى في الكوفة من أشعار القبائل التميمية أو النزارية التي كان يتفاخر بها سكان الكوفة من العرب، وما كان يرويه الرواة في الكوفة من أشعار الطبقات الثلاث السابقة ومن أشعار المعاصرين ممن يحضرون مجالس الخلفاء والوزراء والولاة.

٥- الاحتجاج بالقراءات القرآنية مطلقًا متواترها وشاذها، لأن ذلك داخل في منهجهم المبني على التوسع في الرواية والأخذ بمعظم ما ورد في اللغة.

هذه هي النظرة العامة إلى موقف الكوفيين من القراءات، ونسب إلى البصريين في مقابل هذا تخطئة القراء ونسبة اللحن اليهم، وتوجيه الطعن اليهم، وقع هذا من القدماء، وربما كان ذلك صحيحًا في القراءات الشاذة التي كان شيوخ الاقراء ولا سيما ابن مجاهد أول من ضعّفها ومنع القراءة ببعضها وحرم بعضها الآخر. أما في القراءة المتواترة فلم أجد ما يوحي بهذا- مع كثرة مراجعتي لكتاب سيبويه واطلاعي على آرائه واستشهاداته بالقراءات، ومع تعمدي جمع كل ما ورد في الكتاب من نصوص قرآنية صريحة متواترة قراءاتها أو غير متواترة وتصنيفها للعثور على ما وجه إلى سيبويه وشيوخه من تهم- ما يمكن أن يعد أساسًا لمثل هذه الحملة الظالمة التي أرى أنها وجهت اليهم في عهد متأخر عن سيبويه وربما في عصر المبرد وثعلب نتيجة التنافس الشديد بين الشيخين، هذا التنافس الذي أدى إلى غلبة المذهب البصري وهيمنته على مجالس الدرس النحوي في بغداد وغيرها. وجاء المحدثون فتابعوا القدماء في ذلك من غير دراسة لمعرفة وجه الحق وأخذوا يكيلون التهم للبصريين ويمجدون الكوفيين بمناسبة وبلا مناسبة وان كان فيهم بعض المنصفين الذين لم يحملوا كلام سيبويه في أبواب كتابه في منع بعض الظواهر النحوية أو الصرفية، ويفسروها بأنها موجهة إلى القراءات القرآنية توجيهًا خفيًا وكان بعضها خطأ أو لحنًا وكان بعضهم الآخر غير منصف كالدكتور أحمد مكي الانصاري في كتابه عن القراءات، إذ فسّر كل حكم ذكره سيبويه أو أحد شيوخه وحكموا عليه بأنه لا يجوز أو ضعيف أو لحن أو خطأ بأنه موجه إلى قراءة من القراءات التي قد تكون معروفة في زمنهم أو لا تكون وانما عرفت عند الكوفيين الذين اشتهر في بلدهم علم القراءات وعلم الفقه المستنبط من القرآن وقراءاته مع اعتماد الرأي فيه وكان الدكتور مهدي المخزومي متابعًا لهؤلاء من غير نظر في كتاب سيبويه أو كما يسميه «نحو الخليل» قال متحدثًا عن موقف الكوفيين من القراءات: «والقراءات مصدر هام من مصادر النحو الكوفي، ولكن البصريين

قد وقفوا منها موقفهم من سائر النصوص اللغوية وأخضعوها لأصولهم وأقيستهم فما وافق منها أصولهم ولو بالتأويل قبلوه وما أباها رفضوا الاحتجاج به ووصفوه بالشذوذ كما رفضوا الاحتجاج بكثير من الروايات اللغوية وعدوها شاذة تحفظ ولا يقاس عليها. ولا ننسى موقفهم من ابن عامر مقرئ أهل الشام ونافع مقرئ أهل المدينة وحمزة مقرئ أهل الكوفة.. فقد غلّط البصريون ابن عامر في قراءته: «وكذلك زُيِّنَ لكثير من المشركين قتلُ أولادَهم شركائهم»، بنصب «اولادهم» وخفض «شركائهم» لأنه فصل بين المصدر المضاف إلى الفاعل بالمفعول، فقد منع ذلك جمهور البصريين ورموا ابن عامر بالجهل بأصول العربية ورفضوا الاحتجاج بقراءته، لأن الاجماع واقع على امتناع الفصل بين المضاف والمضاف اليه بالمفعول في غير ضرورة الشعر، والقرآن ليس فيه ضرورة، وإذا وقع الاجماع على امتناع الفصل بينهما في حال الاختيار سقط الاحتجاج بها على حالة الاضطرار[1] ويكفي ان أرد على الدكتور المخزومي ومن قال بقولهم أو قالوا بقوله بأن البصريين الأوائل الذين ظهروا قبل الفراء والكسائي من شيوخ مدرسته الكوفية لم يصرحوا بالطعن على القراء أو بنسبة اللحن أو الخطأ إلى القراء، وكان القائلون بهذا يحملون نصوص كتابه وآراءه فوق ما تحتمل وذلك ما لا يجوز، وان كان سيبويه أو أحد من شيوخه قد قصد إلى ذلك وتحرج من الافصاح والتصريح فهو فضل أدب منهم ودليل على اجلالهم كتاب الله وقُرّاءَهُ. أما الذين صرحوا بالتخطئة ونسبوا إلى القراء اللحن وإلى القراءات الخروج عن العربية، في الحقيقة فهم شيخا المدرسة الكوفية الكسائي والفراء، وقد عدت إلى «معاني القرآن» الذي كان المفترض في مؤلفه أن يتحرج من التخطئة والعيب على القرّاء ونسبة الوهم اليهم في كثير من هذه المسائل فوجدته هو وشيخه أول الرادين على القراءات ولا سيما التي نسب فيها القدماء هذه التهمة إلى البصريين وألصقوها بهم وهما اللذان فتحا للنحاة المتأخرين عنهما من كوفيين وبصريين باب هذا الطعن وسأمثل بقراءات آية واحدة لكي لا أطيل، وذلك قوله: «.. وزعم الكسائي أنهم يؤثرون النصب إذا حالوا بين الفعل المضاف بصفة، فيقولون: «هو ضارب في غير شيء أخاه» يتوهمون إذا حالوا بينهما أنهم نونوا، وليس قول من قال «مخلف وعدَه رسله» ولا «زُيِّنَ لكثير من المشركين قتلُ أولادَهم شركائِهم» بشيء- وقد فسر ذلك، ونحويو أهل المدينة ينشدون قوله:

فزَجَجْتُها مُتَمكِّنا ... زجَّ القلوصَ أبي مَزاده

---

(١) مدرسة الكوفة ٣٨٤ وينظر ما بعدها، والبحر المحيط ٤/ ٣٢٩ والانصاف مسألة ٦٠.

قال الفراء: باطل، والصواب «زجَّ القلوصِ أبو مزاده»[1] أفبعد هذه التخطئة الصريحة من الفراء وعدّه هذه القراءة المشبهة لرواية البيت باطلةً، وتخطئة الكسائي لها وقوله فيها: «وليس قوله من قال... بشيء» يقول قائل انهم احتجوا بالقراءات وقاسوا عليها إجلالاً لها؟ ان كانوا فعلوا ذلك فليس للتحرج والتأثم، وانما لأن قواعدهم أوجبت عليهم الأخذ بكل مسموع فدخلت فيه القراءات. ولم يكن هذا هو الموضع الوحيد الذي تعرض فيه لقراءة هذه الآية، وانما تعرض لها في قوله: «... وكان بعضهم يقرأ: «وكذلك زُيِّنَ لكثير من المشركين قتلُ أولادَهم» فيرفع «القتل» إذا لم يسمّ فاعله، ويرفع «الشركاء» بفعل ينويه كأنه قال: «زينه شركاؤهم»[2]، ومثله قوله: «يُسبَّحُ له فيها بالغدو والآصال» ثم قال: «رجالٌ لا تُلهيهم تجارة»[3]. وفي بعض مصاحف أهل الشام «وشركايهم» - بالياء - فإن تكن مثبتة عن الاولين فينبغي أن يقرأ: «زَيَّنَ» وتكون «الشركاء» هم «الأولاد» لأنهم منهم في النسب والميراث، فإن كانوا يقرأون «زَيَّن»[4] قلت أعرف جهتها، إلا أن يكونوا آخذين بلغة قوم يقولون: «أتيتها عشايا»[5] ثم يقولون في تثنية «الحمراء»: «حمرايان» فهذا وجه أن يكونوا قالوا: «زُيِّنَ لكثير من المشركين قتلُ أولادِهم شركايهم» وان شئت جعلت «زين» - إذا فتحته - فعلاً لإبليس، ثم تخفض «الشركاء» باتباع «الأولاد». وليس قول من قال: «انما أرادوا مثل قول الشاعر:

فزجَجْتُها متمكناً زجَّ القلوصَ أبي مزادَهْ

---

(١) معاني القرآن ٢/ ٨١- ٨٢ وسورة ابراهيم ٤٧. وهي في المصحف بجر «وعده» بالاضافة ونصب «رسلُه» وسورة الأنعام ١٣٧. وهي في المصحف ... «زين» بالبناء للمعلوم وجر «أولادهم» بالاضافة ورفع «شركاؤهم» بالفاعلية.

(٢) وقد خرج سيبويه القراءة نفسها التخريج نفسه في الكتاب ١/ ٢٩٠.

(٣) النور ٣٦ و ٣٧. وهي في المصحف «يسبِّح» بالبناء للمعلوم.

(٤) يعني بالبناء للمعلوم.

(٥) أي لغة من لا يقلبون لام الناقص همزة بعد الألف الزائدة.

بشيء، وهذا مما كان يقوله نحويو أهل الحجاز، ولم نجد مثله في العربية»[1] وهكذا يعود شيخ النحو الكوفي الآخذ بالقراءات والمحتج بها إلى القول: «وليس قول من قال ... بشيء» ولا يكتفي بهذا وانما يقول بعده: «ولم نجد مثله في العربية»، أليس في هذا دلالة لذي نظر بعيد عن التعصب على أن الفراء أول من وصف القراءات بأنها لا وجه لها في العربية؟ ومعناها في الوقت نفسه أن القارئ بهذه القراءة أو القائل بها لا يعرف وجه العربية؟ ثم ألا يدل قوله في الموضع الأول «ونحويو أهل المدينة ينشدون»، وقوله في الموضع الثاني: «وهذا مما كان يقوله نحويو أهل الحجاز» اصرار منه وتعمد لتخطئتهم، وتصريح بأنه يعلم أن القراءة التي أنشد نحويو أهل المدينة أو نحويو أهل الحجاز بموجبها هذا البيت هي قراءة ابن عامر؟ يكفي هذا دلالة على أن الكسائي القارئ الوفي المعدود من السبعة المخطئ لابن عامر قارئ السبعة في المدينة هو أول من جسّر النحاة الآخرين وجرّأهم على هذا الفعل الذي أُلصِقَ بلا تدبُّر بسيبويه وشيوخه مع عدم وجود شيء من ذلك عندهم. ومثل هذا، التهم الأخرى في قراءات قراء آخرين.

هذه أصول الاستشهاد ومصادره عند الكوفيين وموقفهم منها. وقد تميز منهجهم النحوي في عرض الآراء واطلاق الأحكام وبناء الأقيسة بأمور تبينت فيما سبق نعود إلى ايجازها هنا وهي: توسعهم في الرواية والشواهد والسماع زمانًا ومكانًا فلم يحددوا لشواهدهم زمانًا معيّنًا يقف عنده فجاوزوا به عصر الكسائي والفراء وأجازوا الاحتجاج باللغة والشعر من أية بيئة كان المتكلمون بهما بلا تحديد لحواضر أو بواد، فأخذوا عن أعراب بغداد والكوفة وشعرائهما ولم يحددوا ولا سيما الكسائي نوع المسموع من حيث فصاحة المتكلم به وكونه من قبائل معينة، ولا كيفية هذا السماع من حيث القائل والناقل لهذا المسموع. وتبعًا لهذا توسعوا في القياس وأجازوا وضع الأقيسة الجديدة على ما جاء في هذا المسموع ومخالفة الأقيسة التي وضعها البصريون، وأخذوها عنهم، واستدركوا عليهم وقد جرهم هذا إلى القياس على الشاهد الواحد أو الظاهرة الواحدة وإن خالفت القياس، وفتحوا لها قياسًا جديدًا واعتدُّوا بها وأطلقوا للمتكلم والكاتب القياس عليها والتكلم بموجبها إن اقتنعوا بفصاحة هذا الشاهد المفرد، وبالغ الكسائي في هذا وخالفه فيه الفراء في أقوال. ووضع

---

(١) ينظر معاني القرآن ١/ ٢٥٢- ٢٥٣ و ٢/ ٨٦ في آية آل عمران ١٣ والكتاب ١/ ٤٢١- ٤٢٧ ومعاني القرآن ١/ ٢٧٣- ٢٧٤ (في الأعراف ١٠ وفي الحجر ٢٠) و ٢/ ٨٦ و ١٤٨ و ١/ ٩ و ٢٤ و ٣٨ و ٥ و ٢/ ٧٥ وفي تخطئة القراء أو نسبتهم إلى الوهم. وينظر كذلك ١/ ٢ و ٦٤ ٧٥ و ٨٨ و ٨٩ و ٨٧- ٨٨ في قريب من افتراض قراءات وردِّها أوتخطئتها.

الكسائي أقيسة على أمور نظرية لا دليل عليها من اللغة،[1] وانما حكّم فيها العقل لا النقل، أو وضعها على المخالف والمضاد والمقابل لا على المشابه والنظير. وتبع كل هذه الأصول تركهم التأويل والتقدير لانتفاء حاجتهم اليه بعد أن وضعوا قياسًا لكل ما اعتدوا بصحته من شواهد استدركوا به على أقيسة البصريين ومع هذا التوسع كله نجدهم في مواضع يردون أقيسة وضعها البصريون واحتجوا بها، كما في ردهم أعمال صيغ المبالغة[2].

واتضح من خصائص نحوهم وضعهم مصطلحات جديدة ضموا فيها أبوابًا من النحو عند البصريين وأخرى وضع البصريون لها مصطلحات الا أن الكوفيين سموها بأسماء جديدة لا لسبب إلا ليثبتوا لنحوهم تسميات ومصطلحات خاصة يعرف بها ويستقلّ عن النحو البصري[3] وإن كانت هذه التسميات في أغلبها مأخوذة من عبارات الكتاب لسيبويه.

الكسائيّ

حياته:

هو علي بن حمزة الكسائي[4] من قرية قرب الكوفة، مولى بني أسد، دخل الكوفة وهو غلام وفيها نشأ وأخذ العلم عن مشايخها وهم المؤدبون المنتشرون في حلقات الدرس ومجالسه في الكوفة ومساجدها شأنه شأن أبنائها في ذلك الزمان، فأخذ العربية عن اثنين من المؤدبين المشهورين في زمانه، وهما: معاذ بن مسلم الهراء (-١٨٧ هـ) أو (-١٩٠ هـ) الذي نسب اليه وضع علم الصرف في الكوفة، وأبو جعفر الرؤاسي الذي عُدّ مؤسس مدرسة الكوفة النحوية، وأخذ القراءة عن مشايخ الاقراء في عصره، ولازم شيخ قرّاء الكوفة في زمانه حمزة بن حبيب الزيات (-١٥٦ هـ) أحد القراء السبعة (الذين عُدَّ منهم في الكوفة عاصم بن أبي النجود وحمزة والكسائي.

---

(١) ينظر أمثلة أقيستهم النظرية شرح الرضي على الكافية باب التأكيد، وحروف النسق. ومغني اللبيب باب «كذا». ١/ ١٥٩- ١٦٠.

(٢) ينظر مجالس ثعلب ١/ ١٢٣- ١٢٤ والكتاب ١/ ١١٠ وما بعدها.

(٣) تنظر أراء الكوفيين عامة في «الموفي في النحو الكوفي».

(٤) تنظر ترجمته في مراتب النحويين ٧٤- ٧٥ وطبقات النحويين واللغويين ١٣٨- ١٤٢ ونور القبس ٢٨٣ وما بعدها والفهرست ٧٢ ونزهة الالباء ٤٢- ٤٨ ووفيات الأعيان ٢/ ٤٥٧- ٤٥٨ ومعجم الأدباء ٥/ ١٨٣- ٢٠٠ وانباه الرواة ٢/٢٥٧- ٢٥٨ وغيرها.

أخذ الكسائي قراءة حمزة) واختص به ولم يفارقه، فلما توفي تصدر في مجلسه وأخذ يقرأ بقراءته أول الأمر إلى أن تمكن من القراءات واطلع عليها وميّز بينها واختار له قراءة خاصة عرف بها وتابعه الناس عليها في بلد عرف بثلاثة من القراء السبعة المشهورين في العالم الاسلامي- بحسب تصنيف ابن مجاهد. وقد قيل ان سبب اتجاهه إلى دراسة النحو وتعمقه فيه انه لحن بين جماعة من أصحابه فقالوا له: أتجالسنا وأنت تلحن؟[1] فأنف الكسائي من هذا وهو الذي كان قد أعدّ نفسه ليكون قارئ الكوفة، فقام من توّه يسأل عمن يعلّمه النحو فأرشدوه إلى معاذ بن مسلم الهراء، فلزم مجلسه حتى انفد ما عنده، وبقي يتنقل بين مجالس من يُعدّون من شيوخ العربية في زمانه في الكوفة ومنهم الرؤاسي الذي كان قد أخذ النحو البصري وتفقه فيه وشهر به أكثر من شهرة معاذ فلزمه وحفظ عنه ما لديه من مسائل العربية وبحوثها، لكنه مع هذا لم يقتنع بما لديهما ولم يكتفِ بما أخذه عنهما. وكان أمر النحو البصري وشهرة شيوخه قد ملأت أجواء الدرس النحوي في الكوفة فعزم على الرحيل اليها لاستكمال ما عنده من مبادئ النحو بمجالسة شيوخها والأخذ عنهم فلزم حلقة الخليل يسمع ويُدوِّن ويناقش فسأله يومًا وهو معجب بسعة اطلاعه وكثرة حفظه ووضوح مسائله وآرائه وتطور أُصوله وأُسسه، من أين أخذت علمك هذا؟ فقال له الخليل: من بوادي الحجاز ونجد وتهامة، فترك حلقة الخليل على أن يعود اليها، ورحل إلى البادية يسمع ويحفظ ويُدوِّن حتى انفد خمس عشرة قنينة حبر- فيما يروي المؤرخون- في الكتابة عن العرب سوى ما حفظه، وعزم على العودة وليس له همٌّ غير الخليل وحلقته ليعرض عليه ما حفظ وما دوّن وليناقشه فيه ويطلع على رأيه في المادة اللغوية التي جمعها، لكنه وجد الخليل قد مات، ووجد يونس قد تصدر مجلسه، فجلس الكسائي فيه وجرت بينهما مسائل أقر فيها يونس للكسائي بصحتها وصدّره في موضعه.[2] وكان هذا التصدير من يونس للكسائي إشارة إلى أنه بلغ مبلغ الجلوس للدرس ورياسته، فعاد إلى بلده- الكوفة- كي يؤديَ رسالته نحو دارسيها وليبث فيهم ما جُدّ عنده من آراء ومبادئ وأصول مطبِّقًا كل ذلك على ما ورد في القراءات مستفيداً منها في تصحيح اختياره للقراءة التي يقرأ بها، إلا انه لم يكد يستقر به المقام فيها حتى دُعي إلى بغداد مركز الخلافة العباسية وحاضرة الاسلام ليبديَ رأيه في مسألة عرضت للمهدي واستاء فيها من جواب أحد مؤدبي ولده الرشيد، فأعجب المهدي باجابته وجعله مؤدّبًا لابنه الرشيد ولابنيه من بعده وقيل للامين منهما. على أية حال فقد استقر الكسائي في بغداد، وقرّبه الخلفاء ابتداء من المهدي ولازموه، واختص به الرشيد الذي لم يكن

---

(١) ينظر نزهة الالباء ٤٣ وبغية الوعاة ٢/ ١٦٣ وغيرها.

(٢) ينظر نزهة الالباء ٤٣ وانباه الرواة ١/ ٢٥٧- ٢٥٨ وبغية الوعاة ٢/ ٢٦٣.

يفارقه في حله وترحاله حتى لامه على ذلك بعض معاصريه وجلسائه لرعايته اياه، وكان هذا سببًا إلى رفع منزلته واشتهاره من بين نحاة زمانه، قال أبو حاتم السجستاني: «لم يكن لجميع الكوفيين عالم بالقرآن ولا كلام العرب، ولولا أن الكسائي دنا من الخلفاء فرفعوا من ذكره لم يكن شيئًا، وعلمه مختلط بلا حجج ولا علل إلا حكايات عن الأعراب مطروحة لأنه كان يلقنهم ما يريد، وهو على ذلك أعلم الكوفيين بالعربية والقرآن وهو قدوتهم واليه يرجعون»[1] وهذا الكلام وان كان فيه نوع من تحامل البصريين على الكوفيين لأنهم لم يحظوا عند الخلفاء كما حَظِي الكوفيون، فإن فيه شاهدًا على مبلغ ما وصل اليه شأن هؤلاء النحاة عند الخلفاء العباسيين. وقد واصل الكسائي السماع من الأعراب المجاورين للكوفة ومن أعراب الحطمية الذين نزلوا بغداد وأقاموا بظاهرها من بني عبد القيس وغيرهم ممن لم ير بأسًا من الأخذ عنهم والاحتجاج بما في لغتهم من ظواهر إعرابية وتركيبية مما لم يَرِدْ في لغات القبائل الأخرى.

ورويت في علمه وفضله الروايات فقيل فيه: عالم أهل الكوفة وأمامهم غير مدافع اليه ينتهون في علمهم، وعليه يعولون في روايتهم، قال ثعلب: أجمعوا على أن أكثر الناس كلهم رواية وأوسعهم علمًا الكسائي، وقد احتاط أبو الطيب اللغوي من هذا التعميم الذي في هذه الرواية فعلق عليها بقوله: «وهذا الاجماع الذي ذكره ثعلب لا يدخل فيه أهل البصرة»[2]. وقال ابن قادم: قلت للفراء: قد بقي في نفسك شيء من النحو؟ قال: أشياء كثيرة، قال: فمن تحب أن تلقى فيها؟: قال: كنت أحب لو بقي الكسائي- رحمه الله- وكان أبو زيد سعيد بن أوس الانصاري يقول: كان الكسائي إذا أخذ معي في اللغة والشعر هوى وإذا أخذ في النحو علا. وتُروَى عن رحلاته روايات كثيرة قال الأخفش في واحدة منها: «كان الكسائي جاءنا بالبصرة فسألني أن أقرأ عليه أو أُقرِأَهُ كتاب سيبويه ففعلت فوجه إليَّ خمسين دينارًا وجُبَّةً وَشْيٍ. ومع هذا العلم الواسع في اللغة والنحو فقد بقي الكسائي يلحن في قراءاته، واعترف هو نفسه بذلك فقال: «صليت بهارون الرشيد فأعجبتني قراءتي، فغلطت في آيةٍ ما اخطأ فيها صبيٌّ قط، أردت أن أقول «لعلهم يَرجِعُونَ»[3] فقلت: «لعلهم يرجعين». قال: فوالله ما اجترأ هارون أن يقول لي، أخطأت ولكنه لما سلمت قال لي: يا كسائي أي لغة هذه؟ فقلت:

---

(١) مراتب النحويين ٧٤- ٧٥ وينظر طبقات النحويين واللغويين ١٣٨- ١٤٣ والفهرست ٧٢ وغيرها من الكتب التي ترجمت له.

(٢) مراتب النحويين ٧٤.

(٣) جاءت هذه العبارة في آيات كثيرة منها: آل عمران ٧٢ والأعراف ١٦٨ و يوسف ٦٢ ...

يا أمير المؤمنين قد يعثر الجواد، فقال: أمّا هذا فنعم»[1]. ومن ذلك ما حدث به خلف بن هشام الاسدي (-٢٢٩ هـ) قال: «كان الكسائي إذا كان شعبان وَضِعَ له مِنْبرُ فقرأ هو على الناس في كل يوم نصف سبع، يختم ختمتين في شعبان، وكنت أجلس أسفل المنبر، فقرأ يومًا في سورة الكهف: «أنا أكثرُ» فنصب «أكثرَ» فعلمت أنه قد وقع فيه، فلما فرغ أقبل الناس يسألونه عن «أكثرَ» لِمَ نصبه؟ فثرت في وجوههم: انه أراد في فتحه «أقلَّ»: «إن ترن أنا أقلَّ منك مالاً» فقال الكسائي «أكثرَ» فمحوه من كتبهم، ثم قال لي: يا خلف: يكون أحد من بعدي يسلم من اللحن؟ قال: قلت: لا، إنما إذا لم تسلم منه أنت فلم يسلم منه أحد بعدك، قرأت القرآن صغيراً، وأقرأت الناس كبيراً وطلبت الآثار فيه والنحو»[2]. وفي هذه الروايات مع الاشارة إلى لحنه اشارات تدل على مبلغ تعظيم الرشيد وخلف هذا للكسائي فقد خجل الرشيد أن يواجهه باللحن فعبر عن ذلك بأسلوب غير مباشر فقال: «أيّ لغة هذه؟» ودافع خلف الاسدي فخرَّج قراءته على معنى آية متأخرة عنها مقابلة لها في المعنى سبقت فيها الجملة بـ «ترن» محاولاً بهذه تخليص الكسائي من ورطة الوقوع في اللحن، وتظهر طبع العالم الذي اتصف به الكسائي في اعترافه باللحن في الموضعين امام الرشيد وامام هذا الحشد من الطلبة، وتدل على أن اللحن قد ذاع وفشا ولا سيما على ألسنةِ الموالي ومنهم الكسائي الذي لم يَنْجُ من اللحن مع كثرة قراءته للقرآن وإقرائه واشتغاله بالنحو واللغة هذه السنوات الطويلة ومع قول اسحاق بن ابراهيم الموصليّ فيه: «ما رأيت في الصنعة أحذق من أربعة: الاصمعي بالشعر، والكسائي بالنحو...» وقال: «كنت إذا رأيت كتاب أحد منهم في صناعته لم تنازعك نفسك إلى أن تكون في تلك الصناعة على أكثر مما سمعت»[3] ومع هذا العلم وسعة الاطلاع والمهارة في النحو قال فيه الفراء تلميذه وأقرب المقربين اليه «مات الكسائي وهو لا يُحسِن حدّ «نِعْمَ» و«بِئْس»» و «أن» المفتوحة و «الحكاية»»[4].

مات الكسائي سنة ثنتين أو ثلاث وقبل تسع وثمانين ومائة مخلفًا وراءه قراءة سبعية مشهورة وأُصولاً نحوية متطورة وتلميذاً نابهًا سار على أُصوله وبنى لمدرسته وبلده سمعة نحوية

---

(١) نزهة الالباء ٤٥ وانباه الرواة ٢/ ٢٦٢- ٢٦٣.

(٢) الكهف ٣٤ و ٣٩ وانباه الرواة ٢/ ٢٦٢ وتنظر روايات أخرى في لحنه ٢/ ٢٦٣- ٢٦٤ ونزهة الالباء ٤٥ و ٤٦ و ٤٧.

(٣) انباه الرواة ٢/ ٢٧٢- ٢٧٣. وينظر غيرها من الأقوال في صفاته وعلمه ولحنه في ما ترجم له فيه من الكتب.

(٤) بغية الوعاة ٢/ ١٦٣.

معروفة، وفوق كل هذا خلف مصنفات ذكرها ابن النديم هي: «معاني القرآن» و «كتاب مختصر النحو» و «كتاب القراءات» و «كتاب العدد» و «النوادر الكبير» و «النوادر الأوسط» و «النوادر الأصغر» و «مقطوع القرآن وموصوله» و «كتاب اختلاف العدد» و «كتاب الهجاء» و «كتاب المصادر» و «اشعار المعاياة وطرائقها» و «الهاءات المكني بها في القرآن» و «كتاب الحروف»[1].

التزم الخلفاء العباسيون ابتداء من المهدي فالرشيد فولديه من بعد جانب الكسائي وأكبروه وأجلُّوه وقدموه على نحاة عصره ولا سيما البصريون الذين كانت شهرتهم قد دوَّت في الآفاق، ثم التزموا من بعده تلميذه الفراء وأمدُّوهما وثعلبًا من بعدهما بالتأييد والتشجيع ووفروا لهم عيشًا ليِّنًا لا يشغلهم التفكير فيه عن تتبع مسائل النحو وأُصوله وتطويرها والعمل على الاستقلال بمنهج نحوي يختلف بعض الاختلاف عن النحو البصري، ولا سيما في الفروع والتوجيهات والمصطلحات وان كان في وجوده مبنيًا على نحو البصريين مستمِداً منه كيانه وأركان بنيانه المتطور. وتدل المناظرة التي اقيمت بين الكسائي وأصحابه من جهة وسيبويه من جهة أخرى وما دار بين الفريقين من مناقشات وما عُرِض من آراء وأقوال على مبلغ اعتزاز الخلفاء بالكسائي الكوفي، وعلى التطور الذي حدث بين النحوين في المنهج والأصول العامة التي بنيت عليها آراؤهما وأقيستهما، واتضح بعد ما بين هذين المنهجين، منهج البصريين المبني على القواعد والأقيسة الثابتة، ومدى التزامهم بها وعدم اعتدادهم بكل مسموع وباختلاف اللغات، ومنهج الكوفيين الذين فتحوا باب الرواية واسعًا، واطلقوا القياس على كل مرويّ اعتدوا به وان كان مسموعًا مفرداً، ولم يقف الأمر عند هذا وانما وضع نحاته ولا سيما الكسائي أقيسة لم يرد عند العرب سماع يؤيدها، وأحسَّ الكسائي ببعد ما بينَ منهجه الذي بناه على السماع ومنهج مناظره سيبويه المبني على أصول ثابتة وأقيسة محكية، وعمل على أن يحظى بكتاب سيبويه وان يدرسه دراسة جيدة ويتفهم الأصول التي بنيت عليه مسائله وآراء شيوخه فسافر إلى البصرة مرة ثانية اتصل فيها بالأخفش وبذل له المال وحصل منه على نسخة من الكتاب، مع تمكنه من قراءته عليه وفهمه لبعض مسائله التي ربما لم يكن الكسائي قادراً على فهمها، وعاد إلى بغداد مزوداً بالنحو البصري مُتَمثِّلاً بكتاب سيبويه الذي كان مرجعه الأصلي وعُدَّتَه في وضع الأقيسة وفهم الظواهر الجديدة التي واجهته ووضع الأحكام لها، واستطاع أن يخرج بعد هذا بمنهجٍ وسط بين المنهجين فيه خصائص الدراسة البصرية المبنية على القياس والتأويل والتعليل، وخصائص الدراسة القرآنية الكوفية المعتمدة على التوسع في السماع والاعتداد بكل مسموع يثق به عند وضع قواعده وأقيسته، وقد اتضح هذا أول ما اتضح في موقفه من قراءته للقرآن الكريم حيث

---

(١) الفهرست ٧٢.

حاول التوفيق بينها وبين القراءات الأخرى فاختار لنفسه قراءة من قراءات كثيرة بناها على انتقاء ما رآه موافقًا للنقل صحيحًا ملائمًا للآراء النحوية التي قال بها.

واتضح في توسعه في الرواية للغات العرب المختلفة مما لم يقس عليها البصريون وانما أثبتوها وعدوها من المسموع المحفوظ، وتوقفوا في القياس عليه، مع لجوئه إلى الأخذ عن أعرابٍ محيطين ببغداد التي كانت مستقرهُ في ذلك الحين. وقد انتقده معظم القدماء والمحدثين على هذا الموقف غير مقدرين ما تركته القراءات من أثر في أسلوب دراسته ومنهجها.[1] والذي تبين عنده في موقفه المتميز من بعض أصول الدرس النحوي:

١- قلة التأثر بالفلسفة الكلامية والمنطق وعلم الكلام والثقافات الأجنبية كالسريانية واليونانية التي كانت موجودة في جنوب العراق، لأن بغداد والكوفة لم تكونا موطنًا لمذاهب المتفلسفين وعلماء الكلام ولم تكن هذه الأفكار قد انتقلت اليهما وأثّرت في رجالهما وعلومهم بعد، وان تكن قد أثرت تأثيراً ما في نحو البصريين اتضحت في موقفهم من نظرية العامل وبنائهم قواعده على أسس منطقية منهجية، ولهذا فقد أجاز من أصول العمل النحوي ما لم يجزه البصريون فأثر ذلك في ظهور تفسيرات وأعاريب جديدة أخذ بها وبنى أقواله عليها منها: إجازته أن يكون للعامل الواحد معمولانِ متأثرانِ به من جهة واحدة وفي وقت واحد، كقوله بأن الفعل المتعدي إلى مفعول واحد في باب الاشتغال يجوز أن يتعدى إلى الاسم وضميره فينصبهما معاً، والناصب له عنده لفظ الفعل المتأخر عنه اما لذاته إن صح المعنى واللفظ بتسليطه عليه نحو: «زيداً ضربته» فـ«ضربت» عامل في «زيداً» كما انه عامل في ضميره، واما لغيره ان اختل المعنى بتسليطه عليه، فالفاعل فيه ما دل عليه ذلك الظاهر وسد مسده كما في «زيداً مررت به» و «عَمْراً ضربت أخاه» فالعامل في «زيداً» هو قولك «مررت به» لسده مسد «جاوزت»، وفي «عمراً ضربت أخاه» لسده مسد «أهنت» وليس قبل الاسم في الموضعين فعل مضمر ناصب عنده[2] وعند الفراء، وانما جاز عندهما ان يعمل الفعل الطالب لمفعول واحد في ذلك المفعول وفي ضميره معًا في حالة واحدة لأن الضمير في المعنى هو الظاهر فيكون فائدة تسليطه على الضمير بعد تسليطه على الظاهر المقدم تأكيد ايقاع الفعل عليه...[3] ومنع البصريون ذلك وعدوا الاسم منصوبًا بفعل محذوف وجوبًا على

---

(١) ينظر مدرسة الكوفة ١٣٧ ومعجم الأدباء ٥/ ١٨٩ وما بعدها.

(٢) شرح الرضي على الكافية لابن الحاجب ١/ ١٦٣.

(٣) شرح الرضي على الكافية لابن الحاجب ١/ ١٦٣.

التقديرين المذكورين ان لم يصح اللفظ الموجود، وهذان التقديران هما: «جاوزت» و «أهنت».

٢- ميله إلى الاعتداد بظاهر الآيات القرآنية والقياس على ما ورد من ظواهر إعرابية فيها وفي بعض القراءات، وجاز بها التكلم والتعبير ولهذا فقد أجاز ان يعطف على موضع «إنّ» واسمها بالرفع قبل تمام الخبر فيقال: «إنّ محمداً وعليٌّ مسافران» قياسًا على ما ورد في قوله تعالى: «إن الذين آمنوا والذين هادُوا والصابئون والنصارَى مَنْ آمنَ منهُم باللهِ واليومِ الآخِرِ وعَمِلَ صالحًا فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون» حيث عطف «الصابئون» بالرفع على موضع «إنّ واسمِها» وهو الرفع بالابتداء قبل تمام الخبر وحمل الآية على ظاهرها من غير تأويل. أما البصريون فقد خرجوها على وجهين: الأول: ان خبر «إن» محذوف تقديره: «مأجورون» أو «آمنون» أو «فرحون» و «الصابئون» مبتدأ وما بعده خبره، واستشهدوا لذلك بقول الشاعر:

خليليَّ هَل طَبٌّ فإنّي وأنتما　　　وإن لم تَبوحا بالهَوَى دَنِفانِ

أي «فاني دَنِف»، وذلك واضح من «دَنِفانِ» في آخر البيت، والثاني: ان الخبر المذكور في الآية خبر «إن» وخبر «الصابئون» محذوف تقديره «كذلك» واستشهدوا على صحة هذا الوجه بقول ضابئ بنِ حارث البرجمي:

فمَنْ يكُ أَمسى بالمدينة رَحْلُهُ　　　فإنّـي وَقيّـارٌ بـهـا لَغَريـبُ

فـ «غريب» خبر «إن» بدليل دخول لام التوكيد عليه، وخبر «قيار» محذوف تقديره: «كذلك». وكأنما أحس الفراء- تلميذه- بهذا التوسع في القياس على ما لم يرد، وشعر بأن مذهب البصريين أقوى وأقرب إلى الصواب، فأخذ بظاهر الآية والبيتين ووقف موقفًا وسطًا بين الكسائي والبصريين بأن خص جواز العطف فيما لم يظهر عمل «إن» فيه من النصوص وهما الاسمان المبنيان: «الذين» في الآية، وضمير المتكلم في البيتين، أما إذا كان عمل إن ظاهرًا في لفظ اسمها فلا يجوز ذلك، وعلى هذا لا يصح عنده أن نقول: «إن محمّدًا وزيدٌ ذاهبان»، ويصح «إنّي وزيدٌ ذاهبان»[1]. ومن ذلك تجويزه الفصل بين الفعل العامل ومعموله المرفوع أو المنصوب أو المجرور بـ «إلاّ» مستَنِدًا في ذلك إلى قوله تعالى: «وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهلَ الذِكرِ إن كنتم لا تعلمون، بالبينات والزُبُرِ»[2]، فقد توسطت «إلا» بين

---

(١) ينظر الانصاف في مسائل الخلاف مسألة ٢٣ ومغني اللبيب ٢/ ٥٢٧ و همع الهوامع ٥/ ٢٩٠- ٢٩١ واسرار العربية ١٥٢. والآية ٦٢ من البقرة.

(٢) سورة النحل ٤٣- ٤٤.

«أرسلنا» وما تعلق بها وهو قوله تعالى: «بالبينات والزبر»[1] وقاس عليه المرفوع والمنصوب وقد جاء المنصوب في قول الشاعر:

تزودت من ليلى بتكليم ساعةٍ   فمــا زادني الا غرامــًا كلامُهــا[2]

ومنه ذهابه إلى جواز زيادة «منْ» في الايجاب حيث عَدَّ «من» زائدة في قوله تعالى: «يغفر لكم من ذنوبكم» ولم يَعُدّها حرف جر أصليًا دالاً على التبعيض، وفسر بمثله قوله تعالى: «ولقد جاءك من نبأ المُرْسَلين»[3] ومنه قوله بأن «إن» النافية إذا دخلت على الجملة الاسمية عملت عمل «ليس» فرفعت الاسم ونصبت الخبر، قياسًا على ظاهر قراءة سعيد بن جبير لقوله تعالى: «إن الذين تدعون من دون اللّه عباد أمثالكم..»- بنصب «عباداً» و «أمثالكم» فـ «إنْ» ها هنا هي النافية العاملة عمل «ليس» وهي عند سيبويه لا تعمل بل تهمل دائمًا، وقد تابع المبرد البصري الكسائيَّ في مذهبه في حين تابع الفراء الكوفي سيبويه فيما ارتآهُ[4]. ويتضح من هذه المتابعة أن النحويين يميلون دائمًا إلى ما يرَونه ويعتقدونَه صحيحًا من التفسيرات والآراء ولهذا يتابع شيخ بصري هو المبرد الكسائي الكوفي ويتابع شيخ الكوفيين الفراء، شيخ البصريين سيبويه. ولم يكن مخالفو البصريين من الكوفيين يريدون المخالفة لمجرد المخالفة كما ذهب إلى ذلك الدكتور شوقي ضيف[5]. ومن آرائه أنه وضع قاعدة مطردة هي: أن اسم الفاعل يعمل النصب سواء أكان بمعنى الماضي أو بمعنى الحال أو الاستقبال حملاً على ما فُهِمَهُ من قوله تعالى: «وكلبُهُم باسطٌ ذِراعَيْهِ بِالوَصِيدِ» حيث لاحظ أن اسم الفاعل «باسط» مع كونه بمعنى الماضي قد عمل النصب في «ذراعيه»، ومنع البصريون عمل اسم الفاعل الماضي النصب لما بعده على المفعولية، وتأولوا مجيء «باسط» عاملاً في هذه الآية بأن اللّه سبحانه وتعالى أراد حكاية حال ماضية بدليل مجيئها بعد «ونُقَلِّبُهُم» وهو فعل مضارع، وكأن التقدير عندهم «وكلبهم يبسط ذراعيه»، ولذلك جوّز الكسائي قياسًا عليها أن نقول: «زيدٌ مُعْطٍ عَمْرًا أمس درهمًا» وتابعه على ذلك تلميذه

---

(١) همع الهوامع ٣/ ٢٧٦- ٢٧٧.

(٢) همع الهوامع ٣/ ٢٧٦- ٢٧٧.

(٣) الاحقاف ٣١ والانعام ٣٤ وهمع الهوامع ٤/ ٢١٥- ٦.

(٤) الأعراف ١٩٤ وينظر شرح المفصل لابن يعيش ٨/ ١١٣ وشرح الرضي على الكافية ١/ ٢٤٩ والكتاب ٣/ ١٥٢ ومغني اللبيب ١/ ١٩ وهمع الهوامع ٢/ ١١٦.

(٥) ينظر رأيه في المدارس النحوية ١٧٨.

هشام[1]. أما الفراء فقد تابع البصريين[2]، وذهب إلى تجويز حذف «لام الأمر» قياسًا في الكلام بعد «قُلْ» كما في قوله تعالى: «قُلْ لِعبادِيَ الذين آمنوا يُقيمُوا الصلاةَ» حيث جاء المضارع محذوف النون بتقدير «لِيقيموا» وخرّجها البصريون على أن المضارع مجزوم في جواب الأمر «قُلْ» على حد قولنا: «ائْتِني أُكْرِمْكَ»[3].

٣- عنايته بأخبار الآحاد التي صح سندها أو بالشواذ من كلام العرب الذين يثق بهم وبفصاحتهم وان كانوا من أعراب الحطمية، فكان يقيس على ما جاء من هذه الظواهر التي ليس لها إلا شواهد قليلة أو شاهد واحد مما كان فصيحًا في نظر الكوفيين لكنه مخالف لأصول البصريين وأقيستهم، ويتضح ذلك في تجويزه حذف النون من المثنى غير المضاف فيجوز عنده في الكلام «قام الزيدا» بغير نون، ويبدو أنه قاس ذلك على ما أنشده أعرابي في مجلس الرشيد وهو قوله:

لنا أعنزٌ لُبْنٌ ثَلاثٌ فبعضُها لأولادِنا ثِنْتاء وَفي بَينِنا عَنْزُ

فحذف النون في «ثنتا» وأراد «ثنتان» وخفض «بيننا» لأنه أدخل صفة على صفة[4]. وهذا مسموع آخر هو جر الظرف «بين» بحرف الجر «في» وهذا جائز عند الكسائي لما سيأتي، وهو وارد في «مِن» فقط مع «عند» قياسًا على قوله تعالى: «قُلْ كُلٌّ مِن عندِ اللّهِ» عند النحاة، وقد أجاز الكسائي القياس على أشياء وردت في بيتين سابقين لهذا البيت. أجاز في الأول جمع اسم الجنس لقوله في «خبز» «أخباز» فقال:

ونحن أناسٌ لا دَراهِمَ عندَنا ولِلناسِ أخبازٌ وليس لنا خُبْزُ

فأجاز ما جاء في الثاني من حذف المضاف واقامة العدد المضاف اليه مقام المضاف من قوله:

نحن اثافِي القدرِ والأكْلُ سِتَّةٌ جَراضِمَةٌ جُوفٌ وأَكْلَتُنا اللّبَنُ

يريد: «وأكله أكل ستة»، وقد علق الكسائي بعد سماع هذه الأبيات الثلاثة بقوله:

---

(١) هو هشام بن معاوية الضرير من تلاميذ الكسائي، نحوي كوفي.

(٢) الكهف ١٨ وقبلها قوله تعالى: «وتَحْسَبُهُم أيقاظًا وهُم رُقُودٌ ونُقَلِّبُهُم ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشمالِ» وينظر مغني اللبيب ٢/ ٧٧٠.

(٣) ابراهيم ٣١ ومغني اللبيب ١/ ٢٨٤ وينظر الكتاب ١/ ٤٥٢.

(٤) الصفة عند الكوفيين: حرف الجر والظرف، والخفض عندهم: الجر كذا عند سيبويه.

«فاستفدت في هذه الأبيات عدة مسائل»[1] وفي هذا التعليق ما يدل دلالة واضحة على أن الكسائي كان يجيز القياس على الشاهد المفرد ما دام قائله فصيحًا. ومن ذلك تجويزه حذف المضاف اليه مع بقاء المضاف منصوبًا غير منون قياسًا على ما سمعه من قولهم: «أفوقَ تنامُ أم أسفلَ؟»[2] على تقدير «أفوقَ هذا تنام أم أسفَلَه؟». وذهابه إلى استعمال «جوارٍ» وما أشبهها مما كان منقوصًا على صيغة منتهى الجموع «فَعالِل» ممنوعة من الصرف على الأصل فيها فيجره بالفتحة قياسًا على ما جاء في قول الفرزدق:

فلو كان عبدُ اللهِ مولًى هَجَوْتُهُ ... ولكنَّ عبدَ اللهِ مَولَى مَواليَا[3]

وقد منعه عبد الله بن أبي اسحاق وخطأه فيه وتابعه فيه البصريون وبعض الكوفيين في إجرائه هذا وما أشبهه مجرى المنقوص فيقال: «هؤلاءِ جوارٍ ومررت بجوارٍ» ومما أجازه حملاً على الشاهد المفرد ظواهر كثيرة أهمها: ذهابه إلى أن «أو» تأتي ناصبة بنفسها لا بتقدير «أنْ»، وأنَّ الفعل المضارع مرفوع بحروف المضارعة، وإعمال «لا» النافية للجنس في العَلَم قياسًا على قول العرب «قضيةٌ ولا أبا حسنٍ لها». وتقديم المستثنى في أول الكلام معتمدًا على قول الشاعر:

خلا اللهِ لا أرجو سِواكَ وإنَّما ... أَعُدّ عِيالي شُعبةً من عِيالِكا

في اجازته قياسًا عليه تقديم المستثنى على جملته وسواء أكان الاستثناء بـ «خلا» أم بـ «إلا» أم بغيرهما.[4] ومنه تجويزه اضافة «حيث» إلى الاسم الظاهر المفرد قياسًا على شاهدين، والبصريون يخصونه بالضرورة. ونصبه الفاعل الواقع بعد «إلاّ» في الاستثناء المفرغ قياسًا على قول بعض الشعراء:

لم يبقَ إلا المجدَ والقصائدا ... غيرَك يا ابنَ الأكرمين والدا

بنصب الجميع. وعده تقديم التمييز على معموله جائزًا قياسًا على قول الشاعر:

أتهجُرُ ليلى بالفراقِ حَبيبَها ... وما كانَ نفسًا بالفراقِ تطيبُ

---

(١) سورة النساء ٧٨. وينظر نور القبس ٢٨٦– ٢٨٧. واللبن: الأكل الجيد. أو اللقم. (اللسان).

(٢) همع الهوامع ٣/ ١٩٥.

(٣) شرح الرَّضِيّ على الكافية / ٥٨ وينظر الكتاب ٣/ ٣١٣ و ٣١٥ وينظر ٣١٢ في مثله.

(٤) ينظر فيها همع الهوامع ٢/ ١٠ و ١٦٥ و ١/ ١٤٥ و ١/ ٢٢٦ والانصاف مسألة ٣١.

وتابعه على ذلك المازني والمبرد.[1]

٤ - اطلاقه القياس النظري مع عدم وجود المسموع المماثل أو القياس المتبع فيما هو من بابه. ومن ذلك قوله بالفصل بين «لن» ومنصوبها بالقسم نحو: «لن- والله- أقرأَ الكتاب» وبمعمول الفعل نحو: «لن الكتابَ اقرأ»، وأحس الفراء بنبو الموضع الثاني فتابعه على الفصل بالقسم، غير انه عاد فجوز الفصل بـ «أظن» الملغاة فسوغا ان يقال: «لن اظنُّ ازورَك» وبالشرط مثل: «لن- إنَ تَزُرني- أزورَك» وهما صيغتان نابيتان، وليس هناك ما يؤيد هذه المواضع من شواهد، ولا قياس في اخواتها من عوامل الافعال. وتجويزه الفصل بين «اذن» ومعمولها المنصوب بمعمول الفعل مطلقًا مثل: «اذن صاحبَكُ أكرمَ» ويبقي لها العمل، ويلغيه تلميذه هشام ويرفع المضارع، ويتبع هذا أن أَلغى شرط التصدير لإعمال «اذن» بعد سماعه قول الراجز:

لا تتركَنِّي فيهِمُ شَطيرا   إني اذَنْ أهلِكَ أو أطيرا

وهذا مبني على مسموع مفرد، وذلك مبني بلا سماع، وانما هو قياس نظري وتجويز عقلي. ومنه ذهابه إلى جواز الفصل بين فعل الشرط وأداته بمعموله مثل: «من زيداً يضربْ أضرِبْهُ» والفصل بعطف أو توكيد. ومنع ذلك الفراء لعدم ورود السماع به.[2] وذهابه إلى تجويز تقديم معمول فعل الشرط والجواب على الأداة مثل: «خيْراً إنْ تفعلْ يُثِبْكَ اللهُ». وتجويزه نعت المصدر الواقع مبتدأ سدت الحال مسد خبره مثل: «قراءتي الكتاب الدقيقةُ نافعةً»[3]. وذهابه إلى جواز العطف بالرفع على المفعول الأول لـ «ظن» إذا كان المفعول الثاني جملة فعلية، مثل: «أظن عبدَ اللهِ وزيدٌ قاما» ولم يسند قياسه هذا بأي سماع ولغرابته انكره الفراء وتابع البصريين على منع القياس بلا سماع.[4] وتجويزه في الاختيار تقديم الحال على صاحبها مثل «والشمسُ طالعةً جاء زيدٌ» وهو تعبير لا يصح أن ينطق به عربي ولا يستساغ في الاستعمال، ولا شاهد يسنده ويصحح وجوده. وذهابه هو والفراء إلى جواز

---

(١) تنظر هذه الآراء في مغني اللبيب ١/ ١٤١ و ٢/ ٦٧٣ وهمع الهوامع ٣/ ٢٠٥ و ٢٥٢ و ٤/ ٧١ وشرح المفصل لابن يعيش ١/ ٧٧ و ٢/ ٧٣.

(٢) ينظر همع الهوامع ٤/ ٩٦ و ١٠٦ و ٣٢٦.

(٣) ينظر همع الهوامع ٤/ ٣٢٢ و ٢/ ٥١ وشرح الرضي على الكافية ١/ ١٥٠ و ٢/ ٢٣٦ ومغني اللبيب ٦٤٧.

(٤) ينظر همع الهوامع ٥/ ٢٩٣ وينظر في مثله مما جاء بغير سماع ٢/ ١٦٦.

بناء «كان» و «جعل» للمجهول فيقال: «كِينَ يُقامُ» و«جُعِلَ يُفْعَلُ» بنيابة الخبر عن الاسم مع الفعلين الناقصين «كان» و «جعل» الدَّالَّين على الشروع[1]. وهي أقيسة غريبة مبنية على الافتراض العقلي لما لا يوجد، وهو أعظم خطرًا على النحو واللغة من القياس الشاذ.

٥- لجوؤه إلى التعليل والتأويل في بعض الأقوال والآراء التي افترضها افتراضًا عقليًا ونظريًا وقال بها من غير سماع، دليل ذلك ما رواه القفطي والمبرد من أن الكسائي «اجتاز بحلقة يونس بن حبيب- وكان شَخَصَ مع المهدي اليها- فاستند إلى اسطوانة تقرُب من حلقته، فعرف يونس مكانه فقال: ما تقول في قول الفرزدق:

غداةَ أُحِلَّت لابنِ أَصْرَمَ طعنةٌ حَصِيْنٌ عبيطات السدائفِ والخمرُ

على أيّ شيء رفع «الخَمرُ»؟ فقال الكسائي: لما قال: «غداةَ أُحِلَّت لابنِ أَصرَمَ طعنةٌ حصين عبيطات السدائف» تم الكلام فحمل «الخمر» على المعنى، أراد: «وحلّت الخمرُ» فقال له يونس: «ما أحسن ما قلت، أشهد أن الذينَ رأّسوك رأسوك باستحقاق».[2]

ولم يكتف الكسائي بهذه الآراء المستندة إلى العقل في تفسير الظواهر اللغوية ووضع الأقيسة لها. ولا بما جره هذا اليه من وجوب التعليل والتأويل والتقدير لتوضيح ما قال، وانما قال بآراء افترضها ولا دليل عليها وأدى قوله بها إلى تعقيد الظواهر التي طبقها فيه، وإلى البعد في التأويل والتقدير من ذلك أن سيبويه وجمهور البصريين والكوفيين كانوا يذهبون إلى أن الأسماء الستة معربة بحركات مقدرة في الحروف- وهي الواو والألف والياء- وذهب الاخفش إلى أنها معربة بحركات مقدرة على ما قبل تلك الحروف، وخالف الكسائي الفريقين فذهب إلى أنها معربة من مكانين- بالحروف والحركات التي قبلها معًا، وتابعه في ذلك الفراء غير ملتفتين إلى أن الاعراب إما أن يكون بالحركات كما في المفردات وإما أن يكون بالحروف كما في المثنى والجمع الملحق به، أما قولهما بالعلامتين معًا فلم يقل به قائل، ولا شبيه له في كلام العرب كي يجري مجراه.[3] وأكثر من ذلك تعقيداً في الاعراب وتقديره ذهابه إلى أن لـ «ضمير الفصل» محلاً من الاعراب، وإلى أن محله محل ما بعده

---

(١) ينظر همع الهوامع ١/ ٢٤٢ و ١٦٤ وشرح الرضي على الكافية ١/ ٧٤. وينظر في قياسه على غير مسموع شرح الرضي على الكافية (باب التأكيد) تثنية (اجمع وجمعاء). وباب (حروف النسق) (العطف بـ (لكن) في الايجاب). ومغني اللبيب باب (كذا) (جواز اضافتها إلى المفرد).

(٢) ينظر رغبة الآمل ٤/ ٥٩ وما بعدها وإنباه الرواة ٢/ ٢٦٥.

(٣) ينظر همع الهوامع ١/ ٣٨.

رفعًا في مثل «محمد هو المسافر» و «ان محمداً هو المسافر» ونصبًا في «كان محمد هو المسافر» ولم يختلف الفراء عنه في التقدير لاعراب هذا الضمير إلا أنه خالف الكسائي فقال بأنه تابع لما قبله فمحله الرفع في «كان زيد هو القائم» والنصب في «أن محمّداً هو القائم»، وكان البصريون أوضح منهما رأيًا وأبعد عن التعقيد فيما قالوا، فقد ذهبوا إلى أن ضمير الفصل لا محل له من الاعراب، وذلك لأنه لا دليل على أحد قولَي الكسائي أو الفراء وانما هو مجرد زعم[1].

من هذه الآراء ومن غيرها مما ماثلها ووصل الينا مبثوثًا في كتب النحو المتأخرة تبين لنا أن الكسائيَ قد خالف البصريين في كثير من الأصول، واختلفت تبعًا لها آراؤه عن آرائهم، وغيّر في منهج دراسته للنحو.

(١) ينظر همع الهوامع ١/ ٦٨ وينظر ٢/ ١١٤.

الفراء

حياته:

هو أبو بكر يحيى بن زياد بن عبد الله الديلمي الفراء، فارسي الأصل من أهل الديلم[1]، ولد بالكوفة سنة ١٤٤ هـ وبها نشأ وابتدأ ثقافته بأخذ القراءات عن القراء أمثال أبي بكر بن عياش وسفيان بن عيينة، وسمع الحديث في حلقات مشايخ الحديث ومجالسهم على عادة من ينشأ في الكوفة بلد القراءة والحديث، وكان في مقدمة العلماء الذين تفقهوا في القرآن وقراءاته، وشارك في الاختلاف إلى حلقات الفقهاء ورواة الأشعار والاخبار والأيام، وسمع بأبي جعفر الرؤاسي الذي كان يعلِّم العربية فأكثر من التردد على مجلسه والسماع عليه وذلك ليستطيع التعمق في دراسة القرآن وفهمه ولم يكن ذلك ميسوراً بغير التعلم لعلوم العربية وتوسيع مداركه فيها وفي أساليب التعبير بها ولكنه لم يجد عند الرؤاسي مطلبه فلم يكن يلم إلا بمبادئ العربية شأن المؤدبين في ذلك الزمان الذين كانوا يلمون بمبادئ علوم مختلفة، وكان قد سبقه إلى الأخذ عنه الكسائي ولم يكتف بما عنده فرحل إلى البصرة وحضر مجلس الخليل وشافه الاعراب حتى تمكن من العربية وألم بما أراده من علم اللغة والنحو واكتفى بما وصل اليه من اطلاع على ما عند البصريين من مادة لغوية وأصول منهجية مبنية عليها وقواعد وآراء مستنبطة منها وأقيسة وأحكام موضوعة عليها واستحق بذلك ان ينال رياسة النحو العربي في بلده. إلا أنه لم يكد يستقر فيه بعد عودته من البصرة حتى ارسل اليه الخليفة المهدي للقدوم إلى بغداد حيث لازم الخلفاء واشتغل بتأديبهم ولا سيما الرشيد والأمين. خرج الفراء إلى بغداد عازمًا على لقاء الكسائي ومساءلته في أمور نحوية يحاول بها إعانَتَهُ واحراجه، وكان ذلك بتحريض من الرؤاسي معلمه الذي رأى عليه مخايل النبوغ والتفوق فخشي أن ينافسه في الكوفة فقال له «قد خرج الكسائي إلى بغداد وأنت أميز منه»[2] حاثًا اياه على السفر إلى بغداد لمنافسة الكسائي بعدما حدثت بينهما جفوة بعد سفر الكسائي إلى بغداد وانقطاعه عن شيخه الرؤاسي وبذلك يبقى الرؤاسي في الكوفة معلمها الأول في علوم العربية ولا ينافسه فيها من هم أعلم بها منه، وقد خشي من منافسة الفراء هذه ولا سيما بعد عودته من رحلته إلى البصرة وأخذه

---

(١) تنظر ترجمته في مراتب النحويين ٨٦- ٨٨ وطبقات النحويين واللغويين ١٤٣- ١٤٦، والفهرست ٧٣- ٧٤ ونزهة الالباء ٦٥- ٦٨ ونور القبس ٣٠١، ووفيات الأعيان ٥/ ٢٢٥- ٢٣٠ ومعجم الأدباء ٧/ ٢٧٦- ٢٧٨ وانباه الرواة ٤/ ١- ١٧ وبغية الوعاة ٢/ ٣٣٣.

(٢) نزعهة الالباء ٣٤- ٣٥.

علم النحو عن يونس بن حبيب. دخل الفراء على الكسائي وهو جالس بين أصحابه يومًا فسأله عن مسائل مما أخذه عن الرؤاسي، فأجابه الكسائي بخلاف ما عنده، فغمز الفراء من كان معه، ورأى الكسائي هذا فقال: «مالك قد أنكرت؟ لعلك من أهل الكوفة؟ قال: نعم، فعرف انه انما يسأل عن مسائل أبي جعفر الرؤاسي، فقد سبق الكسائي الفراء إلى العلم بها عندما قرأ عليه وأخذ عنه وأحاط بما عنده قبل رحلته الأولى إلى البصرة فالتفت الكسائي إلى الفراء وقال: الرؤاسي يقول: كذا وكذا، وليس صوابًا، وسمعت العرب تقول: كذا وكذا، حتى أتى على مسائل الرؤاسي جميعًا فخطأها مسألة مسألة.[1] ومع هذا لم يقتنع الفراء بعلم الكسائي وفضله على من رأهم من الكوفيين، فعزم على اعناته بين جَمْعٍ من أصحابه وإفحامه امامهم ليتم له ما قصد اليه، روى الزجاجي عن ثوبة بن دارج انه قال: «سمعت الفراء يقول: كنا بالرقة وكان الناس قد كثروا على الكسائي فشغلوه عنا فعملت له مسائل فيها مُحال وفيها صواب، فأقبل يقول: فيصيب ويغلط لما شغله من الناس، فلما صار إلى منزله كتب إليّ رقعة فأعاد إليّ ما سألته فيها بالصواب كلها وقال: كنت مشغولاً بما كان عندي، وقد ظننت انك أردت ببعض مسائلك أن تتغفلني، وقد قيل:

ولا تبغِ التَّغَفُّلَ إنَّ فيه تفرقَ بين ذاتِ الأصفياءِ

ولا ينبغي لمثلكَ أن يفعل معي ذلك... قال الفراء: فبلَغ منيَ هذا القول كل مبلغ، وكأني قد فجرت من ذلك بحرًا»... قال الزجاجي: وقيل للكسائي أيُ الرجلين أعلم بالنحو الفراء أو الأحمر؟ فقال الأحمر أحفظ، وهذا أعلم بما يخرج من رأسه».[2] كان هذا مبدأ اتصال الفراء بالكسائي وانقطاعه اليه بعد اعجابه برأيه عندما رأى منه ما لم يكن يراه من أبي جعفر الرؤاسي وغيره من علم وخلق ولباقة وفصاحة فلازمه وأخذ عنه كثيراً وصار من أصحابه ثم انتهت اليه رياسة النحو الكوفي من بعده نظراً لما اختصه به من رعاية منذ رآه وتبين فيه الذكاء والنبوغ. رحل الفراء إلى البصرة بعدما سمعه من اخبار النحو البصري وشيوخه، وما رآه من رحيل علماء الكوفة قبله اليها من الذين كتبت لهم الحظوة والجاه في مجالس الخلفاء وحاضرة الخلافة، وجلس في حلقة يونس بن حبيب وشارك فيما كان يخوض فيه الحاضرون من رواية وتحليل للنصوص وخلافات وآراء، ولقي سيبويه في داره إلا أنه لم يأخذ شيئًا عنه مشافهة، وانما كان معظم ما أخذه من آراء ولغة مسموعة كان عن يونس، فقد ظهرت آثار ذلك واضحة في كتابه «معاني القرآن» إذ نقل عنه واستكثر من ذلك وان كان البصريون ينكرون ذلك، والكوفيون يثبتون هذا الأخذ والاطلاع على علم يونس والاستفادة

---

(١) ينظر نزهة الالباء ٣٥ ومعظم المصادر التي ترجمت له.

(٢) مجالس العلماء ٢١١- ٢١٢.

منه.[1] وربما اتصل الفراء بأعراب المربد وشعرائه وخطبائه ودوّن عنهم ما أراد، أو سمع منهم وممن كان يحضر مجلس يونس من اللغويين والرواة والنحاة، ولعله حضر حلقات المعتزلة وعلماء الكلام حيث كان الاعتزال مهوى الشباب والمثقفين والأدباءواللغويين في البصرة، فقد قيل: «انه كان يحب الكلام ويميل إلى الاعتزال»[2]. وقد تكون صلته بالمعتزلة هي التي دفعته إلى تعلم الفلسفة وقراءة كتبها لأنه «كان يتفلسف في تصانيفه، ويسلك الفاظ الفلاسفة»[3]. واطلع الفراء على الثقافات الوافدة على بغداد آنذاك عن طريق الترجمة التي نشطت ولا سيما في زمن المأمون كالنجوم والطب. وعلى أيام العرب واخبارها واشعارها وعلم اللغة والنحو، حيث كان يطوف بحلقات الشيوخ ومجالسهم في بداية حياته العلمية وكان يكتفي بالسماع والحفظ، وإذا مرت به مسألة تهمة طلب من الشيخ ان يعيدها عليه فيحفظها[4]. ومع اطلاع الفراء على مختلف علوم عصره لم يتعمق فيها تعمقه في علم النحو واللغة والصرف وما اليها من علوم العربية هذا التعمق الذي لقي من أجله شيوخ المدرستين في زمانه يونس وسيبويه والكسائي ولقي الأخفش الأوسط في حلقة الكسائي في بغداد واستكمل مسلزماته باطلاعه على كتاب سيبويه وحصوله على نسخة منه اختطها بيده وقابلها على نسخة الكسائي. وانه لما توفي وبيعت كتبه بالمزاد وُجِدَ تحت وسادته واشتراه الجاحظ وأهداه لابن الزيات.[5] ويبدو ان الفراء درس كتاب سيبويه دراسة متعمقة ولازمه حتى في مرضه واستفاد من آرائه النحوية سواء منها ما أخذ به كما هو، وما أخذه وطوّره، وما رده عليه وبنى له رأياً يخالفه فيه. وقد انتج هذا الاطلاع الواسع على علوم اللغة المختلفة ولا سيما النحو وتلك الرحلات المتعددة ما بين الكوفة والبصرة وبغداد التي جعل أكثر مقامه فيها في السنوات الأخيرة، وذلك الدأب المتواصل على التدريس والاملاء والتأليف- ثقافة واسعة أثمرت مؤلفات كثيرة خلفها للأجيال العربية مثل: «كتاب معاني القرآن» و «كتاب البهيّ» و «كتاب اللغات» و «كتاب المصادر في القرآن» و «كتاب الجمع والتثنية في القرآن» و «كتاب الوقف والابتداء» و «كتاب الفاخر» و «كتاب آلة الكاتب» و «كتاب النوادر» و «كتاب المقصور والممدود» و «كتاب المذكر والمؤنث». وألّف في «الحدود» كتاباً قال أبو العباس ثعلب: كان السبب في املائه أن جماعة من أصحاب الكسائي صاروا اليه

---

(١) ينظر مراتب النحويين ٨٦- ٨٧ ومعجم الادباء ٧/ ٢٧٦- ٢٧٨.

(٢) بغية الوعاة ٢/ ٣٣٣ ونور القبس ٣٠١.

(٣) بغية الوعاة ٢/ ٣٣٣ وانباه الرواة ٤/ ٧ وينظر أبو زكريا الفراء ٦٩- ٨٤.

(٤) ينظر وفيات الاعيان ٥/ ٢٢٥ ومعجم الادباء ٧/ ٢٧٦. وانباه الرواة ٤/ ١٣ و ١٤.

(٥) ينظر نزهة الالباء ٣٩ ووفيات الأعيان ٣/ ١٣٣ وانباه الرواة ٤/ ٨.

وسألوه أن يُملّ عليهم أبيات النحو ففعل فلما كان المجلس الثالث قال بعضهم لبعض: ان دام هذا على هذا علَّمَ النحو الصبيان والوجه ان يُقعد عنه، فقعدوا فغضب وقال: سألوني القعود فلما قعدت تأخروا، والله لأُملّنَّ النحو ما اجتمع اثنان، فأملى ذلك في ست عشرة سنة» ولم يُرَ في يده كتاب إلا مرة واحدةً أملى «كتاب ملازم» من نسخته.[1] وقيل ان المأمون طلب منه ان يؤلف له ما يجمع أصول النحو، وما سمع من العرب، وأمر أن يفرد في حجرة من حجر الدار، وكان يملي والوراقون يكتبون حتى صنف «الحدود» في سنتين، وأمر المأمون بِكَتْبِهِ في الخزائن، فبعد أن فرغ من الاملاء خرج إلى الناس وبدأ يمل كتاب «المعاني». وكان وراقَيْهِ سلمةُ بن عاصم وأبو نصر، وروى القفطي أن بعض من حضر إملاء الفراء لكتابه «معاني القرآن» قال: «فأردنا أن نَعُدَّ الناس الذين اجتمعوا الاملاء كتاب المعاني فلم يضبط قال: فعددنا القضاة فكانوا ثمانين قاضياً، فلم يزل يُملُّهُ حتى أتمه.

وله عدا هذه الكتب كتاب: «الايام والليالي والشهور» وكتاب «يافع ويفعة» و «ملازم» قال عنهما ابن الانباري: ومقدار الكتابين خمسون ورقة، ومقدار كتب الفراء ثلاثة آلاف ورقة» وذكر

---

(١) ينظر الفهرست ٧٣– ٧٤ وانباه الرواة ٤/ ٦.

القفطي أن له كتابين في المشكل أحدهما أكبر من الآخر.[1] وهذه الكتب الكثيرة الضخمة تدل على حافظة قوية وذاكرة لا تنسى والمام واسع بلغات العرب وأساليبها.

معاني القرآن:

سماه مؤلفه «تفسير مشكل اعراب القرآن» كما يتضح في اول عبارة افتتح بها الكلام على ما في الكتاب. وهو أشهر كتبه وأضخمها، الفه لعمرو بن بكير وكان من أصحابه وكان منقطعاً إلى الحسن بن سهل وزير المأمون فكتب الى الفراء: أن الامير الحسن بن سهل ربما سألني عن الشيء بعد الشيء من القرآن فلا يحضرني فيه جواب فإن رأيت أن تجمع لي أُصولاً، وتجعل في ذلك كتاباً ارجع اليه فعلت. فقال الفراء لاصحابه: اجتمعوا حتى أُملِّ عليكم كتاباً في القرآن، وجعل لهم يوماً، فلما حضروا خرج اليهم، وكان في المسجد رجل يؤذن ويقرأ بالناس في الصلاة فالتفت اليه الفراء فقال له: اقرأ بفاتحة الكتاب، ففسرها، ثم مر في الكتاب كله يقرأ الرجل ويفسر الفراء «قال فيه ابو العباس ثعلب: لم يعمل احد قبله مثله ولا احسب أن أحداً يزيد عليه».[2] وكانت نسخة سلمة بن عاصم الذي يعد أشهر تلاميذه من كتاب «معاني القرآن» أجود الكتب النُّسَخ لأن سلمة كان عالمًا وكان لا يحضر مجلس الاملاء ويأخذ المجالس ممن يحضر ويتدبرها فيجد فيها السهو فيناظر عليها الفراء فيرجع عنه.[3] أما تاريخ تأليفه فقد جاء في مقدمة الجزء الاول من النسخة المطبوعة- سند رواية الكتاب: «هذا كتاب معاني القرآن املاه علينا أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء- رحمه الله- عن حفظه من غير نسخة، في مجالسه أول النهار من أيام الثلاثاوات والجُمَع في شهر رمضان وما بعده من سنة اثنتين، وفي شهور سنة ثلاث، وشهور من سنة أربع ومائتين».[4] ولكتاب «معاني القرآن» أهمية كبيرة في تاريخ النحو، والكوفي منه بوجه خاص فقد كان هذا من أوائل الكتب التي كانت تُعْنَى بتوضيح المشكلات الواردة في كتاب الله العزيز وقراءاته المتواترة وغيرها، وتبين كثيراً من الأوجه التي تجوز في كل آية من التي يرى أن هناك حاجة إلى بيانها معتمداً في ذلك على ما ورد في كلام العرب من الظواهر الإفرادية والتركيبية، فكأنه كان شرحًا لغويًا نحويًا

---

(١) ينظر إنباه الرواة ٤/ ١٠ و ١١، وابو زكريا الفراء ٢٣٦- ٢٤٩ و ٢٤٩- ٢٦٧ ونزهة الالباء ٦٧. والمقصود: مشكل اعراب القرآن فيما اظن.

(٢) الفهرست لابن النديم ٧٣ وينظر طبقات النحويين واللغويين ١٤٠ وما بعدها.

(٣) إنباه الرواة ٤/ ٤.

(٤) معاني القرآن ١/ ١.

صرفياً إلى جانب عنايته بما يرد في القراءات من موضوعات صوتية كالمد والهمز والوقف والابتداء والامالة والادغام ونحوها.

وله قيمة تاريخية موضوعية، فقد كان من أوائل الكتب التي تدرس القراءات درساً مستفيضاً، فقد حفظ لنا هذه القراءات ونسبتها إلى القارئين بها وهو يشرحها ويحتج لها بكلام العرب ويبين خروج ما خرج منها عن كلام العرب ويعلل كل ذلك، وكان يحوي زيادة على ما فيه من دراسة قرآنية نحوية لغوية صرفية بحوثاً تتعلق بموسيقى الفواصل، وبحوثاً بلاغية كالتشبيه بمعناه البلاغي، وتبينت فيه أسبقية الفراء إلى وضع الأصول قبل ابن السراج.[1] وقد حفل هذا الكتاب بمجموعة كبيرة من المصطلحات النحوية التي وضعها الكسائي، وتابعه الفراء في استعمالها كما وضعها، وأخرى وضعها الفراء مكمِّلاً ما جاء به استاذه من المصطلحات التي صارت علامة مميزة للنحو الكوفي، واستخدمها النحاة الكوفيون ومن تابعهم من نحاة بغداد. كما حفظ لنا آراءه وآراء شيخه التي تمثل آراء الكوفيين.

وتتضح قيمة الكتاب أيضاً في أنه يمثل قمة النضج الفكري للفراء وقمة النضج المنهجي لنحو الكوفيين فقد تبين من تاريخ إملائه وهو سنة ٢٠٤ هـ أنه أملاه قبيل وفاته التي كانت سنة ٢٠٧ هـ. ومعنى هذا انه ألفه بعد بلوغه مرحلة النضج والاكتمال وبعد أن ألّف ما ألّف من كتب في فروع اللغة المختلفة وفي النحو، وبعد أن أملى ما أملى من كتب نحوية ضخمة ملئت كتب الطبقات بأخبارها، وبعد تطوافه في عدد من الامصار الاسلامية وفي عدد من مجالس الدرس المختلفة لغوية كانت أم نحوية أم قرآنية أم حديثية مما ازدحمت به الامصار الاسلامية المشهورة يومذاك كالبصرة والكوفة وبغداد ومكة والمدينة، واتصل في كل هذه الامصار بالشيوخ والتلاميذ والأعراب والرواة وعلماء اللغة والنحو، وسمع وحفظ وناقش وقرأ وألف واملى وشرح، فتبين في هذا الكتاب الفراء في أوج عظمته وقمة نضجه ووصل الينا فيه نحوه ومصطلحاته بعد أن استقرت معظم أصول النحو عنده وبدت فيه آراؤه النحوية والصرفية واللغوية والصوتية في أقصى درجات نضجها وتكاملها، واتضح لنا فيه منهجه النحوي الذي سار عليه في وضع أصول هذا النحو وأقيسته وموقفه من أصول النحويين البصريين، ومن أصول شيخه الكسائي وأحكامهم التي استنبطوها اعتماداً على الأصول والأقيسة التي عمَّمها وأشاعها في كتبه النحوية والصرفية والقرآنية ولا سيما «معاني القرآن»، ورأينا فيه موقفه من النحو البصري وأئمته ممن أخذ عنهم كيونس وسيبويه بوجه خاص، ومن جمهور البصريين في زمانه وقبله بوجه عام، فجاء الكتاب حصيلة هذا كله وزبدته وثمرته التي

---

(١) ينظر أبو زكريا الفراء ١/ ٢٧٧.

عرضها يانعة لتقطفها الأجيال التي تلته. ويمكن أن تعد المرحلة التي ألف فيها الفراء كتابه «معاني القرآن» مرحلة النضج الفكري والنشاط العقلي ويتبين لدارس مادة الكتاب وتنوعها وشمولها مسائل من علوم العربية المختلفة التي عرضها بطريقة سهلة تجتذب القارئ وتدفعه إلى الانصراف اليه عما سواه، باسلوب سهل خال من التعقيد والتقعر في الالفاظ أو تركيب العبارات سواء في تفسير الآيات القرآنية أم في عرض الآراء المبنية عليها أو المخالفة لها، وهذا ما يفسر لنا الاهتمام الكبير الذي لَقِيَه هذا الكتاب من الناس في زمانه وتجمعهم عند املائه وكانوا يمثلون المثقفين على اختلاف ثقافاتهم ففيهم الرواة واللغويون والنحاة والقراء والفقهاء وشمل ذلك حتى القضاة الذين قيل فيهم انه وُجِد منهم عند الاملاء ثمانون قاضياً، ولم يقتصر بهم الأمر على حضور مجالس املائه وتدوينهم اياه وانما تعدى ذلك إلى التسابق في اقتنائه مما دعا الوراقيْنِ اللذين كانا يستنسخانه للناس إلى إخفائه ورفع أجر استنساخه مما اضطر الفراء إلى إعادة إملائه على الناس، فأملى مائة ورقة اضطر بعدها الوراقان إلى تخفيض أُجرة النسخ إلى النصف.[1] وبلغ الأمر بالناس أن يأسفوا على عدم سماعه عند إملائه وتدوينه عن الفراء أو ثعلب ولم يكن ذلك مقصوراً على اللغويين والنحاة وإنما عم المحدِّثين أيضاً، فهذا محمد بن القاسم بن محمد الانباري يقول: «ما أَسِيتُ على شيء كما أسِيتُ على تركي السماع لكتاب المعاني للفراء عن أحمد بن يحيى ثعلب، وإنما كان يقطعني عنه الحديث». وليس أدل على اعتنائهم به واهتمامهم بالنظر فيه حال املائه للتأكد من صحة المعلومات التي كان يمليها الفراء، ومن اتساق العبارات والأفكار فيه مما روي عن سلمة بن عاصم تلميذه الملازم له والذي كان يتعمد التخلف عن مجالس الاملاء، وأخذ ما دُوِّنَ من أوراق من الحاضرين والاختلاء بها لدرسها ومناقشة الفراء فيما ورد فيها من آراء يثبت بعضها ويصحح بعضها الآخر فيثبت سلمة الصحيح بعد ذلك، ولهذا وصفت نسخته بأنها أصح النسخ، وعليها اعتمد ثعلب في شرحه وتدريسه لتلاميذه.[2]

هذا الاعتناء الذي تحدثتْ عنه الروايات وأسهبت فيه ليس عجيباً ولا يدل على مبالغة وإنما أرى صحته وذلك لأن أهل بغداد لم يكونوا قد اطلعوا على كتاب سيبويه الذي ظهر في البصرة وكانت نسخه قليلة لأنه لم يُمَلَّ ليعم الناس- مثقفين وغيرهم- ذكرُه وإنما كان استنساخه مقصوراً على من يرغب فيه ويستطيع أن يستنسخ أو يجد من يقوم له بهذه المهمة وعلى من يعيره نسخة ينسخ منها، ولم يصل إلى بغداد ويطلع عليه الدارسون إلا في زمن متأخر عن سيبويه والكسائي

---

(١) ينظر تاريخ بغداد ١٤/ ١٥٠. وإنباه الرواة ٤/ ١٠.

(٢) ينظر طبقات النحويين واللغويين ١٥٠ وإنباه الرواة ٤/ ٤.

والفـراء أي في أواخـر أيام ثعلب حـيث كـان منافسـه المبرد أول من أدخله في بغـداد واشـاعـه في مـجالس الدرس وعرّف الطلاب به. وبهذا علل انصـراف أكثر الدارسين اليه عن كتب الفراء وتدريس ثعلب حيث وجدوا فيه ضـالتهم ومبتغاهم وعرفوا فضله على هذا الكتاب الذي انما ذا ع واشتهر لكونه أول كتاب يظهر على مسرح الدرس في بغداد، وأثر في انتشاره واشتهاره أيضًا- فيما أرى أمور أخرى كان من بينها اشتهار مؤلفه في بيئة الدرس النحوي ببغداد حيث كان شيخها وممثل النحو فيـها، يقوي هذا الاهتمام أيضًا منزلة الفراء عند الخلفاء والوزراء وتشجيعهم له وتنويههم بذكره، وكان املاؤه في المسجد الذي يؤمه مختلف افراد الشعب البغدادي من المثقفين وغيرهم لأداء هذه الفريضة الاسلامية، مع كثرة الحلقات التي كانت تعقد في المجالس ممن يرغبون في السما ع ولهذا كان الحاضرون عند املائه كثيرين تجمعوا من الحلقات الأخرى لسماعه وتدوينه. هذا مع ان علم النحو كان جديداً على الناس وكان استخدامه في تفسير القرآن منهجًا جديداً، والناس مولعون بكل جديد، ولهذا رويت لنا عنه هذه الروايات الكثيرة وقد كـان للتنافس الذي حـدث بين النحـويَّيْن الكبيـرَيْنِ المبـرد وثعلب أكبـرَ الأثر في ظهـور هذه الروايات التي كـان المروِّجَ لـها طـلابُ الكوفـيين وشيخـهم ثعلب الذي كانت أغلب الأقوال والروايات في تمجيد النحو الكوفي آراءًا وشيوخًا ومؤلفات انما يعـود اليـه وإلى تلميـذه أبي بكر بن الانبـاري من بعده. وليس مـعنى هذا انني أُنكرُ جـودةَ هذا الكتـاب وعظمـتَهُ التي تبـدو أول ما تبـدو فيـه أنه أول كـتاب يصل الينا في مـعـاني القرآن يضـم هذه الآراء الكثيرة في علم النحو وغيره من علوم العربية، ويحفظ لنا آراء الفراء وشيـخه الكسـائي من الكوفيين ومـا يزال هو ومـجالس ثعلب الكتـابين الوحـيدين اللذين نرجع اليـهمـا في مـعرفـة الآراء الكوفية في هذه العلوم. وهو الذي يمثل أصدق تمثيل نحو الفراء وآرائه وآراء شيوخه من بصـريين وكوفيين وما ألمَّ به من قراءات منسوبة إلى أصـحابها، وما ورد فيها من اختلاف لأنه أُلِّف في أواخر حياة مؤلفه وفي مرحلة نضـجه ونضج الدراسـات النحوية، ولأنه يعد قمة نحو الفـراء أوّلاً والنحـو الكوفي أخيـرًا، ولم يتقدم النحـو الكوفي بعده ولم يتطور ومـا كـان عمل ثعلب فيـه إلا الحـفظ والنقل والدعـاية لآراء هذا الشيـخ وأقواله كمـا يتبين من أشـهـر كتبـه النحـوية وهي مـجـالسـه التي لم تكن تحـوي من المادة النحوية الا نُتَفًا من بعض الأبواب ومسـائل عرض الكلام عليها في شـرح شـاهد أو تخريج آية أو ذكر خبر أدبي أو رواية تاريخية، فقد كانت المجالس من الأخبار المشتتةالمنوعة التي لا تمثل اتجاهًا معيَّنًا في علوم العربية، وكما يتضـح مما نقله المؤرخون من أخبار ثعلب ومن الروايات التي تروى عنه وعن حفظه نحو الفراء وتدريسه اياه وإذاعته بين الدارسين في بغداد.

منهجه:

أما منهج الفراء الذي اتبعه في تأليف كتابه هذا فقد اتضح في المادة التي أوْرَدها فيه، وفي طريقة عرضه لها واستنباط الاحكام منها ووضع الأقيسة عليها. أما مادة الكتاب فلم تكن جميع آيات الكتاب العزيز، وإنما كان يضم ما وردت فيه قراءات مختلفة من الآيات وما ورد فيه من مسائل نحوية أو تصريفية أو صوتية أو ما اليها مما أحب أن يوضحه وأن يُنَبِّه عليه، ولهذا فلم يتعرض لجميع آيات القرآن بالشرح أو التفسير واقتصر على ما اهتم به منها. ويضم الكتاب مادة لغوية كثيرة تتمثل فيما احتج به الفراء لتوضيح معنى أو قراءة أو وجه خرَّج عليه آيات الكتاب الحكيم أو احتج بها من نَقَل عنهم آراءهم من النحويين واللغويين، وهي متنوعة وتشمل آيات كتاب الله وقراءاتها التي يحتج ببعضها في تفسير بعضها الآخر مما شابهه أو خالفه أو نَسَخَه أو وَضَّحَه، والأحاديث النبوية الشريفة التي استفاد منها في تفسير آيات الكتاب العزيز وتبيين سبب نزولها وربما لتعيين زمان النزول ومكانه أو لتصحيح قراءة من قراءاته، أو توضيح حكم شرعي أو اجتماعي أو نحوهما مما تدل عليه الآية، وقد يستفيد منها في شرح معنى لغوي أو تفسير كلمة غريبة أو ظاهرة نحوية أو غيرها. مثال ذلك قوله متحدِّثًا عن «الآن» وأصلها في قوله تعالى: «الآنَ وقَد كنتم به تَستَعْجِلون»: «الآن» حرف بني على «الألف واللام» لم تخلع منه، وترك على مذهب الصفة، لأنه صفة في المعنى واللفظ، كما رأيتهم فعلوا في «الذي» و «الذين» فتركوهما على مذهب الأداة و «الألف واللام» لهما غير مفارقتين، ومثله قوله:

وإني حُبِسْتُ اليومَ والأمسِ قبلَهُ ببابِكَ حتى كادَتِ الشمسُ تَغْرُبُ

فأدخل الألف واللام على «أمس» وتركه مخفوضًا على جهته الأولى ومثله... ... وإن شئت جعلت «الآن» أصلها من قولك: «آنَ لك أن تفعل كذا» أدخلت عليها «الألف واللام»، ثم تركتها على مذهب «فَعَلَ» فأتاها النصب من نصب «فَعَلَ» وهو وجه «الألف واللام»، كما قالوا: «نهى رسول الله (ﷺ) عن قِيلَ وقالَ وكثرةِ السؤال» فكانتا كالاسمين فهما منصوبتان، ولو خفضتا على أنهما أخرجتا من شبه الفعل كان صوابًا، سمعت العرب تقول: «من شبَّ إلى دبَّ» - بالفتح - و «من شبٍّ إلى دبٍّ» يقول: مُذْ كان صغيرًا إلى أن دَبَّ».

فقد احتج هنا بالحديث وبعبارة سمعها من العرب الذين احتج بكلامهم على تفسير أصل «الآن» في الآية الكريمة. ومثله قوله محتجًا بالحديث أيضًا لكن في تخريج قراءة مختلف فيها، وذلك في أثناء كلامه على قوله تعالى: «قل بفضل الله وبرحمته، فبذلك فليفرحوا»: هذه قراءة العامة، وقد ذكر عن زيد بن ثابت أنه قرأ «فبذلك فلتفرحوا» أي: يا أصحاب محمد - بالتاء -... وكان الكسائي يعيب قولهم «فلتفرحوا» لأنه وجده قليلاً فجعله عيبًا وهو الأصل. ولقد سمعت عن النبي (ﷺ) انه قال

في بعض المشاهد: «لِتَأْخُذُوا مصافَّكم» يريد به: خُذُوا مصافَّكم»[1]، فاحتج بالحديث هنا على اثبات قراءة لزيد بن ثابت ودفاعه عنها ضد الكسائي الذي عدها عيبًا، وفيه دليل على تخطئة الكسائي للقراء، وقبول الفراء القراءة مدعمة بالحديث. وامثال هذا الاحتجاج كثير. والشعر العربي الذي كثر فيه ووقع الاحتجاج به في الغالب على ظواهر نحوية وردت في آيات الكتاب العزيز مثال ذلك ما جاء في قوله: «وقوله: «كيف وان يظهروا عليكم..» اكتفى بـ «كيف» ولا فعل معها، لأن المعنى فيها قد تقدم في قوله: «كيف يكون للمشركين عهد؟» وإذا أعيد الحرف وقد مضى معناه استجازوا حذف الفعل كما قال الشاعر:

وخَبَّرْتُماني أنَّما الموتُ في القُرى فكيفَ وهذِي هضبةٌ وكَثِيبُ؟

وقال الحطيئة:

فكيف ولم أعلَمْهُمُ خَذَلوكُمُ على مُعْظَمٍ ولا أُدِيمُكُم قدرا؟

وقال آخر:

فهل إلى عيش يا نصاب وهل؟

فأفرد الثانية لأنه يريد بها مثل الأولى»[2].

وقوله متحدثًا عن محل فعل الشرط بعد «إن» الشرطية وحكمه إن فصل بين الأداة وفعل الشرط بمعموله عند كلامه على قوله تعالى: «وإن أحدٌ من المشركين استجارَكَ»: «في موضع جزم وان فرق بين الجازم والمجزوم بـ «أحد» وذلك سهل في «إن» خاصة دون حروف الجزاء لأنها شرط وليست باسم... فلم يحفلوا أن يفرقوا بينها وبين المجزوم بالمرفوع والمنصوب، فأما المنصوب فمثل قولك: «إن أخاك ضربت ظلمت»، والمرفوع مثل قوله «إن امْرُؤٌ هلك ليس له ولدٌ»[3] ولو حولت: «هلَك» إلى «إن يَهْلِك» لجزمته، وقال الشاعر:

فإنْ أنتَ تفعلْ فللفاعلين أنت المجيزين تلك الغمارا

ومن فرّق بين الجزاء وما جزم بمرفوع أو منصوب لم يفرّق بين جواب الجزاء وبين ما ينصب بتقدمة المنصوب أو المرفوع، تقول: إن عبدَ الله يَقُمْ يَقُمْ ابوه» ولا يجوز «ابوه يَقُمْ»، ولا أن تجعل مكان «الأب» منصوبًا بجواب الجزاء، فخطأ أن تقول «إن تأتني زيدًا تضربْ»، وكان الكسائي يجيز

---

(١) معاني القرآن ١/ ٤٦٧- ٤٦٨ و ٤٦٩- ٤٧٠ ويونس ٥٨ والصفة: الظرف.

(٢) سورة براءة ٨ و ٧ ومعاني القرآن ١/ ٤٢٤- ٤٢٥.

(٣) سورة براءة ٦ والنساء ١٧٦ ومعاني القرآن ١/ ٤٢٢ و ٤٢٣ (يقول: ان تفعل هذه المكارم فأنت منسوب للفاعلين الأجواد، والغمار: جمع الغمرة، الهمزة وهي الشدة). ينظر هـ ٢ من ٢/ ٤٢٢ من معاني القرآن.

تقدمة النصب في جواب الجزاء. ولا يجوز تقدمة المرفوع... لأن الجزاء له جواب بالفاء فان لم يستقبل بالفاء استقبل بجزم مثله ولم يُلَقَّ باسمٍ، الا ان يُضمَر في ذلك الاسم «الفاء» فاذا اضمرت «الفاء» ارتفع الجواب في منصوب الأسماء ومرفوعها لا غير، واحتج بقول الشاعر:

وللخيلِ أيامٌ فمَنْ يصطبِرْ لها ... ويعرفْ لها أيّامَها الخيرَ تَعْقُبِ

فجعل «الخير» منصوبًا بـ «تعقب» و «الخير» في هذا الموضع نعت للأيام، كأنه قال: ويعرف لها أيامها الصالحة تعقب، ولو أراد أن يجعل «الخير» منصوباً بـ: «تعقب» لرفع «تعقب» لأنه يريد: «فالخير تعقبه». [1] وهكذا يكثر الفراء من الاحتجاج بالشعر على القضايا النحوية الواردة في آيات الكتاب العزيز وغير الواردة فيه مما يستدعيه الكلام على الحكم النحوي في الآية وتكملة الأوجه الجائزة فيه.

هذه شواهد معاني القرآن، مع شرحها وعرض الآراء النحوية من خلالها وتبيين آراء الشيوخ الذين لهم آراء فيها موافقة لها فيثبتها أو مخالفة فيرد عليها ويفندها ويذكر الصحيح فيها كما فعل مع الكسائي في تخطئته في الحكم النحوي الذي قال به ولم يرد في شاهد مسموع. وفي رده عليه جعله الوارد في قراءة قرآنية عيبًا لأنه قليل، وثبت ذلك بما جاء في الحديث.

أما طريقته في عرض المادة اللغوية على اختلاف انواعها واستنباط الأحكام منها ووضع الأقيسة عليها والاحتجاج لها فقد كان يتتبع الآيات أو قراءاتها التي فيها أمور يريد التعرض لها بالشرح والتفسير، أو بتبيين ما فيها من أمور مشكلة، نحوية كانت أم لغوية أم صرفية وقد تكون صوتية أو بلاغية أو عروضية، موضّحًا كل ذلك بالشرح والبسط مستعينًا بما ورد عن العرب من شواهد شعرية أو نثرية وبما ورد عن الرسول (ﷺ) موضحة مفسرة أو مبينة لحكم نحوي أو ظاهرة صرفية محتجًا بأقوال شيوخه وغيرهم من النحاة عليها ان كانت تؤيدها، رادًا عليهم فيها ان كان يرى الصواب في غيرها، وكثيرًا ما تكون الآيات القرآنية وقراءاتها شواهد لاثبات حكم أو ظاهرة واردة في غيرها مما يتحدث عنه أو في شعر أو غيره مما وقع فيه التعبير على أوجه جائزة واردة متسخدمًا في ذلك كله ما اعتمد عليه من أصول كاثبات سماع أو وجه من القياس، أو تعليل لحكم أو تأويل لوجه مخالف للقياس: مثال ذلك قوله شارحًا «البسملة» في أول سورة «الفاتحة:» فأول ذلك اجتماع القراء وكتاب المصاحف على حذف «الألف» من «بسم الله الرحمن الرحيم»[2] وفي

---

(١) معاني القرآن ١/ ٤٢٢- ٤٢٣.

(٢) الفاتحة ١.

فواتح الكتب، واثباتهم «الألف» في قوله: «فسبح باسم ربك العظيم»[1] فهو هنا يثبت موضعًا واحداً تحذف فيه «ألف» «اسم» من قوله تعالى: «بسم» في أول البسملة، وفي ابتداء كل قول أو فعل، واثباتها فيما عدا ذلك. ويأتي بعد ذلك بتعليل لهذا الحذف واختصاصه بهذا الموضع فيقول: «وانما حذفوها من «بسم الله الرحمن الرحيم» أول السور والكتب، لأنها وقعت في موضع معروف لا يجهل القارئ معناه ولا يحتاج إلى قراءته، فاستُخِفَّ طرحُها لأن من شأن العرب الايجاز وتقليل الكثير إذا عرف معناه، واثبتت في قوله: «سبح باسم ربك» لأنها لا تلزم هذا الاسم ولا تكثر معه ككثرتها مع «الله» تبارك وتعالى. ويستدل على أن هذا الحذف انما وقع لكثرة الاستعمال بقوله: «الا ترى انك تقول: «بسم الله» عند ابتداء كل فعل تأخذ فيه من مأكل أو مشرب أو ذبيحة فخف عليهم الحذف لمعرفتهم به» ويحتج لهذه العلة التي علل بها حذف الحرف الواحد وهو «الألف» من «بسم» بشواهد وقع فيها حذف حرفين من الكلمة نفسها للعلة المذكورة فيقول: «وقد رأيت بعض الكتاب تدعوه معرفته بهذا الموضع إلى أن يحذف «الألف والسين» من «اسم» لمعرفته بذلك، ولعلمه بأن القارئ لا يحتاج إلى علم ذلك» ثم يضع حكمًا إلزاميًا لظاهرة أخذ بها استنتاجًا مما عرض من مواقع وأدلة من آيات الله البينات وكلام العرب فيجعله قياسًا مطَّرِداً في ذلك فيقول: «فلا تحذفن «الف»: «اسم» إذا اضفته لغير «الله» تبارك وتعالى، ولا تحذفنها مع غير «الباء» من الصفات وان كانت تلك الصفة حرفًا واحداً مثل «اللام» و «الكاف» فتقول: «لاسم ربك حلاوة في القلوب» و «ليس اسم كاسم الله» فتثبت «الألف» في «اللام» وفي «الكاف»، لأنهما لم يستعملا كما استعملت «الباء» في «اسم الله». وهو في تقريره لهذا الحكم إنما يقيسه على ما سمعه عن العرب من حذفهم أكثر من حرف في عبارات كثر استعمالها عندهم، تخفيفًا مع أن أصلها أكثر من كلمة– وهو ما يسمى في الاصطلاح اللغوي «النحت» ولذلك يقول: «ومما كثر في كلام العرب فحذفوا منه أكثر من ذا قولهم: «أيشٍ عندك؟» فحذفوا اعراب «أيّ» وإحدى ياءيه، وحذفت «الهمزة» من «شيء» وكسرت «الشين» وكانت مفتوحة في كثير من الكلام لا أحصيه». فهو في هذا الموضع يقيس على كلمة واحدة واردة عن العرب، مع أن هناك غيرها شبيهًا بها في الحكم دل على ذلك قوله: «في كثير من الكلام لا أحصيه» ومعنى هذا انه يرى مبدأ القياس على الكثير هو الأصل والصحيح، ويستخدم في هذا الاحتجاج بالدليل المبطل لدعوى الخصم– كما يسميه الفقهاء فيقول: «فان قال قائل: انما حذفنا الألف من «بسم الله» لأن «الباء» لا يسكت عليها فيجوز ابتداء الاسم

(١) الحاقة ٥٢، والواقعة ٧٤.

بعدها، قيل له: فقد كتبت العرب في المصاحف «واضرب لهم مَثَلاً»[1] بالألف، و «الواو» لا يسكت عليها، في كثير من اشباهه، فهذا يُبْطِل ما ادعى»[2].

بهذه الصورة تحدث الفراء عن ظاهرة واحدة وقعت في «البسملة» ولفتت انتباهه فتتبعها في كل ما اشبه «بسم» في كلام العرب- أقوالهم وأفعالهم وكتاباتهم وعلى اختلاف مواضع هذه الكلمة، في بداية العبارة أو في وسطها، وفي كلمة «اسم» وفي غيرها، وفي مجيئه بـ «الباء» و بغيرها مثل «اللام» و «الكاف» وتوصل من كل هذا التتبع وهذه المقارنة والقياس على الشبيه والمخالف إلى ما عرضه لنا في أول صفحات كتابه الضخم، ولما كانت الأمثلة كثيرة، فالكتاب مملوء بصور شتى تقارب هذه في العرض والاستدلال والاستنباط والقياس والاحتجاج لكل ذلك. وقد تختلف الصورة نوعًا مِّن الاختلاف النابع من اختلاف الموضوع أو اختلاف الشواهد، نكتفي منها بعرض صورة أخرى من كتابه للكلام على آية وقع الاختلاف في قراءتها، لنبين كيف يميز بين هذه القراءات، وكيف يعالج هذا النوع من الموضوعات، وذلك بما وقع في كلمة «الحمد» من قوله تعالى «الحمد لله رب العالمين»[3]. قال: «اجتمع القراء على رفع «الحمد»، وأما أهل البدو فمنهم من يقول: «الحمدَ لله» ومنهم من يقول «الحمدِ لِله» ومنهم من يقول: «الحمدُ لُله» فيرفع «الدال واللام». ونلاحظ هنا أن الفراء قد أثبت هذه القراءات مع أنها ليست من قراءة القراء المعروفين أو غيرهم وانما هي قراءات «أهل البدو» التي يفهم من تسميته اياها بهذا الاسم أنها ليست من القراءات المنقولة عن النبي (ﷺ) أو عن الصحابة ومع ذلك يخرجها ويحتج لكل من القراءَتين فيها بما جاء في كلام العرب فيقول: «فأمّا من نصب فانه يقول: «الحمد» ليس باسم انما هو «مصدر» يجوز لقائله أن يقول: «احمد الله»، فإذا صلح مكان المصدر «فَعَلَ» أو يَفْعَلُ» جاز فيه النصب، من ذلك قول الله تبارك وتعالى: «فإذا لَقيتُمُ الذينَ كَفَروا فضَرْبَ الرِّقاب»[4] يصلح مكانها في مثله من كلام أن يقول: فاضربوا الرقاب». ومن ذلك قوله: «معاذَ اللهِ أن نأخذَ إلا مَن وَجدْنا مَتاعَنا عنده».[5] يصلح أن تقول في مثله من الكلام: «نعوذ بالله» ومنه قول العرب: «سقيا لك» و «رعيا لك» يجوز مكانه: «سقاك الله» و «رعاك الله» واما خفض «الدال» من «الحمد» فانه قال: هذه كلمة كثرت على ألسنة

---

(١) الكهف ٣٢، وسورة يس ١٣.

(٢) معاني القرآن ١/ ١- ٢.

(٣) الفاتحة ٢.

(٤) سورة محمد ٤.

(٥) سورة يوسف ٧٩.

العرب حتى صارت كالاسم الواحد فثقل عليهم أن يجتمع في اسم واحد من كلامهم ضمة بعدها كسرة، أو كسرة بعدها ضمة، ووجدوا الكسرتين قد تجتمعان في الاسم الواحد مثل «إِبِل» فكسروا «الدال» ليكون على المثال الذي من أسمائهم. وأما الذين رفعوا «اللام» فانهم أرادوا المثال الأكثر من أسماء العرب الذي يجتمع فيه الضمتان مثل: «الحُلُم» و «العُقُب». ثم يستخدم الاحتجاج والاستدلال كما استخدمهما في المثال السابق فيقول: «ولا تُنكِرَنَّ أن يجعل الكلمتان كالواحدة إذا كثر بهما الكلام، ومن ذلك قول العرب: «بِأَبَا» إنما هو «بأبي»، «الياء» من المتكلم ليست من «الأب» فلما كثر بهما الكلام توهموا أنهما حرف واحد فصيروها «أَلِفًا» ليكون على مثال: «حُبْلَى» و «سَكْرَى» وما أشبهه من كلام العرب» ويحتج على هذا بشاهد واحد مسموع أنشده أبو ثروان فيقول: أنشدني أبو ثروان:

قال الجوارِي: ما ذهبتَ مَذْهَبا وعِبْنَنِي، ولـم أكُـنْ مُعَيَّبـا
هـل أنـتَ الا ذاهـبٌ لِتَلْعَبـا أرَيْتَ ان أعطِيت نَهدا كَعْثَبا
... فقلتُ: لا، بل ذاكُما يـا بِيَبَا أجـدَرُ ألا تَفْضَحـا وتَحْرَبـا

«هل أنت إلا ذاهب لتلعبا» ذهب بـ «هل» إلى معنى «ما»[1]. وقد يكون المختلف في قراءته مرجعه إلى اختلاف اللغات فيه، لا إلى اختلاف الحكم النحوي فيه، ومع هذا ينبه عليه كما ورد في كلامه على «عليهُم» من قوله تعالى: «غير المغضوب عليهم»[2] حيث قال: «عليهُم» و «عليهِم» وهما لغتان، لكل لغة مذهب في العربية. فأما من رفع «الهاء» فانه يقول أصلَها رفع في نصبها وخفضها ورفعها... وأما من قال «عليهِم» فإنه استثقل الضمة في «الهاء» وقبلها «ياء» ساكنة... ومثله مما قالوا فيه بالوجهين إذا وليته «ياء» ساكنة أو كسرة قوله: «وإنّه في إِمِّ الكتابِ» و «حتى يبعثَ في إِمِّها رسولاً»[3] يجوز رفع «الألف» من: «إمّ» و «أمّها» وكسرها في الحرفين جميعًا لمكان «الياء»[4]، وهكذا يسير الفراء على هذه الطريقة وعلى ما هو قريب منها في كتابه هذا.

وقد اتضح لنا من هذه الأمثلة التي عرضناها أمور كثيرة منها:

١- انه يتعرض للقراءات بالشرح والتوجيه والاستدلال سواء أكانت متواترة عن النبي (ﷺ)، أم

---

(١) معاني القرآن ١/ ٣- ٤. والنهد: الناتيء والمرتفع، والكعثب: الركب الضخم الممتلئ، و «يابيبا» أصلها: «يابأبي».

(٢) الفاتحة ٧.

(٣) الزخرف ٤. والقصص ٥٩ والهمزة فيهما مضمومة في المصحف.

(٤) معاني القرآن ١/ ٥ وما بعدها.

كانت قراءة قوم من أهل البدو أم كانت لغة واردة ومقيسة في غير الموضع المحتج له.

٢- انه يستخدم التَّعليل للظواهر الواردة في الآية من حذف واقع لغير علّة نحوية كالجزم مَثَلاً، ولا تصريفية، ومن اتباع حرف في حركته لحركة حرف آخر متقدم عليه أو متأخر عنه.

٣- انه يقيس على المثال الواحد الوارد عن العرب كما في قياسه على أبيات رواها أبو ثروان.

٤- انه يستدل بأمثلة واردة عن العرب لاثبات علة علَّلَ بها الحكم الوارد فيما يتحدث عنه أو في نقيضه كما في استدلاله بترك الحذف في «واضرب» على إثبات أن حذف «الألف» من «بسم» ليس لكون «الباء» مما لا يحسن السكوت عليه.

٥- انه يجيز الاستدلال بالقليل الوارد عن العرب ويجعله أصلاً في القياس وذلك كسر «الدال» من «الحمد لله» وهو مسموع قليل إلا أنه ثابت وصحيح.

٦- انه يستعمل اسلوب الاحتجاج الفقهي في عرضه لآرائه بأن يثبت حكمًا، ويرد عليه بحجة مناقضة يثبتها وينقض بها الحكم الأول، ويثبت به حُكمًا آخر مُقَوِيًا للحكم الأصلي.

٧- انه يستعمل اسلوب التفصيل بعد الاجمال، حيث يعدد الأوجه أوَّلاً أو الأحكام مجملة ثم يأخذ في تفصيلها والكلام عليها الواحد بعد الآخر.

٨- انه يهتم بوضع أحكام عامة وأقيسة مطردة ينبه عليها القارئ أو السامع مستنبطة من الموضع أو من غيره من كلام العرب، الذي قد يكون في شواهد كثيرة مطردة فصيحة، وقد يكون في شاهد واحد فصيح.

واتضحت في هذه النصوص الشواهد التي يعتمد عليها وهي آيات أخرى من الكتاب العزيز، وقراءات متعددة لبعض الآيات، وأبيات من الشعر العربي الفصيح وأمثلة مسموعة من كلام العرب كثرت هذه الشواهد الشعرية واطردت أم جاءت في مثال شاذ، إلا أنه فصيح ومأخوذ به.

وأخيرًا تبينت في هذه النصوص بعض المصطلحات التي استخدمها الكسائي وبعض ما زاده الفراء، وهي: «الصفات» وهي «حروف الجر»، و «الخفض» وهو: «الجر». واتضح من النصوص التي قبلها مصطلحات أخرى هي «الصفة» أي: «الظروف» و «الاداة» ومعناها عند الكوفيين في الأصل ما يقابل «الحرف» النحوي: أي: حرف المعنى عاملاً كان أم غير عامل. إلا أن الفراء استخدم «الأداة» بمعنى الاسماء المبنية كـ «الاسم الموصول و «اسم الاستفهام» «وأدخل حرف الاستفهام «هل» فيها على أصل معنى «الأداة» المقابل لـ «الحرف البصري» واستخدم «الجزاء» أي موضوع «الشرط» عامة أو «جواب الشرط» خاصة و «النعت» أي: «الصفة» وغير هذه كثير من المصطلحات التي لا نطيل الكلام عليها. وقد تكلمنا في عرض آراء الكوفيين ومنهجهم النحوي وفي ترجمة الكسائي على مصطلحات الكوفيين واستشهدنا بنصوص من كتاب الفراء «معاني القرآن» على

تفسيره مصطلح «الصرف» و «الخلاف» و «التقريب» و «العماد» و «النسق» وغيرها. واتضحت في معاني القرآن أمور وقف منها الفراء أكثر من موقف، من ذلك انه كان يعتمد رسم المصحف في تخريج القراءات أو في تحديد موقفه منها: من ذلك احتجاجه به في الكلام على قراءة حمزة بالهمز في قوله تعالى: «وَسْئَلِ القرية التي كُنّا فيها» وقوله: «فَسْئَل الذين يقرأون الكتاب»[1] وردُّهُ لهذه القراءة. قال في شرحه قوله تعالى: «سَلْ بني اسرائيل»[2]: «ولا تهمز في شيء من القرآن، لأنها لو همزت كانت: «اسأل» بـ «الف» وانما ترك همزها في الأمر خاصة لأنها كثيرة الدور في الكلام، فلذلك ترك همزه كما قالوا: «كل» و «خذ» فلم يهمزوا في الأمر خاصة، وهمزوه في النهي وما سواه، وقد تهمزه العرب فأما في القرآن فقد جاء بترك الهمز، وكان حمزة يهمز.الأمر إذا كانت فيه «الفاء» أو «الواو» مثل قوله: «وسئل» القرية التي كنا فيها» ومثل قوله: «فسئل الذين يقرأون الكتاب». ولست اشتهي ذلك، لأنها لو كانت مهموزة لكتبت فيها «الألف» كما كتبوها في قوله: «فاضرب لهم طريقًا» و «اضرب لهم مَثَلاً».[3] «بالألف»[4]. وهذا الرد مبني على رسم المصحف بلا ألف فهي ضعيفة ومردودة من أجل ذلك. ومع هذا فهو يخالف رسم المصحف في بعض الأحيان في القراءة التي يصححها ولا يعتد به، ويعلل ذلك باستناده إلى صنيع العرب في كتابة بعض الكلمات كتابة تخالف النطق، قال: «.. وقد قرأت القراء: «مَنْ يُضْلِلِ اللّهُ فلا هاديَ له ويَذَرهُم» رفع وجزم، وكذلك: «إن تبدوا الصدقاتِ فَنِعِمّا هي وإن تُخْفُوها وتؤتُوها الفقراءَ فهو خيرُ لكم ويُكَفّر»[5] جزم ورفع، ولو نصبت على ما تنصب عليه عطوف الجزاء إذا استغني لأصَبْتَ، كما قال الشاعر:

فإن يَهْلِكِ النعمانُ تُعْرَ مَطِيَّةٌ وتُخْبَأ في جوفِ العِيابِ قُطوعُها

وان جزمت عطفًا بعدما نصبت ترده على الأول كان صوابًا كما قال بعد هذا البيت:

وتَنْحطْ حَصانٌ آخِرَ الليلِ نَحْطَةً تَقَصَّمُ منها- أو تَكادُ- ضُلُوعُها

وهو كثير في الشعر والكلام، وأكثر ما يكون النصب في العطوف إذا لم تكن في جواب الجزاء «الفاء»، فإذا كانت «الفاء» فهو الرفع والجزم. وإذا أجبت الاستفهام بـ «الفاء» فنصبت

---

(١) يوسف ٨٢ ويونس ٩٤.

(٢) سورة البقرة ٢١١.

(٣) سورة طه ٧٧ وسورة يس ١٣.

(٤) معاني القرآن ١/ ١٢٤- ١٢٥ وينظر في موقفه من رسم المصحف ١/ ١٢٥ و ١/ ٤٣ وأبو زكريا الفراء ٢٩٤.

(٥) الأعراف ١٨٦ والبقرة ٢٧١.

فانصب العطوف، وان جزمتها فصواب. من ذلك قوله في المنافقين: «لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصَّدَق وَأكُنْ»[1] رددت «وأكُنْ» على موضع «الفاء» لأنها في محل جزم إذ كان الفعل إذا وقع موقعها بغير «الفاء» جزم. والنصب على أن ترده على ما بعدها، فتقول: «وأكون» وهي في قراءة عبدالله بن مسعود: «وأكون» بالواو، وقد قرأ بها بعض القراء، قال: وأرى ذلك صوابًا لأن «الواو» ربما حذفت من الكتاب وهي تراد لكثرة ما تنقص وتزاد في الكلام، ألا ترى أنهم يكتبون: «الرحمن» و «سليمن» بطرح «الألف» والقراءة باثباتها؟ فلهذا جازت. وأيد ذلك بآيات كثيرة كتبت بحذف في أحرفها ولكن القراءة فيها على نية اثباتها، فقال: بعد ذلك: «وقد اسقطت» الواو من قوله: «سندعُ الزبانية» ومن قوله: «ويدعُ الانسان بالشر»[2] الآية، والقراءة على نية اثبات «الواو».

وأسقطوا من «الأيكة» الفين فكتبوها في موضع: «لَيْكَة»[3] وهي في موضع آخر «الأيكَة»[4]، والقراء على التمام. فهذا شاهد على جواز: «وأكون من الصالحين»[5].

(٩) انه يستخدم القراءة في اثبات ما يجوز في العربية من أساليب وظواهر يجوز فيها استخدام بعض الأدوات نائبة عن بعض من ذلك قوله في: «وما أمروا الا ليعبدوا الله»: «العرب تجعل «اللام» في موضع «أن» في «الأمر» و«الارادة» كثيراً، من ذلك قول الله تبارك وتعالى: «يريدُ اللّه لِيُبيّنَ لكم» و «يريدون لِيُطْفئوا»[6] وقال في الأمر في غير موضع من التنزيل «وأمرنا لِنُسْلِمَ لِرَبّ العالمين»[7]. وهي في قراءة عبدالله: «وما أمروا إلا أن يَعبُدُوا اللّهَ مخلصين»[8]. ومنه قوله متحدثًا عن آية أخرى: «وفي قراءة عبدالله: «ذلك الدين القيمة» وفي قراءتنا: «وذلك دين القيمة»[9]». ويستخدم القراءات في موضع آخر ليرد بها على اعراب لا يعجبه من ذلك قوله في: «نذيراً للبشر»[10]. «كان بعض النحويين يقول: «ان نصبت قوله «نذيراً» من أول السورة: «يا محمد قم نذيراً للبشر»، وليس

---

(١) المنافقون ١٠.

(٢) القلم ١٨ والاسراء ١١.

(٣) كما في الشعراء ١٧٦ وسورة ص ١٣.

(٤) كما في الحجر ٨٧ وسورة ق ١٤.

(٥) معاني القرآن ١/ ٨٦- ٨٨.

(٦) النساء ٢٦ والصف ٨.

(٧) الأنعام ٧١.

(٨) معاني القرآن ٣/ ٢٨٢.

(٩) البينة ٥ ومعاني القرآن ٣/ ٢٨٢.

(١٠) المدثر ٣٦.

ذلك بشيء والله أعلم، لأن الكلام قد حدث بينهما شيء منه كثير، ورفعه في قراءة أبَيّ ينفي هذا المعنى، ونصبه من قوله: «إنها لأحدى الكبر، نذيرًا»[1] تقطعه من المعرفة، لأن «احدى الكبر» معرفة فقطعته منه. ويكون نصبه على أن تجعل «النذير»: «انذارًا» من قوله: «لا تبقي ولا تذَر، لواحة»[2] تخبر بهذا عن جهنم انذارًا للبشر و «النذير» قد يكون بمعنى «الانذار» قال الله تبارك وتعالى: «كيف نذيري؟» و «فكيف كان نكير؟» يريد: «انذاري» و «انكاري»[3]. ومنها انه كان يكثر من الاحتجاج بالقراءات كثرة غريبة بحيث لا تكاد تخلو صفحة من صفحات الكتاب- إلا ما ندر- من قراءة يأتي بها بوجه من الوجوه، وهي لكثرتها لا تحتاج إلى التمثيل عليها بعدما ذكرنا[4].

ومما اهتم به في كتابه هذا ما سماه «موسيقى الفواصل» فقد تحدث عنها في أكثر من موضع من ذلك حمله القرآن عليها وتخريجُه الحذف الوارد في الآية بأنه انما كان بسببها كما ورد في الآية: «لكم دينُكُم ولِيَ دين»[5] قال: «ثم قال: «لكم دينُكم»- الكفر- و «لي دِيْن» الاسلام، ولم يقل: «ديني» لأن الآيات بالنون فحذفت «الياء» كما قال: «فَهو يَهْدِين، والذي هو يُطعِمُني ويَسْقِيْن».[6] ففضل قراءة حذف «الياء» على القراءة باثباتها وذلك لأن مراعاة رؤوس الآيات وموسيقاها لازمة، وحذف ياء المتكلم لا يصح إلا في رؤوس الآيات. وقد يخرج استخدام القرآن كلمات في الآية بدل أخرى أفضل منها وأكثر استعمالاً بأنه انما جاء لأجل موسيقى الفواصل، قال في قوله تعالى: «والله أعلم بما يُوعُون»[7] : «وقوله عز وجل: «بما يوعون»: «الايعاء» ما يجمعون في صدورهم من التكذيب والاثم، و «الوعي» لو قيل: «والله أعلم بما يَعُوْن» لكان صوابًا، ولكنه لا يستقيم في

---

(١) المدثر ٣٦.

(٢) المدثر ٢٨ و ٢٩.

(٣) الملك و ١٧ ومعاني القرآن ٣/ ٢٠٥.

(٤) ينظر في المواضع التي استفاد من القراءات في آرائه النحوية معاني القرآن ٣/ ٢١٤ و ١٢٠ و ٢٦٠ و ٢٤٢- ٢٤٣ و ٢٥٤- ٢٥٥.

(٥) الكافرون ٦.

(٦) الشعراء ٧٨ و ٧٩. ومعاني القرآن ٣/ ٢٩٧.

(٧) الانشقاق ٢٣.

القراءة»[1]. وقد تكون الفواصل سببًا في استخدام بناء معين معدولاً عن أصله الذي يتم به المعنى وذلك كاستخدام بناء «فاعل» لمعنى اسم المفعول وهو شائع وقد عدل به عن «مفعول» لأجل الفاصلة وموسيقاها. قال في قوله تعالى: «من ماء دافق»[2]: «وقوله عز وجل: «من ماء دافق» أهل الحجاز أفعل لهذا من غيرهم أن يجعلوا «المفعول» «فاعلاً» إذا كان في مذهب نعت كقول العرب: «هذا سرٌّ كاتمٌ» و «همٌّ ناصبٌ» و «ليلٌ نائمٌ» و «عيشةٍ راضيةٍ».[3] وأعان على ذلك أنها توافق رؤوس الآيات التي هن معهن»[4]. وهذا قياس على ما كثر في كلام العرب ومع هذا فليس هو بالاصل وانما عدل به عنه لأجل الفواصل. وقد يفاضل بين القراءات ويرى أن التي تناسب الموسيقى الصوتية لرؤوس الآيات هي الأفضل جاء ذلك في كلامه على قوله تعالى: «كل يوم هو في شان»- بغير همز- ورجحها على قراءة «شأن» بالهمز «في سورة «الرحمن» لأن معه آيات غير مهموزات»[5].

أسلوبه:

أما أسلوب «معاني القرآن» فقد اتضح لنا من النصوص المتقدمة وتبين أنه أسلوب واضح سهل بعيد عن الغموض في أغلب مواضعه، وقد تكون عباراته متداخلة ويميل إلى التعقيد إلا أنه مع ذلك مفهوم، وذلك في مثل قوله متحدثًا عن «أم» في قوله تعالى: «أَمْ تُرِيدون أن تسألوا رسولَكُم»:[6]: «أم» في المعنى تكون ردًا على الاستفهام من جهتين: احداهما أن تفرق معنى «أي»، والأخرى أن يستفهم بها، فتكون على جهة النسق، والذي ينوى به الابتداء إلا أنه متصل بكلام، فلو ابتدأت كلاماً ليس قبله كلام، ثم استفهمت لم يكن إلا بالألف أو بـ «هل». ومن ذلك قول الله «ألم تنزيل الكتابِ لا ريبَ فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه»[7] فجاءت «أم» وليس قبلها استفهام، فهذا دليل على أنها استفهام مبتدأ على كلام قد سبقه. وأما قوله: «أم تريدون أن تسألوا رسولكم»، فإن شئت جعلته

(١) معاني القرآن ٣/ ٢٥٢، لقد أثبت في معاني القرآن (بما يوعون) اظن المراد: «بما يعون» لكنها لا تصبح في فواصل الآيات التي قبلها، وقد أثبتها بما يجب أن تكون عليه في رأيه.

(٢) الطارق ٦.

(٣) القارعة ٧.

(٤) معاني القرآن ٣/ ٢٥٥. وأظن الصحيح: (هي معهنّ) أو (هُنّ معها).

(٥) الرحمن ٢٩ ومعروف ان معظم فواصل آياته ختمت على وزن «شان». وينظر معاني القرآن ٣/ ١١٦ وينظر في مثله ٣/ ٢٧٤ في كلامه على آيتي الضحى ٦، ٨.

(٦) سورة البقرة ١٠٨.

(٧) السجدة ٣.

على مثل هذا، وان شئت قلت: قبله استفهام فرد عليه، وهو قول الله: «الم تعلم أن الله على كل شيء قدير». وكذلك قوله: «ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار أَتَّخذناهم سِخْرِيّا أم زاغت عنهم الأبصار؟»[1] فإن شئت جعلته استفهاماً مُبتدأ قد سبقه كلام وان شئت جعلته مردوداً على قوله: «ما لنا لا نرى رجالاً؟» وقد قرأ بعض القراء: «أتخذناهم سخريا؟» يستفهم في «أتخذناهم سخريًا» بقطع الألف لينسق عليه «أم» لأن أكثر ما تجيء مع «الألف»، وكل صواب[2]. وقد يلتوي في عباراته فيجيء بها غير مفهومة نَظراً لما يحاول أن يتأول به الآيات أو بعض أجزائها ويفسرها تفسيرات غير مقبوله نفضل الابتعاد عنها والاشارة اليها[3].

قيمته:

نستخلص مما تقدم أن كتاب «معاني القرآن» قد حوى مادة لغوية ونحوية وصوتية وغيرها إلى جانب ما حواه من الآيات القرآنية وقراءاتها ودراسة كل ذلك والاحتجاج عليه بالحديث النبوي الشريف أو الشعر العربي الفصيح وأقوال العرب الذين احتج بلغاتهم. وحوى الكثير من آراء شيوخه ولا سيما الكسائي ويونس، وآراء بعض النحويين الذين لم يسمعهم سواء أَرد عليهم أو تقبل آراءهم فحفظ بذلك للأجيال هذه الآراء النحوية وأهمها آراؤه هو. واتضح لنا أنه كان يستخدم في نحوه مصطلحات جديدة ولكنه مع ذلك استخدم مصطلحات بصرية كالعطف بدل النسق في مواضع كثيرة، وكالضمير بدل الكناية وان كان الغالب عليه استخدام مصطلحات استحدثها هو أو شيخه الكسائي. وانه اعتمد على القراءات في بناء بعض الآراء النحوية، ورد بعض هذه القراءات لأنه لم يشتهها أو لأن غيرها أفضل منها، أو لأنها لا تناسب موسيقى فواصل الآيات، وخرَّج بعضها الآخر وبيّن أوجه صحتها وان كانت لغة لبعض البدو. واتضحت عنده أمور أخرى نعرض لها بايجاز منها: لجوؤه إلى التقدير والتأويل متّبِعًا في ذلك البصريين لأنه لم يقس على كل ما ورد عن العرب كما فعل شيخه الكسائي الذي خلا نحوه من التأويل إلا قليلاً. ويتضح ذلك في تقديره مبتدأ يتم به الكلام في قوله تعالى: «إنا أنشأناهن إنشاءً. فجعلناهن أبكاراً. عُرُبًا أترابًا. لأصحاب

(١) سورة ص ٦٢ و ٦٣.

(٢) معاني القرآن ١/ ٧١- ٧٢ وينظر في مثله في الغموض ١/ ٨ والسهولة ٣/ ٢٣٤.

(٣) ينظر ذلك في معاني القرآن ١/ ٤ و ٢/ ١٥٧ و ١/ ٤٦٤- ٤٦٥.

اليمين[1]» قال: وقوله: «لأصحاب اليمين» أي: هذا لأصحاب اليمين[2]» فقدر مبتدأ لا حاجة بالكلام اليه لأن الجار والمجرور متعلقان بالفعل «أنشأناهن».. وفي ابعاده في التقدير والتأويل حين قال بوجوب تقدير اسم موصوف محذوف قبل المنادى في قول الشاعر:

فيا راكبًا إما عَرَضْتَ فبَلِّغَنْ   نداماي من نَجرانَ ألا تلاقيا

فرفض أن يكون «راكبا» هو المنادى وأوغل في التمحل في تقدير أن الأصل: «فيا رجلاً راكبًا»[3]، وذلك مبني على منعه نداء النكرة المفردة.

أما القياس فقد وقف منه موقفًا قريبًا من موقف البصريين في كثير من المسائل، من ذلك انه لم يلجأ إلى القياس على الشاهد المفرد إلا فيما ندر مخالفًا شيخه الكسائي[4] في هذا الأصل. يتضح ذلك فيما أورده أبو العباس ثعلب قال:

«عسى زيدٌ قائمًا» قال: لم يجئ الا قوله «عسى الغوير أبؤسًا» قال: قال الفراء «عسى لا يقاس ولا يستحسنها ولا يجيزها الا مع «أن»[5]. وهذا رأي بصري.

وقد يسمع شاهدين في المسألة ومع ذلك لا يجيزها لخروجها عن الكثير المطرد جاء ذلك في قوله: «وما كان من ذوات الياء فان كان أول واحدته مضمومًا ضممت أوله في الجماع- الجمع- وكتبته بالياء مثل «مُدْيَة» و «مُدًى»... وان كان أول واحدته مكسورًا جمعته بكسر أوله وكتبته بالياء، مثل: «حِلْيَة» و «حِلًى» و «لِحية» و «لِحًى»، وقد سمعنا «لُحًى» و «حُلًى» بالضم في هذين الحرفين خاصة ولا يقاس عليهما»[6]. وقد يكون للظاهرة شواهد كثيرة، وأجاز البصريون القياس عليها ومع ذلك منع الفراء فيها القياس ويتضح هذا من قول ثعلب في مجالسه: وأنشد:

ثقيلٌ على من ساسَهُ غيرَ أنَّهُ   ركومٌ على آريَّةِ الروث منثل

وقال: لا يتعدى «فَعُول» ولا «مِفْعال». وأهل البصرة يُعَدُّونه. والفراء والكسائي يأبيانه الا من

---

(1) الواقعة ٣٥- ٣٨.

(2) معاني القرآن ٣/ ١٢٥- ١٢٦.

(3) ينظر خزانة الأدب ٢/ ١٦٨.

(4) ينظر في مخالفته الكسائي مجالس ثعلب ١/ ١٠٥ و ١١٩ و ١٤١ و ٢١٦ و ٢٦٢ و ٣٥٤ وغيرها كثير في معاني القرآن.

(5) مجالس ثعلب ١/ ٢٠٩.

(6) المقصور والممدود للفراء ٢٥ نقلاً عن (أبو زكريا الفراء ٣٧٩).

كلامين، وقال: «ركوم يركم..». وهذا تصريح بمخالفتهما سيبويه وشيوخه البصريين الذين أجازوا القياس عليهما بلا تقدير لفعل عامل من لفظهما[1].

وكنا قد ذكرنا عند الكلام على موقف الكسائي من القراءات انه وتلميذه الفراء كانا يخطئان القراءات الواردة عن القراء على اختلاف اشخاصهم وقرءاتهم ومثلنا هناك ببعض القراءات، ومن أمثلة ما نسب فيه القراء الى الوهم، وصرح فيه بأنه قل من يسلم منهم من الوهم قوله في قراءة قوله تعالى: «ما أنا بِمُصْرِخِكُمْ وما أنتُمْ»[2]- بكسر الهاء-: «وقد خفض «الياء» من قوله «بمصرخي» الاعمش ويحيى بن وثاب جميعاً، حدثني القاسم بن معن عن الأعمش عن يحيى انه خفض «الياء» قال الفراء: ولعلها وهم القراء طبقة يحيى فانه قل من سلم منهم من الوهم، ولعله ظن أن «الباء» في «بمصرخي» خافضة للحرف كله، و «الياء» من المتكلم خارجة من ذلك.. ومما نرى أنهم أوهموا فيه قوله: «نُوَلِهْ ما تَوَلَّى ونُصْلِهْ جهنَم»[3]، ظنوا- والله أعلم- أن الجزم في «الهاء» و «الهاء» في موضع نصب، وقد انجزم الفعل معها بسقوط «الياء» منه. ومما اوهموا فيه قوله: «وما تَنَزَّلَت به الشياطون» [4]. وقد نسب دارسو الفراء موقف الفراء هذا من القراءات إلى التأثر بالبصريين[5]، مع ان الواضح أن متأخري البصريين هم الذين تأثروا بموقفه هو وشيخه الكسائي منها وقد بينا ذلك فيما تقدم.

أما مظاهر النزعة الكوفية عند الفراء في غير ما ذكرنا فتتضح في معظم آرائه وأقواله في كتبه المختلفة ومن أهمها رأيه في تقسيم الكلام إلى اسم وفعل وأداة، والفعل إلى ماض ومستقبل ودائم- وقد تقدم الكلام عليه بتفصيل في الكلام على النحو الكوفي تطوره وخصائصه.[6] ومن ذلك ذهابه إلى أن الأصل في الاشتقاق الفعل [7]. وان فعل الأمر معرب وانه مضارع مجزوم بلام الأمر حذفت منه اللام لكثرة الاستعمال وحرف المضارعة «التاء» منعًا لالتباسه بالمرفوع وجيء بهمزة

---

(١) مجالس ثعلب ١/ ١٢٤ وينظر الكتاب ١/ ١١٠- ١١٤.

(٢) ابراهيم ٢٢.

(٣) النساء ١١٥.

(٤) الشعراء ٢١٠ وهي في المصحف «.. الشياطين» ومعاني القرآن ٢/ ٧٥- ٧٦ و ٢-- ٧٦.

(٥) ينظر ابو زكريا الفراء ٣٨٩ و ٣٩٠ في تذبذب الانصاري في موقفه من القراءات، ومدرسة الكوفة ٣٦- ٤٢.

(٦) ينظر معاني القرآن ١/ ١٦٥.

(٧) ينظر الانصاف مسألة ٢٨ والايضاح في علل النحو ٥٦ و ٦٢.

وصل للابتداء بالساكن فأصل «افرحوا»: «لتفرحوا»[1]. ومن ذلك ذهابه في «كَلاّ» إلى أنها ليست اسماً كما انها ليست فعلاً، انما هي بينهما[2].

ومن ذلك موقفه المخالف للخليل في تفسير بعض الكلمات الجامدة مع قولهما معًا بتركيبها الا أنهما اختلفا في التحليل. فذهب الخليل في «هَلُمَّ» إلى أنها مركبة من «ها» التنبيه والفعل «لُمَّ». وذهب الفراء إلى أن أصلها: «هَلْ أمَّ» من الفعل: «أمَّ» بمعنى «قَصَدَ»[3] وفي هذا التحليل غموض في المعنى، واغراق في تفسير الحذف وتأويل المعنى. واختلف تفسيرهما كذلك لكثير من الأدوات مثل «لن» ذهب الخليل فيها إلى أن أصلها «لا أن» وذهب الفراء الى أن أصلها «لا» ابدلت الالف نوناً[4].

ومن غريب تحليلاته ذهابه إلى ان «وَيْلَكَ» و «وَيْحَكَ» اصلهما «وي» وصلت بـ «حاء» مرة وبـ «لام» اخرى مع إضافة حرف الخطاب اليها وكان الخليل يرى انهما مؤلفتان من «ويح» و «ويل» اضيفا إلى الضمير بدليل استعمالهما بهذه الصورة في الكلام في قولنا: «ويحٌ لك» و «ويلٌ لك»[5].

وبعد فهذه أهم الآراء والأصول التي بنى عليها الفراء نحوه، وما نحو الكوفيين الا نحو الفراء، وان كان للكسائي آراء مخالفة فهي في معظمها مردودة عليه لم يتبعها من المتأخرين الا نفر قليل كما يتضح ذلك من آرائه في «همع الهوامع» الذي ذكر فيه السيوطي من تابعه فيها ومن خالفه. وهكذا كان الفراء في الكوفيين بمنزلة الخليل في البصريين.

---

(١) ينظر معاني القرآن ١/ ٤٦٩ وهمع الهوامع ٤/ ٣٠٨.

(٢) ينظر: طبقات النحويين واللغويين ١٤٥- ١٤٦.

(٣) ينظر معاني القرآن ١/ ٢٠٣ وشرح المفصل ٨/ ١١٣ وهمع الهوامع ٢/ ١٣. والكتاب ٣/ ٣٢٢ و ٥٢٩.

(٤) ينظر مغني اللبيب وشرح الرضي على الكافية ١/ ٢١٨ وشرح المفصل ٨/ ١١٣ وهمع الهوامع ٢/ ٣ ط ١. والكتاب ٣/ ٥.

(٥) ينظر شرح المفصل ١/ ١٢١ والكتاب ١/ ٣١٨ و ٣٣١.

ثعلب

حياته:

أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد مولى بني شيبان المعروف بثعلب. ولد سنة ٢٠٠ للهجرة، وقد أرخ هو لنفسه بهذا التاريخ لحادثة عرضت له وعمره أربع سنوات وبقي يذكرها حتى مات سنة ٢٩١ هـ.[1] طلب العربية واللغة في سنة ست عشرة ومائتين. وكان أول ما ابتدأ بقراءته النظر في كتاب «الحدود» للفراء وهو في الثامنة عشرة من عمره، فلما بلغ الخامسة والعشرين كان قد حفظ مسائل الفراء كلها وموضعها من الكتب ولم تبق مسألة من «الحدود» الا حفظها. ولم يقتصر حفظه على كتاب «الحدود» وانما انكب منذ حداثته على قراءة كتب الفراء ولم يبق شيء منها الا حفظه وهو لم يتجاوز الخامسة والعشرين، ولهذا فقد رأس الناس في النحو، وجلس للاقراء واختلف اليه الطلبة وهو في هذه السن. كما لم يكن علمه بالنحو مقتصراً على كتب الفراء وانما درس كتب الكسائي ويبدو أنه قرأ كتاب سيبويه من غير أن يأخذه على أحد كما اعترف بذلك اقرب الناس اليه ختنه ابو علي الدينوري حين قارن بينه وبين المبرد فقال: انما صار المبرد اعلم بكتاب سيبويه من ثعلب لأن المبرد قرأه على العلماء وثعلب قرأه على نفسه. وقرأ غيره من كتب النحو البصري ككتاب «المسائل» للاخفش الاوسط سعيد بن مسعدة فقد طلب من أبي حاتم السجستاني ان ينسخ له هذا الكتاب، ووجد في كتبه عند بيعها باسم «ديوان مسائل الاخفش»[2] ومع اطلاعه على كتب البصريين ومسائلهم قيل فيه: «ولم يكن يعلم مذهب البصريين ولا مستخرجاً للقياس ولا طالباً له، وكان يقول: قال الفراء وقال الكسائي، فإذا سئل عن الحجة والحقيقة لم يأت بشيء»[3] وانما كان اعتماده في علمه على الحفظ للآراء النحوية واللغوية لشيخيه وللروايات اللغوية والأشعار التي يحتج بها في مناظراته ومجالسه وقد تبين ذلك في كتابه «مجالس ثعلب» وامتدحه الدكتور المخزومي بذلك فقال: «كان كثير الحفظ، واسع الرواية في اللغة والأدب والقراءة والنحو، وكان معظم همه منصرفاً إلى حشد المادة التي تحفظ والالمام بصيغ لغوية خاصة ليستطيع الافادة بهذه

---

(١) تنظر ترجمته في مراتب النحويين ٩٥– ٩٦ وطبقات النحويين واللغويين ١٥٥– ١٦٧ والفهرست ٨٠– ٨١ ونزهة الالباء ١٥٧– ١٦٠ ونور القبس ٣٣٥– ٣٣٧ وانباه الرواة ١/ ١٣٨– ١٥١ ومعجم الأدباء ٢/ ١٣٣– ١٥٤ و وفيات الاعيان ١/ ٨٤– ٨٧ وبغية الوعاة ١/ ٣٩٦– ٣٩٨.

(٢) ينظر في هذه طبقات النحويين واللغويين ١٥٦ و ١٦٥– ١٦٦ ومعجم الأدباء ٢/ ١٤١.

(٣) انباه الرواة ١/ ١٤٤.

الطريقة، ولولا حفظه لكتب الكسائي والفراء ووقوفه على آرائهما في النحو لكان واحداً من هؤلاء الكوفيين الرواة الحفظة لا شأن له بهذه الصناعة ولكنه أفاد من هذه الكتب ما جعله يملي دروساً في النحو، وما جعله يعد في زُمرة الائمة من نحاة الكوفة»[1].

بدأ يتردد إلى مجالس العلماء يسمع عنهم العلوم المختلفة وهو في سن الثانية عشرة، فبدأ يتعلم القرآن، وحفظه واطلع على قراءاته وألف فيها كتاب «القراءات» و «غرائب القراءات» واختلف الى حلقات المحدثين، وقيل انه سمع مائة الف حديث، كما اختلف الى حلقات الفقهاء المحدثين كاحمد ابن حنبل وحمل عنه مذهبه الفقهي، ولذلك ترجمت له كتب طبقات الحنابلة، وسمع كثيراً من الاخبار والاشعار عن عمر بن شبة ومحمد بن سلام الجمحي والزبير بن بكار الراوية الاخباري، ولازم حلقات علماء العربية وتزود منها بعلم اللغة والنحو فلزم في النحو تلاميذ الفراء ومن أشهرهم سلمة بن عاصم الذي كان أقرب أصحاب الفراء اليه وكان يصحح له املاءه كتاب «معاني القرآن» ويناقشه فيه، ومنهم أبو عبدالله الطوال ومحمد بن قادم. واعتمد في اللغة على ابن الاعرابي الذي روى عنه معظم الاخبار الواردة في مجالسه، ولزم حلقته بضع عشرة سنة، ولحق بتلاميذ الاصمعي وأبي زيد الانصاري فروى كتب هذين الشيخين عنهم وهم أبو نصر وابن نجدة وعلي بن المغيرة الاثرم الذي روى عنه كتب أبي عبيدة، وروى كتب أبي عمرو بن العلاء عن ابنه عمرو وكان عمرو ثقة.

شهد بعلم ثعلب البصريون كما شهد بذلك الكوفيون، وقال فيه الرياشي البصري عندما سئل عن علماء بغداد بعد عودته منها: «ما رأيت فيهم أعلم من الغلام المنبِّز- يعني ثعلبا»[2].

عاش في ظل ذوي الجاه والثراء الذين كانوا يرعونه لتثقيفه اولادهم، منهم محمد بن عبدالله بن طاهر صاحب شرطة بغداد الذي علّم اولاده ولازمهم ثلاث عشرة سنة وكان يُجري له معاشاً فخماً، واهتم به بعده الموفق اخو الخليفة المعتمد فأجرى له راتباً سَنِيًّا[3]. وثق به شيوخه واعتمدوا عليه منهم استاذه ابن الاعرابي (-٢٣١ هـ) الذي روى عنه أنه كان يشك في الشيء فيقول: «ما عندك يا أبا العباس في هذا؟» ثقة بغزارة علمه وحفظه، وهو الذي يقول فيه: «ولم يكن مع ذلك

---

(١) مدرسة الكوفة ١٧٩- ١٨٠ وينظر الدرس النحوي في بغداد ٤٨.

(٢) طبقات النحويين واللغويين ١٥٥- ١٥٦ المنبز. اللقب والنبز: -بفتحين- العلم. قال الخليل الاسماء على وجهين: اسماء نبز مثل زيد وعمرو. واسماء عام مثل، فرس ورجل اللسان (نبز). وينظر مراتب النحويين ٩٦ ومعظم الكتب المذكورة في ترجمته في الاخبار السابقة.

(٣) ينظر طبقات النحويين واللغويين ١٦٣- ١٦٤ و ١٥٦ ١٥٧ وانباه الرواة ١/ ١٤٨ و ١٤٩ ومعظم كتب التراجم.

موصوفًا بالبلاغة ولا رأيته إذا كتب كتابًا إلى بعض أصحاب السلطان خرج عن طبع العامة، فإذا اخذته في الشعر والغريب ومذهب الفراء والكسائي رأيت من لا يفي به أحد، ولا يتهيأ له الطعن عليه».

عاصر ابو العباس ثعلب نحويًا بصريًا مشهوراً هو محمد بن يزيد المبرد (-٢٨٥ هـ) المكنى بأبي العباس أيضًا وكان خاتمة أئمة النحو البصري كما كان ثعلب خاتمة أئمة النحو الكوفي، وقد اجتمعا في بغداد، وتنافسا في تدريس الطلبة واستمالتهم وفي نشر المذهبين النحويين، وانحاز لكل منهم مجموعة من التلاميذ الذين كونوا جميعًا «مدرسة بغداد النحوية» والذين اخذوا عن ثعلب، منهم ابو اسحاق الزجاج وأبو الحسن بن كيسان وعلي بن سليمان الاخفش الاصغر وأبو بكر بن الانباري وابو عمر الزاهد وابو بكر بن شقير وابو بكر بن الخياط وغيرهم. وقد كان ثعلب مع ما حفظ من كتب النحو الكوفي ومن كتب اللغة ومن أشعار العرب وما اطلع عليه من كتب البصريين يتحاشى الاجتماع بالمبرد أو لقاءه أو مناظرته خوف ان يفتنه بالحجج ويلزمه القول بالعلل والاقيسة فيذهب اسمه من مجلس الدرس النحوي في بغداد، لأن دوره في النحو العربي اقتصر على حفظ أقوال شيخيه وآرائهما ونشرها بين الدارسين والاستشهاد عليها بما اختزنه من محفوظ لغوي واسع متنوع وبقي كذلك حتى توفي سنة ٢٩١ هـ مخلفًا للأجيال العربية عدداً من الكتب في مختلف الدراسات القرآنية واللغوية ذكرتها كتب التراجم. وكان من أشهر كتبه النحوية واللغوية: «المصون في النحو» و «الموفقي في النحو» و «كتاب اختلاف النحويين» و «كتاب التصغير» و «كتاب ما ينصرف وما لا ينصرف» و «كتاب ما يجري وما لا يجري»، وأرى ان الكتابين واحد واختلفت تسميته بحسب اختلاف الرواة من بصريين وكوفيين، و «كتاب حد النحو» و «كتاب الفصيح» ومجالس املاها على أصحابه وطبعت باسم «مجالس ثعلب».

المجالس:

من أهم كتبه التي وصلت الينا مجالسه التي طبعت باسم «مجالس ثعلب» وهو من خيرة كتبه وأفضلها، قال ابن النديم فيه «ولابي العباس مجالسات املاها على أصحابه في مجالسه تحتوي على قطعة من النحو واللغة والاخبار ومعاني القرآن والشعر مما سمعه وتكلم فيه»[1] وقد سماها ابن النديم هنا «مجالسات» وتابعه في هذه التسمية ياقوت والسيوطي في كتبه الا «المزهر» فقد سماه فيه «أمالي ثعلب» وتابعه في التسمية البغدادي في خزانته. وهناك فرق دقيق بين هاتين التسميتين واصل استعمالهما، وكل منهما مظهر لما كان يدور من تدوين لأقوال العلماء المتصدرين للتعليم، أما الامالي، فكان يمليها الشيخ أو من ينيبه عنه بحضرته فيتلقفها الطلاب بالتقييد في دفاترهم، وفي هذا يكون الشيخ قد أعد ما يمليه أو يلقي الى الطلبة ما يشاء من تلقاء نفسه. وأما المجالس فتختلف عن تلك بأنها تسجيل كامل لما كان يحدث في مجالس العلماء ففيها يلقي الشيخ ما يشاء من تلقاء نفسه، وفيها كذلك يسأل الشيخ فيجيب فيدون كل ذلك فيما يسمى مجلسًا، وكثيرًا ما يعثر القارئ في مجالس ثعلب هذه على ذلك المظهر العلمي الجليل الذي يحاول ثعلب فيه أن يتقبل الأسئلة من طلابه فيجيب الجواب السديد أحيانًا، وحينًا يتردد، وحينًا يقول: لا أدري. كما ان رواة المجلس يُعْنَونَ كذلك بإثبات سائر ما يحدث في المجلس مما له صلة بأداء النص»[2] وقد اعتمد ثعلب في مجالسه في رواية اللغة وأخبار الناس في الكثير الغالب على رواياته عن ابن الاعرابي شيخه في اللغة الذي كان يقول فيه: «شاهدت ابن الاعرابي وكان يحضر مجلسه زهاء مائة انسان كل يسأله أو يقرأ عليه، ويجيب من غير كتابه، قال: ولزمته بضع عشرة سنة ما رأيت بيده كتابًا قط، وما أشك في أنه أملى على الناس ما يحمل على أجمال، ولم ير أحد في علم الشعر واللغة كان أعلم منه»[3]. والكتاب جميعه مروي برواية راو واحد هو «محمد» أو «محمد بن الحسن» وهو ابو بكر محمد بن الحسن بن يعقوب بن مقسم المقرئ سمع أبا العباس ثعلبًا وكان ثقة ومن احفظ الناس بقول الكوفيين، ولد سنة ٢٦٥ هـ، وتوفي ٣٥٤ هـ[4]. أما الرواية فعن ابي العباس احمد بن يحيى ثعلب أما من كلامه هو أو مما يرويه عن شيوخه بسند قد يطول وقد يقصر.

والكتاب مطبوع في جزءين، أما تقسيماته الأصلية ففي اثني عشر قسمًا ضم الجزء الأول

---

(١) ينظر الفهرست ٨١ ومعظم الكتب التي ترجمت له.

(٢) مقدمة مجالس ثعلب ١/ ٢٣.

(٣) بغية الوعاة ١/ ١٠٥.

(٤) ترجمته في بغية الوعاة ١/ ٣٦.

من المطبوع سبعة أقسام منها، وجاءت الخمسة الباقية في الجزء الثاني.

أما عدد المجالس في هذا الكتاب فلم يكن معلوماً، فمع أن الجزء الأول ضم سبعة مجالس أيضًا كان يشار في الكتاب الى كل منها على أنه مجلس بأن يعنون له بكلمة «مجلس»، إلا أن الجزء الثاني لم يتبين فيه عدد المجالس ولا بداية كل مجلس أو نهايته، ولم يُشَر إلى ذلك لا في داخله ولا في فهارسه. وليس معنى وجود سبعة أجزاء في الجزء الأول وسبعة مجالس ان كل جزء يضم مجلسًا، وذلك لأن المجلس قد ينتهي في منتصف الجزء أو قبل نهايته أو في اوائله، ولم تكن هذه المجالس متساوية في عدد الصفحات التي يستغرقها كل منها، فقد يكون المجلس في حدود العشرين صفحة كالمجلس الأول أو في حدود الثماني والثلاثين أو أكثر أو أقل قليلاً كما في الجزء الثاني والرابع ويأتي بعدهما الخامس والسابع، أما الثالث فقد جاء في أربع وستين صفحة، وهي ما في الجزء الأول من المطبوع، أما الثاني فلا نعلم أهو مجلس واحد أم مجالس متعددة؟

ولم يكن لكتاب «مجالس ثعلب» منهج موحد لا في العرض ولا في الموضوعات التي تعرض، ولم يكن مثل «مجالس العلماء» للزجاجي وذلك لأن الأخير يذكر جلسات تعقد للمناظرة بين شيخين بصريين أو كوفيين، أو بصري وكوفي، أو شيخ وأحد الاعراب، وتتناول موضوعًا واحداً يجري النقاش فيه ويقصد به «مجالس العلماء للمناظرة في مسألة ما». أما «مجالس ثعلب» فتتعرض فيها انواع مختلفة من الروايات منها الأدبية، ومنها التأريخية، ومنها اللغوية، ومنها مما هو في اخبار العاشقين أو الشعراء الشجعان أو الزهاد، ومنها ما هو في الكلام على ارجوزة لراجز أو أبيات من شعر شاعر أو قصيدة لشاعر ما مع اخبار مختلفة متنوعة لحوادث تجري بين أفراد، لا ترابط بينها ولا يضمها موضوع معين فمن خبر لحن جرى أمام المأمون، إلى خبر ما جرى بين عروة بن الزبير وعمر بن عبد العزيز في شأن عبدالله بن الزبير، إلى حديث امرأة زوجت أولادها وسألتهم عن زوجاتهم، إلى خبر اقتسام دار بين ابني العباس، إلى خطأ الفراء في انشاد، الى نصيحة المنصور للمهدي، إلى الكلام على أفصح الناس أو ابلغهم أو أبصرهم، وهكذا تجري هذه المجالس، يتخلل بعض هذه الاخبار كلام في تفسير آية، أو توجيه قراءة أو رواية حديث وتفسيره أو التعليق على ما يراد به من غرض تهذيبي أو ذكر حكم نحوي أو بناء صرفي قياسي، ولن نستطيع توضيح طريقته الا باقتطاف جزء من أحد المجالس يكون أدل من الوصف النظري له وذلك من المجلس الأول بعد كلام مطول على خبر «ام سعيد» ومن تزوجوها وما دار بين أزواجها وبينها وبين أحد مطلقيها بطريق «اشعب». ثم ما رواه من خبر سلامة والقس وما قاله فيها من اشعار لا يعنينا ذكرها. بعد هذه الأخبار قال «وقال أبو العباس أحمد بن يحيى: قولهم: أَلِظُّوا بـ (ياذا الجلال والاكرام» أي: «ألحّوا». اخبرنا محمد، ثنا أبو العباس قال: قال ابن الاعرابي: سألت العرب: أي شي معنى شيطان ليطان؟

قالوا: شيء نَتِدُ بهِ كلامنا: نشده. أخبرنا محمد، ثنا أبو العباس ثنا أبو العالية قال: مَرَّ قوم من بني سليم برجل من مزينة يقال له: «نضلة» في ابل له، فاستسقوه لبنًا فسقاهم، فلما رأوا أنه ليس في الابل غيره ازدروه، فأرادوا أن يستاقوها فجالدهم حتى قتل منهم رجُلاً. وأجلى الباقين عن الابل، فقال في ذلك رجل من بني سليم:

ألم تسأل فوارسَ من سُلَيمٍ ... بنَضْلَةَ وهو موتورٌ مُشيحُ

وأورد بعد هذا البيت أربعة أبيات ثم قال: «اخبرنا محمد، ثنا ابو العباس احمد بن يحيى املاء، قال: وثنا ابن شبة، ثنا محمد بن سلام، قال: زعم يونس بن حبيب قال: صنع رجل لاعرابي ثريدة يأكلها، ثم قال: «لا تصقَعْها ولا تشرمْها، ولا تقعَرْها «قال: فمن أين آكل لا أبا لك؟. قوله: لا تصقعها: لا تأكل من اعلاها. وتشرمها: تخرقها، وتقعرها: تأكل من أسفلها. وقال أبو العباس في قوله عز وجل: «إذا اكتالوا على الناس يستوفون»[1] يزيدون ما على الناس ومن الناس: وقال أبو العباس: قال أبو نصر، قال الاصمعي: أشد الناس الاعجر الضخم، وأخبث الافاعي أفاعي الجدب، وأخبث الحيات حيات الرِّمْث، وأشد المواطئ الحصى والصفا، وأخبث الذئاب ذئب الغضَى، وانما صار كذا لأنه لا يباشر الناس إلا إذا أراد أن يغير». وأنشد أربعة أبيات ثم بدأ بشرح كلماتها فقال: «قوله: «أمناع الخفر» يعني: أمناع أصحاب الخفر، يعني النساء، قال وهو مصدر. وقوله: «حية قف لاجئ إلى حجر» قال: حيات الصخر أخبث من غيرها. «إذا تعذرت فلم تقبل عذر» أي: إذا لم تقبل عذري كنت كذا. يريد: إذا لم أُعْطَ ما أريد، خزرت العين، أي: تكبرت على الناس، ونظرت اليهم بمؤخر عيني، وقال أبو العباس: «سلام على إلياسين»[2] مثل «إدريسين»: «آل ياسين»: أهل ياسين. «ما أنا بمصرخِكُمْ»[3] قال: بمعينكم وقال العرعرة: رأس الجبل. ويروى عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: أجملوا في الطلب. فلو ان رزق أحدكم في عرعرة جبل أو حضيض ارض لأتاهُ قبل أن يموت». وقال أبو العباس: «لا يزني المؤمن حين يزني وهو مؤمن»[4 و 5] قال: ليس هذا من خلق المؤمنين. وقال «ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع» (٤). «ما آمن بي» تشديد، أي: ينبغي له أن يواسيه، قال أبو العباس: نُصَّهُ، أي: أظهره، وكل مُظهَر فهو منصوص، وأصله من: نصه إذا أقعده على المنصة،

---

(١) سورة المطففين ٢.

(٢) الصافات ١٣٠.

(٣) ابراهيم ٢٢.

(٤ و ٥) هذان حديثان نبويان.

وأنشد:

ونُصَّ الحديثَ إلى أهلهِ فان الوثيقة في نَصِّهِ

وكل تبيين أو اظهار فهو نص. «أعبد اللّه ثوباً كسوته؟» قال: ان كانت «الهاء» لعبد الله فالرفع والنصب، وان كانت للثوب فالنصب لا غير، لأن النصب قد تقدم في «عبدالله». قال: وقال اياس بن معاوية: كنت في مكتب في الشام وكنت صبيًّا، فاجتمع النصارى يضحكون من المسلمين، وقالوا: انهم يزعمون أنه لا يكون ثقل للطعام في الجنة، قال: فقلت: يا معلم، أليس تزعم أن أكثر الطعام يذهب في البدن؟ فقال: بلى: قال: فقلت: فما تنكر أن يكون الباقي يذهبه اللّه في البدن كله؟ فقال: أنت شيطان. وقال أبو العباس في قوله عز وجل: «فَصَلِّ لِرَبِّك وَانحَرْ» يقال: استقبل القبلة بنحرك، ويقال: اذبح. ويقال: غلام نشنش وشعشع وبلبل، وبزبز، إذا كان خفيفًا في السفر. يقال: «سويداء قلبه، وحبة قلبه، وسواد قلبه، وسوادة قلبه، وجلجلان قلبه وأسود قلبه، وسوداء قلبه بمعنى. ويروى عن النبي (ﷺ) أنه قال: أنا أَفصح العرب، تربيت في أخوالي بني سعد، بيد أني من قريش». قال بيد وميد وغير بمعنًى...»، ويمضي الكتاب على هذه الصورة أو قريب منها، أخلاط متنوّعة لا رابط بينها ولا موضوع يجمعها ومعظم عباراتها مستقلة ببحث يخصها وتبدو كأنها جواب لكلام سابق أو لسؤال سائل إذ ليس لها اتصال بما قبلها ولا تعلق بما بعدها. كما في كلامه على «نشنش وشعشع» وعلى «سويداء قلبه وحبة قلبه» فلا علاقة لهما بما قبلهما من حديث النصارى، ولا بما بعدهما – مما لم نذكره وهو آيات يبين معاني بعض ألفاظها... والذي يهمنا من هذه، المسائل النحوية وقد عرضت في هذا النص الطويل عبارة واحدة هي: «أعبد اللّه ثوباً كسوته؟» أتى بها على طريقته من غير مقدمة تدل عليها أو يوضح السؤال الذي وجه عنها أو الحديث الذي جرى فيها.

المسائل النحوية:

لم يشرح ثعلب في مجالسه المسائل النحوية في أبواب مفصلة أو موضوعات متكاملة ولا في جزء معين من الكتاب، أو قسم منفرد من كل مجلس لكي نستطيع أن نُلِمَّ بها ونتبين منها منهجه النحْوي وأصول هذا المنهج وآراءه بسهولة ويسر ووضوح، الا اننا استطعنا مع هذا أن نجد فيه بعض ملاحظات استدللنا بها لرسم صورة أحسسنا بها لكل ذلك، من ذلك رأيه في فصاحة بعض القبائل والعيوب الموجودة في بعض هذه اللغات. قال الراوي: «وأخبرنا أبو العباس ثعلب قال: ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوازن وتضجُّع قيس، وعجرفية ضبة، وتلتلة بهراء» ثم يصف هذه الظواهر ويمثل لها فيقول: «فأما عنعنة تميم، فان تميم

تقول في موضع» «أنَّ»: «عَنَّ» تقول «عَنَّ عبدالله قائم». قال: وسمعت ذا الرمة ينشد عبدالملك:

أعن ترسمت من خرقاء منزلة ....

قال: وسمعت ابن هرمة ينشد هرون الرشيد، وكان ابن هرمةَ رُبِّيَ في ديار تميم:

أعن تغنَّت على ساقٍ مطوَّقةٌ   ورقاءُ تدعو هَدِيلا فوق أعواد

وأمـا تلتلة بهـراء، فـانهـا تقـول: «تعلمـون، وتعـقلون، وتصنعـون بكسـر أوائل الحـروف»[1].
وتعرض للكلام على بعض الظواهر في لغات العرب. مثل انشاده أبياتًا من الشعر وقع فيها ما يسمى «بالكشكشة» أو «الكسكسة» قال: وانشدني ابن الاعرابي:

علي فيما ابتغي أبغيشِ   بيضاء ترضيني ولا ترضيش ...

قـال: «ويجـعلون مكان «الكاف»: «الشين» وربما جـعلوا بـعد «الكاف» «الشين» و «السين» يقولون: «انكش» و «انكس» قال: وهذه الكشكشة والكسكسة المشهورة، وهو «الكاف» المكسورة لا غير، يفعلون هذا توكيداً لكسر «الكاف» بالشين والسين، كما يقولون: «ضربتيه» و «ضربته» لقرب «الهاء» منها.»[2] فقد عرض هذه الظاهرة اللغوية كما عرض التي قبلها وقد أشار إلى أنهما ظاهرتان ابتعدت قريش عن استعمالهما واستعمال أمثالهما من الظواهر، فلما وصف قريش بالفصاحة فمعنى هذا أن هذه اللغات التي وردت في لغتها هذه الظواهر أضعف من لغة قريش، وان لم يصرح بحكم القياس عليها، والظاهر انها لغة فيحق لأصحابها استخدامها ولا يلحنون في ذلك. هذا موقفه من اللغات كما ورد في المجالس.

أما موقفه من الآراء النحوية والأصول والأقيسة فيبدو أنه متابع متابعة شبه كلية للفراء، فهو يرد على سيبويه برأي الفراء، ويرد على الخليل برأي الفراء، أو الفراء والكسائي ان كانا متفقين في الرأي، ومن أمثلة ذلك أن الخليل وسيبويه ذهبا في «يا أيها الرجل» مذهبًا رده ثعلب فقال: «يقال: «يا أيها الرجلُ» و «يا أيُّها القومُ» و «يا أيتُها المرأةُ» و «يا أيُّها المرأةُ» يذكر ويؤنث مع المؤنث، ولا يوجه «يا أيها» إلا في الواحدة فانها تذكر وتؤنث. قال: وقال سيبويه والخليل وأصحابهما «يا» تنبيه و «ها»، تنبيه، و «أي» المنادى، و «الرجل» وما جاء بعد «أيها» وصف لازم. قال: وهذا لا يصح. قال الفراء: الدليل على انه ليس كما قالوا أنه يقال: «يا أيُّهذا أقبل» فيسقط الثاني الذي زعم أنه وصف لازم...»[3]. وقال في موضع آخر «إذا قال: «يا رجل» فقد قصد قصده مثل: «يا زيد» وإذا قال: «يا

---

(١) مجالس ثعلب ١/ ٨٠ و ٨١ وما بعدها.

(٢) مجالس ثعلب ١/ ١١٦– ١١٧.

(٣) مجالس ثعلب١/ ٤٢.

أيها الرجل» اختلف الناس فيه فقال سيبويه وأصحابه: «الرجل» تابع لـ «أيّ». وخطّأه الفراء قال: هو «أي هذا الرجل» أراد: يا أي هو هذا الرجل» كذا هو عند الفراء، وسيبويه يقول فيه تنبيه في موضعين «يا» و «ها»، وهذا باطل»[1].

وقد يتفق الكسائي وسيبويه في الرأي، إلا أن ثعلبًا يرد عليهما بقول الفراء قال في قوله تعالى: «قل هو اللّه أحد»: «قال الكسائي وسيبويه «هو» من «قل هو اللّه أحد» عماد، فقال الفراء: هذا خطأ، من قبل أن «العماد» لا يدخل الا على الموضع الذي يلي الافعال، ويكون وقاية للفعل مثل: «انه قام زيد» ثم يستعمل بعد فيتقدم ويتأخر، والأصل في هذا: «انما قام زيد»، فالعماد كـ «ما». وكل موضع فعلى هذا جاء يقي الفعل، وليس مع «قل هو اللّه أحد» شيء يقيه. وقد رد الفراء على الكسائي رأيه هذا.[2] وربما يعرض ثعلب الرأيين ولا يذكر تخطئة الفراء لسيبويه من ذلك انه جاء في قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم اذا حضرَ أحدَكم الموتُ حين الوصية اثنان» اتفاق سيبويه والفراء على رفع «اثنان» لكنهما اختلفا في تقدير الرفع. فذهب سيبويه إلى أنه محذوف على تقدير «شهادة اثنين»، وذهب الفراء إلى انه مرفوع بـ «حين» [3]، وهناك مسائل يختلف فيها سيبويه والكوفيون فوافقهما ثعلب معًا، وذلك في زيادة «نون الوقاية» على «إنّ» واخواتها، أو تركها، عرض الرأيين ولم يرجح احدهما. وذلك في «ليتي وليتني» و «لعلّي ولعلّني» و «انّي وانّني» و «كأنّي وكأنني» فقال: «الكوفيون يقولون لم يضف فلا يحتاج إلى «نون» وسيبويه يقول: اجتمعت حروف متشابهة فحذفوها. قال أبو العباس: في كلها يجوز بالنون وبحذفها وأنشد:

كَمُنيةِ جابرٍ إذ قال لَيتي أُصادِفُه وأفقِدُ جُلَّ مالي»[4]

وقد يختلف تقدير الخليل والكسائي والفراء للمحذوف في موضع من الكلام فيكتفي ثعلب بعرض الآراء من غير تفضيل أو ترجيح بينها من ذلك قوله تعالى: «فآمنوا خيرًا لكم» الكسائي يقول فيها: «فآمنوا يكن خيرًا لكم» والفراء قال: «فآمنوا ايمانًا خيرًا لكم»والخليل يقول: اضمر «افعلوا خيرًا لكم»[5] وربما يكون للخليل رأي وللكسائي والفراء معًا رأي ثان يعرضهما ثعلب ولا يرجح كما في الكلام على «حَسَن» و «الحَسَن» و «عبّاس» و «العبّاس» عند التسمية بها فادخال «الالف واللام»

---

(١) مجالس ثعلب ٢/ ٥٨٦ وينظر في مثله ١/ ١٠٥ و ١/ ١٨٧ و ١/ ٢٧٥.

(٢) سورة الاخلاص ١ ومجالس ثعلب ٢/ ٣٥٤ وينظر معاني القرآن ٣/ ٢٩٩.

(٣) سورة المائدة ١٠٦ ومجالس ثعلب ٢/ ٣٨٩.

(٤) مجالس ثعلب ١/ ١٠٦.

(٥) مجالس ثعلب ١/ ٣٠٧.

واخراجهما عند الكسائي والفراء واحد، وقال الخليل: إذا اسقطتهما فلا يكون الاسم الأول، فلا يسقطهما الا وقد حول المعنى، وقال الكسائي والفراء: إذا سمينا بـ «الحسن» «والعباس» وكان نعتًا فقد خرج الى الاسم، والاسم لا يحتاج إلى الألف واللام، لأنك تقول: «هذا زيد الساعة وغدًا وأمس» فتكون له الحالات، فإذا قلت: «الحسن» فنزلت الألف واللام فيه فهو للمعهود، فقد خرج إذا سميت به من ذلك الطريق»[1].

ومع متابعة ثعلب للفراء فانه ينفرد بآراء كان يتابع فيها الكوفيين عامة ويتضح ذلك من المصطلحات، فقد التزم ثعلب في «مجالسه» مصطلحات الكوفيين واستخدم الواضح منها مطلقًا بلا شرح أو تعليق واجراها في كلامه جريان المصطلحات المتفق عليها مثل: تسمية «الضمير»: «الكناية» و «المكني»، و «ضمير الشأن» و «ضمير الفصل»: «العماد»، و «النواسخ»: «الأفعال» سواء أكانت حروفًا كـ «ان وأخواتها» ام أفعالاً كـ «ظن واخواتها» أو «كان وأخواتها» قال: «ان العماد لا يدخل على الموضع الذي يلي الأفعال، ويكون وقاية للفعل مثل «انه قام زيد» ثم يستعمل بعد فيتقدم ويتأخر والأصل في هذا: «انما قام زيد» فالعماد كـ «ما» وكل موضع فعلى هذا جاء يقي الفعل، وليس مع «قل هو الله أحد» شيء يقيه». والدليل على أنه يريد بها الناسخ أيًا كان. قول الفراء في الآية نفسها: «فقد قال الكسائي قولاً لا أراه شيئًا. قال: هو عماد مثل قوله: «انه أنا الله» فجعل «أحد» مرفوعًا بـ «الله» وجعل «هو» بمنزلة «الهاء» في «انه» ولا يكون العماد مستأنفًا به حتى يكون قبله «إن» أو بعض اخواتها أو «كان» أو «الظن».[2] ومن المصطلحات التي استعملها بكثرة واضحة لا تحتاج إلى التمثيل: «الجحد» و «الخفض» و «النسق» والأولان وردا في كتاب سيبويه مشروحًا بهما النفي والجر. و «القطع» وهو «الحال» عند البصريين.[3] وقد يسمي «ضمير الشأن» إذا كان محذوفًا: «المجهول»[4] ويسمي «الظرف» و «حرف الجر»: «الصفة»، و «التمييز»: «التفسير»، و «البدل»: «الترجمة» و «اسم الاشارة»: «المثال». فإن كان المصطلح غير مستقر نجده يشرحه ويمثل له ويعلل ويكرر الكلام عليه في أكثر من موضع. وقد اتضح ذلك في مصطلح «التقريب» فقد جاء في مجالسه: «أملَّ في «هذا»، قال: «هذا» لا تكون «مثالاً» وتكون «تقريبًا»، فإذا كانت «مثالاً» قلت: «هذا زيد» «هذا الشخص شخص زيد» وان شئت قلت: «هذا الشخص كزيد»،

---

(١) مجالس ثعلب ١/ ٣١٠ وينظر في مثل هذه ١/ ٤٣ و ٣٠٩.

(٢) مجالس ثعلب ٢/ ٣٤٥ ومعاني القرآن ٣/ ٢٩٩.

(٣) ينظر مجالس ثعلب في «القطع» ٢/ ٥٢٩.

(٤) مجالس ثعلب ١/ ٢٧٢.

واذا قلت: «هذا كزيد قائمًا» فهو حال، كأنك قلت: «هذا زيد قائمًا» ولكنك قد قربته، وتكون تشبيهًا في«كزيد هذا منطلق» و «كزيد قائم» وهذا يجري مجرى الخبر. قال: وقال سيبويه: «هذا زيد منطلقًا» فأراد أن يخبر عن «هذا» بـ «الانطلاق» ولا يخبر عن «زيد» ولكنه ذكر «زيداً» ليعلم لمن الفعل. قال أبو العباس: وهذا لا يكون إلا «تقريبًا وهو لا يعرف «التقريب» ، و «التقريب» مثل «كان» الا أنه لا يقدم في «كان» لأنه رد كلام فلا يكون قبله شيء[1]» ثم تحدث عن استعمال «هذا» مع الضمير»، ومع المعرف بـ «ال» ومع «ما كان واحداً لا شبيه له» ومتى يكون تقريبًا مع هذه ومتى لا يكون. ومما يدل على ان المصطلح غير مستقر عند الكسائي والفراء اعادة ثعلب الكلام عليه في موضع آخر من مجالسه عارضًا مذهب سيبويه في عدم جواز دخول «ضمير الفصل» بين الحال وصاحبها، ولذلك خطأ قراءة: «هؤلاء بناتي هُنَّ أطهرَ لكم»- بنصب أطهر- بكونه حالاً من «بناتي»، وقال بعده. «وذهب أهل الكوفة الكسائي والفراء إلى أن «العماد» لا يدخل مع هذا»، لأنه «تقريب»، وهم يسمون «هذا زيد قائمًا: «تقريبًا» أي: قُرِّبَ الفعل به، وحُكِي: «كيف أخاف الظلم وهذا الخليفة قادمًا»، فكلما رأيت «هذا» يدخل ويخرج والمعنى واحد فهو «تقريب»: «من كان مرزوقًا فهذا الصياد محرومًا» و «الصياد محروم» بإسقاط «هذا» بمعنى. فقد دخلت لتقرب الفعل مثل «كان». و «التقريب» على هذا كله. فـ «كان» جواب لتقريب الفعل، و «العماد» جواب للمعهود، و «كان» مخالف لـ «هذا»، فلم يجتمع هو وهو، وقال هذا توكيد لهذا، وهذا توكيد لهذا»[2]. ومن هذه المصطلحات التي لم تكن مستقرة ولا واضحة في أذهان الكوفيين، مما اختلفت تسمياتهم له «اسم الفاعل» العامل عمل فعله عده الكوفيون قسمًا من أقسام الفعل الثلاثة وهي عندهم: الماضي والمستقبل والدائم. قال ثعلب: «ولا تجيء «عسى» الا مع مستقبل ولا تجيء مع «ماض» ولا «دائم» ولا «صفة»[3] وقال: «ولا يحال بين «الدائم» والاسم بـ «ما»: طعامك ما آكلٌ عبدالله» قال: جائز في قول الكسائي»[4] لكنه سماه في الموضعين «الدائم» وورد على لسانه بهذا الاسم في مجلس ثعلب مع ابن كيسان في «مجالسُ العلماء» للزجاجي إذ ورد فيه هذا المصطلح على لسان الفراء «الفعل الدائم» و «الفعل».[5] وتابع الكوفيين والبصريين معًا في موقفه من الحديث فلم يحتج به في مسائل نحوية أو صرفية، ولم يبَن

---

(١) مجالس ثعلب ١/ ٤٢- ٤٤.

(٢) مجالس ثعلب ٢/ ٣٥٩- ٣٦٠.

(٣) مجالس ثعلب ٢/ ٣٩٥.

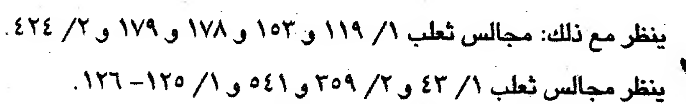
(٤) مجالس ثعلب ١/ ٢٧١.

(٥) ينظر مجالس العلماء ٣١٨ و ٣٤٩.

عليه قاعدة فيهما، وانما ورد في مجالسه محتجًا به في أمور لغوية وجميع اللغويين والنحاة يجيزون ذلك، أو في أمور تهذيبية أو عامة تبين حكم أمر من الأمور أو عمل من الأعمال، وقد مرت أمثلته في النص المنقول عن المجالس[1]. وتابعهم في موقفه من القراءات، إذ كان يعرض للقراءات الوارد فيها رد من النحاة البصريين والكوفيين سواء ما اتفق فيه سبب الرد والرفض أو اختلف، صرح بالرفض كما هو واضح عند الكوفيين أم لم يصرح به فيعرض آراءهم من غير تبيين موقف صريح مما يدل على المتابعة وذلك كثير في مجالسه[2]. وقد تابع ثعلب الكسائي والفراء في كثير من الآراء متفقين كانا فيها ام مختلفَين، واحتج لما يؤيد أقوالهما ويرد في الوقت نفسه على غيرهما من النحويين وذلك في مسائل، منها متابعته للكسائي في تجويزه حذف «لام الأمر» من المضارع المجزوم مع أنه كان يرى ان بقاءها أجود.[3] ومتابعته للكسائي والفراء معًا في جعلهما «كما» من نواصب المضارع بشرط عدم الفصل. والبصريون يذهبون إلى أن أصلها «كيما»[4].

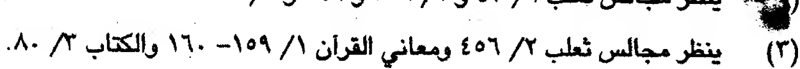
وخالفهما في آراء منها: ذهابه إلى أن إهمال «أن» الناصبة للمضارع لغة، وعدّه الفراء قياسًا،[5] ووافق الكسائي في مسائل خالف فيها الفراء، إلا انه تابع الفراء في معظم المسائل التي خالف فيها الكسائي[6].

ولثعلب بعد هذا آراء خاصة به منها: عده الفعل «نشب» مما يعمل عمل «جعل» من أفعال الشروع، وعده الفعل «قام» منها أيضًا وعاملاً عملها[7]. ونسب اليه ابن هشام: القول بأن «عسى»



(1) ينظر مع ذلك: مجالس ثعلب ١/ ١١٩ و ١٥٣ و ١٧٨ و ١٧٩ و ٢/ ٤٢٤.

(2) ينظر مجالس ثعلب ١/ ٤٣ و ٢/ ٣٥٩ و ٥٤١ و ١/ ١٢٥- ١٢٦.



(٣) ينظر مجالس ثعلب ٢/ ٤٥٦ ومعاني القرآن ١/ ١٥٩- ١٦٠ والكتاب ٣/ ٨٠.

(٤) ينظر مجالس ثعلب ١٢٧- ١٢٨ وينظر غيره في مجالس ثعلب ١/ ١٢٤ و ١٩٦ و ٨٠ و ٢٧٢ و ٥٩- ٦٠ ومعاني القرآن ١/ ١٩٦.

(٥) ينظر مجالس ثعلب ١/ ٣٢٢ ومعاني القرآن ١/ ١٤٦ والخصائص ١/ ٣٩٠ وينظر غيرها في مغني اللبيب ٤٥٢ ومجالس ثعلب ١/ ٣١٧ والانصاف مسألة ٧٧.

(٦) ينظر مجالس ثعلب ١/ ٢٦٦- ٢٦٧ و ٢/ ٣٦٢ و ٥٢٦ و ١/ ٤٢ والانصاف مسألة ١٤.

(٧) ينظر مجالس ثعلب ١/ ١٧٦ وهمع الهوامع ١/ ١٢٨ ط ١ وفي غيرها الانصاف مسألة ٢٩.

حرف وليست فعلاً، والذي في مجالسه ما يدل على انه يراها فعلاً فلم ينفرد برأي خاص[1]. وذهب إلى أن المضارع المنصوب بعد «الواو» و «الفاء» و «أو» انما نصب لدلالة الجمل التي هي فيها على معنى الشرط مخالفًا في ذلك الفراء والكسائي في ذهابهما إلى انهما منصوبان بالصرف أو بالخلاف[2]. وانفرد برأي غريب في إعراب المثنى وجمع المذكر السالم لم يقل به أحد من السابقين، وذلك قوله ان «الألف» في المثنى بدل من ضمتي «زيد وزيد»، وأن «الواو» في الجمع السالم بدل من الضمات الثلاث في «زيد وزيد وزيد». وهو توجيه بعيد لا يطرد. وقد ردّ عليه الزجاج ردًّا مطولاً واضحًا[3]. وذهب إلى أن رفع المضارع انما هو بمعنى المضارعة، وأخيرًا فقد جاء بتعليل غريب تفرد به لقولهم: «الاسم اخف من الفعل» إذ علل الكسائي والفراء وهشام ذلك بقولهم: ان الاسم يستتر في الفعل والفعل لا يستتر في الاسم، فجاء ثعلب محاولاً الاجتهاد فقال: «الاسماء أخف من الأفعال لأن الأسماء جوامد لا تتصرف والأفعال تتصرف فهي أثقل منها»[4].

ويبدوا أن ثعلبًا قد تحرر من سيطرة الآراء الكوفية عليه فأيد البصريين في بعض الأمور، منها: أصول القياس، فقد حكم بأن ما يخرج على الأقيسة ويأتي قليلاً في كلام العرب فهو الشاذ وان تعددت الشواهد لأنها مع تعددها مخالفة للقياس، كما في ذهابه إلى أنه لا يجوز نصب المضارع بلا ناصب ظاهر، مع قولهم: «خذ اللص قبل يأخذَك».. فقال: هذا شاذ، وقال: «خذ اللص قبل يأخذُك»- بالرفع- القياس، وأنشد شاهداً آخر هو قول الشاعر:

الا أيُّهذا الزاجري أحضرَ الوغَى

وأن اشهَد اللّذّاتِ هل أنت مُخلِدي؟

وقال فيه: ويروى «أحضرُ» وقال: الرفع القياس» ومع أن هذا الشاعر جاهلي فان ثعلبًا لم يغير قياسه لقوله هذا، ولا أوله بوجه من التقدير، أما الكسائي فقد أجاز حذف «أن» قياسًا مع بقاء النصب، ومنعه البصريون، وثعلب هنا يؤيدهم فيه[5]. ومثل هذا في قوله بالشذوذ مع وجود الشاهد ومتابعته البصريين فيه منعه وقوع الاسم الظاهر المنصوب خبراً لـ «عسى» مع وجود قولهم «عسى

---

(١) ينظر مجالس ثعلب ١/ ٢٠٩ و ٣٠٧ ومغني اللبيب (عسى).

(٢) ينظر همع الهوامع ١/ ١٤ ط ١.

(٣) ينظر الايضاح في علل النحو ١٤١.

(٤) ينظر الايضاح في علل النحو ١٠١، وهمع الهوامع ١/ ١٦٤ في علة رفع المضارع.

(٥) ينظر مجالس ثعلب ١/ ٣١٧ ومغني اللبيب ٤٥٢ والانصاف مسألة ٧٧.

الغويرُ أبؤسًا» الذي قاس عليه الكسائي. أما ثعلب فقال: «وهو شاذ، «عسى زيد قائما» «شاذ»[1] ويروى أن ما جاء في الشعر مخالفًا للقاعدة يعد شاذًا أيضًا قال: «وإذا جاء في الشعر بخلاف ذا قيل شاذ»[2]. ومن الظواهر ما تعدد مجيئه في الشعر مما يخالف القياس، فلم يقس عليه وانما عده من باب الضرورة الشعرية كما في الفصل بين المضاف والمضاف اليه بالظرف والمفعول به ونحوه جاء في الشعر:

لما رأتْ ساتِيدَ ما استعْبَرَتْ لِلـهِ درُّ اليـومَ مَنْ لامهـا

اعترض بـ «اليوم» بين «دَرَّ» و «منْ». وقال:

فـزجَجْتُهـا متمـكِّنًـا زجَّ القلـوصَ ابـي مـزاده

وأنشده بعضهم:

زجَّ الصعابَ ابي مزاده

أراد: «زج أبي مزادة الصعاب»، ثم اعترض بـ «الصعاب». وجاء بعده بقوله:

رب ابن عمٍّ لسليمى مشمعل طبّاخ ساعاتِ الكرى زادَ الكسل

في إضافة الاسم إلى الظرف ونصب المفعول بعده، والأصل الاضافة إلى المفعول فيقال فيه: «طباخ زاد الكسل ساعات الكرى». وعلق على هذين الموضعين- ما ورد فيه شاهدان وما ورد فيه شاهد واحد بقوله: «لا يجوز الا في الشعر»[3]. ومما يجوز عنده في الشعر أيضًا ولا يجوز في الكلام الفصل بين التفسير وما فسره[4] والقليل عنده هو الشاذ، أما المسموع كثيرًا في كلام العرب فلا يقال فيه شاذ، فلا يعد دخول «الباء» على الفاعل شاذًا لأنه قد ورد في أمثلة كثيرة من الشعر والنثر فقال: «وهذا كثير في كلام العرب لا يقال شاذ»[5].

وجميع هذه الآراء التي قال بها ثعلب آراء بصرية خالف بعضها الكسائي وخالف الفراء بعضًا. وتابعهم أيضًا في اللجوء إلى التأويل فيما ورد من شعر الفصحاء مخالفًا للقياس، جاء في المجالس: وأنشد للفرزدق:

يا ايها المشتكي عُكْلا وما جَرِمَتْ

إلى القبائـل مـن قتلٍ وإبـاسِ

---

(1) ينظر مجالس ثعلب ١/ ٢٠٩ و ٣٠٧.

(2) ينظر مجالس ثعلب ١/ ٦٤.

(3) مجالس ثعلب ١/ ١٢٥- ١٢٦ وينظر ١/ ٤-٣.

(4) أي التمييز ومميزه.

(5) مجالس ثعلب ٢/ ٤٢٤- ٤٢٥.

إنـــا كــذاك إذا كانـــت هَمَرَّجَةٌ

نسبِي ونقتل حتى يَسْلَمَ الناسُ

قـال: قلت له: لم قلت: «من قـتل وابآس؟ «فـقـال: ويـحك، فكيف أصنـع وقد قلت: «حتى يسلم الناسُ»؟ قال: قلت: فبم رفعته؟ قال: بما يسوؤك وينوؤك. قال أبو العباس: وانما رفعه لأن الفعل لم يظهر بعده كما تقول: «ضربت زيداً وعمرو» لم يظهر الفعل فرفعت، وكما تقول: «ضربت زيداً وعمرو مضروب»[1].

ومثله في التأويل قوله في بيت الفرزدق:

وعضّ زمان يا ابنَ مروانَ لم يَدَعْ

من المالِ إلا مُسْحَتًا او مُجَلَّفُ

«نصب: «مسحتًا» بوقوع «يدع» عليه، وقد وليه الفعل، ولم يل «مجلفًا» فاستؤنف به فرفع، والتقدير: «هو مجلف»[٢] وهذا هو تأويل البصريين لرفع «مجلف» في هذا البيت.

ويتضح مما تقدم أن ثعلبًا كان ذا ثقافة واسعة وحفظ كثير، وكان مطّلعًا على آراء السابقين من كوفيين وبصريين مما جعله قادرًا على أن يتخذ موقفًا في كثير من المسائل النحوية، وأن يكون صاحب رأي يعتد به في النحو الكوفي.

---

(1) مجالس ثعلب ١/ ٤٠- ٤١- والمحاورة في أول النص بين الفرزدق وعبدالله ابن ابي اسحاق الذي كان يتتبع لحنه كما هو معروف. والهمرجة: الاختلاط والفتنة- وينظر في مثله من التأويل المزهر ٢/ ٩٢ و ١/ ٢٩٣.

(٢) الخزانة ٢/ ٣٤٨.

الفصل الثالث

النحو في بغداد

المبحث الأول

التقاء المذهبين

بغداد:

كانت بغداد قرية صغيرة فيها سوق تجاري عظيم تحيط به قرى صغيرة تتعامل معها، وأصبحت بعد التحرير الاسلامي من أرض الخراج التي جعلها عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وقفًا، وبقيت كذلك حتى جاء أبو جعفر المنصور فأسس فيها عاصمة ملكه سنة ١٤٥ هـ وانتقل اليها سنة ١٤٩ هـ.[1] وقد بناها ليجعلها مقرًا لخلافته ينتقل اليها من «الهاشمية» التي اختطها أخوه أبو العباس السفاح قرب الكوفة وجعلها عاصمة الخلافة العباسية فلما مات السفاح بقي المنصور فيها إلى ان انتقل إلى بغداد[2] بعد أن أحس أن مقامه بين أهل الكوفة أو قريب منهم يعرضه لمخاطر كثيرة ومتاعب متنوعة بسبب استئثار العباسيين بالخلافة دون ابناء عمهم من العلويين الذين كان أهل الكوفة يشايعونهم.

بنيت بغداد على آثار قرى قديمة، وكانت الهجرة اليها متوالية متتابعة من مدن العراق كالكوفة والبصرة وواسط والجزيرة عدا من اصطحبهم أبو جعفر المنصور من رجال الدولة، وبهذا اختلط السكان وتقاربوا وامتزجت حضاراتهم وثقافاتهم وطبائعهم التي تكونت منها حضارة بغداد[3].

كانت نشأة الاعتزال وعلم الكلام ودراساته في البصرة ونشأة الدراسات النحوية واللغوية والأدبية وتطورها منذ زمن أبي الأسود وتلاميذه في البصرة والكوفة ونهضة الرواية اللغوية والشعر العربي في الكوفة، بواكير الثقافة العقلية الواسعة التي شهدها العراق منذ بداية انتشار الاسلام فيه وانتشرت وتنوعت بعد تمصير المدينتين العظيمتين. وكان لتشجيع الخلفاء العباسيين منذ زمن أبي جعفر المنصور العلماء والأئمة أثر ظاهر في مواصلة العمل والبحث والتعمق فيه فاشتهروا وازدهرت علومهم في بغداد، وقد جاوز تشجيع الخلفاء هؤلاء العلماء إلى المشتغلين بالطب والفلك،

---

(١) ينظر معجم البلدان (بغداد) ١/ ٤٥٧، وتاريخ بغداد ١/ ٢٥- ٢٦ والشعر في بغداد ١٤- ١٧.

(٢) معجم البلدان (بغداد) ١/ ٤٥٧.

(٣) ينظر تاريخ بغداد ١/ ٦٧ والكامل لابن الأثير ٥/ ٤٣٩ وتاريخ الطبري ٩/ ٢٧٩ ومروج الذهب ٣/ ٢٣٦ و ٢٨٠ و ٢١٤- ٢١٥ و ١/ ٨٠، والشعر في بغداد ٣٥- ٣٩.

والرياضة وغيرها من العلوم. وتم نقل علوم هؤلاء من اليونانية وغيرها في عصر الخلفاء العباسيين، أما قبل هذا فقد كان اهتمام العرب منصبًا على العلوم الاسلامية واللغوية على اختلاف فروعها التي نشأت ونمت وتحددت معالمها وأصولها في عصر الدولة الأموية كعلم القراءات والتفسير والحديث وعلومه والفقه وعلوم اللغة العربية من أدب ولغة ورواية ونحو، وعلم التاريخ وما يتعلق به من دراسات كل هذه كانت قد نشأت ونمت وبلغت حدًا من التطور والنضج قبل عصر الترجمة ودخول الثقافات الأجنبية واختلاطها في أذهان علماء هذه الأمصار الاسلامية فبقيت علومها عربية اسلامية أصيلة في نشأتها ومادتها ومناهج الدرس فيها. ولم تؤثر فيها هذه الترجمات تأثيراً مباشراً[1]. ومرت الترجمة للثقافات الأجنبية بثلاث مراحل تبدأ الأولى بالمنصور وتنتهي بالرشيد (١٣٦- ١٩٣ هـ) وفيها وضعت الأصول والتقاليد العامة للترجمة والمترجمين، وكانت الترجمة فيها من علوم متنوعة كالأدب والمنطق والطب والفلك والهندسة من ثقافات مختلفة اغريقية وهندية وفارسية وغيرها وكانت الدولة هي التي ترعى هذه الحركة وتشجع القائمين بها[2] وبدأت المرحلة الثانية بعصر المأمون واستمرت إلى آخر القرن الثالث (١٩٨- ٣٠٠ هـ) وقد سمي هذا العصر: العصر الذهبي للترجمة، وتميز بالاتصال المباشر بالثقافات الأجنبية عن طريق العرب أنفسهم بعد أن كانت تعتمد على السريانية ولا سيما الفلسفة والمنطق بتأثير المأمون نفسه الذي بلغت الترجمة لهذه العلوم في زمانه أوج نشاطها. وكانت المرحلة الثالثة (بعد ٣٠٠ هـ) امتداداً لعصر المأمون، وكان الاهتمام فيها بالتراث الاغريقي والعناية بالعلوم الانسانية.[3] هذه العناية التي وجهها الخلفاء إلى الترجمة والمترجمين أثارت غضب العلماء المسلمين فاغلظوا القول للخلفاء الذين أخذوا يجهدون في استرضائهم ولا سيما الفقهاء منهم والمحدثون والمتكلمون، وشمل علماء اللغة وأهل الأدب ورواة لأخبار والنحاة، واختص الرشيد بتقريب الفقهاء والنحاة[4] وكان المأمون أكثر من أبيه

---

(١) ينظر مسالك الثقافة الاغريقية إلى العرب ٢٤٢ والتراث اليوناني في الحضارة الاسلامية ١٧٣-٢١٧.

(٢) ينظر مقدمة ابن خلدون ٤٨٠- ٤٨١ وعيون الانباء في طبقات الأطباء ١/ ١٨٧، ومسالك الثقافة الاغريقية إلى العرب ٢٣٦- ٢٣٧ والحيوان للجاحظ ١/ ٥٥- ٥٦.

(٣) ينظر طبقات الأمم ٧٦. والفهرست لابن النديم- في علوم متعددة- ومسالك الثقافة الاغريقية إلى العرب ٢٥٦، وعيون الأنباء ١/ ٢٣٥ وما بعدها و ٢٣٢ و ٢٣٤ وتقويم الفكر النحوي ٤٥ وما بعدها.

(٤) ينظر مروج الذهب ٣/ ٢٦٣ ومجالس ثعلب ٢/ ٣٥٤- ٣٥٥ و ٣٧٩.

اهتمامًا بالعلماء ورعايتهم ولا سيما الفقهاء والنحاة[1] وعلماء العربية، وكان يتتبع ما يقع في مكاتباته من لحن حتى قال لأحدهم: «لا تكتبن اليَّ كتابًا حتى تعرضه»[2] أي على علماء العربية لما وقع فيه من اللحن.

بدأ علماء الدراسات الاسلامية والعربية بتدوين علومهم في الوقت الذي جرى فيه انشاء مدينة بغداد، وتم تصنيف كتب الفقه والحديث والدراسات القرآنية في مكة والمدينة والشام والبصرة والكوفة، ودونت كتب الأدب واللغة والنحو والتاريخ وأيام العرب، أما بغداد فقد بدأ تصنيف الفقه فيها بأبي حنيفة وهو كوفي المولد والمنشأ، وتسربت الثقافة إلى بغداد عن طريق علماء الكوفة وفقهائها وأصحاب اللغة والنحو فيها لأن الكوفة أقرب إلى بغداد من البصرة، ولأن أهلها أقرب إلى العباسيين وأسهل انقياداً لهم من أهل البصرة الذين كانوا عثمانيين فنشأ منهم الخوارج والمعتزلة، إلى غير ذلك من الأسباب[3] التي جعلت العباسيين يتخذون من علماء الكوفة حاشيتهم ومؤدبي أبنائهم ومستشاريهم في الأمور الفقهية والشرعية واللغوية والنحوية كالكسائي الذي استدعاه المهدي إلى بغداد وهو في أوج نشاطه العلمي ورعاه وجعله مؤدبًا لابنه الرشيد الذي لازمه ملازمة الظل وشجعه على أن يواصل بحثه ودرسه وتدريسه فاشتهر اسمه في بغداد وأشاع النحو الكوفي بين الدارسين في عاصمة الخلافة الاسلامية، وأعقبه على مجالس الدرس النحوي الكوفي ببغداد تلميذه الفراء الذي سمع بما وصل اليه الكسائي من عز وجاه على يد الخلفاء فترك بلده الكوفة ورحل إلى بغداد يتعلم على الكسائي ويصاحبه ثم يتصدر مجلس الدرس بعد وفاته، ثم خلفهما ثعلب على مجالس الدرس النحوي في بغداد.

التقاء المذهبين النحويين في بغداد:

كان لهذا التشجيع الذي لقيه العلماء ومنهم النحاة من خلفاء الحاضرة الاسلامية أكبر الأثر في انتشار النحو الكوفي فيها على يد الكسائي وتلاميذه حيث ظل مسيطرًا على مجالس الدرس فيها لسنوات طويلة، وقد أدى هذا إلى نشوء صراع شديد بين البصريين حملة النحو البصري ذي الأسبقية والتقدم والأصالة الذي قامت أصوله وثبتت أركانه ونمت وتطورت وبلغت مرحلة النضج والاكتمال قبل أن تعرفه الكوفة بمائة عام أو يزيد، ونشأت دراساته ونمت قبل تمصير بغداد- والكوفيين الذين بنوا نحوهم على أصول الدرس النحوي البصري وطوروا فيه بتغيير منهج درسه

---

(١) ينظر مروج الذهب ٣/ ٢٦٣ ومجالس ثعلب ٢/ ٣٥٤- ٣٥٥، ٣٧٩.

(٢) مجالس ثعلب ١/ ١٢ وينظر ٣٩. والشعر في بغداد ٤١ وما بعدها.

(٣) ينظر ضحى الاسلام ٢/ ١١ والشعر في بغداد ٤٠- ٤٤.

على ما ألفوه في مناهج بحثهم للعلوم الاسلامية من توسع في الرواية وتعميم للقياس. هذا الصراع الذي أوجده ونماه الخلفاء العباسيون ابتداء من المهدي الذي شجع الكسائي وأصحابه وجعل الغلبة في عاصمة الدول الاسلامية للمذهب الكوفي الذي نما على أكتاف المذهب البصري، ولم يجد علماء النحو البصريون لهم مكانًا في بغداد التي احتل الكوفيون مجالس الدرس فيها، فقد جاء اليها سيبويه، ورجع خائبًا لتغلب الكسائي عليه بمعونة أصحابه في مناظرة حكّم فيها أعراب بغداد الذين كان الكسائي يأخذ بلغتهم ويستنبط منها ومن أمثالها أقيسته وأحكامه في تجويز بعض الظواهر النحوية مما لم يكن من منهج سيبويه وأشياخه الأخذ بها وإنما أخذوا عن العرب الخلص الفصحاء الذين نزل بلغتهم القرآن وهكذا كتب لسيبويه أن يعود من حيث أتى، وكان مما تسبب في نتائج هذه المناظرة تشجيع الوزراء له وهم أصحابه وجماعته وأهل مسكنه. وجاء الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة محمَّلاً بعلم سيبويه وشيوخه مدفوعًا بالحقد على الكوفيين لما فعلوه مع استاذه سيبويه ولتسببهم في موته، جاء إلى بغداد ليثأر من الكسائي ويحاول أن يذهب هيبته بين الخلفاء وأصحاب السلطان فيها وبين تلاميذه وأصحابه، إلا أن الكسائي بما يملكه من دهاء وبما يحيط به من جاه وثراء استطاع أن يستميل الأخفش وأن يرغبه بالمال ويجعله مدرِّسًا لأولاده ويطفئ في نفسه الحماسة لنشر المذهب البصري، والرغبة في الثأر لشيخه فاكتفى بذلك واستقر وأصبح مناصرًا للكسائي متأثّرًا بمنهجه في أمور كثيرة مما دعاه إلى مخالفة سيبويه في مسائل كثيرة ترويها كتب النحو والصرف، ونبّه النحاة على عوار كتاب سيبويه كما يُروَى عن الكسائي[1] بعد أن كان المدافع عن آرائه ومنهجه. ولم ينجح من البصريين في أن يجد له مكانًا في بغداد غير المبرد أبي العباس محمد بن يزيد المتوفى (٢٨٥ هـ) الذي رحل من البصرة لاستدعاء المتوكل اياه إلى سامراء للافتاء في مشكلة نحوية في قراءة آية من كتاب الله حصلت بينه وبين وزيره الفتح بن خاقان. بقي المبرد في سامراء مدة حياة المتوكل وغادرها بعد مقتله قاصداً بغداد حيث حل فيها غريبًا وضاقت به الحال وهو إمام البصريين لزمانه في النحو وعلوم العربية الأخرى، وحامل لواء مذهبهم فيه، فاستطاع بما عرف عنه من سعة اطلاع وتضلع في علم النحو واللغة وتمرس بأساليب الحجاج والتعليل والقياس والتأويل أن يفسح له مكانًا بين النحاة الكوفيين وأصحابهم في بغداد، وعرف كيف يجتذب اليه أكبر مجموعة من تلاميذ ثعلب الذين أذهلهم وأثار دهشتهم وإعجابهم بما عرضه امامهم من أساليب جديدة على الدرس النحوي في بغداد فانحازوا اليه وانصرفوا عن شيخهم ثعلب، ونبذوا كتب المذهب النحوي الكوفي- بطلب من الميرد كما تروي كتب الطبقات ولازموا المبرد

---

(١) ينظر مراتب النحويين ٦٨ وهمع الهوامع في مواضع كثيرة والمدارس النحوية ٩٥ و ٩٦.

ملازمة مكتبتهم من الاطلاع على ما في هذا النحو الأصيل الذي كان معزولاً عن مجالس الدرس في بغداد، ولم يصل اليهم منه إلا ما تعرض له نحاة الكوفة برد أو تخطئة أو استدراك أو تصحيح مما شوه صورته في أذهانهم وربما رغبتهم عنه. وشهدت بغداد بعد هذا اشتداد المنافسة بين أنصار المذهبين البصري والكوفي واتباعهما ممثلين في علمين من أعلامهما، عُدّا آخر شيوخ المدرستين وعلميهما الشهيرين اللذين انتهت اليهما رياسة الدرس النحوي وهما: أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (-٢٨٥ هـ) ممثل النحو البصري، وأبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب (-٢٩١ هـ) ممثل النحو الكوفي.

كان أول لقاء بين المبرد وأصحاب ثعلب في مسجد بغداد الذي كانوا يلتقون بشيخهم ثعلب فيه يتحلقون حوله ويسمعون منه ما قال الكسائي وما قال الفراء، وما روي من شواهد شعرية ونثرية جاءت على آرائهم هذه، فإذا حاول طلبته أن يستوضحوه عما يطرأ على أذهانهم من علل وتخريجات قال: لا أدري. فحلّ هذا الغريب بينهم وأخذ يتحدث في مسائل نحوية محاولاً ايهام الناس بأنه سئل عنها، وكان يرفع صوته بذلك جاذبًا اليه انتباه من في حلقات الدرس المتعددة المتنوعة من دارسين وغيرهم، فتحلقوا حوله، وكان ممن تنبه عليه ثعلب الذي لم يكن يرغب في أن يحل في المدينة من ينافسه في علمه هذا، فطلب من تلاميذه أن يذهبوا لمناقشة هذا الغريب ومحاولة إسكاته وكان على رأس الذاهبين أبو اسحاق الزجاج الذي ناقش المبرد في عدد من المسائل كان أبو اسحاق الزجاج يسأل عنها والمبرد يجيب حتى إذا اقتنع الزجاج بالجواب عاد على جوابه بالنقض وبناء حجة معارضة يقيمها على ما عرف عنه من حجة واضحة وبيان فصيح وتمرس بالعلل، وبقي الحال بهما على هذا، أبو اسحق يسأل والمبرد يجيب حتى والى بين أربع عشرة مسألة يجيب عن كل منها الجواب المقنع ثم يعود عليه بالنقض فيفسد جوابه الأول، ثم يعود إلى افساد النقيض وتصحيح الجواب الأول. والناس الذين تحلقوا حولهما معجبون مندهشون لقدرة هذا الشيخ وتمكنه مما يشرح وفصاحته فيما يقول وقوة حجته التي يستطيع بها اقناع السامع نقضًا وايجابًا. وهكذا انصرف كثير من الدارسين عن ثعلب وانحازوا الى المبرد ولازموه، وكان أولهم إلى هذا أبو اسحق الزجاج الذي طرح المذهب الكوفي اطّراحًا تامًا من درسه ومن مؤلفاته وأبو علي الدينوري ختن ثعلب الساكن في داره الذي كان يجتاز حلقة ثعلب متوجهًا إلى حلقة المبرد وهو يحمل أوراقه ومحبرته ليثبت ما جد عليه من مسائل هذا النحو. ومنذ هذا اليوم غدا شيخًا جديدًا يحمل أصولاً جديدة ونحواً جديداً يختلف في منهجه عن المنهج الكوفي المعروف في بغداد. هذا الاختلاف الذي أوجدته طبيعة الدرس النحوي الذي سار عليه كل منهما منذ التحقا بمجالس درس هذا العلم وتعلقا بأصوله حتى أصبحا شيخي مدرستيهما في سن مبكرة عما عرف في امثالهما من شيوخهما

وتلاميذهما، فجذبا اليهما منذ صباهما انظار الشيوخ والتلاميذ وأثارا دهشتهم واعجابهم بما كانا عليه من علم بنحو بلديهما وحفظ لكتب شيوخهما ولشواهد اللغة شعرية ونثرية. إلا أن المنهج الذي شبا عليه أثر في تفكيرهما وفي طريقة استفادتهما من المخزون اللغوي الذي لديهما، إلا أن منهج الدرس النحوي البصري واعتماده على الاحتجاج والتعليل والتأويل والأقيسة الثابتة حرك عقل المبرد ومرنه على هذه الأصول التي لم يكن منهج ثعلب ومدرسته الكوفية يسير عليها أو يتبعها إلا في النادر وانما كان يعتمد الحفظ والرواية ونقل المحفوظات كما هي إلى الطلبة وأدى هذا بثعلب إلى ركود الذهن وعدم شحذه بالتنظير والقياس والبحث عن العلل واستنباط الأقيسة. وكان لهذا المنهج الجديد الذي طرأ على الدرس النحوي في بغداد الأثر البعيد في اجتذاب الدارسين اليه لكي يطلعوا عليه- بعد اطلاعهم على النحو الكوفي وأصوله وأقيسته وآراء شيوخه ومنهجه- ويستطيعوا المقارنة بين النحوين والتمييز بينهما على أساس من المعرفة بكل منهما. ولهذا وجدنا علماء عصرهما يتركون لنا فيهما أقوالاً. فقال الازهري: «وكان محمد بن يزيد أعذب الرجلين بياناً واحفظهما للشعر المحدث والنادرة الطريفة والأخبار الفصيحة، وكان أعلم الناس بمذاهب البصريين في النحو ومقاييسه.[1] وقال فيه أبو بكر بن مجاهد: «ما رأيت أحسن جواباً من المبرد في معاني القرآن فيما ليس فيه قول لمتقدم، ولقد فاتني منه علم كثير لقضاء ذمام ثعلب»[2] وقال المبرد نفسه في ثعلب: أعلم الكوفيين ثعلب، فذكر له الفراء فقال: «لا يعشره»! ولكونهما زعيمي مدرستيهما واماميْن في علم واحد على اختلاف منهجيه قال فيهما أبو بكر بن السراج وقد سئل: أي الرجلين أعلم؟ أثعلب أم المبرد؟ فقال: ما أقول في رجلين العالم بينهما؟»[3].

مدرسة بغداد النحوية:

وردت في الكتب النحوية المتأخرة تسميات مثل: «مدرسة بغداد النحوية» أو «النحو البغدادي» أو «النحاة البغداديين» أو «البغداديين» أو «نحاة بغداد». ولكي نقف على هذه المسألة لا بد من أن نتعرض لموقف القدماء والمعاصرين منها لتتضح الرؤية وينجلي الموضوع.

---

(١) مقدمة التهذيب للازهري.

(٢) أخبار النحويين البصريين ٧٧ ونزهة الالباد ١٤٩. .

(٣) تاريخ بغداد ٥/ ٢٠٩ ونزهة الألباء ١٥٨ ومعظم الكتب التي ترجمت لهما.

١- موقف القدماء:

كان أول من ترجم للنحاة وتحدث عن نشأة النحو محمد بن سلام الجمحي (-٢٣١ هـ)، ولم يتحدث إلا عن النحاة البصريين الأوائل وأولهم أبو الأسود الدؤلي وانتهى بالخليل، ولم يتطرق لذكر من بعد البصريين ممن وجد في زمانه من النحاة ولا تعدى الخليل شيخ النحاة البصريين (-١٧٠ هـ). وجاء بعده ابن قتيبة الدينوري (-٢٧٦ هـ) وتحدث في كتابه «المعارف» عن النحويين لكنه لم يجاوز بهم الكسائي (-١٨٩ هـ) والفراء (٢٠٧ هـ) من النحاة الكوفيين، والأخفش الأوسط[١] سعيد بن مسعدة (-٢٧١ هـ). وكان أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي -٣٥١ هـ) أول من وصل الينا له كتاب في طبقات النحويين، سماه «مراتب النحويين» ولم يرتبه بحسب طبقات النحاة، ولا قسمه إلى مذاهب أو مدارس وانما تحدث عن البصريين والكوفيين بادئًا بأبي الأسود الدؤلي مترجمًا لأوائل النحاة البصريين ممن لم يكن في زمانهم أحد من النحاة الكوفيين، وكان أول من ترجم له منهم أبو جعفر الرؤاسي الذي قدَّم ترجمته على الخليل، ثم أخذ يترجم لمن يقابل البصريين من الكوفيين ويعود إلى البصريين ثم من يقابلهم، وهكذا حتى ينتهي الكتاب بالقاسم الانباري والد أبي بكر بن الانباري من النحويين الكوفيين، ولم يتطرق لذكر مدرسة بغدادية ولا لنحاة بغداديين إلا أنه وردت عنده اشارتان إلى مدينة بغداد أولاهما بعد ترجمته للفراء قال فيها: «فلم يزل أهل المصرين على هذا حتى انتقل العلم إلى بغداد قريبًا، وغلب أهل الكوفة على بغداد، وحدثوا الملوك فقدموهم، ورغب الناس في الروايات الشاذة، وتفاخروا بالنوادر وتباهوا بالترخيصات، وتركوا الأصول واعتمدوا على الفروع، فاختلط العلم»[٢] وليس في هذه الاشارة تحديد للمقصودين بأهل الكوفة، أهم الكسائي والفراء من شيوخ الكوفيين اللذان استقرا في بغداد، أم غيرهما من الكوفيين أمثال ثعلب ومن تعصب لهم من تلاميذه؟ عدت إلى ترجمة كل من الكسائي والفراء التي أوردها لهما أبو الطيب، لعلي أجد إشارة أتبين منها انطباق قوله عليهما أو ذكره انهما من البغداديين، فوجدته يقول في ترجمة الكسائي: «... حدثنا أبو حاتم قال: «لم يكن لجميع الكوفيين عالم بالقرآن ولا كلام العرب، ولولا أن الكسائي دنا من الخلفاء فرفعوا من ذكره لم يكن شيئًا، وعلمه مختلط بلا حجج ولا علل إلا حكايات عن الاعراب مطروحة، لأنه كان يلقنهم ما يريد، وهو على ذلك أعلم الكوفيين بالعربية والقرآن، وهو قدوتهم واليه يرجعون..»[٣] أما في ترجمة الفراء فلم يورد مثل هذا

---

(١) سماه الاخفش الاصفر (المعارف ٥٤٥).

(٢) مراتب النحويين ٩٠.

(٣) مراتب النحويين ٧٤- ٧٥.

وانما كان كل ما قاله عنه: «وقد أخذ علمه عن الكسائي وهو عمدته، ثم أخذ عن اعراب وثق بهم مثل أبي الجراح وأبي ثروان وغيرهما وأخذ نُبَذًا عن يونس..»[1] ومع هذه الاشارات فإن كلام أبي حاتم (-٢٦٥ هـ) على الكسائي شبيه بكلام أبي الطيب على اختلاط العلم في بغداد بعد غلبة أهل الكوفة عليه، وبين أبي الطيب (-٣٥١ هـ) وأبي حاتم (-٢٦٥ هـ) حوالي تسعين سنة ولهذا فانني لا أظن المقصود بكلام أبي الطيب: الكسائي والفراء لقوله: «حتى انتقل العلم إلى بغداد قريبًا...» وانتقال العلم إلى بغداد كان منذ أيام الكسائي المتوفى (١٨٩ هـ) أي قبل أبي الطيب بزمن طويل، ولهذا فانني أرجح أن يكون قصد بأهل الكوفة ثعلبًا المتوفى (٢٩١ هـ) وتلاميذه من بعده وهم الذين اختلط بهم العلم. وقد تعرض أبو الطيب للكلام على مدينة بغداد في موضع آخر فقال: «وأما بغداد فمدينة ملك، وليس بمدينة علم وما فيها من العلم فمنقول اليها، ومجلوب للخلفاء واتباعهم ورعيتهم، ونيتهم بعد ذلك في العلم ضعيفة، لأن العلم جد، وهم قوم الهزلُ أغلبُ عليهم واللعب أملك لهم، فإن تعاطى بعضهم شيئًا أو شدا منه، فانما همه المساماة به وبغيته المباهاة فيه فترى أحدهم يتكلم بغير علم، ويهمز ليعد في العلماء، ويذكر رغبته في أطراف العلم ودواوينه وفروعه وغرائبه، ويسامح نفسه في أصوله وسهله وذلوله فهو يبني على غير أُسّ «ويحب الرياسة بأهون مسٍّ، فلا جرم أنهم يَوّهَمون ولا يفهمون، ويسألون فيَستَبِهْمون» هذا رأيه في أهل بغداد في زمانه- فيما يبدو، أما من هم قبل زمانه فقد ورد وصفهم في قول أبي حاتم: «أهل بغداد حشو عسكر الخليفة، لم يكن بها من يوثق به في كلام العرب، ولا من يرتضى روايته، فإن ادعى أحد منهم شيئًا رأيته مُخَلِّطًا صاحب تطويل وكثرة كلام ومكابرة، ولا يفصل بين علماء البصرة بالنحو وبين الرؤاسي والكسائي، ولا بين قراءة أهل الحرمين وقراءة حمزة، ويتحفظ أحدهم مسائل من النحو بلا علل ولا تفسير فيكثر كلامه عند من يختلف اليه، وانما هَمُّ أحدهم إذا سبق إلى العلم ان يسيِّر اسمًا يخترعه لينسب اليه، فيسمي الجر خفضًا والظرف صفة، ويسمون حروف الجر حروف الصفات، والعطف النسق، و «مفاعيلن» في العروض «فَعُولان» ونحو هذا من التخليط»[2]. وكلام أبي حاتم هنا متضارب فأوله يوحي بأنه لا يشمل الكسائي ومن في زمانه من الكوفيين الذين نقلوا العلم إلى بغداد، وآخره يوحي بذلك لأنه هو أول من بدأ بوضع مصطلحات الصفة والنسق والخفض وما اليها. ولذلك يبدو أن المقصود بهؤلاء هم من بعد الفراء من تلاميذه الذين لم ينبه فيهم أحد، وينسحب هذا على ثعلب وتلاميذه لتعليق أبي الطيب على عبارة أبي حاتم بقوله: «قال اللغوي: والأمر في زماننا هذا- أصلحك الله- على

---

(١) مراتب النحويين ٨٦.

(٢) مراتب النحويين ١٠١- ١٠٢.

أضعاف ما عرف أبو حاتم»[1]. فأهل بغداد اذن عند أبي الطيب اللغوي لا يقصد بهم الكوفيون، والا لما سمى الكسائي «عالم أهل الكوفة وامامهم غير مدافع»، ولا قال في الفراء «واما علماء الكوفيين بعد الكسائي فأعلمهم بالنحو أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء» ولقوله: «فلم يزل أهل المصرين على هذا حتى انتقل العلم إلى بغداد قريبًا، وغلب أهل الكوفة على بغداد».[2] فأهل الكوفة هم الكسائي والفراء والا فمن أين للكوفة علماء مشهورون قبل الكسائي والفراء؟. ويدل على اعترافه بهما وبالنحو في مدينتهما وبانهما غير مقصودين بمن خلط، أو اختلط بهم العلم قوله أيضًا «ولا علم للعرب إلا في هاتين المدينتين»[3]. قال هذا بعد الانتهاء من الكلام على نحاة البصرة والكوفة، ولذلك أرجح أن المقصود بأهل بغداد الذين اختلط بهم العلم هم تلاميذ الكسائي والفراء من بعده الذين كانوا ببغداد ومن أخذوا عنهم في بغداد وهم المعاصرون لأبي حاتم ممن ينطبق عليهم هذا الوصف، ويستمر هذا الوصف باختلاط العلم وفساده حتى زمن ثعلب وتلاميذه من الذين درسوا عليهم في بغداد، أما تلاميذهم الكوفيون الذين أخذوا عنهم في الكوفة فيبدو أنهم غير مشمولين بهذه التسمية أو هذه الأوصاف لصدق نيتهم في العلم واخلاصهم له. ومع ذلك فانه لم يسمهم البغداديين ولا نحاة بغداد، لأنهم لم يكونوا مجموعة معروفة من النحاة في زمن أبي حاتم وزمن أبي الطيب، وليسوا على وجه التحديد، الذين يُعْنَوْنَ عند اطلاق مصطلح «البغداديين»، وان جازت في بعضهم.

وجاء بعد أبي الطيب، أبو سعيد السيرافي (٢٨٤- ٣٦٨ هـ) الذي ألف كتابه «اخبار النحويين البصريين» وقد قصره على ذكر نحاة البصرة ولغوييها وسماهم «مشاهير النحويين» بدأه بأبي الأسود وختمه بأصحاب المبرد ممن خلط المذهبين أو لم يخلط قال في ترجمتهم: «ومن أصحاب أبي العباس محمد ابن يزيد المبرد: أبو اسحاق ابراهيم بن السري الزجاج وأبو الحسن بن كيسان وإليهما انتهت الرياسة في النحو بعد أبي العباس محمد بن يزيد، غير أن أبا اسحاق كان أشد لزومًا لمذهب البصريين وكان ابن كيسان يخلط المذهبين، وكان بعدهما أبو بكر محمد بن علي المعروف بِمَبْرَمان، وعنهما أخذت أكثر النحو وعليهما قرأت كتاب سيبويه، وفي طبقتهما ممن يخلط علم البصريين بعلم الكوفيين أبو بكر بن شقير، وأبو بكر بن الخياط[4]» ولم يتطرق السيرافي لأي كلام عن بغداد أو أهل بغداد، أو اشارة إلى التسمية بالبغدادين. وجاء بعده الزبيدي (-٣٧٩ هـ)

---

(١) مراتب النحويين ١٠٢.

(٢) مرتب النحويين ٧٤ و ٧٦ و ٩٠.

(٣) مراتب النحويين ٩٨.

(٤) أخبار النحويين البصريين ٨٠- ٨١.

وقسم كتابه «طبقات النحوين واللغويين» إلى خمس مجموعات هي: «البصريون» و «الكوفيون» و «المصريون» و «القرويون» و «الاندلسيون» ولم يفرد طبقة باسم «البغداديين» ولا سمى نحوياً «البغدادي». وكان أول من أفرد قسماً من طبقاته لنحاة بغداديين المرزباني (-٣٨٦ هـ) الذي قسم كتابه «نور القبس» إلى ثلاث مجموعات الأولى: «من أخبار العلماء والنحاة والرواة من أهل البصرة» والثانية: «من رواة الكوفة وعلمائها وقرائها» والثالثة «من أخبار العلماء والنحاة والرواة من أهل بغداد ومن طرأ عليها من الامصار» بدأهم بمن دخل العراق ثم بغداد قادمًا من المدينة من المحدثين والرواة والقضاة واللغويين والنحاة، وكل من سكن ببغداد وارتحل اليها ممن اشتهر أمره فيها، ومع ذلك فلم يذكر الكسائي والفراء فيهم، وهما من أوائل الداخلين إلى بغداد والمقيمين بها «وذكر المبرد وثعلبًا مع ان المبرد بصري درس وتعلم ونبغ بالبصرة ودخل بغداد على كبر ان كان ثعلب ممن نشأ بها واشتهر، وربما قصد بهذا أنه شيخ من سمي فيما بعد «النحاة البغداديين» أو «نحاة بغداد». ولا اشارة عنده توضح هذا أو غيره، ووقف عند أبي بكر بن الانباري من النحويين وأبي بكر الصولي من الرواة الاخباريين (-٣٣٦هـ).

لقد كان المرزباني أول من أفرد قسماً لأهل بغداد، لكنه لم يذكر شيئًا عن نحوهم في ترجماته لهم، ولم يبين من أخذوا عنهم من النحاة أهم من البصريين والكوفيين معًا أم من احدى المدرستين؟، المهم في التقسيم أنهم ممن سكنوا بغداد أصلاً أو من الطارئين عليها. وتابعه على هذا التقسيم ابن النديم (-٣٨٥ هـ) الذي قسم كلامه على النحويين واللغويين وفصحاء الاعراب إلى ثلاثة مجموعات ضمتهم المقالة الثانية من كتاب «الفهرست» وسمى كل مجموعة فنا وهي: «الفن الأول في ابتداء النحو واخبار النحويين البصريين وفصحاء الاعراب واسماء كتبهم» و «الفن الثاني في أخبار النحويين واللغويين من الكوفيين وأسماء كتبهم». و «الفن الثالث»: في ذكر قوم من النحويين خلطوا المذهبين وأسماء كتبهم. ولم يفسر المقصود بقوله: «من خلطوا المذهبين» ولا سماهم «البغداديين» لا في الفهرسة ولا في الترجمة الخاصة بهم واكتفى بهذا الاسم. أما أبو البركات الانباري ومن جاء بعده من أصحاب الطبقات فلم يقسموا كتبهم إلى طبقات ولا سموهم بأسماء البلدان، ولا صنفوهم بحسب المذهب وانما رتبوهم بأحدى طريقتين اما بحسب القدم واما بحسب الأسماء مرتبين ترتيباً الفبائياً.

هذا ما كان من أمر القدماء وذكرهم لمذهب أو مدرسة أو مجموعة ثالثة تسمى «البغداديين».

٢- موقف المعاصرين:

لقد ترددت في مؤلفات المحدثين تسميات مثل «مدرسة بغداد» أو «نحاة بغداد» أو «المدرسة البغدادية» أو «المذهب البغدادي» أو «البغداديين» وهم يعنون بذلك مذهبًا نحويًا خاصًا لا هو بالبصري الخالص، ولا بالكوفي الصراح، وانما هو مذهب يقوم على الاطلاع على النحوين، والخلط بيّنهما ثم الانتخاب منهما لتكوين آراء خاصة بهذا الدارس أو ذاك انتخبها من آراء الفريقين فقد يكون أكثر ما اختاره من البصريين فيصفونه بأنه إلى البصريين أميل، أو انه يميل إلى البصريين، وقد يقع العكس فيقال فيه: يميل إلى الكوفيين، أو إلى مذهب الكوفيين أميل. فإن قل اختياره من المذهب سمي بالمخالف. ويرون أن السبب في نشوء هذا المذهب هو تلاقي المذهبين البصري والكوفي في بغداد على يد شيخين من شيوخهما تنافسا على رئاسة النحو في بغداد وعملا على نشر مذهبيهما بين الدارسين وهذان الشيخان هما أبو العباس ثعلب الكوفي وأبو العباس المبرد البصري. وقد ذهب الدكتور مهدي المخزومي إلى أن قول المحدثين بهذين القولين وتسميتهم لهؤلاء الذين خلطوا المذهبين بالبغداديين انما كانوا يصدرون فيه عما جاء في «الفهرست» بـ «جماعة من علماء النحويين واللغويين ممن خلطوا المذهبين» ودليله على هذا أن المحدثين كانوا يقيمون المذهب الجديد على أساس الاختيار والانتخاب من كلا المذهبين القديمين وهو الذي كان ابن النديم يعبر عنه بـ «خلط المذهبين».(١) وقد وقف المحدثون من هذه المجموعة أكثر من موقف: فذهب بعضهم إلى وجود مدرسة ثالثة مع البصريين والكوفيين وهم البغداديون، وكان من أوائل القائلين بهذا جماعة من المستشرقين منهم «فلوجل» ناشر كتاب «الفهرست» لابن النديم المتوفى (١٨٧٠م) (٢) الذي نشر بحثًا في المدارس النحوية عام ١٨٦٢م. وتابعه بروكلمان الذي قال: «وقد قسم علماء العربية مذاهب النحاة إلى ثلاث مدارس: البصريون والكوفيون ومن مزجوا المذهبين من علماء بغداد» ثم قال: وسنحتفظ نحن أيضًا بهذا التقسيم على الرغم مما يبدو فيه من أن الخلاف المزعوم بين مناهج تلك المذاهب لم ينشأ إلا على أساس المنافسة بين المبرد وثعلب»(٣) ويبدو أنه يرى أن كل من نزل ببغداد من النحاة بصريين كانوا في آرائهم أم كوفيين يمكن أن يعدوا بغداديين ما داموا نزلوا ببغداد، قال: «وقد كان كثير ممن ذكرناهم أخيراً في مدرسة البصرة نزلوا ببغداد التي أخذت مدرستها النحوية

---

(١) الدرس النحوي في بغداد ١٨٦ وما بعدها.

(٢) ينظر تاريخ الأدب العربي ٢/ ١٢٧، والدرس النحوي في بغداد ١٨٨- ١٨٩.

(٣) تاريخ الأدب العربي ٢/ ١٢٤/ ١٢٥.

تحاول التوفيق بين مدرستي البصرة والكوفة منذ القرن الرابع الهجري، وإذا فقد كان ممكنًا أن يعدوا أيضًا من رجال مدرسة بغداد[1]. أما الجيل الذي جاء من البصرة والكوفة فلا يسمى بهذا الاسم يقول بروكلمان: «بقي كثير من العلماء الذين اجتذبتهم عاصمة الخلافة اليها شديدي التمسك والتعصب لمأثورات مدارسهم الأصيلة، ولكن الجيل الذي تلا هؤلاء، والذي تهيأت له فرصة الاستماع إلى ممثلي كلا المذهبين، لم يلْقِ كبير اهتمام للخلافات القديمة، بل عمد إلى انتخاب مزايا كلتا المدرستين، وتوحيد هذه المزايا في مذهب جديد مختار»[2].

وذهب المستشرق «Howell» إلى وجود مدرسة بغدادية، وقال أن ابن السراج ومبرمان يمثلانها[3].

وكان أول من تكلم على مدرسة بغداد من الباحثين العرب الاستاذ أحمد أمين حيث قال بعد أن تحدث عن مدرستي البصرة والكوفة: «ومع هذا فقد كان التقاء الكوفيين والبصريين في بغداد سببًا في عرض المذهبين ونقدهما والانتخاب منهما، ووجود مذهب منتخب كان من ممثليه ابن قتيبة» ثم نقل عبارة ابن النديم وقال: «ومثله في ذلك أبو حنيفة الدينوري فقد أخذ عن البصريين والكوفيين جميعًا»[4]. وكان أكثر المتحدثين عن هذا المذهب وخصائصه وضوحًا وايجازًا الشيخ محمد الطنطاوي الذي صرّح بوجود «فريق خالط» بين البصري والكوفي، وسماه في موضع آخر «مازجًا بين المذهبين» ورأى أن هؤلاء الذين خلطوا النحو أو مزجوه وان قلّوا يمثلون مدرسة جديدة لها خصائصها، وذلك حيث كانت: حدة الخلاف بين الفريقين مع كثرة عديدهم وعظيم شأنهم في حياة المجتهدين من دواعي تغلب الانحياز إلى أحد الطرفين على اختيار مذهب خليط، حتى إذا قضى المجتهدون نحبهم في أواخر القرن الثالث الهجري أسدل الستار عليهم وانكسرت حدة النعرة الحزبية عرض العلماء المذهبين على بساط البحث والنقد، فاستعرضوا دعائم القواعد التي تركزت عليها الرواية والشواهد والأقيسة ليتعرفوا مقدار هذه القواعد من الصحة والضعف حتي يُبتَنَى حكمهم في الاختيار على أساس غير منهار، وهم ما يزال فيهم فئة تلقت عن البصري وأخرى عن الكوفي بينما أخذت عن الفريقين فئة ثالثة. على الرغم من انهم بعد هذا في أنفُسهم بين محافظ على ترسم خطى سلفه فغلبت عليه النزعة الطائفية، وبين منصف تحلل من قيود الحزبية، ونظر إلى العلم نظرة خالصة لا يشوبها عاطفة، فآثر ما رجح عنده وتمذهب به، فلم يكن غريبًا على من لقنه

---

(١) تاريخ الأدب العربي ٢/ ١٢٤- ١٢٥.

(٢) تاريخ الأدب العربي ٢/ ٢٢١.

(٣) ينظر أبو علي الفارسي ٤٤٥- ٤٤٧.

(٤) ضحى الاسلام ٢/ ١٩٣.

عن بصري أن يجنح بعد إلى إيثار المذهب الكوفي أو المكون منهما والعكس بالعكس، كما لم يكن بدعًا على من تتلمذ لهما أن يؤازر احدهما، نجم عن ذلك كله أنهم اختلفوا طرائقَ قِدَدًا، فكان منهم من غلبت عليه النزعة البصرية ومنهم من غلبت عليه النزعة الكوفية، ومنهم من جمع بين النزعتين» وهذا أوضح ما وجدته مما فسرت به عبارات المتقدمين «خلط المذهبين» «خلط النحويين وهو للمذهب البصري اميل» «خلط المذهبين وكان ميله مع الكوفيين» و «كان قيِّمًا بعلم البصريين وبعلم الكوفيين». وأجاب عن تساؤلات بعض المحدثين عن سبب تسمية الزجاج بصريًا مع أخذه عن الكوفيين والبصريين، في حين عد ابن قتيبة بغداديًا مع أخذه عن بصريين فقط، ظانين أن كل من أخذ عن الشيخين المبرد وثعلب يكون خالطًا بين المذهبين، أو كل من خلط بين المذهبين لا بد من أن يكون قد أخذ عن الشيخين. وذهب الاستاذ سعيد الافغاني إلى أن الكوفيين نشروا نحوهم في بغداد التي قصدها البصريون بعدهم ونشأت عن هذين الفريقين طبقة جديدة في بغداد اتسمت بالاختيار من المذهبين وكونت ما عرف بالمذهب البغدادي، وجعل من خصائصه ما جاء في قول أبي الطيب اللغوي: «فلم يزل أهل المصرين على هذا حتى انتقل العلم إلى بغداد قريبًا وغلب أهل الكوفة على بغداد وحدثوا الملوك فقدّموهم ورغب الناس في الروايات الشاذة، وتفاخروا بالنوادر وتباهوا بالترخيصات وتركوا الأصول واعتمدوا على الفروع فاختلط بهم العلم» وعلق عليه بقوله: «وما أصدق ما قال هذا اللغوي الحلبي في تصوير الحال..»[1]. وكان أشدهم دفاعًا عن وجود مدرسة بغدادية خلطت بين المذهبين واتخذت منهما بعض خصائصهما ليكون مذهبًا جديدًا أو مدرسة جديدة هي التي سميت «المدرسة البغدادية» الدكتور أحمد مكي الانصاري الذي قال ان خصائص المدرسة البغدادية «ما هي إلا امتزاج خصائص المدرستين البصرية والكوفية معاً وظهور أثر المدرستين في هذا المذهب الجديد الذي عدّ الفراء مؤسسه لما يقوم عليه مذهبه من تحرر ومزج وتجديد»[2]. وكان الدكتور محيي الدين توفيق من الذين ذهبوا إلى وجود هذه المدرسة بعد انتقال الدرس النحوي إلى بغداد حيث أدى هذا الانتقال إلى تطور الدراسات النحوية واللغوية مكوِّنًا مدرسة بغداد النحوية التي يقوم منهجها على الانتخاب من المدرستين.[3] وسلم الدكتور شوقي ضيف بوجود مدرسة بغدادية يقوم منهجها على الانتخاب من آراء المدرستين البصرية والكوفية مع فتح أبواب الاجتهاد والخلوص إلى آراء مبتكرة، وقد تداول هذه المدرسة جيلان: جيل أول كانت تغلب عليه النزعة الكوفية

---

(١) في أصول النحو ٢١٧– ٢٢٠.

(٢) ينظر أبو زكريا الفراء ٣٩٥– ٣٩٧.

(٣) ينظر ابو البركات بن الانباري في كتابه الانصاف ٢٨٨– ٢٨٩.

وهو الذي يدور في كتابات ابن جني باسم البغداديين من أمثال ابن كيسان، ثم جيل ثان خلف هذا الجيل كانت تغلب عليه النزعة البصرية على نحو ما يلقانا عند الزجاجي ثم أبي علي الفارسي وابن جني..[1] وأثبت الدكتور مازن المبارك وجود مدرسة بغدادية ورأى ان الزجاجي بغدادي النزعة مع ميله إلى الأخذ بأقوال البصريين فهو يحيط علمًا بالمذهبين إلا أنه يعتدل بينهما بلا تعصب فالبغداديون هم الذين أخذوا بآراء الفريقين ووقفوا بين المذهبين إلا ان ميلهم مع احدهما في الغالب[2]. ويتضح من كلام الاستاذ طه الراوي انه ممن يثبتون وجود مدرسة بغدادية.[3] ومثل هذا كان رأي الدكتور يوسف خليف الذي قال: «وكان التقاء الكوفيين بالبصريين سببًا في عرض مذاهب المدرستين واتجاهاتهما ثم نقدها والانتخاب منها»[4]. وقد أثبت الدكتور الجواري وجود مدرسة بغدادية ولم يقل كما قال الآخرون بأنها خلطت بين المذهبين وانما تفرد بين القدماء والمحدثين بالقول بأن النحو البغدادي انما هو نحو أبي العباس أحمد بن يحيى الشيباني المعروف بثعلب[5] وهذا رأي غير معروف وهو أول من قال به فيما اعلم.

وذهب بعض آخر من المحدثين إلى نفي وجود مدرسة نحوية باسم «مدرسة بغداد» أو التشكك في وجودها، وقد مثل هذا الرأي بعض الباحثين منهم «جوتولدفايل» محقق كتاب الانصاف الذي شكك في وجود مدرسة جديدة قامت على أساس الانتخاب من مزايا كلتا المدرستين لأنه- وان كان يرى أن لتسمية تلاميذ ثعلب والمبرد بالبغداديين وجهًا من الحق- كان يرى أن البغداديين لم يكونوا ليمثلوا مدرسة ذات اتجاه خاص أساسه المزج أو الاختيار ولكنهم يمثلون دراسة في دائرة النحو البصري، وإذا كان البغداديون في المواضع القليلة التي يرد ذكرهم فيها عند النحاة يمثلون رأي الكوفيين فلا يجوز أن يضللنا ذلك عن حقيقة أمرهم، لأنه انما يذكر رأيهم الخاص في الأحوال التي يخالفون فيها آراء البصريين العامة[6]. وقال بما يقرب من هذا الرأي الدكتور عبد الفتاح شلبي الذي ذهب إلى أنه لم تكن هناك «مدرسة بغدادية قائمة بنفسها لها تعاليمها، غاية ما في الأمر أن رجالاً خلطوا بين المدرستين البصرية والكوفية، فرأوا رأيًا من هذه ورأيًا من الأخرى وان كانوا في

(١) المدارس النحوية- ٧ وينظر في مثله ٢٤٥ و ٢٤٦- ٢٤٧ و ٢٤٨.

(٢) ينظر الايضاح في علل النحو، الزجاجي ٩- ١٠ و ٦٨- ٧٩ و ١٣١ و ١٠ و ١١ و ١٢ و ١٣ و ١٤ و ١٥.

(٣) ينظر نظرات في اللغة والنحو ٩.

(٤) حياة الشعر في الكوفة ٢٤٢.

(٥) الشعر في بغداد ١٧٦.

(٦) مقدمة كتاب الانصاف (نقلا عن الدرس النحوي في بغداد ١٩٣).

مذهبهم الأصيل يميلون إلى هذه أو يميلون إلى تلك فيكونون بصريين أو كوفيين حسب، فابن كيسان يخلط المذهبين لأنه أخذ عن المبرد وثعلب، وكان ميله إلى البصريين أكثر، وكذلك ابن قتيبة، وابن شقير شديد التعصب مع الكوفيين مع اعتقاده مذهب البصريين. ويضع الدكتور عبد الفتاح شلبي- بناء على هذا التفسير- ابا علي الفارسي فيمن يخلطون المذهبين، لأنه «على الرغم من نزعته التي تميل به إلى البصرية، كان يرى رأي الكوفيين في بعض المسائل النحوية».[1] وكان من بين المتعرضين للكلام على المدرسة البغدادية الدكتور فاضل صالح السامرائي وقد عرض لأقوال المثبتين وجود هذه المدرسة والنافين ذلك الوجود من القدماء والمحدثين، ورأى «انه لا يصح اطلاق اسم مذهب أو مدرسة الا ان تكون هناك أسس مستقلة وآراء متميزة واضحة محددة والا فهو مذهب اما بصري واما كوفي أو نحوهما و ... أن المكان وحده لا يصح أن يسم المدرسة باسم ما فتعد مدرسة نحوية مستقلة كما لا يصح أن يسم القائمين بها، فلا يصح مثلاً عدّ المبرد الا من البصريين، وثعلب الا من الكوفيين مع أنهما سكنا في بغداد وهب ان نحويًا بصريًا سكن مدينة ما وبقي محتفظًا بآرائه البصرية فهل يعد هذا إلاّ بصريًا؟» ثم قال: «وينبغي أن ينظر في هذا الأمر من ثلاث نواح حتى يمكن اطلاق اسم مدرسة عليه: من حيث الأسس التي تتبعها في أصول البحث، ومن حيث المصطلحات ومن حيث المسائل الخلافية، فان استقلت بكل ذلك فهي مدرسة خاصة، والا فهي تبع. وينظر إلى النحوي من هذه الأمور كذلك، ويمكن أن نضيف ناحية أخرى هي نظرته إلى نفسه، اين يعد نفسه في البصريين مثلاً أم في غيرهم؟» ثم قال إنه لا يشترط في النحوي أن يقول بجميع آراء مذهبه فله ان يجتهد ضمن حدود هذا المذهب فيوافق رأي الكوفيين، أو ينفرد بطائفة من المسائل وهذا الاجتهاد لا ينفي عنه صفته في انتمائه إلى مدرسة، وقال بأنه لا يثبت وجود مدرسة بغدادية الا اذا ثبت انها مدرسة مستقلة ذات أسس مستقلة وكيان خاص وآراء مستقلة، وان نحاتها يتصفون بهذه الصفات أيضًا، وان وجود مثل هذا لم يثبت عنده فيما لديه من مصادر[2].

وهناك من الباحثين المحدثين من ذهب في مدرسة بغداد أكثر من مذهب، ويمثل هذا الاتجاه الدكتور المخزومي، فقد اثبت في «مدرسة الكوفة» وجود مذهب نحوي يسمى «المذهب البغدادي» وسماها أيضًا «المدرسة البغدادية» وذكر ذلك في مواضع متعددة من الكتاب سأوردها بلفظه كي لا يدخلها تغيير أو تحريف، وكان أول ما يلاحظه القارئ هذه العبارة: «وأما البغداديون، فقد أخذوا عن البصريين والكوفيين، ومادة الدرس عند هؤلاء وهؤلاء انما هو النحو البصري المتمثل في كتاب

---

(١) أبو علي الفارسي ٤٤٧ وينظر ٤٤٥- ٤٤٧.

(٢) ابن جني النحوي ٢٥١- ٢٥٢ و ٢٥٤- ٢٥٥.

سيبويه، وكل ما في الأمر أنهم خلطوا أقوال هؤلاء وهؤلاء، وانتخبوا من هؤلاء وهؤلاء وييسر لهم هذا أن بغداد كانت مقصد البصريين والكوفيين جميعًا لأنها عاصمة الخلافة الاسلامية وموطن الأعمال واكتساب الرزق، فكان يفد عليها بصريون وكوفيون وغيرهم من سائر الامصار، فلما اجتمعت هذه العناصر في صعيد بغداد وانحاز إلى كل فريق تلاميذ وأصحاب وجد من هؤلاء التلاميذ من لم يقصر الأخذ على بصري وحده، وانما كان يأخذ عن هذا ويرجع إلى ذلك، ومن البغداديين ناس كثيرون درسوا النحويين وتخرجوا في المدرستين» ثم أكد مبدأه هذا بقوله: «فليس المذهب البغدادي إلا مذهبًا انتخابيًا فيه الخصائص المنهجية للمدرستين جميعًا على نحو ما فعل ابن مالك في محاولته الجمع بين المذهبين، وانتهاجه منهجًا وسطًا بينهما، فان مذهب البصريين اتباع التأويلات البعيدة التي خالفها الظاهرُ، وابن مالك يحكم بوقوع ذلك من غير حكم عليه بقياس ولا تأويل بل يقول انه شاذ أو ضرورة»[1] ومضى بعد تقرير هذا الواقع في الاتجاه نفسه مؤكدًا كثرة من خلط المذهبين ويبين أسماء بعض منهم، محتجًا لتسمية ابن النديم لهؤلاء «من خلط المذهبين» فقال: «والذين خلطوا المذهبين كثيرون ذكرهم أصحاب الطبقات، فذكر الزبيدي جماعة كبيرة عدتهم واحد واربعون نحويًا أولهم ابن قتيبة أبو محمد عبدالله بن مسلم الكوفي الدينوري توفي سنة سبعين ومائتين للهجرة، وآخرهم ابن خالويه ابو عبدالله الحسين بن أحمد بن خالويه، توفي سنة سبع وثلاثمائة للهجرة. وعقد ابن النديم في «الفهرست» مقالة في اخبار العلماء وأسماء ما صنفوه من الكتب، وذكر أسماء جماعة من النحويين واللغويين ممن خلط المذهبين وأخبارهم ذكر في مقدمتهم ابن قتيبة، وذكر منهم أبا حنيفة الدينوري صاحب «الاخبار الطوال» والسكري أبا سعيد الحسن بن الحسين وابن كيسان وأبا بكر بن شقير ونفطويه وابن خالويه وغيرهم كما فعل الزبيدي»[2] ولا أدري ما الذي فعله الزبيدي وهو الذي لم يتكلم على مدرسة بغداد، ولم يشر إلى وجود بغداديين. وأن لنا أخيرًا بعد هذا العرض لأقواله المؤدية إلى نتيجة واحدة أن نختم هذه الأقوال بأوضح أقواله وأكثرها إصرارًا على وجود مدرسة بغدادية وذلك قوله: «أما أصحاب ثعلب الذين ذيَّلنا اسمه بأسمائهم فليسوا جميعًا كوفيين، بل أكثرهم ينتمون إلى مدرسة جديدة هي مدرسة بغداد، وهي المدرسة الانتخابية التي قامت على خلط المنهجين من المدرستين البصرية والكوفية، لأنهم أخذوا عن بصريين وكوفيين، وتأثروا بهؤلاء وهؤلاء، ولا نستثني منهم إلا أبا بكر الأنباري الذي ترسَّم خطى الكوفيين

---

(١) مدرسة الكوفة ٩٠- ٩١.

(٢) مدرسة الكوفة ٩١- ٩٢.

وتأثر استاذه أبا العباس، وعرف بتعصبه لمدرسته ونقوله الكثيرة عن شيوخها»[1].

هذه الأقوال جميعها تدلنا على اعتراف الدكتور المخزومي بوجود مدرسة نحوية بغدادية قائمة على الانتخاب من المذهبين البصري والكوفي نتيجة لأخذ الدارسين فيها عن المبرد البصري وثعلب الكوفي حيث كان وجود المبرد في بغداد نقطة تحول في تاريخ المدرسة الكوفية فقد تسرب إلى مجلس المبرد كثير من أصحاب ثعلب وتلاميذه فنشأت عنهم «مدرسة بغداد». وقد خالف الدكتور المخزومي ما قاله في كتابه «مدرسة الكوفة» ونفى أن تكون هناك مدرسة بغدادية أو مذهب يصح أن يسمى بالمذهب البغدادي، وذلك في كتاب «الدرس النحوي في بغداد»[2].

فمن هم البغداديون اذن في رأي الدكتور مهدي المخزوي الجديد؟ انه يرى ان الذين ترددت تسميتهم في كتب التراجم والتأريخ وفي كتب النحاة كابن جني بـ «البغداديين» انما هم «الكوفيون» أنفسهم. إذ لم يعرفوا في أول اشتهارهم باسم «الكوفيين» لأنهم لم يُنْشِئوا نحوَهم في «الكوفة»، ولم تعرف الكوفة– مصرا– درسًا نحويًا مستقلاً يقف بازاء الدرس البصري، ولم تكن منافسة للبصرة في الدرس اللغوي عامة، والمصر الذي وقف ينافس البصرة هو «بغداد» وفي بغداد ومجالس الدرس فيها رسمت حدود الدرس الذي سُمِّيَ فيما بعد وفي غضون القرن الرابع بـ «الدرس الكوفي» وسمي حملته والداعون اليه بـ «الكوفيين» ولم تخلص «الكوفة» لاتباع «البغداديين» الأوائل إلا في العصور المتأخرة لأن أكثر أتباع المذهب البصري في القرن الرابع كابن جني ظلوا يسمون مخالفيهم «البغداديين» حينًا «والكوفيين» حينًا و «البغداديون» هم «الكوفيون». وكان ابن جني يورد الرأي منسوبًا إلى «البغداديين» في موضع، ثم يورده منسوبًا إلى «الكوفيين» في موضع، وهم هم، والرأي نفس الرأي، وأخيرًا استخلص الدكتور المخزومي ان «البغداديين» «هم الكوفيون»، وطريقة البغداديين في الدرس النحوي هي طريقة الكوفيين، ولم تمثل البغدادية مذهبًا يختلف عن مذهب الكوفة، فالمذهب واحد والطريقة واحدة.»[3] ودليله على أن «الكوفيين» و «البغداديين» جماعة واحدة– غير ما قدمنا– «ان الدارس لا يكاد يقف على خلاف مذهبي بين «البغداديين» و «الكوفيين» وان الخلاف انما يتمثل فيما بين «الكوفيين» و «البصريين» وبين «البغداديين» و «البصريين»، وان

---

(١) مدرسة الكوفة ١٠٩. وتنظر أقواله الأخرى التي لا تخرج عن هذه الا في تحديد بعض النحاة بأنهم بغداديون أو غير بغداديين في الكتاب نفسه. ١١٠ و ١٨٧ وفي الكلام على نشوء المدرسة البغدادية تنظر ص ١٠٣ و ٤٤٦– ٤٤٧.

(٢) تنظر فيه ص ٥ و ٧ و ١٨٦.

(٣) الدرس النحوي في بغداد ٧ وينظر ٥– ٧.

الدارسين المتأخرين الذين عنوا بأمر الخلاف كانوا يعرضون للخلاف بين «الكوفيين» و «البصريين»، ولم يشيروا قط إلى خلاف بين البغداديين والكوفيين»[1] فالكوفيون عندهم البغداديون، والبغداديون هم الكوفيون، ومع انني لا أنكر صحة ما يذهب اليه الدكتور المخزومي من أن «البغداديين» هم «الكوفيون» فاني أحب أن أعلق على عبارته الأخيرة التي استدل بها على هذا بأنه لم يرد كذلك انهم أشاروا إلى وجود خلاف بين البصريين والبغداديين، مع انه لم يقل أحد بأنهما فريق واحد، فاستدلاله هذا لا يقدم ولا يؤخر في اثبات فكرته. وعرض الدكتور المخزومي لأقوال أصحاب الطبقات والمؤرخين والباحثين القدماء والمحدثين عرباً ومستشرقين في وجود مذهب ثالث يقوم على خلط المذهبين وناقش آراءهم وحلل عباراتهم ورأى أن المقصود بالخلط بين المذهبين عند القدماء ليس هو ما فهمه المحدثون من الدارسين، وانما يعني ترخيص الدارسين في الأخذ من الفريقين أي: عن البصريين- وقد كان هذا موجوداً ومعروفاً- وعن الكوفيين وهو الذي كان مُستنكَراً عند النحاة الأوائل الذين ما كانوا يرون البصري يأخذ عن الكوفي عدا ما أخذه أبو زيد الانصاري ورواه من اللغة عن المفضل الضبي الكوفي. وقال: «ان خلط المذهبين الذي جاء نتيجة لتلاقي المذهبين في مجالس الدرس في بغداد لم يكن يعني احداث مذهب نحوي أو رسم خطة لمزج المذهبين، ولكنه كان يعني ترخص الدارسين في الأخذ عن الفريقين بعد زوال أسباب التعصب المذهبي والاقليمي، ولا يعني ترخص الدارسين في الرواية عن هؤلاء وهؤلاء غير محض التلاقي واتصال الآراء والأخذ ببعضها للتعبير عن رأي خاص في الأحوال التي تقتضي ابداء هذا الرأي كأن يكون تعبيراً عن وجهة نظر خاصة وجدت في نفس الدارسين قَبُولاً، وقد يكون هذا الدارس بصرياً تتفق وجهة نظره مع وجهة نظر كوفي في هذه المسألة أو تلك، وقد يكون كوفياً يلتقي مع هذا البصري في هذا القول أو ذاك، ومثل هذا الخلاف قد يقع بين تلاميذ المدرسة الواحدة فلا يخرج بهم عن حدود المذهب الذي ينتمون اليه»، وعلى هذا فإن «الذين خلطوا بين المذهبين ما زالوا ينتمون إلى المذهب الذي انتسبوا اليه سواء أكان هذا المذهب كوفياً أو بصرياً»[2] وهذا معنى «الخلط بين المذهبين» عند الدكتور المخزومي، أما التسمية بـ «المدرسة البغدادية» أو بـ «البغداديين» فيرى انها وضعت في الأصل لمن نسميهم اليوم بـ «الكوفيين» وهم نحاة مدرسة الكوفة ابتداء بالكسائي وانتهاء بثعلب، واثبت ذلك بما ورد في كتب النحويين واللغويين الأوائل ممن عاصروا المبرد وثعلب من تسميتهم سابقيهم بـ «البغداديين» فقد سمى المبرد ابن السكيت من البغداديين مع انه ممن سبقه وتقدم عليه توفي سنة

---

(١) الدرس النحوي في بغداد ٧ وينظر ٥- ٧.

(٢) الدرس النحوي في بغداد ٢٠٤- ٢٠٦.

(٢٤٤ هـ) في حين توفي المبرد (٢٨٥ هـ) ويحكي عن الفراء بعض آرائه مسمِّيًا اياه بـ «بعض البغداديين» وليس من المعقول أن يحكي أقوال الطبقة التي جاءت بعده وانما المقصود بهم «الكوفيون» ولم يذكرهم بهذا الاسم في كتبهم إلا مرة واحدة قد تكون من فعل النساخ الذين وجدوه رأيًا كوفيًّا فنسبوه اليهم، وهو قول المبرد متحدثًا عن الأسماء الستة ورأي الكوفيين فيها: «وجميع هذه التي يسميها الكوفيون معربة من مكانين لا يصلح في القياس إلا ما ذكرنا»[1]، وأخيراً يقر أن المقصود بـ «البغداديين» عند هؤلاء هم أوائل الكوفيين ويقول: «فاسم البغداديين على هذا انما يطلق على الدارسين الذين أقاموا في بغداد، وهذا ينجر إلى أوائل الدارسين في بغداد وهم الكسائي والفراء وأصحابه، وثعلب وأصحابه ولا يقتصر الاسم على الجيل الذي اعقب ثعلبًا والمبرد كما زعم المحدثون»[2]. ويرى أن هذه الازدواجية في التسمية لنحاة المذهب الكوفي بـ «البغداديين» مرة و بـ «الكوفيين» أخرى هي التي أدت إلى ايقاع المحدثين في وهم وجود مدرسة بغدادية تكمل المدرستين البصرية والكوفية، وان التسمية المتأخرة لنحاة هذه المدرسة بـ «الكوفيين» انما جاءت نسبة إلى البلد الأصلي لهؤلاء الأئمة، فالكسائي انما ولد ونشأ في الكوفة، وكانت ثقافته في الكوفة ولكنه سمِّي «بغداديًّا» لأنه لم يستقر في الكوفة للتدريس بعد عودته من البادية ومشافهة الاعراب وانما عرف استاذًا أو شيخًا في بغداد فسمي مذهبه بـ «مذهب البغداديين» أوّلاً، ولما خيف التباس هؤلاء بتلاميذ ثعلب لم يجدوا أفضل من العودة إلى تسميتهم ببلدهم الأصلي وهو الكوفة وسموا بـ «الكوفيين» وكذلك كان الفراء كوفي المولد والمنشأ ولكنه أقام ببغداد كالكسائي فينسحب عليه من حيث التسمية ما انسحب عليهما.[3] أما ثعلب فهو بغدادي المولد والمنشأ، إلا أنه كوفي المشايخ والدراسة والمنهج والآراء، فسمّي بالكوفي من أجل ذلك وألحق بشيخه وبالمدرسة التي عمل على بث آرائها فهو بغدادي- كوفي. أما تلاميذ المبرد وثعلب فجميعهم من «البغداديين» منشأ ودراسة، فقد درسوا ببغداد بعد أن جاء المبرد يحمل النحو البصري ويذيعه فيها، ولكي يُميزَ أصحابهُ ومنهجَه عن منهج ثعلب سمّي مذهبه النحوي بالبصري، وسمي ثعلب وأتباعه المخالفون لهم في المنهج بـ «الكوفيين» اعتزازًا من كل من الفريقين بالمذهب الذي يحمله ويتبعه ويقوم بتدريسه فمن انتسب إلى البصريين واعتز بمذهبهم سمّي «بصريًا» ومن انتسب إلى الكوفيين وأخذ بمذهبهم سمّي «كوفيًّا» فأعادوا وجودهما، وأعادت التسمية «الكوفية» إلى البلد الاسلامي «الكوفة» هيبتها، وأعطت للنحو الكوفي تميزه واستقلاله الذي اشتهر به ولم يذهب جهد شيوخها ويندرس مع من اندرست علومهم في بغداد

---

(١) المقتضب ٢/ ١٥٥.

(٢) الدرس النحوي في بغداد ٢١٦- ٢١٨.

(٣) ينظر الدرس النحوي في بغداد ٢٢٤- ٢٢٥.

وغيرها.

وهكذا كان للتنافس بين ثعلب والمبرد الفضل الأول في إعادة التسمية بالبلد الأصلي الذي خرج منه علماء الدرس النحوي المقابل للمذهب البصري. أما «البغداديون» فتسمية خلصت بعد هذا للذين لم يكونوا بصريين خالصين ولا كوفيين خالصين ولا متعصبين لأي من هذين المذهبين ولا عرفوا بالتعصب لأي من البلدين لأنهم بغداديون منشأً وعلماً وثقافة ولأنه تساوى لديهم الميل إلى أي من الفريقين إذا ما وجدوا لديه من الآراء والأصول ما يقنعهم ويستهويهم فيأخذون بها في أقوالهم أو في مصنفاتهم ولهذا فقد يكون معظم ما قال به البغدادي من الآراء بصرياً فيقال إنّه بغدادي يميل إلى البصريين، وقد يكون معظمها من الآراء الكوفية فيقال إنه يميل إلى الكوفيين، وقد يتوازن اختياره ولا يلحظ فيه الميل إلى أحدهما فيقال فيها انه قَيِّمٌ بعلم البصريين والكوفيين. ولا تقتصر هذه التسميات على من أخذ عن ثعلب والمبرد- ولا تجب لهم، فقد يكون جميع شيوخ البغدادي من البصريين، وقد يكون جميع شيوخه من الكوفيين لكنه ينحو في مؤلفاته نحو الاختيار من المذهبين قلَّ أو كثر فينسب إلى البغداديين مع ميل إلى جهة أو توسط بين الجهتين، كما قد يكون الدارس آخذاً عن شيوخ المدرستين لكنه لا يميل إلى الاختيار من النحويين وانما يأخذ عن أحدهما فيبقى كوفياً أو بصرياً. وهذا ما يفسر وضع ابن قتيبة مع البغداديين مع ان شيوخه بصريون ولم يأخذ عن كوفي، ويفسر وضع الزجاج مع البصريين مع أخذه عن شيخي المدرستين. وينسحب هذا على من لم يأخذ عن شيوخ بصريين ولم يختر من الآراء البصرية وهو كوفي أو بغدادي فيبقى كوفياً، وكذلك من لم يأخذ عن شيوخ كوفيين ولا بآراء كوفية وهو بصري أصلاً أو بغدادي يبقى بصرياً ويتضح هذا في النحاة الذين سموا بصريين مع قضاء حياتهم ببغداد أو سمو كوفيين منهم، الا أن هذه التسمية «البغداديين» انسحبت فيما بعد على من كان ببغداد وأخذ عن تلاميذ المبرد وثعلب كوفيين كانوا أم بصريين لهم اختيار أم ليسوا ممن خلطوا المذهبين ما دام الشيوخ بغداديين والدرس في بغداد مستقراً.

غلبة المذهب البصري

قال أبو الطيب اللغوي: «فلم يزل أهل المصرين على هذا حتى انتقل العلم إلى بغداد قريباً وغلب أهل الكوفة على بغداد، وحدثوا الملوك فقدموهم، ورغب الناس في الروايات الشاذة وتفاخروا

بالنوادر، وتباهوا بالترخيصات، وتركوا الاصول واعتمدوا على الفروع فاختلط العلم»[1]. كان هذا رأي أول من افرد في طبقات النحويين كتاباً تحدث فيه عن نحاة المدرستين البصرية والكوفية، وكان يقدم تراجم البصريين ثم يأتي بتراجم من عاصرهم من الكوفيين، غير أن قوله هذا لا ينسحب على النحو في بغداد منذ نشوئها حتى عصورها المتأخرة وانما كان ذلك عند تأسيس مدينة بغداد واجتلاب العلماء والأدباء اليها من مختلف الامصار الاسلامية ولا سيما البصرة والكوفة، فقد كان للكوفيين في هذه المرحلة الحُظوة عند الخلفاء والأمراء أكثر مما كان للبصريين، فالكسائي رئيس مدرسة الكوفة النحوية ذو الحظوة العظمى عند المهدي ثم عند الرشيد الذي لازمه ملازمة الظل واعتمد عليه في مسائل كثيرة تخرج أحياناً عن نطاق الدرس النحوي واللغوي وبقيت له هذه الحظوة عند ولديه ولا سيما الامين، والفراء تلميذه الذي اتصل بالخلفاء والأمراء والوزراء عن طريق الكسائي حيث كان يصحبه معه فأصبح معلِّماً لأولاد المأمون واختص بهم، وابن السكيت تلميذ الفراء كان معلم أولاد المتوكل قبل المبرد، وقد حاول البصريون مزاحمة الكوفيين في قصور الخلفاء فحظي بعضهم بذلك، منهم ابو محمد يحيى بن المبارك الذي كان معلّماً ليزيد ابن منصور الحميري خال المهدي ونسب اليه فسمى «اليزيدي»[2] وكان قدومه إلى بغداد ونيله هذه الحظوة قبل احتدام الخلاف بين البصريين والكوفيين.[3] وليس معنى هذا أن البصريين كانوا بمعزل عن بغداد، بل كانوا يفدون اليها فقد وفد اليها سيبويه للمناظرة، والأخفش الأوسط والرياشي وغيرهم، ولذلك التقى المذهبان فيها، وكان هذا الالتقاء سبباً في عرض مذهبي المدرستين واتجاهاتهما ثم نقدهما والانتخاب منهما[4] ولا سيما بعد قدوم المبرد اليها واستقراره فيها. وكان لسيطرة الكوفيين على مجالس الدرس النحوي في بغداد أول نشأتها أسباب كثيرة دعت إلى أن يؤثر الخلفاء العباسيون ثقافة الكوفة على ثقافة البصرة حتى صار أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب الشيباني وهو كوفي المذهب امام النحاة فيها لعصره، وكان من أهم هذه الأسباب:

١- ان انتقال الخلافة العباسية إلى بغداد كان من الكوفة ومن الهاشمية بالذات القريبة منها فتبع علماء الكوفة انتقال الخلافة وواكبوها.

٢- ان أهل الكوفة كانوا أقرب إلى نفوس العباسيين من أهل البصرة، لأن أهل الكوفة شيعة

---

(١) مراتب النحويين ٩٠.

(٢) طبقات النحويين واللغويين ٦٠- ٦١.

(٣) ينظر ضحى الاسلام ٢/ ٢٩٧- ٢٩٨ وحياة الشعر في الكوفة ٢٤١- ٢٤٢.

(٤) ينظر حياة الشعر في الكوفة ٢٤٢ وضحى الاسلام ٢/ ٢٩٨.

الامام علي ومؤازروه وأعوانه عندما كانت الكوفة مقراً لخلافته، وتبعًا لذلك فهم شيعة آل البيت، في حين كانت البصرة عثمانية زبيرية وموطنًا للخوارج، ثم أصبحت فيما بعد موطنًا للمعتزلة وغيرهم من الطوائف.

٣- ان الكوفة كانت أدنى إلى العروبة وأقرب من البصرة بمن نزل فيها من القبائل العربية الذين حافظوا على عصبيتهم القبلية وصفاتهم الموروثة ولم يندمجوا بالاجناس غير العربية، كما حافظوا على عاداتهم وطبائعهم، وكأن المنصور قد أراد لحاضرته أن تكون مثالاً يحتذى في السياسة والحضارة والثقافة ولهذا كان يولي توازن العرب وغيرهم في مدينته الكثير من الاهتمام.

٤- ان البصرة كانت موطن الآراء الجديدة والمذاهب والنحل الدخيلة، والفرق الجريئة في العقيدة كالمعتزلة، وكان أهلها بحكم موقعها الجغرافي متأثرين بالأفكار الأجنبية، ولهذا فهم أصعب قياداً وطاعة وخضوعًا للسلطان من أهل الكوفة، والسلطان أقل اطمئنانًا اليهم وأكثر حذراً منهم وأضعف ثقة بهم ولهذا ابتعدوا عن استقدامهم إلى بغداد.

٥- ان الكوفة أقرب مسافة إلى بغداد فهي في منتصف الطريق بين البصرة وبغداد، وربما كانت المسافة أقل من ذلك، مما جعل استقدام العلماء منها أسهل وأسرع[1].

هذه الأسباب، وربما يكون هناك غيرها، دفعت الخلفاء إلى الاعتماد على الكوفيين في علومهم، وربما تكون معرفة الوزراء ورجال الدولة بمن في الكوفة من العلماء لقرب عهدهم بهم ولمجاورتهم لهم الدافع الأول لأن يستقدموهم بأسمائهم في أي علم كان اختصاصهم، إذ تروي الروايات أن الخلفاء أو من يستشيرونهم يذكرون العلماء المرغوب فيهم بأسمائهم ويبعثون بطلب حضورهم إلى بغداد- كما كان من أمر المهدي حينما طلب من أصحابه أن يلتمسوا له أحد النحاة الذين يفهمون بأمور النحو واللغة، فذكروا علي بن حمزة الكسائي من أهل الكوفة فكتب باستدعائه منها،[2] وكما في خبر المتوكل الذي يسأل عن عالم في النحو والقراءات يحكم في نزاع حدث بينه وبين وزيره الفتح بن خاقان في قراءة آية كريمة فقيل له: ما نعرف أحداً يتقدم فتى بالبصرة يعرف بالمبرد، فأُشخِص إلى سامراء مكرَّمًا.[3] هذان الخبران وغيرهما كثير مع علماء العلوم الأخرى تدل على أن الخلفاء ومن يحيط بهم من الوزراء والمؤدبين يعرفون من بالمراكز الثقافية الأخرى ولما كان

---

(١) ينظر الشعر في بغداد ٤٤ و ١٩- ٢١.

(٢) نزهة الالباء ٤٥.

(٣) ينظر طبقات النحويين واللغويين ٩٤ وما بعدها و ١٠٣ وما بعدها و ١٦٣.

معظم المتنفذين في بغداد من الكوفيين أو ممن عاش في الكوفة والهاشمية كانت معرفتهم بالعلماء الكوفيين أوسع واستقدامهم منها أسهل، ولما لم يكن في سامراء من في بغداد من الكوفيين أشير على المتوكل باستقدام نحوي بصري شاب وصلت شهرته إلى سامراء. وقد كان الكسائي أول الكوفيين القادمين إلى بغداد بطلب من خليفتها، وقد استقر يعلم اولاده وأولادهم وعقدت له حلقة خاصة للاقراء، وكان أول مقرئ تعرفه هذه العاصمة العامرة كما كان أول نحوي فيها، ولذا فقد شاعت قراءته التي اختارها من قراءات متعددة وعرف بها كما شاعت آراؤه النحوية وأصول مدرسته ومنهجها وذاعت أخبار ما لقيه من حظوة لدى الخلفاء ووصلت إلى الكوفة والبصرة فعزم علماؤها على الرحيل اليها ولما لم يكن في الكوفة من ينافس الكسائي في ذلك الحين لم يرحل منها أحد حتى نبغ الفراء فتوجه اليها بتحريض من معلمه الرؤاسي، أما البصرة فقد كان فيها سيبويه ويونس وكان سيبويه ما يزال شابًا طموحًا دفعه طموحه إلى مناظرة الكسائي أملاً في التغلب عليه ونيل الحظوة في دار الخلافة، إلا أنه عاد مهضومًا لتغلب منهج الدرس النحوي الكوفي الذي أذاعه الكسائي على عقول الدارسين وأذهانهم من أصحابه ومن وزراء الدولة الملتزمين جانبه الواثقين بمن يثق بهم من الاعراب- الذين حكموهم في المناظرة التي فاز فيها الكسائي لأنه يقول بقولهم ويأخذ بلغتهم. وقد تبع محاولة سيبويه هذه محاولات أخرى من النحاة البصريين كالمازني في أيام الواثق والمتوكل في سامراء وكالرياشي ثم الأخفش الأوسط الذين كان همهم الوصول إلى مجالس الخلفاء والوزراء ومنافسة الكوفيين فيها، وجرت بينهم مناظرات اشتهرت وذاعت غير مناظرة سيبويه والكسائي، أشهرها: مناظرة الكسائي مع اليزيدي والكسائي مع الأصمعي وثعلب مع الرياشي وثعلب مع المازني وثعلب مع المبرد[1].

هذه المناظرات وغيرها تدل على اشتداد المنافسة بين علماء هذين البلدين الاسلاميين المتنافسين، البصرة والكوفة حاول فيها البصريون عرض آرائهم وعلمهم لنيل الحظوة عند الخلفاء، إلا أن محاولاتهم باءت بالخيبة حتى جاء أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (-٢٨٥ هـ) إلى بغداد عائداً من سامراء بعد مقتل المتوكل الذي استدعاه ولازمه بقية حياته، فاستخدم نباهته وذكاءه ولباقته وسعة علمه وتطور منهجه في البحث النحوي واستخدامه وسائل الاحتجاج والاستدلال والتعليل والنقض والاعادة في تدريسه ومحاضراته فاستطاع أن يشق له طريقًا وسط هذا الزحام الكوفي المتسلط على مجالس الدرس وأوجد له مكانًا بين المحاضرين في مسجد بغداد، واستقطب إلى درسه عدداً كبيراً من الدارسين من بينهم الكثير من أصحاب ثعلب وكان من أشهرهم أبو اسحاق

---

(١) أو بين علماء من الفريقين. تنظر في مجالس العلماء للزجاجي مع غيرها من مناظرات جرت بين اللغويين، وبين النحاة.

الزجاج الذي كان أول من ناظره وأعجب بطريقته في الاحتجاج والتعليل والشرح والنقاش فلازمه مطَّرِحًا ما كان معه من كتب المذهب الكوفي قاطعًا صلته بشيخه الأول ثعلب. وفعل مثل ذلك أبو علي الدينوري ختن ثعلب، وكثر حوله الدارسون، منهم من لازمه ومنهم من بقي يتنقل بين حلقته وحلقة ثعلب ليطلع على نحو المذهبين ومنهج المدرستين وليوازن بين علم الشيخين وأسلوب الدرس عندهما فنشأت حركة علمية نحوية تقوم علي التنافس بين الشيخين وبين أصحابهما المتعصبين لهما وقويت هذه المنافسة واشتدت وزاد عدد المتعصبين للمبرد، وبتعبير أدق المنحازين إليه ووجد النحو البصري على أيديهم من بعده من العناية والاهتمام ما كان يحل به شيوخه الراحلون مثل سيبويه والمازني والأخفش وغيرهم ونال كتاب سيبويه حظوة عظيمة، فقد كان عليه اعتماد الدارسين في مجالس درسهم أقرأهم المبرد اياه وشرحه لهم وجسرهم على الخوض فيه ومن ثم التعمق في فهمه ونقده والاختيار منه. واختفت كتب النحو الكوفي ولا سيما كتب الفراء بعد أن انزاح أثره واطرح لاطلاعهم على ما هو أوسع وأشمل وأثبت وأصح وهو النحو البصري ممثّلاً بكتاب سيبويه. وهكذا خبت سيطرة النحو الكوفي على مجالس الدرس النحوي في بغداد بعد أن استمرت حوالي قرن ونصف وتوهجت شعلة النحو البصري بآرائه وكتابه وشيوخه من البغداديين الذين اقتفوا أثر استاذهم المبرد في العناية بهذا النحو الأصيل.

المبحث الثاني

أشهر الدارسين

تكونت من رجال الشيخين المبرد وثعلب طبقة جديدة من الدارسين تنوعت ميولهم ونزعاتهم، واحتدم الصراع بينهم فترة من الزمن، فمنهم من كان بصري النزعة في التعلم والتلقي، وفي الآراء والاتجاه، ومنهم من كان كوفي المذهب، ومنهم من أخذ عن هذا وذاك، أو اختار من آراء المذهبين، إلا أن الاختيار من المذهبين والتوسط بين النزعتين بلا انحياز إلى جهة كان قليلاً وكان الانحياز الطابع الغالب على الدارسين على الشيخين والمازجين بين المذهبين بسبب حدة الخلاف التي كانت قائمة بينهما ورغبة مؤيدي كل منهما في التفوق والتقدم والاشتهار، وبقي الأمر كذلك حتى قضى الشيخان نحبهما وخلا الدارسون إلى أنفسهم وعادوا إلى النحو الذي تعلموه والعلم الذي أخذوه بعد أن انكسرت حدة العصبية لأحد الفريقين. عادوا في بداية القرن الرابع الهجري لعرض علم المذهبين ومنهجهما وآرائهما ونظروا في شواهد المدرستين وأصولهما وأقيستهما ليتعرفوا عليها ويتعمقوا النظر فيها ويقارنوا بينها من حيث الصحة والخطأ والقوة والضعف كي يستطيعوا أن يبنوا أحكامهم على أسس متينة صلبة وكان ما يزال في هؤلاء الدارسين فئة تلقت من البصريين وحدهم، وأخرى تلقت عن الكوفيين، ونشأ نحوهم بصريًا أو كوفيًا خالصًا، أو اختاروا مع هذا من آراء الفريق المخالف كابن قتيبة الذي تلقى عن البصريين ولم يأخذ عن كوفي ومع ذلك خلط في كتبه فأخذ عن الكوفيين مع غلوه في البصريين[1]. ووجدت فئة ثالثة معهما أخذت النحو عن الفريقين، خلطت المذهبين وانحاز فريق منها إلى البصريين وآخر إلى الكوفيين، أو لم تخلط المذهبين وظل منهم البصري ومنهم الكوفي مع سماعهم عن الشيخين وأخذهم بنحو المدرستين. كالزجاج الذي أخذ في أول عهده عن ثعلب أمام الكوفيين ولازمه وأخذ عنه كتب الكسائي والفراء وكان معتمد شيخه في مجادلة كل من يحاول الجلوس للدرس النحوي في مسجد بغداد وفض حلقته وابعاد الناس عنه، فلما ظهر المبرد الرجل الغريب المتحدث في مسجد بغداد وذهب الزجاج ليناقشه ويفض حلقته– على عادته– انحاز اليه ولازمه وهجر نحو الكوفيين ومصنفاتهم، ولم يخلط مع ذلك المذهبين في كتبه وظل بصريًا نحوًا وآراءً واعتقادًا[2]. وقد اتضحت من بين هذه الفئات المتنوعة ثلاثة اتجاهات في الدارسين البغداديين:

---

(١) الفهرست ٨٥.

(٢) طبقات النحويين واللغويين ١٢٠– ١٢٢.

١- من ظل اتجاهه بصريًا سواء أكان بصريًا أم لم يكن، وسواء أخذ عن شيوخ المدرستين أم عن البصريين فقط.

٢- من ظل اتجاهه كوفيًا سواء أكان ممن أخذ عن شيوخ المدرستين أم ممن أخذ عن الكوفيين فقط.

٣- من خلط المذهبين البصري والكوفي في مؤلفاته وآرائه واختار منهما، سواء أخذ عن شيوخ المدرستين، أم اقتصر في الأخذ عن شيوخ احداهما.

من ظل بصريًا:

فمن أشهر الذين غلب عليهم الاتجاه البصري وعدوا من البصريين ولم يخلطوا:

١- الزجاج:

أبو اسحاق ابراهيم بن السري من أكابر أهل العربية قال: «كنت أخرط الزجاج فاشتهيت النحو فلزمت أبا العباس المبرد.. فلزمته وكنت أخدمه في أمور كثيرة... وينصحني بالعلم حتى استقللت فجاءه كتاب من الأكابر يلتمسون معلِّمًا نحويًا لأولادهم فقلت له: اسمني اليهم فأسماني فكنت أعلمهم وبقيت مدة على ذلك فطلب عبيد الله بن سليمان مؤدّبًا لابنه القاسم، فقال: لا أعرف إلا رجلاً زجّاجًا عند قوم فكتب اليهم عبيد الله فاستنزلهم عني وأحضرني وأسلم الي القاسم فكان ذلك سبب غناي. كان قد أخذ على ثعلب أول حياته العلمية النحو الكوفي، وكان لا يتأخر عن حضور حلقته، ووثق به ثعلب فكان يساعده على فض حلقات الذين يطرأون على بغداد ويحاولون أن يتصدروا لتدريس النحو، حتى ورد المبرد فكان أول من ناقشه وأعجب به وتعصب له وللبصريين ونحوهم ولسيبويه وكتابه، وكان مشغولاً بتدريسه لمن يريد من البغداديين بعد شيخه المبرد. وأصبح متعصبًّا على الكوفيين فإذا سمع المتعصبين للكوفيين كأبي موسى الحامض يذم المبرد أو سيبويه أو يونس يستشيط غضبًا ويبدأ بتخطئة شيخه الأول ثعلب. له اعتراض على «الفصيح» لثعلب شمل نصف مسائل الكتاب مما دعا متعصبي الكوفيين كابن خالويه إلى الرد على اعتراضاته. توفي ببغداد سنة ٣١٠ هـ أو ٣١٦ هـ، وله كتب منها: «المعاني في القرآن» و كتاب «الفرق بين المؤنث والمذكر» وكتاب «فعلت وأفعلت» و «الرد على ثعلب في الفصيح» و «شرح أبيات سيبويه» و «ما ينصرف وما لا ينصرف» و «النوادر». ذكره أبو سعيد السيرافي في أصحاب المبرد وقال فيه وفي ابن كيسان: «واليهما انتهت الرياسة في النحو بعد أبي العباس محمد بن يزيد المبرد، إلا أن أبا

اسحاق كان أشد لزوماً لمذهب البصريين، وكان ابن كيسان يخلط المذهبين»[1].

٢- ابن السراج:

أبو بكر محمد بن السري كان أحدث غلمان المبرد سنًا مع ذكائه وفطنته وكان المبرد يميل اليه ويقربه ويشرح له ويأنس به، قرأ كتاب سيبويه على المبرد ثم عاود قراءته بعد موته واليه انتهت الرياسة في النحو بعد موت الزجاج. توفي سنة ٣١٦ هـ، أخذ عنه جماعة من النحويين كتاب سيبويه منهم أبو سعيد السيرافي وعلي بن عيسى الرماني. صنف كتبًا مشهورة في النحو أشهرها:

كتاب «الجمل» و كتاب «الأصول في النحو» و «الاشتقاق» و «وشرح كتاب سيبويه» ذكره أبو سعيد السيرافي في أصحاب المبرد وهو شيخه[2].

٣- الزجاجي:

أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق، سمي بالزجاجي نسبة إلى شيخه الزجاج لملازمته إياه واتصاله الدائم به، كان من أفاضل أهل النحو، وأخذ عن أبي اسحاق الزجاج وأبي بكر بن السراج وعلي بن سليمان الاخفش الأصغر. سكن دمشق، وانتفع الناس بعلمه، وتوفي سنة ٣٣٧ هـ.

ترجم له ابن النديم فيمن خلط المذهبين، والزبيدي في النحويين البصريين من أصحاب الزجاج. ألف كتبًا في النحو من أهمها: كتاب «الجمل» و «الايضاح في علل النحو» و «شرح خطبة أدب الكاتب» لابن قتيبة[3].

٤- المبرمان:

أبو بكر محمد بن علي العسكري. سمع من المبرد وأكثر من الأخذ عن الزجاج. قال ابن أبي العباس المبرد: «في تلاميذ أبي رجلان»:

أحدهما يسفل والآخر يعلو، فقيل له: من هما؟ فقال أحدهما يعلو وهو الكلابزي يقرأ على أبي ثم يقول: قال المازني. والآخر المبرمان، يقرأ على أبي ويأخذ عنه كتاب سيبويه ثم يقول: قال

---

(١) أخبار النحويين البصريين ٨٠- ٨١. وتنظر ترجمته في نور القبس ٣٤٢ وطبقات النحويين واللغويين ١١١- ١١٢ والفهرست ٦٦، ونزهة الالباء ١٦٧، ومعجم الادباء ١/ ١٣٠ وانباه الرواة ١/ ١٥٩ ووفيات الأعيان ١/ ٣١- ٣٣.

(٢) تنظر ترجمته في: أخبار النحويين البصريين ٨١ وطبقات النحويين واللغويين ١٢٢- ١٢٥ ونور القبس ٣٤٢ والفهرست ٦٧- ٦٨ ونزهة الالباء ١٧٠- ١٧١ ووفيات الاعيان ٣/ ٤٦٢- ٤٦٣.

(٣) ترجمته في طبقات النحويين واللغويين ١٢٩ والفهرست ٧٨ ونزهة الالباء ٢١١.

الزجاج. بَعُدَ صيته في النحو ومن مؤلفاته: «شرح شواهد سيبويه» و «شرح الكتاب»- لم يتم. توفي سنة خمس وأربعين وثلثمائة. قرأ عليه أبو سعيد السيرافي كتاب سيبويه، وأخذ عنه وعن ابن السراج.[1] النحو، وترجم له في أصحاب المبرد.

٥- ابن درستويه:

أبو محمد عبدالله بن جعفر بن درستويه الفسوي قرأ على المبرد كتاب سيبويه وبرع، وكان نظّارًا، لقي ثعلبًا وأخذ عنه أيضًا، كان فاضلاً متفنِّنًا في علوم كثيرة من علوم البصريين، ويتعصب لهم عصبة شديدة.

ولد سنة ٢٥٨ هـ وتوفي سنة ٣٤٧ هـ. ألف كتبًا كثيرة في النحو والأدب والعلوم القرآنية، ومن أشهر كتبه النحوية، كتاب «شرح الفصيح» وكتاب «المذكر والمؤنث» و «المقصور والممدود» وكتاب «الكتاب» و «أسرار النحو» لم يُتِمَّهُ، و «شرح المقتضب» لم يُتِمَّهُ و «النصرة لسيبويه على جماعة النحويين»[2].

وقد عد الدكتور شوقي ضيف من البغداديين المتعصبين اثنين من أكابر النحويين هما:

٦- أبو علي الفارسي:

الحسن بن أحمد بن عبد الغفار النحوي، من أكابر أئمة النحويين أخذ عن الاخفش الصغير والمبرمان ونفطويه ومن أشهر شيوخه أبو بكر بن السراج وأبو اسحاق الزجاج، علت منزلته في النحو حتى فضله كثير من النحويين على أبي العباس المبرد، وقد حضر حلقات البغداديين كابن الخياط، وخالط الكوفيين والبصريين والبغداديين، قرأ كتاب سيبويه وتمثل آراءه وتثقف بثقافات عصره ثقافة واسعة توفي سنة ٣٧٧ هـ. ولم يعده أكثر من ترجم له من البغداديين وذلك لأنه لم ينشأ في بغداد ولم يقم بها وانما ولد بـ «فسا» من أرض فارس، وانتقل إلى بغداد سنة ٣٠٧ هـ في حدود العشرين من العمر ورحل إلى عسكر مكرم والموصل ودرس بهما ثم بحلب وبمدن أخرى من الشام ثم عاد إلى بغداد حيث رحل إلى شيراز. فهو ممن لا ينطبق عليه التسمية بالبغدادي وان عده الدكتور شوقي ضيف منهم. له كتب كثيرة من أشهرها:

«الاغفال» و «شرح أبيات الايضاح» و «الشيرازيات» و «الحلبيات» و «التذكرة» و «الايضاح

---

(١) ترجمته في طبقات النحويين واللغويين ١٢٥. وينظر أخبار النحويين البصريين ٨١ و بغية الوعاة ١/ ١٧٥- ١٧٧.

(٢) ترجمته في طبقات النحويين واللغويين ١٢٧ والفهرست ٦٨- ٦٩ ونزهة الالباء ١٩٧- ٢٠٠ وبغية الوعاة ٢/ ٣٦.

في النحو»[1]. وقد جعله الدكتور عبد الفتاح شلبي مع البغداديين فقال بعد كلامه على المدرسة البغدادية واتجاهات الدارسين فيها: «وأبو علي نفسه أحد هؤلاء فعلى الرغم من نزعته التي تميل إلى البصرية كان يرى رأي الكوفيين في بعض المسائل النحوية»[2].

٧- ابن جني:

أبو الفتح عثمان بن جني النحوي الموصلي، ولد في الموصل وبها نشأ ودرس على أحمد بن محمد الموصلي مواطنه. دخل بغداد في سن مبكرة فيما يبدو وقد تردد في كتبه ذكر بعض تلاميذ المبرد وثعلب مثل محمد بن سلمة وابن مقسم، لكنه سرعان ما عاد إلى الموصل وأخذ يدرِّس الطلاب في مسجدها وهو شاب. أخذ عن أبي علي الفارسي بعد تعرفه عليه عند زيارته للموصل وصاحبه منذ ذلك الحين ولازمه وتبحر في علم التصريف لأنه كان السبب في تعرفه على أبي علي الفارسي حيث أخطأ في مسألة تصريفية هي قلب «الواو» «ألفًا» في «قام» و «قال» ولهذا أحب التصريف وبالغ فيه، وتوفي سنة ٣٩٢ هـ. بلغت مصنفاته نحو الخمسين، أشهرها: «الخصائص» و «اللمع» و «التصريف الملوكي» و «شرح تصريف المازني» المسمى بـ «المنصف». و «المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والايضاح عنها» وهو أميل إلى علم النحو، و «التمام في شرح أشعار هذيل» وهو شرح نحوي لغوي. و «سر صناعة الاعراب». وقد عده الدكتور شوقي ضيف في البغداديين لأنه كان يوافق البصريين في مسائل كثيرة ويأخذ بوجهة النظر الكوفية في مسائل مختلفة. لكن من ترجموا له من القدماء والمحدثين لم يعدوه منهم غير ابن النديم الذي جعله فيمن خلط المذهبين. وقد عده الدكتور فاضل صالح السامرائي من البصريين، قال: «ان الناظر في كتب أبي الفتح لا شك واجد أنه يعد نفسه من البصريين لا من البغداديين ولا من غيرهم»[3].

---

(١) ترجمته في طبقات النحويين واللغويين ١٣٠ والفهرست ٦٩ ونزهة الالباء ٢١٦- ٢١٧ وغيرها، والمدارس النحوية ٢٥٥ وما بعدها.

(٢) أبو علي الفارسي ٤٤٧.

(٣) ابن جني النحوي ٢٦٨ وما بعدها.

من ظل كوفيًا:

١- الحامض:

أبو موسى سليمان بن محمد بن أحمد، من أصحاب ثعلب ومختص به ومن أكابر أصحابه، كان نحويًا مذكورًا وبارعًا مشهورًا من نحاة الكوفيين. وقد أخذ عن البصريين إلا أنه مع هذا شديد العصبية لثعلب وللكوفيين، ضيق الصدر سيء الخلق حتى قيل له: «مثلك لا يصلح ان يصلي على ابي العباس» عندما صلى على جنازة ثعلب. يوصف بصحة الخط وبحسن المذهب في الضبط. له كتاب «مختصر في النحو» وكتاب «خلق الانسان» وكتاب «الوحوش» و «النبات». توفي سنة ٣٠٥ هـ. ترجم له ابن النديم فيمن خلط المذهبين.

٢- ابن الانباري:

أبو بكر محمد بن القاسم الانباري المتوفى سنة ٣٢٧ هـ، وسنتكلم عليه بايضاح.

من خلط المذهبين:

١- ابن قتيبة:

أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ولد في الكوفة، ونسب إلى «الدينور» من بلاد فارس لتوليه القضاء بها، أخذ عن أبي حاتم السجستاني والرياشي وعبد الرحمن بن اخي الاصمعي. يغلو في البصريين إلا انه خلط المذهبين وحكى في كتبه عن الكوفيين. وكان صادقًا فيما كان يرويه، عالمًا باللغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه والشعر والفقه، كثير التصنيف والتأليف وكتبه بالجبل مرغوب فيها. وقال أبو الطيب اللغوي فيه:

«أخذ عن أبي حاتم والرياشي وعبد الرحمن ابن اخي الاصمعي، وقد أخذ ابن دريد عن هؤلاء وعن الاشناندانى، الا أن ابن قتيبة خلَّط عليه بحكايات عن الكوفيين لم يكن أخذها عن ثقات، وكان يتسرع في أشياء لا يقوم بها نحو تعرضه لتأليف كتابه في النحو، وكتابه في «تعبير الرؤيا» وكتابه «في معجزات النبي (ﷺ) وعلى آله» و «عيون الأخبار» و «المعارف» و «الشعراء» ونحو ذلك مما أزرى به عند العلماء، وان كان نفق بها عند العامة ومن لا بصيرة له» ويبدو من هذا الكلام أن أبا الطيب اللغوي متحامل عليه، وعلة ذلك على ما يظهر انه بصري وأخذ بعض الآراء عن الكوفيين وكان أبو الطيب وأبو حاتم السجستاني وغيرهما من النحاة واللغويين الأوائل لا يجيزون أن يأخذ البصري عن كوفيين ويعيبونه على ذلك كما فعلوا مع أبي زيد الانصاري وكما فعل هذا، مع قول الخطيب البغدادي فيه وكان رأسًا في العربية واللغة والاخبار وأيام الناس ثقة، دينًا، فاضلاً».

كتبه كثيرة، وذكر أبو الطيب فيما قدمناه من قوله أشهرها. توفي سنة ٢٧٠ هـ وعده ابن النديم أول الذين خلطوا المذهبين[١].

٢- ابن كيسان:

أبو الحسن محمد بن احمد بن ابراهيم المتوفى سنة ٢٩٩ هـ وقيل ٣٢٠ هـ. وسنتحدث عنه بايضاح.

٣- الاخفش الصغير:

أبو الحسن علي بن سليمان الاخفش النحوي أخذ عن المبرد وثعلب واليزيدي أبي العيناء، ولم يبلغ حد الكمال في النحو، وكان يتبرم لو سأله أحد فيه. ورَدَ مصر واستقر فيها ثلاث عشرة سنة ثم عاد إلى حلب، ومنها عاد إلى بغداد حيث توفي فيها سنة ٣١٥ هـ. وله من المصنفات كتاب «الانواء» وكتاب «التثنية والجمع» وكتاب «الجراد» وذكر ياقوت انه الف رسالة في خمس كراريس سماها: «تفسير رسالة سيبويه» وهي شرح لمقدمة الكتاب «باب علم ما الكلم من العربية). وقد سبقه محمد بن الوليد بن ولاد إلى ذلك[٢].

٤- ابن شقير

أبو بكر أحمد بن الفرج بن شقير النحوي كان عالمًا بالنحو وكان على مذهب الكوفيين. هذا ما قاله فيه الانباري وهو يريد أنه بغدادي على مذهب الكوفيين لأنه قال بعد «وكان من طبقة أبي بكر بن السراج وأبي بكر المعروف بمبرمان وأبي بكر الخياط وكان مثله في الميل إلى مذهب الكوفيين». أما السيرافي فقال فيه وهو يتحدث عن ابن السراج ومبرمان من أصحاب المبرد: «وفي طبقتهما ممن يخلط علم البصريين بعلم الكوفيين أبو بكر بن شقير وأبو بكر بن الخياط» وعده ابن النديم فيمن خلط المذهبين. وله من الكتب: كتاب «مختصر نحو» وكتاب «المقصور والممدود» و «المذكر والمؤنث»، توفي سنة ٣١٧ هـ. ولم يذكر الزبيدي سوى اسمه[٣].

---

(١) ترجمته في مراتب النحويين ٨٤- ٨٥ والفهرست ٨٥- ٨٦ ونزهة الالباء ١٤٣- ١٤٤ وتاريخ بغداد ١٠/ ١٧٠- ١٧١.

(٢) ترجمته في طبقات النحويين واللغويين ١٢٥- ١٢٧ والفهرست ٩١، ونزهة الالباء ١٧٠.

(٣) ترجمته في اخبار النحويين البصريين ٨١. وطبقات النحويين واللغويين ١٢٨ والفهرست ٩١ ونزهة الالباء ١٧١.

٥- ابن الخياط:

أبو بكر محمد بن أحمد بن منصور المعروف بابن الخياط، من أهل سمرقند، قدم بغداد واجتمع بأبي اسحاق الزجاج وجرت بينهما مناظرة، وكان يخلط المذهبين توفي سنة ٣٢٠ هـ، له من الكتب: كتاب «النحو الكبير» وكتاب «معاني القرآن» وكتاب «المقنع» وكتاب «الموجز». ولم يذكر الزبيدي سوى اسمه(١).

٦- نفطويه:

أبو عبدالله ابراهيم بن محمد بن عرفة بن سليمان العتكي الازدي أخذ عن ثعلب والمبرد وسمع من محمد بن الجهم، وعبيد الله بن اسحاق بن سلام. مولده سنة ٢٤٤ هـ وكان طاهر الأخلاق حسن المجالسة، خلط المذهبين. كان عالمًا بالحديث وأديبًا متفنّنًا في الأدب حافظاً لنقائض جرير والفرزدق وغيرهم من الشعراء، وكان ضعيفًا في النحو، وتوفي ببغداد سنة ٣٢٣ هـ. له من الكتب «المقنع في النحو» وكتاب «القوافي» و «الرد على من زعم أن العرب تشتق الكلام بعضه من بعض» وكتاب «الرد على مَن قال بخلق القرآن» وكتاب «الرد على المفضل في نقضه على الخليل» وكتاب «الملح» وكتاب «المصادر» وكتاب «في ان العرب تتكلم طبعًا لا تعلمًا»(٢).

٧- الخزاز:

أبو الحسن عبدالله بن محمد بن سفين الخزاز، كان معلّمًا مليح الخط ومن النحويين ممن خلط المذهبين.

ذكر ابن النديم عدداً كبيراً من النحويين واللغويين ممن خلط المذهبين في كتبه(٣). وأشهرهم ابن خالويه المتوفى ٣٧٠ هـ(٤). ونختتم الكلام على نحاة مدرسة بغداد المشهورين برأي غريب ذهب اليه الدكتور أحمد مكي الانصاري حيث عد أبا زكريا يحيى بن زياد الفراء المؤسس الحقيقي لمدرسة بغداد النحوية. وقد حاول البرهنة على ذلك بعرض آرائه النحوية بعد ذكر خصائص كل من

---

(١) تنظر ترجمته في أخبار النحويين البصريين ٨١، وطبقات النحويين واللغويين ١٢٨ والفهرست ٨٩ ونزهة الالباء ١٦٩.

(٢) تنظر ترجمته في طبقات النحويين واللغويين ١٧٢ والفهرست ٩٠ ونزهة الالباء ١٧٨– ١٨١.

(٣) الفهرست ٩٠ وتنظر فيمن خلط المذهبين ٨٥– ٩٢ وفيمن لا تعرف أنسابهم منهم ٩٢– ٩٥.

(٤) الفهرست ٩٢.

مدرسةالبصرة النحوية ومدرسة الكوفة النحوية والمدرسة البغدادية، وبدء تأثر الفراء بكل منها وظهور هذا التأثر في نحوه، ثم تحدث عن مظاهر استقلاله بعد أن قال: «ان الفراء في النحو كان نسيج وحده، وكان يؤسس مذهباً خاصاً به ذلك هو المذهب البغدادي فيما أرى[1]» واستخلص من دراسته الموسعة ما جاء في قوله: «وأخيراً هديت إلى أن أبا زكريا يحيى بن زياد الفراء المؤسس الحقيقي للمدرسة البغدادية، فأثبت ما رأيت، فان أكن قد وقفت فذلك الذي أبغي، وان تكن الأخرى فما على المحسنين من سبيل»[2].

وقد سبق لنا أن ترجمنا للفراء ترجمة مفصلة في المدرسة الكوفية، لأنه بهذا المنهج الذي اتبعه والاصول التي استخدمها والآراء التي قال بها والمصطلحات التي وضعها شيخ مدرسة الكوفة النحوية ولا علاقة له بمدرسة بغداد النحوية التي اتفق الباحثون على أنها نشأت من تلاميذ المبرد وثعلب.

---

(١) أبو زكريا الفراء ٣٥١- ٣٥٢ وينظر الاستدلال على ذلك ص ٣٥٢- ٤٥٤.

(٢) أبو زكريا الفراء ٤٥٥.

ابن الانباري

حياته:

هو أبو بكر محمد بن القاسم بن محمد بن بشار الانباري[1]، والانباري أبوه القاسم بن محمد المتوفى سنة ٣٠٤ هـ ونسب إلى «الانبار» وهي مدينة على الفرات معروفة، ولد أبو بكر في بغداد سنة ٢٧١ هـ وبها نشأ في كنف أبيه القاسم الذي كان من أعلام الأدب في عصره وأحد الرواة الثقات من أهل سامراء. كان أبو بكر من أعلم الناس بالنحو والأدب وأكثرهم حفظاً للغة ولتفسير القرآن، عُد من الطبقة السادسة من النحويين الكوفيين عند الزبيدي من أصحاب ثعلب، وكان له منذ صباه ركن في المسجد يرتاده الدارسون ولأبيه فيه ركن آخر. وقد صار نداً لأبيه منذ شبابه، ويبدو أنه طلب العلم في سن مبكرة، وجلس إلى علماء الكوفيين ولا سيما ثعلب الذي لازمه وأكثر عنه حتى عُدَّ من أصحابه. اشتهر بين الناس بحفظه فقد كان احفظ من تقدم من الكوفيين، روى أبو علي القالي- تلميذه- عنه أنه كان يحفظ ثلثمائة ألف بيتٍ شاهداً في القرآن الكريم، وحفظ مائة وعشرين تفسيراً بأسانيدها. سأله أبو الحسن العروضي يوماً: كم حفظك فقد أكثر الناس فيك؟ قال: احفظ ثلاثة عشر صُندوقاً. قال الازهري فيه: كان واحد عصرِه وأعلم من شاهدت بكتاب الله ومعانيه واعرابه، ومعرفة اختلاف أهل العلم في مشكله، وله مؤلفات حسان في علم القرآن، وكان صائناً لنفسه، مُقَدِّماً في صناعته، معروفاً بالصدق، حافظاً، حسن البيان، عذب الألفاظ، لم يذكر لنا من الناشئين حتى هذه الغاية من يخلفه أو يسد مسده، كان جاداً في طلب العلم مشغوفاً به منشغلاً بالتفكير في مسائله وفي مشكلاته يتتبع حلولها ولم يكن يدع لغير العلم وطلبه وحمله والاشتغال به نُفوذاً عليه، فلم تشغله امرأة ولا جارية ولا مرض عن التفكير بالعلم. بلغت شهرته الخليفة الراضي فطلب أن يرسل اليه في سامراء ليتأدب ابناؤه على يديه مع كثرة من في بغداد من العلماء والمؤدبين فرحل اليه واستقر عنده بعد أن وجد ما وجد عند الخليفة من أساليب الرعاية والاهتمام والحفاوة به. كان أنبه من أبيه وأحفظ لأصول العلم، في نهاية الذكاء والفطنة، وجودة

(١) تنظر ترجمته في طبقات النحويين واللغويين ١٧١- ١٧٢ ونور القبس ٣٤٥ والفهرست ٨٢ ونزهة الالباء ١٨١- ١٨٨ ومعجم الأدباء ٧/ ٧٣- ٧٧، ووفيات الأعيان ٣/ ٤٦٣- ٤٦٥ وانباه الرواة ٣/ ٢٠١- ٢٠٨ وتاريخ بغداد ٣/ ١٨٢ وتهذيب اللغة للازهري المقدمة ٧٠- ٧١ وبغية الوعاة ١/ ٢١٢- ٢١٤.

القريحة، وحضور البديهة، وسرعة الجواب، وكان يملي من حفظه لا من كتاب، وكانت هذه هي عادته في كل ما يكتب عنه من العلم في كتبه المصنفة على كثرتها وضخامتها وتنوع مادتها، وكان يفعل مثل ذلك في اماليه المشتملة على الفوائد اللغوية والنحوية والاخبار والتفاسير والأشعار. وكان مع علمه باللغة وغريبها من كتاب الاخبار والأقاصيص، وفي أمالي القالي الكثيرمنها. توفي وهو في أوج نشاطه العلمي والصحي ولم يتعد عتبة الستين، ولو انه عُمِّر كما عُمِّر معاصروه وبعض شيوخه لأغنى العلم ببحوثه القيمة النافعة.

ومع هذه الحياة التي لم تمتد خلف وراءه إرثًا عريضًا من كتب اللغة والنحو وعلوم القرآن والحديث والأمثال وغيرها مما خلده ورفع شأنه وأحيا ذكره بعد مماته.

خلف ابن الانباري الكثير من المصنفات في فنون شتى دلت على سعة ثقافته وتعمقه في الاطلاع على مختلف العلوم وعلى الرغبة في افادة الدارسين.

وقد اكتسب هذه العلوم واستفادها بسماعه عن شيوخ كثيرين كانوا علماء عصره، وثقافته مستمدة من ثقافات عصره التي كانت في أوج نموها وسموها ومعظمها يرجع إلى الدراسات العربية والقرآنية كاللغة والنحو والتفسير والقراءات وعلوم الحديث ورواية الأخبار والأشعار، وكان دائم التتبع لعلماء هذه العلوم يتنقّل بينهم ويسمع منهم ويحفظ ما يروون من لغة وشواهد عن علماء العربية وعن الاعراب، وكان يحفظ كل ذلك ثم يعود ليدونه في مصنفاته، وعني بعلوم الحديث ولا سيما السند ورجاله فصنف «غريب الحديث» الذي يعد من أضخم المصنفات حتى قيل أنه أملى كتاب الحديث في خمسة وأربعين ألف ورقة[1]. أما شيوخه فكثيرون أشهرهم في اللغة والنحو أبوه القاسم بن محمد بن بشار وأبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب ومن أبرز تلاميذه أبو علي القالي وأبو أحمد الحسن العسكري والزجاجي وابن خالويه وأبو جعفر النحاس المرادي.

خلف مؤلفات كثيرة جدًا أورد ابن النديم منها أكثر من عشرين مؤلَّفًا ضخمًا عدا ما صنّف من أشعار فحول الشعراء كزهير والنابغة الجعدي والأعشى وغيرهم وذكر القفطي أنه أملى كثيرًا من الكتب النافعة من حفظه ولما مات لم يجدوا إلا شيئًا يسيرًا. ومن أشهر مؤلفاته «الأضداد» و «ايضاح الوقف والابتداء» و «الزاهر في معاني كلمات الناس» و «شرح الالفات المبتدءات في الأسماء والأفعال» و «شرح خطبة عائشة أم المؤمنين في أبيها» و «شرح ديوان عامر بن الطفيل» و «شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات» و «مسألة في التعجب» و «الهاءات في كتاب اللّه» و «المذكر والمونث» و «مختصر في الالفات» و «الامالي».

---

(١) طبقات النحويين واللغويين لا بن قاضي شبهة (المحمدوون) ١٤٨.

نحوه:

ابن الانباري علم من أعلام النحو العربي بشهادة الزجاجي وهو أقرب من ترجموا له عهداً به إذ توفي بعده بعشر سنوات وله آراء كثيرة في مسائل النحو والتصريف والأصوات وما اليها.
وكانت طريقته في ايراد هذه الآراء في كتبه على نوعين: فهو اما أن يسرد الآراء سرداً ويعرضها عرضاً ويقررها تقريراً من غير أن يشير إلى انها آراء سبق اليها، أو كان هو أول من قال بها، وإما أن يذكر القائلين بها ويبين اختلافهم فيها، ونستطيع تبعًا لهذا أن نستنتج موقفه النحوي من المسألة التي يطرحها كأنها مسلمات منه ونبني على هذا النوع أقواله وآراءه وأصوله النحوية أو الصرفية ونستنتج منها أقيسته ومنهجه في بنائها، وفي هذا ما يوضح شخصيته النحوية. وقد تبين لي في كتبه المختلفة أن المسائل التي لم يكن له فيها رأي واضح لا يجيب عنها بنفسه ولا برأي أحد النحاة مبينًا اتباعه له، وانما يتوقف عن التحديد من غير أن يستطيع القارى معرفة رأيه فيها. فمما عرض فيه المسائل وعلق عليها بما يشعر أنه رأيه ما جاء في كلامه على ضمائر النصب المنفصلة قال: «والف «المكاني» المنصوبة أصلية مكسورة كقولك: «اياك نعبد»[1] ومثله: «اياكما واياكم واياكَ واياكِ واياكن»، وربما وقعت في موضع الخفض كقولهم: «أنا كاياك» قال الشاعر:

وأحسِن وأجمل في اسيرك انه ... ضعيف ولم يأسر كاياك آسر

والأغلب عليهن التعرب بالنصب[2]». فهذا التعليق الأخير فيما يبدو هو رأيه في هذه الضمائر، وهو أنها ضمائر منفصلة تقع في موقع النصب، فلما جاءت مسبوقة بالكاف الجارة اجازه ولكن الأغلب عليها عنده أن تكون ضمائر نصب تعرب باعراب الاسم المنصوب. ويبدو من هذا التعليق أيضًا انه يجيز ما يجيء في الشاهد الواحد إذا صح عنده- على طريقة الكوفيين في القياس على شاهد واحد موثوق وأن قدم عليه عبارة مسبوقة بـ «كقولهم».

ومما عرض فيه الأقوال عرضاً وسرد آراء الآخرين فيه من غير تعليق عليها يبين لنا رأيه في المسألة قوله متحدثًا عن أصل ألف الوصل: أهي الف أم همزة؟:

«فان سأل سائل عن ألف الوصل: أهمزة هي أم ألف؟ قيل له: قال قطرب[3] هي همزة كثرتها العرب فتحركت لأن الألف لا تحتمل الحركة، وهي في «قال» و «باع» و «عماد» و «جماد» «ألف» لا يشك فيها، فلو كانت في «اضرب» ألفًا ما تحركت.

---

(١) الفاتحة ٥.

(٢) كتاب مختصر في ذكر الالفات ٣٣.

(٣) قطرب: هو محمد بن المستنبر من علماء النحو البصري وتلميذ سيبويه توفي سنة ٢٠٦ هـ.

قال أبو بكر[1]: ورد أبو العباس أحمد بن يحيى هذا القول عليه وقال:

لو كانت همزة لثبتت في الابتداء والوصل كما ثبتت همزة «أقرأ» و «إذن» في كل حال. وقال الفراء وسيبويه ومن أخذ بقولهما: هي «الف» وصل، إذ كانت صورتها صورة الألف، وانما دخلت «الألف» في «اضرب» و «اصنع» وما أشبههما من أجل أن «الضاد» و «الصاد» ساكنتان لا يمكن الابتداء بهما، فدخلت «الألف» ليقع الابتداء والاعتماد عليها. وقال البصريون: كسرت «الألف» في «اضرب» لسكونها وسكون «الضاد»، وكذلك كل «ألف» للوصل تبتدأ مكسورة علة كسرها انها ساكنة في الأصل لقيها حرف ساكن، وضُمَّت عندهم في «اعبُد» و «اشكُر» لأن عين الفعل مضمومة، فلما احتيج إلى حركة الحرف الساكن الذي لقيها ضموها لضم ما بعدها. وتنكبوا الكسرة كراهية للانتقال من كسر إلى ضم[2] فقد ذكر هنا أربعة أقوال للإجابة عن سؤال سائل، عرضها ونسبها إلى أصحابها القائلين بها من غير أن يعلق على أي منها بما يوضح أنه رأيه، وذلك في مثل قوله متحدثًا عن الموضوع السابق وهو «ألف الوصل أهي ألف أم همزة» في كتاب آخر: «فان قال قائل: أي شيء تلقب ألف الوصل؟ أتلقبها ألفًا أم همزة؟ فقل: اختلف النحويون في هذا، فقال الكسائي والفراء وسيبويه هي «الف وصل» والحجة لهم في هذا أن صورتها صورة «الألف» فلقبت «ألفًا» لهذا المعنى، وقال الاخفش: هي «ألف» ساكنة لا حركة لها كسرت في قوله: «اهدنا الصراط» وما أشبهه لسكونها وسكون الحرف الذي بعدها. وقال: «ضموها» في قوله:

«اُقتُلوا يوسُفَ» وفي قوله: «اُدخُلوا عليهم الباب» لأنهم كرهوا أن يكسروها وبعدها» التاء «في قوله «اقتلوا» مضمومة و «الخاء» في قوله: «ادخلوا» مضمومة فينتقلوا من كسر إلى ضم، فضموها بضم الذي بعدها. قال أبو بكر:

هذا غلط لأنها إذا كانت عنده ساكنة لا حركة فيها فمحال أن يدخلها «الابتداء» لأن العرب لا تبتدئ بساكن، فلا يجوز أن يدخل «الابتداء» حرفًا ينوى به السكون. وقال قطرب في ألف «اهدنا الصراط» و «اضرب بعصاك» وما اشبهها هي همزة كثرت فتحركت. قال أبو بكر: وهذا غلط أيضًا لأن الهمزة إذا كانت في أول حرف ثم وصلت بشيء قبلها كانت مهموزة في الوصل كما تهمز في الابتداء، ومن ذلك قوله تعالى: «واتخذتم على ذلكم إصري» فالهمزة في «إصري» ثابتة في الابتداء

---

(١) أبو بكر: يعني نفسه.

(٢) كتاب مختصر في ذكر الالفات ٢٤- ٢٥ وينظر: ايضاح الوقف والابتداء ١/ ١٥٤- ١٥٦.

والوصل، فيجب عليه أن يهمز «ألف» «اهدنا» في الوصل والابتداء ان كانت عنده همزة[1] «وهكذا يعرض هنا لآراء جديدة ويرجح بعض هذه الآراء ويغلط بعضها الآخر ويتبين رأيه من هذه التعليقات.

ومنه قوله في «أرجو» بمعنى «أخاف» فقد روي عن ابن عباس أنه فسر «ترجون» في قوله تعالى: «وترجون من الله ما لا يرجون» بـ «تخافون».

«وذهب الفراء إلى أن «الرجاء» لا يذهب به مذهب «الخوف» إلا بعد الجحد كقولهم: «ما رجوت فلانًا» أي: «ما خفته» وقال الله عز وجل: «مالكم لا ترجون لله وقارًا»[2] فمعناه: «لا تخافون لله عظمة». ثم ينقل عددًا من الشواهد الشعرية في تأييد ما اشترطه الفراء ويقول: قال أبو بكر:

فكلام العرب في «الرجاء» على ما ذكر الفراء. وقال المفسرون في المعنى الذي أبطل صحته الفراء: «وترجون من ثواب الله وتطمعون من حسن العاقبة والظفر والغلبة لأعدائكم فيما لا يطمع أعداؤكم ولا يُؤَمِّلون مثله[3]». فهو هنا يرجح مذهب الفراء في اشتراط مجيء الرجاء بمعنى الخوف بأن يكون واقعًا بعد جحد أي «نفي».

وفي الموضوع نفسه عقب على قول أبي حاتم السجستاني بالتغليط فقال: «وقال السجستاني: معنى قوله: «فمن كان يرجو لقاء ربه[4]». «فمن كان يخاف لقاء ربه». وهذا عندنا غلط، لأن العرب لا تذهب بالرجاء مذهب الخوف إلا مع حروف الجحد»[5]، فقد تبين رأيه هنا، والمذهب الذي أيد فيه الفراء قبل قليل استخدمه هنا في الرد على أبي حاتم السجستاني البصري، وتبين أنه مؤيد للفراء الكوفي. وهاتان الطريقتان هما المتبعتان في أغلب كتبه، ومنها نستنتج موقفه من أمور كثيرة منها المصطلحات ومنها أصول النحو وموقفه من كل منَ الكوفيين والبصريين.

---

(١) الفاتحة ٦ ويوسف ٩ والمائدة ٢٣ والأعراف ١٦٠ وآل عمران ٨١. وإيضاح الوقف والابتداء ١٥٤-١٥٦.

(٢) النساء ١٠٤ ونوح ١٣ على التوالي.

(٣) الأضداد ٩- ١١.

(٤) الكهف ١١٠.

(٥) الأضداد ١٦٠.

المصطلحات:

استخدم أبو بكر الانباري المصطلحات الكوفية في كتبه جميعها وفي ذلك دليل على أنه كوفي النزعة وهي: «الجحد» للنفي و «الدائم» لاسم الفاعل «المستقبل» للفعل المضارع، «وما لم يسم فاعله»: الفعل المبني للمجهول. و «الاجراء» لمعنى الصرف و «المجرى» المصروف و «اجرته» صرفته. و «الدعاء» للنداء و «الأداة» حرف المعنى «الحرف النحوي» و «الخفض» للجر، و «الاسم المحول»: «المصدر المؤول» و «الكناية» للضمير. و «الصرف» و «المصروف» للمضارع المنصوب بعد «الواو» و «الفاء» و «أو» بعد نفي أو شبهه و «النسق» و «المنسوق» العطف و «لا التبرئة» لـ «لا» النافية للجنس و «المضمر» للمستتر أو المقدر[1]. و «المفسر» للتمييز. و «الترجمة» للابدال و «المترجِم» البدل، و «المترجَم» للمبدل منه، «ومعرب الاسم الموصول» للرابط وهو الضمير العائد من الصلة على الاسم الموصول، و «آلة المصدر» لما تعلق به من جار ومجرور وظرف ونحوه من متعلقاته[2]، و «الجزاء» للشرط، و «الأيمان» لعبارات القسم وألفاظه التي يقسم بها، و «الصلة» لحرف الجر أو ما يتعلق به حرف الجر و «المحل» لظرف المكان»[3]. ومما يتعلق بهذه المصطلحات استخدامه كلمات وألفاظًا لدلالات معينة لم ألحظها عند غيره من النحاة وذلك استخدامه: «المكاني» جمعًا لـ «المكنيّ». والنحاة الكوفيون يجمعونه على «مكنيّات» أو يقولون «كناية وكنايات». و «عتيق كلام العرب» للدلالة على الفصيح من كلام العرب الأوائل و «التعرب» للاعراب و «عربت بتعريب الأسماء» أي: اعربت باعراب الأسماء، و «صاحب الفعل» للفاعل[4].

---

(١) تنظر هذه المصطلحات في جميع كتبه ومنها: مختصر في ذكر الالفات ٢٦ و ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ و ٣١ و ٣٢و ٣٣و ١٩ والأضداد: ١٠، ١٧، ٦٢، ١٢، ٦٠، ١٢٠ وايضاح الوقف والابتداء ١/ ١٥٢ و ١٥٣ و ١٥٤و ١٨٤و ١٢٥و ٢١١ و ٢٣٠و ١١٨ و ١٣٨و ١٣٩ وشرح القصائد السبع الطوال ٣٤ و ٢٧٧ و ٢٢ و ١٨٢ و ٢٨٩ و ٣٤ و ٣٨٧ و ٧٠ والزاهر ٢/ ٣٠٠ و ٦٢٦ و ١/ ١٠٤ و ١٠٥. وهي بعض المواضع لكل مصطلح.

(٢) ينظر في هذه المصطلحات ايضاح الوقف والابتداء ١/ ١٣٢ و ١٣٤ ، ١٣٤– ١٣٥.

(٣) ينظر فيها ايضاح الوقت والابتداء ١/ ١٣٥– ١٣٦ و ٢٢٢ و ٢٢٩ و ١٣٧– ١٣٨ وشرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ٢٨ و ٧٠ و ٢٧٧.

(٤) تنظر هذه في كتاب مختصر في ذكر الالفات ٣٠ و ٣٣ وايضاح الوقف والابتداء ١/ ٢٠٨ و ٢١٤ و ٢١١ وشرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ٢٨٩ و ٢٢ على التوالي.

التقسيم والتحديد والتمثيل:

اتبع ابن الانباري في عرض بعض الموضوعات النحوية والصرفية أسلوب تقسيم الموضوع إلى أجزائه أو أحواله ثم يبدأ بتحديد كل قسم أو نوع منها ثم يوضح كل نوع بأمثلة كافية. من ذلك قوله متحدثًا عن «الالفات»: «اعلم ان الالفات المبتدأ بها في أوائل الأفعال ست، ألف أصل، وألف قطع، وألف وصل وألف الاستفهام وألف المخبر عن نفسه، وألف ما لم يسم فاعله» وهذا تقسيم لها، ثم يقول محدداً كل نوع بما يعرف به ويميزه مع التمثيل لكل ميزة. «فاما ألف الأصل، فانها تعرف بأن ترى «فاءًا» من «الفعل» ثابتة في «المستقبل» كقولك «أتى- يأتي»، «ألف» «أتى» ألف أصل لأن وزن «أتى» من «الفعل» «فَعَل».... وألف القطع في الماضي يُفتح، ويُكسر في المصدر ويعرف بضم أول المستقبل كقوله تعالى: «ألهاكم» ألف «ألهى» قطع لأن أول المستقبل مضموم «يُلهي» و «ألهى» فعل ماض..[1]» ثم يستمر مبينًا ميزات وحدوداً لكل قسم ثم يمثل له.

ومثله قوله مقسِّمًا «الف» ما لم يسم فاعله وموضحاً للأقسام مع التمثيل لها: «وألف» ما لم يسم فاعله يكون على أربعة أمثلة: «أفعل» و «افتعل» و «استفعل» و «انفعل» وقد يكون «فعل» غير لازمة له. ثم يشرع في الكلام على كل منها، والتمثيل لها فيقول: «فأما الف «أفعل» فـ «أخرج وأكرم وأحسن» والف «افتعل»: «الف» «اكتسب واصطبغ، واضطر» والأصل فيه «اضترر» فأبدلوا من «التاء» «طاء» لأنها أشبه بـ «الضاد» من «التاء» واستثقلوا الجمع بين حرفين متحركين من جنس واحد فأسكنوا «الراء» الأولى فأدغموها في «الراء» الثانية...»[2].

الحجاج والجدل والتعليل:

ويستخدم ابن الانباري أسلوب الجدل والحجاج والتعليل في عرض معظم مسائله النحوية لتقوية وجهة نظره في وضع الأدلة أو استنباط الأقيسة، أو اطلاق الأحكام وذلك بأن يعرض حكمًا أو قاعدة لظاهرة نحوية أو صرفية فيحس فيها بما يستفهم عنه فيقول: «فان سأل سائل... فالجواب كذا وكذا لأنه كذا، ولقوله كذا» أو: «فان قال قائل... قيل له» ونوضح ذلك بقوله: «وألف الوصل تعرف بسقوطها من الدرج، ويفتح أول المستقبل وهي مبنية على ثالث المستقبل ان كان الثالث مكسوراً أو مفتوحاً كسرتَ، وان كان مضموماً ضَمَمْتَ، فتبتدئ قوله عز وجل: «أن اضرب»- بكسر

---

(١) التكاثر، وكتاب مختصر في ذكر الالفات ١٩- ٢٠ وينظر ٢١ وايضاح الوقف والابتداء ١/ ١٨٠ و ١٨٣ ، ١٥٦.

(٢) كتاب مختصر في ذكر الالفات ٢٧- ٢٨ وينظر ايضاح الوقف والابتداء ١/ ١٩٦- ١٩٧.

الف «اضرب»- لأنها مبنية على «الراء» في «يضرب» وانما بنيت على ثالث المستقبل ولم تُبْنَ على الأول منه ولا على الثاني ولا على الرابع لأن الأول زائد والزوائد لا يبنى عليها، والثاني ساكن والساكن لا يبتدأ به، والرابع لا يثبت على اعراب واحد إذ كان مضموماً في الرفع محذوفًا ومسكّنًا في الجزم، مفتوحًا في النصب، فبنيت من أجل ذلك على الذي اعرابه لازم غير متنقل وهو الثالث. ومثل «اضرب»: «اهدنا» تبتدئ به «اِهدنا» لأنها ألف وصل مبنية على كسر «الدال» في «يهدي»، والضمة موجودة في الأصل هي ضمة «نستعينُ» وألف «اهد» معدومة من اللفظ عند الوصل. ومثله: «ارجعوا إلى أبيكم» و «ابنِ لي صرحًا» و «اقضُوا إليَّ» و «ائتوا صفًّا[1]». فإن قال قائل: «التاء» من «ائتوا» مضمومة ومثلها «الضاد» من «أقضُوا» قيل له: البناء على «تاء» «يأتي» و «ضاد» «يقضي» والأصل في «اقضوا» و «أئتوا» «اقضيوا» و «ائتيوا»، فاستثقلوا الضمة في «الياء» فألقوها على «الضاد» و «التاء» بعد أن أزالوا عنهما الكسرة، وأسقطوا «الياء» لسكونها وسكون «الواو». وتبتدئ قوله تعالى: «أن اشكر لي»[2] «أشكُر» بضم «الألف» لأنها مبنية على «كان يشكر» ومثل «أُعبُد»: «أُدخُل» «أُخرُج» «أُكتُب» «اقتل» وما أشبههن. وتبتدئ قوله تعالى: «أن أصنع الفلك[3]» بكسر «الألف» لأنها مبنية على الثالث وهو «النون» في «يصنع». فإن قال قائل: «هلا فتحتها إذا كان الثالث مفتوحًا كما تكسرها إذا كان الثالث مكسوراً وتضمها إذا كان مضموماً؟» فقيل: كرهت أن أفتحها فيلتبس الأمر بالخبر، ألا ترى أني لو قلت: «أصنع»- بفتح الألف- في الأمر لالتبس بالإخبار عن النفس كقولي: «أنا أصنع»، ومثله قوله تعالى: «ائذن لي» و «اذهبوا بقميصي» و «اقرأ باسم ربك[4]» و «ابلعي ماءَكِ» و «اعلم أن الله»، وتبتدئ قوله تعالى : «انفطرت[5]» بكسر الألف- لأنها ألف وصل مبنية على «الطاء». فإن قال قائل: «لم بنيتها على «الطاء» و «الطاء» رابعة؟ فقل: لأن «ينفطر» وزنه من «الفعل»: «ينفعل» فـ «النون» زائدة لا يلتفت اليها، والبناء على عين الفعل حيث كانت مكسورة.

---

(١) سورة الفاتحة ٦ و ٥ ويوسف ٨١ وغافر ٤٦ ويونس ٧١ و طه ٦٤.

(٢) لقمان ١٤.

(٣) المؤمنون ٢٧.

(٤) التوبة ٤٩ ويوسف ٩٣ والعلق.

(٥) هود ٤٤ وسورة البقرة ٢٥٩ والانفطار ١.

وتبتدئ أيضًا فتقول: «الكاذبون استحوذ[1]» - بكسر الألف - لأنها مبنية على عين الفعل، وهي الواو في «يستحوذ» ووزن «يستحوذ»: «يستفعِل» فـ «السين والتاء» زائدتان لا يلتفت اليهما[2].

فانظر إلى هذه الطريقة في الاحتجاج والاستدلال والجدل المصحوب بالتعليل لكل وجه من الوجوه ولكل حكم من الأحكام في أسلوب ابن الانباري النحوي الكوفي الذي لم يكن أحد من أوائل البصريين أو الكوفيين يستخدم هذا الأسلوب الذي استخدمه. فالمبرد الذي اشتهر بالاحتجاج وباهتمامه بالجدل والعلة لم يضاهه في هذا، وفي هذا النوع من التعبير دليل على تأثر النحاة المتأخرين منذ انتشار العلوم الفقهية وعلم الكلام وظهور المترجمات كالعلوم الفلسفية والمنطقية بهذا الأسلوب من الاحتجاج الذي لم يكن معروفًا في زمن النحاة حتى سيبويه، فهو اذن ليس ميزة بصرية - كما اشيع - وليس وقفًا على البصريين وانما هو ظاهرة عامة في القرنين الثالث والرابع وما بعدهما. وكان يستخدم هذه الطريقة في التعبير مصرحًا بأنه احتجاج لاثبات وجه ما فيقول: «وقد روي هذا عن بعض قراء البصريين، واحتجوا بأن «الياء» حذفت في الوصل لسكونها وسكون التنوين فإذا وقفنا زال التنوين الذي اسقط «الياء» فرجعت «الياء»[3]. ويصرح بلفظ «الإبطال» وذلك في أثناء حديثه عن الوقف على ما آخره «ياء» من المنقوص وذهابه إلى أنه يوقف على المنقوص المنون مثل قوله تعالى: «فاقض ما أنت قاض»[4] - بحذف الياء - فيقول: «قال أبو بكر: هذا مذهب القراء أجمعين، ومذهب الفراء والكسائي ومن قال بقولهما. وكان بعض البصريين يقف على هذا كله بالياء، فيقف: «لا ينكِحُها إلا زاني»[5].... وكذلك ما أشبه هذا، وقد روي عن بعض قراء البصريين، واحتجوا بأن «الياء» حذفت في الوصل لسكونها وسكون التنوين، فإذا وقفنا زال التنوين الذي أسقط «الياء» فرجعت «الياء». وقد أبطل الكسائي والفراء هذا وقالا: الكلام بني وقفه على وصله، فلا يحدث في الوقف ما لا يكون في الوصل»[6]. وهذا النوع مما سماه علماء الأصول «الاحتجاج» و «الاستدلال لأبطال علة الخصم» وقد تحدث أبو البركات الانباري (-٥٧٧ هـ) في «الاغراب في جدل الاعراب» عن ذلك وعقد له فصولاً مطولة.

ونتيجة لهذا الأسلوب من العرض للآراء النحوية والصرفية والصوتية ظهرت عند ابن

(١) المجادلة ١٨ و ١٩.

(٢) كتاب مختصر في ذكر الالفات ٢٠- ٢٤.

(٣) ايضاح الوقف والابتداء ١/ ٢٣٥.

(٤) سورة طه ٧٢.

(٥) النور ٣ وينظر في الاحتجاج والابطال: الاغراب في جدل الاعراب ٣٦ وما بعدها.

(٦) ايضاح الوقف والابتداء ١/ ٢٣٤- ٢٣٥ وينظر ١/ ٢٤٧- ٢٤٨.

الانباري كثرة التعليل بحيث لم تكن مسألة لتمر من غير تعليل للأصل وللأقسام وللفروع وللظواهر الاعرابية والتركيبية الأخرى، وقد كانت علله يأتي بعضها في أثر بعض بانسياب لا يعقد الكلام أحيانًا كما في قوله متحدثًا عن علة تقديمه بحث «ألفات الوصل في أوائل الأفعال» على «ألفات الوصل في أوائل الأسماء»: «وانما قدمناها على الفات الأسماء والأدوات لقرب أصولها على المستفيدين، وسهولة التفريع منها وقلة التباس العلل فيه عليهم[1]» فهذه أكثر من علة ومع ذلك سهلت. وقد يكون التعليل غير لازم لأنه يصح الاستدلال بالمضاد وتصح العلة كما في تعليله كسر همزة القطع في المصدر وهو من الأمور الواضحة المطردة في كلام العرب ولا يحتاج اليها لا المعلم ولا المتعلم ومع ذلك يقول: «وانما اختاروا الكسر وعدلوا عن الفتح كراهية أن يلتبس المصدر بالجمع، إذ «أخراج» جمع «خرج» و «أنعام» جمع «نعم» و «أعطاء» جمع «عطو »[2]» ولهذا فقد قيل: «إخراج» و «إنعام» و «إعطاء» في المصدر وهذه علة يصح أن يعلل بها فتح الهمزة في الجمع، بأنها منع لالتباس الجمع بالمصدر. ومن أطول التعليلات التي جاء بها من غير داع اليها ولم تزد المتعلم علمًا بالقاعدة التصريفية وهي كسر همزة الوصل في أول الأمر إن كانت عين المضارع منه مكسورة أو مفتوحة، وضمها ان كانت العين مضمومة و «العين» هي ثالث المستقبل (المضارع) العلة التي جاءت في قوله: «وانما بنيت على ثالث المستقبل ولم تبن على الأول منه ولا على الثاني ولا على الرابع لأن الأول زائد، والزوائد لا يبنى عليها، والثاني ساكن، والساكن لا يبتدأ به، والرابع لا يثبت على اعراب واحد إذ كان مضمومًا في الرفع، محذوفًا ومسكّنًا في الجزم، مفتوحًا في النصب، فبنيت من أجل ذلك على الذي اعرابه لازم غير منتقل وهو الثالث»[3]. ولو أردنا تتبع أنواع التعليل عنده ومواضعها لطال بنا الكلام وتشعب لكثرة ما جاء منه في كتبه، ودل هذا على تأثر النحاة في زمن ابن الانباري وما بعده بهذا الأسلوب من التعليل والاحتجاج والاستدلال[4].

ونختم كلامنا على التعليل بمثال يوضح لنا استخدامه أنواع العلل الثلاثة في موضع واحد وهو مسألة تصريفية لم يكن عرضها بحاجة اليها كلها وهي العلة التعليمية والعلة النظرية والعلة

---

(١) كتاب مختصر في ذكر الالفات ١٩ وينظر ٢٠.

(٢) كتاب مختصر في ذكر الالفات ١٩– ٢٠.

(٣) كتاب مختصر في ذكر الالفات ٢١ وينظر ايضاح الوقف والابتداء ١/ ١٥٦– ١٥٧.

(٤) ينظر أنواع العلل المفردة والمركبة في كتاب مختصر في ذكر الالفات ٢٢ و ٢٨– ٢٩ و ٣٢ وايضاح الوقف والابتداء ١/ ١٨٣– ١٨٤ و ١٦٢ و ١٩٢ و ١٩٣ و ١٥٣– ١٥٤ و ٢٣٣ و ٢٣٤.

الجدلية[1]، وصرح بالعلة والعلل فيها، قال في أثناء كلامه على «ما ينصرف وما لا ينصرف من أعلام المؤنث»: «فإن قال قائل: لم صارت الأسماء المؤنثة لا تجري؟ قيل له: منعتها العرب الاجراء في المعرفة لعلتين توجبان لها الثقل، احداهما: التعريف، والتعريف يثقل الاسم. والعلة الأخرى: التأنيث، والتأنيث يثقل الاسم، فان زالت احدى العلتين جرى الاسم كقيلك: «قامت نوارُ ونوارُ أخرى» و «قعدت زينب وزينب أخرى» لم تجر «زينب» الأولى لأنها معرفة، وأجريت الثانية لأنها نكرة. فان قال: ولم صارت الأسماء المؤنثة أثقل من المذكرة؟ قيل له: العلة في هذا ان العرب تكثر استعمال أسماء الرجال وترددها في الكتب والأنساب فيقولون «فلان بن فلان» ولا يقولون «فلان بن فلانة» لصيانتهم أسماء النساء وقلة استعمالهم لها، فلما كان ذلك كذلك كان الذي يكثرون استعماله أخف على ألسنتهم من الذي يقلون استعماله، هذا مذهب الفراء وقال غيره: أنما صار التأنيث أثقل من التذكير لأن التأنيث يثقل الاسم، وذلك انه مضارع للفعل، وانما ضارع الفعل لأنه ثان له بعده كما ان الفعل بعد الاسم، والدليل على أن المذكر قبل المؤنث انك تقول: «قائم وقائمة وقاعد وقاعدة» ... فتجد هذا في التأنيث فيه مزيداً على التذكير فالمزيد عليه هو الأصل، وتقول إذا رأيت شيئًا من بعد فلم تدر ما هو: «هو شخص» «هو شيء» .. فإذا حصلت معرفته قلت: «امرأة» «دابة» وما أشبه ذلك[2]» فأين هذا الأسلوب من التعبير الذي تداخلت فيه التعليلات من أسلوب سيبويه الذي كان زاخراً بالعلل لكنها جاءت على سهولتها وطبيعتها، وقد علل ببعضها ابن الانباري هنا[3].

الاستدلال:

وكما جر أسلوب ابن الانباري في الاحتجاج إلى استخدام التعليل والإكثار منه كذلك أدى إلى القول بالاستدلال. والاستدلال أنواع[4]، وقد استدل بكثير منها يمكن أن تلتمس في كتبه، واتضح لي منها الكثير اكتفي بأوضحها، مثل: «الاستدلال بالأصل» فقد استدل بأصل الفعل– وهو صورة المبني للمعلوم على نوع همزة الفعل في الفرع وهو صورة المبني للمجهول منه قال: واعلم أن «الف» «استَفْعِلَ» و «افتُعِلَ» و «انفُعِلَ» الف ما لم يسم فاعلهن الف الوصل إذ كنت تقول في حال

(١) ينظر فيها الايضاح في علل النحو ٦٤– ٦٦.

(٢) المذكر والمؤنث ١٢٨.

(٣) ينظر الكتاب ٣/ ٢٤٠– ٢٤٢ وما ينصرف وما لا ينصرف ٣– ٥.

(٤) ينظر الاغراب في جدل الاعراب ٤٥– ٦٨.

تسمية الفاعل «استَفْعَلَ» و «افتَعَلَ» و «انفَعَلَ» فلا يختل عليك أنها الف وصل مبنية على عين الفعل ...[1]». و «الاستدلال بالمغاير في النوع المشابه في الحكم والمعنى والتفسير»، وذلك بأن يستدل على الحكم أو العلة بشيء يقيسه أو يحمله على ما يغاير لوجه من الشبه بين المعلَّل والدليل وذلك ظاهر في قوله معلّلاً ضم الالف في أول الفعل المبني للمجهول: «وانما ابتدئَتْ الفُ ما لم يسم فاعله بالضم لدلالة الفعل الذي هي أوله على «فاعلٍ» و «مفعولٍ»، إذ «ضُرِبَ» لا يخلوا من دلالة على «ضارب ومضروب» فكان ضم أوله دلالة على تضمنه معنيين كما قالوا: «زيد حيثُ عمرو» فألزموا «حيثُ» الضمة لقيامها مقام محلين، كقولك «زيد في مكان فيه عمرو». وقالوا: «نحنُ قمنا» فضموا «نحن» في جميع الأحوال لتضمنه معنى التثنية والجمع، إذ كان الرجلان مُخبرينِ عن أنفسهما به، فيقولان: «نحن قمنا» وتقول الرجال مثل ذلك[2]». ومنه «الاستدلال بالمغاير وذلك بحمل الشيء على غير جنسه لتعليل ظاهرة واردة مخالفة» ولتوضيح ذلك نقول بأنه استخدم هذا في تعليله فتح «الف الوصل «في «ال التعريف» قال: «والف» «الرجل» تبتدئ بالفتح من أجل أنها دخلت مع اللام للتعريف فشبهت بـ «هل» و «بل» فان قال قائل: «فهلا كسرت وشبهت بـ «من» و «إن؟» فقل: كرهوا أن يكسروها فتلتبس بالف «ابن» و «اثنين» وهي مخالفة لها من أجل امتحانها فآثروا فتحها لذلك[3]» فقد استدل بدليل غير مقنع بالحمل على المغاير لوجود مغاير يمكن أن يحمل عليه ويجري على القياس لكنه علل ترك الاستدلال بالمغاير الثاني بعلل جديدة، وهكذا تتداخل الأدلة والعلل والحجج.

التأويل:

يلجأ ابن الانباري إلى تأويل ظاهر الآيات عندما يكون المعنى غير مستقيم ولا جائز لمخالفة المطرد الكثير، والقياس الثابت، ولا يلغي اقيسته ويقيس على الظواهر الجديدة شأن الكسائي وعامة الكوفيين، وانما يحاول تفسير الظاهرة المخالفة بتقدير، وتأويل بعيد أو قريب ليردها إلى الصحيح وذلك في قوله: «وقال أبو عبيدة: وتكون «كان» زائدة كقوله تعالى: «وكان الله غفوراً رحيما»[4] معناه: «والله غفور رحيم»، فقال أبو بكر بن الانباري رادا عليه: «وقول أبي عبيدة»: «وكان» زائدة في

---

(١) كتاب مختصر في ذكر الالفات ٢٨.

(٢) كتاب مختصر في ذكر الالفات ١٨- ١٩.

(٣) كتاب مختصر في ذكر الالفات ٣١ وينظر في استخدام الاستدلال: ايضاح الوقف والابتداء ١/ ٢٠٧- ٢٠٨ و ٢٠٩ و ٢١٠ و ٢١١ وغيرها كثير في مؤلفاته.

(٤) النساء ٩٦ و ١٠٠ و ١٥٢ والفرقان ٧٠ والاحزاب ٥٠ و ٥٩ و ٧٣ وغيرها.

قوله تعالى: «وكان الله غفوراً رحيما» «ليس بصحيح لأنها لا تلغي مبتدأة ناصبة للخبر، وانما التأويل المبتدأ عند الفراء: «وكائن الله غفوراً رحيما» فصلح «الماضي» في موضع «الدائم» لأن أفعال الله جل وعز تخالف أفعال العباد. فأفعال العباد تنقطع، ورحمة الله جل وعز لا تنقطع، وكذلك مغفرته وعلمه وحكمته»[1]. ولم يكتف ابن الانباري بتأويل الفراء هذا، فأورد تأويلاً آخر لغيره وهو ما في قوله: «وقال غير الفراء: كأن القوم شاهدوا مغفرة ورحمة وعلماً وحكمة فقال الله جل وعز: «وكان الله غفوراً رحيما» أي: لم يزل الله عز وجل على ما شاهدتم[2]» والمعنى الناتج عن هذين التأويلين اللذين أوردهما ولم يفاضل بينهما- واحد هو الدلالة على وصف الله عز وجل بالمغفرة والعلم على وجه الدوام لا الانقطاع. ولا يكتفي ابن الانباري بتعليل الظواهر الواردة وانما يفترض هو أو أحد شيوخه ظاهرة لم ترد في قراءة أو كلام أو شعر فيبحث عن تأويل وتخريج لها، فيلجأ إلى تقدير محذوفات يصح فيها الاعراب الظاهر فيما افترضوه فيعقد الحكم أو الظاهرة الواردة بالكلام على تأويل وتخريج غير واردين، واتضح ذلك في كلامه على قوله تعالى: «فستبصر ويبصرون، بأيكم المفتون»[3] قال: «فالمعنى: «بأيكم الجنون» فـ «مفعول» هنا معناه «المصدر». وقال الفراء: يجوز أن يكون المعنى «في أيكم المفتون» فتكون «الباء «بمعنى «في»، ويجوز أن تكون «الباء» زائدة للتوكيد، والمعنى: «أيكم المفتون؟». قال أبو بكر: وقال لي ادريس[4]: سألت سلمة فقلت: «أتجيز بأيكم المفتون»؟ برفع «أي»؟ فقال: أجيزه، واحتج بقول الشاعر:

أباهل لو أن الرجال تبايعوا على أينا شر قبيلاً وألأم

قال أبو بكر: معنى الرفع عندي انه اضمر «النظر» ورفع «أيا» بما بعدها كأن المعنى: «فستبصر ويبصرون بأن تنظروا أيكم المفتون» وكذلك معنى البيت على «أن تنظروا أينا» و «النظر» لا يعمل في «أيّ» لأنه من دلائل الاستفهام، قال أبو بكر: انما لم يعمل النظر والأفعال التي بمنزلته في «أي» لأن «أيًا» حرف استفهام مُخالطة للألف وما بعد الألف، والاستفهام لا يعمل ما قبله فيما بعده من ذلك قوله عز وجل «لنعلم أيُّ الحزبين... [5]» رفع لأن المعنى: «لنعلم أهذا أحصى أم هذا؟»

---

(١) الأضداد ٦٠ و ٦٢.

(٢) الأضداد ٦٢.

(٣) القلم ٥ و ٦.

(٤) هو ادريس بن عبد الكريم روى عن سلمة، سلمة بن عاصم هو تلميذ الفراء (انباه الرواة ٢/ ٥٦).

(٥) الكهف ١٧.

فكانت «أي» بمنزلة ألف الاستفهام والاسم الذي بعده، فلم يجز أن يعمل ما قبلها فيها، فرفع بها ما بعدها فكانت «أي» مرفوعة بـ «أحصى» و «أحصى» بها»[1].

يتضح مما تقدم أن ابن الانباري يعتمد في تعليلاته وفي تأويله وفي الكثير من أقواله على آراء النحاة الذين سبقوه، مع قوله بآراء خاصة تتضح في ترجيحه أقوال الكوفيين وآراءهم أو القول بآراء جديدة غير مبنية عليها.

متابعته الكوفيين:

تابع ابن الانباري الكوفيين في أمور كثيرة نحاول ايجاز بعضها، من ذلك انه أجاز القياس على شاهد واحد وثق به وذلك في تجويزه أن يأتي ضمير النصب المنفصل «إياي» وفروعه ضمائر جر وان كان الأغلب عليها أن تأتي ضمائر نصب معتمداً على بيت شعري واحد، قال: «والف المكاني» المنصوبة أصلية مكسورة كقولك: «إياك نعبد[2]» ومثله: «إياكما» و «إياكم» و «إياك» و «إياكن». وربما وقعت في موضع الخفض كقولهم: «أنا كإياك» قال الشاعر:

واحسنْ وأجملْ في أسيرك إنه ... ضعيفٌ ولم يأسرْ كأياك آسرُ

والأغلب عليهن التعرب بالنصب»[3]. فأجاز بناء على هذا الشاهد وقوع «إياك» ضمير جر.

ومن قوله متابعًا الكوفيين بجواز ان يعرب الاسم من مكانين، وهذا مبدأ كوفي، قال: «ويقال: «هذا فُمٌ» و «رأيت فَمًا» و «اخرجته من فمِهِ» فتضم «الفاء» في موضع الرفع، وتفتح في موضع النصب، وتكسر في موضع الخفض، فيكون معربًا من جهتين[4]» وهذا هو مبدأ الكسائي والفراء في قولهم باعراب «امرئ» بأنه بحركة «الراء» والهمزة معًا[5]. ومنها قوله متابعًا الكسائي بأن عامل الرفع للفعل المضارع حروف المضارعة[6]. ومنها متابعتهم في القول بأن «الأمر» معرب مقتطع من المضارع[7].

---

(١) الزاهر ١/ ٤٣١.

(٢) الفاتحة ٥.

(٣) كتاب مختصر في ذكر الالفات ٣٣ وينظر في مثله من القياس على الشاهد الواحد ما بعده.

(٤) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ٢٥٠ وينظر ٣٢٨.

(٥) ينظر ايضاح الوقف والابتداء ١/ ٢١١ وينظر في متابعته الكوفيين: الأضداد ٧– ٨.

(٦) ينظر ايضاح الوقف والابتداء ١/ ١٥٣ وينظر في غيره ١٩٣ والمذكر والمؤنث ١٨٥.

(٧) ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ١٨.

آراؤه الاجتهادية:

لابن الانباري آراء كثيرة خاصة به قال ببعضها مؤيِّداً لرأي لكنه زاد في التعليل والتوضيح والاحتجاج، وقال ببعض آخر لم يتضح أو يعرف أن أحداً سبقه اليه. أما النوع الأول فهو كثير جداً تبناه من أقوال معروفة خالف فيها بعضهم أم لم يخالف، منها: ذهابه إلى أن سبب بناء «حذام» و «قطام» وأمثالهما على الكسر هو كونها تجري مجرى «الأمر» في قولك: «قَوالِ قَوالِ» و «نَزالِ نزالِ» و «نَظارِ نَظارِ»[1]. وذهابه إلى أن جزم المضارع في جواب الأمر انما هو بلام الأمر المحذوفة ففي قول امرئ القيس: «قفا نبك» هو على تقدير: «فلنبك»[2]. وقوله بأن «أمس» انما بقيت مبنية على الكسر مع تعريفها بـ «ال» في قول الشاعر:

وإني حبست اليوم والأمسِ قبله ... ببابك حتى كادت الشمس تغرب

لأن أصل «أمس» فعل أمر من «أمسى يُمسي» أدخلت عليه «أل» فحكي، وهذا مقيس على قول الفراء الذي اتبعه ابن الانباري أيضاً في أن «الآن» انما هي فعل ماض «آن: يئين» دخلت عليه «ال» فحكي.[3] ومنه تجويزه الرفع والنصب في المضارع الذي حذفت «أن» من قبله والمعنى يتطلب وجودها [4]. وآراؤه كثيرة جداً من هذا النوع الواضح الذي قال به بعض النحاة السابقين أو قاله على ما قالوه في مسائل مشابهة، أو أوجدها هو ولم يبنه على قول سابق[5].

أما النوع الثاني وهو ما كان غريباً من الآراء التي لم يقل بها نحوي سابق فيما اعلم فمثل ما ذهب اليه من تعليل ظاهرة الضم في بعض الأسماء والظروف والحروف وتخريجها على تأويل لم يسبق لي أن اطلعت عليه عند أحد ممن سبق أن عرضت لهم أو غيرهم ممن لي علم بآرائهم، وهو: انما ضمت هذه الألفاظ لكونها تدل على معنى مركب. وقد اتضح هذا في كلامه على ضم الف الوصل في أول الفعل المبني للمجهول قال: «وانما ابتدئت «الف» ما لم يسم فاعله بالضم لدلالة الفعل الذي هي في أوله على «فاعل» و «مفعول» إذ «ضُرب» «لا يخلو من دلالة على «ضارب» و

---

(١) ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ٢٢١ وينظر ٥٧٠- ٥٧١.

(٢) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ١٨.

(٣) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ٢٨٩- ٢٩٠.

(٤) شرح القصائد السبع الطوال ١٩٣.

(٥) ينظر في أمثال ذلك: شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ٢٢ و ٧٠- ٧١ و ١٨٢ و ٢٧٧ و ٢٨٧ والمذكر والمؤنث ٨٩ و ١٢٨- ١٢٩ و ١٨٥ و ٥٤٤- ٥٤٥ والزاهر ١/ ١٠٦- و ١٠٤- ١٠٧ و ١٤٦ و ٢٣٦ و ٤٢١ و ٦٢٦ و ٢/ ٢٩٩- ٣٠٠ و ٣١٠.

«مضروب»، فكان ضم أوله دلالة على تضمنه معنيين كما قالوا: «زيد حيث عمرو» فألزموا «حيث» الضمة لقيامها قيام محلين، كقوله: «زيد في مكان عمرو»، وقالوا: «نحن قمنا» فضموا «نحن» في جميع الأحوال لتضمنه معنى التثنية والجمع، إذ كان «الرجلان» مخبرين عن أنفسهما به فيقولان: «نحن قمنا»، وتقول الرجال مثل ذلك»[1]. وقد جاء بعده في كتاب آخر عرض فيه الموضوع نفسه: «فكذلك فعل ما لم يسم فاعله لما تضمن معنى «الفاعل» و «المفعول» جعل أوله مضمومًا في كل حال. فإن قال قائل لم صار الذي يتضمن معنيين يعطى الضم؟ فقل: لأنه يقوى فيعطى أثقل الحركات»[2]. ويبدو أن هذا القول الذي رأيته غريبًا قد أخذه من قول نَسَبَهُ ابن الانباري إلى الفراء وذلك في معرض شرحه لقول زهير:

فشد ولم ينظر بيوتًا كثيرة   لدى حيث ألقت رحلها أم قَشعَم

إذ نَبّهَ على أن «حيث» في رأي الفراء انما ضمت «الثاء» منها لكونها تدل على محلين. فقال: «وانما ضمت وهي في موضع خفض... قال الفراء: ضمت لتضمنها معنى المحلين»[3]، وهكذا استفاد ابن الانباري من هذه اللمحة العابرة في «حيث» في تطبيق ما جاء فيها على «نحن» وضم همزة الوصل في أول الماضي المبني للمجهول، وأرى أن جمع هذه الأشتات من الكلمات «ضمير» و «ظرف» و «همزة وصل» تحت باب واحد وتعليل الضم فيها وتأويله هذا التأويل الذي يصح في غيرها مما أعرب أو فتح، نوع من التحكم في تفسير الظواهر وتخريجها تخريجات لا تطرد وتعليلها تعليلات لا تحتاج اليها هذه الظواهر ولا سيما من نحوي كوفي مذهبه ومنهجه مبنيان على وصف الظواهر وعلى تحكيم اللغة أكثر من تحكيم العقل، وإلا فأين القوة في «التاء» من « كتبت» مثلاً، أو «الذال» من «منذ» وأمثالهما؟ وما الشيئان اللذان وردا فيهما ولم يردا في غيرهما؟ كل هذا لا داعي له، ويكفي أن يقال في تعليل ضم أول الفعل وكسر ما قبل آخر الماضي وفتحه في المضارع كما علله به الأوائل بأنه التمييز بين معنيي الفعل من الظاهرة الموجودة فالضم يوحي بعدم تسمية الفاعل الأصلي الذي قام بالفعل.

والظاهرة الثانية التي لفتت انتباهي في أقوال ابن الانباري وتعليلاته لظواهر اللغة ما جاء في كلامه على «ألفات الوصل» في اوائل الأسماء التسعة المعروفة وتعليل الكسر فيها دون الضم والفتح، قال: «فأما «الف»: «ابن» فكسرت لأن أصله أمر من «بنيت « و «اثنين» كسرت لأن أصله

---

(١) كتاب مختصر في ذكر الالفات ٢٨- ٢٩.

(٢) ايضاح الوقف والابتداء ١/ ٢٠٠- ٢٠١.

(٣) ايضاح الوقف والابتداء ١/ ١٩٩- ٢٠٠.

أمر من «ثنيت»، و «الف»: «اسم» كسرت لأن أصله أمر من «سميت» وهذا ما لم اطلع فيه على قول لسابق، ولما لم يجد العلة تسري في «أمرئ» و «است» أوجد للأولى علة أخرى ثم الحقها بما تقدم وألحق الأخيرة بالعلة الجديدة لعدم استطاعته ابتداع علة أخرى تكون سبباً في كسر همزتها، فقال مكمّلاً ما تقدم: «و «الف»: «امرئ» لم يصلح بناؤها على الثالث[1]، إذ كان يضم في الرفع ويفتح في النصب ويكسر في الخفض فيقال: «قام امرؤ، ورأيت امرءا، ومررت بامرئ» فلما لم يصلح ذلك الحقت بأخواتها من «ابن» و «وابنة»، و الف «است» أيضًا ملحقة بأخواتها[2] «وقد تكلم عليه بما هو أوضح من هذا في كتاب آخر فقال في كلامه على كيفية الابتداء بقوله «ابن مريم» من قوله تعالى: «عيسى بن مريم[3]» و «ابنة» من قوله: «مريم ابنة عمران[4]... فإن قال قائل: لم صارت «الف» «ابن» تبتدأ بالكسر؟ فقل: لأن أصله أمر من «بنيت». كان الأصل فيه: «ابن» على وزن «اقضِ» و «ارمِ» ثم عربوه بتعريب الأسماء فرفعوه ونصبوه وخفضوه ونونوه، وكسروا «الألف» في «ابنة» لأن الأنثى مبنية على الذكر. وتبتدئ أيضاً بالكسر قوله: «وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً[5]» تبتدئ «اثني» بالكسر لأن الألف فيه ألف وصل- الدليل على ذلك أنك تقول في التصغير: «ثُنيَّ عشرَ» فتجدها غير ثابتة وكذلك: «حين الوصية اثنان»[6] «تبتدئ «اثنان ذوا عدل منكم «بالكسر، وكذلك: «فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا[7]»، تبتدئ: «اثنتا عشرة «بالكسر، لأنك تقول في التصغير: «ثُنَيَّتا عشرةَ «فتجد «الألف» غير ثابتة فيه وكذلك: «فان كانتا اثنتين[8]» وتقف «كانتا» تبتدئ «اثنتين» بكسر «الألف» لما ذكرنا. فإن قال قائل: «لم صارت «الألف» في «اثنين» و «اثنتين» مكسورة؟» فقل: لأن أصله أمر من «ثنيت» كان الأصل فيه: «اثنِ يا رجل» على وزن: «اقضِ يا رجل» و «ارمِ يا رجل» ثم عربت بتعريب الأسماء

---

(١) (الثالث) هنا إشارة إلى قاعدة كان وضعها لضبط حركة همزة الوصل في أول فعل الأمر بأنها تكون مكسورة إذا كان ثالث مضارع هذا الفعل مفتوحًا أو مكسورًا، وتكون مضمومة إذا كان مضمومًا.

(٢) كتاب مختصر في ذكر الالفات ٣١.

(٣) المائدة ١١٦.

(٤) التحريم ١٢.

(٥) المائدة ١٢.

(٦) المائدة ١٠٦.

(٧) سورة البقرة ٦٠.

(٨) النساء ١٧٦.

فدخلت عليه الف التثنية، وكسرت «ألف»: «اثنتين» لأن الأنثى مبنية على الذكر»[1]. وفسر كسر همزة الوصل في «اسم» بقوله: وتبتدئ أيضًا بالكسر قوله: «بكلمة منه اسمه المسيح[2]»، تبتدئ «اسمه» بكسر «الألف» لأنك تقول في التصغير: «سُمَيّ» كما ترى، فلا تجد «الألف» ثابتة. فإن قال قائل: «فلم كسرت الألف؟» فقل: لأنه أمر من «سمّيْت» حذفت لامه ثم عربت بتعريب الأسماء» لكنه يزيد عليه ذكر اللغات فيه، والوجه في كل لغة فيقول: «ومن العرب من يقول: «اسم» بضم «الألف»، ولا نعلم أحداً قرأ بها، فسألت أبا العباس عن هذا فقال: «من قال اسم» بكسر الألف أخذه من: «سميت أسمي»، ومن قال «أُسمٌ» بضم الألف أخذه من «سموت أسمو». ومن العرب من يقول في الاسم «سُمٌ» و «سِمٌ»[3].

ويبدو أن ابن الانباري يلجأ إلى التأويل بـ «الأمر» في مواضع كثيرة منها تأويله كسر «أمس» وهي معرفة بلا ألف ولا لام بقوله: «وسبيل «أمس» أن يكون مكسوراً إذا كان معرفة لا «ألف» ولا «لام» فيه كقولك: «مضى أمس» و «رأيته أمس»... وانما الزم الكسرإذا كان معرفة لا ألف ولا لام فيه، لأن أصله عندهم الأمر كقولك «أمس عندنا يا رجل» فلما سمي به الوقت ترك على أصله[4]. وخرّج على التشبيه بالأمر علة بناء «قطام» و «حذام» على الكسر بكونها تُجرَى مجرى الأمر نحو: «قَوالِ قَوالِ» و «نَزالِ نَزالِ» و «نَظارِ نَظارِ»[5].

يتضح لنا من هذا العرض لآراء ابن الانباري وموقفه من أُصول النحو وأقيسته وأسسه وهو البغدادي المنشأ والنسبة، الكوفي المذهب في النحو أنه مع كوفيته لم يكن متابعًا الكوفيين في كل شيء وانما كانت له نظرة خاصة نحو ما جاء في آراء الكوفيين فقد درس منهجهم النحوي في التعليل والتأويل والقياس وغيرها، وفي القياس وشروطه وزاد عليها ما لمسه من منهج البصريين الذي ارجح أنه اطلع عليه لكثرة ما سمع وقرأ وحفظ في العلوم المختلفة. ولكثرة ما نقل من أقوال البصريين وآرائهم فقد عرض بعضها عرضًا ولم يعلق عليه، ورد على بعضها الآخر الذي خالف أقوال الكوفيين وما يراه. وأيد القسم الثالث وهو ما اتفق فيه سيبويه مع الفراء أو بعض البصريين مع الفراء أو الكسائي، واتخذ له منهاجًا كوفيًا تأثر فيه- في الغالب- بالكسائي والفراء فأيد

---

(١) ايضاح الوقف والابتداء ١/ ٢٠٧- ٢٠٨.

(٢) آل عمران ٤٥.

(٣) ايضاح الوقف والابتداء ١/ ٢١٤- ٢١٥.

(٤) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ٢٩٠- ٢٩١ وينظر ٢٨٩- ٢٩١ في تعريفه.

(٥) ينظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ١١ و ٥٧٠- ٥٧١.

أقوالهما واحتج لها، أو استفاد مما فيها من اشارات وبنى عليها مسائل أخرى قال بتفسيرها أو تعليلها أو قياسها على ما عند شيوخه الكوفيين. وابن الانباري بعد هذا وذاك لم يدرس النحو على بصري، ولم يخلط في كتبه آراء الكوفيين بآراء البصريين مع كونه بغدادياً.

ابن كيسان

حياته:

هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن كيسان النحوي[1] أحد المشهورين بالعلم والمعروفين بالفهم لا تذكر المصادر التي بين أيدينا شيئًا عن ولادته، ويبدو أنه ولد ونشأ وتثقف ببغداد وقد عاصر شيخين عُدّا إمامي بلديهما وشيخي مذهبيهما النحوي هما: أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب الذي كان متفردًا بالدرس النحوي في بغداد، والمبرد إمام البصرة في زمانه أبو العباس محمد بن زيد وكانت حلقاتهما محط أنظار الدارسين البغداديين وغيرهم ممن يفدون إلى بغداد من أقطار العالم الإسلامي الأخرى، لذا فقد تهيأ لابن كيسان أن ينهل من علم ثعلب الذي كان مهيمنًا على النحو الكوفي حافظًا لأصوله، ولا سيما كتب الكسائي والفراء، وأن يستفيد من حفظ هذا الشيخ الواسع للغة التي كان يرويها لتلاميذه ويحتج بها على ما جاء من آراء نحوية. استوعب ابن كيسان كل هذا لما عرف به من حدة الخاطر وحضور البديهة وسعة الذكاء وقد اعترف له بذلك أبو بكر بن مجاهد إمام القراءات بقوله فيه انه كان أنحى من الشيخين- يعني ثعلبًا والمبرد-، فلما حل المبرد البصري في بغداد وأذاع فيها نحو البصرة واشتغل بتدريس طلبته كتاب سيبويه كان أشهر من أخذ عنه بعد الزجاج ابن كيسان فقد انصرف الأول إلى المبرد والنحو البصري انصرافًا كُلّيًا واطرح نحو الكوفيين وكتبهم وقطع صلته بشيخه الأول، إلا أن ابن كيسان مع اعجابه بالنحو البصري وبالمبرد وطريقته في التدريس، ومع مواصلته الحضور إلى مجالسه والأخذ عنه وعن معظم تلاميذ ثعلب لم يقطع صلته بشيخه ثعلب ولا أطرح ما أخذ عنه وانما ظل مواصلاً الدرس عليه ملتزمًا بخلقه العلمي والانساني معه حافظًا له الفضل الأول في تعلمه عليه النحو الكوفي، ولهذا فقد كان يتنقل بين الشيخين ويحضر حلقتيهما ويسمع منهما ويقارن بين كل هذا وذاك ويلاحظ ما بين المذهبين من

---

(١) تنظر ترجمته واخباره في مراتب النحويين ٨٧- ٨٨ وأخبار النحويين البصريين ٨٠- ٨١ وطبقات النحويين واللغويين ١٧٠- ١٧١ ونزهة الالباء ١٦٢ وتأريخ بغداد ١/ ٣٣٥ وأنباء الرواة ٣/ ٥٧- ٥٨ ومعجم الأدباء ٦/ ٢٨٠- ٢٨١ وبغية الوعاة ١/ ١٨- ١٩.

كبير اختلاف في المنهج والأصول والآراء وكان يريد أن يستزيد من الشيخين للاستفادة أوّلاً ولكي يشتهر بينهما ثانياً فبدأ يناظرهما. وقد روى الزجاجي في مجالسه مناظرتين بين ابن كيسان وثعلب ومناظرتين أخريين بين ابن كيسان والمبرد. ومنها يبدو انه كان يحترم الشيخين ويقدرهما معًا وان كان يفضل ثعلبًا لقوله فيه- أمام المبرد-: «أفضل أهل زمانه[1]» كما كان اطلاعه على نحو الكوفيين اطّلاعًا كافيًا مع تعمقه النظر في نحو البصريين واختياره من النحوين في مؤلفاته قد أدى إلى أن يقف المترجمون منه موقفًا مضطربًا، فقد عده السيرافي ممن انتهت اليه رياسة النحو البصري بعد أبي العباس المبرد ولاحظ انه يخلط بين نحو المدرستين إلا أنه أكثر ميلاً إلى البصريين[2]. ورآه الزبيدي «بصريًا كوفيًا يحفظ القولين ويعرف المذهبين وكان أخذ عن ثعلب والمبرد وكان ميله إلى مذهب البصريين أكثر[3]».

ومع هذا ترجم له مع أصحاب ثعلب، ولا تعليل لهذا إلا أنه رأى في اخباره أموراً متناقضة تصدر عنه، فهو يميل إلى الكوفيين ونحوهم ويرفض أن يقرئ ابا بكر مَبْرَمان كتاب سيبويه ويقول له: اذهب إلى أهله يشير بذلك إلى الزجاج في الوقت الذي يقول فيه أبو بكر بن الانباري الذي كان شديد التعصب عليه والتنقص له بأنه «خلط فلم يضبط مذهب الكوفيين ولا مذهب البصريين»[4]. ولهذا وجدنا بعض المترجمين يسكت عنه ويغفل ترجمته كما فعل أبو الطيب اللغوي الذي اكتفى بذكر بعض أخباره وهو يتحدث عن المبرد، وكما فعل السيرافي الذي اكتفى بالخبر الذي ذكرناه عنه، وتوقف ابن النديم عن ذكر ميل مثل ابن كيسان من النحويين الذين خلطوا في مؤلفاتهم آراء البصريين بآراء الكوفيين- أخذوا عن الشيخين أم لم يأخذوا- واكتفى بعدِّهم ممن خلطوا المذهبين فعقد فنًّا كاملاً من المقالة الثانية لكتابه: «الفهرست» جمع فيه هؤلاء النحاة وسماه: «أخبار جماعة من علماء النحويين واللغويين ممن خلطوا المذهبين» تخلصاً مما وقع فيه الزبيدي وأمثاله من الحيرة في تصنيف مذهب كل من هؤلاء النحاة البغداديين الذين لم يتضح لهم اتجاه معين. أما الانباري فاكتفى بالقول بأنه «كان قيِّمًا بمذهب البصريين والكوفيين»[5] وكما اضطرب القدماء في ضمه إلى

---

(١) ينظر نور القبس ٣٢٧.

(٢) أخبار النحويين البصريين ٨٠- ٨١.

(٣) طبقات النحويين واللغويين ١٧٠- ١٧١.

(٤) طبقات النحويين واللغويين ١٧١.

(٥) نزهة الالباء ١٦٢ وينظر الفهرست ٨٩.

أحد المذهبين اضطرب المحدثون أيضاً[1]. وأخيراً فقد عده الدكتور علي مزهر الياسري في دراسته عنه ممن يخلط المذهبين لكنه يميل إلى آراء الكوفيين ويستخدم في تأييدها أساليب نحاة البصرة ثم عاد وتردد في هذا وانتهى إلى موقف شبيه بموقف القدماء والمحدثين المتحير فيه فقال: «فهو إذن من الدارسين الذين كانوا في أول عهدهم يأخذون بالتوجيهات الكوفية ثم نقلتهم قوة الحجاج البصري إلى الأخذ بعدد من الآراء البصرية وإلى اصطناع الأسلوب البصري في الدرس[2]. وعلى كل حال فليس أمامنا إلا أن نكتفي بعده من الفريق الثالث الذي قسمنا اليه النحاة البغداديين في مقدمة هذا الفصل وهو فريق: من خلط المذهبين في آرائه ومصنفاته وقد عرف أنه ممن أخذ عن شيخي المدرستين في زمانه، وسواء أمال إلى البصريين بعد هذا في بعض المسائل أم كان ميله إلى الكوفيين فإن ميله هذا لن يخرجه ممن خلط مذهبيهما واختار منهما واعتمد عليهما مع ماله من نظرات جديدة.

وقد كان لابن كيسان شيخ آخر غير ثعلب والمبرد أخذ عنه علم العربية قبلهما هو بندار الاصبهاني ونقل سماعه عنه في كتبه[3]. وكان ابن كيسان قد تصدر للتدريس بعد اكتمال نضجه العلمي وتزاحم الناس حول حلقته تزاحماً تحدث عنه أبو حيان التوحيدي بقوله: ما رأيت مجلساً أكثر فائدة وأجمع لأصناف العلوم وخاصة ما يتعلق بالتحف والطرف والنتف من مجلس ابن كيسان فانه كان يبدأ بأخذ القرآن والقراءات ثم بأحاديث رسول الله (ﷺ). فإذا قرئ خبر غريب أو لفظة شاذة أبان عنها وتكلم عليها وسأل أصحابه عن معناها، وكان يقرأ عليه مجالسات ثعلب في طرفي النهار وقد اجتمع على باب مسجده نحو مائة رأس من الدواب للرؤساء والأشراف الذين كانوا يقصدونه. وكان اقباله على صاحب الديباج والدابة والغلام وعلى صاحب المرقعة المزقة والعباءة الخلق والطمر البالي كاقباله على صاحب الوشي والديباج[4]». وكان له تلاميذ اشتهر منهم أبو جعفر أحمد بن اسماعيل المرادي النحاس النحوي المتوفى (٣٣٧ هـ)[5]. والزجاجي أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الذي صرح بأخذه عنه فقال: «فمن العلماء الذين لقيتهم وقرأت عليهم

---

(١) ينظر المدارس النحوية ٧ و ٢٤٨ وتاريخ الأدب العربي ٢/ ١٧١.

(٢) أبو الحسن بن كيسان وآراؤه في اللغة والنحو ٢٠٢.

(٣) أبو الحسن بن كيسان ٤٢- ٤٣.

(٤) ينظر معجم البلدان ٦/ ٢٨٢.

(٥) طبقات النحويين واللغويين ٢٣٩- ٢٤٩ وأبو الحسن بن كيسان ٤٢- ٤٢.

شيخنا.. أبو الحسن بن كيسان[1]». توفي ابن كيسان سنة ٣٢٠ هـ فيما رجحه علي الياسري. وخلف مؤلفات كثيرة ضاع معظمها ولم يهتم الناس بروايتها وحفظها على الرغم من شهرته، وربما كان لخلطه بين المذهبين وعدم تحيزه إلى مدرسة من المدرستين الأثر الأكبر في ذلك. ومن هذه المصنفات «البرهان» و «التصاريف» و «الشاذاني في النحو» و «علل النحو» و «غلط أدب الكاتب» و «الفاعل والمفعول به» و «الكافي في النحو» و «اللامات» و «المختار في علل النحو» و «مختصر النحو» أو «الموفقي» و «المسائل على مذهب النحويين مما اختلف فيه البصريون والكوفيون» و «المقصور والممدود» و «المهذب» و «معاني القرآن» و «الهجاء» و «الوقف والابتداء» و «تلقيب القوافي وتلقيب حركاتها»[2].

نحوه:

لقد شغف ابن كيسان كما شغف معاصروه من الدارسين بأسلوب المبرد في عرض المسائل النحوية في استخدامه التعليل والتأويل والتحليل وسلوكه مسلك المتأخرين الذين تأثروا بالفلاسفة وعلماء الكلام وبما ترجم من علوم اليونان التي تعتمد هذا الأسلوب من المناقشة والاحتجاج والجدل، فتأثر بهذه الثقافات التي شاعت في القرنين الثالث والرابع الهجريين، وتأثر بأسلوب استاذه هذا، فانصرف إلى استخدام ما يراه مناسبًا لتفكيره ومنهجه في درس النحو وتدريسه والتأليف فيه فشارك علماء عصره في الاهتمام بما يدور بين الدارسين من أساليب التعليل للمسائل النحوية ولظواهر اللغة فانصرف إلى تأليف كتاب يحمل اسم: «المختار في علل النحو» غير أنه «أخذ يغالي بعد ذلك في اصطناع العلل والبحث عن العوامل، كما كان البصريون يفعلون إلا أنه لم يتخل عن موافقات كثيرة لآراء كوفية... وقد وافق في عدد من أقواله آراءًا بصرية»ـ وآراء ابن كيسان مبثوثة في كتب النحاة المتأخرين وهي كثيرة تدل على تتبع لمسائل النحو واهتمام بها أخذها هؤلاء مما حوته كتبه التي لم تصل إلينا والتي كانت ملجأ من يريد الاطلاع على النحو الكوفي من الدارسين الذين لم يطلعوا عليه ولم يعرفوا دلالات الفاظ أئمته ولا مصطلحاتهم لكثرة ما نقل من آرائهم فيها ولأنه عبر فيها عن مصطلحات الكوفيين وآرائهم بألفاظ البصريين، وقد أوضح الزجاجي ذلك في باب «القول في المستحق للاعراب» من هذه الاقسام الثلاثة التي هي الأسماء والأفعال والحروف عندما أراد أن ينقل حجج الكوفيين على صحة مذهبهم في أن الاعراب أصل في الأسماء

---

(١) الايضاح في علل النحو ٧٩ وينظر ٧٨ وأبو الحسن بن كيسان ٤٨- ٦٢.

(٢) الفهرست لابن النديم ٨٩ وأبو الحسن بن كيسان ٦٥ وما بعدها.

والأفعال وأصل البناء للحروف وكل شيء زال عن الاعراب من الأسماء والأفعال فلعلة ازالته عن أصله، وذكر أنه لم يأت بحجج الفريقين بألفاظهم وانما غيرها وجاء ببعضها بألفاظ قريبة من القراء، وببعضها الآخر بألفاظه أو بألفاظ من نقل عن الكوفيين من شيوخه، فقال: «احتجاج الكوفيين لذلك: اعلم أن العلل التي أودعها هذا الكتاب والاحتجاجات هي على ثلاثة أضرب: منها: ما كان مسطَّرًا في كتب البصريين والكوفيين بألفاظ مستغلقة صعبة، فعبرت عنها بألفاظ قريبة من فهم الناظرين في هذا الكتاب، فهذبتها وسهلت مراتبها والوقوف عليها. وضرب منها مما استنبطته على أصول القوم، واخترعته حسب ما رأيت من الكلام ينساق فيه والقياس يطرد عليه، وضرب منها ما أخذته عن علمائنا الذين لقيتهم وقرأت عليهم شفاها مما لم يسطر في كتاب ولا يكاد يوجد»[١]. وبين من هم هؤلاء العلماء ولم كانت حجج البصريين والكوفيين مفهومة عندهم على السواء فقال: «فمن العلماء الذين لقيتهم وقرأت عليهم شيخنا أبو اسحاق ابراهيم بن السري الزجاج- رحمه الله-. وأبو جعفر محمد بن رستم الطبري غلام أبي عثمان المازني وأبو الحسن بن كيسان وأبو بكر أحمد بن الحسين ابن العباس المعروف بابن شقير وأبو بكر محمد ابن أحمد بن منصور المعروف بابن الخياط، وأبو بكر بن السراج وأبو الحسن علي بن سليمان الاخفش، ومن علماء الكوفيين الذين أخذت عنهم: أبو الحسن بن كيسان وأبو بكر بن شقير وأبو بكر بن الخياط لأن هؤلاء قدوة أعلام في علم الكوفيين وكان أول اعتمادهم عليه ثم درسوا علم البصريين بعد ذلك فجمعوا بين العلمين. وأبو بكر ابن الانباري. وأبو موسى الحامض وكان الأغلب عليه علم اللغة إلا إنا قد أخذنا عنه حكايات يسيرة ...»[٢] ثم بين سبب ذكره هؤلاء جميعًا فقال: «وانما ذكرت لك أسماء من أخذت عنه وقرأت عليه لتكون على ثقة مما انقله اليك واسنده إلى كل فريق منهم وأكثر ما اذكره من احتجاجات الكوفيين انما أعبر عنها بألفاظ البصريين[٣]» وذكره مرة أخرى فقال في باب «القول في الألف والياء والواو في التثنية والجمع أهي اعراب أم حروف اعراب؟» فقال بعد ذكر سؤال وجهه إلى الكوفيين: «الجواب: وانما نذكر هذه الأجوبة عن الكوفيين على حسب ما سمعناه مما يحتج به عنهم من ينصر مذهبهم من المتأخرين، وعلى حسب ما في كتبهم، إلا أن العبارة عن ذلك بغير ألفاظهم والمعنى واحد، لأنا لو تكلفنا حكاية الفاظهم بأعيانها لكان في نقل ذلك مشقة علينا من غير زيادة في الفائدة، بل لعل أكثر الفاظهم لا يفهمها من لم ينظر في كتبهم، وكثيرمن الفاظهم قد هذبها من

---

(١) الايضاح في علل النحو ٧٨ وينظر ٧٧.

(٢) الايضاح في علل النحو ٧٩- ٨٠.

(٣) الايضاح في علل النحو ٧٩- ٨٠.

نحكي عنه مذهب الكوفيين مثل ابن كيسان وابن شقير وابن الخياط وابن الانباري، ونحن انما نحكي علل الكوفين على الفاظ هؤلاء ومن جرى مجراهم، مع انه لا زيادة في المعنى عليهم، ولا بخس حظ يجب لهم[1]» ونقل الزجاج عن كتاب لابن كيسان سماه «الكتاب المختار»، وكانت لابن كيسان آراء في مسائل تخص أصول النحو منها:

الحد:

استخدم ابن كيسان الحد في عرضه للمسائل النحوية، وكان من ذلك ما ذكره الزجاج وهو يتحدث عن حد الاسم فقال: «وكان مما اختاره أبو الحسن بن كيسان عند تحصيله وتحقيقه أن قال حاكيًا عن بعض النحويين: الأسماء ما أبانت عن الأشخاص وتضمنت معانيها نحو: رجل وفرس، ثم قال: «وهذا قول جامع» ورد عليه الزجاج بقوله: «وعوار هذا الحد أظهر من أن نكثر الكلام فيه، لأن من الأسماء ما لا يقع على الأشخاص وهي المصادر كلها، ولابن كيسان في كتبه حدود للاسم غير هذا هي من جنس حدود النحويين، وحده في الكتاب المختار بمثل الحد الذي ذكرناه من كلام المنطقيين»[2] ويبدو أن هذا الحد مأخوذ من قول سيبويه: «فالاسم رجل وفرس وحائط»[3] إلا أنه حاول تطويره وتفصيله. وحده في كتابه «الموفقي» بحد آخر جاء فيه أن الاسم «ما وضع لشيء ليفصل بينه وبين غيره من المسميات وصلح أن يكون فاعلاً ومفعولاً ومضافًا اليه»[4] ورآه علي الياسري أقرب حدوده للاسم من الحس اللغوي، وهو أكثرها تطابقًا مع مدلول الاسم من غيره مع أن القصور يعتوره في دقة التعبير[5] ولم يكتف ابن كيسان بحد الاسم فقط وانما حد الفعل أيضًا تابع فيه سيبويه بقوله: الأفعال: «أمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء وبنيت لما مضى ولما يكون ولم يقع، ولما هو كائن لم ينقطع» وحده ابن كيسان بأنه «ما كان مشتقًا من أحداث الأسماء مبنيًا لما مضى من الزمان وما يستقبل وما هو في حال الحديث به» [6] وحد الحرف أيضًا فقال: «كل حرف

---

(1) الايضاح في علل النحو ١٣١– ١٣٢.

(2) الايضاح في علل النحو ٥٠.

(3) الكتاب ١/ ١٢.

(4) الموفقي– مخطوط– (نقلاً عن: أبو الحسن بن كيسان ١١٣).

(5) أبو الحسن بن كيسان ١١٣.

(6) الكتاب ١/ ١٢ والموفقي– مخطوط– ٢ (نقلاً عن أبو الحسن بن كيسان ١٦٢) وينظر الحلل في اصلاح الخلل ٧١ ففيه حد للفعل أوضح من هذا وقريب منه.

لم يكن اسمًا ولا فعلاً ولكن يتعلق بأحدهما[1]» وحد الحرف حدًا آخر فقال: «الحرف ما أفاد معنىً لم يكن في الكلام نحـو قـولك: «زيد منطلق» ثم تقـول: «أزيد منطلق؟» فـيكون في الكلام مـعنى الاستفهام[2]. فاهتمام ابن كيسان بالحد النحوي المنطقي أثر من آثار العصر الذي عاش فيه والذي كان يعتني بهذا النوع من التقسيم والتحديد، وربما كان لشيخه المبرد تأثير في ذلك.

العامل النحوي:

تابع ابن كيسان البصريين في القول بالعامل وبتأثيره في الدرس النحوي وغالى فيه ولم يجز تقديم المعمول على العامل قال: «المعنى الذي رفع المبتدأ عندي هو أن العامل لا يقع إلا قبل المعمول فيه، فإذا قلت: «قام زيد» ارتفع بفعله، فإذا قلت: «زيد قام» لم يكن بد من أن يكون في «قام» ضمير يعود على «زيد»، لأن المعمول فيه لا يكون قبل العامل، كما تقول: «مررت بزيد» ثم تقول: «زيد مررت به» فتشغل العامل بضميره، فلما لم يجز أن ترفعه بلفظ الفعل لموضع الضمير، وكان معناه كمعنى «قام زيد» رفعته بالمعنى إذ امتنع اللفظ، قال: فإذا قلت: «زيد أخوك» رفعت «زيداً» أيضًا بالمعنى، إذ كان ما بعده يقوم مقام الفعل، لأنه حديث عن «زيد» كما ان الفعل حديث عنه[3]». فهو يُعير العامل اهتمامًا كبيرًا كما يتضح من هذا المثال، وله التأثير الأول في تركيب العبارة وعليه يتوقف المعنى المفهوم منها، وإنَّ تَغيُّرَ معنى الجملة انما يكون لتغير العامل، كما أن تغير العامل يؤثر في تغيُّر معنى الجملة فلكل صورة من التعبير عامل موثر أدى اليه، وعامل الرفع عنده لا يكون متأخِّرًا وانما يجب أن يتقدم على معموله، فإن تقدم المرفوع فلا بد من البحث له عن عامل سابق، وفي هذه الحالة لا يكون إلا معنى لعدم وجود لفظ سابق، ونتيجة لهذا يتضح أن العامل في المبتدأ عنده هو معنى الابتداء وهكذا يلتقي مع البصريين في مذهبه هذا.

القياس:

استخدم ابن كيسان القياس في بعض المسائل التي أبدى رأيه فيها، فقاس فيها الشيء على مقابله وذلك قياسه جمع العلم المذكر المختوم بالتاء جمع سلامة لمذكر مع فتح «عين» الكلمة قياسًا على الجمع بالألف والتاء مثل «الطَّلَحات» و «الحَمَزات» وذلك لأن حقه: «الألف والتاء» قال الرضي وهو يتحدث عما يجوز جمعه جمع مذكر سالماً من أعلام المذكر وان من شروط جمعه التجرد عن

---

(١) الموفقي- مخطوط- ٢ (نقلاً عن أبو الحسن بن كيسان ١٧٤).

(٢) الحلل في اصلاح الخلل ٧٦.

(٣) الحلل في اصلاح الخلل ١٤٨.

«تاء التأنيث»، ولا يجمع نحو «طلحة» في الأسماء و«علاّمة» في الصفات بالواو والنون خلافًا للكوفيين وابن كيسان في الاسم ذي التاء فانهم أجازوا: «طلحون»- بسكون عين الكلمة- وابن كيسان- بفتحها- نحو «طَلَحون» قياسًا على الجمع بـ «الالف والتاء» كـ «الطّلحات» و«الحَمَزات» وذلك لأنه حقه «الألف والتاء» كما قالوا: «أرضون»- بفتح الراء- لما كان حقه «الألف والتاء»[1]. وقياسه جمع ما كان على وزن «فعلاء» أو فَعلَى» جمع مؤنث سالماً قياسًا على ما ورد من جمع مذكره مثل: «أحمرون» و«أسودون» فيقال: «حمراوات» و«سكريات» قال الرضي: «وأجاز ابن كيسان ... حمراوات وسكريات، كما أجاز في المذكر «أحمرون» و«سكرانون»[2]. وقال في الجمع بالواو والنون: «لم يجمع هذا الجمع «أفعل- فعلاء» و«فعلان- فعلى» وأجاز ابن كيسان «أحمرون» و«سكرانون» واستدل بقوله:

فما وجدتُ بناتُ بني نِزار حلائلَ أسودينَ وأحمرينا

وهو عنده غير شاذ. وأجاز أيضًا «حمراوات» و«سكريات» بناء على تصحيح جمع المذكر، والأصل ممنوع فكذا الفرع[3] فهو هنا يتابع الكوفيين في تجويزه القياس على شاهد واحد يثق به. فقاس جمع «أحمر» على «أحمرين» معتمداً على ما جاء في هذا الشاهد المفرد، وجوز قياساً عليه جمع الشبيه وهو «فعلان» الجمع نفسه قياسًا عليه، وعلى هذين القياسين قاس جمع مؤنثهما فأجاز أن يأتي بالألف والتاء فيقال «حمراوات» و«سكريات» فهو قياس فرع وهو المؤنث على الأصل الذي هو المذكر.. وفعل في «طلحة» و«حمزة» العكس فقد قاس هنا الأصل على الفرع فأجاز جمعهما وهو «طَلَحون» و«حَمَزون» بتحريك «العين» الساكنة بالفتح. وهذا لا شبيه له فيما جمع جمع مذكر سالمًا وانما حمله على فرعه وشبيهه في اللفظ وهو «طَلَحات» و«حَمزات» المسموع قياساً بفتح العين.

ومن غريب أقيسته قوله ببناء اسم الاشارة للمثنى في قراءة جمهور القراء «إنَّ هذان لساحران»[4] قياسًا على بناء المفرد منه، والجمع وروى القفطي أنَّ القاضي اسماعيل بن اسحاق البصري الفقيه المالكي، كان معجبًا بمقاييس ابن كيسان في العربية، فقال له يومًا: ما تقول في قراءة الجمهور: «إن هذان لساحران» ما وجهها على ما جرت به عادتك من الأغراب في الأعراب؟

(١) شرح الرضي على الكافية ٢/ ١٨٠ وينظر في مثله أبو الحسن بن كيسان ١٢٤- ١٢٥.

(٢) شرح الرضي على الكافية ٢/ ١٨٧.

(٣) شرح الرضي على الكافية ٢/ ١٨٢.

(٤) طه ٦٣.

فأطرق ابن كيسان مليًا ثم قال: نجعلها مبنية لا معربة، وقد استقام الأمر. قال له اسماعيل: فما علة بنائها؟ قال ابن كيسان: لأن المفرد منها «هذا» وهو مبني، والجمع «هؤلاء» وهو مبني فيحتمل «التثنية» على الوجهين» وقد حسن قوله هذا ومشى في الناس[1]. وفي الرواية دلالة على شغف المثقفين عامة بالقياس والتعليل والجدل، ولم يكن ذلك وقفًا على النحويين في هذا العصر ومع هذا فإن آراء ابن كيسان المبثوثة في كتب النحو المتأخرة ولا سيما كتب السيوطي وكتب ابن السيد تبين لنا أنه جرى في الكثير منها على منهج البصريين في القياس، وذلك أنه لم يكن يقيس في الغالب إلاّ على ما كثر في كلام العرب وشاع وجاز قياسًا وسماعًا مثل ذهابه إلى منع نصب الاسم على «المعية» بعد «كان» فقد ذهب جمهور النحاة إلى نصب الاسم على المعية بعد «الواو» إذا كانت تدل على المصاحبة بمعنى «مع»، وإذا كانت للمشاركة بلا مصاحبة فهي للعطف، ورجح بعض النحويين «العطف» على «النصب على المعية» في مثل قول الشاعر:

فكونوا أنتمُ وبني أبيكم — مكانَ الكُليتين من الطحال

ورجح آخرون فيه وفي نحو: «كنت أنت وزيد كالاخوين» النصب على «المعية» وهذا أدى إلى اختلافهم فيما وقع بعد المنصوب على المعية، أهو حال مما قبله أم خبر عنه، في نحو: «كنت وزيداً جالسًا» و «قمت وزيداً راكبًا» و «كُنْ أنت وزيداً كالأخ» فذهب ابن كيسان إلى وجوب كونه على حسب ما قبل المنصوب فقط، لا على حسبهما والا لوجب أن يقال: «كالاخوين» وتابعه ابن هشام فيه وقال: «هذا هو الصحيح ... والسماع والقياس يقتضيانه[2]» وقد جاء في «التسهيل» ما يؤكد مذهب ابن كيسان هذا، قال ابن مالك عند كلامه على المعطوف بالواو: «ويترجح العطف ان كان بلا تكلف ولا مانع ولا موهن، فان خيف فيه فواته رجح «النصب» على «المعية» فان لم يَلِقِ الفعلُ بتالي «الواو» جاز «النصب على المعية» وعلى اضمار الفعل اللائق ان حسن «مع» موضع «الواو» وإلاّ تعيّن الاضمار والنصب في نحو: «حسبك وزيداً درهم بـ «يحسب» منويًا، وبعد «ويله» و «ويلاله» بناصب المصدر، وبعد «ويل له» بـ «ألزم» مضمراً، وفي: «رأسه والحائط» «وامرءًا و نفسه» و «شأنك والحج» على «المعية» أو «العطف» بعد اضمار «دع» في الأول والثاني و «عليك» في الثالث، ونحو: «هذا لك وأباك» ممنوع في الاختيار. وفي كون هذا الباب مقيسًا خلاف، ولما بعد المفعول معه من خبر ما قبله أو حاله ما له متقدِّمًا، وقد يعطى حكم ما بعد المعطوف خلافًا لابن كيسان»[3].

---

(١) انباه الرواة ٣/ ٥٨.

(٢) شرح قطر الندى وبل الصدى ٢٣٢- ٢٣٤.

(٣) تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ١٠٠.

التعليل:

اهتم ابن كيسان بالعلة النحوية، وألف فيها كتاباً مستقلاً هو «المختار في علل النحو» يظهر من عنوانه انه حصر فيه ما يصح أن يستخدمه النحاة من أوجه التعليل وأصناف العلل، ولم يصل إلينا هذا الكتاب لنتعرف على ما فيه وعلى موقفه الصحيح، غير أننا نستطيع أن نلمح من بعض ما نسب اليه من آراء نحوية مبثوثة في كتب النحو كيفية استخدامه للعلة ومدى اعتماده عليها، يقول مناقشاً من ذهب إلى أن المبتدأ انما رفع لتعرية من العوامل اللفظية: «أن العامل إذا عمل بظهوره شيئًا لم يعمل بسقوطه قال: «والعوامل ترفع وتنصب وتخفض، فسقوط أيها أوجب الرفع؟ فإذا كان سقوط الرافع هو الذي أوجب الرفع، فهو إذن يعمل عملاً واحداً وجد أو عدم فلا ينبغي إذا وجد أن يسمى عاملاً. لأنه لم يزد شيئًا كان معدومًا قبل ظهوره، قال: وان كان سقوط الناصب هو الذي يوجب الرفع فهو إذا عدم أقوى منه إذا وجد لأن الرافع أقوى من الناصب، قال: وان كان سقوط الخافض هو الرافع لزم فيه ما يلزم في الناصب، وان كان سقوط جميعها أوجب الرفع لزم أيضًا مثل ما ذكرنا»[1].

المصطلحات:

اعتمد ابن كيسان في آرائه وفي الاصول النحوية واستخدامه إيّاها على المذهبين فهو مرة يتبع آراء الكوفيين وأخرى يرجح آراء البصريين، ونراه يحكِّم شروط البصريين في المقيس عليه تارة، ويخضع لتوسع الكوفيين فيها تارة أخرى وكذلك المصطلحات، فهو يعتمد مصطلحات المدرستين، وقد ورد مصطلح «تخفض» «والخافض» في تعليله للرد على من عد المبتدأ مرفوعًا لتجرده من العوامل[2]، وهما وان تكلم بهما سيبويه الا انهما عدا مصطلحًا كوفيًا وسمى «العطف»: «النسق» فقال: «إلا أن ما بعد الواو نسق على ما قبلها»[3] ولم نستطع أن نتبين غيرهما لأن آراءه منقولة في كتب الآخرين بمعناها أو ملخصة عن أصلها.

الاعراب والبناء:

ذهب النحاة مذاهب مختلفة في الاعراب والبناء فقال البصريون: الاعراب أصل في الأسماء

(١) الحلل في اصلاح الخلل ١٤٨.

(٢) الحلل في اصلاح الخلل ١٤٨.

(٣) الايضاح العضدي ١/ ٤٤ و ٥٤ (نقلاً عن أبو الحسن بن كيسان ١٢٣).

فرع في الأفعال، والبناء أصل في الأفعال والحروف فرع في الأسماء، ولا يخرج الاسم عن الاعراب إلى البناء إلا لعلة شبهه بالحرف، كما لا يخرج الفعل عن البناء إلى الاعراب إلا لعلة مضارعة الاسم. وذهب الكوفيون إلى أن الاعراب أصل في الأفعال والأسماء. أما أبو الحسن بن كيسان فقال: «والذي اذهب اليه أن البناء انما هو الأصل الذي يعم المعرب وغيره، وان المعرب مخرج منه، فخرج عنه إلى الاعراب الاسماء المتمكنة لحاجتهم إلى اعرابها للمعاني التي صرفوها فيها، وضارعتها الأفعال فادنيت منها، ولم تلحق بها وقصرت عنها، وتباعدت الحروف التي للمعاني فلزمت الأصل الذي بنيت عليه»[1] ومعنى هذا ان الكلام جميعه من اسم وفعل وحرف كان وضعه على حالة واحدة، فلما احتيج في الاسم إلى أن يكون مفرداً ومثنى ومجموعًا ومصغراً ومكبراً وفاعلاً ومفعولاً به ومضافًا اليه وما إلى ذلك من المعاني اعرب بهذه الحالات التي تمكن فيها. والفعل خرج نوع منه إلى الاعراب عندما احتيج فيه إلى معانٍ مختلفة وبقي ما سواه مبنيًا لعدم الحاجة إلى اعرابه. والحرف لم يحتج فيه إلى معاني الاسم أو الفعل المعرب أو غيرها فبقي مبنيًا. ورأيه هذا ينطبق إلى حد ما على الفعل والحرف غير أنه لا ينطبق على الاسم لأن الأسماء جميعها استعمالها على الاعراب، ولم يأت منها مبنيًا إلا ما جمد ولم يتغير، ومع احتياجهم فيه إلى معاني التأنيث والتذكير والرفع والنصب والجر والافراد والتثنية والجمع لم تعرب وانما بقيت مبنية واستُخدِمَ لهذه المعاني الفاظ أخرى مبنية أيضاً كأسماء الاشارة والضمائر والاسماء الموصولة.

آراء في مسائل نحوية متفرقة:

ضمت كتب النحاة المتأخرين الكثير من آراء ابن كيسان في أبواب النحو المختلفة نذكر منها رأيه في «النون» في «المثنى» و «جمع المذكر السالم» ذهب إلى أنها عوض عن تنوين المفرد، ووجهه أن الحركة عوض منها الحرف، ولم يعوض من التنوين شيء، فكانت النون عوضًا منه، ولذلك حذفت في الاضافة كما يحذف التنوين، ورد رأي ابن كيسان هذا بثبوتها في المعرف بـ «أل» وبثبوتها فيما لا تنوين فيه وهو المنادى نحو «يا زيدان» و «يا عاملون» واسم «لا» النافية للجنس نحو: «لا رجلين» و «لا عاملين[2]».

ومنها رأيه في أن ضمير الرفع من «أنتَ» و «أنتِ» و«انتما» و «انتم» و «أنتن» انما هو «التاء» فقط وهي التي في «فعلتُ» وفروعها وكثرت بـ «أن» وزيدت «الميم» للتقوية و «الألف» للتثنية و

---

(١) مجالس العلماء ٢٢٦.

(٢) همع الهوامع (سالم) ١/ ١٦٢- ١٦٣.

«النون» للتأنيث. وان الضمير في «هو» و «هي»: «الهاء» فقط، و «الواو» و «الياء» زائدان كالبواقي لحذفهما في المثنى والجمع، وفي المفرد في لغة من قال:

بيناهُ في دار صدق قد أقام بها ... حينا يعللنا وما نعلله

ومن قال:

دارٌ لِسُعْدَى إذْهِ من هواكا

وقد اختار السيوطي هذا المذهب»[1]. ومنها رأيه في عدم جواز عود الضمير على متأخر لفظًا ورتبة، فقد قال أبو حيان «لو تقدم المفعول على الفعل نحو: «زيداً ضرب غلامه» لم يجز ذلك عند الفراء، وأجازه المبرد بجعله بمنزلة «ضرب زيداً غلامه». وقال ابن كيسان: «عندي بينهما فصل، لأنك إذا قلت: «زيداً ضرب غلامه» فنقلت «زيداً» من أول الكلام إلى آخره وقع بعد الكلام فصار «المضمر» قبل «المظهر» فبطلت، وقولك: «ضرب زيداً غلامه» في موضعه لا ينقل فيجعل بعد «زيد» لأن العامل فيه وفي «الغلام» واحد، فإذا كانا جميعًا بعد العامل فكل منهما في موضعه»[2]. أما تقديم حال المجرور على العامل فقد حكى السيرافي عن ابن كيسان اجازته فيقال: «ضاحكةً مررت بهند» بمعنى: «مررت ضاحكةً بهند» واحتج ابن كيسان لتأييد رأيه هذا بأن العامل في الحال على الحقيقة هو «مررت» وإذا كان العامل هو الفعل لم يمتنع تقديم الحال واحتج بقوله تعالى: «وما أرسلناك إلا كافةً للناس» قال: أراد: «إلا للناس كافة»، كما قال تعالى: «ادخلوا في السلم كافة[3]» ومنها ذهابه إلى أن «أبؤساً» في قولهم: عسى الغوير أبؤساً» مصدر منصوب والتقدير: «أن ييأس» وقال سيبويه أنه خبر «عسى» وهو على حذف مضاف والتقدير: «ذا أبؤس» وللكسائي رأي فيه وهو أنه خبر «يكون» مضمرة ورجح أبو حيان رأي سيبويه[4]. ومنها رأيه في المصدر المنصوب في قوله تعالى: «وكلا منها رغداً». أما ابن كيسان فذهب إلى أنه مصدر في موضع الحال. وشكك أبو حيان

---

(١) همع الهوامع (سالم) ١/ ٢٠٨ و ٢٠٩.

(٢) همع الهوامع (سالم) ١/ ٢٢٩- ٢٣٠.

(٣) منهج السالك ١٩١ والأمالي الشجرية ٢/ ٢٨٠ وسورة سبأ ٢٨ وسورة البقرة ٢٠٨.

(٤) منهج السالك ٦٨، وتنظر لابن كيسان آراء أخرى في ص ٢٠٢ و ١٩١ منه.

في صحة الاعرابين، واحتج لذلك بتخطئة سيبويه الرأي الأول، وبقصور الثاني على السماع[1].

وهكذا ننتهي من ابن كيسان وقد تبينا في آرائه وأصوله النحوية وحدوده وتفسيراته ما يدل على خلطه بين المذهبين وقوله بآراء نحاة المدرستين من غير تحيز واضح إلى جهة من الجهتين مع تأثره بأسلوب عصره في العرض والتعليل.

---

(١) سورة البقرة ٣٥ والبحر المحيط ١/ ١٥٨ وتنظر لابن كيسان آراء أخرى في حاشية الصبان ١/ ٣٩ و ٣/ ١٥٢ والحلل في اصلاح الخلل ١٥٠ و ١٤٧- ١٤٨ و ١٥١ وهمع الهوامع (سالم) ١/ ٢٩٢ و ٢/ ٢٢ و ٣/ ٥١ و ٩١- ٩٢ وشرح الاشموني ٣/ ١٥١ وغيرها.

الفصل الرابع
النحو في أقطار الوطن العربي
المبحث الأول
النحو في مصر

مصر:

مصر بلد عريق في الحضارة، عرفت منذ فجر التاريخ بحضارات تميزت بكثير من العلوم والفنون. وقد مرت بعهود مختلفة وبمراحل ازدهار ونمو وبمراحل ظلام وفوضى وتتابعت فيها دول فرعونية لوبية وآشورية ثم رومانية ظلت تحكم البلاد حوالي ثلاثة قرون ونصف حتى حررها المسلمون ما بين عامي ١٨ و ٢٠ للهجرة في خلافة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وعلى يد القائد العربي عمرو بن العاص قاهر الرومان حيث أصبحت مصر منذ هذا التاريخ جزءًا من الدولة العربية الاسلامية فوفدت عليها وفود، وجلت اليها جاليات كثيرة من مختلف القبائل العربية. وتوالى على مصر امراء من العرب يحكمونها من قبل الخلفاء الراشدين، ثم من قبل خلفاء بني أمية ولم يجد العباسيون صعوبة في مد سلطانهم اليها بعد زوال الدولة الاموية وتتابع عليها في أيامهم ولاة كان معظمهم من الترك الذين يفضلون الاقامة ببغداد وينيبون عنهم من يقوم بأمرها حتى أدى هذا إلى ظلم أهلها واغفال عمرانها وفساد الحاكمين فيها فقامت فيها ثورات متعددة تضعف حينًا وتشتد أحيانًا شارك فيها العرب والأقباط بدافع من المصلحة المشتركة، إلا أنه مع كل ذلك حرر العرب المسلمون مصر وشعبها من الفرعونية حتى نسيت، بعد أن أنشأها العهد الاسلامي إنشاءً جديداً إذ دخل المصريون على اختلاف جنسياتهم وأديانهم في دين الله أفواجًا ولا سيما في زمن الوليد بن عبد الملك الذي خفف الضرائب عن الشعب واتخذ لهم العربية اللغة الرسمية وأحلها محل ما كان سائدًا فيها من لغات. ولا سيما ما كان في ضبط الدواوين، فساد الاسلام بسيادتها لأنها لغة هذا الدين الحنيف الذي يقوى بقوتها ويزدهر بازدهارها على ألسن الشعوب المحررة. وغلبت على المصريين بغلبة اللغة العربية على ألسنتهم مقومات عربية كثيرة ونمت عادات وتقاليد عربية اسلامية بعد أن نعموا بهذا الدين العظيم، مع انهم ظلوا تابعين لغيرهم من البلدان في التوجيه السياسي وما يتبعه من ظروف تحسن أو تسوء تبعًا لذلك حتى جاء أحمد بن طولون عام ١٥٤ هـ نائبًا عن واليها التركي «بقبق» أو «بكباك» فأخذ في تحسين أمور البلاد، ثم استقل بها سنة ٢٦٩ هـ حيث

حذف اسم الخليفة من خطبة الجمعة، ومنع ارسال الخراج إلى بغداد ليُنفق في تحسين أمور البلاد، وبنى مدينة «القطائع» والجامع المعروف باسمه «مسجد ابن طولون»، وفي زمانه استقلت مصر سياسيًا. غير أن خلفاءه لم يستطيعوا المحافظة على هذا الاستقلال ولا سيما ابنه خمارويه الذي انصرف إلى اللهو والملذات وانفق عليها ما في خزائن الدولة فعادت تابعة للدولة العباسية سنة ٢٩٣ هـ بعد أن زوج خمارويه ابنته للخليفة المعتضد العباسي وبعد حكم ولديه أبي العساكر وأبي موسى فكثرت فيها الاضطرابات حتى جاء محمد بن طغج الاخشيد الذي ولاه عليها الخليفة العباسي عام ٣٢٤ هـ فاستطاع أن ينهض بالبلاد نهضة جديدة وأبدى مقدرة كبيرة في حكمها وصد الطامعين فيها والخارجين عليها وامتد حكمه إلى الشام، وحكم مكة والمدينة باسم الخليفة واستمر كافور الاخشيدي المملوك الحبشي الذي عين وصيًا على أبي القاسم بن أحمد بن طولون في حكم البلاد بكفاءة حتى مات وضعفت دولته من بعده وسارع الفاطميون الذين كانوا قد نشروا دعوتهم في بلاد المغرب وأسسوا دولتهم إلى نشر هيمنتهم على مصر وانتقلوا إليها واتخذوها دار اقامتهم وبنوا «القاهرة المعزية» و «الجامع الأزهر» وسموا أنفسهم بالخلفاء تشبُّهًا بالعباسيين الأوائل ونظّموا دولتهم وأحاطوها بمختلف مظاهر الابهة والسلطان وأشاعوا المواليد الدينية والأعياد والمواسم متخذين منها فرصة لِلسِّر والاحسان ولشغل الشعب المصري عنهم بها، وقربوا العلماء والأدباء والشعراء، وفي عهدهم وجدت العربية فيهم أكبر عون ونصير لها فازدهرت بعلومها ورجالها ولم يهمل الفاطميون مع هذا تعمير البلاد فأحبهم المصريون مع مخالفتهم إياهم في مذهبهم الذي أخذوا يعملون على نشره في البلاد مستخدمين اللين حينًا والقوة والشدة أحيانًا أخرى. فأصاب البلد القحط والجدب والغلاء إلا أنها مع ذلك بقيت مستقلة عن غيرها عزيزة الجانب حتى ضعف أمر الفاطميين ودالت دولتهم على يد القائد الشجاع صلاح الدين الأيوبي الذي استطاع أن يجمع السلطة في يده فحكم مصر نائبًا عن أمير الشام- نور الدين زنكي- فاستقل بها وأعلن نفسه سلطانًا عليها وبه ابتدأت الدولة الأيوبية في مصر والشام، انصرف صلاح الدين إلى سياسة البلاد بمهارة وقدرة وأصلح أمرها وعمل على نشر المذهب الشافعي فيها وقوّى جيشه الذي استطاع به أن يخوض غمار الحروب الصليبية وبها استرجع بيت المقدس وأرعب الصليبيين، وظل الأيوبيون حماة الدين الاسلامي ذائدين عن المسلمين ضد المتعصبين الراغبين في الاستحواذ على بلاد المسلمين. فاستقرت البلاد وانتشر الدين الاسلامي وعلومه ولا سيما ما كان في عهد مؤسس دولتهم صلاح الدين القائد المحرر الذي كسر شوكة الغزاة في عهده ووقعت بعده معركة المنصورة التي أذلتهم بعد أن أسر فيها المصريون ملك فرنسا لويس التاسع الذي حاول مد نفوذه الها وسجنوه سنة ٦٤٨ هـ. ولم يقتصر أثر الدولة الايوبية على الناحية السياسية والاجتماعية وانما امتد

أثرهم إلى الناحية الثقافية فقربوا العلماء، واهتموا ببناء المساجد لنشر الدين ورتبوا الدروس في العلوم الدينية واللغة العربية وشجعوا علماءها. وظل الأمر كذلك حتى ضعف ملوكهم وتسلم الحكم عن آخر ملوكها «شجرة الدر» زوجة الملك الصالح الأيوبي- زوجها الثاني المملوكي «عز الدين بن أيبك» عام ٦٤٨ هـ وبه بدأ عهد المماليك في مصر، الذين حكموها حكمًا مضطربًا، لكنه دام مع ذلك حوالي ثلاثة قرون حيث تسلم مقاليد الحكم فيها الاتراك العثمانيون عام ٩٢٣ هـ وبه بدأ عصر جديد[١].

لقد حرر العرب المسلمون مصر من سيطرة الحكم الروماني وكانت الثقافة اليونانية والرومانية منتشرة فيها، وكثر العرب النازحون إلى مصر في أول عهد الدولة الاسلامية فخططوا «مدينة الفسطاط» واستوطنوا المدن والأرياف، مشتغلين بالزراعة، واختلطوا بأهل مصر من الأقباط الذين دخلوا في الاسلام عن طريق التزاوج[٢]. أصبحت مصر مركزًا علميًا منذ نشر الاسلام ظلاله على ربوعها، وبدأت الحركة العلمية كما بدأت في أقطار العالم الاسلامي الأخرى بالعلوم الدينية التي سادت غيرها مما كان منتشراً في هذه البلدان من ثقافات يونانية أو رومانية أو فارسية، هذه الثقافات التي أذهلها هذا الانتشار السريع لهذا الدين العظيم فتراجعت وانكمشت ولم تستعد نشاطها إلا بعد أن عدلت من تعاليمها وغيرتها بما يتفق وتعاليم الاسلام الحنيف. لقد كان الصحابة مؤسسي مدرسة مصر الدينية وأولهم عبد الله بن عمرو بن العاص الذي نزل مصر مع الحملة الاسلامية التي قادها أبوه، ولما توفي أبوه أقره معاوية على حكم مصر ثم عزله، اشتهر عبدالله بأنه أكثر الناس حديثًا عن رسول الله (ﷺ) وكان يدوّن عنه ما يسمع في صحيفته التي سماها «الصادقة»[٣] وكان كثير الاطلاع في غير الحديث، وكان يقرأ التوراة ويقرأ بالسريانية، روى عنه الحديث كثير من الصحابة والتابعين في المدينة والشام ومصر[٤]، واشتهر في مصر غيره من علماء الدين منهم: يزيد بن أبي حبيب من التابعين، وتلميذاه عبد الله بن لهيعة، والليث بن سعد الذي كان له مذهب خاص به يقابل مذهب مالك في المدينة والأوزاعي في الشام. وهكذا كان

---

(١) ينظر في هذا العرض التأريخي بدائع الزهور جـ أو ٢ وخطط المقريزي بأجزائه، وصبح الأعشى للقلقشندي جـ ٣ وحسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، وغيرها من كتب التاريخ.

(٢) ينظر خطط المقريزي ١/ ٨٢.

(٣) ينظر طبقات ابن سعد ٧/ ١٨٩ وفجر الاسلام ١/ ٣٣٣- ٣٣٤.

(٤) ينظر خطط المقريزي ٢/ ٣٣٣.

للصحابة اينما حلوا الأثر المباشر في نشر الدين الإسلامي وعلومه والاهتمام بالقرآن وقراءاته فكان منهم عبد الله بن عمر في المدينة وعبد الله بن مسعود في الكوفة وعبد الله بن عباس في مكة وعبد الله بن عمرو بن العاص في مصر. وجاء بعدهم التابعون الذين تلقوا عنهم وحلوا محلهم في نشر العلوم الاسلامية عن طريق الرحلات بين بلدان العالم الإسلامي يومذاك.

لقد أصبح لمصر منذ بداية العهد الاسلامي دور كبير في نشر العلوم، ولا سيما الاسلامية منها حتى أصبحت جامعة اسلامية بما توافد عليها من العلماء من مختلف الاقطار الاسلامية، وفي مختلف فروع العلم، وكان للصحابة فضل الريادة في نشر العلوم الاسلامية وتنميتها، وكان من بينهم علماء اشتهروا بقراءاتهم في بلدانهم وآخرون اشتهروا بعلوم اسلامية غير القراءات، وشارك في الدراسات القرآنية في مصر ثلاثة من أشهر الصحابة هم عبد الله بن عمرو بن العاص (-٦٥ هـ) الذي كان مقرئًا مشهوراً إلى جانب كونه محدِّثًا. وعبد الله بن عمر بن الخطاب (-٧٣ هـ) الذي اشتهر من تلاميذه نافع بن أبي نعيم العدوي (-١١٧ هـ) مقرئ المدينة وأحد القراء السبعة. وعبد الله بن عباس (-٦٨ هـ) الذي اشتهر بالتفسير الذي طغى على شهرته بالقراءة. وكان لهؤلاء الصحابة الأثر الأكبر في قيام نهضة في القراءات[1]. وكان لكل منهم مصحفه الخاص وقراءته بحروفه الخاصة، لهذا لم يستطيعوا أن يكوّنوا مدرسة موحدة لاختلاف مصاحفهم، وانما نشأت أول مدرسة مصرية لاقراء القرآن على يد قارئ مصري ذاع صيته في داخل مصر وخارجها هو عثمان بن سعيد الملقب بـ «ورْش» (١١٠- ١٩٧ هـ) الذي أخذ القراءة عن نافع بن أبي نعيم مقرئ المدينة (-١٦٧ هـ) الذي لجأ اليه ورش ليتعلم منه القرآن بقراءته التي اشتهر بها وأصبح بها امام المدرسة المصرية في القراءات، إذ تواترت قراءة نافع عن رسول الله (ﷺ) بروايته عن مجموعة كبيرة من التابعين بلغوا سبعين تابعيًا فيما روى نافع نفسه، وأخذ عن خمسة من أشهر القراء في زمانه، وأخذ عنه الكثيرون وأشهرهم ورْش الذي ختم القرآن على نافع أربع ختمات[2].

اشتهرت قراءة ورْش في الامصار الاسلامية، وتميزت عن غيرها من القراءات القرآنية التي أخذ أصحابها عن نافع بن أبي نعيم كما أخذ ورْش، وأصبح ورْش صاحب مدرسة في الاقراء

---

(١) ينظر فتوح مصر ٩٦ وحسن المحاضرة ١/ ٢١٥ و ٢٦٣ وغاية النهاية في طبقات القراء ١/ ٤٣١ والقرآن وعلومه في مصر ١٥- ١٦ و ١٨٤ والدراسات اللغوية والنحوية في مصر ٢٧ و ٢٨.

(٢) ينظر معرفة القراء الكبار على الطبقات والأمصار ٨٩ والقرآن وعلومه في مصر ١٩٥ وما بعدها.

امتدت قرونًا وكثر تلاميذها في أنحاء العالم الاسلامي يومئذ، وقرأ بها المغاربة والاندلسيون قاطبة وجماعة من أهل بغداد واليمن، وكان لشيوعها وانتشارها أسباب كثيرة أشهرها أنه كان له اختيار خالف فيه استاذه، لأنه تعمق في ملاحظة القراءات التي أخذها عنه والقراءات المتواترة الأخرى فكوّن من مجموع قراءاته علي نافع ومخالفاته له، واختياراته من غيره قراءة خاصة به اعتقد أنها قراءة متقنة وأعجب بها القراء في مختلف الامصار وعلى مرور السنين تميزت بتعمقه في النحو واتقانه لاعتماد القراءات على الناحية الصوتية والتغييرات الصرفية والظواهر الاعرابية التي ينبني عليها المعنى الكلي المفهوم من الآية، ويتغير هذا المعنى بتغير القراءة فكان لا بد لمن يمارس القراءة من الاطلاع على النحو والتعمق فيه وبغيره لا يمكن تصور القراءة المتقنة، كان هذا مبدأ وَرْش في قراءته التي وصفت بأن من خصائص منهجه فيها انه «إذا قرأ يهمز ويمد ويشدد ويبين الاعراب» وقورنت بها قراءة نافع فقيل فيها «كان لا يهمز همزًا شديداً ويمد ولا يشدد، ويقرب بين الممدود وغير الممدود»[1].

وقد ساعد في نشر قراءة وَرْش وما فيها من ظواهر نحوية مجموعة من تلاميذه الأذكياء الذين حملوها ونشروها وألفوا فيها وشرحوا خصائصها وبينوا مميزاتها واذاعوها بين الناس وصنفوا فيما فيها من ظواهر نحوية ولغوية دراسات مهمة عدت أساساً لقيام مدرسة نحوية مصرية نشأت في مصر عند طبقة القراء، وكانت تقابلها مدرسة نحوية أخرى نشأت في مصر لكنها أدخلت النحو من الامصار الاسلامية الأخرى[2].

مدرسة القراء النحوية:

كانت قراءة وَرْش وما تميزت به من اعتماد الاصول اللغوية والنحوية في ميدان القراءات والدراسات اللغوية التي قامت عليها تمثل الاصالة المصرية في هذه الحقبة المبكرة من تاريخ نشأة العلوم العربية في مصر أكثر مما تمثلها الدراسات اللغوية والنحوية الوافدة إلى مصر من المشرق في حدود القرن الثالث للهجرة لأن هذه تمثل النحو في بيئاته الأصلية البصرة والكوفة وبغداد ولا تمثل البيئة المصرية التي كانت لها دراساتها اللغوية والنحوية المستنبطة من قراءات وَرْش، وكان لكل من هذين النوعين من الدراسات في مصر خصائص مستقلة ظلت ظاهرة حتى امتزجت على يدي أبي جعفر النحاس (–٣٣٨ هـ).

---

(١) ينظر كتاب السبعة في القراءات ١٣٢ وغاية النهاية في طبقات القراء ١/ ٥٠٣.

(٢) ينظر الدراسات اللغوية والنحوية في مصر ٣٤.

تميزت قراءة وَرْش بمنهج معين في أمور متعددة أهمها:

١- منهجه في الراءات واللامات وقد أُلِّفت فيه كتب مستقلة وأبواب في كتب ألفها علماء القراءات منهم من كان من مصر ومنهم من كان من بيئات أخرى، وكان أول من ألف فيها: زهير بن أحمد المعروف بـ «شعرانة». وقد شاع كتابه هذا، ووصفه ابن الجزري (-٨٣٣ هـ) بأنه «صاحب الراءات واللامات على مذهب وَرْش»[١]. وخصص طاهر بن عبد المنعم بن غلبون (-٣٩٩ هـ) بابين من كتابه «التذكرة في القراءات الثماني» أحدهما للراءات والآخر للامات[٢]. وعالج الموضوع من غير المصريين أبو الاصبغ عيسى بن محمد بن فتوح ابن المرابط (-٤٠٣ هـ) حيث عقد بابين أحدهما للراءات والآخر للامات في كتابه «التقريب والحَرْش في قراءة قالون وورْش[٣]». وألف الامام مكي بن أبي طالب (-٤٣٧ هـ) كتابه في شرح الراءات واللامات على قراءة وَرْش[٤].

٢- منهجه في الادغام.

٣- منهجه في الامالة. ولم يُفْرَدا بتصانيف خاصة وانما كُتِبَ فيهما ونُبِّه اليهما في الكتب التي تناولت القراءات[٥].

اتضحت معالم المدرسة المصرية الاصلية في النحو، واشتهر اعلامها من القراء الكبار الذين ظهرت لهم مجموعة من الدراسات اللغوية والنحوية المتصلة بالقراءات وهي دراسات ضخمة إذا ما قيست بالدراسات اللغوية والنحوية التي ظهرت بمصر لدى النحاة الوافدين اليها بعلم النحو من الأقطار الأخرى في الحقبة نفسها، من أشهرها: «كتاب الاستكمال في التفخيم والامالة» وقد سماه ابن خير: «اكمال الفائدة» و «استكمال الفائدة»، لأبي الطيب عبد المنعم بن عبيد الله بن غلبون

---

(١) غاية النهاية في طبقات القراء ١/ ٢٩٥.

(٢) التذكرة في القراءات الثماني ١٢٨ و ١٤٣ (مخطوط) نقلاً عن: الدراسات اللغوية والنحوية في مصر ٣٩.

(٣) غاية النهاية في طبقات القراء ١/ ٦١٤.

(٤) غاية النهاية في طبقات القراء ٢/ ٣٠٩ وينظر الكشف عن وجوه القراءات السبع ١/ ٢٠٩ و ٢١٨.

(٥) ينظر الدراسات اللغوية والنحوية في مصر ٣٨- ٤٥.

(-٣٨٩ هـ) الفه لطلاب القراءات الذين رآهم يضطربون في معرفة التفخيم والامالة فيفخمون ما هو ممال، ويميلون ما هو مفخم لعدم وجود أصل ثابت يرجعون اليه. وهو في أبواب تتضمن الأصول، ذكر فيه باب أصول القراء في الأفعال التي من ذوات الواو، ثم باب ما جاء في كتاب الله عز وجل من قوله: «وجاء»، ثم باب «حاق»، ثم ما جاء في كتاب الله عز وجل من الفتح والامالة في الأفعال الثلاثية من غير اعتلال فيها، ثم لما جاء على وزن «يفعل» و «تفعل» و «نفعل». والقسم الآخر منه ذكر فيه الحروف الممالة والمفتوحة مرتبة حسب السور[1]. وكان من خصائصه عدم التكرار والميل إلى التعليل اللغوي للظواهر الواردة في القراءات كقوله في تعليل ما جاء من نحو «جاء» و «زاد» و «زاغ»: «فيها علتان، احداهما: أنك إذا أخبرت عن نفسك بفعل ماض كسرت «فاء» الفعل، وذلك قولك: «جئت وزدت وزغت» ففاء الفعل نجدها مكسورة. والعلة الأخرى ان الالف منقلبة عن «ياء» فلذلك اميلت «فاء» الفعل. وعلّل إمالة القراء نحو قوله تعالى «كسالى» و «يتامى» «وأيامى» بأنها من أجل الألف، فقال: «فلما أمال القراء «الألف التي بعدها لام الفعل أمالوا لام الفعل فأتبعوا الامالة، فامالة لام الفعل من أجل الزائدة التي بعدها.[2]» وتبينت فيه أمور أخرى منها عنايته باحصاء حروف القراءات، واهتمامه بمواقف القراء من كل حرف من الحروف التي يذكرها. وبيان الضوابط والاصول كقوله: «لا قياس في القرآن لا في فتح ولا امالة[3]» ويبدو من هذا العرض لموضوعات الكتاب انه دراسة قرانية تبين وتوضح الكثير من الموضوعات اللغوية والصوتية والبحوث التصريفية المعللة تعليلات علل بمثلها النحاة المشارقة موضوع الامالة ابتداء من سيبويه الذي عقد في كتابه أبوابًا لكل ما ذكره ابن غلبون. وكتاب «الاستكمال» بعد كل هذا دراسة تميل إلى النضج في بحث هذا الموضوع الذي يعتمد عليه القراء من ظواهر التصريف والنحو وغيرها، واتضح فيها وضع الأقيسة والضوابط العامة التي تطرد في أمثالها، واتبع فيها طريقة البصريين في البحث فيما يبدو ونهجَ فيه منهجهم.

«والتذكرة في القراءات الثماني»، وسمي بـ (التذكرة في القراءات» تناول فيه مؤلفه قراءات القراء السبعة المعروفين عند ابن مجاهد، والثامن يعقوب بن اسحاق الحضرمي. ومؤلفه هو أبو

---

(١) ينظر الدراسات اللغوية والنحوية في مصر ٦٠- ٦٧.

(٢) كتاب الاستكمال في التفخيم والامالة ورقة ١٨ ب و ٣٣ أ (مخطوط) ونقلاً عن كتاب الدراسات اللغوية والنحوية في مصر ٦٤.

(٣) كتاب الاستكمال في التفخيم والامالة ٥٤ أ وينظر ١٢٠- ب (نقلاً عن كتاب الدراسات اللغوية والنحوية في مصر ٦٦).

الحسن ظاهر بن عبد المنعم بن غلبون المقرئ المتوفى سنة ٣٩٩ هـ وهو ابن مؤلف «الاستكمال» المتقدم، وقد شارك أباه في القراءة على عَدِي بن عبد العزيز بن الامام (–٣٨١ هـ) مقرئ مدرسة وَرْش بمصر وعنه أخذ القراءة جماعة أشهرهم أبو عمرو الداني (–٤٤٤ هـ) الذي رحل إليه من الأندلس إلى مصر[١]. وقد تميز منهج كتاب التذكرة بأمور أهمها: الايجاز في فنون القراءات، ومناقب الأئمة لتقريبه على المتعلم ليسهل حفظه، ولأن من سبقوه من العلماء فصلوا فيه، ومنها: ذكره اسانيد القراءات في كل رواية من روايات الائمة الثمانية، واهتمامه بأصول القراءات التي ذكر فيها خمسة وعشرين بابًا منها ما يتعلق بالادغام والمد والقصر والهمز واجتماع الهمزتين من كلمتين أو من كلمة واحدة والوقف، أما اهتمامه بالقضايا النحوية المتصلة بالقراءات فقد كان كبيراً واتضح في ثلاثة أمور، الأول: اهتمامه بالتعليل النحوي ويتبين أسلوبه فيه بما ورد في قوله متحدثًا عن مواقف القراء الثمانية من الآية الكريمة: «يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسًا يواري سوءاتِكم وريشًا ولباسُ التقوى ذلك خيرُ»[٢] فقال: «قرأ نافع وابن عامر والكسائي «ولباسَ التقوى»- بالنصب ورفعه الباقون» ثم علل هذين الموقفين بقوله: «من نصب لم يبتدئ به لأنه متعلق بقوله: «لباسًا يواري» بالعطف عليه، ولكن يقف على قوله: «ذلك خير» ومن رفعه ابتدأ به لأنه منقطع مما قبله، وذلك أنه مرتفع بالابتداء وقوله: «ذلك» نعت له، وخبر الابتداء قوله: «خير» والتقدير: «ولباس التقوى المشار اليه خير لمن أخذ به من الكسوة والأثاث»[٣]. وحين تحدث عن مواقف القراء الثمانية من قوله تعالى: «وإن تُبدوا ما في أنفُسِكم أو تُخفوه يُحاسبْكُم به اللهُ فيغفرُ لِمَنْ يشاءُ ويُعذِّبُ من يشاءُ[٤]» قال: «قرأ ابن عامر وعاصم ويعقوب: «فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء»- برفع الراء والباء- وجزمهما الباقون» وعلل ذلك بقوله: «فمن جزم لم يبتدئ به لأنه حمل الكلام على قوله: «يحاسبْكم» ولم يقطعه فهو متصل به. وأما من رفع فانه يجوز أن يبتدئ به لأنه قد قطعه مما قبله وجعله جملة

---

(١) تنظر غاية النهاية في طبقات القراء ١/ ٣٣٩ و ٢/ ٢٨٨ و ١/ ٥٠٣ و ١/ ٣٣٩ على التوالي.

(٢) الأعراف ٢٦.

(٣) التذكرة في القراءات الثمان ٢١- ١٤٣ (مخطوط) نقلاً عن الدراسات اللغوية والنحوية في مصر ٧٤.

(٤) سورة البقرة ٢٨٤.

معطوفة على جملة، فهو استئناف واخبار عن الله تعالى بذلك[1]. الأمر الثاني: اهتمامه بالقطع والاستئناف، فقد اعطى المؤلف موضوع «القطع والاستئناف» أو ما يسمى عند بضعهم «الوقف والابتداء» من الاهتمام أكثر مما أعطاه لغيره من الموضوعات الأخرى، وقد كان اهتمامه بها لافتًا للنظر بحيث تحدث عنه في أكثر السور وغيرها، ولا سيما في السبع الطوال، ومن الآيات التي وضح فيها اهتمامه بهذا الموضوع ما جاء في توجيه مواقف القراء من الآية الكريمة: «إن تبدوا الصدقات فنعِمَّا هي وإن تُخفوها وتُؤتوها الفقراء فهو خيرٌ لكم ويكفرُ عنكم من سيئاتكم واللهُ بما تعملون خبير[2]» إذ قرأ ابن عامر وحفص «ويكفر عنكم- بالياء- وقرأ الباقون بالنون، وجزم «الراء» نافع وحمزة والكسائي، ورفعها الباقون، قال: «من جزم لم يبتدئ بقوله: «يكفر» لأنه معطوف على موضع «الفاء» «فهو خير لكم»، فهو متعلق به، أما من رفع فله تقديران: أحدهما: ان يجعل «الواو» في قوله «ويكفر» واو عطف للاشتراك، فعلى هذا لا يبتدئ به لأنه متعلق بما قبله من المبتدأ والخبر في قوله: «فهو خير لكم» عطفًا على تقدير: «ونحن نكفر عنكم». والآخر: ألاّ يجعل «الواو» عطفًا للاشتراك، بل يجعلها لعطف جملة على جملة، فعلى هذا يجوز أن يبتدئ به لأنه مستأنف منقطع مما قبله[3]. فمواضع القطع والاستئناف في هذه الآية مما فسر به القراءات انما هي موضوعات نحوية يؤدي كل وجه منها معنى معيَّنًا ويثبت به حكم اعرابي يختلف عنه في القراءة الأخرى، التي اختلف فيها موضع القطع والابتداء. الأمر الثالث الذي بدا واضحاً في كتاب «التذكرة» التفات مؤلفه إلى المشكلات النحوية ويتضح ذلك في التفاته إلى مسألة: «العطف بالاسم الظاهر على الضمير المجرور من غير اعادة حرف الجر» وذلك عند توجيه قراءة حمزة بجر «الأرحام» في قوله تعالى: «واتقوا اللهَ الذي تَساءلون به والأرحامِ[4] حيث قال: «من جرها على العطف إلى «الهاء» في قوله «به» لم يبتدئ بها لتعلقها بـ «هاء» الضمير ودخولها معها في عمل «الباء الجارة» وأجاز أن يكون بالقسم[5]،

---

(١) التذكرة في القراءات الثمان ١٦٦- ١٦٧ وينظر ١٥٥ و ١٥٨ و ١٦٥ و ١٧١ (نقلاً عن الدراسات اللغوية والنحوية في مصر ٧٤ و ٧٥).

(٢) سورة البقرة ٢٧١.

(٣) التذكرة في القراءات الثمان ١٦٥ وينظر ١٥١ (نقلاً عن الدراسات اللغوية والنحوية في مصر ٧٥ و ٧٦).

(٤) النساء ١.

(٥) التذكرة في القراءات الثمان ١٨١ (نقلاً عن الدراسات اللغوية والنحوية في مصر ٧٦).

والقراءة الأولى أشهر وهي قراءة متواترة، وقد قرأ بها أئمة آخرون غير حمزة هم ابراهيم النخعي (-٩٦ هـ) وقتادة بن دعامة السدوسي (-١١٧ هـ) وسليمان بن مهران الاعمش (-١٤٨ هـ)[١] ولكن النحاة رفضوها، فالفراء حين تحدث عن قراءة جر «الارحام» قال: «فيه قبح لأن العرب لا ترد مخفوضاً على مخفوض وقد كني عنه.. وانما يجوز هذا في الشعر لضيقه[٢]» وقد أطنب النحاس في الحديث عن هذه المسألة في «اعراب القرآن» وبيّن اجماع البصريين والكوفيين على أن هذه القراءة خطأ، للسبب الذي ذكره الفراء[٣]. ومع ما عرف عن ابن مالك من تجويزه كثيراً من المسائل التي منعها النحاة لاعتمادها على القراءات فانه مع العطف على الضمير المجرور اختار اعادة الجار بلا لزوم[٤]. وقد علق الدكتور احمد نصيف الجنابي على هذه الآراء بمذهبه في تجويزها فقال: «والصحيح جواز العطف على الضمير المجرور بالاسم الظاهر دون اعادة حرف الجر استناداً إلى هذه الآية: «فاتقوا الله الذي تساءلون به والارحام»، والآية الكريمة: «يسألونك عن الشهرِ الحرامِ قتالٍ فيه قل قتالٌ فيه كبيرٌ وصدٌّ عن سبيلِ الله وكفرٌ به والمسجدِ الحرامِ[٥]» على رأي من ذهب إلى أن «المسجد الحرام» معطوف على «الهاء» من «به» ولأنه جاء في الشعر كثيراً ولم يأت في بيت واحد حتى يعد شاذاً[٦]».

والوقف على الهمز: الف عدد كبير من النحاة واللغويين والقراء في الهمز، بعضهم كان يريد به الهمز في القرآن وبعضهم يريد به الهمز في القرآن وغيره. وقد ألّف طاهر بن غلبون كتاباً بهذا الاسم إلا أنه ضاع ولم يصل منه إلا ما نقله عنه ابن الجزريّ في كتابه: «النشر في القراءات العشر» في مواضع من الباب الذي خصصه للوقف على الهمز: وقد تناولت هذه النصوص من كتاب «الوقف على الهمز» موضوع الهمز، وقسم فيه الهمز إلى أقسام: إلى ساكن ومتحرك، والساكن إلى متطرف ومتوسط، وإلى ساكن عارض وساكن لازم، والمتوسط المتحرك إلى أقسام. وهذا الكتاب كما تبين من عرض الجنابي لبعض نصوصه، وكما يظهر من اسمه، كتاب في الدراسات الصوتية

---

(١) اعراب القرآن للنحاس ١/ ٣٩٠.

(٢) معاني القرآن ١/ ٢٥٢.

(٣) اعراب القرآن ١/ ٣٩٠- ٣٩١.

(٤) تسهيل الفوائد ٢١٧.

(٥) سورة البقرة ٢١٧.

(٦) الدراسات اللغوية والنحوية في مصر ٧٨.

القرآنية وغيرها وليس من النحو في شيء[1].

هذه أهم الدراسات الصوتية واللغوية والنحوية التي قام بها تلاميذ مدرسة ورْش للاقراء سواء أخذوا القراءة عن تلاميذه أم عن تلاميذهم، ولم يكن اهتمامهم منصبًا على ما في كلام العرب المنظوم والمنثور ولا على أبواب النحو والصرف المعروفة في كتب النحو المشرقي ككتاب سيبويه وغيره، وانما كان اهتمامهم لا يتعدى ما تتطلبه قراءة القرآن وآياته قراءة صحيحة متبعين ما يجب أن تكون عليه الفاظها وعباراتها من حيث النطق الصوتي السليم وما يجب أن يعرفه القارئ من أصول الادغام والمد والهمز وما اليها مع اهتمامهم بصحة ما جاء متواترًا فيها من ظواهر اعرابية يفرضها المعنى المفهوم من الآية وبنوا هذه الدراسات فيما يبدو بقواعدها وأصولها على ما عرفه القراء أنفسهم من أحوالها بتتبعهم ما ظهر من دراسات نحوية ولغوية وصرفية وصوتية في امصار العالم الاسلامي كمكة والمدينة والبصرة والكوفة وبغداد حيث كان الاتصال مستمرًا والرحلات مفتوحة بين مصر وهذه المراكز الثقافية، ولم ينقل هؤلاء الدارسون النحو المشرقي كما هو وانما استفادوا منه في انشاء دراسات مصرية أصيلة مبنية على قراءات خاصة بقارئ مصري اشتهر بالاهتمام بمسائل النحو والصرف والتأكيد عليها في قراءته، وكان القائمون بهذه الدراسات من تلاميذ مدرسة الاقراء هذه في مصر وغيرها.

مدرسة مصر النحوية:

كان للقراء، ولا سيما ورْش المصري وتلاميذ مدرسته في الاقراء. الأثر الأكبر في ظهور مدرسة القراء النحوية التي قامت بدراسات لغوية نحوية تبين ما جاء في قراءات ورْش أو في قراءات القراء السبعة وغيرهم من ظواهر نحوية وصرفية وعرضها وشرحها ووضع قواعد وأصول عامة يتبعها من لا يعرف ذلك من الطلبة، الذين يقرأون بهذه القراءات، وكونت بحوثهم ودراساتهم نواة مدرسة مصر النحوية الأصيلة التي اتجهت نحو القراءات وما فيها من ظواهر خاصة بها، وظهرت في مقابل هذه مدرسة نحوية أخرى تهتم بالبحوث النحوية التي ظهرت في مراكز الثقافة في العراق كالبصرة والكوفة وبغداد من بعدهما، وقد نقلت نتائج هذه البحوث والدراسات إلى مصر وغيرها من بلدان العالم الاسلامي عن طريق العلماء الذين درسوا فيها ورحلوا إلى مصر كما فعل عبد الرحمن بن هرمز (-١١٧ هـ) الذي أخذ النحو عن أبي الأسود الدؤلي ورحل إلى المدينة حيث قام

(١) الدراسات اللغوية والنحوية في مصر ٧٨- ٩٠.

بتدريس القراءات والعربية فيها ومنها رحل إلى مصر حيث توفي بالاسكندرية[1]. فلا بد من أن يكون قد علم القراءات والعربية فيها وأذاع نقط الاعراب الذي وضعه أبو الأسود ونقط الاعجام الذي وضعه نصر بن عاصم الليثي تلميذ أبي الأسود أيضاً وكان عبد الرحمن بن هرمز قد أخذ القراءة عن ابن عباس وعن أبي هريرة وأخذ عنه نافع بن أبي نعيم مقرئ أهل المدينة شيخ وَرْش القارئ المصري الذي رحل إلى المدينة، ومن المرجح أن يكون قد أخذ ما اشتهر به من عناية بالنحو والصرف والأصوات في قراءته عن نافع ابن أبي نعيم عن عبد الرحمن بن هرمز عن أبي الأسود الدؤلي وزاد فيها كل منهما وطور الكلام على ظواهرها. ولم يكن عبد الرحمن بن هرمز الوحيد الذي رحل من العراق وانما كان أبو عمرو بن العلاء (-١٥٤هـ) قد رحل إلى دمشق يحتذي عبد الوهاب بن ابراهيم وتوفي في الطريق[2]. وكان الخليل بن أحمد الفراهيدي (-١٧٠ هـ) يحج سنة ويغزو سنة[3]، ولا بد من أن يكون هؤلاء العلماء قد التقوا في رحلاتهم بعلماء وقراء من أهل مصر وغيرها من الامصار الاسلامية وان يكونوا قد تدارسوا القراءات وما جد من علوم ولا سيما النحو الذي اشتهرت أخبار نشوئه في البصرة، ويدل على صحة هذا ما رواه الزبيدي في أخبار ولاد المصادري التميمي من أنه بصري سكن مصر، وانه كان يأخذ النحو عن رجل من أهل المدينة، لم يكن من الحذاق، فلما سمع بالخليل بن أحمد رحل اليه ولقيه بالبصرة وسمع منه ولازمه، ثم انصرف إلى مصر وجعل طريقه على المدينة فلقيه معلمه وناظره، فلما رأى المدني تدقيق ولاد للمعاني وتعليله في النحو قال: قد ثقبت بعدنا الخردل، وقد كان هذا المدني هو المهلبي تلميذ الخليل[4] أيضاً. مما يدل دلالة واضحة على انتشار علم النحو البصري بدراساته وشيوخه ودارسيه ووصوله إلى مختلف الامصار الاسلامية، ومنها مصر عن طريق من رحل الى العراق من المصريين ثم عادوا يحملون معهم ما دونوا وما سمعوا من دراسات قرآنية وآراء لشيوخ العربية ولا سيما النحاة. أو عن طريق من رحل إلى مصر وغيرها من العراقيين أو عن طريق التقائهم جميعاً في مكة أو المدينة أو في أي من الاقطار الاسلامية المشهورة بعلمائها ورحلاتهم، وكنا قد ذكرنا في أثناء كلامنا على الحالة الثقافية في مصر في أول عهد الدولة الاسلامية انه نزح إلى مصر كثيرمن العلماء من القراء وغيرهم

(١) طبقات النحويين واللغويين ١٩- ٢٠ والطبقات الكبرى لابن سعد ٥/ ٢٨٣ (نقلاً عن الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي ٥٦).

(٢) طبقات النحويين واللغويين ٣٤ وانباه الرواة ٤/ ١٩.

(٣) طبقات النحويين واللغويين ٤٢ وما بعدها وبغية الوعاة ١/ ٥٥٨.

(٤) طبقات النحويين واللغويين ٢٣٣.

وان رحلاتهم اليها كانت مستمرة ولم تنقطع على اختلاف العصور السياسية التي مرت بها مصر، ولم تكن هذه الرحلات قد جرت في عصر متأخر وانما كان معظمها في القرن الثاني وفي زمن نضج النحو البصري وازدهاره وان ما جرى من لقاءات بين علماء مصر والأندلس والشام في البصرة أو في الكوفة أو المدينة أو غيرها في القرون التالية كثير جداً تزخر به كتب الطبقات وأخبار النحاة واللغويين، ولذلك فانه من الطبيعي أن يكون ما نقله المصريون الذين رحلوا للسماع عن البصريين وغيرهم، وما جاء به القادمون من البصرة أو الكوفة أو المدينة أو غيرها من الامصار الاسلامية مما سمعوه ودونوه من دراسات قرآنية أو لغوية أو نحوية أو صرفية، قد عرض في مجالس إقراء القرآن التي كانت منتشرة في مساجد القاهرة والفسطاط والاسكندرية وغيرها، وان تكون هذه المسموعات أو المدونات قد نوقشت وفسرت واطلع عليها من لم يكن له علم بها ووضحها أو درسها من نقلها من العلماء الذين سمعوا عن الشيوخ الاصليين، ونشأ من ذلك كله نوع جديد من البحث والدرس لم يكن معهوداً بينهم، وقد حمل بعض الراحلين إلى العراق بعض ما ألّف من كتب لغوية أو نحوية معهم إلى مصر سواء أكانت عن بصريين درسوا عليهم وهو الغالب، أم عن كوفيين كالكسائي الذي أخذ عنه أبو الحسن الأعز الذي سمع عنه بعض الاندلسيين سنة ٢٢٧ هـ، أو قاموا هم أنفسهم بتأليفها في النحوين البصري والكوفي كما فعل أبو علي أحمد بن جعفر الدينوري المتوفى سنة ٢٨٩ هـ[1] الذي كان قد أخذ عن المبرد ويبدو أنه اطع على نحو المدرستين ورحل إلى مصر ونزل بها واستقر لأنه ألّف كتاباً في النحو سماه «المهذب» ذكر في صدره المسائل التي اختلف فيها البصريون والكوفيون، وألّف كتاباً آخر مختصراً في ضمائر القرآن استخرجه من كتاب «معاني القرآن» للفراء. وبهؤلاء وغيرهم عرف الدرس النحوي في مصر أسلوباً جديداً يعتمد على قراءة مؤلفات النحاة المشارقة وعرض آرائهم للبحث والمناقشة والنقد والاستدراك، أو التأليف في نحوهم الذي سمعوه منهم ودرسوه عليهم وسجلوا فيه ملاحظاتهم ورحلوا إلى مصر واستقروا وألّفوا في هذا النحو ونشروه عن طريق مؤلفاتهم التي درّسوها طلابهم في مجالس الدرس النحوي في مصر. لقد كان النحو البصري أول نحو يدخل مجالس الدرس في مصر سواء على يد من أخذ عن عبد الرحمن بن هرمز في الاسكندرية أو المدينة أو من أخذ عن الخليل وتلاميذه كالمهلبي مثل ابن ولاد الذي حمل معه نحو البصرة والمدينة ومرجعه النحو البصري أيضاً إذ لم يكن النحو الكوفي قد عرف في زمن هؤلاء، وانما عرف بعد الربع الأول من القرن الثالث عن طريق أبي الحسن الأعز الذي قرأه لأول مرة على الكسائي، ولم يكن نحواً ناضجاً مستقلاً وانما تم ونضج فيما بعد

---

(١) طبقات النحويين واللغويين ٢٣٣ و ٢٣٤.

وربما يكون قد دخل للمرة الأولى بدخول أبي علي الدينوري الذي حمل نحو شيوخ المدرسة البصرية حتى زمن المبرد ممثلاً بكتاب سيبويه وتعليقات أمثال المبرد عليه وتفسيراتهم له، ويبدو من تأليفه كتاب «المهذب» الذي أورد في صدره مسائل اختلاف البصريين والكوفيين، ومن تأليفه مختصراً في ضمائر القرآن اعتمد فيه على «معاني القرآن» للفراء، انه اطلع على النحو الكوفي واطّلع على ردود امثال الأخفش والكسائي وثعلب على بعض مسائل البصريين وبهذا يكون النحو البصري أول نحو يعرض في مجالس الدرس بمصر. وكما كان نحو البصرة السابق إلى مصر كان كتاب سيبويه أول كتاب دخل إلى مصر فيما نرجح عن طريق أبي علي الدينوري (-٢٨٩ هـ) الذي حمل كتاب سيبويه عن المازني وأخذ عن المبرد ثم نزل مصر. والا فعلى يد أبي الحسين محمد بن ولاد التميمي المتوفى سنة ٢٩٨ هـ[1] الذي جهد نفسه في الحصول على نسخة من كتاب سيبويه على أصل كان المبرد يضن به ضناً شديداً، حملها معه إلى مصر حيث أصبحت عدته في مجالس الدرس النحوي بمصر وظلت هذه النسخة من الكتاب تنتقل بين أبنائه. فاعتنى بها الدارسون المصريون كما اعتنى به غيرهم من الدارسين من مشارق الأرض ومغاربها وكان أول شرح يظهر لبعض موضوعاته املاه أبو جعفر النحاس شيخ النحاة المصريين على قول سيبويه: «هذا باب علم ما الكلم من العربية» وجعله كتاباً كاملاً يستفيد منه تلاميذه والدارسون من بعده ولم تقتصر العناية به على شرحه فقط، وانما أحبه الدارسون المصريون وانحازوا اليه وعارضوا من استدرك عليه أو خطأه كما فعل أحمد بن محمد بن ولاد المتوفى سنة ٣٣٢ هـ حيث ألّف كتاب «الانتصار» للرد على المبرد في رده على سيبويه الذي سماه «مسائل الغلط» قال ابن ولاد في مقدمته: «قال أبو العباس أحمد بن محمد بن ولاد النحوي: هذا كتاب نذكر فيه المسائل التي زعم أبو العباس محمد بن يزيد أن سيبويه غلط فيها. ونبينها، ونرد الشُّبَهَ التي لحقت فيها، ولعل بعض من يقرأ كتابنا هذا ينكر ردنا على أبي العباس وليس ردنا بأشنع من رده على سيبويه فانه رد عليه برأي نفسه، ورأي من دون سيبويه، ومع ردنا عليه فنحن معترفون بالانتفاع به لأنه نبه على وجوه السؤال ومواضع الشكوك، إلا أنه إذا تبين الحق، كان أولى بنا وأعود بالنفع علينا[2]». وهذا الرد يدل ضمناً على مبلغ ما وصلت إليه الدراسات النحوية في مصر في زمن ابن ولاد بحيث استطاع أن يفهم مسائل سيبويه، ويرد على المبرد فهمه

---

(١) طبقات النحويين واللغويين ٢٣٤ و ٢٣٦.

(٢) مقدمة المقتضب ١/ ٩٥.

لها واستدراكه عليه فيها، واستطاع أيضًا أن يدرك ما كان الحق فيه مع المبرد من هذه المسائل فينبه عليها ويقول بأنه لم يرد عليه فيها لأن الصواب مع المبرد[1]. ويظهر أن عناية المصريين بالكتاب جاوزت حدود بلدهم إلى بلدان المغرب العربي وعبرت البحر إلى الأندلس فرحل نفر من علماء هذين البلدين لأخذ الكتاب عن المصريين والعراقيين.

وخلاصة القول اننا لو تتبعنا أخبار النحويين الذين نسبوا إلى مدرسة مصر النحوية لوجدنا أن معظمهم من البصريين الذين رحلوا اليها حاملين كتاب سيبويه أو علمه أو من غير المصريين ممن نزحوا اليها من الأندلس أو المغرب أو غيرهما، ولاتضح أنه لم يدخل مصر كتاب في النحو الكوفي، ولا شيخ درس على الكوفيين إلا ما ذكر من دراسة أبي الحسن الاعز (-٢٢٧ هـ) على الكسائي، وإلا ما قام به أبو علي الدينوري من تأليف في بعض مسائل الخلاف بين المدرستين، وما قيل من كونه املى كتابًا مختصرًا في الضمائر في القرآن استخرجه من كتاب «معاني القرآن» للفراء، ومع هذا فلا يعد هذان الكتابان من كتب النحو الكوفي لأن مؤلفه كان من البصريين المنحازين إلى المبرد والنحو البصري ولا يعرف موقفه في كتابيه هذين من النحو الكوفي، والا ما كان من دخول علي بن سليمان الاخفش الصغير مصر سنة ٢٨٠ هـ في المرة الأولى ثم عاد اليها مرة أخرى سنة ٢٨٧ هـ ومنها رجع إلى حلب فبغداد حيث توفي سنة ٣١٥ هـ وكان ممن أخذ عن ثعلب والمبرد أيضًا ولا يعلم ان كان قد مارس التدريس بمصر ام لا؟ وان كنا نرجح ذلك إلا أنه لم يدخل معه شيئًا من الكتب في أي من النحوين لعدم اشارة المصادر التاريخية التي بين أيدينا إلى ذلك.

أوائل النحاة المصريين:

نشأ في مصر نحاة كثيرون اهتموا بتدريس النحو المشرقي ولا سيما البصري منه، ورحل اليها من العراق والمغرب والأندلس والشام نحاة آخرون أخذوا العلم بالنحو من بلدانهم ونشروه ودرّسوه في مصر أم دخلوا مصر ليحضروا حلقات شيوخه أو مجالس درسهم فيها. وقد حظيت مصر بعدد من النحاة لم يحظ بلد عربي بمثله لا في القديم ولا في الحديث، وظل النحو يدرس وتؤلف فيه المتون والشروح والتعليقات والحواشي والمختصرات وفي شواهده وشروحها واعرابها حتى اننا لن نكون مبالغين إذا ما قلنا أن ما أُلّف فيه من هذه الكتب في مصر وحدها منذ نشأته حتى يومنا هذا ما يزيد على ما أُلّف فيه في جميع البلدان العربية الأخرى في المُدّة نفسها، ولهذا

---

(١) مقدمة المقتضب ١/ ٩٥.

فاننا سنكتفي بالتعريف بأوائل النحاة المصريين الذين دخل على أيديهم النحو العربي إلى مصر ونما وانتشر واكتمل نضجه بالجهود التي بذلوها والدراسات التي اعتنوا بتأليفها. وسنتابع الزبيدي في رحلته مع هؤلاء النحاة في كتابه «طبقات النحويين واللغويين» لأنه تحدث عن المشهورين منهم وقسمهم طبقات ثلاثًا مرتبين بحسب تواريخ وفياتهم، وقد جعل بعض أصحاب الطبقات أولهم ابن هشام عبد الملك بن هشام بن أيوب الذهلي، الذي لقبه القفطي بالنحوي[1] وهو كاتب «السيرة النبوية» معروف ومشهور بها ولم يعرف نحويًا ولم يترجم له في كتب طبقات النحويين المتقدمة توفي بمصر سنة ٢٢٨ هـ. وكان القفطي أول من عده فيهم، ولم يعده السيوطي في «بغية الوعاة» من النحويين، وقال في «حسن المحاضرة» انه «كان اماماً في اللغة والنحو أديبًا نسابة اخباريًا[2]» ولما لم يكن له مؤلف في النحو يمكن أن يعد به نحويًا ولا آراء في كتب النحويين، نقول انه ليس من النحاة مع تأليفه في غريب أشعار السيرة، لأن الغريب والتأليف فيه ليس من علم النحو. ولهذا فإننا نعد أول النحاة من اتفق عليه المترجمون وتواترت أخبار رحلاته لسماع النحو وأخذه عن شيوخه ومنهم:

١- ولاد المصادري التميمي:

وهو الوليد بن محمد التميمي المصادري المشهور بـ «ابن ولاد المصري»، بصري نشأ في مصر ورحل إلى العراق، وسمع بها على العلماء. وكان سبب رحلته اليها رغبته في تعلم النحو الذي ذاعت أخباره وانتشرت وسمع بها القاصي والداني، ولم يكن قد عرف في مصر بعد، لأنه لم يكن في مصر كبير شيء من كتب اللغة والنحو، روى الزبيدي أن «ولاداً كان يأخذ النحو عن رجل من أهل مدينة النبي (ﷺ)، ولم يكن المدني من الحذاق بالعربية، فسمع ولاد بالخليل ابن أحمد، فرحل اليه فلقيه بالبصرة وسمع منه ولازمه، ثم انصرف إلى مصر وجعل طريقه على المدينة فلقي شيخه فناظره، فلما رأى المدني تدقيق ولاد المعاني وتعليله في النحو قال: قد ثقبت بعدنا الخردل. وهذا المدني الذي لقيه ولاد وناظره هو المهلبي تلميذ الخليل[3]. لم يؤرخ الزبيدي وفاته، وأرّخها السيوطي بسنة ٢٦٣ هـ، وهذا التاريخ غير مقبول ولا معقول ولا يتفق مع الخبر الذي اثبته الزبيدي في كونه أخذ عن الخليل ونقل السيوطي هذا الخبر مع اثباته لوفاته ذلك التاريخ لأن الخليل توفي سنة ١٧٠

---

(١) انباه الرواة ٢/ ٢١١- ٢١٢.

(٢) تنظر بغية الوعاة ٢/ ٣١٨، وحسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ١/ ٥٣١.

(٣) طبقات النحويين واللغويين ٢٢٣ وبغية الوعاة ١/ ٣١٨.

هـ أو ١٧٥ هـ على أبعد الروايات فكيف يعقل أن يكون قد رحل إلى البصرة وسمع عن الخليل وبين تاريخ وفاته وتاريخ سماعه ما يقارب مائة عام؟ ولم يرحل ابن ولاد هذه الرحلة وهو طفل وانما لا بد من أن يكون قد بلغ سن الرحلة في طلب العلم والسماع عن الشيوخ في أقطار مختلفة كالمدينة والبصرة فلا بد من خطأ وقع فيه السيوطي. ومع هذا فقد حمل الوليد بن ولاد نحو البصرة سماعا- دوَّنَهُ أم لم يُدَوِّنْهُ- عن الخليل وعن تلميذه المهلبي وعمل على نشره وتدريسه، وكان لأبنائه دور كبير في نشر هذا العلم في البلد الذي كان مقر اقامته..

٢- أبو الحسن الأعز:

ذكره الزبيدي في الطبقة الأولى، واهتم بايضاح انه «أخذ عن علي بن حمزة الكسائي، ولقيه قوم من أهل الأندلس وحملوا عنه، وكان ذلك سنة ٢٢٧ هـ»[1]. ولم نجد له ترجمة غير هذه توضح اخباره.

٣- أبو علي الدينوري:

أحمد بن جعفر أبو علي، أصله من دينور، قدم البصرة وأخذ عن المازني وحمل معه كتاب سيبويه، ثم دخل بغداد فقرأ على أبي العباس المبرد، وهو ختن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب وكان يخرج من منزل ختنه أبي العباس ثعلب فيتخطى أصحابه ويمضي ومعه محبرته ودفتره يقرأ كتاب سيبويه على أبي العباس المبرد، فكان أبو العباس ثعلب يعاتِبُهُ ويقول له: إذا رآك الناس تمضي إلى هذا الرجل وتقرأ عليه يقولون ماذا؟ فلم يكن يلتفت إلى قوله. كان أبو علي حسن المعرفة بالنحو ويبدو أنه لم يجد له مكانًا في بغداد وفيها الشيخان: ثعلب والمبرد فاتجه غربًا قاصداً مصر حيث استقر بها ولهذا سماه القفطي: «نزيل مصر النحوي»[2] كان متعصبًا للمذهب البصري في النحو لأنه لم يقرأ فيما تذكر كتب التراجم إلا كتاب سيبويه في البصرة وفي بغداد، وان كان فيما يبدو قد قرأ كتب الفراء والكسائي التي كانت عند ثعلب وان لم يقرأها عليه وذلك طبيعي وهو ختنه ويعيش معه في دار واحدة فلما رآها لا تعد شيئًا إذا ما قورنت بـ «الكتاب» والنحو الذي يحويه، وهو العارف به لم يجلس في حلقة ثعلب، ولا بد من أن يكون أبو علي قد حمل «الكتاب» معه إلى مصر وهو عازم على الاستقرار فيها والجلوس لتدريس النحو البصري هناك وليس له من عدة أو

---

(١) طبقات النحويين واللغويين ٢٣٣.

(٢) انباه الرواة ١/ ٢٢- ٢٣ وينظر في ترجمته طبقات النحويين واللغويين ٢٣٤.

عمدة غير «الكتاب». وهناك ألّف «المهذب» الذي جلب في صدره اختلاف البصريين والكوفيين وعزا كل مسألة إلى صاحبها ولم يعتل لواحد منهم، وعول في ذلك على كتاب الاخفش سعيد. وألّف كذلك كتاباً مختصراً في ضمائر القرآن استخرجه من كتاب المعاني للفراء[1]. ومما يؤكد انصرافه عن الكوفيين ما روي من أنه كان قد رحل إلى مصر ليقيم فيها، ولما قدم علي بن سليمان الاخفش الصغير مصر خرج أبو علي منها، ثم عاد اليها بعد عودة الاخفش إلى بغداد[2] ولا أظن أن هذا يحدث مصادفة، وربما يكون لاعتماد الدينوري على كتاب الاخفش في تأليف كتاب «المهذب» أثر في هذه الجفوة وان لم يصرح رواة أخبارهما بشيء. أخذ عن الدينوري من المشهورين أبو الحسين بن ولاد بن الوليد– الذي تقدم ذكره– وكان هذا الاخذ في مصر، لأن أولاد ابن ولاد استقروا هناك مع أبيهم. توفي أبو علي سنة ٢٨٩ هـ، وذكر أبو جعفر النحاس في كتابه «القطع والائتناف» أن لأبي علي كتاباً في: «وقف التمام» ونقل عنه في مواضع منه[3]. ومن هذا يبدو أن الدينوري وهو من أوائل من دخل مصر من النحاة المشارقة قد أثار نشاطاً كبيراً في مجالس الدرس النحوي في مصر بما حمله وما ألّفه في النحو وفي القراءات مما يكون للنحو فيه النصيب الأكبر في صحة القراءة وتوجيهها وذلك بتأليفه «وقف التمام» أو كلامه عليه في كتبه الأخرى.

٤– أبو بكر بن المزرع:

ذكره الزبيدي في الطبقة الثانية ويبدو من اخباره انه لم يكن نحوياً، غير أن الحموي، قال فيه: «نحوي أديب راوية». وقال القفطي انه دخل مصر وروى عنه أهلها أمالي له ثم نزل بطبرية من أرض الشام وروى بها الكثير، واستوطنها إلى أن مات سنة ٣٠٣ هـ[4]. ولم تشر كتب التراجم إلى موضوع هذه الامالي أهو النحو أم غيره من الدراسات؟ ويبدو أنها في مسائل متفرقة.

(١) ينظر طبقات النحويين واللغويين ٢٣٤ وانباه الرواة ١/ ٣٤. وقد شكك الدكتور أحمد نصيف الجنابي في صحة ذلك، ينظر الدراسات اللغوية والنحوية في مصر ٥٨ أو ١٥٧ و ١٣٣ في كتبه اللغوية.

(٢) طبقات النحويين واللغويين ٢٣٤ وانباه الرواة ١/ ٣٤.

(٣) ينظر القطع والائتناف ٧٥، وتنظر المواضع التي نقل منها النحاس عن أبي علي في كتاب القطع والائتناف ص ٨٨٦ و ٥٣٩ وغيرها.

(٤) تنظر ترجمته في طبقات النحويين واللغويين ٢٣٥– ٢٣٦ ومعجم الأدباء ٢/ ٥٧ وانباه الرواة ٤/ ٧٤ وبغية الوعاة ٧/ ٣٥٧.

٥- أبو الحسين محمد بن الوليد بن ولاد التميمي المتوفى سنة ٢٩٨ هـ:

أخذ عن أبي علي الدينوري وعن محمود بن حسان وغيرهما بمصر، ثم رحل إلى العراق وأقام بها ثمانية أعوام ولقي فيها المبرد وثعلبًا. وله في النحو كتاب سماه «المنمق» يقول الزبيدي: «ولم يصنع فيه شيئًا»، وقرأ كتاب سيبويه على المبرد. حدث ابنه أبو القاسم بن ولاد قال: «رحل أبي محمد بن ولاد إلى العراق، وفيها أهله لأخذ كتاب سيبويه عن أبي العباس المبرد، وكان المبرد لا يمكّن أحَدًا من نسخته، وكان يضن بها ضنًا شديدًا، فكلم ابنه فيه على أن يجعل له في كل كتاب منه جُعْلا قد سماه، فأجابه إلى ذلك، فأكمل نسخه، ثم ان أبا العباس ظهر على ذلك بعد فسعى بأبي الحسين إلى بعض خدمة السلطان ليحبسه له ويعاقبه في ذلك، فامتنع منه أبو الحسين بصاحب خراج بغداد فيها يومئذ، وكان فيها أبو الحسين يؤدب ولده فأجاره منه، ثم ان صاحب الخراج ألَظّ[1] بأبي العباس يطلب اليه أن يقرأ أبو الحسين الكتاب حتى فعل»[2]. فكان أبو الحسين هذا أول من أدخل كتاب سيبويه إلى مصر وهو الذي استنسخه من نسخة المبرد وقد تكون عليها تعليقاته على المسائل التي غلطه فيها، وجلس في مصر لاقرائه على تلاميذه بعد أن درسه على المبرد في رحلته هذه إلى بغداد. ثم شرح منه «باب علم ما الكلم من العربية» وهو أول شرح يوضع على موضوع من موضوعات الكتاب وألّف أيضًا في «وقف التمام» كتابًا ذكره النحاس في كتابه «القطع والائتناف»[3] ولم ينقل عنه شيئًا كي نتعرف على ما فيه وان كان واضحًا انه في قراءة القرآن وتبيين مواضع الوقف فيه وهو في الأغلب مما تطغى فيه البحوث النحوية لأنها المؤثرة في المعاني التي يوقف عندها أو يستأنف، وله كتاب اسمه «المقصور والممدود» ذكره ياقوت.

٦- أبو العباس أحمد بن محمد بن ولاد حفيد الوليد بن ولاد:

وأبوه محمد بن ولاد حامل كتاب سيبويه إلى مصر فهو نحوي ابن نحوي ابن نحوي؛ كما يقول القفطي فيه: خرج إلى العراق وسمع من أبي اسحاق الزجاج وطبقته ورجع إلى مصر وأقام بها يفيد ويصنف إلى ان مات. وكان يروي عن أبيه عن جده. ألّف كتاب «الانتصار لسيبويه من المبرد» وهو من أحسن الكتب ويدل على انه قد اتقن مسائل كتاب سيبويه وردود المبرد عليه، وأتقن النحو عامة حتى استطاع أن يميز بين الصحيح من مسائل هذين الشيخين فيرد بعضها ويعترف

---

(١) ألَظّ به: ألحّ عليه.

(٢) طبقات النحويين واللغويين ٢٣٦.

(٣) القطع والائتناف ٧٥.

بنعضها الآخر[1]، وكان أبو اسحاق الزجاج يسأله عن مسائل في النحو فيستنبط لها أجوبة يستفيدها أبو اسحاق منه. له كتاب «المقصور والممدود» وكان قد املى كتاباً في «معاني القرآن» توفي ولم يخرج منه الا سورة البقرة، وذلك في سنة ٣٣٢ هـ. وقد روى الزبيدي والقفطي اخباراً في تفضيل العلماء والفقهاء لأبي العباس بن ولاد على أبي جعفر النحاس في العلم والذكاء[2].

٧- أبو زهرة عبد الله بن فزارة النحوي المتوفى (٢٨٢ هـ):

ذكره الزبيدي ولم يورد في اخباره ما يدل على مبلغ علمه بالنحو وانما اكتفى بتلقيبه بالنحوي[3].

٨- أبو القاسم بن ولاد عبد الله بن محمد بن الوليد:

أخو أبي العباس وكان دونه في العلم، انتقل اليه عن أخيه كتاب سيبويه الذي انتسخه ابوهما عن نسخة المبرد، وكان يقرأ عليه بعد وفاة أخيه[4].

٩- أبو النضر محمد بن اسحاق بن اسباط:

أخذ عن الزجاج، وله كتاب في النحو سماه «كتاب العيون والنكت» ذهب فيه إلى حد الاسم والفعل والحرف وتلا ذلك بشيء من أبواب الياء والواو، ولم يصنع فيه شيئًا. ويبدو أن كتابه هذا مؤلف على كتاب سيبويه، لأنه أخذ عن الزجاج، والزجاج معروف باقرائه وبأنه من أهله[5].

---

(١) ينظر تفصيل ذلك في مقدمة «المقتضب» ١/ ٩٤- ٩٥.

(٢) تنظر ترجمته وكثير من أخباره في طبقات النحويين واللغويين ٢٣٨- ٢٣٩ و ٢٤٠ وانباه الرواة ١/ ٩٩ و ١٠٣.

(٣) طبقات النحويين واللغويين ٢٣٦.

(٤) طبقات النحويين واللغويين ٢٣٩.

(٥) طبقات النحويين واللغويين ٢٤١ و ١٧١.

١٠- علاّن:

علي بن الحسن المتوفى بمصر سنة ٣٣٧ هـ. قال فيه الزبيدي «كان علاّن من ذوي النظر والادقاق في المعاني، وكان قليل الحفظ لأصول النحو، فإذا حفظ الأصل تكلم عليه بكلام حسن، وجوَّد في التعليل ودقَّق القول ما شاء»[1]. بعد هذا العرض يصل بنا الكلام إلى علم مشهور من أعلام المدرسة المصرية مثّل النحو المصري وما وصل اليه في زمانه من الاستقرار والنضج ذلك هو أبو جعفر النحاس.

---

(١) طبقات النحويين واللغويين ٢٤١.

النحاس

حياته:

هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن اسماعيل بن يونس المرادي أبو جعفر النحاس النحوي المصري[1]، عرف بـ «النحاس» تمييزاً له عن «البهاء بن النحاس» ومع هذا سماه بعضهم «ابن النحاس». تنقل في سبيل العلم إلى عدد من الامصار الاسلامية التي كانت مراكز للعلم في زمانه فرحل إلى العراق من مصر وأخذ فيها عن أبي اسحاق الزجاج النحو وأكثر منه، وسمع من جماعة ممن كانوا بالعراق في ذلك الوقت كأبي بكر بن الانباري ونفطويه وعلي بن سليمان الاخفش الأصغر ببغداد. وسمع بالانبار وبالكوفة وبالرملة، وسمع عن ابن كيسان، وسمع بمصر عن محمد بن الوليد بن ولاد. عاد إلى بلده مصر حيث استقر فيها يفيد ويصنف الى أن مات سنة ٣٣٨ هـ. كان عالمًا واسع العلم غزير الرواية كثير التأليف وإذا خلا بقلمه جوّد وأحسن، وكان فيه طبع العالم المتواضع الذي لا يتحرج من أن يسأل الفقهاء والعلماء في كل ما اشكل عليه من أمور العلم، ولا يأنف من حضور حلقات غيره من العلماء للسماع عنهم، فقد كان يحضر حلقة ابن الحداد الشافعي ليلة كل جمعة يسمع فيها مسائل الفقه على طرائق النحو ولا يدع حضور شيء منها، قال فيه السيوطي: «كان من أهل الفضل الذائع والعلم الشائع» لم يقتصر علمه على النحو وانما كان عالماً بالقراءات وأصولها ومواقع القطع والائتناف فيها، وقد صنف كتاباً كبيراً يحمل اسم «القطع والائتناف» «وألّف في اعراب القرآن كتابه الضخم الذي يحمل الاسم نفسه، وألّف كتاب «معاني القرآن» و «تفسير أسماء الله عز وجل» و «ناسخ القرآن ومنسوخه» وان دلت هذه الكتب على ظاهرة معينة فإنما تدل على تأثره بالدراسات التي ألّفها في زمانه علماء مدرسة وَرْش للاقراء التي اهتمت بالدراسات النحوية القرآنية، وتعد كتبه هذه اجمع ما ألّف في نحو تلك المدرسة وقراءاتها، وتدل كتبه الخالصة للنحو على تأثره بالنحو الشرقي الوافد الذي أخذه عمن لقيهم من النحويين في البلدان التي ذكرنا انه زارها، وزاد عليه ما أخذه بمصر عن شيوخها وما وسّعه هو نفسه بدراساته

---

(١) تنظر اخباره التي سنذكرها في: طبقات النحويين واللغويين ٢٣٩- ٢٤٠ وإنباه الرواة ١/ ١٠١ وما بعدها، ووفيات الأعيان ١/ ٣٢- ٣٣ وبغية الوعاة ١/ ٣٦٢ وذكر بعض من أخذ عنهم في كتابه: (شرح القصائد التسع المشهورات. تنظر مقدمة المحقق ١/ ١٧- ١٩. وفي (اعراب القرآن) وغيرها من كتبه.

وتتبعه ومناقشاته لتلاميذه. وعلى هذا فقد كان النحاس قمة النحو في مصر تمثلت فيه مدرستاها النحويتان: مدرسة القرّاء- ومدرسة النحاة- وبلغ نحوهما عنده اسمى مراحل النضج والاكتمال بحيث لم يزد من جاء بعده عليه في النحوين شيئًا ذا قيمة ومعظم ما كان يفعله اللاحقون انما هو الجمع والتصنيف والشرح والتعليق والتحشية والتلخيص[1]. أما مؤلفاته النحوية فأشهرها كتاب «المقنع في اختلاف البصريين والكوفيين» و «الكافي في أصول النحو» وله كتاب: «صناعة الكتّاب» و «الاشتقاق» و «شرح أبيات سيبويه» فيه علم كثير طائل جليل كما يقول السيوطي الذي سماه «شرح أبيات الكتاب» وألّف في الأدب كتابًا في أخبار الشعراء و «شرح المعلقات» طبع باسم: «شرح القصائد التسع المشهورات» وزاد السيوطي «شرح المفضليات» وقد ظهرت ثقافته الواسعة في هذه المؤلفات التي اهتم بها الناس وحفظها لنا الزمن ووصل الينا الكثير منها لتشهد على علمه وذكائه وقدرته على الالمام بمثل هذه الموضوعات التي ألّف فيها ولا سيما دراساته النحوية والقرآنية الجامعة، وكأن معاصريه وتلاميذه قد أدركوا مكانته وأحسوا بما يتميز به من علم وذكاء وسعة اطلاع وقدرة على الافادة والافهام فتزاحموا على حلقته يناقشون ويستفهمون منه ويدونون عنه. قال ابن خلكان: «وكان للناس رغبة كبيرة في الأخذ عنه فنفع وأفاد وأخذ عنه خلق كثير». وهذا ما دفع العلماء على اختلاف اتجاهاتهم إلى أن يقارنوا بينه وبين نحاة عصره في أمور العلم واللغة والتصريف والاشتقاق والنحو، وجاوزوا ذلك إلى الرواية والاخلاق والعادات والطبائع[2].

نحوه:

سبق ابن النحاس بثلاث مدارس نحوية- ان صح أن نطلق هذا التعبير- هي: مدرسة البصرة، ومدرسة الكوفة، ومدرسة بغداد، وبرجوعنا إلى النحو الذي تلقاه عن اساتذته نجد أنه في أغلبه نحو البصريين، فقد أخذ عن أصحاب المبرد: الزجاج وابن كيسان وعلي بن سليمان الاخفش الصغير وجميعهم من نحاة بغداد الذين أخذوا النحو عن أحمد بن يحيى ثعلب ثم أخذوه عن المبرد فخلطوا في علمهم نحو المدرستين إلا أن الزجاج اطرح كتب الكوفيين ونحوهم وانحاز إلى المبرد والنحو البصري الذي يحمله، فكان نحوه بصريًا خالصًا. أما ابن كيسان فقد كان ممن خلط المذهبين ورجحت عنده كفة النحو البصري بشهادة أبي سعيد السيرافي وأبي بكر بن الأنباري

---

(١) ينظر الدراسات اللغوية والنحوية في مصر ٤٧٢ و ٥٠٣.

(٢) ينظر في مثل هذا طبقات النحويين واللغويين ٢٣٨- ٢٣٩ وانباه الرواة ١/ ١٠٠ و ١٠٣ وغيرها من الكتب التي ترجمت له أو لغيره ممن قورن بهم.

وبدلالة ترجمة الزبيدي له مع البصريين في أصحاب المبرد، وان كنا رجحنا انه كان قيِّمًا بالنحوين وان الاظهر عدم ميله إلى أي منهما لما اتضح في كتبه وآرائه النحوية. وأما علي بن سليمان الاخفش فهو ممن خلطوا النحوين أيضًا وعده الزبيدي من أصحاب المبرد. وعلى هذا فمن الواضح انه اطلع عن طريق هؤلاء على النحو البصري والكوفي والبغدادي المتمثل بمصنفات هؤلاء الشيوخ وآرائهم وان كان الجانب البصري ارجح كفة لأخذه عن ابن ولاد وغيره ممن كان بمصر حيث كان النحو البصري هو الشائع والمعروف في مجالس الدرس النحوي فيها. أما النحو البغدادي فهو مزيج من آراء شيوخ المدرستين البصرية والكوفية، ولهذا علينا أن نتلمس موقفه من النحوين البصري والكوفي ومنهج الدرس فيها.

أما مسائل النحو والصرف وروايات الشعر فيتضح فيها اهتمامه بآراء سيبويه وأقواله من مثل قوله شارحًا الآية الكريمة: «وإذا خاطَبَهُم الجاهلون قالوا سلامًا» ولا نعلم لسيبويه كلامًا في معنى الناسخ والمنسوخ إلا في هذه الآية»[1]. وفي رده على الاخفش رأيه في قوله «وقولوا للناس حُسْنًى» بقوله: «حكاها- يعني الاخفش- «حسنَى» بغير تنوين على «فُعْلَى»، وهذا لا يجوز في العربية، لا يقال من هذا شيء إلاّ بالألف واللام نحو «الفُضْلَى» و «الكُبْرَى» و «الحُسْنَى» هذا قول سيبويه»[2]. وكأن سيبويه المرجع الأعلى وقوله هو الفاصل عنده بين الجائز والممتنع، أو الصح والخطأ. ومثل هذا قوله ناقلاً تعليق سيبويه على الآية الكريمة: «أم يقولون شاعر» مستحسنًا اياه: «أي: «بل يقولون شاعر»، قال سيبويه: «خوطب العباد بما جرى في كلامهم» وهذا كلام حسن»[3]. ولا يقتصر استحسان الناس لأقوال سيبويه على ما يرد في القرآن الكريم وانما فعل مثل هذا في ما ذهب اليه سيبويه في كلام العرب من شعر وغيره فقال في بيت الشاعر الهذلي:

سبقوا هَوَيَّ، واعنقوا لهواهم　　　فتُخُرِّموا ولكل جنب مصرع

«العلة في هذا عند الخليل وسيبويه.. ان سبيل ياء الاضافة أن يكسر ما قبلها، فلما لم يجز أن تحرك الالف جعل قلبَها ياءًا عوضًا من التغيير[4]». وقوله محتجًا برواية سيبويه في بيت امرئ القيس:

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع　　　فالهيتها عن ذي تمائم محول

(١) الفرقان ٦٣ والناسخ والمنسوخ ٢٠٢.

(٢) سورة البقرة ٨٣ واعراب القرآن ١/ ١٩١.

(٣) الطور ٣٠ وتفسير القرطبي ١٨/ ٧١.

(٤) اعراب القرآن ١/ ١٦٥- ١٦٦. وينظر الكلام عليه أيضًا ١/ ٥٩٦- ٥٩٧.

ورواية سيبويه:

«ومثلك بكرًا قد طرقت وثيِّبًا»[1]

فلسيبويه عند النحاس الرأي الأول والأخير فيما يذهب اليه أو يوجه به المسائل النحوية أو الصرفية، فهو ينص على رواياته للشعر الواردة في كتابه مما يخالف المثبت في غيره من الدواوين ومجموعات المعلقات.

وأما في القراءات وتوجيهها وموقفه منها فيتضح أنه كان يتابع من سبقوه من نحاة المدرستين الذين خطّأوا القراء في بعض قراءاتهم ونسب التخطئة في معظمها إلى البصريين، غير ان الكسائي والفراء شاركا في هذه التخطئة فهي ظاهرة عامة وان كنت قد وجدت التصريح بالتخطئة للقراء والطعن عليهم عندهما أوضح مما كانت عند سيبويه وشيوخه. والذي يعنينا ما قيل من أن النحاس تابع السابقين في تخطئة بعض القراءات منها قوله في قراءة عبد الرحمن ابن هرمز الاعرج: «وحكى أبو حاتم أن الاعرج قرأ «فيَطمعِ الذي في قلبه مرض» بفتح الياء وكسر الميم- قال أبو جعفر: أحسَبُ هذا غلطًا، وأن يكون قرأ «فيطمَعِ الذي» بفتح الميم وكسر العين- يعطفه على «تخضعن»، وهذا وجه جيد حسن»[2]. فالغلط فيما يبدو ليس فيما وصفت به قراءة الاعرج فيما فهمه الباحثون ونقلوه عن النحاس وانما الغلط حكاية أبي حاتم هذه القراءة؛ لذلك قال النحاس: «وان يكون قرأ: «فيطمعِ الذي» فلما كسرت «العين» توهم الناقلون للقراءة انه كسر «الميم»، ولذلك خرجها على الجزم عطفًا على «فلا تخضعن» هذا ما أفهمه انا من كلام النحاس. وقد اتضحت تخطئة القراء في كلامه على قوله تعالى: «لكم فيها معايش» قال: «وقرأ الاعرج: «معائش»- بالهمز-، وكذا روى خارجة بن مصعب عن نافع، قال أبو جعفر: والهمز لحن لا يجوز (في العربية) لأن الواحد «معيشة» فزدت «ألف» الجمع وهي ساكنة و «الياء» ساكنة فلا بد من تحريك إذ لا سبيل الى الحذف و «الألف» لا تحرك، فحركت «الياء» بما كان يجب لها في الواحد ...[3]».

وانكر قراءة عدد من القراء: «إلا أن تكونا ملَكين» فقال: «وقرأ يحيى بن أبي كثير والضحاك: «إلا أن تكونا ملِكين» قراءة شاذة[4]». ووصف بالشذوذ قراءة أُبَيٍّ وأبي الجوزاء قوله تعالى: «ولكم في القصاص حياة» قال: «وقراءة أُبَيّ وأبي الجوزاء «ولكم في القصص» شاذة والظاهر يدل على

(١) شرح القصائد التسع المشهورات ١/ ١٢٠ والكتاب ٢/ ١٦٣.

(٢) الاحزاب ٣٢ واعراب القرآن ٢/ ٦٣٤ وينظر ٦٣٣.

(٣) الاعراف ١٠ واعراب القرآن ١/ ٦٠٠- ٦٠١.

(٤) الأعراف ٢٠ واعراب القرآن ١/ ٦٠٤.

غيرها[1]»، وقد يرى أن لا وجه للقراءة كما في قوله معلّقًا على الآية الكريمة: «فلا تُشمِت بيَ الأعداء»: «قال أبو عبيد: وحكيت عن حميد «فلا تُشمِت» - بكسر الميم - قال أبو جعفر: ولا وجه لهذه القراءة لأنه ان كان من «شمت» وجب أن يقول: «تشمَت» وان كان من «أشمت» وجب أن يقول: «تشمت[2]» وامثال هذا التعليقات كثير في كتابيه «اعراب القرآن» و «القطع والائتناف».

وقد يوجه الغلط إلى بعض القراء لوقفهم على جزء آية لا يتم به المعنى، وذلك واضح في مواضع من كتابه «القطع والائتناف»، منها كلامه على قوله تعالى:

«ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديًا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون» وقوله فيه: «إلا كتب لهم به عمل صالح» ليس بتمام ولا كاف، وقد غلط فيه بعض القراء فجعله كافيًا، وكذا: «إن الله لا يضيع أجر المحسنين» وليس بتمام لأن «ولا ينفقون نفقة» معطوف على «يصيبهم» و كذا «ولا يقطعون واديًا» معطوف أيضًا، وزعم أبو حاتم أن «إلا كتب لهم» وقف، وجعل «ليجزيهم» لام قسم وحذفت منه النون استخفافًا ثم كسرت «اللام» فأشبهت «لام» «كي» فنصب بها. قال أبو جعفر: وهذا كله غلط ليس «إلا كتب لهم» وقْفًا لأن «اللام» متعلقة به، وليست هذه لام قسم، ورأيت أبا الحسن بن كيسان ينكر مثل هذا على أبي حاتم ويخطئه فيه..[3]».

المصطلح عنده:

وكان يستخدم المصطلح البصري في معظم كتبه وهو الشائع والمعروف الذي لا يحتاج إلى تمثيل. وقد يستخدم المصطلح الكوفي أويخلط بينهما ومن ذلك انه يستخدم «الجر» و «الخفض» في المسألة نفسها ويتضح ذلك في قوله: «اعلم أن الاعراب على اربعة أوجه: على الرفع والنصب والجر والجزم فالرفع والنصب مشترك فيهما الاسماء والأفعال، والخفض للأسماء خاصة دون الأفعال[4]» ومثله استخدامه مصطلحي البصريين والكوفيين «المضارع» و «المستقبل» في الموضع الواحد في

(١) سورة البقرة ١٧٩ واعراب القرآن ٦/ ٢٣٢.

(٢) الاعراف ١٥٠ واعراب القرآن ١/ ٦٤٠، ويلاحظ أن القراءة (تُشمِت) تكون من (أشْمَتَ) ويكون ردّ النحاس لا واقع له.

(٣) التوبة ١٢٠ و ١٢١ والقطع والائتناف ٣٧٠.

(٤) التفاحة في النحو ١٤ «وخفض» وحدها في اعراب القرآن ١/ ١٣١ و ١٣٢ و ٦١٥ و ٦٢١ وغيرها.

قوله «اعلم ان الافعال على أربعة أقسام: فعل ماض وفعل مستقبل والأمر، والنهي فاستخدم مصطلح «مستقبل» وهو كوفي ثم قال: «والمضارع ما كان في أوله حرف من حروف الاستقبال[1]» فـ «المضارع» مصطلح بصري.

وقد يستخدم مصطلح المدرستين في الموضوع الواحد ولكن في أبواب متفرقة، كما في استخدامه «الصفة والموصوف» وهو مصطلح بصري و «النعت والمنعوت» وهو كوفي[2] وان استعمل سيبويه مشتقاته والفعل منه، واستخدامه «العماد» وهو مصطلح كوفي مع مقابله «الفصل» البصري كل منهما في مكان، واستخدم من مصطلحات الكوفيين غير ما ذكرناه في مواضع مع استخدامه المصطلح البصري المقابل أيضًا، من ذلك «الخفض» و «المستقبل» و «الجحد» و «الصرف» وهو عند البصريين «النصب بـ «أن» محذوفة مع الفعل المضارع» و «الجزاء والمجازاة» في فعل الشرط، وموضوع الشرط. و «ما لم يسم فاعله» وغيرها كثير،[3] و «النعت» بدل «الصفة» و «التفسير» بدل «التمييز» الذي أوضحه هو نفسه، فقال: «تقول من ذلك: «عندي خمسة عشر درهمًا» نصبت «الدرهم» على التفسير، ويقال: «التمييز»[4]».

واستخدم مصطلحات جمع فيها بين مصطلحي المدرستين وركبها منها، من ذلك ان البصريين يستخدمون مصطلح: «حروف الجر» وأن الكوفيين يستخدمون لها مصطلح «الصفة» أو «حروف الصفات» ويسمون المجرور «مخفوضًا» والجر «الخفض» لكنهم لا يقولون «حروف الخفض» إلا ان ابن النحاس استخدم هذا المصطلح «حروف الخفض» واطلقه على ما يشمل «حروف الجر» و «الظروف» وغيرها وكأنه ترجم به مصطلح «الصفة» عند الكوفيين، فهو يطلق عندهم ويراد به «الظرف» و «حروف الجر»، ولكنه يوسع هذا المصطلح فيشمل به انواعًا كثيرة من الكلمات قال في الباب الذي عنون له بـ «باب حروف الخفض»: «وهي: من وإلى وعن وعلى وفي وأسفل وخلف وقدام ووراء وأمام وفوق وتحت وبين وحذاء وتلقاء وازاء وقرب وعند ومع وقبل وحول وحسب ونحو ومذ وربّ وكل وبعض ومثل وشبه وغير ونو وذات وذوات وويل وويح وويس وحاشا وخلا وسوى وما بال وما شأن وسبحان ومعاذ ولدى ولدن وكم في الخبر وحتى على الغاية والواو

(١) التفاحة ١٦.

(٢) ينظر ذلك في شرح القصائد التسع المشهورات ١/ ١٤٢ و ١٢٠ واعراب القرآن ١/ ١٣١.

(٣) ينظر التفاحة في النحو ١٥ و ١٦ و ١٩ و ٢٠ و ٢١ وشرح القصائد التسع المشهورات ١/ ١٥٥ و ٦٨٧ وغيرها.

(٤) التفاحة ٢٤ وينظر فيه ٢٢ و ٢٣.

بمعنى «رب» والكاف الزائدة واللام الزائدة والباء الزائدة وحروف القسم وهي الواو والباء والتاء ولعمري وأيم وهيم» وقال:

«واعلم أن هذه الحروف تخفض ما بعدها تقول من ذلك: «كتبت إلى زيد» فتخفض «زيد» بـ «إلى» ومثله «مررت بزيد» و «حدثت عن بكر» و «جلست عند أخيك» و «والله لا كلمتك» وقس عليه ثم قال بعده:

«وإذا اضفت اسمًا إلى اسم، فالثاني مخفوض بالاضافة تقول «غلام زيد» و «فرس عمرو» و «دار أخيك» و «ثوب ابيك» خفضت الثاني في كل ذلك باضافة الأول اليه». ويتضح من هذا أنه ادخل فيما سماه «حروف الخفض»: حروف الجر أصلية كانت أم زائدة لقسم أم لغيره. والأسماء المبهمة الملازمة للاضافة، والظروف الملازمة للاضافة، والمصادر، وأدوات الاستثناء، والأسماء التي تستخدم في الاستفهام، فهي في كل ذلك يأتي ما وراءها مخفوضًا، أما الأسماء الأخرى مما نعرفه من أسماء العاقل وغيره فسماها: «اسماء» وعدها مضافة وما بعدها مخفوض بالاضافة، ولم يسمها: «حروف خفض».

ويظن الناظر في هذا انه جمعها تحت هذا ليقلل الابواب. الا ان هذا الظن غير صحيح لأنه يعود فيتحدث عن حروف الجر وحروف القسم وحروف الاستثناء والمصادر وغيرها كل في بابه. فكان غرضه هنا تبيين متى يجر الاسم وبعد أي الادوات وحصرها في موضع واحد، ثم بين معانيها في التراكيب وكيفية استخدامها في أبوابها الخاصة، وهذا نوع جديد من التقسيم لم أره عند سابقيه[(١)].

تركيبه قولا من قولي المدرستين:

ومما اختص به من الآراء التي ركبها من آراء المدرستين لكنه قال فيها قولاً مخالفًا للفريقين تقسيمه الافعال، فقد قسمها البصريون إلى ثلاثة: ماض ومضارع وأمر، وقسمها الكوفيون إلى ثلاثة أيضًا المستقبل والماضي والدائم. أما أبو جعفر النحاس فقد قسمها إلى أربعة، قال: «اعلم ان الافعال على اربعة أقسام: فعل ماض، وفعل مستقبل، والأمر، «والنهي» وعد الاقسام الثلاثة الاولى بسيطة، كل منها أصل قائم بذاته، أما «فعل النهي» فقد مثل له بـ «لا تدخل ولا تخرج»[(٢)] وهذا الذي سماه بهذا الاسم مركب من أصل بسيط هو الفعل «المستقبل» ومن اداة بسيطة ايضاً هي «لا» افادت النهي وركب من الاثنين نوعًا عده قسيمًا لأصله البسيط. وربما يفهم من هذا التقسيم انه

---

(١) التفاحج ١٧- ١٨.

(٢) التفاحة ١٦.

يجنح إلى مذهب الكوفيين في قولهم بأن «الأمر» مكون من «مستقبل» بسيط و «لام أمر» بسيطة، فالنهي تقابل فيه «لا» «لام الأمر». غير ان هذا التحليل غير وارد لقوله في «الامر» انه مع الماضي والمستقبل افعال بسيطة لأننا نقول: «قم» و «اذهب» وهو فعل بسيط اذن هو أصل قائم بذاته يراد به طلب ايقاع الفعل، فقابله بـ «لا تذهب» و «لا تخرج» وهو مركب من لفظين ظاهرين لكل منهما معنى ويقابلان بمجموعهما طلب عدم ايقاع الفعل فهو أمر منهي عنه، وفسر هذا القول في مكان آخر تحدث فيه عن أصل الأمر، بما يلمح منه انه يرى ان الأمر للمخاطب بناء بسيط مستقل كان حقه أن يكون مركّبًا كما هو الحال في غير المخاطب من المستقبل ولام الأمر، فقال: «سبيل الأمر ان يكون باللام ليكون معه حرف جازم كما ان مع النهي حرف، الا انهم يحذفون من الأمر للمخاطب استغناء بمخاطبته، وربما جاءوا به على الأصل، منه: «فبذلك فلتفرحوا[1]».

من آرائه الغريبة:

ومن آرائه الغريبة أنه عد من الحروف المشبهة بالفعل «لأن[2]» ومع انه مثل لاخواته فانه لم يمثل له ولم يشرحه أو يوضح استعماله واكتفى باثباته بينها. وهذا شبيه بعده «لا تدخل» فعلاً مركبًا قسيمًا للافعال البسيطة، فهذه الأداة أيضًا مركبة وهي قسيمة الأدوات الأخرى المعروف عنها انها بسيطة. وتبع هذا عده النواصب للفعل المضارع «أن ولن ولئلا وكي وكيلا ولكي وحتى، وحتى لا، واذن، ولام الجحود، ولام كي، وواو الظرف و «أو» في معنى «حتى»، «والفاء» في جواب ستة أشياء: الأمر والنهي والاستفهام والتمني والجحد والدعاء[3]» ومثّل لبعضها، ونلاحظ أنه عد «لئلا» و «كيلا» و «لكي» و «لكيلا» و «حتى لا» أدوات مستقلة تعمل النصب، والمعروف ان الناصب فيها بعد تركيبها هو الناصب فيها قبل ذلك فـ «لئلا» الناصب فيها «أن» و «كيلا» و «لكي» و «لكيلا» أصلها «كي» و «حتى لا» أصلها «حتى»، وانما جاء «اللام» قبلها للتعليل و «لا» بعدها للنفي، ولم يقل أحد من السابقين بهذا القول أو يذهب هذا المذهب[4] فيعد الاداة الأصلية مع ما يسبقها من حروف جر وما

(١) اعراب القرآن ٢/ ٦٥ ويونس ٥٨ وهي في المصحف «فبذلك فليفرحوا».

(٢) التفاحة ١٨.

(٣) التفاحة ١٩.

(٤) ومثل هذا عده «لا يزال ولم يزل» اداتين جديدتين في باب كان وأخواتها ص ١٨- ٢٠ وعده من حروف الجزم ألم وألما و أولم، و أولما، وغيرها، مركبة من «لم» و «لما» ومعهما همزة الاستفهام مرة. وهي وواو العطف أخرى. ص ٢٠. وينظر أدوات في موضوعات أخرى ص ٢١.

يتلوها من حروف نفي اداة واحدة وقد تقدم مثله في عده «لأن» من أخوات «إن».

ومن الأمور التي تفرد بها انه سمى الأدوات العاملة: «حروفًا»، حروفًا كانت أم أفعالاً أم «أسماء ولذلك سمى «كان وأخواتها»: «باب الحروف التي ترفع الأسماء وتنصب الاخبار» وهي: كان وصار وظل وبات وأمسى وأصبح ولم يزل ولا يزال، وما زال وما دام وما انفك[1]» ففي هذه التسمية دليل على انه يقصد بـ «الحروف» الادوات العاملة، وهي هنا أفعال. وفي هذه الأدوات أداتان ادخلهما فيها وهما: «لم يزل ولا يزال» على عادته في عد الأداة الأصلية مسبوقة بتعليل أو نحوه ومتلوة بنفي أداة جديدة، وعد هنا مجيء «لم» و «لا» قبل «يزال» أداتين جديدتين، وكان التقسيم يقتضيه أن يدخل فيها «لن يزال» و «لا زال» في الدعاء، ولعله سها عنهما. ومما سماه حروفًا من الأدوات: أسماء الشرط العاملة عمل الحرف، قال في باب سماه:

«باب الحروف التي تجزم الأفعال المستقبلة»: «وهي: لم ولما ... ولا في النهي وحروف المجازاة وهي: إن ومن. وما. ومهما. ومتى. ومتى ما. واين. واينما. وكيف ما. وحيثما. وإذا ما. وإذ ما. وأي. وأيهم[2]» ومعروف أن هذه التي للمجازاة جميعها أسماء الا «إن» و «إذما». ومن ذلك تسميته كل كلمة يقع بعدها الاسم مرفوعًا مهما كان نوع هذه الكلمة ومعناها: «حروف الرفع». قال في باب سماه بهذا الاسم: «وهي إنما. وكأنما. ولكنما. وكيف ما. وحيث ما. ولعل ما. وبينما. وبينا. ولولا. ولوما. وأما. وأين. ومتى. وعسى. وذا. وكيف. وهل. وبل. وما. ومن. وهذا. وذلك. وذاك. ونحن. وهو. وأن الخفيفة. وحبذا. ونعم. وبئس. وكم. إذا كان ما بعدها معرفة» وعلل هذه التسمية بقوله: لأنها كثر ما يجيء بعدها مرفوع تقول من ذلك: «إنما زيد قائم ...[3]» وهذا شبيه بما مر بنا ذكره من حصره الكلمات- ايا كان نوعها ومعناها- الا ان الاسم يأتي بعذها مخفوضًا في باب واحد، مع تكلُّمه على كل مجموعة في الباب الذي يخصها مما هو معروف في كتب النحو، وفعل هنا الفعل نفسه فحصر كل الكلمات التي يأتي بعدها الاسم مرفوعًا تحت باب واحد مع انه يتكلم في كتب أخرى على هذه الأدوات، ويعطي لكلٍّ منها معناها ويبين نوعها- ويبدو لي خلاصة لكل ذلك أنه أراد أن يسهل على المتعلمين المبتدئين كيف ينطقون بالاسماء إن وقعت بعد الأدوات، وليفرق لهم بين الكلمات التي يخفض بعدها الاسم والكلمات التي يرفع بعدها الاسم. وهذا نفسه ما دعاه إلى حصر الأدوات التي يجزم بعدها الفعل أو ينصب ويدخل فيها ما سبق بالاستفهام أو العطف أو

---

(١) التفاحة ١٨- ١٩.

(٢) التفاحة ٢٠.

(٣) التفاحة ٢١.

النفي أو تُلي بنفي أو نحوه في أبواب الغرض منها الجمع والحصر ليسهل على المتعلم تمييز مواقع نصب الفعل أو جزمه فان عرفها أدرك ان ما خلا من هذين النوعين مرفوع. وهذا من أول ما يحتاج اليه المتعلم، وبعد أن يدركه يحتاج إلى التمييز بينها والتحليل لأصولها وكيفية تركيبها ومم تركبت. ولم الاحظ هذا النوع من التأليف التعليمي عند غيره ممن ألّف كتبًا تعليمية موجزة كابن هشام أو أبي حيان.

آراؤه النحوية غير التعليمية:

أما ما اتضحت فيه آراؤه النحوية غير التعليمية الموجزة الملخصة، فمنه ما تابع فيه البصريين وهو أغلب الآراء فلا يحتاج إلى التمثيل له وتظهر متابعته لهم في مسائل خلافية منها ان الجر بعد «الواو» بـ «رب» مضمرة، وفي وجوب اضمار فعل بين «إذا» والاسم الذي بعدها[1]. ومنه ما تابع فيه الكوفيين وهو قليل، ومنه ما انفرد فيه برأي خاص. فمما تابع فيه الكوفيين ذهابه إلى أن فعل الأمر في الأصل مأخوذ من المستقبل للمواجه (المخاطب) المسبوق بلام الأمر قال وهو يتحدث عن قوله تعالى: «فبذلك فليفرحوا»: «وروي عن النبي (ﷺ) أنّه قرأ: «فبذلك فلتفرحوا» وهي قراءة يزيد بن القعقاع. قال هرون: في حرف أُبَيّ «فافرحوا». قال أبو جعفر: سبيل الأمر أن يكون باللام ليكون معه حرف جازم كما ان مع النهي حرفًا، الا انهم يحذفون من الأمر للمخاطب استغناء بمخاطبته، وربما جاءوا به على الأصل، منه: «فبذلك فلتفرحوا[2]» ومن ذلك تجويزه ابدال بعض حروف الخفض من بعض، قال في بيت امرئ القيس:

ويَضحِي فَتيتُ المسكِ فوق فراشها
نؤَومُ الضحى لم تنتطِق عن تَفَضُلِ[3]

قال: «وقال أهل اللغة: «عن تفضل» وهذا قول حسن، لأن «عن» تقارب «بعد» في المعنى ألا ترى أن قولك: أخذت العلم عن زيد»، انما معناه: «جاز إلي» و «رميت عن القرطاس» يؤول معناه

---

(١) ينظر هذان الرأيان في شرح القصائد التسع المشهورات ١/ ١٢٠ و ٤٤١ و ٤٤٧ و ١٣٨ والإنصاف ٣٧٦ وشرح الأشموني ٢/ ٣٠٠.

(٢) سورة يونس ٥٨ وهي في المصحف: «فبذلك فليفرحوا» - بالياء - وينظر اعراب القرآن ٢/ ٦٥.

(٣) البيت وحده في شرح القصائد التسع المشهورات ١/ ١٤٧.

إلى «بعد»، وعلى هذا قوله عز وجل: «فليحذر الذين يخالفون عن أمره[1]» معناه- والله أعلم- «بعد ما أُمروا»[2]، ومثله قوله بعده- وهو أوضح مما تقدم- متحدثًا في قول امرئ القيس وموجهًا له:

تضيءُ الظلام بالعشاء كأنها　　　منارة مُمْسَى راهبٍ مُتَبَتِّلِ

وقوله: «بالعشاء» معناه «في العشاء» كما يقول: «فلان بمكة» و «في مكة» وانما صارت «الباء» في موضع «في» لقربها من معناها، الا ترى انك إذا قلت: «كتبت بالقلم» أن معناها «ألصقت كتابتي بالقلم؟» وإذا قلت: «جلست في الدار» فمعناه: ان جلوسك لاصق بالدار؟ فعلى هذا تبدل بعض حروف الخفض من بعض[3].

ومن آرائه التي لم يتابع فيها أحداً كما يبدو من كلامه فيها ما مر بنا تقسيمه الافعال إلى أربعة هي: «الفعل الماضي والفعل المستقبل، والأمر والنهي، وذهابه فيها إلى أنها جميعها بسيطة غير مركبة إلا «النهي» فهو مركب من بسيطين «المستقبل» و «لا» التي للنهي[4]، ومنه تسميته المعرف بـ «أل» «المعهود»، قال وهو يتحدث عن أنواع المعارف: «فالمعرفة على خمسة أوجه: «اسم علم، واسم معهود..» وشرحه بقوله: «والمعهود ما كان أوله الف ولام التعريف كقولك: الرجلُ، والفرسُ، والدار، والثوب، وما أشبه ذلك»[5].

ومنه تسميته الفعل المتصل بألف الاثنين أو واو الجماعة أو نون النسوة: «ثني أو جمع أي: الضمير الذي فيه» قال: «وتقول في التثنية: «ضرب الزيدان العمرين» وفي الجماعة: «ضرب الزيدونَ العمرينَ، وإنما قلت: «ضرب» ولم تقل: «ضربوا» وهم جماعة، لأن الفعل إذا تقدم وحد وإذا تأخر ثني وجمع الضميرُ الذي يكون فيه، نحو قولك: «زيد قام» و «الزيدان والزيدون قاما، وقاموا» ثنيت «قام» وجمعته لأنه فعل متأخر[6]».

والخلاصة أن أبا جعفر النحاس قد أخذ بآراء البصريين، وأخذ مع هذا بأقوال الكوفيين، وخلط بين قوليهما أو مصطلحيهما وكون لنفسه منهما قولا جديداً أو مصطلحًا خاصًا. وبدت لنا

---

(١) النور ٦٣.

(٢) شرح القصائد التسع المشهورات ١/ ١٤٩- ١٥٠.

(٣) شرح القصائد التسع المشهورات ١/ ١٥١- ١٥٢.

(٤) التفاحة ١٦.

(٥) التفاحة ٢٢.

(٦) التفاحة ١٧. واظنه يريد ثنيت الضمير الذي يكون فيه أو جمعته، كما تقدم في عبارته.

شدة اهتمامه بأقوال شيخ البصريين وآرائه وتفسيره لمسائل النحو والتصريف، ورواياته للأشعار مما يدل على أنه يمثل النحو المصري في ميله إلى البصريين وتعصبه لسيبويه وكتابه بوجه خاص، لأنه هو الكتاب الذي درسوه ونشأوا عليه وأصبحوا أساتذة وأئمة في بلدهم وهم يشتغلون بآرائه وشرحها، وبالتأليف على كتابه والانتصار له.

وتبين في مؤلفاته واهتمامه بالتأليف في الدراسات القرآنية ميله إلى الأصل الذي قام عليه الدرس النحوي في مدرسة وَرْش المصرية المنشأ والبحوث والشهرة. وقد مزج أبو جعفر النحاس كل هذا وأخرج لنا دراسات قرآنية تتضح فيها آراؤه وآراء سابقيه ومعاصريه في مسائل الوقف والابتداء وفي مسائل النحو والتصريف وما يتصل منها بعلم الأصوات أو المسائل اللغوية العامة.

السيوطي

ظهر بعد أبي جعفر النحاس المتوفى (٣٣٨ هـ) عدد كبير من النحاة منهم المصريون أصلاً ومولداً ونشأة وثقافة ومنهم من نزلوا مصر وأقاموا فيها وهم اما عراقيون واما شاميون أو أندلسيون أو مغاربة، وقد خدموا النحو العربي بعامة خدمة كبيرة بما الفوا وبما أضافوا من آراء وتعليقات وتوضيحات حفظتها لنا كتبهم. وقد اشتهر منهم من اشتهر، فعلا ذكره، وسطع نجمه في عالم الدرس النحوي، ومنهم من كان كليل الضوء خامل الذكر[1]، الا انه قد نبغ من بينهم نحوي مصري الأصل والمولد والنشأة اشتهرت مؤلفاته وذا ع صيته، ذلك هو السيوطي.

حياته:

ترجم السيوطي لنفسه في كتابه: «حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة» مع من ترجم لهم من الأئمة الاعلام، وسنقتطف من ترجمته هذه بعض المعلومات عنه، فليس أصدق في التعريف بالشخص وأقرب اليه في معرفة اخباره وأحواله من نفسه، ولذلك نقول: هو عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد.. بن الشيخ همام الدين الهمام الخضيري الاسيوطي.

كان جده الأعلى همام الدين من أهل الحقيقة ومشايخ الطرق، خدم العلم حق الخدمة من بين معاصريه، لحقته التسمية بـ «الخضيري» نسبة إلى محلة ببغداد اسمها «الخضيرية».

ولد سنة ٨٤٩ هـ، ونشأ يتيماً فحفظ القرآن وهو دون الثامنة من العمر، ثم حفظ من كتب

---

(١) للاطلاع على اخبار هؤلاء النحاة ينظر المدارس النحوية ٣٢٧- ٣٦٥.

الفقه «العمدة» و «منهاج الفقه والأصول» ومن النحوية ألفية ابن مالك. وشرع في الاشتغال بالعلم و لم يجاوز الرابعة عشرة، فأخذ الفقه والنحو عن جماعة من الشيوخ واجيز بتدريس اللغة العربية ولما يجاوز السابعة عشرة وفيها بدأ التأليف وكان أول ما ألّفه «شرح الاستعاذة والبسملة» وعرضها على شيخه علم الدين البلقيني (-٨٧٨ هـ) فكتب له عليه تقريضًا. ولازمه في الفقه وسمع عليه قسمًا من «الحاوي» و «المنهاج» و «التنبيه»، وقطعة من الروضي. وقد أجازه هذا الشيخ بعدما سمعه عنه من هذه العلوم بالتدريس والإفتاء منذ أن كان في السادسة والعشرين. وكان هذا الشيخ أجل شيوخه وأكثرهم تعلقًا به. أما في الحديث والعربية فقد لزم العلامة الامام تقي الدين الشبلي الحنفي، وواظب على هذا الشيخ أربع سنين كتب له بعدها تقريضًا على شرح ألفية ابن مالك وعلى «جمع الجوامع في العربية» من تأليفه، وقد شهد الشيخ الشبلي للسيوطي بالتقدم بلسانه وبنانه، ووثقه فأخذ بحديث لم يستخرجه إلا السيوطي، ولزم الشيخ محيي الدين الكافيجي أربع عشرة سنة، فأخذ عنه التفسير والأصول والعربية والمعاني، وغيرها وكتب له اجازة عظيمة، وحضر عند الشيخ دروسًا كثيرة في الكشاف والتوضيح وحاشيته عليه وتلخيص المفتاح والعضد.

شرع في التصنيف منذ أن كان في السادسة عشرة أي منذ سنة ست وستين وثمانمائة وبلغت مصنفاته حتى كتابته ترجمة حياته- التي لا نعلم تاريخها- ثلثمائة كتاب سوى ما غسله ورجع عنه منها، وقال: «رزقت التبحر في سبعة علوم: التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة. والذي اعتقده ان الذي وصلت اليه من هذه العلوم السبعة سوى الفقه والنقول التي اطلعت عليها فيها ما لم يصل ولا وقف عليه أحد من أشياخي، فضلاً عمن هو دونهم، وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه بل شيخي فيه أوسع نظرًا وأطول باعًا»، واطلع على علوم أخرى كانت معرفته فيها دون هذه السبعة المذكورة وهي: أصول الفقه، والجدل، والتصريف، ومما هو دون هذه: الانشاء والترسل والفرائض، ودونها القراءات، ولم يأخذها عن شيخ ودونها الطب. رحل السيوطي عن هذا العالم تاركًا مئات الكتب والمدونات وكانت وفاته سنة ٩١١ هـ، ومن أشهر كتبه اللغوية والنحوية: «الاقتراح في علم أصول النحو» و «المزهر في علوم اللغة وأنواعها» و «جمع الجوامع» وشرحه «همع الهوامع في جمع الجوامع» و «البهجة المرضية في شرح الألفية» و «الفريدة» وهي منظومة في النحو والصرف والخط، على غرار ألفية ابن مالك وابن معط، ألّفها سنة ٨٨٥ هـ، وكانت سنُّهُ ستًّا وثلاثين سنة، وقام

بعد عشر سنوات بشرحها في «المطالع السعيدة في شرح الفريدة»، و «الاشباه والنظائر النحوية»[1].

نحوه:

يقوم منهج السيوطي في دراسة النحو واتباع أصوله في مؤلفاته على عرض آراء النحاة السابقين على اختلاف القائلين بها أشخاصًا كانوا أم جماعات، يعرضها ويوازن بينها ثم يرد ما رآه غير صحيح أو ضعيفًا ويصححه ويعلل سبب ضعف ما كان ضعيفًا عنده ويختار له من بين هذه الاراء رأيًا غير متقيد بمذهب معين ولا بشخص يتحيز اليه، فلا هو متعصب للبصريين ولا للكوفيين ولا هو متابع لبغدادي معين أو لشيخ من الشيوخ، وسواء لديه أكان صاحب الرأي سيبويه أم الكسائي أم النحاس أم ابن كيسان، ان رأى آراءهم صحيحة قوية اتبعها وفضلها وتبناها وان رآها ضعيفة أو مجانبة للصواب عرضها وبين وجه الضعف فيها أو عرضها ورجح غيرها عليها أو لم يرجح، ولهذا فهو يمثل النحوي المستقل الذي كان حكمه في الصحة والخطأ والقوة والضعف ما يوصله اليه علمه بهذا الموضوع أو ذاك، لا ما يراه من قيمة هذا النحوي أو ذاك، ولهذا فاننا نستطيع أن نطمئن إلى ان كل ما يقف منه موقفًا ايجابيًا من آراء النحاة السابقين ويعلق عليه باستحسان أو تصحيح أو تفضيل فهو معدود في آرائه. ولهذا نجده قد وقف من الآراء التي عرضها في كتبه مواقف مختلفة، فقد يعرض الآراء عرضًا مفصلاً ذاكرًا أصحاب هذه الآراء والقائلين بها من غير أن يعلق عليها بموافقة أو ردّ، مثال ذلك قوله عارضًا الآراء في أداة التعريف: وفي أداة التعريف مذهبان:

أحدهما: أنها «أل» بجملتها وعليه الخليل وابن كيسان وصححه ابن مالك، فهي حرف ثنائي الوضع بمنزلة «قد» و «هل» وكان الخليل يسميها «أل» ولم يكن يسميها «الألف واللام» كما لا يقال في «قد»: «القاف والدال»، وهمزتها عنده همزة قطع عوملت غالبًا معاملة همزة الوصل لكثرة الاستعمال. والثاني: انها «اللام» فقط والهمزة وصل اجتلبت للابتداء بالساكن وفتحت على خلاف سائر همزات الوصل تخفيفًا لكثرة ورودها، وهذا مذهب سيبويه ونقله أبو حيان عن جميع النحويين

---

(١) يمكن الرجوع إلى «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة» والى مقدمات كتبه كالاشباه والنظائر، و «همع الهوامع» وإلى كتاب «السيوطي النحوي» للدكتور عدنان محمد سلمان لمعرفة جميع مؤلفاته.

إلا ابن كيسان، وعزاه صاحب «البسيط» إلى المحققين[1]» فهذان الرأيان أحسن السيوطي عرضهما ولم يذكر موقفه منهما وان بين مواقف النحاة. وقد يعرض المسألة مبيناً كلامه فيها على ما هو رأيه ويشير إلى غيرها، من ذلك كلامه على حكم الاتصال أو الانفصال بين الضميرين المتتابعين منصوبين كانا أم كان أحدهما مرفوعًا قال: «.. وأما إذا لم يتحدا بأن كان أحدهما لمتكلم أو لمخاطب والآخر لغيره فان الفصل حينئذ لا يتعين، بل يجوز الوصل والفصل نحو:

«الدرهم اعطيتكه» و «اعطيتك إياه». وإذا اجتمع ضميران أو أكثر متصلان، فان اختلفت الرتبة وجب غالبًا تقديم الاخص، فيقدم المتكلم ثم المخاطب ثم الغائب نحو: «الدرهم أعطيتكه» فان أخر الأخص تعين الفصل نحو: «الدرهم أعطيته إياك»[2] والوصل ارجح عند ابن مالك، ولازم عند سيبويه، ومرجوح عند الشلوبين، فهذه ثلاثة مذاهب، ويجوز الأمران أيضًا في كل ضمير منصوب هو خبر في الأصل كثاني باب «ظن» نحو «خلتكه» و «خلتك اياه» و «كنته» و «كنت إياه». وفي الافصح مذاهب أيضًا: أحدها: الفصل فيهما وعليه سيبويه لأنه خبر في الاصل لو بقي على ما كان عليه لوجب الفصل فكان بعد الناسخ راجحًا. الثاني: الوصل فيهما ورجحه ابن مالك في «الألفية» لأنه الأصل. والثالث: التفصيل، وهو الفصل في باب «ظن» والوصل في باب «كان» ورجحه ابن مالك في التسهيل[3]». وقد يعلل بعض ما يورده من آراء أو مسائل ويفاضل بينها ويأتي برأيه مبنيًا على كثرة الوارد في كلام العرب وهذه الكثرة ترجحه على ما كان قليلاً فيه قال: «وفرق باب الضمير في «خلتكه» قد حجزه عن الفعل منصوب آخر بخلافه في «كنته» فانه لم يحجزه الا مرفوع، والمرفوع كجزء من الفعل فكأن الفعل مباشر له فهو شبيه بـ «هاء» «ضربته»، ولأن الوارد عن العرب من انفصال باب «ظن» واتصال باب «كان» أكثر من خلافهما[4]».

---

(١) المطالع السعيدة في شرح الفريدة ١/ ٢٣٤ وينظر كتاب سيبويه ٣/ ٣٢٤ و ٣٢٥ و ٤/ ١٤٧ والارتشاف (رسالة جامعية) ٣٤١. (نقلاً عن المطالع السعيدة ١/ ٢٣٤) وهمع الهوامع (سالم) ١/ ٢٧١. وتسهيل الفوائد ٤٢. وينظر في مثل هذا مما لم يرجح فيه السيوطي بين الآراء، وعرضها فقط المطالع السعيدة ١/ ٢٥٠- ٢٠٦، والبهجة المرضية في شرح الألفية ٢٣.

(٢) في المطالع ١/ ٢٠٤ «... اعطيتكه اياك».

(٣) المطالع السعيدة ١/ ٢٠٤- ٢٠٥ وينظر شرح الكافية لابن مالك ١/ ٤٧- ٤٨ والكتاب ٢/ ٣٦١ و ٣٦٣- ٣٦٦ و ٣٦٨ ٣٦٦- ٣٦٧ و ٣٥٨، وهمع الهوامع ١/ ٦٣ و ٢١٦، وشرح ابن عقيل ١/ ٩١- ٩٢، وتسهيل الفوائد ٢٧.

(٤) المطالع السعيدة ٢/ ٢٠٥.

وقد يعرض الأوجه الواردة في المسألة ويرجح منها وجهًا ويعلل هذا الترجيح كما في قوله متحدثًا عن الظرف المعرب إذا أضيف إلى جملة فعلية، وحكمه من حيث بقاء الاعراب أو تغيره وبناؤه على الفتح: «السادس الزمان المبهم المضاف لجملة، والمراد بالمبهم ما لم يدل على وقت بعينه وذلك نحو: الحين والوقت والساعة والزمان، فهذا النوع من اسماء الزمان تجوز إضافته إلى الجملة ويجوز لك فيه حينئذ الاعراب والبناء على الفتح، ثم تارة يكون البناء أرجح من الاعراب وتارة يكون بالعكس، فالأول: إذا كان المضاف اليه جملة فعلية فعلها مبني كقوله:

على حينَ عاتبتُ المشيبَ على الصبا

فقلت ألمّا اصحُ والشيبُ وازعُ؟

يروى: «على حينِ» بالخفض على الاعراب. وبالفتح على البناء هو الأرجح لكونه مضافًا إلى مبني وهو «عاتبت». والثاني: إذا كان المضاف اليه جملة فعلية فعلها معرب أو جملة اسمية، فالأول كقوله تعالى: «هذا يومُ ينفع الصادقين صدقهم[1]» فـ «يوم» مضاف إلى «ينفع» وهو فعل مضارع معرب، فالأرجح في المضاف الاعراب فلذلك قرأ السبعة كلهم إلا نافعًا برفع «اليوم» على الاعراب لأنه خبر للمبتدأ، وقرأ نافع وحده بفتح «اليوم» على البناء، والبصريون يمنعون في ذلك البناء ويقدرون الفتحة إعرابًا مثلها في «صمت يوم الخميس». والتزموا لأجل ذلك أن تكون الاشارة ليست لـ «اليوم» والا لزم كون الشيء ظرفًا لنفسه، والثاني كقول الشاعر:

تذكَّرَ ما تذكَّرَ من سُلَيمى على حينِ التواصل غير داني

رُوِيَ بفتح «الحين» على البناء والكسر أرجح على الاعراب، ولا يجوّز البصريون غيره[2] فهو هنا يرى أن الظرف المضاف إلى جملة فعلية فعلها ماض يجوز فيه الوجهان ويرجح عنده البناء، وان كانت فعلية فعلها مضارع فالأرجح الاعراب ويحتج له بقراءة ستة قراء من السبعة على الاعراب، فان كان المضاف اليه جملة اسمية فالاعراب ارجح من البناء. وقد ينص على مذهب البصريين في المسألة ولا يذكر غيره كما في كلامه على «كان وأخواتها» قال: «تدخل على المبتدأ والخبر أفعال وحروف فتنسخ حكم الابتداء فمنها: «كان وأخواتها» ومذهب البصريين أنها ترفع المبتدأ ويسمى اسمها وتنصب الخبر ويسمى خبرُها. والمتفق على عده من أفعال هذا الباب ثلاثة عشر، ثمانية لا شرط لها وهي: كان وظل وبات وأضحى وأمسى وصار وليس، وأربعة شرطها تقدم نفي أو شبهه وهو النهي والدعاء وهي: فتئ وانفك وزال، ماضي يزال، وبرح، والأربعة بمعنى واحد،

---

(١) سورة المائدة ١١٩.

(٢) المطالع السعيدة ١/ ١١١– ١١٢ وينظر ١/ ٢٣١ في مثله.

وسواء كان النفي بحرف أو اسم ..[1]». وقد يعرض الخلاف بين المذهبين البصري والكوفي ويختار الكوفي ويصرح بأنه المختار عنده بعد أن يفند حجج البصريين، ثم يأتي بأدلة لما اختاره، قال: «وفي رافع المبتدأ والخبر أقوال، فالجمهور وسيبويه على أن رافع المبتدأ معنوي وهو الابتداء لأنه بني عليه، ورافع الخبر المبتدأ لأنه مبني عليه فارتفع به كما ارتفع هو بالابتداء، وضعف بأن المبتدأ قد يكون جامداً أو ضميراً وهما لا يعملان، وبأنه قد يرفع فاعلاً نحو: «القائم أبوه ضاحك» فلو كان رافعًا للخبر لأدى إلى اعمال واحد رفعين ولا نظير له، ومعنى الابتداء على هذا القول جعل الاسم أولاً ليخبر عنه، وقيل: تجرده من العوامل اللفظية، أي: كونه معرى عنها. وذهب الكوفيون إلى أنهما ترافعا، فالمبتدأ رفع الخبر، والخبر رفع المبتدأ لأن كُلاً منهما طالب للآخر ومحتاج له[2]، وبه صار عمدة، واختار هذا المذهب ابن جني وأبو حيان وهو المختار عندي، ونظيرهما في ذلك أدوات الشرط فانها عاملة في افعالها الجزم وأفعالها عاملة فيها النصب نحو: «أيًا ما تدعو[3]». وقد يبين أن في المسألة آراءً كثيرة ثم يختار احدها ويعلله كما في اعراب الأسماء الستة، قال: «اعلم أن في اعراب هذه الأسماء اثني عشر مذهبًا قررتها في شرح جمع الجوامع[4]، وأقواها مذهبان أحدهما: هذا الذي ذكرناه وهو أنها معربة بالحروف وهو مذهب قطرب والزيادي والزجاجي من البصريين، وهشام من الكوفيين في أحد قوليه وجرى عليه المتأخرون. قال ابن مالك في شرح التسهيل: وهو أسهل المذاهب وأبعدها عن التكلف. والثاني: وهو مذهب سيبويه والفارسي وجمهور البصريين أنها معربة بحركات مقدرة من الحروف واتبع فيها ما قبل الآخر للآخر...

وقد قال في التسهيل أن هذ المذهب هو الأصح ورجحه أيضًا ابن القاسم لما في المذهب الأول من الخروج عن الأصل، إذ الأصل في الاعراب أن يكون بالحركات، ومن عدم النظير، إذ ليس في المفردات ما يعرب بالحرف غير هذه الأسماء، ولما يؤدي اليه من بقاء «فيك» و «ذي مال» على

---

(١) المطالع السعيدة ١/ ٢٨٢ وما بعدها وينظر ٣٤٦- ٣٤٧ و ٣٣٨- ٣٤٠ وهمع الهوامع (سالم) ٢/ ٦٢ وما بعدها.

(٢) لا أدري إن كان سيردّ على هذا بما ردّ به على قول البصريين في (القائم أبوه ضاحك)؟ فهنا أيضاً رفع المبتدأ رفعين؟؟

(٣) الاسراء ١١٠ والمطالع السعيدة ١/ ٢٥٦ وينظر البهجة المرضية ٢١. وهمع الهوامع (سالم) ٢/ ٥.

(٤) تنظر هذه الآراء في همع الهوامع (سالم) ١/ ١٢٢ وما بعدها.

حرف واحد لأن حرف الاعراب زائد، ولا يوجد ذلك في المعربات إلا شذوذاً[1]».

وقد يذكر أوجهاً في المسألة إلا انه يبين أن أحدها قد سار واشتهر وجرى عليه المعربون، قال في «لو»: «حرف شرط في المُضيِّ يصرف المضارع اليه بعكس «إن» الشرطية، واختلف في افادتها الامتناع وكيفية افادتها اياه على أقوال: أحدها: أنها لا تفيد بوجه ولا تدل على امتناع الشرط ولا امتناع الجواب بل هي لمجرد ربط الجواب بالشرط دالة على التعليق في الماضي... الثاني وهو لسيبويه قال: انها حرف لما كان سيقع لوقوع غيره أي أنها تقتضي فعلاً ماضيًا كان يتوقع ثبوته لثبوت غيره. الثالث: وهو المشهور على ألسنة النحاة ومشى عليه المعربون: أنها حرف امتناع لامتناع، أي: يدل على امتناع الجواب لامتناع الشرط فقولك: «لو جئت لاكرمتك» دال على امتناع الاكرام لامتناع المجيء...[2]». وقد ينفي الحكم في الشيء مطلقًا ثم يذكر من قال بعكسه قياسًا، مع حكايته السماع عن العرب قال في «إن وأخواتها»: «لا تخفف «لعل» واما «لكن» فان خففت لم تعمل شيئًا، بل هي حرف عطف، وأجاز يونس والاخفش اعمالها قياسًا، وعن يونس انه حكاه عن العرب».[3]

أما أصول منهج السيوطي في مباحثه النحوية بعد هذا فتتضح في أمور منها:

١- الحد والتقسيم والشرح:

اهتم السيوطي بالحد اهتمامًا واضحًا في جميع كتبه النحوية فهو يبدأ الكلام على أي موضوع نحوي بحده ثم يبدأ بالتقسيم ثم الشرح والاستشهاد، والاستنتاج يتبع هذا في أغلب الموضوعات من ذلك قوله في الكلام على أصول النحو: «أصول النحو: علم يبحث فيه عن أدلة النحو الاجمالية من حيث هي أدلته وكيفية الاستدلال بها وحال المستدل، فقولي: «علم»: أي: صناعة، فلا يرد ما أورد على التعبير به في حد أصول الفقه من كونه يلزم عليه فقده إذا فقد العالم به. لأنها صناعة مدونة مقررة وجد العالم به أم لا[4]» ثم يمضي في توضيح أجزاء الحد وشرحه. ومن ذلك «حد النحو» اختار في حده للنحو ما هو أليقها بكتابه «الاقتراح» وهو حد ابن جني في الخصائص فقال: هو «انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من اعراب وغيره، كالتثنية والجمع والتحقير

(١) المطالع السعيدة ١/١٤٣– ١٤٥ وما بعدها.

(٢) الاتقان في علوم القرآن ١/ ١٧٤ وما بعدها.

(٣) البهجة المرضية ٦٢.

(٤) الاقتراح ٢٧.

والتكسير والاضافة وغير ذلك، ليلحق من ليس بأهل العربية بأهلها في الفصاحة، وأصله مصدر «نحوت» بمعنى «قصدت» ثم خص به انتحاء هذا القبيل من العلم كما ان «الفقه» في الاصل: «فقهت» بمعنى «فهمت» ثم خص به علم الشريعة»[1]. ثم ينقل حدوداً أخرى لنحاة آخرين لا يأخذ بها ولا يتابعها لأنه اختار حد ابن جني هذا. ومنها: «حد اللغة» وهو: «انها أصوات يعبر بها كل قوم عن اغراضهم» ثم يفصل الكلام عليها أهي بوضع الله أو البشر ويذكر المذاهب فيها.

هذه أمثلة لحدوده أصول العربية العامة وعلومها، أما مذهبه في تناول موضوعات النحو الأساسية فمثل ذلك، إلا أنه قد يبدأ بالتحديد ثم التقسيم والشرح كما في قوله في أول باب «التنازع»: «التنازع طلب العاملين العمل في اسم متأخر عنهما، فشمل «العاملان»: «الفعلين» نحو: «آتوني أُفرغ عليه قطراً[2]» أو «الاسمين» كقوله:

عهدت مغيثًا مُغنيًا من أجرته (فلم اتخذ الا فناءك موئلا)

أو الاسم والفعل نحو: «هاؤم اقرأوا كتابيه[3]». وخرج بذكر «الطلب» العاملان المؤكد احدهما بالآخر كقوله:

فاين إلى أين الفرار ببغلتي أتاك أتاك اللاحقون احبس احبس

فـ «أتاك أتاك» عاملان في اللفظ، والثاني منهما لا طلب له الا التوكيد، وبذكر «المتأخر» ما إذا تقدم الاسم نحو: «زيد قام وقعد» فان كلاً من العاملين مشغول بضمير الاسم السابق فلا تنازع بينهما»[4] ومثله قوله في «العلم»: «وهو ما عين مسماه تعيينًا مطلقًا» فخرج بـ «تعيين المسمى» النكرة، وخرج بـ «مطلقًا» بقية المعارف، فان العلم يعين مسماه بمجرد الوضع لا بقرينة بخلاف غيره من المعارف فانه لا يعينه الا بقرينة اما لفظية كـ «أل» أو معنوية كـ «الحضور» و «الغيبة»، ثم «التعيين» ان كان خارجيًا بأن كان الموضوع له معين في الخارج كـ «زيد» فهو علم الشخص، وان كان ذهنيًا بأن كان الموضوعُ، له معينٌ في الذهن، أي: ملاحظة الوجود فيه كـ «اسامة»- علم

---

(١) الاقتراح ١٩- ٣٠ و ٣١.

(٢) الكهف ٩٦.

(٣) الحاقة ١٩.

(٤) المطالع السعيدة ٢/ ١٩٨- ١٩٩ و ١/ ٢١٩ والبهجة المرضية ٩٠.

السبع- أي لماهيته الحاضرة في الجنس، فهو علم الجنس ...[1]» وقد يرى الموضوع غير محتاج إلى الحد فينبه على ذلك ويبدأ بذكر أقسامه أو ألفاظه ثم يشرحها، قال في «اسم الاشارة»: «الثالث من المعارف اسم الاشارة، وهو محصور بالعد فلا يحتاج إلى الحد، فيشار للمفرد المذكر بـ«ذا» وللمفرد المؤنث بـ (ذي) و«تي» و«تا» ...[2]. ومثله قوله في الاسم الموصول: «الموصول الاسمي محصور بالعد فلا يحتاج إلى حد، فمنه «الذي» للمفرد المذكر، عاقلاً أو غيره و«التي» للمفرد المؤنث كذلك ...[3]. وقد يقدم التقسيم ويبدأ به وبعد ذلك يحد كل قسم إن احتاج ويشرحه ويمثل له وذلك قوله: «الموصول قسمان: اسمي وقد تقدم، وحرفي وضابطه أن يؤول مع صلته بمصدر، وهو خمسة أحرف: أحدها «أن»الناصبة للمضارع وتوصل بالفعل المتصرف ماضيًا كان أو مضارعًا أو أمرًا نحو: «أعجبني أن قمت» و«أُريد أن تقوم» و«كتبت إليه بأن قم» بخلاف الجامد كـ«عسى» و«ليس» و«تَعَلَّمْ» و«هَبْ».. و«ينبغي» فلا توصل به اتفاقًا. الثاني: «كي» وتوصل بالمضارع ولكونها بمعنى التعليل لزم اقترانها بـ«اللام» ظاهرة أو مقدرة نحو «جئت لكي تكرمني» أو «كي تكرمني» ...[4]». ومن ذلك قوله «التوابع خمسة: النعت وعطف البيان والتوكيد والبدل وعطف النسق، وإذا اجتمعت رتبت كذلك فيقدم النعت لأنه كجزء من متبوعه ثم البيان لأنه جار مجراه ثم التأكيد ...[5]».

٢- الحكم النحوي:

لم يحد السيوطي المراد بالحكم النحوي، والمفهوم أنه ما يحكم به على الظاهرة النحوية الموجودة من حيث فصاحتها وشيوعها أو قلتها أو ضعفها ونحو ذلك، وقد قسم السيوطي الحكم النحوي مستنبطاً هذا التقسيم مما ورد في كتب النحويين ابتداء من كتاب سيبويه.

فقال: «الحكم النحوي ينقسم إلى: «واجب وممنوع وحسن وقبيح، وخلاف الاولى، وجائز على السواء، فالواجب كرفع الفاعل وتأخيره عن الفعل ونصب المفعول وجر المضاف اليه وتنكير

---

(١) المطالع السعيدة ١/ ٢١٩ وفيه (معينا) في الموضعين والصحيح (له معين) خبر ومبتدأ وينظر في مثله ١/ ٢٥٣ وهمع الهوامع (سالم) ٢/ ٢٤٣ وما بعدها خبر كان.

(٢) المطالع السعيدة ١/ ٢٣١. وهمع الهوامع (سالم) ١/ ٢٥٧.

(٣) المطالع السعيدة ١/ ٢٣٧ وما بعدها وينظر همع الهوامع (سالم) ١/ ٢٧١.

(٤) المطالع السعيدة ١/ ٢٤٧- ٢٤٨.

(٥) ينظر تفصيل ذلك في المطالع السعيدة ٢/ ٢٠٩ و ١/ ٨٢ و ١/ ٨٢- ٨٩ في موضوع «الكلام».

الحال والتمييز وغير ذلك، والممنوع كأضداد ذلك، والحسن كرفع المضارع الواقع جواب شرط ماض، والقبيح كرفع المضارع بعد شرط مضارع، وخلاف الاولى كتقديم الفاعل في نحو: «ضرب غلامه زيداً» والجائز على السواء كحذف المبتدأ أو الخبر واثباته حيث لا مانع من الحذف ولا مقتضي له[1]». وهذه الأحكام استخدمها سيبويه وشيوخه وتلاميذه ومن بعدهم من النحاة حتى زمن السيوطي إلا أن أحداً لم يبحثه هذا البحث الاحصائي المنظم المحدد، لأن النحاة السابقين انما يطلقونها احكامًا متفرقة ضمن المسائل النحوية يحكمون بها على الظواهر الاعرابية النحوية أو التركيبية الصرفية أو الصوتية أو نحوها، وتبدو من هذا الترتيب والتحديد والتقسيم عقلية السيوطي المنظمة الدالة على ذكاء وقدرة عجيبة على التنظيم والتبويب.

وكما تتفاوت الأحكام في الكلام حسنًا وقبحًا وقوة وضعفًا تتفاوت في جوازها في الشعر وامتناعها فيه، فمنه ما هو رخصة، ومنه ما هو غير رخصة، والرخصة ما جاز استعماله لضرورة الشعر ويتفاوت حسنًا وقبحًا، وقد يلحق بالضرورة ما في معناها وهو الحاجة الى تحسين النثر بالازدواج، فالضرورة الحسنة: ما لا يستهجن ولا تستوحش منه النفس كصرف ما لا ينصرف، وقصر الجمع الممدود، ومد الجمع المقصور... والضرورة المستقبحة ما تستوحش منه النفس كالاسماء المعدولة، وما أدى إلى التباس جمع بجمع كرد «مطاعم» إلى «مطاعيم» ...[2].

وهذه التقسيمات والحدود والفروع والتنظيم والتبويب الذي اهتم به السيوطي سواء في ذلك ما جاء في كتابه «الاقتراح في علم أصول النحو» أو في «المزهر في علوم اللغة وأنواعها» أو في «الاشباه والنظائر» انما تنبه عليها لدراسته علمي الفقه وأصوله وتنبه على ما يهتم به الفقهاء والأصوليون وحاول تطبيقه على منهج التأليف والدرس النحوي.

---

(١) الاقتراح ٣٩.

(٢) الاقتراح ٤١.

٣- التعليل:

اهتم السيوطي بالتعليل واستخدمه بأوضح صوره وأسهلها وأقربها إلى الذهن، كقوله في تعليل فتح «حين» في قول الشاعر:

على حينَ عاتبتُ المشيبَ على الصبا

فقلت: ألَمّا أصحُ والشيبُ وازعُ؟

«يُروَى»: «على حين» بالخفض على الاعراب، وبالفتح على البناء وهو الأرجح لكونه مضافًا إلى مبني وهو «عاتبت»[1]. ويسمي «العلة»: «الوجه»، فيقول معلّلاً كون المبتدأ أصلاً للمرفوعات، أو الفاعل أصلاً: «اختلف في أصل المرفوعات فقيل: المبتدأ، والفاعل فرع عنه وعزي إلى سيبويه، ووجهه انه مبدوء به في الكلام وانه لا يزول عن كونه مبتدأ وان تأخر، والفاعل تزول فاعليته إذا تقدم، وانه عامل ومعمول، والفاعل معمول لا غير، وقيل: الفاعل أصل والمبتدأ فرع، وعزي إلى الخليل، ووجهه: أن عامله لفظي وهو أقوى من عامل المبتدأ المعنوي، وانه انما رفع ليفرق بينه وبين المفعول، وليس المبتدأ كذلك، والأصل في الاعراب أن يكون للفرق بين المعاني. وقيل كلاهما أصلان ليس أحدهما بمحمول على الآخر ولا فرع عنه ... [2]» فهذه علل متعددة مركبة علل بها الموضعين، وبمجموع هذه العلل يثبت الحكم.

ولعل أوضح ما صادفته عنده من تعليل ما جاء في اعراب الأسماء الستة وذهابه إلى ضعف ما قال به بعض الكوفيين ومن تابعهم من كونها معربة بالحروف فقال: «والثاني وهو مذهب سيبويه والفارسي وجمهور البصريين انها معربة بحركات مقدرة من الحروف واتبع فيها ما قبل الآخر للآخر... ورجحه أيضًا ابن القاسم لما في المذهب الأول من الخروج عن الأصل، إذ الأصل في الاعراب أن يكون بالحركات، ومن عدم النظير، إذ ليس في المفردات ما يعرب بالحروف غير هذه الأسماء، ولما يؤدي إليه من بقاء «فيك» و «ذي مال» على حرف واحد..[3]». وهذا تعليل بأكثر من علة لابطال الحكم لا لاثباته.

---

(١) المطالع السعيدة ١/ ١١١. وينظر ١/ ٣٣٩ و ٣٤٦.

(٢) المطالع السعيدة ١/ ٣٢٢- ٣٥٣.

(٣) المطالع السعيدة ١/ ١٤٣- ١٤٥، وينظر الاشباه والنظائر ١/ ٤٤- ٤٥ وفيه تفصيل في ذلك.

٤- الأصل:

وقد اهتم السيوطي بأصول الأشياء واعتمد عليها في أحكامه وأقيسته من ذلك قوله في حكم مفعولي «ظن»: «فالأصل تقديم المفعول الأول وتأخير الثاني، ويجوز عكسه. وقد يجب الأصل في نحو «ظننت زيداً صديقك» وقد يجب خلافه نحو: «ما ظننت زيداً إلا بخيلاً[١]. وقوله: «الأصل أن يلي الفاعل الفعل لأنه منزل منه منزلة الجزء[٢]. وقوله: «والأصل في الاستثناء الاتصال[٣]». و «الأصل في الأسماء الاعراب وانما تبنى إذا اشبهت الحرف ووجوه الشبه ستة..[٤]» وغيرها كثير.

٥- العامل:

بنى السيوطي معظم أبواب النحو في كتبه على نظرية العامل بحيث يرد ذكره في كل مسألة إلا ما شذ، ولكثرته لا يحتاج إلى تمثيل، ونكتفي بأمثلة قليلة منها قوله في تعليل قولهم «المبتدأ أصل المرفوعات: «ووجهه انه مبدوء به في الكلام... وانه عامل ومعمول، والفاعل معمول لا غير». وقوله متحدثاً عن رافع المبتدأ والخبر: «في رافع المبتدأ والخبر أقوال فالجمهور وسيبويه على أن رافع المبتدأ معنوي وهو الابتداء لأنه بني عليه، ورافع الخبر المبتدأ لأنه مبني عليه، فارتفع به كما ارتفع هو بالابتداء... وقيل: تجرده من العوامل اللفظية أي كونه معرًى منها...[٥]».

٦- المصطلح:

يستخدم السيوطي غالبًا مصطلحات البصريين، وقد استخدم في مواضع المصطلحات الكوفية مثال ذلك استخدامه «الخفض» و «النعت» و «النسق»[٦].

---

(١) المطالع السيعدة ١/ ٣٣١. المثال الصحيح الذي ينطبق على قاعدة وجوب خلاف الأصل هو: «ما ظننت بخيلاً إلا زيداً» حيث يقدم المفعول الثاني ويؤخر الأول.

(٢) المطالع السعيدة ١/ ٣٤٨- ٣٤٩.

(٣) المطالع السعيدة ١/ ٨٣، وينظر في مثل هذا باب الاشباه والنظائر ٢/ ٢٢- ٢٣.

(٤) المطالع السعيدة ١/ ٩٧ وينظر في مثل هذا ١٠٣- ١٠٤ و ١٤١ و ١٤٢.

(٥) المطالع السعيدة ١/ ٢٥٢ و ٢٦٥.

(٦) المطالع السعيدة ١/ ١١١/ و ٢/ ٢١١ وما بعدها.

٧- الخلاف بين البصريين والكوفيين:

اهتم بعرض المسائل التي جرى فيها خلاف بين البصريين والكوفيين مع الاستدلال لها بأدلة كل منهما، إلا أنه ينهي الخلاف في بعض المواضع بعبارة تدعو إلى طرح الخلاف لعدم فائدته، من ذلك قوله في «بناء الفعل للمجهول: «الجمهور على ان فعل المفعول مغير من فعل الفاعل، فهو فرع عنه، وقال الكوفيون والمبرد وابن الطراوة: أصل، لأنه وردت عن العرب أفعال لزمت البناء للمجهول فلم ينطق لها بفاعل كـ «زهي» و «عني». ولو كان فرعًا للزم أن لا يوجد الا حيث يوجد الاصل.... «قال أبو حيان: وهذا الخلاف لا يجدي كبير فائدة[١]». ومن أشهر المسائل التي عرض للخلاف فيها «رافع المبتدأ والخبر» وعلامة اعراب الأسماء الستة «و «بناء الأمر واعرابه» و «الخلاف في «ضمير الفصل» هل له محل من الاعراب[٢]».

٨- مسائل التمرين:

أورد السيوطي موضوعات مما سمي عند النحويين بـ «مسائل التمرين» من أشهرها: «الاخبار بالذي والألف واللام» قال فيه: «باب وضعه النحاة للتمرين و «الباء» فيه «باء» السببية، لا التعدية، لأن «الذي» يجعل في هذا الباب مبتدأ لا خبراً. قال ابن مالك في شرح الكافية: «المخبر عنه في هذا الباب هو المجعول في آخر الجملة خبراً لموصول مبتدأ تصدر به الجملة... فإن أخبرت عن «التاء» من قولك: «بلّغت من الزيدين إلى العمرين رسالة» قلت: «الذي بلغ من الزيدين إلى العمرين رسالة انا»، فان اخبرت عن «الزيدين» قلت «اللذان بلغّت منهما إلى العمرين رسالة الزيدان» فان أخبرت عن «العمرين» قلت: «الذين بلغت من الزيدين رسالة اليهم العمرون» فإذا أخبرت عن «الرسالة» قلت: «التي بلغتها من الزيدين إلى العمرين رسالة»..[٣]».

---

(١) المطالع السعيدة ٢/ ٢٧٢.

(٢) المطالع السعيدة ٢/ ٢٧٣ و ١/ ٢٧٦ و ١/ ١٤٣- ١٤٥ و ١٠٣ و ٢١٣ و ٢١٦ وغيرها.

(٣) المطالع السعيدة ١/ ٢٧٥- ٢٥٦ وما بعدها، وننظر الاشباه والنظائر ٢/ ١٠٣ و ١٠٢ والجزء الثاني من منتصفه إلى آخره.

٩- **الاهتمام بلغات العرب والتنبيه عليها:**

مثال ذلك: «لغة»: «سليم» في اعمال «قال» عمل «ظن» مطلقًا»، ولغة «اكلوني البراغيث» وهي لغة من يلحق الفعل المتقدم على الفاعل الظاهر المثنى والمجموع علامة التثنية أو الجمع نحو: «قاما الزيدانِ» و «قاموا الزيدون» و «قمن الهندات[1]».

١٠- **القراءات:**

كانت آيات الكتاب العزيز وقراءاتها المرجع الأول للسيوطي في شواهده في كتبه النحوية، وعليها بنيت كتبه التي في الدراسات القرآنية، فاحتج بها في توضيحه الحكم النحوي الوارد في كلمة أو عبارة بقياسها على مثيلاتها في القرآن أو في قراءة، من ذلك حديثه عن حذف بعض الكلمات لكونها مفهومة من العبارة وهو جائز قال: «... أمثلة حذف الاسم: حذف المضاف وهو كثير في القرآن جداً حتى عد ابن جني في القرآن منه زهاء الف موضع.. ومنه «ولكن البر من آمن» أي: «ذا البر» أو «بر من آمن» ومنه «حرمت عليكم أُمهاتكم» أي «نكاح أُمهاتكم» و «وفي الرقاب» أي: «وفي تحرير الرقاب». وقوله: «حذف المضاف اليه يكثر في «ياء المتكلم» نحو: «رب اغفر لي» وفي الغايات نحو: «له الأمر من قبل ومن بعد» أي: «من قبل الغلب ومن بعده» وفي «كل» و «أي» و «بعض». وجاء في غيرهن كقراءة «فلا خوفُ عليهم» بضم بلا تنوين، أي: «فلا خوفُ شيءٍ عليهم»[2]. وهو كثيراً ما يخرج القراءات المخالفة للقواعد تخريجات على تقدير محذوف كتخريجه قراءة: «قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة» على حذف لام الأمر. وقراءة «ألم نشرح»[3]. بالنصب- على حذف نون التوكيد. وغيرها كثير من المواضع.

أما موقفه من القراءات التي خطأها النحاة بصريين كانوا أم كوفيين من متقدميهم أم من متأخريهم، فيختلف عن موقفهم، فقد تابع ابن مالك وأبا حيان في الأخذ بهذه القراءات ويبدو ذلك من قوله: «كان قوم من النحاة المتقدمين يعيبون على عاصم وحمزة وابن عامر قراءات بعيدة في العربية، وينسبونهم إلى اللحن وهم مخطئون في ذلك، فان قراءاتهم ثابتة بالأسانيد المتواترة الصحيحة التي لا مطعن فيها، وثبوت ذلك دليل على جوازه في العربية» ثم يؤيد ابن مالك في رده

---

(١) المطالع السعيدة ١/ ٣٤٠ و ٣٤٨.

(٢) سورة البقرة ١٧٧ والنساء ٢٣ والبقرة ١٧٧ والتوبة ١٠ والاعراف ١٥١ وسورة ص ٣٥ ونوح ٢٨ والروم ٤ والمائدة ٦٩. والاتقان في علوم القرآن ٢/ ٦٢ و ٦٣.

(٣) ابراهيم ٣١ والشرح ١.

على هؤلاء المخطئين فيقول: «وقد رد المتأخرون منهم ابن مالك على من عاب عليهم ذلك بأبلغ رد، واختار جواز ما وردت به قراءاتهم في العربية وان منعه الأكثرون مستدلاً به» وهذه القراءات مذكورة في كتبه وهي معروفة لا نطيل بذكرها[1]. ويتضح موقفه من القراءات على اختلاف انواعها من قوله: «أما القرآن فكل ما ورد انه قرئ به جاز الاحتجاج به في العربية سواء أكان متواتراً أم آحاداً أم شاذاً وقد اطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربيةإذا لم تخالف قياساً معروفاً، بل ولو خالفته يحتج بها في مثل ذلك الحرف بعينه، وان لم يجز القياس عليه نحو: «استحوذ ويأبى[2]».

١١- الحديث النبوي:

يتضح موقف السيوطي منه في قوله: «وأما كلامه- (ﷺ)- فيستدل منه بما يثبت انه قال على اللفظ المروي وذلك نادر جداً، انما يوجد في الأحاديث القصار على قلة أيضاً، فإن غالب الأحاديث مروي بالمعنى، وقد تداولتها الاعاجم والمولدون قبل تدوينها فرووها بما أدت اليه عباراتهم فزادوا ونقصوا وقدموا وأخروا وأبدلوا ألفاظاً بألفاظ، ولهذا ترى الحديث الواحد في القصة الواحدة مروياً على أوجه شتى بعبارات مختلفه، ومن ثم انكر على ابن مالك اثباته القواعد النحوية بالألفاظ الواردة في الحديث[3]». وقد ورد الحديث كثيراً في كتبه سواء في ذلك ما احتج به هو أو ما احتج به النحاة الذين يعرض آراءهم واحتجاجهم به[4].

١٢- المسموع من كلام العرب:

وقف السيوطي في الاحتجاج بكلام العرب عندما كان النحاة الأوائل كسيبويه وشيوخه يحتجون به، وهو يردد مثل: «فيحتج منه بما ثبت عن الفصحاء الموثوق بعربيتهم» «وهؤلاء الفصحاء هم الذين ذكرهم أبو نصر الفارابي في أول كتابه «الحروف» وهم: قيس وتميم وأسد فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتكل في الغريب وفي الاعراب والتصريف ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين» ثم «الاعتماد على ما رواه الثقات عنهم بالأسانيد المعتبرة من نثرهم ونظمهم» ورأى ان اللغات الفصيحة كافة الحجاز وتميم كلها حجة، ولكل منها وجه من القياس».

(١) الاقتراح ٤٩ وينظر ٤٩ و ٥٠- ٥١ والانصاف مسألة ٦٥ و ٦٠.

(٢) الاقتراح ٤٩.

(٣) الاقتراح ٥٥.

(٤) ينظر همع الهوامع (سالم) ٧/ ١٠٧- ١١٦ حيث ورد في فهرسه احتجاجه بـ ١٣٢ حديثاً.

وقد فصل في «المزهر» الكلام على القبائل التي يحتج بها وما لا يحتج بها[1].

١٣- القياس والسماع:

كان يرى أن النحو كله قياسٌ، وانما يقاس على الكثير المطرد ولا يقاس على الشاذ، وليس من شرط المقيس عليه أن يكون كثيراً وانما شرطه موافقته القياس، فقد يكون الشيء قليلاً لكنه كل ما ورد في بابه فيقاس عليه، وقد يكون كثيراً لكنه خالف بابه فلا يقاس عليه، وقد تحدث السيوطي عن القياس وقسمه وذكر أركانه وأنواعه وشروطه في الاقتراح والمزهر وغيرهما[2]. ونختم كلامنا على الدرس النحوي في مصر بأشهر أعلامها «السيوطي» الذي تبين مما ذكرناه من أخباره الموجزة انه قد شارك في كثير من العلوم مشاركة عالم متعمق، وانه أسدى للنحو خدمة كبيرة في جمع أصوله وفروعه وترتيب أحكامه وأقيسته وتبيين علله ولهذا ظل الاعتماد على كتبه في معظم المسائل التي عرضناها.

---

(١) الاقتراح في علم أصول النحو ٥٦ و ٥٧ و ٦٤ والمزهر في علوم اللغة وأنواعها ١/ ٢٠٩ و ٢٢٦ و ٢٣٣.

(٢) ينظر الاقتراح ٩٤ إلى آخر الكتاب وفي السماع ٤٨- ٨٧، والمزهر ١/ ١١٣- ٢٣٠ في القياس.

المبحث الثاني

النحو في الأندلس

الأندلس:

تم لطارق بن زياد تحرير الاندلس من حكم القوط سنة ٩٢ هـ حيث دخلها بجيش معظمه من شمال افريقية، ولحقه موسى بن نصير بجيش مكون من قبائل عربية متعددة، ثم ازداد عدد المهاجرين إلى الأندلس وأصبح العرب فيها يمثلون القحطانيين والعدنانيين وبدخول العرب المسلمين الأندلس بدأ الشعب الأسباني بالدخول في الدين العظيم وانضووا تحت لوائه، إلا أن هذا التزايد في عدد المسلمين لم يؤثر أول الأمر في الحالة الثقافية للأندلس، واستمرت الحال كذلك لانشغال الولاة بما أحاط حكمهم من حروب ومنازعات واستمرت هذه المنازعات خمسًا وأربعين سنة تعاقب فيها على حكم البلاد أربعة وعشرون واليًا حتى دخلها عبد الرحمن بن معاوية سنة (١٣٨ هـ) بعد زوال عهد الامويين في الشام وقيام الدولة العباسية في بغداد فانقذ الحكم العربي الاسلامي في الأندلس من الانهيار وأقام الدولة الاموية في الاندلس واستقرت الأحوال السياسية وتحسنت أمور البلاد اجتماعيًا وثقافيًا، وفي عهده بدأ اتصال أهل البلاد بالثقافة الاسلامية اتصالاً منظمًا واهتم أهل البلاد باللغة العربية لغة الدين والدولة. وشجع الخليفة الثاني هشام بن عبد الرحمن (١٧٢- ١٨٠ هـ) الفقهاء والمؤدبين، وفي زمانه دخل مذهب مالك الأندلس وثبت فيها، وجاء بعده هشام بن عبد الملك المعروف بالربضيّ (١٨٠- ٢٠٦ هـ) فشجع العلماء وطور الثقافة العربية الاندلسية التي بلغت اوج نشاطها في زمن خليفته عبد الرحمن الثاني (٢٠٦- ٢٣٨ هـ) الذي أدخل إلى بلاطه الأدباء والشعراء واهتم خلفاؤه بأن يكون لقصورهم مجد أدبي وثقافي يضاهي ما كان لقصور العباسيين مما أثّر في تطوير الحياة الثقافية في مختلف المجالات وقوى العنصر العربي حتى كاد عنصر المستعمرين يتلاشى ويختفي وتختفي معه الآداب اللاتينية التي كانت ذائعة معروفة. وقد مرت الامارة في زمن خليفته الأمير محمد بن عبدالرحمن (٢٣٨- ٢٧٣ هـ) بأيام عصيبة الا انه استعان بالفقهاء واستطاع ان يُرهِبَ الثائرين من رعاياه ويخضعهم لسلطانه، غير أن نفرًا من شيوخ المسلمين الاسبان ورؤسائهم لم يذعنوا بالطاعة لسلطان أمير قرطبة، فاستعان الأمير بشيوخ القبائل العربية ورؤسائهم على محاربة الخارجين عليه، فاستغل هؤلاء الشيوخ العرب الفرصة ومكنوا لانفسهم في نواحيهم وأنشأوا لهم سلطانًا مناهضًا لسلطان الأمير. واشتد النزاع بين هذه الطوائف من عرب الأندلس والامارة القوطية، وطال النزاع واشتد امره حتى كاد يقضي على هذه

الامارة في عهد الأمير عبد الله (٢٧٥- ٣٠٠ هـ) لولا أن منَّ الله عليها بعبد الرحمن الناصر (٣٠٠- ٣٥٠ هـ) فانقذ الحضارة الاسلامية الزاهرة في الاندلس مما كان يتهددها من الاخطار الخارجية أو يضعفها من الخلافات الداخلية فتمكن من اخضاع جماعات العرب لسلطانه واعاد للدولة الاسلامية هيبتها في الخارج ونشر الرخاء والنظام والأمن في الداخل وزاد في موارد ثروة البلاد بتشجيع الزراعة والصناعة والتجارة والعلوم والفنون.

وقد صحب هذا التشجيع لعناصر الحضارة تطور في نواحي العلم والأدب وعلوم اللغة العربية، واستمر الحكم الاموي في الاندلس قويًا في زمن ابنه الحكم المستنصر (٣٥٠- ٣٦٦ هـ) إلا أنه ضعف في زمن ولده هشام الملقب بالمؤيد (٣٦٦- ٣٩٦ هـ) لتطامنه وضعف شخصيته فاستطاع المنصور بن أبي عامر بما كان له من قوة الشخصية وبمن كان يؤازره من عناصر جيش الخلافة الذين كانوا من المولدين والصقالبة، ومن البربر الذين جلبهم من افريقية أن يوقف كل تقدم للطامعين، وتمكن من الاستيلاء على مدن مهمة من بينها برشلونة، وقهر الأندلسيين على الطاعة لحكومة عسكرية مما أدى إلى اشتعال نيران الفتنة التي قصمت ظهر الأندلس بعيد وفاته، وإلى تعثر الحضارة الأندلسية في سيرها على ايامه فلم يتميز عصره بأية شخصية علمية بارزة في أي من العلوم والفنون. فقد ثارت قرطبة على أولاده من بعده وحلت الفتنة التي قضت على الخلافة في الأندلس وتتابع على دفة الحكم خلال هذه الفتنة طوائف شتى وقامت عقب سقوط الخلافة حكومة في قرطبة عام (٤٣١ هـ) وكان الحال شبيهًا بهذا في مدن الأندلس الأخرى كالمرية واشبيلية وطليطلة حتى منتصف القرن السادس حيث حكم المرية الامير المعتصم بن حماد (٥٤٦- ٥٨٧ هـ) ونشر بنو ذي النون سلطانهم على المدن الأخرى، واستمر الحكم بيد ملوك الطوائف حتى تم عزلهم بمجيء دولة المرابطين التي كانت تحكم شمالي افريقية بعد أن استنجد بهم أهل الأندلس، واختلف المؤرخون في حكم يوسف بن تاشفين وابنه علي فوصفه بعضهم بالقوة والعدل، ووصفه آخرون بالاستبداد الذي ظلت عليه الحال حتى احتل الموحدون ما بقي في ايدي المسلمين من بلاد الاندلس. ثم خلف الموحدين قيام الممالك النصرانية متعاقبة فيها[1].

لقد دخل الشعب الاسباني في الدين الجديد بدخول الجيش العربي المحرر لهم من حكم القوط، ولم يكن هؤلاء أول امرهم بحاجة إلى شيء كثير من العربية، واحتاجوا إلى تعلم العربية بعد اختلاطهم بالعرب الذين استقروا في بلدهم عن طريق المعاملات أو عن طريق التزاوج الذي كثر

---

(١) ينظر ما جاء في هذه المقدمة التاريخية في نفح الطيب جـ ١ وتاريخ الفكر الأندلسيّ ٣- ٢٤. والحركة اللغوية في الاندلس ١٧- ٤٦ والدراسات اللغوية في الاندلس ١١ وما بعدها.

بينهم لحاجة المحاربين من العرب الذين نزلوا الأندلس إلى حياة عائلية مستقرة فنشدوا الزواج من أهل هذه البلاد الذين أنعم الله عليهم بالاسلام، فأخذوا في تعلم لغة القرآن الكريم بعد أن أصبح المصدر الأول للتشريع في هذه البلاد وقويت به اللغة العربية التي صارت لغة الدين والدولة.

وتطورت العناية بها وبنشرها ودرسها والتأليف في علومها المختلفة دينية كانت أو لغوية، وساعدت على انتشارها أمور أخرى كان من أبرزها الرحلات التي كان يقوم بها المسلمون إلى الحجاز لأداء فريضة الحج فكانوا يطلعون خلال رحلاتهم هذه على ما نشأ في البلدان الاسلامية المشرقية من علوم وثقافات ودراسات، وكان الكثير من الأندلسيين يرحلون إلى المشرق لغرض غير الحج وذلك للاطلاع على ثقافات هذه البلدان وعلومهم ويعودون محملين بها إلى أرض الأندلس، ويقابل ذلك رحلة عدد من المشارقة ولا سيما العلماء باللغة والنحو وعلوم الدين إلى الأندلس، وصحبت هؤلاء وأولئك كتب مختلفة أُلّفت في الثقافة العربية ومدونات قام بها هؤلاء الراحلون من الأندلس والقادمون اليها اثبتوا فيها مسموعاتهم في اللغة والنحو والقراءات وما اليها.

وقد تضافرت هذه الجهود جميعًا على تطوير الحياة الثقافية ولا سيما اللغة، وأدى اختلاط العرب بأهل البلاد عن طريق التزاوج إلى نشوء جيل جديد من أبناء هذه البلاد إحتاج إلى تعلم اللغة العربية ونشأ عن هذه الحاجة ظهور طبقة من المثقفين باللغة العربية وعلوم الدين سميت بطبقة المؤدبين، وساعد على ظهورها الرحلات التي كان يقوم بها الاندلسيون والمشارقة من الاندلس إلى مراكز الثقافة الاسلامية في الحجاز والعراق، أو من مراكز الثقافة في المشرق إلى أرض الأندلس، وكان لتشجيع الحكام والخلفاء على هذه الرحلات أثر كبير في ظهور هذه الطبقة[١]. وقد أخذت هذه الطبقة من المؤدبين على عاتقها مهمة تدريس اللغة العربية ونحوها وعلوم القرآن لأبنائها في مدن الأندلس ولا سيما قرطبة عاصمة الدولة ومقر العرب من المحاربين والولاة والمتنفذين، ولم يكن يقتصر علم هؤلاء على تأديب أولاد الخاصة بل قام المؤدبون في الأندلس بتعليم أبناء الخاصة والعامة، فمنهم من كان يؤدب أولاد الخاصة في القصور وبلاط الدولة، ومن هؤلاء المؤدبين عثمان بن سعيد المعروف بِوَرْش قارئ مصر المشهور استأديه الأمير الحكم بن هشام لبنيه، وصالح بن معافى الذي كان يؤدب عند بني فطيس، وطاهر الذي كان يؤدب بني هشام وبني جدير، ومحمد بن محمد بن ارقم الذي كان يؤدب أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر[٢]، ومنهم من كان مؤدّبًا لأولاد العامة في المساجد. وكانت مهمة هؤلاء تعليم القرآن وقراءاته وعلومه، ثم تطور إلى الاهتمام بلغته وتلاوته

---

(١) ينظر الحركة اللغوية في الاندلس ٤٧ وما بعدها.

(٢) طبقات النحويين واللغويين ٢٩٣ و ٢٩٩ و ٣٠٦ وتنظر ٢١٧، والحركة اللغوية في الاندلس ٤٨.

وأصبح اهتمام المتأخرين منهم بالدراسات اللغوية أكثر وضوحاً من السابقين حيث بدأ عدد منهم يرحلون إلى مراكز الثقافة القرآنية واللغوية في الحجاز والبصرة والكوفة ودمشق فيسمعون القرآن وقراءاته ويسجلون أصول هذه القراءات وما يحدث فيها من مد أو ادغام أو همز أو تليين أو تفخيم أوامالة أو اعلال أو ابدال أو نحوها مع ما جدّ من دراسات لغوية ونحوية متفرقة يحملونها معهم عائدين إلى الأندلس ويعلمونها تلاميذهم، ولهذا فقد كان منهم من عني بالتأليف في القراءات والتفسير مثل أبي موسى الهواري الذي كان من أهل الفقه والدين وأول من جمع الفقه في الدين وعلم العرب بالأندلس رحل في أول خلافة عبد الرحمن بن معاوية (١٣٨- ١٧٢ هـ) إلى المدينة فلقي مالكًا ونظراءه الأئمة ولقي الاصمعي وأبا زيد الانصاري وداخلَ الأعراب في محالها، واستصحب معه عند عودته ما حصل عليه من الكتب وما دوّنه من مدونات سجل فيها سماعه عمن لقيهم في هذه البلدان، ذهبت منه لعطبٍ اصابها، إلا انه استطاع أن يؤلف كتاباً في القراءات وآخر في علم التفسير. أما ما سمعه عن الاعراب الذين لقيهم وعن الاصمعي وابي زيد من مسائل لغوية فلم يؤلف فيها ولا ترك أثرًا يدل على ما أخذه وسمعه ودوّنه[1]. وكان الغازي بن قيس المتوفى (سنة ١٩٩ هـ) من المؤدبين بقرطبة ايام دخول عبدالرحمن بن معاوية الاندلس، ومن الذين رحلوا إلى المشرق، شهد تأليف الامام مالك للموطأ وادرك نافع بن أبي نعيم وأخذ عنه قراءته وكان أول من أدخلها الاندلس. وأدرك في البصرة الاصمعي ونظراءه وعاد إلى الأندلس وعمل على تأديب أولاد هشام والحكم وكان هذان العالمان أول من رحل إلى المشرق من المؤدبين الاندلسيين.

أوائل النحاة:

كان أول نحوي عرفته الاندلس بالمعنى الدقيق لكلمة نحوي **جودي بن عثمان المتوفى سنة ١٩٨ هـ**، وقد رحل إلى المشرق كسابقيه ولقي الكسائي وتلميذه الفراء شيخي المدرسة النحوية الكوفية، فكان أول من أدخل كتاب الكسائي إلى الاندلس، وترك مؤلفًا في النحو من الواضح أن يكون صدى لما أخذه عن الكسائي والفراء، وفي زمانه عرفت الاندلس نقداً نحويًا للشعر واهتمامًا بتقويم ما خرج على الأقيسة منه وبدت ظاهرة تخطئة القراء، وفي حلقته أُنكر على الشاعر عباس ابن ناصح قوله:

يشهد بالاخلاص نوتيها ... لله فيها وهو نصراني

ولُحِّنَ لأنه لم يشدد «ياء النسب» في «نصراني»، فلما وصل خبر هذا إلى الشاعر ارسل

---

(١) طبقات النحويين واللغويين ٢٧٤- ٢٧٦.

إليهم قائلاً: فهلا سمعتم بيت عمران بن حطان:

يوماً يمانٍ إذا لاقيت ذا يمنٍ وإن لقيت مَعَديًا فعدناني[1]

هذه الرواية وغيرها تدل على اهتمام نحاة الاندلس بما سمعوه من قواعد ومحاولة تطبيقه على ما ظهر في بلدهم من مخالفات، فإذا نُبِّهوا إلى وجود مثلها في الشعر القديم سكتوا عنها.

واشتهر من تلاميذ جودي، **أبو حرش عبدالله بن رافع** مولى رسول الله (ﷺ)، وكان عالمًا باللغة والعربية اخذها عن جودي، وضرب به المثل في فصاحته فقيل فيمن استفصحوه «ما هذا الا أبو حرش»، وأصبح من هولاء العلماء في العربية واللغة من يرحل اليهم الناس يستفتونهم في مسائل اللغة والنحو منهم «**خصيب الكلبي**» الذي كان الخليفة يبعث اليه يستفتيه في الكلمة من اللغة أو المسألة من العربية، وترك مصنفًا في اللغة شُبِّهَ بمصنف أبي عبيد[2]. واشتهر بعدهم عدد من النحاة واللغويين منهم **عبد الله بن الغازي (٢٣٠ هـ)** و **هرون بن أبي غزالة السبائي**، و **عبد الملك بن حبيب السلمي (-٢٣٨ هـ)** الذي تميز من بينهم بأنه قد جمع إلى اللغة والاعراب والتصرف في فنون الأدب علم الفقه الحديث، وصنف كتابًا في اعراب القرآن وآخر في شرح الحديث[3].

وتتابع على الظهور في الاندلس عدد من اللغويين والنحاة الذين لم يتركوا أثرًا مهمًا في النحو منهم: **عباس بن ناصح الجزيري، وحرش بن أبي حرش وأحمد بن نعيم، وأحمد بن بتري** الذي كان فقيهًا ونحويًا ولغويًا، **وجابر بن غيث (-٢٩٩ هـ)** وأخوه **عبد الرحمن بن غيث، ومحمد بن عبدالله الغازي**[4]» واشتهر منهم **محمد بن عبد السلام الخشني (-٢٨٦ هـ)** الذي رحل وحج ودخل البصرة وسمع الحديث ولقي أبا حاتم السجستاني، **والعباس بن الفرج والرياشي، والزيادي** الذي دخل بغداد وسمع بها من غير واحد[5]. وصحب مجيء عبد الرحمن الناصر (٣٠٠- ٣٥٠ هـ) إلى الاندلس وازدهار الثقافة فيها تبعًا لازدهار الحضارة وظهور عدد من النحاة المشهورين كان منهم من الف في النحو في هذه الفترة الزمنية **كأبي بكر بن خاطب المكفوف** الذي صنف تأليفًا في النحو، **وأبي الحسن مفرج بن مالك** النحوي الشهير بـ «**البغل**»

---

(١) طبقات النحويين واللغويين ٢٧٨- ٢٧٩.

(٢) طبقات النحويين واللغويين ٢٨١.

(٣) طبقات النحويين واللغويين ٢٧١- ٢٨٢- ٢٨٣ وينظر بغية الوعاة ٢/ ٥١ و ٣٢٠.

(٤) تنظر أخبارهم في طبقات الزبيدي ٢٨٤- ٢٨٦ و ٢٨٧ و ٢٨٩- ٢٩٠.

(٥) طبقات النحويين واللغويين ٢٩٠ وبغية الوعاة ١/ ١٦٠.

وله كتاب في شرح كتاب الكسائي[1].

ويتضح مما جاء في اخبار هؤلاء المؤدبين والنحاة الاندلسيين انهم كانوا يعنون بالنحو الكوفي الذي كان أول من حمله اليهم إلى الاندلس **جودي بن عثمان** الذي رحل إلى المشرق ولقي الكسائي والفراء، وان كتب هذين الشيخين كانت موضع اهتمام نحاة هذه المرحلة فدرسوها وشرحوها والفوا في نحوها، ويبدو أن هؤلاء النحاة كانوا يرحلون إلى بغداد عاصمة الدولة العباسية في العراق ويلتقون بنحاتها الذين كانوا من الكوفيين، ولهذا انتشر هذا النحو في ذلك العهد بالاندلس. وتبدأ بعد هذا مرحلة جديدة ظهر فيها كتاب سيبويه في مجالس الدرس النحوي في الاندلس، وكان **محمد بن موسى بن هاشم المشهور بـ «الأفشنيق»** قد رحل إلى المشرق فلقي أبا جعفر الدينوري وانتسخ كتاب سيبويه من نسخته وأخذه منه رواية وأخذه الدينوري عن المازني، وروى الافشنيق عن الدينوري كتب ابن قتيبة بمصر وتوفي سنة (٣٠٧ هـ)[2] واشتهر بعده **أبو الحكم المنذر بن عبد الرحمن ابن الامام عبد الرحمن بن معاوية** الشهير بـ «**المذاكرة**» كان مهتمًا بالنحو ومسائله، وكان إذا لقي أحداً من أصحابه قال له: هل لك في مذاكرة باب من النحو؟ فلهج بهذه العبارة وأكثر منها حتى لقب بها. روى الزبيدي في علمه باللغة وحفظه لها وتوسعه فيها وفي مسائل التصريف ومناظرته فيها علماء عصره[3] بعض الروايات التي تدل على ما بلغه علم العربية بفروعه من اشتهار، وتظهر اهتمام العلماء به، وقد ظهرت بعد الافشنيق مجموعة من النحاة وجهوا اهتمامهم إلى كتاب سيبويه فدرسوه واهتموا بالنظر فيه، ومن أشهرهم **أبو وهب عبد الوهاب بن محمد بن عبد الرؤوف** الذي حذق كتاب سيبويه ومسائله وكان يسأل أصحابه في مسائل من عويص النحو عندما كان وزيراً فاستعفوه لبرمهم به. **وأحمد بن يوسف بن حجاج** الذي كان اعلم الناس بالنحو وأحفظهم لمسائله، وكان كتاب سيبويه بين يديه لا يني عن مطالعته في حال فراغه وشغله وصحته وسقمه، توفي سنة ٣٣٦ هـ.[4] وظلت العناية بكتاب سيبويه مستمرة وبلغت العناية به اقصاها عند **أبي عبد الله محمد ابن يحيى بن عبد السلام الازدي الرياحي** الذي «كان حاذقًا بعلم العربية دقيق النظر فيها، لطيف المسلك في معانيها، غاية في الابداع والاستنباط، ولم يكن ظاهره ينبئ عن كثير علم، فإذا نوقش ونوظر لم يصطلَ بناره ولم يشق آخر

(١) ينظر طبقات النحويين واللغويين ٢٩٧.

(٢) طبقات النحويين واللغويين ٣٠٥.

(٣) ينظر طبقات النحويين واللغويين ٣١٠ و ٣١١.

(٤) طبقات النحويين واللغويين ٣٢١- ٣٢٢ و ٣٢٤.

غباره»[1]. رحل إلى الشرق فلقي أبا جعفر النحاس أكبر نحاة مصر في زمانه ومن المهتمين بكتاب سيبويه الذي كان محور الدرس النحوي في مصر. فحمل الرياحي عنه هذا الكتاب رواية، ولازم عَلاَّنَ وناظره وكان دقيق النظر جيد القياس. حمل الرياحي الكتاب وعاد إلى قرطبة ولزم التأديب بنحو البصرة المتمثل بكتاب سيبويه في داره، فتوارد الناس اليه، ثم انتقل إلى أحد الحديريين فمكث عنده مدة، وقرئ عليه كتاب سيبويه وأخذ عنه رواية، وعقد مجلساً كل جمعة للمناظرة في أصوله ومسائله، ولم يكن عند مؤدبي العربية ولا عند غيرهم ممن عني بالنحو كبير علم حتى ورد عليهم محمد بن يحيى الرياحي، وذلك ان المؤدبين انما كانوا يعانون اقامة الصناعة في تلقين تلاميذهم العوامل وما شاكلها، وتقريب المعاني لهم في ذلك، ولم يأخذوا انفسهم بعلم دقائق العربية وغوامضها والاعتلال لمسائلها، ثم كانوا لا ينظرون في امالة ولا ادغام ولا تصريف ولا ابنية، ولا يجيبون في شيء منها حتى نهج لهم الرياحي سبيل النظر، واعلمهم بما عليه أهل هذا الشأن في المشرق من استقصاء الفن بوجوهه واستيفائه على حدوده، وانهم بذلك استحقوا اسم الرياسة، وتوفي الرياحي سنة ٣٥٨ هـ[2] بعد أن عرَّف الاندلسيين بنحو البصريين وبما بلغه من التعمق في مسائل النحو والتصريف والأصوات وغيرها من الدراسات، وبيّن لهم كيف ينظرون فيه ويستفيدون منه فخدم بذلك الكتاب ومؤلفه ومدرسته النحوية الاصلية وأشاعه هو وتلاميذه من بعده في مجالس الدرس النحوي، بعد أن كان الدرس في الأندلس يسير على مناهج الدرس الكوفي الذي كان يهتم بالرواية والعوامل وحفظها وتقريب المعاني للطلبة ويعتمد على الرواية والاهتمام بها وتوسيعها، فبعث الرياحي ونحوه البصري ومن قبله الافشنيق حامل كتاب سيبويه عن الدينوري، الحياة والنشاط في الدرس النحوي وأوجدا روحاً جديدة مبنية على تعليم الاندلسيين التعمق في فهم الظواهر ومناقشتها وايراد الفصيح الوارد فيها وتعليل هذه الظواهر واستنباط الحكم منها وبناء الأقيسة عليها، فحببا اليهم النحو ودفعاهم إلى الاهتمام بهذا العلم العربي الاصيل. وخلف الرياحي في العناية بكتاب سيبويه في الاندلس خلق كثير تتابعوا على تثبيت أركانه بين الدارسين الاندلسيين كان من أشهرهم **أبو علي اسماعيل ابن القالي البغدادي (-٣٥٦ هـ)**، دخل الأندلس سنة ٣٣٠ هـ حاملاً كتاب سيبويه الذي قرأه على ابن درستويه، وناظره فيه واستفسره عن مسائله ودقق النظر فيه وكتب عنه تفسيره وعلل العلة وأقام عليها الحجة، وأظهر فضل مذهب البصريين

---

(١) طبقات النحويين واللغويين ٣٣٥- ٣٣٦.

(٢) طبقات النحويين واللغويين ٣٣٥- ٢٤٠ و ١٠٠، بغية الوعاة ١/ ٢٦٢ وانباه الرواة ٣/ ٢٢٩- ٢٣٠.

على مذهب الكوفيين، ونصر مذهب سيبويه على من خالفه من البصريين أيضًا، وأقام الحجة له، فكان عمله في نشر كتاب سيبويه ونحو البصريين في الاندلس مكمِّلاً لعمل الرياحي فقاد فيها نهضة لغوية نحوية خصبة كان معوَّله فيها بعد كتاب سيبويه ذخائر اللغة والشعر والنحو التي حملها من المشرق معه. وقد أخذ عن القالي نفسه **أبو جعفر أحمد بن محمد بن درستويه**، قرأ عليه تعليمًا ورواية الكتاب اجمع.[1] وظهر بعد القالي والرياحي جيل من تلاميذهما انصرف إلى النحو البصري وانكب على كتاب سيبويه وغيره من كتب البصريين والكوفيين درسًا وتدريسًا كان من أبرزهم تلميذ القالي **محمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف بابن القوطية المتوفى سنة ٣٦٧ هـ** وهو امام في العربية واللغة، كان حافظًا لهما مقدمًا فيهما واشتهر من مصنفاته «تصريف الأفعال» وصنف «المقصور والممدود» و «شرح رسالة أدب الكتاب». **ومحمد بن الحسن الزبيدي المتوفى ٣٧٩ هـ**، صاحب طبقات النحويين واللغويين الذي كان جل اعتمادنا عليه في اخبار اوائل النحاة الاندلسيين، وله في النحو كتاب «الواضح»[2] **وأبو عبد الله محمد بن عاصم العاصمي المتوفى سنة ٣٨٢ هـ**، تلميذ الرياحي وحامل روايته لكتاب سيبويه وكان لا يقل عن أصحاب المبرد بصرًا بالعربية ودقائقها الخفية. **وأحمد بن ابان المتوفى ٣٨٢ هـ** وله شرحان على كتابي الكسائي والاخفش، وله كتاب «العالم والمتعلم في النحو»[3]. ويبدو من هذا ان النحاة الاندلسيين مع انصراف معظمهم إلى النحو البصري وكتاب سيبويه درسًا وتدريسًا وشرحًا وتعليقًا لا يزال بينهم من يعنى بالنحو الكوفي ويهتم بكتب شيوخه. واستمر الحال على هذا في العناية بالنحوين معًا مع ميل إلى النحو البصري الذي تمثل عند **هرون بن موسى القرطبي (-٤٠١ هـ)** الذي ألّف «تفسير عيون كتاب سيبويه» وابن الاقليلي (-٤٤١ هـ) الذي تصدر بقرطبة لاقراء كتاب سيبويه.[4] وجاء بعدهما من قيل فيه انه لم يكن في زمانه أعلم منه بالنحو واللغة.. هو **الامام ابن سيده الضرير (-٤٤٨ هـ)** الذي اهتم في معجمه «المخصص» بمسائل النحو والصرف حتى اصطبغ الكتاب بهما، وقد عُدّ ابن سيده بما خلطه في مؤلفاته من علم البصريين والكوفيين بداية اتجاه الاندلسيين إلى النحو البغدادي إلى جانب النحوين البصري والكوفي، وسار النحاة الذين جاءوا بعدهم على العناية بالمذاهب الثلاثة وأصبح النحو خليطًا منها. وان كان البغدادي في الاصل أيضًا

(١) طبقات النحويين ١٣٢ و ٢٠٢- ٢٠٤ وانباه الرواة ١/ ٢٠٤- ٢٠٩.

(٢) بغية الوعاة ١/ ١٩٨، وانباه الرواة ٣/ ١٨٧ و ٣/ ١٩٧.

(٣) انباه الرواة ٣/ ١٩٧ و ١/ ٣٠ وبغية الوعاة ١/ ١٢٣ و ٢٩١.

(٤) انباه الرواة ٣/ ٣٦٢ و ١/ ١٨٣.

خليطًا من النحوين البصري والكوفي مع آراء جديدة. ومع ان النحاة اخذوا يعنون بهذه المذاهب الثلاثة ويمزجون بينها فان عناية النحويين الاندلسيين ظلت لا تتخطى كتاب سيبويه، وظل الاندلسيون يتوافرون على الكتاب حتى اشتهر امره في البيئة الاندلسية واشتهر في العالم العربي انه لا توجد بيئة عربية أخرى بلغت في العناية بالكتاب وتحرير نصه وكشف غوامضه ما بلغته بيئة الأندلس مما دفع بالزمخشري (-٥٢٨ هـ) إلى أن يرحل في شبيبته من خوارزم إلى مكة لقراءته على نحوي اندلسي كان مجاوراً بها هو **عبد الله بن طلحة المتوفى ٥١٨ هـ** وفي هذه الفترة ظهر نحوي اندلسي اشتهر بدعوته إلى التجديد في النحو ووقف في وجه النحو المشرقي راداً عليه منهجه في الدرس والأصول التي اتبعها فيه، ذلك النحوي الاندلسي هو **ابن مضاء القرطبي**.

ابن مضاء

حياته:

هو أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن مضاء القرطبي المتوفى ٥٩٢ هـ من أهل «قرطبة» واليها ينسب، كان منقطعًا إلى العلم والعلماء معنيًا أشد العناية بلقاء علماء عصره ومن أجل ذلك نراه يترك «قرطبة» إلى «اشبيلية» حيث يدرس كتاب سيبويه على ابن الرماك، وكما هاجر إلى «اشبيلية» في طلب النحو هاجر إلى «سبتة» في طلب الحديث حيث القاضي عياض أكبر محدثي المغرب وفقهائه في عصره، وما زال يعني بالحديث حتى صار عالمًا بالرواية وكان مقرئًا مجدداً ومحدثًا مكثر السماع عارفًا بالأصول والكلام والطب والحساب والهندسة، ثاقب الذهن متوقد الذكاء، وكان يميل إلى دعوة الموحدين ويذهب مذهبهم فاسندوا اليه منصب القضاء في بعض بلدانهم في «فاس» و «بجاية»[1].

أما دعوة الموحدين هذه التي كان ابن مضاء يميل اليها فهي الدعوة إلى الأخذ بمذهب «الظاهر» في الفقه، وهو مذهب كان أول من نادى به داود بن علي ابن خلف البغدادي مقامًا الاصبهاني أصلاً المولود سنة ٢٠٠ هـ، وقد تخرج داود على تلاميذ الشافعي وكان معجبًا به وبمذهبه أشد الاعجاب ثم لم يلبث ان خرج عنه وقال ان المصادر الشرعية هي النصوص وحدها،

---

(١) ينظر بغية الوعاة ١/ ٩٢٣ ١/ ٩٢٣ ومقدمة الرد على النحاة ٣ وما بعدها، وكتاب ابن حزم ٥٣٢.

ولا علم في الاسلام الا في النص، وأبطل القياس ولم يأخذ به، فقيل له: كيف تبطل القياس وقد أخذ به الشافعي؟ فقال: اخذت أدلة الشافعي في ابطال الاستحسان فوجدتها تبطل القياس. وبذلك اتجه هذا العالم إلى علم السنة وكان باجماع العلماء أول من أوجد القول بالظاهر، قال الخطيب البغدادي: «انه أول من أظهر انتحال الظاهر ونفى القياس في الاحكام قولاً، واضطر اليه فعلاً، فسماه دليلاً»[1] استقر المذهب الظاهري الذي جاء به داود وكان له انصار ومؤيدون وانتشر في بلاد المشرق في القرنين الثالث والرابع حتى عد رابع مذهب بعد أن فاق مذهب ابن حنبل في الانتشار، إلا أن حملة العلماء اشتدت عليه في القرن الخامس الهجري فاضعفته وجاء ابن ابي يعلى المتوفى ٤٥٨ هـ فجعل للمذهب الحنفي مكانة زحزحت المذهب الظاهري، وحل محله.[2] وفي الوقت الذي خبا فيه ضوء المذهب الظاهري في المشرق كان يحيا حياة قوية في الاندلس على يدي ابن حزم الاندلسي الذي جعل من الظاهرية مذهبًا له اصوله، وكان مذهبه فيه يقوم على الأخذ بظاهر النصوص، وكان دستوره الذي لا يحيد عنه ما عبر عنه بقوله:

لا أنثني نحو آراء أقول بها   في الدين بل حسبيَ القرآنُ والسُّنَنُ[3]

وقد ابطل ابن حزم القياس والقول بالعلل في جميع احكام الدين يقول: «وقد ذهب اصحاب الظاهر إلى القول بابطال القياس في الدين جملة وقالوا: لا يجوز الحكم البتة في شيء من الاشياء كلها إلاّ بكلام اللّه تعالى أو نص كلام النبي (ﷺ) أو بما صح عنه (ﷺ) من فعل أو إقرار أو إجماع من جميع علماء الأمة كلها متيقن انه قاله كل واحد منهم دون مخالف من احد منهم، أو بدليل من النص أو من الاجماع المذكور الذي لا يحتمل إلا وجهًا واحدًا». وأبطل التعليل وقال فيه: «فصح انه لا يحل تعليل في الدين، ولا القول بأن هذا سبب الحكم إلاّ أن يأتي به نص فقط» و «انه لا يحل التعليل في شيء من الدين ولا أن يقول القائل: لم حرم هذا وأحل هذا؟»[4]. ولقي ابن حزم الأذى في سبيل مذهبه هذا واحرقت كتبه ونفي وسجن وشرد،[5] ولكن هذا المذهب لم يَمُت، فقد ازدهر في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجري وعمّم العمل به في شمالي افريقية

---

(١) تاريخ بغداد ٨/ ٣٨٤.

(٢) ابن حزم ٢٦٧.

(٣) الأحكام في أصول الأحكام ١/ ٧١ ونظرات في اللغة عند ابن حزم ٢٢.

(٤) الأحكام في أصول الأحكام ٧/ ٥٥ و٨/ ٩٢ و ١١٤.

(٥) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ٢٧٨ و ٢٧٩.

وبلاد الاندلس كلها يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ابن عليّ الذي تولى الحكم من سنة ٥٨٠ إلى ٥٩٥ هـ وسار على ذلك مَنْ بعدَه. وقد اثرت هذه الدعوة في بعض علماء عصر يعقوب بن يوسف في الأندلس وبدا المذهب الظاهري واضحًا في آثارهم. وقد تأثر بهذه الدعوة ابن مضاء القرطبي هذا النحوي الأندلسي الذي نتحدث عنه فذهب مذهبَهم الفقهي وحمل حملتَهم على المذاهب الفقهية المالكية والحنفية والشافعية والحنبلية، لما ملأوا به كتبهم من فروع، ووقف موقف الموحدين الذين كانوا يحملون الناس في دولتهم بالمغرب والأندلس على اعتناق المذهب الظاهري، ولهذا وجدنا يوسف بن عبد المؤمن يجعله قاضي قضاة الجماعة في الدولة كلها وظل في هذا المنصب حتى توفي في زمن ابنه يعقوب بن يوسف. لقد استلهم ابن مضاء روح هذه الثورة الظاهرية على الفقه والفقهاء وحاول تطبيقها على النحو والنحاة بعد أن وجد كتب النحو تكبر وتتضخم ومادة النحو تتسع وتتفرع بما أدخله فيها النحاة المتأخرون، ولا سيما الاندلسيون من أقيسة وتعديلات وتقديرات وتأويلات قد تكون في بعض الأحيان بعيدة جداً لا يتحملها ظاهر النص، وبما أحدث فيه من مسائل خلافية كثرت فيها الفروع والشعب والأقوال والآراء والاستنتاجات والبراهين التي لم يكن بها كبير نفع للنحو ولا للدارسين أو المتكلمين، ولهذا اعتنى بتأليف ثلاثة كتب هي: «المشرق في النحو» و «تنزيه القرآن عما لا يليق بالبيان» و «الرد على النحاة» وهذا هو الكتاب الوحيد الذي بين ايدينا منها.

دعوته:

دعا ابن مضاء في «الرد على النحاة» إلى هدم الكثير من الأسس التي استقر عليها النحو المشرقي، وكان رده موجهًا إلى النحو البصري بخاصة وان كانت دعوته تعم مذاهب المشارقة في النحو. وقد تبينت ثورته عليه منذ الصفحات الأولى من الكتاب في قوله: «فانه حملني على هذا الكتاب قول الرسول (ﷺ) «الدين النصيحة» وقوله: «من قال في كتاب الله برأيه فأصاب فقد أخطأ» وقوله: «من قال في كتاب الله بغير علم فليتبوأ مقعده من النار» وقوله: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطيع فبلسانه، فإن لم يستطيع فبقلبه».[1] ويبين كيف أفسد النحويون النحو بعد أن كان غرضهم في وضعه غير ما انتهوا اليه فيه فيقول: «واني رأيت النحويين- رحمة الله عليهم- قد وضعوا صناعة النحو لحفظ كلام العرب من اللحن وصيانته عن التغيير، فبلغوا من ذلك

(١) الرد على النحاة ٨٠ ٨١ وينظر ٨١- ٨٣.

الغاية التي أمّوا، وانتهوا إلى المطلوب الذي ابتغَوا إلا أنهم التزموا ما لا يلزمهم وتجاوزوا به القدر الكافي فيما أرادوه منها فتوعرت مسالكها ووهنت مبانيها وانحطت عن رتبة الاقناع حججها... على أنها إذا أُخذَت المأخذ المبرأ من الفضول المجرد عن المحاكاة والتخييل كانت من أوضح العلوم برهانًا وأرجح المعارف عند الامتحان ميزانًا، ولم تشتمل إلا على يقين أو ما يقاربه من الظنون».[1] وكانت حملته موجهة إلى نحويي العراق بوجه خاص كما صرح بذلك.[2] وإلى النحو المشرقي عامة كما يتبين في رده قول الكوفيين في باب «التنازع». وذلك لأن النحو المشرقي هو الأساس الذي دخل الأندلس وبنى عليه نحاة هذا البلد دراساتهم النحوية، وهم وغيرهم من المتأخرين هم الذين أوصلوا النحو إلى ما وصل اليه وفرّعوا بحوثه وشعّبوا موضوعاته حتى أفسدوه وأخلّوا به. أما المسائل التي ردها ابن مضاء على النحو المشرقي فهي:

١- **الغاء نظرية العامل:** فقد وضع النحاة الأوائل جميعًا بصريين كانوا أم كوفيين أصولهم النحوية على القول بالعامل في النحو، وعلقوا كل أحكام الرفع والنصب والخفض والجزم بهذا العامل، وحددوا ما يقع في الكلام من تقديم أو تأخير وما يضبطها من أصول تجوز أو تمنع ثم جعلوا الأساس الذي يبعث على كل هذه الأحكام «العامل النحوي» فثار ابن مضاء ورأى ان النحاة يبالغون في اعطاء العامل قوة التصرف في العبارة العربية، وان العمل في الحقيقة انما هو للمتكلم فهو الذي يرفع أو ينصب أو يخفض بحسب المعاني التي يريدها «وأما العوامل النحوية فلم يقل بعملها عاقل لا الفاظها ولا معانيها لأنها لا تعقل بارادة ولا بطبع»[3]. وأنكر ما تجره نظرية العامل من تقدير عوامل محذوفة في مثل «أزيداً ضربته؟» مما لا يحتاج اليه الكلام. وأكثره منافاة للواقع تقدير عامل محذوف في «يا عبد الله» وتقديرهم اياه بـ «ادعو» يغيّر الكلام عن حقيقته. وتقدير «أن» محذوفة بعد «الواو» و «الفاء» وما ينصب بعده الفعل في مثل «ما تأتينا فتحدثنا» يقدرون المعنى «ما يكون منك اتيان فحديث» وليس هذا التقدير صحيحًا، لأن المعنى المقصود أحد اثنين اما: «ما تأتينا فكيف تحدثنا؟» أي ان الحديث لا يكون إلا مع الاتيان، وإذا لم يكن الاتيان لم يكن الحديث، والوجه الآخر «ما تأتينا محدثًا» أي انك تأتي ولا تحدث»[4]. ومما انكره من تقدير عوامل

---

(١) الرد على النحاة ٨٠- ٨١ وينظر ٨١- ٨٣.

(٢) الرد على النحاة ٨٣- ٨٤.

(٣) الرد على النحاة ٨٧- ٨٨. وينظر ٨٦- ٨٧.

(٤) ينظر الرد على النحاة ٩٠- ٩١ و ٨٨.

محذوفة تقديرهم للجار والمجرور الواقع خبراً أو صفة أو صلة أو حالاً، عاملاً محذوفًا هو «كائن» أو «مستقر» أو «كان» أو «استقر» مما لا يحتاج اليه الكلام. وتقديرهم الضمائر المستترة في اسماء الفاعلين والمفعولين أو أمثلة المبالغة أو الصفات المشبهة الواقعة خبراً في مثل «زيد ضارب عمراً»، حيث يقدرون في «ضارب» ضميراً مستتراً هو الفاعل، وهذا لا حاجة تدعو اليه ومثله تقدير مظنون لا دليل عليه وهو الضمير في «قام» من قولنا «زيد قام» ومعناه مفهوم بلا تقدير، لأن الفعل دل على فاعله ببنائه.[1] ويرى أن «الألف» و «الواو» و «النون» في قولنا: «الزيدان قاما» و «الزيدون قاموا» و «الهندات قمن» انما هي علامات على التثنية والجمع لا فواعل، وشدد حملته على ما جره تقدير النحاة من العوامل المحذوفة من التعقيد ولا سيما في الأفعال المتعدية إلى مفعولين من مثل قولهم: «اعطيت وأعطانيه زيداً درهماً» و «ظننت وظننيه زيداً شاخصاً» و «ظننت وظنناني شاخصًا الزيدين شاخصين» والمتعدية إلى ثلاثة أكثر تعقيداً في مثل: «أعلمت وأعلمنيه زيداً عمراً منطلقًا» و «أعلمت وأعلمانيهما إياهما الزَّيْدَيْنَ العَمْرَيْنِ مُنْطَلِقَيْنِ» و «أعلمت وأعلمونيهم إياهم الزيدِيْنَ العَمْرِيْنَ مُنْطَلِقِيْنَ» فكل هذه الأمثلة لم يقل بها العرب وانما قاسها النحويون على الصورة الواردة عن العرب بأسهل أساليبهم وهي «قام وقعدا الزيدان» عند الكوفيين و «قاما وقعد الزيدان» عند البصريين. ولم يكن التعقيد لكون الفعل متعدياً إلى اثنين أو ثلاثة وقياس النحويين ذلك، وانما زاد في تعقيدها انها في تقديرات الكوفيين الذين يعملون الفعل الأول مع بعده مما يضطرهم إلى تقدير معمولات كاملة لما في الجملة من عوامل هي ضمائر ثم يأتون للأول بمعمولاته الظاهرة، ويجعل البصريون الثاني عاملاً في الظاهر ولا يلجأون إلى تقدير ضمائر في الأول إلا ما احتاج اليه المعنى ومنع الالباس كضمائر الرفع ولذا قال: «ومذهب البصريين اظهر لأنه أسهل، فانه ليس إلاّ حذف ما تكرر في الثاني أو اضماره على مذهبهم ان كان فاعلاً، والتعليق بالأول فيه اضمار كل ما تكرر من متعلقات الأول في الثاني وتأخير المتعلقات بالأول بعد الثاني».[2] وباب «الاشتغال» عند ابن مضاء مما عقد الكلام لأن النحاة تنازعوا في الأوجه الجائزة في المشغول عنه من وجوب الرفع ووجوب النصب وجواز الأمرين ومتى يرجح الرفع مع الجواز وأوردوا العلل لكل وجه مما لا حاجة اليه ولا دافع، وقد حل ابن مضاء هذا الاشكال في حكم الاسم المشغول عنه بأنه يحمل على الضمير الذي

---

(١) ينظر الرد على النحاة ١٠٠- ١٠٥.

(٢) الرد على النحاة ١١٦- ١١٧.

يعود اليه من الفعل المتأخر «فان كان العائد على الاسم المقدم قبل الفعل ضمير رفع فإن الاسم يرتفع به كما ان ضميره في موضع رفع كما في قولنا «أزيدٌ قام؟» وان عاد اليه ضمير نصب كقولنا «أعبدَ اللّه» اكرمته؟ انتصب وان عاد عليه ضميران احدهما مرفوع والآخر منصوب جاز مراعاة أي منهما كما في قولنا: «أعبد اللّه ضرب أخوه غلامَه» مما اتصل بضميره شيئان مرفوع ومنصوب لذلك يجوز في «عبد اللّه» مراعاة «اخوه» وهو الرفع فيرفع وان روعي فيه «غلامَه» المنصوب نصب.[1]

٢- **الغاء المسائل الخلافية النظرية** التي تجري بين النحاة مما لا يفيد نطقاً كخلافهم في أيُّهُما الأصل المصدر أم الفعل؟ وفي علامة رفع المثنى وجمع المذكر السالم والأسماء الستة، وفي الرافع للمبتدأ، والرافع للفعل المضارع، وما إلى هذه الخلافات التي تعقد النحو ولا تفيد المتعلم نطقًا، ومثله خلافهم في ناصب المفعول أبالفعل أم بالفاعل أم بهما؟.

٣- **الغاء الأمثلة غير العملية** من مثل ما رأيناه من أمثلة باب التنازع في الأفعال المتعدية إلى فعلين أو إلى ثلاثة ولا سيما على تقديرات الكوفيين في مثل «اعلمت واعلمانيهما اياهما الزيدَيْنِ العَمْرَينِ مُنْطَلِقَيْنِ» وكذا ما يقع في باب التصريف من نحو قولهم «ابن لي من «البيع» مثال «فُعل» فيقول قائل «بوع» اصله «بيع» فيبدل من «الياء» «الواو» لانضمام ما قبلها لأن النطق بها ثقيل... ومن قال: «بِيع» بالكسر كسر «الباء» لتصح «الياء» كما قال العرب في «بُيْض»: «بِيْض» ويرى أن عبارات التنازع وأمثلة التصريف يحتاج فيها إلى البحث عن علل لكل وجه وترجيح لهذه العلل فتتشابك المسائل ولا تزيد النحو إلا تعقيداً والمتعلم إلا مَلَلاً. ويرى انها تفيد نطقًا، وهي أفضل من الاطالة في مسائل خلافية لا تفيد نطقًا إلا انه لا ينبغي ان ينشغل فيها المتعلم إلا بعد أن يأخذ ما تمس الحاجة اليه. وان كان حذف امثال هذه من صناعة النحو مقويًا لها ومسهلاً.[2]

٤- **الغاء العلل الثواني والثوالث:** تحدث الزجاجي في علل النحو التي استخدمها النحاة في تعليل مسائل النحو والتصريف وغيرها فقسمها إلى ثلاثة أنواع:

أ- العلة التعليمية:

وهي التي يتوصل بها إلى تعلم كلام العرب مثل قولنا «إن زيداً قائم» فإن سئلنا: بم نصبتم

---

(١) الرد على النحاة ١٢١- ١٢٢.

(٢) الرد على النحاة ١٦١ وينظر فيما قبله ١٢٧ و ١٠٩- ١١٣ و ١٥٦- ١٥٩ و ١٤١.

«زيداً»؟ قلنا بـ «إن» لأنها تنصب الاسم وترفع الخبر لانا كذلك علمناه ونعلمه. فهذه علة أولى. فهذا وما أشبهه من نوع التعليم وبه ضبط كلام العرب.

ب- والعلة القياسية:

وهي التي يستفهم عنها بعد معرفة الأولى بأن يسأل بعد ذلك: ولم وجب أن تنصب «إن» الاسم؟ فالجواب في ذلك أن يقال لأنها وأخواتها ضارعت الفعل المتعدي إلى مفعول فحملت عليه فاعملت اعماله لما ضارعته فالمنصوب بها مشبه بالمفعول لفظًا والمرفوع بها مشبه بالفاعل فهي تشبه من الأفعال ما قدم مفعوله على فاعله نحو: «ضرب اخاك محمد».

جـ- والعلة الجدلية النظرية:

وهي كل ما قيل بعد ذلك في باب «إن» مثل: فمن أي جهة شابهت هذه الحروف الافعال؟ وبأي الافعال شبهتموها ....؟[1]

وقد وقف ابن مضاء من أمثال العلتين الثانية والثالثة موقف المنكر ورأى أنه لا يجاب عن السؤال عن أية علة في مثل قولنا: «قام زيد» الا عن العلة الأولى وهي: لم رفع «زيد»؟

وذلك بأن نجيب فنقول: لأنه مرفوع وكل فاعل مرفوع. أما ما يأتي بعدها من مثل ان يقال: ولِمَ رُفِعَ الفاعل؟ فالصواب ان يقال فيه: كذا نطقت به العرب، ثم يقول إنك «لو أجبت السائل فقلت: للفرق بين الفاعل والمفعول، فلم يقنعه وقال: فلم لم تعكس القضية بنصب الفاعل ورفع المفعول؟ قلنا له: لأن الفاعل قليل لأنه لا يكون للفعل إلا فاعل واحد والمفعولات كثيرة فأُعطي الأثقلُ الذي هو الرفع للفاعلَ واعطي الأخفُّ الذي هو النصب للمفعول، لأن الفاعل واحد والمفعولات كثيرة ليقلَّ في كلامهم ما يستثقلون ويكثر في كلامهم ما يستخفون، فلا يزيدنا ذلك علمًا بأن الفاعل مرفوع، ولو جهلنا ذلك لم يضرنا جلهه إذ قد صح عندنا رفع الفاعل الذي هو مطلوبنا باستقراء المتواتر الذي يوقع العلم»[2].

هذه أهم الأمور والمسائل التي تضمنها كتاب «الرد على النحاة» وهي التي كان قد شدد فيها النكير على النحاة للقول بها وبأمثالها من تقدير لعوامل أخرى محذوفة في أبواب كثيرة من النحو جرت إلى التأويل البعيد وتقدير ما لا يحتج اليه الكلام ورأى «أن اضمار ما لا يحتاج الكلام

---

(١) ينظر الايضاح في علل النحو ٦٤- ٦٧.

(٢) الرد على النحاة ١٥١- ١٥٢.

اليه انما هو زيادة في كلام القائلين ما لم يلفظوا به ولا دلنا عليه إلا ادعاء أن كل منصوب فلا بد له من ناصب لفظي، وادعاء الزيادة في كلام المتكلمين من غير دليل عليها خطأ بيّن، ولكنه لا يتعلق بذلك عقاب، وأما طرد ذلك في كتاب اللّه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وادعاء زيادة معانٍ فيه من غير حُجَّةٍ ولا دليل الا القول بأن كل ما يُنصَب انما يُنصَب بناصب، والناصب لا يكون إلا لفظًا يدل على معنيٍ اما منطوقًا به واما محذوفًا مرادًا ومعناه قائم بالنفس فالقول بذلك حرام على من تبين له ذلك... ومن بنى الزيادة في القرآن بلفظ أو معنًى على ظنّ ٍ باطلٍ قد تبين بطلانُه فقد قال في القرآن بغير علم، ومن قال فيه بغير علم فقد تبوأ مقعده من النار كما قال الرسول العظيم (ﷺ)، ومما يدل على أنه حرام، الاجماع على انه لا يزاد في القرآن لفظ غير المجمع على إثباته، وزيادة المعنى كزيادة اللفظ، بل هي أحرى لأن المعاني هي المقصودة والالفاظ دلالات عليها ومن أجلها».[1] ثم يبين للقارئ أنه لم يَقُل بما قال، ولم يرد ما رده على النحاة المشارقة أو ينكر ما انكره بغير علم أو اطلاع فقد اطلع على من رد آراءهم أو وافقها كسيبويه والاخفش والمازني والكسائي وابن جني. فيقول: «قد أتيت في هذا الباب على ما يُحْتاج اليه ويُستغنى به، وزدت توجيه الأقوال والاحتجاج على سيبويه وله. ليعلم القارئ أني قد وقفت على أقوالهم، وعرفت ما أثبتُّ، ولم احتج الى اضمار ما الكلام تام دونه واظهاره على مخالف لغرض القائل، هذا في كلام الناس. فأما في كتاب اللّه فحرام»[2].

والخلاصة ان مقصد ابن مضاء في كل ما ذهب اليه من الغاء هذه الأبواب التي لا تفيد النطق ولا تزيد المتكلم علمًا بكلام العرب انما هو التخفيف عن المتعلمين كي لا يتيهوا في هذه التفريعات والتعليلات والتقديرات والتأويلات التي لا تجوز في كلام الناس ويحرم القول بها في كلام اللّه. والأفضل حمل العبارات الواردة على الظاهر الذي تدل عليه ولا يقدر فيها محذوف ولا مستتر، ويتجنب التكلم في النحو بموضوعات لم ترد عن العرب ولم يتكلموا بها وانما قاسوا قياسًا نظريًا. ومن هنا يبدو تأثره بآراء داود وابن حزم من بعده في الأخذ بظاهر النصوص، وانه لا حكم الا بنص، وفي إلغاء القياس النظري والابتعاد عن تعليل ما لم يرد عن اللّه سبحانه أو عن النبي (ﷺ) القول بعلته أو تبيين سببه.

وقد جاء بعد ابن مضاء نحاة كثيرون منهم من عاش في الأندلس وتعلم فيها وبقي في بلده ولم يهاجر إلى غيره من بلدان المغرب العربي أو المشرق كالعراق ومصر والشام، ومنهم من هاجر

---

(١) الرد على النحاة ٩٢- ٩٣.

(٢) الرد على النحاة ١٤١.

وألقى عصا الترحال في مصر أو دمشق أو جاور بالمدينة بعد تجوالهم في مراكز الثقافة العربية الاسلامية يسمعون ويقرأون ويدرسون. ومن هؤلاء من كان ميله بصريًا خالصًا ومنهم من كان يجمع بين المذهبين أو يختار من المذاهب أو الآراء السابقة ما يراه صحيحًا ومن غير تعصب. وكان من بين هؤلاء النحاة نحوي كان بصري الاتجاه يرى أن آراء البصريين أكثر صحة ومنهجهم أثبت أصولاً وشواهدهم أنقى وأفصح. لكنه مع هذا لا يتعبد باتباع آرائهم وأقوالهم إن رآها مجانبة للصواب أو رأى غيرها أسهل منها أو أوضح، وقد تأثر هذا النحوي بابن مضاء ومنهجه الظاهري في النحو فحاول تطبيقه على أصول النحو، كما طبقه في الآيات والقراءات القرآنية وكان يرى ان حملها على الظاهر هو الأصل وأن كل ما كان لغة للعرب جاز القياس عليه، وما لم يسمع لا يقاس عليه قياساً نظرياً ولا على ما يدخُلُه احتمالُ وجوهٍ متعددةٍ، لأن ما دخله الاحتمال لا يجوز به الاستدلال، وذلك النحوي هو أبو حيان الاندلسي.

أبو حيان

حياته:

هو محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي اثير الدين أبو حيان الاندلسي الجياني النفزي.[1] ولد في «مَطْخَشارِش» وهي ضاحية من ضواحي «غِرناطة» سنة ٦٥٤ هـ. كان مالكيًا في أول امره لانتشار هذا المذهب في الأندلس ثم مال إلى المذهب الظاهري الذي بدا تأثيره واضحًا في تفسيره ونحوه، ثم تحول شافعيًا عندما استقر بمصر ووجد المذهب الشافعي هو المشهور فيها. تلقى أبو حيان أول علومه في مسقط رأسه «غرناطة» على شيوخ عصره وأغلب الظن انه بدأ بدراسة القرآن والحديث وعلوم العربية، وكان أول قراءته سنة ٦٧٠ هـ، تلقى القرآن بقراءة وَرْش شيخ الديار المصرية في الإقراء. ولم يطل المقام بأبي حيان في الاندلس وانما غادرها قاصداً المشرق. واختلف في سبب هجرته هذه على أقوال لن تقدم أو تؤخر في حقيقة تركه بلده ورحيله كما رحل الكثيرون من مواطنيه، عبَر أبو حيان البحر قاصداً بلاداً جديدة ربما لم يكن قد حددها وذهب إلى «فاس» حيث أقام بها ثلاثة أيام وطاف بـ «سبتة» و «بجاية» وتونس وبقي يتنقل في مدن المغرب

---

(١) تنظر ترجمته في: غاية النهاية في طبقات القراء ٢/ ١٨٥ وبغية الوعاة ١/ ٢٨٠- ٢٨٥ والدرر الكامنة ٤/ ٣٠٢ وتذكرة الحفاظ ٤/ ٢٦٥ وشذرات الذهب ٦/ ١٤٦ وابن دقيق العيد ٤١ ونفح الطيب ٤/ ٣٤٥. وأبو حيان النحوي.

وشمالي افريقية واتصل بكثير من علمائها إلا انه لم يجد الراحة في بلاد المغرب فاتجه إلى مصر فدخل الاسكندرية وسمع فيها عن عبد الوهاب بن حسن بن الفرات. وكانت مصر يوم دخلها تحت ظل المماليك البحرية، وقد أصبحت ملجأ العلماء من مختلف أقطار العالم العربي حيث استقر فيها القادمون من بغداد وغيرها من مدن العراق بعد سقوط بغداد بيد المغول سنة ٦٥٦ هـ، والمهاجرون من الأندلس كأبي حيان ومعاصريه وسابقيه هربًا من طغيان المسيحيين بعد سقوط أكثر المدن الأندلسية في أيديهم. وهكذا حَنَتْ مصرُ على هؤلاء العلماء المهاجرين وأفادتهم واستفادت منهم في نشر العلوم التي نقلوها من بلدانهم وتنميتها وتطويرها ولهذا فقد زخرت مصر في هذا العهد بالمدارس فقال ابن بطوطة: «وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها»[1] وشهدت مصر حركة عظيمة في التأليف وأُلِّفت كتب كثيرة في موضوعات شتى.

استقر أبو حيان في هذه البيئة العلمية فكتب وألَّف كثيرًا في الدراسات القرآنية واللغوية والنحوية ولقي حظوة عند سلاطين مصر وأمرائها وحكامها لما يتمتع به من اطلاع واسع في علوم كثيرة فعُيِّن مدرسًا للنحو في جامع الحاكم سنة ٧٠٤ هـ وتولى تدريس التفسير أيضًا. ثم تولى الاقراء في جامع الأقمر وخلف شيخه ابن النحاس في استاذية النحو.[2] تنقل أبو حيان في بلاد عدة فذهب إلى مكة المكرمة ولقي فيها أبا الحسن علي بن صالح الحسيني، وذهب إلى الشام ولا ندري كم لبث فيها، ولا من لقيَ أو ماذا عمل، وذكر ابن قُطْلُوبغا انه ذهب إلى السودان وأكد ذلك المقري فقال عند ذكره سماعَهُ: «وبِعَيْذاب من بلاد السودان»[3]. كان يتصف بالخشوع الشديد وكان يبكي إذا سمع القرآن، وكان عظيم التقدير للطلبة الأذكياء فإذا ما قصَّروا في واجبهم أو لم يكونوا على ما يأمله فيهم استهزأ بهم، فكان يسمي نفسه «أبو حيات» تعريضًا بهم. قيل فيه انه نحوي عصره ولغويه ومفسره ومحدثه ومقرئه ومؤرخه وأديبه وذلك لكونه على جانب عظيم من الثقافة وسعة

---

(١) تحفة النظار ١/ ٢٠ وينظر مقدمة ابن خلدون ٤٢٠.

(٢) ينظر البحر المحيط ١/ ٤ والبداية والنهاية ١٤/ ٣٣ وشذرات الذهب ٦/ ١٢٦ وخطط المقريزي ٢/ ٢٧٨ والوافي بالوفيات ٢/ ٢١٢- ١٥ ترجمة ابن النحاس ونَكْتُ الهِميان في نُكَتِ العُميان ٢٨١.

(٣) ينظر تاج التراجم في طبقات الحنفية ١٣ والتذييل والتكميل في شرح التسهيل ٢- ٤ (مخطوط) و ٦- ٨ (مطبوع) ونفح الطيب ٢/ ٣٣٩ و ٣١٦ وطبقات الشافعية الكبرى ٦/ ٣٢. وأبو حيان النحوي ٤٢- ٤٣ و ٤٤ و ٦٣.

الاطلاع في جميع هذه العلوم، وأما النحو فهو امام الناس كلهم فيه،[1] وذلك لتعمقه فيه واهتمامه بتتبع مسائله لأنه كان يرى انه يجب على ما يريد أن يصنف في علوم العربية ولا سيما علم التفسير لا بد له من «أن يعتكف على كتاب سيبويه، فهو في هذا الفن المعوَّلُ عليه والمستنَد في حل المشكلات اليه». ويصرح بأنه اطلع على علوم جليلة، منها: علم اللغة اسمًا وفعلاً وحرفًا تؤخذ دراسة الحروف من كتب النحاة، أما الأسماء والأفعال فتؤخذ من كتب اللغة، وأكثر الموضوعات كتاب ابن سيده...» ومنها: «معرفة الأحكام التي للكلم من جهة افرادها ومن جهة تركيبها، ويؤخذ ذلك من علم النحو، ويرى أن أحسن موضوع فيه كتاب سيبويه. وقد اخذ هذا العالم من استاذه أبي جعفر بن الزبير في كتاب سيبويه وغيره.[2] ولم تقتصر ثقافته على علوم الدين واللغة والأدب وانما تجاوزتها إلى الاطلاع على كتب المتصوفة وكتب الأديان الأخرى كالتوراة، ونظر في علم الهيئة وكتب الفلسفة والمنطق، واطلع على لغات متعددة قال: «وقد اطلعت على جملة الالسن كلسان الترك ولسان الفرس ولسان الحبش وغيرهم، وصنفت بها كتبًا في لغتها ونحوها وتصريفها واستفدت منها غرائب»[3]، وقارن بين اللغة العربية وهذه اللغات في بعض الظواهر النحوية كالضمائر، وفي التعليل لما يرد في اللغة وقد أورد ذلك في اماكن من «منهج السالك» وكان له فوق كل هذا اهتمام بتتبع لهجات المغاربة[4].

أما شيوخه فكانوا نحو اربعمائة وخمسين شيخاً وأكثر من ألف مجيز، وقد ذكر أبو حيان في إجازته للصفدي مروياته وشيوخه وهم من مختلف أقطار العالم العربي آنذاك،[5] وكانت حصيلة هذه الرحلات المتعددة إلى بلدان المشرق والمغرب وهذا الاتصال الواسع بمن لقيهم من العلماء في مختلف فروع العلم، وهذا الاطلاع الذي لم يَسْبِق أن عرفناه من غيره أن ترك مؤلفات كثيرة جداً في العلوم الدينية والعربية أشهرها في التفسير «البحر المحيط» ومختصره «النهر الماد من البحر» وفي النحو: «التذييل والتكميل في شرح التسهيل» ومختصره «ارتشاف الضرب» و «منهج السالك في

---

(١) ينظر تاريخ أبي الفدا ٤/ ١٤٢ وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٣٣٩ واعيان العصر وأعوان النصر ٢/٧، ونفح الطيب ٣/ ٢٩٥ والبدر الطالع ٤/ ٢٨٨ وشذرات الذهب ٦/ ١٤٦.

(٢) البحر المحيط ٤٨ و ١١– ١٢ و ٣ و ٦ وينظر أبو حيان النحو ٦٣– ٦٤.

(٣) منهج السالك ٢٣١.

(٤) نفح الطيب ٣/ ٢٩٥.

(٥) ينظر اعيان العصر جـ ٧ والمنهل الصافي ٣/ ٣٢٣ وما بعدها ونفح الطيب ٣/ ٣٠٣، وأبو حيان النحوي ٧٢ و ٦٩– ٧٢.

الكلام على الفية ابن مالك» وعدد من الشروح لكتب ابن عصفور وابن مالك، وكتب تعليمية صغيرة في النحو وفي القراءات ولغات القرس والترك والحبش، وكتب في التراجم والتاريخ[1].

نحوه:

أبو حيان بصري النزعة في النحو يذهب مذهب سيبويه في معظم المسائل التي كان لسيبويه رأي فيها ويغترف من معينه، وينهج منهج البصريين عامّة ان لم يكن الرأي خاصًا بسيبويه، وكان يُكبِرُهم ويرى آراءهم هي الراجحة في كثير من الاحيان، ويكتفي في الدلالة علي ترجيحه مذهبهم بأن يقول: «وذلك لا يجوز عند البصريين» و «هذا هو الراجح»، وان رد على مخالفيهم قال: «وهذه نزعة كوفية»، وقد جاء ذلك في رده على الزمخشري تجويزه مجيء «ذلك» بمعنى «الذي» في قوله تعالى: «ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم» قال: وأجاز الزمخشري أن يكون «ذلك» بمعنى «الذي» و «نتلوه» صلته و «من الآيات» خبر. وقال الزجاج قبله وهذه نزعة كوفية، يجيزون في اسماء الاشارة أن تكون موصولة، ولا يجوز ذلك عند البصريين الا في «ذا» وحدها إذا سبقها «ما» الاستفهامية باتفاق، أو «مَنْ» باختلاف»[2]. أو يتعجب من مخالفة مذهب البصريين، فيقول رادًّا على ابن عطية: «وقال أبو محمد بن عطية: النصب بـ «واو الصرف» ليس من مذاهب البصريين، ومعنى «واو الصرف» أن الفعل كان يستحق معها من الاعراب غير النصب فيصرف بدخول «الواو» عليه عن ذلك الاعراب إلى النصب كقوله تعالى: «ويعلمَ الذين يجادلون» في قراءة من نصب، وكذلك «ويعلمَ الصابرين» قياس الأول الرفع، وقياس الثاني الجزم، فصرفت «الواو» الفعل إلى النصب فسمِّيَت «واو الصرف» وهذا عند البصريين منصوب باضمار «أن» بعد «الواو»، والعجب من ابن عطية أنه ذكر هذا الوجه أولاً وثنى بقول المهدوي، ثم قال: «والأول أحسن» وكيف يكون أحسن وهو شيء لا يقول به البصريون وفساده مذكور في علم النحو؟»[3]. ويعبر عن متابعته لهم بمثل قوله متحدثًا عن زيادة «مِنْ» في الموجب: «ولان المفعول به لا تدخل عليه «مِن» الزائدة الا بشرط أن يتقدمه غير موجب، وان يكون ما دخلت عليه نكرة، وهذا على الجادة من مشهور مذهب البصريين». وقوله في تفسير قوله تعالى: «ان كنتم مؤمنين»: قال ابن عطية: «ان كنتم» شرط والجواب متقدم ولا يتمشى قولهم هذا إلا على مذهب من يجيز تقدم جواب الشرط وليس مذهب البصريين الا أبا زيد

---

(١) تنظر حياته وشيوخه ومؤلفاته في كتاب «أبو حيان النحوي».

(٢) آل عمران ٥٨ والبحر المحيط ٢/ ٤٧٦.

(٣) الشورى ٣٥ وآل عمران ١٤٢ والبحر المحيط ١/ ١٤٣ وينظر في مقاربه الارتشاف ١٥٨.

الانصاري»[1]. أما متابعته لآرائهم فواضحة وكثيرة من ذلك قوله في تفسير الآية الكريمة: «فما لكم في المنافقين فئتين»: «وانتصب «فئتين» على الحال عند البصريين من ضمير الخطاب في «لكم». وذهب الكوفيون إلى أنه منصوب على اضمار «كان» أي «كنتم فئتين» ويجيزون: «مالك الشاتمَ؟» أي: «كنت الشاتم» وهذا عند البصريين لا يجوز لأنه عندهم حال»[2]. وليس معنى متابعته البصريين انه كان يقلدهم تقليداً أعمى، أو يتابعهم من غير ان يعلم وجه الصواب، فقد كان أبو حيان يوازن ويرجح ما يراه صحيحًا من الآراء وكان يقول إذا لم يصح عنده رأي البصريين: «وليس العلم محصوراً ولا مقصوراً على ما نقله البصريون، فلا ننظر إلى قولهم: ان هذا لا يجوز»[3].

ويرى انه ليس متعبداً باتباع مذهب البصريين، قال في قوله تعالى: «وكفر به والمسجدِ الحرامِ» «وقد خبط المعربون في عطف «المسجد الحرام»، والذي نختاره انه عطف على الضمير المجرور ولم يُعَدْ جارُّه، وقد ثبت ذلك في لسان العرب نثراً ونظماً باختلاف حروف العطف، وان كان ليس مذهب جمهور البصريين، بل أجاز ذلك الكوفيون ويونس والاخفش والاستاذ أبو علي الشلوبين، ولسنا متعبدين باتباع مذهب جمهور البصريين بل نتبع الدليل»[4]. أما كتاب سيبويه فهو «أجلُّ كتب النحو» و «ان المعوَّل عليه والمستنَد في حل المشكلات اليه». وأما صاحبه فليس هناك أعظم منه منزلة عند أبي حيان فقد كان إجلاله اياه فوق كل وصف حتى انه خاصم أعزّ الناس عليه وأقواهم صلةً به وهو ابن تيميَّةَ لأنه قال في سيبويه: «يكذب سيبويه» أو «ما كان سيبويه نبيَّ النحو ولا معصومًا من الخطأ بل أخطأ في الكتاب في ثمانين موضعًا أما تفهمها أنت؟ فقاطعه أبو حيان منذ ذلك اليوم».[5] وهو يفضل آراءه في معظم أبواب كتبه.[6] وكان موقفه من الكوفيين وآرائهم

---

(١) البقرة ٩١ و ٩٣ و ٢٧٨ وغيرها كثير. والبحر المحيط ١/ ٢٠٨.

(٢) النساء ٨٨ والبحر المحيط ٣/ ٣١٣. وينظر في امثال هذا معظم مسائل النحو في البحر المحيط ١/ ١٤ و ٥/ ٤٤٢.

(٣) البحر المحيط ٢/ ٣١٧، ٣١٨ وينظر ٣٦٢- ٣٦٣.

(٤) النهر الماد- مطبوع على هامش البحر المحيط ٢/ ١٤٦. وسورة البقرة ٢١٧.

(٥) ينظر أعيان العصر جـ ٧ والدرر الكامنة ٤/ ٣٠٨ وجلاء العينين ١٧ والبحر المحيط ١/ ٦ و ٣. وأبو حيان النحوي ٥٨.

(٦) ينظر فيها على سبيل المثال لا الحصر البحر المحيط ١/ ٦٠ و ٢/ ٣ و ٨/ ٥ والتذييل والتكميل ١/ ٥١.

مخالفًا لموقفه من البصريين، فهو غالبًا ما يرد عليهم، وقد مر بعض ذلك في الكلام على تأييده ومتابعته للبصريين، الا انه يأخذ بآرائهم في مواضع كثيرة منها قوله في اثناء كلامه على الآية الكريمة: «ومن أهل الكتاب من إن تأمَنْهُ بقنطارٍ يؤدِه إليك، ومنهم من إن تأمَنْهُ بدينارٍ لا يؤدِّهِ إليك إلا ما دمت عليه قائمًا»: «وما ذهب اليه أبو اسحق غلط ليس بشيء، إذ هي قراءة في السبعة وهي متواترة وكفى أنها منقولة عن امام البصريين أبي عمرو بن العلاء فانه عربي صريح وسامع لغة وامام في النحو، ولم يكن ليذهب عنه جواز مثل هذا، وقد أجاز ذلك الفراء وهو امام في النحو واللغة وحكى ذلك لغة لبعض العرب تجزم في الوصل والقطع، وقد روَى الكسائي أنَّ لغة عقيل وكلاب انهم يختلسون الحركة في هذه «الهاء» إذا كانت بعد متحرك، وانهم يسكنون ايضًا»[1]. وتابع ثعلبًا في عدم ترجيحه بين القراءات المتواترة فقال: «وقد تقدم لنا غير مرة انا لا نرجح بين القراءتين المتواترتين، وحكى أبو عمر الزاهد في كتاب «اليواقيت» أن أبا العباس أحمد بن يحيى ثعلبًا كان لا يرى الترجيح بين القراءات السبع، وقال: قال ثعلب من كلام نفسه: إذا اختلف الإعراب في القرآن عن السبعة لم أُفضل إعرابًا على إعراب في القرآن فإذا خرجتُ إلى الكلام كلام الناس فضلت الأقوى. ونعم السلف لنا أحمد بن يحيى كان عالمًا بالنحو واللغة متدينًا ثقة»[2] فأبو حيان يفضل ما يراه صوابًا وان كان من المذهب الذي يخالفه في المنهج والمبدأ.

أما موقفه من البغداديين فلا يختلف عن موقفه من غيرهما الا انه فيما يبدو لم يجد عندهم ما يأخذ به لذلك فهو يكتفي بعرض أقوالهم بلا تعليق برفض أو موافقة في بعضها كما في هذه المسائل: مجيء «ليس» للعطف الذي يقتضي التشريك في اللفظ دون المعنى، ومجيء «مُلْك» بضم الميم وكسرها بمعنى واحد، ومجيء «ونَى» فعلاً ناقصًا بمعنى «زال» وذهابهم إلى أن «كلتا» مثناة لفظًا ومعنًى، وإلى ان الحال يجوز أن يأتي معرفة نحو «جاء زيد الراكب» قياسًا على الخبر. ومنعهم أعمال المصدر المحلى بالألف واللام، وذهابهم إلى جواز التعجب من الفعل الناقص المنفي وغيرها[3] وخالفهم في مسائل كثيرة[4].

---

(١) ينظر في مثله الارتشاف ٥٠، والبحر المحيط ٢/ ٤٦٩. والقراءة بتسكين «يؤده» في الموضعين وآل عمران ٧٥.

(٢) البحر المحيط ٤/ ٨٧ وفيه (أبو عمرو الزاهد والذي في كتب التراجم: أبو عمر).

(٣) ينظر الارتشاف ٢٦٩ ب و ١٢٩ و ٢٠٤ و ٣٢٠ ب و ٢٨٩ ب و ١٥٦ و ٢٥٠ و ٣٣٧، وهمع الهوامع ٢/ ١٤٨ و ١/ ١١٢ ط ١ والبحر المحيط ١/ ٢١ و ٦/ ٤٣ و ١٢٣.

(٤) ينظر منهج السالك ٣١٧ و ٣٣٨ والارتشاف ١١٦ ب و ١٢٣ و ٢٦٥.

أما القراءات فقد كان أبو حيان يرى أنها جاءت على لغة العرب مقيسها وشاذها فوجب قبولها إذا صحت الرواية بها لذلك أجاز- متابعًا الكوفيين- العطف على الضمير المخفوض من غير إعادة الخافض مع أن البصريين لم يكونوا يجوزونه جاء ذلك في قوله تعالى: «وفي خَلْقِكُم وما يَبُثُّ من دابَّةٍ آياتٌ لقومٍ يُوقِنون» حيث أجاز أن تكون «ما» معطوفة على الضمير في «خلقكم» فقال: «ومن أجاز العطف على الضمير المخفوض من غير اعادة الخافض اجاز في: «وما يبث» ان يكون معطوفًا على الضمير في «خلقكم وهو مذهب الكوفيين ويونس والاخفش، وهو الصحيح، واختاره الاستاذ أبو علي الشلوبين.[1] ولم أجد هذا التفسير في كتاب الفراء وهو شيخ الكوفيين، وربما كان بالخفض ولكن عطفًا على «خلقِ» المجرورة بـ «في»[2]. ولا يفاضل أبو حيان بين القراءات المتواترة من السبعة كانت أم من غيرها».[3]

أما الحديث فقد اشتهر بين النحاة موقف أبي حيان منه وبأنه كان من الذين يمنعون الاحتجاج بالحديث وبانه رد على ابن مالك احتجاجه المطلق بالحديث. وكان أبو حيان وشيخه ابن الضائع أول من تنبه على أن النحاة الأوائل لم يُعدّوا الحديث من أصول الاحتجاج لاستنباط القواعد النحوية والصرفية كما عَدّوا القرآن وكلام العرب أساسًا لذلك، وذهب إلى تعليل ذلك بعلتين الأولى: ان الرواة جوّزوا رواية الحديث بالمعنى فترد القصة الواحدة بألفاظ متعددة. والثانية: أن معظم الرواة أعاجم ولا يؤمن ان يكونوا نقلوه بألفاظهم بعد فهمهم المعنى فغيّروا من الفاظ الرسول وعبَّروا بما استطاعوا ان يعبِّروا به عن الحديث من عبارات لا يصح ان تعد شاهداً في اثبات قواعد النحو والصرف. هذا ما اشتهر عنه بين النحاة منذ زمانه حتى الآن، فإذا عدنا إلى آرائه وجدناه يحتج بالحديث على قلة في مواضع من كتبه فيأتي به في بعضها تقوية لشواهد أخرى ولا يبني عليها القواعد وذلك كثير. وقد يأتي بأقوال منسوبة إلى نحاة آخرين محتجين بالحديث في بناء قواعد عليه، ويتابعهم في مواضع ويردهم في مواضع أخرى.[4] وقد يثبت القاعدة بحديث ويقيس عليه كما في قوله عند الكلام على الجمل الحالية المبدوءة بمضارع مسبوق بأداة نفي، إذ أجاز أن يقال: «جاء زيد إن يدري كيف الطريق «قياساً على وقوعه خبراً لـ «ظلَّ» في قوله (ﷺ): «حتى ظل إن يدري كيف

---

(١) الجاثية ٤ والبحر المحيط ٨/ ٤٢.

(٢) ينظر معاني القرآن ٤/ ٥٤، والبحر المحيط ٤/ ٨٧.

(٣) المرجع السابق.

(٤) الارتشاف ٢٥٠.

يصلي»[1]. وأجاز الفتح والكسر في همزة «ان» ان وقعت خبراً للمبتدأ محتجًا بحديث احتج به سيبويه، وهو: أول ما أقول أني أحمَد اللّهَ» بكسر همزة «ان» وفتحها»[2] وأجاز مجيء «من» لابتداء الغاية في غير المكان أي في الزمان والأشخاص، واحتج على ذلك بما جاء في الحديث: «مِن محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم»[3].

ظاهريته:

كانت أهم ظاهرة ميزت الاندلس من غيرها من البيئات النحوية الأخرى نزوع بعض النحاة إلى تطبيق المذهب الظاهري الذي نادى به داود في المشرق وابن حزم ومن تأثروا به في المغرب والاندلس بعد ذلك، وكان أول من نادى به ابن مضاء القرطبي الذي عرضنا لدعوته وهي إلغاء نظرية العامل، وإلغاء العلل الثواني والثوالث، والغاء الأمثلة التي يؤتى بها لمجرد التمثيل، وإلغاء القول بالخلاف فيما لا يفيد المتكلم علمًا بالنحو مع إلغاء القول بالتقدير والتأويل البعيد الذي يخرج النص عن ظاهره. وقد ظهر- من أقوال كثيرة لأبي حيان انه مال إلى ابن مضاء ومذهبه هذا وأخذ بآرائه في معظم ما ذهب إليه. وقد تداولت كتب التراجم قوله: «محال ان يرجع عن مذهب الظاهر من علق بذهنه»[4] ولما كان المذهب الظاهري يقوم على الأخذ بظاهر النصوص في الفقه أو التفسير أو غيرهما من العلوم، ولتأثر أبي حيان به وجدناه كثيراً ما يأخذ بظاهر الآيات ويفسرها عليه ولا يلجأ فيها إلى التأويل مع امكان حمل الشيء على ظاهره، ولا سيما إذا لم يقم دليل على خلافه. يقول: «لإنا لا نصير إلى التأويل مع امكان حمل الشيء على ظاهره ولا سيما إذا لم يقم

---

(١) الارتشاف ٢١٣ ب، ٢٤٧ ب و ٢٨٩ وغيرها، وينظر في الاستشهاد بالحديث منهج السالك ٢٤٦ و ٢٦٢ و ٣٠٢.

(٢) الارتشاف ١٥٦ ب.

(٣) الارتشاف ٢٢٨. وللتفصيل في موقف أبي حيان من الاحتجاج بالقراءات والحديث ينظر كتاب الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه بقسميه: وأبو حيان النحوي ٤٣٠- ٤٤٠ وللاحتجاج بالحديث عامة كتاب (موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث الشريف).

(٤) ينظر نفح الطيب ٣/ ٥٦٣ والبدر الطالع ٢/ ٢٩٠ والدرر الكامنة ٤/ ٣٠٤ وجلاء العينين ص ٧.

دليل على خلافه»[1]. ويرى أن الأولى حمل اللفظ على ظاهره ما أمكن لأنه لا يعدل عن الظاهر، والعدول عن الظاهر لغير مانع لا يناسب، ومتى أمكن حمل الشيء على ظاهره كان أولى، إذ العدول عن الظاهر إلى غيره لا يكون إلا لمرجح[2] ولا يذهب إلى التأويل في كتاب الله، قال في رده على بعض المفسرين: «وتركتُ أقوال الملحدين الباطنية المخرجين الالفاظ الغريبة عن مدلولاتها في اللغة إلى هذيان افتَرَوْهُ على الله تعالى وعلى علي كرم الله وجهه، وعلى ذريته ويسمونه علم التأويل. وقد وقفت على تفسير لبعضهم، وهو تفسير عجيب يذكر فيه أقاويل السلف مزدرياً عليهم وذاكراً أنه ما جهل مقالاتهم، ثم هو يفسر الآية على شيء لا يكاد يخطر في ذهن عاقل ويزعم أن ذلك هو المراد من هذه الآية، وهذه الطائفة لا يُلْتَفَتُ اليها. وقد رد أئمة المسلمين عليهم اقاويلهم»[3]، ومما يدل على ذهابه مذهب ابن مضاء في الاخذ بالظاهر رفضُهُ كلَّ تفسير لم يأتِ مؤيَّدًا بحديث، يقول في تفسيره الكبير: «وقد نقل المفسرون عن ابن عباس والسدّيّ وغيرهما قصصاً كثيرة مختلفاً في سبب اتخاذ العجل وكيفية اتخاذه، وانجر مع ذلك اخبار كثيرة الله أعلم بصحتها، إذ لم يشهد بصحتها كتاب ولا حديث صحيح فتركنا نقل ذلك على عادتنا في هذا الكتاب»[4]. وينفي كل قصة لا تعلق لها بلفظ القرآن ولم تصح عن الرسول (ﷺ)، ويذكر ما ورد فيه نص لأنه ينبغي الا يعتمد الا على ما صح في كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام فهو يقول: «وانما حَمَل من حَمَل على خلاف الظاهر اعتبار ما رووا من القصص الذي لا يصح إذ لم يرد به كتابٌ ولا سُنَّةٌ، ومتى امكن حمل الشيء على ظاهره كان أولى اذ العدول عن ظاهر إلى غير الظاهر انما يكون لمرجحٍ، ولا مرجحَ»[5]، ويرد على من يذكر تعليلاً للحوادث التي وردت في القرآن، ويرى أن من يطلب لها تعليلاً من غير نص من آية أخرى أو من حديث أو من دليل شرعي فأحرى بأن يقل صوابُه ويكثرَ خطؤه».[6]

---

(١) البحر المحيط ١/ ٣٠٨.

(٢) ينظر البحر المحيط ٢/ ٦٥ و ١/٢٥٨، التذييل والتكميل (المطبوع) ١/ ٥٩.

(٣) البحر المحيط ١/ ٥.

(٤) البحر المحيط ١/ ٢٠١.

(٥) البحر المحيط ١/ ٢٥٨ وتنظر طبقات الشافعية ٦/ ١٣٥ وينظر في مثله من أقواله ١/ ٣٢٦ و ٣٨٧ و ٤٢١.

(٦) البحر المحيط ٤/ ٣٢٦ وينظر موقفه من الفرق الاخرى ٢/ ٣٤ والنهر الماد ١/ ٣٢.

اما ظاهريته في النحو فتتبين من أمور كثيرة فقد ذهب القدماء إلى ان أبا حيان «كان ظاهرياً حتى في النحو».[1] وقد حاول «جولد تسيهر» ان يعلل ذلك فذكر انه كان يتمسك كل التمسُّك بآراء الأوائل في هذا العلم وبالأخص سيبويه إمام النحاة. وكرر الاستاذ طه الراوي هذا الرأي فقال: «كان ظاهري المذهب حتى لقد قال عنه ابن حجر: انه كان ظاهرياً حتى في النحو، وربما كان قصده من قوله هذا انه كان شديد التمسك بآراء النحويين الأوائل كسيبويه مثلاً».[2] وقد وهم هذان العالمان في تفسير عبارة ابن حجر، وما تدل عليه كلمة «ظاهري» وظننا انها متابعة القدماء أو الأوائل في العلم. والواضح ان المقصود به تطبيق أبي حيان للمذهب الظاهري الفقهي بأصوله على مسائل النحو مما يلزم فيه تطبيق هذا المذهب وفي ذلك اتباع لمن نادى بالظاهرية في الاندلس في عهده وقبله كابن مضاء وابن حزم.

والذي يتضح لنا من آراء أبي حيان وأقواله في كتبه النحوية في مسائل النحو وأصوله انه حاول أن يتقرب من منهج ابن مضاء فكان وسطاً بين المدرسة المشرقية ومدرسة ابن مضاء لأننا نجد في كتبه مواقف كثيرة يقف فيها مع ابن مضاء ويأخذ بآرائه ويذهب مذهبه، ومواضع أخرى وافق فيها النحو المشرقي وهو موقفه العام من معظم مسائل النحو والتصريف. وتتضح ظاهريته في:

١- الغاء الامثلة غير العملية:

تابع أبو حيان ابن مضاء في الغاء الامثلة غير العملية وقد نجد في كتاب سيبويه وفي كتب من جاءوا بعده ككتاب «التصريف» للمازني و «المقتضب» للمبرد أبواباً طويلة يحاولون بها امتحان الطالب أو المتعلم في معرفة تطبيق الظواهر النحوية والتغييرات الصرفية في العبارة بمثل قولهم: «كيف تبني من كذا على وزن كذا؟» أو «كيف تخبر عن» «التاء» من قولنا: «كتبت إلى زيد رسالة؟» وذلك مثل ما جاء من ابواب عنون لها سيبويه بـ «باب ما قيس من المعتل من بنات الياء والواو ولم يجئ في الكلام الا نظيره من غير المعتل» و «باب ما قيس من المضاعف الذي عينه ولامه من موضع واحد ولم يجئ في الكلام الا نظيره من غيره». وما اشبهها من أبواب في «المصنف في شرح التصريف للمازني» وما عقده المبرد من بحوث في «مسائل مشكلة يمتحن بها المتعلمون من باب كذا» أو «مسائل طوال يمتحن بها المتعلمون». وهي كثيرة في كتابه. وقد رأينا ابن مضاء يجيز

---

(١) ينظر الدرر الكامنة ١/ ٨٥ وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٣٩٩ وتاريخ الفكر الاندلسي ٢٣٨.

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ١/ ٣٣٢- ٣٣٣ وتاريخ علوم اللغة العربية ٢٠١.

بعض ما فيه فائدة تدريسية الا انه لا يجب أن يؤخذ به المتعلمون الذين يجب أن يعرفوا النحو والصرف ومسائلهما، أولاً، مما فيه فائدة في النطق أو الكلام، أما ما لا يفيد نطقًا فالافضل أن يطرح من البحوث النحوية. ومثل ذلك الأمثلة التي يقيسها النحاة في انواع من الكلمات على غيرها كقياسهم التنازع في الفعل المتعدي الى اثنين وفي أكثر من عامل أو المتعدي إلى ثلاثة. أما أبو حيان فقد سار في كتبه على هذا المنهج ورأى انه يجب الا يلتفت إلى مثل هذا المسائل أو الأمثلة الشاذة التي يضربها النحاة في كتبهم لانه يراها من وضعهم أو من وضع الرواة لأن العرب لم تكن تتكلم بها. مثال ذلك ما كان يرويه النحاة من أمثلة تتعدد فيها المبتدآت ويذكرون حكم الروابط في الجملة، قال: «اذا توالت مبتدآت ففي الاخبار عنها طرق: أحدها: ان يخبر عن أحدها مجعولاً، هو وخبره، خبر متلوه، والمتلو مع ما بعده خبر متلوه، إلى أن يخبرَ عن الأول تاليه مع ما بعده، ويضاف غير الأول إلى ضمير المتلو. مثال ذلك «زيدٌ هندُ الأخوانِ الزيدونَ ضاربوهما عندها بإذنه»والمعنى: «الزيدون ضاربو الأخوين عند هند بإذن زيد».

الطريق الثاني: ان يجاء بعد خبر الأول بروابط المبتدأ أولَ لآخرَ وتالٍ لمتلو، مثال ذلك: «زيدٌ امُّه اخواها عمُّهُما قائمٌ» والمعنى: «عمُّ أَخَوَي أُمُّ زيدٍ قائمٌ».

الطريق الثالث: ما تركب من هذين الطريقين، وهو ضربان: أحدهما أن يتقدم بعض المعرِّيَات ويتأخر بعضٌ عن المعرّى فيحتاج الأول إلى ضمائر أُخَرَ، كقولك: «زيدٌ وهندٌ أبوها أخوه منطلقٌ من أجلِهِ عندَه» وتلخيصها: «أخو أبي هندٍ منطلقٌ من أجلِ عمروٍ عندَ زيدٍ».

والضرب الثاني عكس الضرب الأول تقول: «زيدٌ غلامُه أبو عمروٍ العمران منطلقان من أجله عندَه» وتلخيصه: «العمران منطلقان من أجلِ أبي عمروٍ عند غلام زيدٍ». وقد يتركب تركيباً آخر ثلاثياً بأن يتقدم المعرَّى تثنيه بالمشتغل ثم تثلثه بالمعرّى، وبالعكس فيكثر المفروض. ومثل الطريق الأول من الموصولات: «الذي التي اللذان التي أبوهما اختها أخواك أخته زيد» قال: «فلا تدخل العرب موصولاً على موصول، بل هذه التراكيب كلها من وضع النحويين ولا يوجد نظائرها في لسان العرب».[1]

٢- الغاء العلل:

والغى ابن مضاء العلل الثواني والثوالث لأنها تفسد النحو وتجعله مسائل معقدة ومتشعبة، وكان أبو حيان ينفر من هذه التعليلات كابن مضاء، وقد كرر ذلك كثيرًا في كتبه ورد على ابن مالك ذهابه إلى تعليل أمور وضعية لا حاجة إلى تعليلها، فيقول عند كلامه على «تاء» التأنيث: «وعلل

---

(١) الارتشاف ١٤٠ ب وينظر همع الهوامع ٢/ ١٠٩ ط ١.

المصنف في شرحه كونها لم تدخل فعل الأمر ولا المضارع فقال: «للاستغناء عنها بياء المخاطبة نحو: «افعلي» وللاستغناء عنها بتاء المضارعة نحو: «هي تفعل» ولأنها ساكنة فالمضارع يسكن في الجزم فلو لحقته التقى فيه ساكنان، وهذه التعاليل هي تعاليل لحصر صفات وضعية فلا حاجة اليها».(1) ألغى هذه التعليلات مع انها من العلل الأُوَل فلا هي من العلل الثواني ولا هي من الثوالث.

٣- الغاء الخلاف بين النحويين:

ويرد ابن حيان اختلاف النحاة في المسائل النحوية وتعصبهم لآرائهم ذلك الاختلاف الذي يجر الى كثرة التعاليل حتى تطول المسألة الواحدة وتتعقد. من ذلك رده عليهم في علامات اعراب المثنى وجمع المذكر السالم إذ قال: «وهذا الخلاف الذي في هذه الحروف وهذه النون ليس تحته طائل ولا يبنى عليه حكم». وردَّ الخلاف في «ال» التعريف وقال: انه خلاف لا يجدي شيئًا وينبغي ان لا يتشاغل به. ورد على البصريين والكوفيين وخلافهم في أصل المشتقات لأنه لا يجد فيها كثير منفعة.(2) وقد رد الخلاف المؤدي إلى كثرة التعليلات للآراء، والتعليلات المعقدة الكثيرة لأوجه الخلاف في مواضع كثيرة من كتابه، من ذلك انه قال بعد نقله خلافًا طويلاً بين النحاة في تقديم التمييز على العامل فيه عند شرحه قول ابن مالك:

وعاملَ التمييزِ قدِّمْ مُطلَقا   والفعلُ ذو التصريفِ نزرا سبقا

«فأنت ترى هذه التعاليل كلها لمن منع التقديم، وهي معارضة للسماع، والتعليل انما ينبغي أن يسلك بعد تقرر السماع، ولا ينبغي أن يعول منه الا على ما كان من لسان العرب، واستعمالاتُها تشهد له وتوميءُ اليه، ولقد كان بعض شيوخنا من أهل المغرب يقول: اياكم وتعاليلَ الرماني والوراق ونظرائهما وكثيراً ما شُحِنت الكتبُ بالأقيسة الشَّبَهِية والعللِ القاصرة وهي التي لا يعجز عن ابداء مثلها من له أدنى نظر في الحالة الراهنة ولا يحتاج في ذلك إلى إمعان فكر ولا إكداد بصيرة ولا حث قريحة ولذلك قال بعض الادباء:

ترنُــو بِطَرْفٍ فاتنٍ فاترٍ   أضعفَ من حُجَّةِ نَحْوِيِّ(3)

---

(١) التذييل والتكميل ١/ ٣٨ وينظر همع الهوامع ١/ ٥٦ ط ١.

(٢) ينظر الارتشاف ٥٥ و ٦٨ وهمع الهوامع ١/ ٧٩ و ١٨٦ ط ١.

(٣) منهج السالك ٢٢٩- ٢٣٠ وينظر الرد على النحاة ٨٠ وما بعدها. وينظر في أمثالها منهج السالك ٢٣٠ و ١٢١- ١٢٣ و ١٧٧ و ٢٣١ و ٢٣٨ والارتشاف ٢٠٢ ب و ١٨٠- ١٨١ و ٢٨٨ و ٢٩٩ ب و ٣٠٩ و ٣٣٢ والنكت الحسان ٣٩.

وهذا من أبي حيان متابعة لابن مضاء حتى في تمثله بهذا البيت في الرد على من أكثر التعليل بعلل ضعيفة لا يستدعيها الكلام ولا يحتاج اليها، وانما افسد بها النحاة النحو وعقّدوه.

٤- القول بالعامل:

لا يمر باب من أبواب النحو إلا وللعامل فيه أثر مذكوراً كان أم محذوفاً، وقد أكثر النحاة من الاعتماد عليه في مسائل أدَّت إلى تعقيد النحو، وقد قال أبو حيان بالعامل وأخذ به، الا انه في مواضع كثير رد القول به فيما يؤدي إلى التقديرات البعيدة والتأويلات المحتملة، كما في قوله بعد نقل اختلاف النحويين في عامل الرفع في الفعل المضارع أهو لفظي؟ وما هو؟ أم معنوي؟ ثم قال «فهذه سبعة مذاهب في الرافع للفعل المضارع ذكر منها المصنف مذهبين... والكلام على هذه المذاهب والاحتجاج لها والابطال يستدعي ضياع الزمان فيما ليس فيه كبيرُ جدوَى، لان الخلاف في ذلك لا ينشأ عنه حكم نُطقيّ، والخلاف إذا لم ينشأ عنه حكم نطقي فينبغي الا يُتَشاغل به». ونقل أبو حيان في أبواب كثيرة الأقوال في العامل ولم يُبدِ رأيه فيه لأنه يرى ألاّ جدوى في ذلك ولا فائدة منه.(١)

هذه أهم المسائل التي قال فيها بالظاهر. أما القياس والسماع فله منهما موقف يميل فيه إلى البصريين، فقد أخذ به في الوارد الكثير، فان قل المسموع لم يصح ان يقاس عليه، أما ما لم يسمع في الشيء نفسه فلا يقيسه فيه على غيره كما كان الكسائي والكوفيون يعملون فيجيزون القياس مع عدم ورود السماع وذلك قوله في «كان» وجواز تعويض «ما» عنها بعد «أنْ»: «ويزعم المبرد أنه يجوز اظهار الفعل مع المفتوحة ويجعل «ما» زائدة فيقول: «أنْ ما كنت منطلقاً انطلقت معك» والصحيح انه لا يجوز ذلك لأنه كلام جرى مجرى المثل، والأمثال وما يجري مجراها تحكى كما سمعت ولا يطرد فيها قياس... ونحو «أما أنا منطلقًا» في ذلك نظر، والذي نختاره أن ذلك مقصور على مورد السماع، والسماع انما جاء والضمير للخطاب، قال الشاعر:

أبا خراشة أَما أنت ذا نفر   فإنّ قوميَ لم تأكلْهم الضَبُعُ

وقال آخر:

أما أقمت وأما أنت مرتحلاً   فاللّه يَكْلأ ما تأتــي ومــا تَذَرُ

وانما اخترنا الاقتصار على مورد السماع، لأن ذلك خارج عن القياس، الا ترى ان ذلك لا يجوز في غير «كان» من أفعال هذا الباب؟ وهو كلام جرى مجرى المثل. وقد وقع في كتاب سيبويه في هذه

---

(١) التذييل والتكميل ٥/ ٨٤ ب وينظر منهج السالك ١٦٠ و ٣٨ و ١٤٣ و ١٤٦ و ١٨٠ والارتشاف ١٦٥ ب و ١٧٥ ب و ١٣١ ب والاشباه والنظائر ١/ ٢٤٣- ٢٤٤ وهمع الهوامع ١/ ١٦٥ ط ١.

المسألة: «أما زيدٌ ذاهبًا ذهبت معه» والمعنى: « أن كان زيدٌ ذاهبًا ذهبتُ معه» فأتى بالاسم الظاهر مرفوعًا على إضمار «كان» معوضًا «ما» لكن من تمثيله ولم ينقله من كلام العرب فينبغي أن لا يقاس عليه إلا إن ثبت من لسان العرب»[1].

ويستحسن القياس ان ورد به السماع الكثير، ولم يطلقه على القليل كما فعل الكوفيون حيث جوزوا القياس على المثال الواحد أو بيت الشعر كما جوزوا القياس على ما لم يرد به سماع»[2] ومما يتضح فيه انه لا يجيز القياس على ما لم يسمع في الباب نفسه وسمع في غيره ما علّله بقوله: «لأن القياس بلا سماع في الشيء نفسه أو الذي من جنسه غلط من القائل ولا يصح الاخذ به لأنه إحداث تركيب لم ينقل عن العرب، وكل ما يصح قياسه عن العرب فالذاهب اليه غير مخطئ»[3] فان كان الوارد القليل لغة قبيلة من القبائل الموثوق بفصاحتها صح ان يؤخذ به ويقاس عليه، ولا يقاس على شواهد أو أدلّة يدخلها الاحتمال لأن الدليل إذا تطرق إليه الشك والاحتمال لم يجز به الاستدلال.[4]

يتضح من هذا أن أبا حيان من الاندلسيين الذين وقفوا موقفًا وسطًا بين المذاهب مع تأثره بدعوة ابن مضاء التي شاعت في الاندلس وأخْذه بكثيرمن آرائه.

---

(١) منهج السالك ٦٠.

(٢) ينظر الارتشاف ١٣٢. ومنهج السالك ٢٠٣ و ٦٠.

(٣) ينظر منهج السالك ٢٩٣ و ١٨٦ والتذييل والتكميل ٣/ ١٥٣.

(٤) ينظر في هذا أمثالها والارتشاف ٨٢ ب و ٢٥٣ ب والتذييل والتكميل (المطبوع) ١/ ٨٢ والبحر المحيط ١/ ٨٢ والنهر الماد ١/ ١٤٦. (وأبو حيان النحوي ٤٠٠- ٤١٤) في القياس والسماع ٣٧١- ٤٥٢ في ظاهريته.

المبحث الثالث

النحو في بيئات أخرى

الحجاز:

جاء الاسلام فكان لمدينتي الحجاز العظيمتين «مكة» و «المدينة» شأن علمي كبير، وكان العلم فيهما دينياً صرفًا. ففي مكة كان التشريع السماوي الذي لم يكن ليفهم فهمًا صحيحًا ما لم يفهم ما كان يحيط به من ظروف. أما المدينة فهي مهاجر النبي (ﷺ) وأصحابه، وبها كان أكثر التشريع الاسلامي فكانت منبعًا لأكثر الأحداث التاريخية في صدر الاسلام، وبها حدث النبي (ﷺ) أصحابه أكثر حديثه، وهو لا يفهم تمام الفهم الا بمعرفة ما أحاط بهذه الأحاديث من ظروف تفسرها وتوضحها مما حدث في المدينة، آنذاك. وكانت المدينة كذلك مقر الخلافة الراشدية وفيها كثير من الصحابة الذين شاهدوا ما فعل النبي وسمعوا ما قال، وكانوا شركاء له في كثير من الأحداث كالغزوات والفتوح ولهذا فقد اشتهرت مكة بمدرسة اقراء القرآن والتثقف فيه، وقد كان فيها معاذ بن جبل الذي خلفه النبي عليه السلام فيها يثقف أهلها ويفقههم في الحلال والحرام ويقرئهم القرآن، وكان من الذين شهدوا المشاهد كلها مع رسول الله ويُعدّ من أعلم الصحابة بالحلال والحرام. وعلّم بمكة عبد الله بن عباس أيضًا في أخريات ايامه وكان قد علّم بالبصرة والمدينة، وكان يجلس في البيت الحرام ويعلّم التفسير والحديث والفقه والأدب، وإلى عبد الله وأصحابه يرجع الفضل فيما كان لمكة من شهرة علمية. وقد تخرج بهذه المدرسة ثلاثة من الموالي وهم: مجاهد الذي اشتهر برواية أقوال ابن عباس في تفسير القرآن وروي عنه انه قال: «عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات اقفه عند كل آية، أسأله فيم نزلت، وكيف كانت»[1] وعطاء، وهو من جلة فقهاء مكة وزهّادها وكان يعد من أعلم الناس بمناسك الحج، وكان يجلس في المسجد الحرام ويجتمع الناس حوله فيفتيهم ويعلّمهم ويحدّثهم. والثالث: هو طاوُس وكان من اليمن أدرك كثيراً من الصحابة وأخذ عنهم ثم انقطع إلى ابن عباس فكان من فقهاء مكة ومفتيها. وواصلَ تلاميذ هؤلاء تلقّي هذا العلم طبقة عن طبقة وفيها تعلّم الامام الشافعي وأخذ الحديث والفقه عمن كان فيها ثم تحوّل إلى المدينة ليكمل

---

(١) ينظر فجر الاسلام ١/ ٢١٤ وضحى الاسلام ٢/ ٧٣ وما بعدها.

تعليمه بعد أن قارب العشرين.

أما المدينة فقد كانت أوفر حظًا وأكثر علمًا وشهرة بمن كان فيها من الخلفاء والصحابة العلماء ثم من التابعين، فكان فيها عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب، وكان زيد بن ثابت أكثر الصحابة شهرة في العلم هو وعبد الله بن عمر. فزيد بن ثابت انصاري صحب النبي عليه السلام منذ صباه وتضلع من فهم تعاليم الاسلام، وكانت له قدرة فائقة على استخراج الأحكام من الكتاب والسنة، ومن الرأي فيما لم يكن من أمور فيهما، ولهذا كان مترئسًا بالمدينة في القضاء والفتوى والقراءة والفرائض قادرًا على استنباط المعاني، ذا رأي فيما لم يرد فيه اثر. أما عبد الله بن عمر فكان عالمًا فقط يجمع الأحاديث ويرويها ويكتبها ويتحرج من القول وابداء الرأي. وقد تخرج على علماء المدينة من أمثال هؤلاء كثير من علماء التابعين كسعيد بن المسيب الذي حفظ عن زيد قضاياه وفتاويه وفضل قوله على قول غيره. وتخرج عروة بن الزبير بزيد وابن عمر فحفظ فقه علماء المدينة، وكان من أعلمهم وكذا كان ابن شهاب الزهري الذي حفظ فقه علماء المدينة وحديثهم، وكان من أسبق العلماء إلى تدوين العلم، وقد أنجبت هذه المدرسة الفقهية الامام مالك بن أنس.(١)

أما الدراسة النحوية واللغوية فلم يصل إلينا أن علماء الحجاز بمدينتيه قد اهتموا بها أو نشأت عندهم لانشغالهم بالعلوم الدينية عن كل ما عداها وانما كانت البصرة هي البلد المعني بها في العالم الاسلامي منذ بداية نشأتها كما عنيت بالقرآن واقرائه وتفسيره واهتمت بشرحه وتوضيح معانيه والاستدلال على لغته وما جاء فيها من ظواهر إعرابية وتركيبية وصوتية بما جاء في كلام العرب فاحتاجوا إلى جمع اللغة وتصنيفها ودراستها والاستنباط منها ووضع الأقيسة عليها. فنشأ عن كل هذا نقط أبي الأسود للمصحف أولاً ثم وضع قواعد النحو والصرف وغيرهما من علوم العربية. وتابعتهما مدرسة الكوفة في مواصلة هذه الجهود حتى استقر النحو بجهود شيوخ هاتين المدرستين. وكان لا بد لعلم النحو ودراسته وآراء شيوخه ولا سيما في الموضوعات التي تمس القراءات القرآنية والتوجيهات النحوية التي تنبني عليها أحكام مستنبطة من ان تنتقل بفعل القادمين إلى العراق للتجارة والمسافرين منها إلى مكة والمدينة لأداء فريضة الحج، ولهذا وجد فيها بعض من اشتغل بالنحو، وكان بعضهم ممن جاء مع الجيش الاسلامي المحرِّر وبقي في البصرة وسمع من شيوخها أو ممن نشأوا من أولاد هؤلاء المدنيين والمكيين ثم عادوا إلى الحجاز وهم يحملون ما سمعوه. فأخذوا يعلّمون به ابناءها ويؤدبونهم مطورين ذلك إن استطاعوا. ولهذا فلم تكوِّن أخبار هؤلاء دراسة كاملة عن النحو في هذه البيئة لأنها كانت نتفًا تعرض خلال تراجم بعض النحويين أو

---

(١) فجر الاسلام ١/ ٢١٥. وينظر ضحى الاسلام ٢/ ٧٥.

كتب التاريخ والنحو وغيرها.

لقد كان أبو الطيب اللغوي المتوفى عام ٣٥١ هـ أول من أشار إلى النحو فيها، وعرض لمكة والمدينة بعد أن ختم الكلام على مدرسة البصرة والكوفة وشيوخهما وقال: «ولا علم للعرب الا في هاتين المدينتين» أما المدينة: «فقد ذكر من رجالها ابن دأب ولم يكن نحويًا وانما كان رواية اخباريًا، ومثله الشرقي ابن القطامي.[1] وكان فيها أيضاً عليّ الملقب بالجمل وكان وضع في النحو كتاباً لم يكن شيئًا، وقال أبو حاتم: ومع ذلك فاني أظن الاخفش وضع كتابًا من كتبه من كتاب عليّ الجمل، فلذلك قال: «الزيت رطلان» والزيت لا يذكر عندنا لأنه ليس بادام أهل البصرة» ونقل الزبيدي هذا الخبر نفسه ولم يزد عليه.[2] ولم نستطع الحصول على معلومات أخرى عنه في أي من كتب الطبقات التي راجعناها.

وعبد الرحمن بن هرمز الاعرج المقرئ المدني المشهور، من أهل المدينة، عاصر في البصرة أبا الأسود الدؤلي وسمع منه ما ظهر عنده من مسائل نحوية أو لغوية، وأخذ عنه نقط المصحف وما يمكن أن يكون قد قيل في مناقشته والتعليق على مواقعه ونوعه مما لا حصر عندنا لشيء من مسائله وانما المهم في ذلك انه كان من اوائل الذين نسب اليه وضع النحو من طبقة أبي الأسود، وانه رحل إلى المدينة واستقر بها يقرئ الناس النحو وغيره من العلوم، فقد أقرأ الامام مالك بن أنس عدة سنين في علم أصول الدين وما يردُّ مقالة أهل الزيغ والضلالة»[3].

وأما مكة فكان بها رجل من الموالي يقال له ابن قسطنطين يشدو شيئًا من النحو، قال أبو حاتم السجستاني: «وضع ابن قسطنطين بمكة شيئًا من النحو، ثم قدم البصرة فسمع النحو فطرح جميع ما كان عمل ووضع شيئًا آخر لا يساوي شيئًا»[4] ولم أعثر على أخبار له مع طول البحث.

وابن محيصن ذكره أبو الطيب اللغوي عرضاً بعد كلامه على عاصم القارئ فقال: «محمد بن محيصن، كان يحسن شيئًا يسيراً من جليل النحو فسقط، وكان من أهل مكة، واسمه محمد، وأهل الكوفة يعظمون من شأنه ويزعمون ان كثيراً من علمهم وقراءتهم مأخوذ عنه»[5]. ويبدو أنه من

---

(١) مراتب النحويين ٩٨ و ٩٩ و ١٠٠ والفهرست ١٠٢ ونور القبس ٣١٠ و ٢٧٥– ٢٧٦.

(٢) مراتب النحويين ١٠٠، وطبقات النحويين ٧٥.

(٣) طبقات النحويين واللغويين ٢٠، واخبار النحويين البصريين ١٦ و ١٠. والفهرست ٤٥.

(٤) مراتب النحويين ١٠٠– ١٠١.

(٥) مراتب النحويين ٢٥.

الذين صاحبوا الجيش الاسلامي الذي استقر في الكوفة، أو من أولادهم لم نعثر على أخباره ولا بد من أن يكون علم النحو ورجاله قد انتشروا وكثروا في المدينة ولا سيما في زمن الخليل وتلاميذه. وقد كان الخليل يحج سنة ويغزو أخرى، ومعنى هذا انه اتصل في اثناء رحلاته إلى مكة والمدينة برجال سمعوا منه وحدثوه وأخذوا عنه ما أخذوا، ولم يكن الخليل وحده الذي فعل هذا، فقد كان الفراء دائم الرحلة إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، ولا أظن ان هناك من يشك في وجود نحويين في مكة والمدينة في العصور التي تلت زمن الخليل وتلاميذه مع كثرة الراحلين اليهما من اقطار العالم الاسلامي كافة من العلماء في مختلف العلوم ممن كانوا يدخلون العراق ويقابلون علماء اللغة فيها ونُحاتها ويأخذون عنهم ثم يؤدون فريضة الحج ويعودون إلى بلدانهم، أو قد يحجون ثم يذهبون إلى مراكز الدرس النحوي في العراق، وقد اشتهر بذلك كما قدمنا في دراستنا لبيئتي مصر والاندلس النحويتين أن الرحلة كانت مستمرة بين هذه الامصار الاسلامية والأخذ عن علمائها دائم ومتواصل، الا ان الدارسين وكُتّاب الطبقات لم يهتموا برصد أخبار من دخل الحجاز من النحاة من مختلف البيئات، ولا ترجموا لمن استقر فيها أو وجد فيها من النحاة ومدى النشاط الذي قاموا به وذلك لأن اهتمامهم كان منحصراً في كونهما مدينتي قراءة وفقه وتشريع وإفتاء. ودليل هذا ما نجده في ترجمة المصري ولاد المصادري التميمي من أخبار أخذه بالمدينة النحو عن رجل من أهلها لم يكن من الحذاق وانه اتضح للزبيدي كونه من تلاميذه الخليل.[1]

اليمن:

ليس لدينا معلومات وافية شافية عن وجود مدرسة نحوية في اليمن، وكل ما عرف من اخبار بيئتها العلمية انه وجدت فيها مدرسة لاقراء القرآن شأنها شأن أية مدينة اسلامية، وان النبي (ﷺ) قد ارسل معاذ بن جبل (-١٨ هـ) إلى اليمن حاكماً، وكان قارئًا فقيهًا ومفتيًا وقاضيًا نال ثقة النبي عليه السلام، وانه كانت له قراءة خاصة تزاحم قراءة أُبَيّ وابن مسعود وانه رحل الى الشام حيث مات فيها قرب الأردن.[2] وترجم ابن النديم لقارئ هو ابن السميفع- محمد- وأصله من اليمن سكن البصرة في آخر أيامه وله قراءة، أما أشهر من عرف منهم واقترن ذكر اليمن باسمه فأبو موسى الاشعري الذي قدم مكة من اليمن وأسلم وهاجر إلى الحبشة مع من هاجر، وكان يُعَدُّ من أعلم الصحابة، قَدِمَ البصرة في أول عهدها بالاسلام واستقر بها بعد تمصيرها وعلَّم بها، سأل عمر

---

(١) طبقات النحويين واللغويين ٢٣٥.

(٢) تنظر اخبار معاذ بن جبل في القرآن وعلومه في مصر، والدراسات اللغوية والنحوية في مصر.

بن الخطاب رضي الله عنه أنس بن مالك الذي استقر معه في البصرة: كيف تركت الاشعري؟ فقال: تركته يعلم الناس القرآن، فقال: انه كبير لا تسمعها اياه. ويدل ما روي عنه من قضاء بين الناس وفصل في الخصومات على أنه كان فقيهاً فوق معرفته القرآن والحديث.[1] ويقال في اليمن ما قيل في غيرها من انه قد كان فيها من العلماء والقراء من رحل إلى البصرة أو الكوفة أو الحجاز أو مصر أو الشام، وانه لا بد من ان يكون علماؤها قد اتصلوا بغيرهم ونقلوا عنهم ما عندهم إلى بلدهم سواء أكان الاتصال عن طريق الحج أم التجارة أم للعلم نفسه.

وقد حاول المستشرق كارل بروكلمان البحث عن ذلك فقال وهو يتحدث عن علم العربية في مصر واليمن والاندلس «ليس عندنا من تاريخ العلوم في هذه البلدان إلا أخبار جد ضئيلة، وان تبين من هذه الاخبار– إلى حد الكفاية ان المدارس التي نشأت فيها كانت قائمة على أساس مدارس العراق». ولم يورد تعريفًا بأحد من رجالها إلا ترجمة لأحدهم قال فيها: «أبو عبد الله محمد بن الحسين بن عمير اليمني، كان مقيماً بمصر وتوفي بها سنة ٤٠٠ هـ» وقال عنه السيوطي: «محمد بن الحسن بن عمير اليمني أبو عبد الله النحوي الأديب كان مقيمًا بمصر «صنف اخبار النحويين» و «مضاهاة كليلة ودمنة».[2] وليس في كلام برو كلمان أو السيوطي عن هذه الشخصية ما زادنا علماً ببيئة اليمن العلمية لأنه لا ينكر ان يوجد في اليمن أو في غيرها من الامصار رجال حملوا اسمها ودرسوا وتعلموا وعلّموا، وقد لاحظنا كثرة من رحل من العراق إلى مصر ومنهما إلى الاندلس في أول ايام الدولة الاسلامية ومن بغداد والأندلس إلى مصر في القرن السابع بعد نكبة بغداد والأندلس، ولا عبرة بتسمية الرجل أو تلقيبه باسم بلد في أن يعد ممثلاً لمدرسة بلده في ذلك العلم والا لاستطعنا أن نجد في كتب التراجم عشرات الرجال في مختلف العلوم يحملون لقبًا بأصل يمني أو بصري أو مصري أو شامي أو مدني إلا انهم لا يمثلون بيئات بلدانهم في العلوم التي يحملونها.

الشام:

كان الشام مبعثًا لعدد من الانبياء الذين نشروا تعاليمهم السماوية، وتعاقبت عليه المدنيات المختلفة فأورثته حضارتها وعلمها كالفينيقيين والكلدانيين والمصريين واليونانيين والرومانيين، وكان لكل من هؤلاء مدينة خاصة ومركزًا خاصًا في إحدى مدنه فتعددت مراكز الثقافة فيها مثل صور

---

(١) الفهرست ٣٤، وفجر الاسلام ١/ ٢٢٧.

(٢) ينظر: تاريخ الأدب العربي ٢/ ٢٧٤ و ٢٧٧ وبغية الوعاة ١/ ٩٣، وينظر في مثله ١/ ٩١.

وانطاكية وصيدا وبيروت وحمص ودمشق. وشارك أهله في هذه الثقافات فكان لذلك أثره في عقلية الشاميين، وقد عرف العرب في جاهليتهم هذه البلاد فهاجروا اليها وانشأوا لهم فيها ولايات، واعتنقوا ديانات أهلها بعد استقرارهم فيها وأخذوا يتسمون بالسوريين رابطين انفسهم بها أكثر مما كانوا يرتبطون بمساكنهم في جزيرة العرب. ولما حررها المسلمون ونشروا فيها تعاليمهم ولغتهم وكتابهم العظيم بدأ الشاميون من جديد بتعلم لغة قريش كما أخذ أهلها يتعلمونها أيضًا ويتكلمون بها أيضًا مع لغتهم الآرامية أو اليونانية، إلا أن الاسلام العظيم ولغته الخالدة استطاعا أن يزيحا تلك اللغات والديانات بدخول أكثر أبنائها في الدين الجديد، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد بعث إليهم من الصحابة من يعلمهم الدين الجديد كما كان يفعل هو والخلفاء الراشدون عامة مع الأمصار المحررة الأخرى، فارسل اليهم معاذ بن جبل وعبادة وأبا الدرداء الذين تكونت منهم المدرسة الدينية بالشام وأخذوا على عاتقهم تعليم السكان العربية والقرآن وعلومه والفقه والافتاء، وعُيِّنَ أبو الدرداء قاضيًا فيها، وأرسل عمر (رضي الله عنه) بعدهم عبد الرحمن بن غُنْمٍ، فتخرج بهم عدد كبير من التابعين، كان أشهرهم قاطبة امام أهل الشام عبد الرحمن الاوزاعي الذي يقرن مذهبه بمذهب مالك وأبي حنيفة.[1] وقد وصل إلى الشام عدد كبير من العلماء من كل قطر ومركز ثقافي، بعد أن أصبحت مركزًا للخلافة الاموية، وتكونت فيها ثلاث حركات علمية: تُعنَى احداها بالقرآن وقراءاته وتفسيره وعلومه والحديث وما يتبعهما من فقه وتشريع معتمدٍ عليهما، وحركة تاريخية تُعْنَى بالتاريخ وقصص الشعوب والسيَر، وحركة فلسفية تُعْنَى بالجدل ولا سيما ما يقع منه بين النصارى والمسلمين، ثم أحدثت حركة رابعة هي الحركة الأدبية، وقد آزرت بعض هذه الحركات بعضًا واستفادت منها وأفادتها، واعتمد بعضها على بعض كاعتماد المؤرخين على قصص القرآن واللغويين على شواهده، ولهذا لم يكن فيها ما يسمى بالتخصص الدقيق في مجالس الدرس ولا في العلماء، وانما كانت الدروس والعلماء خليطًا من التفسير والحديث والفقه والتشريع واللغة والأدب والفلسفة والجدل.[2]

ولعل أكبر حركة أدبية ولغوية ونحوية ظهرت في الشام تلك التي قامت على يد سيف الدولة الحمداني بحلب حيث شجع العلماء والمثقفين ولا سيما الأدباء والشعراء ونال تشجيعَه اللغويون والنحاة أيضًا، وبرز في بلاطه نحاة مشهورون منهم:

---

(١) فجر الاسلام ١/ ٢٣١- ٢٣٢.

(٢) فجر الاسلام ١/ ١٧٢- ٢٠١ و ٢٠٢ وينظر ١/ ٢٣٢- ٢٢٣ وضحى الاسلام ٢/ ١٠٢.

أبو علي النحوي (الفارسي):

كان أكبر نحوي عالم بالعربية في زمنه، عاش في حلب مدة وفي العراق مدة، وتنقل في غيرهما، ويعد هو وتلميذه ابن جني مُمثِّلي مدرسة النحو والصرف التي كانت تستخدم القياس إلى أقصى حد ولا تقف عند النص.[1] وهو أبو علي الحسن بن أحمد بن عبد الغفار بن محمد بن سليمان بن ابان النحوي، ولد بمدينة «فسا» واشتغل ببغداد ودخلها سنة ٣٠٧ هـ، كان إمام وقته في علم النحو، دار البلاد وترك بغداد إلى حلب ومنها إلى شيراز، وتدل كتبه التي تحمل أسماء البلدان على أنه زار البصرة، وقصر ابن هبيرة قرب مدينة الكوفة، وهيت وهي مدينة على الفرات غربي بغداد. الا انه استقر في بلد سيف الدولة «حلب». كان يميل إلى مذهب البصريين في النحو كما يتضح في أغلب آرائه ويتبع منهجهم في شواهده فيحتج بما كانوا يحتجون به، من شعر جاهلي ومخضرم واسلامي حتى زمن ابن هرمة ويحرص في روايته له على نسبته لقائليه، وبما احتجوا به من لغات القبائل العربية الفصيحة وبالشروط المعروفة عنهم، توفي سنة ٣٧٧ هـ في بغداد. صنف كتباً في اللغة والنحو والقراءات وغيرها، أشهرها: «الايضاح» و «التكملة في النحو» و «الحجة في القراءات» و «التذكرة» و «المقصور والممدود» و «الأغفال» وهو فيما أغفله الزجاج من المعاني، و «العوامل المائة» و «المسائل الحلبيات» و «البغداديات» و «الشيرازيات» و «البصريات» و «الهيتيات» و «القصريات» و «العسكريات». وكان لاقامته عند سيف الدولة وفي بلاطه وتشجيعه له وصحبته الدائمة اياه أكبر الأثر في الانصراف إلى التأليف والاجادة فيه، فقد كان مبدأ اتصاله به عند قدومه إلى حلب سنة ٣٤١ هـ، وجرت بينه وبين أبي الطيب مجالس ومناظرات في بلاط سيف الدولة، ثم انتقل إلى بلاد فارس فصحب عضد الدولة بن بويه وتقدم عنده وعلت منزلته حتى قال عضد الدولة «أنا غلام أبي علي الفسوي في النحو» وله صنف كتابيه «الايضاح» و «التكملة» في النحو. له آراء كثيرة في النحو والتصريف مبنية على منهج البصريين الذين مال اليهم وجارية في الاغلب على الكثير المسموع من كلام العرب الفصيح، ولم يكن يقيس على ما قلّ من المسموع وإن كان مما ورد عن العرب الفصحاء. ومن آرائه: انه لم يكن يجيز صياغة فعلي التعجب من السواد والبياض مباشرة، وتجويزه الفصل بين «كم» ومميزها في الكلام نحو «كم في الدار رجلاً» ولا يجوز ذلك في «عشرين» ونحوه الا في الشعر، وذهابه إلى أن العامل في المجرور بعد «الواو»: «رب» محذوفة كما يرى البصريون لا «الواو» كما يقول الكوفيون، وذهابه إلى أن اسم الفاعل الدال على

---

(١) ضحى الاسلام ٢/ ١٨٥. وتنظر اخبار سيف الدولة وتشجيعه للشعراء والأدباء واللغويين ١/ ١٧٧- ١٨٥.

المضي لا يعمل عمل الفعل، وقوله بأن الحال لا تقع معرفة، وبأن «عليك» و «دونك» و «بك» اسماء لا حروف.[1]

ابن جني:

وهو أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي،[2] ولد بالموصل ونشأ فيها وبها تلقى مبادئ العلم، وأخذ النحو عن أحمد بن محمد الموصلي الشافعي المعروف بالاخفش وأخيراً اختص بأبي علي النحوي الفسوي فلازمه وأخذ عنه كل ما عنده، فلما مات أبو علي تصدر ابن جني مكانه في بغداد. قيل: انه «ليس لأحد من أئمة الأدب في فتح المقفلات وشرح المشكلات ماله سيما في علم الاعراب». وكان ابن جني قد لازم ابا علي النحوي وصاحبه وتابعه في اسفاره ولم يفارقه، صحبه من الموصل التي كانت في ذلك الوقت في يد الحمدانيين وتابعه إلى حلب حيث عرف في بلاط سيف الدولة الحمداني واتصل بالحمدانيين فقربوه وخالطهم وصاحب شعراء بلاطهم ومن أشهرهم المتنبي، فقد كان ابن جني يحضر عند المتنبي ويناظره في شيء من النحو من غير أن يقرأ عليه شيئًا من شعره أنفة وإكباراً لنفسه، إلا أن ابن جني شرح ديوان المتنبي شرحًا قال فيه ابن خلكان أنه سماه: «الصبر» وكان قد قرأ الديوان على صاحبه، ورأيت في شرحه قال: سأل شخص أبا الطيب المتنبي عن قوله:

بادٍ هواك صبَرْت ام لم تصبِرا

فقال: كيف اثبت «الالف» مع وجود «لم» الجازمة؟ وكان من حقك أن تقول: «لم تصبر»؟ فقال المتنبي: لو كان أبو الفتح هنا لأجابك. يعنيني، وهذه «الألف» هي بدل من «نون التأكيد» الخفيفة، كان في الأصل «لم تصبرَنْ» ونون التأكيد الخفيفة إذا وقف الانسان عليها ابدل منها «ألفًا». قال الأعشى:

ولا تعبد الشيطان واللّه فاعبدا

وكان الأصل «فاعبدن» فلما وقف أتى بالألف بدلاً».

وقال القفطي في قيمة شرح ابن جني هذا: «فوربي انه كشف الغطاء عن شعر المتنبي». ولم

---

(١) ينظر الايضاح ٩٥ و ٧١ و ٤ و ٦٣ و ٥٠ وغيرها.

(٢) تنظر اخباره في الفهرست ٩٥ ونزهة الالباء ٢٢٨– ٢٣٠، ووفيات الأعيان ٢/ ٤١٠– ٤١٢ وانباه الرواة ٢/ ٣٣٥ وبغية الوعاة ٢/ ١٣٢ وكتاب (ابن جني النحوي للدكتور فاضل صالح السامرائي) ومقدمة الخصائص.

تقتصر علاقة ابن جني بأبي علي وصحبته اياه على هذه البلدان وانما صحبه في رحلته إلى شيراز واتصاله بعضد الدولة البويهي. فقد تعرف ابن جني عليهم أيضاً. قال القفطي: «وخدم أبو الفتح بن جني البيت البويهي عضد الدولة وولده شرف الدولة وولده بهاء الدولة وفي زمنه مات».[1]

وكان المتنبي يقول في ابن جني: «هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس» توفي سنة ٣٩٢ هـ، صنف كتباً مهمة شاهدة بعلمه ودقيق نظره وتعمقه في مسائل النحو والصرف ومن أشهرها «الخصائص» و «سر صناعة الاعراب» و «المنصف في شرح تصريف المازني» و «اللمع في النحو» و «شرح المقصور والممدود» و «شرح مستغلق الحماسة» و «التمام في تفسير أشعار هذيل» و «المذكر والمؤنث» و «محاسن العربية» و «المحتسب» و «التصريف الملوكي» وغيرها. وكان ابن جني مثل شيخه أبي علي النحوي بصري المذهب في النحو والصرف، يجري على مذهبهم في أغلب آرائه وأصوله، وهو كثيراً ما يدافع عنه في كتبه ويرد على الكوفيين. ومن هذه الآراء ذهابه إلى أن «أن» لا تهمل تشبيهاً بـ «ما» كما يقول الكوفيون، في قول الشاعر:

أن تهبطين بلاد قو م يرتعون من الطلاح

ورأى أنها مخففة من الثقيلة- كما يرى البصريون، وخففها الشاعر ضرورة أراد: «أنك تهبطين». وقوله بأن الخبر ان كان غير مشتق لا يتحمل ضميراً يقول: «فإذا قلت: «أنت كزيد» فلا ضمير في «مثل» كما لا ضمير في «الاخ» ولا «الابن» إذا قلت: «أنت أخو زيد» و «أنت ابن زيد» هذا قول أصحابنا، وان كان قد أجاز بعض البغداديين ان يكون في هذا النحو الذي هو غير مشتق من الفعل ضمير كما يكون في المشتق».[2] فـ «أصحابنا» هم البصريون. وقد أثبت الشيخ محمد علي النجار أن ابن جني بصري، وأن من عده من البغداديين لأنه سكن في بغداد واستقر فيها مخطئ، لأنه انما كان مقامه في بغداد بعد أن نضج واستقرت اقامته وتأصل عَدُّه في البصريين. وله آراء خاصة لم يتابع فيها البصريين ولا غيرهم منها: اظهار متعلق الظرف أو الجار والمجرور خبراً في الكون العام، نحو: «زيد عندك» وتجويزه العطف على محل المجرور بالنصب، فأجاز مثل: «مررت بزيد وعمراً» بنصب «عمراً» عطفاً على محل «زيد» المجرور بالحرف وهذا مما لم يقل به من سبقه من النحويين. وكان ابن جني يرى أن العلل المانعة للصرف تسعة، واحد منها لفظي هو شبه الفعل لفظاً نحو: «أحمد» و «يرمع» و «تنضب» والثمانية الباقية معنوية كالتعريف والوصف والعدل،

---

(١) وفيات الاعيان ٢/ ٤١٢ وينظر انباه الرواة ٢/ ٣٣٨ و ٣٤٠، وقد طبع من شرح ابن جني لديوان المتنبي جزءان باسم «الفسر» ببغداد.

(٢) تنظر مقدمة الخصائص ١/ ٤٥.

والتأنيث والعلمية، والعجمة، والجمع وغير ذلك وكان النحاة يرون انها كلها لفظية عدا التعريف والوصف فهما معنويان.[(١)]

وخلاصة القول في آرائه ما قاله فيه الاستاذ احمد امين: «ابن جني تلميذ أبي علي الفارسي وموسع مبادئه النحوية والصرفية، وإذا عبرنا في النحو والصرف تعبيرنا في الفقه قلنا: انه مجتهد فيهما له آراء مبتكرة واتجاهات انفرد بها».[(٢)]

ابن خالويه:

هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن خالويه بن حمدان الهمداني النحوي[(٣)] امام العربية واللغة وغيرها من العلوم الأدبية، عالم بالقراءات وأنواعها. دخل بغداد طالبًا للعلم سنة ٣١٤ هـ، وقرأ القرآن على ابن مجاهد والنحو والأدب على ابن دريد ونفطويه وأبي بكر بن الانباري وأبي سعيد السيرافي وأبي عمر الزاهد، ثم انتقل إلى الشام واستوطن حلب واختص بسيف الدولة بن حمدان وأولاده، وهناك انتشر علمه وروايته، وصار بها أحد أفراد الدهر في كل قسم من أقسام العلم والأدب. قال السيوطي: «وكانت الرحلة اليه من الآفاق، وقال له رجل: أريد أن أتعلم من العربية ما أقيم به لساني، فقال: انا منذ خمسين سنة اتعلم النحو ما تعلمت ما أقيم به لساني. توفي بحلب سنة ٣٧٠ هـ، قال الداني في طبقاته: عالم بالعربية، حافظ للغة بصير بالقراءة روى عنه غير واحد من شيوخنا» قال ابن خلكان: «وآل حمدان يكرمونه ويدرسون عليه ويقتبسون منه، وهو القائل: دخلت يوماً على سيف الدولة بن حمدان فلما مثلت بين يديه قال لي: «اقعد»، ولم يقل «اجلس»، فتبينت بذلك اعتلاقه بأهداب الأدب واطلاعه على أسرار كلام العرب، وانما قال ابن خالويه هذا لأن المختار عند أهل الأدب أن يقال للقائم: «اقعد»، وللنائم والساجد «اجلس». ولابن خالويه في حلب مناظرات مع المتنبي شاعر بلاط سيف الدولة. تنقل في بلاد متعددة، فقد دخل اليمن ونزل ديارها قبل سفره إلى حلب واستقراره فيها، تصدر بحلب وميافارقين وحمص للافادة والتصنيف، وعاش بعد سيف الدولة في صحبة ولده شريف وغيره من آل حمدان. كان ابن خالويه قد ترك مؤلفات كثيرة من أهمها «الجمل في النحو» و «الاشتقاق» و «اعراب ثلاثين سورة من القرآن» و

---

(١) الخصائص ١/ ١٠٩ وتنظر مقدمته ١/ ٤٨ وكتاب (ابن جني النحوي).

(٢) ظهر الاسلام ١/ ١٨٥.

(٣) ترجمته في الفهرست ٩٢ ونزهة الالباء ٢١٤ ووفيات الاعيان ١/ ٤٣٣– ٤٣٤، وبغية الوعاة ١/ ٥٢٩– ٥٣٠.

«ليس في كلام العرب» و «المذكر والمؤنث» و «اشتقاق خالويه» و «الحجة في القراءات السبع». وله آراء نحوية خلط فيها المذهبين البصري والكوفي، وتدل مصطلحاته الكوفية على هذا. منها مصطلح «الصفة» لحرف الجر و «النعت» للصفة. ومن آرائه عَدُّه فعل الأمر فعلاً قائمًا بذاته وقسيمًا للمضارع والماضي، ولم يعد مقتطعًا من المضارع. وذلك انه تحدث عن المضارع وذكر احكامه ثم الماضي وقال بعدهما: «والأمر» «عذ» للمذكر و «عوذي» للمؤنث و «عوذا» للاثنين و «عوذوا» للرجال و «عذن» للنسوة و «وهو في هذا متابع البصريين. وقد يعرض رأييهما ولا يعلق عليهما بترجيح احدهما كما في قوله: «بسم» جر بباء الصفة وهي زائدة فان قيل: ما موضع «الباء» من «بسم الله»؟ ففي ذلك ثلاثة أجوبة، قال الكسائي: لا موضع «الباء» من «بسم الله». وقال البصريون موضع «الباء» رفع بالابتداء أو بخبر الابتداء فكأن التقدير: «أول كلامي بسم الله» أو: «بسم الله أول كلامي». وتابع سيبويه والبصريين في عدم جواز ادغام «الراء» في «اللام». قال: «فهل يجوز ادغام «الراء» في «اللام»؟ فقل: لا، وذلك ان سيبويه وغيره من البصريين لا يجيزون ادغام «الراء» في «السلام» نحو «اختر ليطة» لأن «الراء» حرف فيه تكرير فكأنه إذا ادغمه فقد أدغم حرفاً مشدداً... وادغام المشدد فيما بعده خطأ باجماع.[1]

هؤلاء هم النحاة الثلاثة الذين اشتهر بهم بلاط سيف الدولة في الشام واشتهروا فيه ويمكن أن يعدوا أول مجموعة تدخل حلب وتستقر فيها وتنشر علم اللغة والنحو في حلب وغيرها من مدن الشام. حيث أجروا فيه مجالسهم ومناظراتهم اللغوية والنحوية. وظل تلاميذ أبي علي وابن جني وابن خالويه يواصلون البحث والاطلاع ويروون علم شيوخهم في اللغة والنحو والصرف كما بقي بلاط سيف الدولة مصدر اشعاع لهذه العلوم وغيرها.[2] وجاءت بعد الدولة الحمدانية الدولة الفاطمية فبسطت سلطانها على مصر والشام. وبعدها الدولة الايوبية التي استمر فيها توحيد مصر والشام. ونشأت فيها حركة علمية نشيطة صاحبها تنقل علماء اللغة والنحو وغيرهم بين هذين القطرين وبينهما وبين غيرهما من الاقطار انتجت وحدة في الدرس النحوي وفي النحاة والآراء بوجه عام. ولم يعرف أن للشام مدرسة نحوية خاصة نشأت من بيئتها مدرستها الدينية، وكما نشأت مدارس النحو في الامصار الاسلامية الاخرى، وانما كان للنحاة الذين عرفوا فيها ممن رحلوا عن بلدانهم وتنقلوا في البلاد الأخرى واستقروا في كل بلاد زمنا يسمعون ويفيدون ويستفيدون مثل هؤلاء

---

(١) تنظر هذه الآراء في اعراب ثلاثين سورة ٤ ، ٩ ، ١٢ وينظر في مثلها من آرائه الحجة ١٢٨ و ٣١.

(٢) ينظر ظهر الاسلام ١/ ١٨٦- ١٨٧.

الثلاثة، ومثل نحاة آخرين عرفوا بالرحلة والتطواف في البلدان كابن مالك وأبي حيان وابن هشام وغيرهم من أعلام النحو. الا ان هناك بعض النحاة جاء في تراجم حياتهم انهم استقروا زمناً في الشام ودرسوا فيه في العصور التالية منهم:

١- ملك النحاة:

وهو الحسن بن صافي بن نزار المتوفى بدمشق سنة ٥٦٨ هـ. درس النحو على أبي الحسن الاسترابادي الفصيحي، ودرّسه في جامع بغداد وسكن واسط مدة أخذ عنه فيها جماعة من أهلها ومنها اتجه إلى الشام فنزل دمشق وقام بتدريس ما تثقف فيه ولا سيما النحو، وبها مات.[١]

٢- تاج الدين الكندي:

زيد بن الحسن زيد الامام تاج الدين أبو اليمن الكندي المتوفى ٦١٣ هـ، ولد ببغداد سنة ٥٢٠ هـ وقرأ العربية على ابن الشجري وابن الخشاب والجواليقي أبي موهوب، قدم دمشق بعد أن استوطن حلب مدة، وفي دمشق استقر وأفتى ودرّس وصنف.[٢]

٣- ابن معط:

يحيى بن عبد النور أبو الحسين زين الدين الزواوي من «بجاية» بشمال افريقية من مدن الجزائر. ولد بالمغرب سنة ٥٦٤ هـ وتوفي بمصر ٦٣٨ هـ. قرأ بالمغرب النحو على أبي موسى الجزولي صاحب المقدمة الجزولية في النحو، ثم رحل إلى المشرق ومكث مدة في دمشق اقرأ بها النحو. صنف «العقود والقوانين» في النحو ونظم شرحاً لأبيات سيبويه، وسبق ابن مالك إلى نظم النحو في ألفيته المشهورة باسمه جمع فيها قواعد النحو والصرف.[٣].

---

(١) ينظر وفيات الاعيان ١/ ١٣٤ ومعجم الأدباء ٣/ ٧٤- ٨١ وبغية الوعاة ١/ ٥٠٤- ٥٠٥.

(٢) ينظر انباه الرواة ٢/ ١٠- ١٤. وبغية الوعاة ١/ ٥٧٠- ٥٧٣ والحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ٢٠١- ٢٠٣.

(٣) ينظر انباه الرواة ٤/ ٣٨. وبغية الوعاة ٢/ ٣٤٤ والحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ٢٠٤- ٢٠٥. ونشأة النحو ١٦٧.

٤- ابن الحاجب:

هو أبو عمرو عثمان جمال الدين بن عمر المشهور بابن الحاجب ولد بـ «أسنا» من مدن مصر، اشتغل في صغره بالقرآن الكريم ثم بالفقه على مذهب الامام مالك وبرع في العربية، والقراءات ثم انتقل إلى دمشق ودرَّس بجامعها في زاوية المالكية. وكان الأغلب عليه علم العربية صنّف «الكافية» في النحو «والشافعية» في التصريف وله «الامالي» في موضوعات شتى. ثم عاد إلى القاهرة واشتغل بها ثم رحل إلى الاسكندرية وبها مات سنة ٦٤٥ هـ[(١)].

٥- ابن يعيش:

هو يعيش بن علي بن يعيش بن يحيى النحوي الحلبي موفق الدين أبو البقاء، موصلي الأصل ولد سنة ٥٥٣ هـ بحلب وبها نشأ وقرأ النحو على فتيان الحلبي، وكان فاضلاً ماهراً في النحو والتصريف، رحل من حلب في صدر حياته قاصداً بغداد ليدرك أبا البركات بن الأنباري فبلغه خبر وفاته بالموصل. قدم دمشق وتصدر بحلب للاقراء زماناً وشاع ذكره فيها، وغالب فضلاء حلب تلامذته كان حسن الفهم، صنف «شرح المفصل» للزمخشري، «وشَرْحَ تصريف ابن جني»، مات بحلب سنة ٦٤٣ هـ[(٢)].

٦- ابن مالك:

محمد بن عبد اللّه بن مالك ولد بالاندلس في مدينة «جيان» سنة ٦٠٠ هـ وسمع بدمشق من السخاوي والحسن بن الصباح وجماعته، وأخذ العربية عن غير واحد وجالس بحلب ابن عمرون وغيره، وتصدر بها لاقراء العربية وصرف همته إلى اتقان لسان العرب حتى بلغ الغاية فيه وأربى على المتقدمين، كان اماماً في القراءات وعِللها وكان اليه المنتهى في اللغة والاكثار من نقل غريبها والاطلاع على وحشيها، واما النحو والتصريف فكان فيهما بحراً لا يجارى وحَبْراً الايُبارى، واما اشعار العرب التي كان يستشهد بها في اللغة والنحو فكان الائمة الاعلام يتحيرون فيه ويتعجبون من أين يأتي بها.

---

(١) ينظر وفيات الاعيان ٢/ ٤١٣- ٤١٤ وبغية الوعاة ٢/ ١٣٤. ونشأة النحو ١٦٨- ١٦٩ وابن الحاجب النحوي. آثاره ومذهبه. طارق بن عون الجنابي.

(٢) ينظر وفيات الاعيان ٦/ ٤٥- ٥١ وبغية الوعاة ٢/ ٣٥١- ٣٥٢.

أقام بدمشق مدة يصنف ويشتغل وتصدّر بالتربة العادلية وبالجامع المعمور، وتخرج به جماعة كثيرة، وصنف تصانيف مشهورة. روى عنه ابن الامام بدر الدين والبدر بن جماعة، قال أبو حيان: بحثت عن شيوخه فلم أجد له شيخاً مشهوراً يعتمد عليه ويرجع في حل المشكلات إليه، إلا أن بعض تلاميذه ذكر انه قال: قرأت على ثابت بن حيان بجيان، وجلست في حلقة أبي علي الشلوبين نحواً من ثلاثة عشر يوماً، ولم يكن ثابت بن حيان من الأئمة النحويين وانما كان من أئمة المقرئين. قال السيوطي. له شيخ جليل هو ابن يعيش الحلبي الذي أخذ عنْه. ألّف كثيراً من الكتب النحوية التي اشتهرت وذاع صيتها وعُنِيَ بهَا وكانت وما زالت عماد الدرس النحوي في الاقطار العربية، ومن أشهرها وأكثرها ذيوعاً «الألفية» أو «الخلاصة» كما تسمى، ألّفها في حلب واختصر فيها ارجوزة أخرى في ثلاثة آلاف بيت سماها «الكافية الشافية»، ألّفها في حلب أيضًا، وكتاب «الفوائد» ولخص منه «تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد»، وله «عمدة الحافظ وعدة اللافظ» و «شرح مقدمة الجزولي في النحو» ونظم «المفصل» للزمخشري. وله في الصرف كتاب «التصريف» وشرحه، وكتاب «لامية الافعال». وألّف كتاب «شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح» اهتمّ فيه بتخريج الاحاديث الواردة في صحيح البخاري التي خالفت القياس في العربية. توفي سنة ٦٧٢ هـ. وكان مطلعًا على الحديث اطلاعًا واسعًا لاشتغاله بتحقيق «صحيح البخاري» مع الحافظ اليونيني وألّف على الأحاديث المشكلة كتابه «شواهد التوضيح» ولهذا كان يكثر الاحتجاج بالحديث في اثبات قواعد وأقيسة جديدة في النحو والصرف مبنية على ما جاء في هذه الأحاديث حتى لامه أبو حيان وغيره ممن تحدثوا عن الاحتجاج بالحديث.[١]

٧- بهاء الدين بن النحاس:

هو محمد بن ابراهيم بن محمد بن أبي نصر الامام أبو عبد الله بهاء الدين ابن النحاس الحلبي النحوي. ولد سنة ٦١٧ هـ بحلب، وأخذ العربية عن الجمالي ابن عمرون والقراءات عن الكمال الضرير، وسمع الحديث عن ابن اللتي وابن يعيش وأبي القاسم ابن رواحة وغيرهم. دخل مصر وأخذ عمن فيها من الشيوخ، ثم جلس للإفادة، وتخرج به جماعة من الأئمة وفضلاء الأدب وكان من الأذكياء مشهوراً بالصدق والعدالة له ظَرْفُ النحاة وانبساطهم، كان معروفاً بحل المشكلات

---

(١) ينظر في الاحتجاج بالحديث: الاقتراح للسيوطي والشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه (بحث الحديث في القسمين) وأبو حيان النحوي (موضوع أبو حيان النحوي وابن مالك). وكتاب (موقف النحاج من الاحتجاج بالحديث النبوي الشريف).

والمعضلات واقتنى كتبًا نفيسة. قيل: انه لم يأكل العنب قط، فلما سئل عنه قال: لأني أُحبه فآثرت أن يكون نصيبي في الجنة. من تلامذته أبو حيان الذي كان يقول عنه: كان الشيخ ابن النحاس والشيخ محيي الدين المازوني شيخَي الديار المصرية، ولم الف أحداً أكثر سماعًا منه لكتب الأدب، تفرد بسماع صحاح الجوهري، وكان لا يأكل شيئًا وحده، وينهى عن الخوض في العقائد، درس صحاح الجوهري وكتاب سيبويه والايضاح والتكملة للفارسي والمفصل وغيرها. ولي تدريس التفسير بالجامع الطولوني، ولم يصنف شيئًا إلا ما أملاه شرحًا لكتاب «المقرب» توفي سنة ٦٩٨ هـ.(١)

أما خصائص النحو في الشام فقد تغلبت عليها روح النحو الاندلسي الذي هو مزيج من النحوين البصري والكوفي مع بعض آراء المدرسة البغدادية وذلك لأن معظم النحاة الذين وجدوا في الشام منذ زمن سيف الدولة كانوا بصريين يخلطون نحوهم ببعض المصطلحات أو الآراء الكوفية مضيفين إلى هذا وذاك بعض ما استنبطوه هم من آراء جمعوا فيها مذهبي المدرستين، وأوجدوا لهم منهما رأياً خاصاً يقف بينهما أو يستقل عنهما، وكان المتأخرون عنهم ممن وجد في الشام واستقر مدة طالت أو قصرت يحملون نحواً فيه صفات النحو المصري والنحو الأندلسي، ولذلك لم يبق للنحو في أية بيئة من بيئاته في المشرق أو المغرب روح مستقلة أو منهج متميز بل أصبح نحواً عاماً يغلب عليه المنهج البصري.

---

(١) ينظر بغية الوعاة ١/ ١٣- ١٤ والحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ٢١٥- ٢١٦ ونشأة النحو ٢١٢- ٢١٣.

المغرب العربي

لما حرر العرب «المسلمون شمال افريقية الذي عرف بـ «المغرب العربي» كانوا يقسمونها إلى ثلاثة أقسام: مملكة افريقية، وهي المغرب الأدنى وقاعدتها «القيروان» وسمي: «أدنى» لأنه أدنى إلى بلاط العرب ومركز الخلافة، والمغرب الأوسط، وقاعدته «تلّمسان» و «الجزائر» والمغرب الأقصى وقاعدته «فاس» في مراكش»[1]. دخلها المسلمون محررين في أوائل عهد الدولة الاسلامية ولقوا في سبيل تحريرها عناءً كبيراً وبذلوا ضحايا كثيرة حيث استمر ذلك من سنة ٢٦ هـ إلى سنة ٨١ هـ. وظل أهل هذه البلاد مرتعًا خصيبًا للدعاة الخارجين على الدولة لكل داع بمذهب جديد، قال ياقوت فيهم: «والبربر أجفى خلق الله، وأكثرهم طيشًا وأسرعهم إلى الفتنة وأطوعهم لداعية الضلالة وأصغاهم لنمق الجهالة، ولم تخل جبالهم من الفتن وسفك الدماء قط.. فكم من ادعى فيهم النبوة فقُبلوا، وكم زاعم فيهم انه المهدي الموعود به فأجابوا داعيَه ولمذهبه انتحلوا، وكم ادَّعى فيهم مذاهب الخوارج فالى مذهبه بعد الاسلام انتقلوا»[2] ولذلك قامت به دول متعاقبة، فقد خرج إلى المغرب الأقصى ادريس بن عبد الله بن الحسن بن المثنى بن الحسن السبط بن علي ابن أبي طالب سنة ١٦٩ هـ ونشر دعوته وأسلم على يده خلق كثير فبويع له بالخلافة سنة ١٧٣ هـ. وأسس دولة تسمت «دولة الادارسة» استمرت إلى سنة ٣٧٥ هـ فاكتسحتها دولة العُبَيديين- دولة الفاطميين-. وقام بنو الاغلب بتونس ودولتهم تنسب إلى ابراهيم بن الاغلب التميمي، حكمت من سنة ١٨٤ هـ وقد عظُمت دولتهم وانشأت اسطولاً قوياً في البحر الأبيض فتحوا به «صقلية» و «مالطة» و «سردينية» وكان عهدهم عهد سيطرة قوية على البحر، واستمروا في الحكم حتى سنة ٢٩٦ هـ- حيث استولى عليهم العبيديون ايضًا، ثم جاءت الدولة العبيدية التي كان منشؤها بالمغرب فبسطت سلطانها على جميع بلاد المغرب من حدود مصر إلى المحيط الأطلسي مضافًا اليها صقلية وسردينية. وقد بدأ ملكهم على يد أبي محمد عبيد الله المهدي سنة ٢٩٦ هـ واستمر المُلك في أولاده حتى توفي منهم المُعِزّ، فلما انتقل إلى مصر سنة ٣٩٢ هـ وتتابعت فتوحهم في الشام والحجاز واليمن وقوي سلطانهم فيها ضعف سلطانهم في المغرب. وهكذا تتابعت عليهم الدول الحاكمة. لقد أخذ المسلمون منذ دخولهم هذه البلدان يعملون على ادخال البربر في الاسلام وتثقيفهم وتحضيرهم، وتوالى على بلاد المغرب امراء عظام عملوا في هذه السبيل اعمالاً جليلة. فكان حسان بن النعمان الغساني هو

---

(١) ظهر الاسلام ١/ ٢٩١.

(٢) معجم البلدان ١/ ٣٦٩.

الذي دوّن الدواوين باللغة العربية وأمر موسى بن نصير العرب أن يعلموا البربر القرآن والفقه، واستطاع أن يجعل غالبية البربر يسلمون على أيدي العرب ثم أسلم بقيتهم على يد اسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر سنة ١٠١ هـ أيام عمر بن عبد الغزيز، وقد أرسل عمر بن عبد العزيز عشرة من التابعين يفقهون أهل المغرب في الدين، وفي أيام هشام بن عبد الملك فرّ قوم من الخوارج من العراق إلى المغرب وبثوا مبادئهم فسرت دعوتهم في البربر، وفي أيام هرون الرشيد وُلِّيَ على المغرب يزيد بن هشام بن المهلب بن أبي صفرة، قال ابن خلدون: وفي ايامه انخضدت شوكة البربر واستكانوا للغلب وأطاعوا الدين. وفي عهد العباسيين أخذ أهل المغرب بمذهب أهل العراق «مذهب أبي حنيفة» لأنه كان مذهب الخلفاء بالمشرق وبقي هذا المذهب إلى ما قبيل نهاية القرن الرابع حيث جاء المعز ابن باديس المتوفى في أواسط الخمسمائة وساعد على بث مذهب الشيعة لأنه كان متابعاً لأسلافه الفاطميين أيام استيلائهم على المغرب. ثم قطع المعز دعوة الشيعة ودعا لبني العباس وحث الناس على التمسك بمذهب مالك وكان معروفاً في هذه البلاد من قبل.

هذه الأحداث أدت إلى دخول عدد كبير من العرب في هذه البلاد. ونشر الاسلام واللغة العربية فيها وتثقيف الناس بالقرآن وقراءاته وعلومه وبالأدب العربي، وأدى اختلاط العرب وغيرهم من المسلمين بأهل هذه البلاد بالتزاوج والتوالد، ووقوعها بين البلاد المتحضرة ولا سيما مصر والأندلس، وكثرة الرحلات بين علماء هذه البلاد، كل هذا أدى إلى نقل أهل بلاد المغرب من كونهم برابرة جفاة غلاظ الطباع إلى امة لها مدنية، ولها حضارة ولها ثقافة، وأصبحت لهم حركة علمية عقلية تؤرّخ ويكون لها شأن بين الثقافات الأخرى. اشتهرت بلاد المغرب بالعناية بالحديث والفقه واشتهر فيها كثير من الفقهاء وشاع فيها الفقه المالكي ثم الحنفي الذي اخذه من العراق.[1] وقوي التأليف في الأدب واللغة واشتهر من هؤلاء المؤلفين القزاز القيرواني وابراهيم بن علي الحصري القيرواني وغيرهما[2]. وظهر في المغرب نحاة ولغويون كثيرون.

---

(١) ينظر ظهر الاسلام ١/ ٢٩٤- ٢٩٧.

(٢) ظهر الاسلام ١/ ٣٠٤- ٥٠٤.

اوائل النحاة:

لقد أفرد الزبيدي قسمًا من كتابه «طبقات النحويين واللغويين» للنحاة واللغويين القرويين والمقصود بهم من كان في شمال افريقية ومن هؤلاء:

١- عياض بن عوانة بن الحكم بن عوانة الكلبي النحوي:

عده الزبيدي وحده في الطبقة الأولى، كان جده عالماً بأنساب العرب وأيامها وكان أبوه عالماً اديبًا من أهل الكوفة وعنه أخذ المهري كثيرًا من النحو والشعر(١).

٢- ابراهيم بن قَطَن المهري، ٣- وأبو الوليد عبد الملك بن قطن المهري:

أخوه وكان أعلم من ابراهيم بالنحو والعربية، قيل ان سبب تعلمه العربية ان أخاه ابراهيم رآه يومًا وقد مد يده إلى كتبه يقلبها فأخذ كتابًا منها وجعل يقرأه فجذبه ابراهيم من يده وقال له: مالك ولهذا؟ وأسمعه كلامًا وبخه به فغضب أبو الوليد لِما قابله أخوه فأخذ في الطلب حتى علا عليه وعلى أهل زمانه كلهم فاشتهر ذكره وعلا قدره. وكان يعد شيخ أهل اللغة العربية والنحو والرواية ورئيسهم وعميدهم والمقدم في عهده وزمانهم عليهم.

كان من أحفظ الناس لكلام العرب وأشعارها، وكانت الأشعار المشروحة تقرأ عليه مجردة من الشرح فيشرحها ويفسر معانيها فلما دخلت المشروحات نظر طلبة العربية والنحو فيها وفيما كانوا رووا عنه منها فلم يجدوا في شرحه خلافًا لما قال أصحاب الشرح ولا وجدوا عليه في روايته وتفسيره من خطأ. لقي جماعة من العلماء بالعربية والمعروفين بالرواية منهم ابن الطرماح وعياض بن عوانة وأبو عبد الرحمن المقرئ الكوفي وقتيبة النحوي وكثير من الاعراب منهم أبو المنيع الأعرابي. وله كتب كثيرة منها: كتب تسمى «كتب الألفاظ» وكتاب في اشتقاق الأسماء مما لم يأت به قطرب. توفي سنة ٢٥٣ هـ.

٤- ابو سعيد بن حرب بن غورك:

كان يقال انه أعلم من المهري بالقرآن وبحدود النحو. ذكره الزبيدي في نحاة القيروان كان كثير الوقار. قليل الكلام.

---

(١) طبقات النحويين واللغويين ٢٤٦- ٢٤٧.

٥- أحمد بن أبي الأسود النحوي:

كان غاية في علم النحو واللغة، وهو من أصحاب أبي الوليد المهري، وله مؤلفات في النحو والغريب.[١]

٦- حمدون النحوي:

المعروف بـ «النعجة» هو أبو عبد الله حمدون بن اسماعيل، وكان مقدماً بعد المهري في اللغة والنحو، وكان يقال انه أعلم بالنحو خاصة من المهري لأنه كان يحفظ كتاب سيبويه وله كتب بالنحو، وهو في العربية والغريب والنحو والغاية التي لا بعدها. توفي بعد المائتين.

٧- أبو محمد عبد الله بن محمود المكفوف النحوي:

كان من أعلم خلق الله بالعربية والغريب والشعر وتفسير المشروحات، أدرك المهري وأخذ عنه. له كتب كثيرة املاها في اللغة والعربية والغريب، وعليه قرأ الناس المشروحات واليه كانت الرحلة من افريقية والمغرب. وكان يجلس مع حمدون في مكتبه فربما استعار بعض الصبيان كتاباً فيه شعر أو غريب أو من أخبار العرب فيقتضيه صاحبه فيه، فإن ألح عليه أعلم بذلك أبا محمد المكفوف فيقول له: اقرأه علي فإذا فعل قال: أعده ثانية ثم يقول: رده على صاحبه، ومتى شئت فتعال حتى أُمليه عليك. توفي سنة ٣٠٨ هـ.

٨- المدني:

أحمد بن محمد من أهل تونس، كان عروضيًا نحويًا يؤدب الصبيان ويثقفهم على حدود العربية.

٩- خلف بن مختار الاطرابلسي:

كان صاحب نحو ولغة، وكان يبخل بعلمه، قال أبو عثمان سعيد بن اسحاق الشمخي: سألت خلف بن مختار ان اقرأ عليه قصيدة النابغة:

---

(١) ينظر طبقات النحويين واللغويين ٢٥٤- ٢٥٥. وبغية الوعاة ١/ ٥٨٦ في ابن غورك.

يا دار ميةَ بالعلياء فالسند

فقال: افعل فانشدته حتى انتهيت إلى قوله:

فظل يعجم أعلى الرَّوق منقبِضا في حالك اللونِ صَدْقٍ غير ذي أوَدِ

فقال لي ليختبرني- وقد علمت ما أراد- ما الصَّدق؟ قلت: لا أعلم. قال: فما الصِّدقُ بالكسر- قلت: الصدق من القول، قال لي فيجب عليك أن تروي ما تعرف وتدع مالا تعرف. فانشدتّها بالكسر لأعلم ما يكون منه، فرأيته يبتسم وكان انشاديها ليلاً في المسجد الجامع وكنت أحفظها، فقلت: لمَ تبسَّمتَ؟ الصَّدق: الصُّلب، وكذلك الرواية، ولكن تجاهلت لكَ لأعلم ما يكون منك. فخجل من ذلك وقال: أنشد ما أحببت، فإني لا أخفي عنك شيئًا، فكان بعد تلك الليلة كما وعد. كان مولده سنة ٢١٥ هـ وتوفي سنة ٢٩٠ هـ.[١]

١٠- علي بن الحضرمي:

كان نحويًا شاعراً أديبًا، وكان بقربه رجل قد نظر في النحو أيضًا فكانا يتراسلان بالمسائل في النحو.

١١- محمد بن سالم المعروف بـ «العقعق»:

من أهل طرابلس كان صاحب نحو ولغة.

١٢- ابن الحداد سعيد بن محمد الغساني أبو عثمان:

كان عالماً بالعربية واللغة له كتب كثيرة منها: «توضيح المشكل في القرآن» و «كتاب الامالي».

١٣- عبد الله بن عبد الله النحوي القَيَّاس الجُهَني:

كان نحويًا قيّاسًا.

١٤- ابن أبي عاصم اللؤلؤي:

كان من العلماء النقاد في العربية والغريب والنحو والحفظ لذلك لازم أبا محمد المكفوف

---

(١) ينظر طبقات النحويين واللغويين ٢٥٦- ٢٥٧. و ٢٥٧- ٢٥٩ و ٢٥٩- ٢٦٠.

النحوي وأخذ عنه، ألّف كتاباً في الضاد والظاء وحسّنه وبينه.[1]

١٥- ابن الوزان النحوي أبو القاسم ابراهيم بن عثمان:

كان أبوه يتفقه بفقه العراقيين. عُدّ امام الناس في النحو وكبيرَهم في اللغة وعظيمهم في العربية والعروض مع قلة ادّعاءٍ. وانتهى من علم النحو في حداثته إلى أن كان أبو محمد عبد اللّه بن محمدالأُموي المكفوف[2] إذا وردت عليه مسائل النحو سأله الاجابة عنها، وأقر له بالتقدم في ذلك، وانتهى من اللغة ما لعله لم يبلغه أحد قبله. حفظ كتاب «العين» للخليل، وكتاب «الغريب المصنف» لأبي عبيد وكتاب ابن السكيت[3] وغيرها من كتب اللغة، وحفظ كتاب سيبويه ثم كتب الفراء. وكان يميل إلى قول أهل البصرة مع علمه بقول الكوفيين، وكان يفضل المازني في النحو وابن السكيت في اللغة. قال الزبيدي: «ولو أن قائلاً قال انه اعلم من المبرد وثعلب صدَّقَه من وقف على علمه ونفاذه، وزعم جماعة ممن جالسوا ابن النحاس المصري من أهل الاندلس وأهل المشرق ثم جالس ابا القاسم، يزعمون انه اعلم من ابن النحاس وأكمل نظراً، وكان من أضبط خلق اللّه، وهو مع ذلك حسن الاستخراج والقياس، وقلما اجتمع الحفظ وحسن الاستخراج. فقد كان يستخرج من مسائل النحو والعربية أموراً لم يتقدمه فيها أحد، وأمره في هذا يفوق كل أمر، وكان غاية في استخراج المعمّى وله آراء في النحو واللغة من ذلك انه يقول «العرب تقول: «رَجُلُ» و «رَجْلُ» وهي لغة بني تميم وربيعة قال شاعرهم:

وأحْفَظُ من أخي ما حَفْظَ مني — ويكفيني البلاء إذا بلَوتُ

وعلى هذا جاء: «سُرْقَ»[4]، ويذهب إلى ان في «الذي» خمس لغات «الذي» بياء خفيفة و

---

(١) طبقات النحويين واللغويين ٢٦٠ و ٢٦١ و ٢٦٥ وبغية الوعاة ١/ ٢١٤ و ١٠٨ و ٥٨٩ و ٤٦.

(٢) في ص ٢٥٧ من الطبقات (بن محمود) وكما في رقم ٧ ص ٤٤٦ من هذا الكتاب.

(٣) ربما يريد «اصلاح المنطق».

(٤) يوسف ٧٧، وفيها «سرق»- بثلاث فتحات وفي البحر المحيط ٥/ ٣٣٣- ٣٣٤: انه قرئ «سرق» بتشديد الراء والبناء للمجهول- أي نسبت إلى يوسف وأظن الكلمة هنا «سرق»- بضم السين وسكون الراء مخففة منها كما في طبقات النحويين واللغويين.

«الذيّ» بالتشديد و «ألذِ» بحذف «الياء» وكسر الذال و «اللّذْ» باسكان الذال،[1] ويرد في حال الرفع والنصب والجر. ومن آرائه في الأبنية قوله: «وجاء «فَعِلَ يَفْعِلُ» في ثلاثة أحرف قالوا: «حسب- يحسب» و «بئس- يبئس» و «يبس ييبس» ويجوز فيها الفتح في المضارع، وجاء في ثمانية أحرف من المعتل: «وَرِم يَرِمُ» و «وَرِيَ الزّندُيَري» و «وَرِثَ يَرِثُ» و «وَرِعَ يَرِعُ» و «وَلِي يَلِي» و «وَمِقَ يَمِقُ» و «وَثِقَ يَثِقُ» و «وَفِقَ يَفِقُ» و «وَلِهَ يَلِهُ» و «يَوْلَه» و «وَهِلَ يَهِلُ ويَوْهَل»[2] ومن ذلك ان الامام الشافعي فسّر قوله تعالى: «ذلك أدنى ألا تعولوا»[3] بـ «الا يكثر عيالكم» فقال ابن الوزان: اخطأ الشافعي، يقال: «عال، يعيل» إذا افتقر، و «أعال» إذا كثر عياله. و «عال يعول عولا» إذا جار، ومنه قول الله جل ذكره: «ألا تَعُولوا» و عال الشيء يعول عولاً إذا زاد. عالت الفريضة، و «عالني الشيء يعولني» إذا اثقلني، ومنه قول الخنساء:

ما كان أدنى ولكنه سيكفي العشيرة ما عالها

ويقال: «عال يعيل عولاً» إذا تبختر. قال الزبيدي بعد ذكر هذه الآراء: «ولقد مات بموت أبي القاسم علم واسع وأدب بارع. وتوفي رحمه الله سنة ٣٤٦ م»[4].

هؤلاء هم النحاة الذين ترجم لهم الزبيدي باسم «القرويين» وتابعه من جاءوا بعده من كتاب الطبقات ولم يزيدوا عليه شيئًا مهمًا، ولم يذكر الزبيدي في أخبار هؤلاء انهم رحلوا إلى المشرق أو ان أحداً من المشارقة وفد اليهم وأخذوا عنه، والمعروف أن المغرب واقعة بين مصر والاندلس يمر بها الرائح إلى الاندلس أو مصر والغادي منهما، وانها أقرب إلى بلاد المشرق من الاندلس والرحلة منها إلى المشرق أسهل وأقرب، وان هذه الرحلات بين الجهتين كانت قد نشطت وقويت ولا سيما في ظل الامويين والأغالبة والفاطميين وازدهرت بها حركة نقل العلوم ولا سيما علم النحو وازداد ازدهارها في عصر ملوك الطوائف بعدسنة ٤٢٨ هـ فازدهرت الدراسات النحوية في الاندلس والمغرب وانتعشت وظهر فيها علماء ضارعوا علماء المشرق، وانتشرت دراسة النحو في سائر المدن، وأصبح النحو فيها يحكي النحو في العراق في عصره الزاهر، وانصرف علماء المشرق إلى ما درسوه ودونوه وحفظوه من كلام العرب بعد أن فسدت السليقة في البادية في أواسط القرن الرابع، ولم يعد هناك جديد يروونه. ولا عجب ان يصنع المغاربة صنيع هؤلاء العراقيين في اكتفائهم «بما

(١) هذه أربع لغات ولم تذكر الخامسة (طبقات النحويين واللغويين ٢٧٠- ٢٧١).

(٢) هذه عشر كلمات وليست ثمانية كما ذكر (ينظر في طبقات النحويين واللغويين (٢٧٠- ٢٧١).

(٣) النساء ٣.

(٤) ينظر طبقات النحويين واللغويين ٢٦١- ٢٧١.

نقلوا من السنة وكلام العرب المروي لهم عن علماء المشارقة، والقواعد التي تلقنوها منهم فلم يرتحلوا بعد إلى المشارقة»[1] بعد نهاية هذا القرن، بل عكفوا على ما حصلوا عليه وصدقوا العزيمة في تثمير بعض ما عندهم ورأوا أن انعام النظر والفكر في المسائل التي بين أيديهم يوحي ويلهم باستكمال بعض ما فات من نقص، واستدراك بعض ما لم يُتَنَبَّهْ عليه من أمور وأحكام. وهكذا بدأ الاندلسيون والمغاربة يفعلون بعد استغنائهم عن المشارقة واعتمادهم على أنفسهم في دراسة ما بين ايديهم، وقد أثمرت هذه الدراسة وهذا التتبع استدراكهم على المشارقة مسائل فاتتهم، ووُجِدت لهم آراء خاصة بهم كونت مذهبًا عرف بمذهب المغاربة أو الاندلسيين ظهرت بوادره في القرن الخامس الذي يعد بحق فجر النهضة النحوية في هذه البلاد، وكانت نهضةً رائدُها حبُّ هذا العلم بدأت وازدهرت بدخول كتاب سيبويه في هذه البلدان.[2] وكنا قد عرفنا ان الاندلسيين كانوا قد رحلوا إلى المشرق وتحملوا مشاق السفر والتغريب والتنقل بين البلاد في سبيل الحصول على نسخ لكتاب سيبويه من العراق أو ممن يملكه في مصر استنسخوها وحملوها معهم إلى الأندلس، وكذا كان الحال عند المغاربة إذ اعتنوا بالكتاب عناية كبيرة ودرسوه ونظروا في مسائله وتعمقوها وبنَوا لهم آراءً خاصة بهم في بعضها وظهر بينهم عدد من النحاة من أشهرهم: **الخِدَبْ أبو بكر بن طاهر الانصاري الاشبيلي** المتوفى في بجاية سنة ٥٨٠ هـ.

ولد في اشبيلية ودخل إلى مراكش ودرس في «فاس» كتاب سيبويه وذا ع اسمه فأقبل الناس عليه من الجهات النائية، وله طرر على الكتاب[3] **وعيسى ابن عبد العزيز بنَ يللبَخْت الجزولي المغربي** بربري النسب. وجزولة قبيلة من البربر. رحل إلى المشرق والمغرب وحج وعاد إلى مصر وقرأ النحو على الشيخ ابن بري المصري الدار، ولما قرأ الجزولي على ابن بري كتاب «الجمل» للزجاجي سأله عن مسائل في أبواب الكتاب أجابه عنها، وقد علقها الجزولي على الكتاب ونقلها الناس عنه في المغرب وكان يقول انهما لابن بري. مات الجزولي سنة ٦٠٥ أو ٦٠٧ هـ.[4]

---

(١) نشأة النحو ١٧١.

(٢) ينظر نشأة النحو ١٦٩– ١٧١.

(٣) انباه الرواة ٤/ ١٨٨– ١٨٩.

(٤) انباه الرواة ٦/ ٣٧٨– ٣٧٩ وبغية الوعاة ٢/ ٢٣٦– ٢٣٧.

نحوهم:

ومن آراء المغاربة منعهم توكيد العائد المنصوب المحذوف قياسًا في نحو «جاء الذي ضربت نفسه»[١]. واعتبار الفعل القلبي معلقًا عن الجملة المسبوقة بالمعلق بعد المفعول الأول. قال ابن هشام: «قال جماعة من المغاربة: إذا قلت: «علمت زيدًا لأبوه قائم» أو «ما أبوه قائم» فالعامل معلق عن الجملة، وهو عامل في محلها النصب على انها مفعول ثان، وخالف في ذلك بعضهم لأن الجملة حكمها في مثل هذا ان تكون في موضع نصب، وان لا يؤثّر العامل في لفظها، وان لم يوجد معلق وذلك نحو: «علمت زيدًا ابوه قائم»[٢]. وتجويزهم تأخير «حال» الفاضل عن اسم التفضيل، قال السيوطي: «واجاز بعض المغاربة تأخير الحالين عن «أفعل» بشرط أن يليه الحال الأولى مفصولة عنه من الثانية فيقال: «هذا اطيب بسرًا منه رطبًا» و «زيد أشجع أعزل من عمرو ذا سلاح». قال أبو حيان: وهذا حسن في القياس لكنه يحتاج إلى سماع[٣].

واعتبارهم نصب «غير» في الاستثناء كنصب المستثنى بـ «إلا» قال ابن هشام: «وانتصاب «غير» في الاستثناء عن تمام الكلام عند المغاربة كانتصاب الاسم بعد «إلا» عندهم.[٤] وتجويزهم العطف في تمييز المقدار المكون من الجنسين نحو: «عندي رطل سمنًا وعسلاً» قال السيوطي: «وقال بعض المغاربة: الأمران سائغان، العطف وتركه»[٥] وعدم اعتبارهم العطف بـ «أم» المنقطعة مطلقًا، قال الصبان: «فابن جني والمغاربة يقولون ليست بعاطفة أصلاً لا في مفرد ولا في جملة».[٦] وتصحيحهم عمل «أن» المخففة المفتوحة في الظاهر أيضًا. قال السيوطي: «الثاني: تعمل في المضمر وفي الظاهر نحو: «علمت أن زيدًا قائم» وقرئ: «أن غَضَبَ اللهِ عليها»، وعليه طائفة من المغاربة».[٧] وقصرهم حذف «أن» الداخلة على الفعل المضارع على السماع سواء أبقي منصوبًا أم

---

(١) شرح الأشموني ١/ ٨٠.

(٢) مغني اللبيب ٢/ ٤٦٦.

(٣) همع الهوامع (سالم) ٤/ ٣٠.

(٤) مغني اللبيب ١/ ١٧١.

(٥) همع الهوامع (سالم) ٤/ ٦٦.

(٦) حاشية الصبان في عطف النسق.

(٧) النور ٩ وهمع الهوامع (سالم) ٢/ ١٨٤.

رفع، قال الاشموني: «واليه ذهب متأخرو المغاربة، قيل: وهو الصحيح»[1].

من هذا العرض الذي حاولت أن يكون موجزاً لبيئات النحو في الاقطار العربية «الحجاز واليمن والشام والمغرب» احطنا علماً بأن هذه الأقطار لم تكن فيها مراكز للنحو ودراسته وتدريسه نابعة من البيئة نفسها كما في البصرة، وليس لها منهج معين في دراسته كونته لنفسها مجددة فيه أصول درسه أو منهج البحث فيه كالكوفة، ولم تنشأ فيها دراسة قرآنية نابعة من بيئتها متطورة بفعل ما نقل اليها من البيئات الأخرى ثم اختلطت ونضجت بمن تحول اليها من الأقطار الاسلامية الأخرى. كما في مصر، ولم يكن لها تاريخ لدراسة نحوية منقولة إليها بعد التحرير الاسلامي لارضها ثم تطورت ونمت بتأثيرمن رحلوا منها، أو اليها وجلبوا معهم نحو المركزين الاصليين للنحو العربي وهما البصرة والكوفة ونشأ لها تأريخ نحوي متتابع معروف كما في الاندلس. وانما كان النحاة يدخلون اليها ويقيمون فيها مدة تطول أو تقصر، ويجلبون معهم النحو الذي عرفوا به واشتهروا في بلده الذي ورد منه، الا المغرب التي نشأ فيها نحاة هم إلى المؤدبين اقرب منهم إلى علماء النحو. ولم ينشأ مع هذا نحوهم من بيئتهم وانما جاء من بيئات النحو في المشرق العربي، وكان أساس اعتماد الجميع نحو البصرة ثم الكوفة.

---

(١) شرح الاشموني ٣/ ٤٧٢.

الخاتمة

نشأ علم النحو في البصرة لحاجات ودوافع متنوعة فَرَضَت هذا الوجود منها ما هو ديني ومنها ما هو اجتماعي أو قومي أو لغوي. وبدأت الخطوة الأولى بنقط المصحف نقط إعراب على يد أبي الأسود الدؤلي ليعين المسلمين على اختلاف أجناسهم وتباين ألسنتهم على تجنب الخطأ واللحن عند قراءة كتاب الله العزيز، ثم تلتها خطوات قامت على مناقشة الظواهر الواردة في آياته وتفسير الالفاظ بحسب ما يقتضيه المعنى العام لها، وقد أحوجهم هذا النوع من الدرس إلى ان يتعرفوا على ما في لغات العرب التي نزل بها القرآن الكريم من ظواهر صوتية وردت في قراءاته كالمد والهمز والتفخيم والترقيق والامالة وما اليها، أو تركيبية يؤدي فيها النطق بالكلمات إلى تغييرات في أحرفها بتأثير ما يتقدم عليها أو ما يتأخر عنها من حركات أو حروف مما يحدث ما يسمى بالادغام أو الإعلال أو الإبدال، أو إعرابية تتغير فيها حالة آخر الكلمة بتغير موقعها في العبارات وبتغير المعنى الذي تؤديه، لهذا كله خرجوا إلى بوادي الحجاز ونجد وتهامة يسمعون ويدوّنون، وعادُوا ليدرسوا ما جمعوه من لغة ويصنفوه ويقارنوا ما جاء في كتاب الله عليه ويفسروه به. وهكذا أنشأت هذه الدراسات ما سُمِّيَ «علم العربية» أو النحو وما يتبعه من دراسات صرفية أو صوتية. ولم تنشأ هذه العلوم فجأة ولم تنشأ ناضجةً أو متميزة، وانما نشأت نشأة طبيعية بحسب ما استدعته ظروف الدرس القرآني، أو المجلس اللغوي وما يدور فيه من بحوث ومناقشات واستنتاجات وما إليها مما أدى إلى وضع أصول هذا النحو وأقيسته. وقد قام بهذه الجهود المتواصلة رجال نذروا أنفسهم لخدمة كتاب الله ولغته العظيمة، ثم نمت هذه الدراسة وتطورت ونضجت واكتملت في هذا البلد العربي ومنه انتشر إلى الامصار العربية والاسلامية، فكانت الكوفة أول من أخذته عنها، ولم يكن أمر الدرس النحوي في البصرة خافيًا عن رجالها وعلمائها. وهما البلدان المتعاصران المتنافسان المتكاملان في العلوم الثقافية، وانما شُغِلَ علماء الكوفة طوال القرن الأول بعد تمصيرها بدراسات قرآنية وفقهية، وانصرفوا إلى رواية الشعر ونظمه، ولما التفتوا إلى ما وصلت اليه الدراسات النحوية في البصرة من نضج واشتهار ارادوا مشاركتها في هذا النوع من الدرس فرحل رجالها إلى البصرة وسمعوا عن شيوخها وخرجوا إلى البوادي ودونوا لغة الاعراب الفصحاء فيها وعادوا إلى الكوفة يحملون حصيلة رحلاتهم وهي النحو البصري بمادته وأصوله ومنهجه وأقيسته وما أضافوه إليه من سماعهم وما وجدوه في بيئتهم من أشعار تروى ولغات قبائل استقرت قريباً منهم، وعكفوا على هذا المسموع الذي توسعوا في قبوله يدرسونه ويستنبطون منه

ظواهر جديدة خرجت عن أقيسَة البصريين ولم يقفوا منها عند حد السماع وانما بنوا قَواعدَ جديدة وأقيسةً أخرى أجازوا إقامتها على المسموع الشاذ الفصيح، أو على اللغة الضعيفة التي لم يعتدها البصريون قياسًا، وأجاز بعضهم وضع أقيسة نظرية إن لم يجدوا مسموعًا يؤيدهم، وحاولوا بهذا المنهج الجديد المبنيّ على التوسع في السماع، والتوسع في القياس وبما أوجدوه من تسميات جديدة لبعض أبواب النحو وأقسامه أن يوجدوا لهم نحوًا يتميز بهذه الخصائص عن النحو البصري، عرف بالنحو الكوفي.

ولما كان النحاة الكوفيون الذين أسسوا النحو الكوفي ونشأ على أيديهم وتطور قد نزلوا بغداد وأقاموا فيها يدرسون ويدرِّسون. لم تعرف بغداد منذ نشأتها غير هذا النحو الكوفي الذي ظل مسيطرًا على مجلس الدرس النحوي في بغداد حتى نزل بها المبرد واستطاع بما له من ذكاء وتفوّق في الجدل والمناقشة وبما يحفظه من النحو البصري الأصيل، وبكتاب سيبويه الذي ضم النحو العربي الذي طوّره البصريون ونمّوه، وبقدوم المبرد عرفت بغداد نحوًا جديدًا ومنهج درس نحوي يختلف عما عرفوه وألّفوه فانحاز عدد كبير منهم إلى المبرد واطّرحوا النحو الكوفي وكتبه واستبدلوا به النحو البصري ممثلاً بكتاب سيبويه، وظل فريق منهم ملتزمًا بما نشأ عليه من النحو الكوفي ووُجِد فريق ثالث بقي يأخذ عن شيخه الكوفي النحوي الذي عرفه، مع حضوره مجلس المبرد ليسمع النحو البصري وليناقش ويقارن ويختار، نشأ عن هؤلاء جميعًا نحاة سموا بـ «البغداديين» وكوّنوا رجال الدرس النحوي في بغداد وهم بين بصري لا يأخذ بآراء الكوفيين في مصنفاته سواء أدرس على المبرد وثعلب أم على احدهما، وكوفي لم يأخذ بآراء البصريين درس على المبرد أم لم يدرس، وفريق ثالث خلط آراء المدرستين واختار من نحو المذهبين في مصنفاته، سمع عن الشيخين أم عن أحدهما مال إلى أحد المذهبين أم توسط بينهما.

ونشأت في مصر مدرسة نحوية لغوية صرفية نبعت من بيئة مصر نفسها معتمدة على ظواهر من هذه الأنواع الثلاثة اتضحت وتميزت بها قراءة قارئ مشهور مصري المولد والنشأة مدني الثقافة القرآنية، عراقي الثقافة النحوية واللغوية، وسميت مدرسته «مدرسة القراء النحوية». قامت فيها دراسات لغوية مبنية على ما في هذه القراءات، ولم تخرج عنها إلى بحث في غير لغة القرآن عن هذه الظواهر وكما فعلت مدرسة النحو المشرقي المصرية التي كانت تعتمد في دراستها وفيما صنّفه رجالها من دراسات على ما أخذوه ونقلوه عن النحو المشرقي عن طريق نحاة مصريين رحلوا إلى العراق وأخذوا عن نُحاته، أو نُحاة عراقيين نزلوا مصر واستقروا فيها يدرِّسون ويصنفون. وكان النحو البصري أول نحو دخل مصر لأن النحاة البصريين سبقوا غيرهم في الرحيل اليها، وكان كتاب سيبويه أول كتاب اعتُنِيَ به فيها بعد أن استنسخوه من رجال البصرة

وحملوه اليها وبعد حين دخل النحو الكوفي ممثلاً بتلاميذ الكسائي والفراء ومصنفاتهم، وظل النحو المصري خليطًا من النحوين مع بعض الآراء البغدادية التي حملها تلاميذ بغداديون رحلوا اليها من بغداد، وممثلاً للاتجاهين: اتجاه مدرسة القراء المصرية المعتمدة على الدراسات اللغوية والنحوية والصرفية في القراءات، ومدرسة النحو المشرقي المصرية حتى جاء أبو جعفر النحاس فوحد الاتجاهين وجمع بين المذاهب المختلفة وتمثل فيه وفي كتبه وآرائه النحو المصريّ على اختلاف وجهاته.

وقامت في الاندلس دراسة نحوية لم تكن نابعة من بيئتها وانما نقلت اليها بفعل النحاة القادمين إلى المشرق- العراق ومصر- وبجهود الراحلين إلى المشرق من الاندلسيين للسماع عن المشارقة وحمل ما يستطيعون حمله من مؤلفاتهم، وقد كان الراحلون من الاندلس أول الأمر من المؤدبين لأولاد الخلفاء أو لعامة الشعب ثم تطور علمهم بالنحو فصار منهم نحاة مشهورون عرف بهم النحو الاندلسي واشتهروا في مراكز الدرس النحوي في أقطار المشرق والمغرب.. وكان النحو الكوفي أسبق من غيره في الدخول إلى الأندلس، لأن من رحل من الاندلس واليها أول الأمر كانوا يذهبون إلى بغداد ويحملون معهم النحو الكوفي الذي كان مسيطرًا على مجلس الدرس النحويّ فيها وذلك لأن بغداد كانت عاصمة الدولة الاسلامية ومركز الثقافة آنذاك، ولهذا فقد عرف النحو الكوفي ممثلاً بنحو الكسائي والفراء ومؤلفاتهما في الاندلس وشاع بين الدارسين. فلما اختلط النحوان في بغداد بقدوم المبرد واستقراره فيها وغلبة النحو البصري وانحسار النحو الكوفي عن مجلس الدرس النحوي في بغداد عرف الاندلسيون ايضًا هذا النحو عن طريق الراحلين من الاندلس إلى بغداد والقادمين اليها من بغداد، وكان أول ما حملوه كتاب سيبويه لأنه الذي عرف في بغداد واشتُهر. ووجد الاندلسيون في الكتاب بغيتهم فانصرفوا اليه دراسة وحفظًا وشرحًا واختصارًا وعنايةً بشواهده وما فيه من آراء نحوية ومنهج بحث اعجبوا به. فأثار الكتاب حركة نحوية دائبة امتدت بامتداد الدرس النحوي فيها.

أما الحجاز فلم تعرف الدرس النحوي الاصيل ولم تقم فيها دراسة نحوية أصيلة أو وافدة لانصرافها إلى الثقافة الدينية قرآنية وفقهية وشرعية، وان وجد فيها بعض النحاة الذين وفدوا اليها للحج أو المجاورة أو غيرهما.

ولم يكن لليمن نشاط في الدرس النحوي وان وجدت فيها مدرسة اقراء أول عهدها بالاسلام، وان كان هناك من عرف بالنحو وهو من أصل يماني فهو إما من المقيمين في أحد الاقطار التي عرفت بالدرس النحوي أو من القادمين منها.

ونشط النحو في الشام نشاطًا واضحًا للمرة الأولى في بلاط سيف الدولة الحمداني الذي شجع العلماء واستقدمهم واهتم باقامة المناظرات بين النحاة والأدباء ولم يكن للشام نحو متميز نبع من بيئة هذا البلد وانما كان النحاة ممن نشأوا في بيئات أخرى وتلقوا النحو فيها وجاءوا إلى الشام حاملين نحوهم معهم.

وكان المغرب العربي أحسن حالاً من الحجاز واليمن والشام، فقد نشأت فيه أول الأمر طبقة من المؤدبين وُصِفوا بأنهم كانوا يأخذون النحو عن النحاة المتنقلين بين الاندلس والمشرق، ثم شارك بعض نحاتها رجال عصرهم في الرحلة فسمعوا عن المصريين والشاميين والعراقيين وغيرهم، واستقر فيها بعض نحاة الاندلس الراحلين بعد سيطرة المسيحيين على مدنهم في الاندلس فسمع المغاربة منهم في زمن استقرارهم بينهم.

وأخيراً فقد كثرت رحلات النحاة وتنقلاتهم بين بلدان العالم العربي والاسلامي وكثرت اللقاءات بينهم ولا سيما بعد سقوط بغداد بيد المغول عام ٦٥٦ هـ، وسيطرة المسيحيين على الاندلس في الفترة الزمنية نفسها إذ هاجر النحاة من هذين البلدين وظلوا يتنقلون بين مصر والشام وغيرهما، وبذلك أصبحت الدراسة النحوية ذات منهج واحد وهدف واحد هو خدمة كتاب الله ولغة العرب.

الدكتورة خديجة الحديثي

المصادر والمراجع

١- ابن الانباري في كتابه الانصاف في مسائل الخلاف. د. محيي الدين توفيق ابراهيم. الموصل ١٣٩٩ هـ- ١٩٧٩ م.

٢- ابن جني النحوي. د. فاضل صالح السامرائي. بغداد. ١٣٨٩ هـ- ١٩٦٩ م.

٣- ابن الحاجب النحوي- آثاره ومذهبه. طارق عبد عون الجنابي. مطبعة أسعد بغداد ١٩٧٣- ١٩٧٤ م.

٤- ابن حزم حياته وعصره- آراؤه الفقهية. محمد أبو زهرة. الطبعة الثانية- القاهرة.

٥- ابن دقيق العيد. علي صافي حسين. دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٠م.

٦- أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي. د. فتحي عبد الفتاح الدجني الطبعة الأولى- بيروت- ١٩٧٤ م.

٧- أبو الحسن بن كيسان وآراؤه في النحو واللغة- علي مزهر الياسري. بغداد ١٩٧٩ م.

٨- أبو حيان النحوي. د. خديجة الحديثي، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة بغداد ١٣٨٥ هـ- ١٩٦٦م.

٩- أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة. د. أحمد مكي الانصاري. نشر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، القاهرة ١٣٨٤ هـ- ١٩٦٤م.

١٠- أبو علي الفارسي- حياته ومكانته بين أئمة اللغة العربية وآثاره في القراءات والنحو د. عبد الفتاح اسماعيل شلبي. مكتبة نهضة مصر- القاهرة ١٣٧٧ هـ.

١١- الاتقان في علوم القرآن. جلال الدين السيوطي. مطبعة حجازي بالقاهرة ١٣٦٨ هـ.

١٢- الأحكام في أصول الأحكام. ابن حزم الاندلسي الظاهري تحقيق أحمد محمد شاكر الطبعة الأولى. القاهرة ١٣٤٧ هـ.

١٣- إحياء النحو. ابراهيم مصطفى. طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة ١٩٥١ م.

١٤- اخبار النحويين البصريين. أبو سعيد السيرافي. تحقيق طه محمد الزيني ومحمد عبد المنعم خفاجي. ط ١، القاهرة ١٣٧٤ هـ- ١٩٥٥ م.

١٥- ارتشاف الضرب من لسان العرب- مخطوطة معهد احياء المخطوطات في جامعة الدول العربية سنة ١١١٧ هـ (مصورة عن نسخة الاحمدية).

١٦- الاستكمال في التفخيم والامالة، عبد المنعم بن عبيد الله بن غلبون. مخطوط المتحف البريطاني ٣٩٤١/ ٢، شرقيات.

١٧- أسرار العربية. أبو البركات بن الانباري. تحقيق محمد بن بهجة البيطار. دمشق ١٣٧٧ هـ- ١٩٥٧ م.

١٨- الاشباه والنظائر في النحو. جلال الدين السيوطي. تحقيق طه عبد الرؤوف سعد. القاهرة ١٣٩٥ هـ- ١٩٧٥ م.

١٩- الاضداد. أبو بكر بن الانباري. حققه محمد أبو الفضل ابراهيم. الكويت ١٩٦٠ م.

٢٠- إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم. أبو عبد الله الحسين بن خالويه، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٦٠ هـ- ١٩٤١ م.

٢١- إعراب القرآن. أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس. تحقيق د. زهير غازي زاهد مطبعة العاني- بغداد ١٣٩٧ هـ- ١٩٧٧م، ١٣٩٩ هـ- ١٩٨٠ م.

٢٢- أعيان العصر وأعوان النصر. صلاح الدين الصفدي- مخطوطة دار الكتب بالقاهرة ١٠٩١ (تأريخ).

٢٣- الاغاني. أبو الفرج الاصفهاني. لجنة أشرف عليها محمد أبو الفضل ابراهيم، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر (ط دار الكتب) ١٣٩٠ هـ- ١٩٧٠م، ١٣٩٤ هـ- ١٩٧٤م.

٢٤- الإغراب في جدل الإعراب. أبو البركات الانباري مطبوع مع لمع الأدلة، تحقيق سعيد الافغاني. ط ٢ بيروت ١٣٩١ هـ- ١٩٧١ م.

٢٥- الاقتراح في علم أصول النحو، جلال الدين السيوطي. تحقيق د. أحمد محمد قاسم الطبعة الأولى. القاهرة ١٣٩٦ هـ- ١٩٧٦ م.

٢٦- أمالي الزجاجي. أبو القاسم الزجاجي. تحقيق عبد السلام هرون. الطبعة الأولى المؤسسة العربية الحديثة للطباعة- القاهرة.

٢٧- الامالي الشجرية. هبة الله ابن الشجري. تحقيق حبيب الله العلوي وعبد الرحمن اليماني وزين العابدين الموسوي. مطبعة دار المعارف العثمانية، حيد آباد الدكن- ط ١، ١٣٤٩ هـ.

٢٨- إنباه الرواة على أنباه النحاة. جمال الدين القفطي، حققه محمد أبو الفضل ابراهيم. القاهرة ١٣٦٩ هـ- ١٩٥٠ م، ١٣٩٣ هـ- ١٩٧٣ م.

٢٩- الانصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين. أبو البركات بن الأنباري. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي. القاهرة. ط ٢، ١٩٥٣م.

٣٠- الايضاح العضدي. أبو علي الفارسي. تحقيق حسن شاذلي فرهود. دار التأليف مصر. ط ١، ١٩٦٩ م.

٣١- الايضاح في علل النحو. أبو القاسم الزجاجي. تحقيق د. مازن المبارك. ط ٢- بيروت ١٣٩٣ هـ- ١٩٨٣ م.

٣٢- ايضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل لأبي بكر بن الأنباري. تحقيق محيي الدين عبد الرحمن رمضان. دمشق. ١٣٩٠ هـ- ١٩٧١ م (مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق).

٣٣- البحر المحيط. أبو حيان الاندلسي. ط ١. القاهرة ١٣٢٨ هـ.

٣٤- بدائع الزهور في وقائع الدهور. ابن اياس المصري. ط ١، القاهرة ١٣١١ هـ.

٣٥- البداية والنهاية في التاريخ ابن كثير عماد الدين أبو الفدا اسماعيل بن عمر مطبعة السعادة. القاهرة.

٣٦- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع الشوكاني- الطبعة الأولى القاهرة ١٣٤٨ هـ.

٣٧- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. جلال الدين السيوطي. حققه محمد أبو الفضل ابراهيم. ط ١. القاهرة ١٣٨٢ هـ- ١٩٦٤- ١٩٦٥ م.

٣٨- البهجة المرضية في شرح الالفية. جلال الدين السيوطي. طبعة المكتبة العلمية الاسلامية بطهران. طبع حجر- (١٢٩٧ هـ).

٣٩- البيان والتبيين. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. تحقيق عبد السلام هرون. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة ١٣٦٧ هـ- ١٩٤٨ م، ١٣٨٠ هـ- ١٩٦٠ م.

٤٠- تاج التراجم في طبقات الحنفية. ابن قطلوبغا. بغداد ١٩٦٢ م.

٤١- تأريخ أداب اللغة العربية. جرجي زيدان مراجعة الدكتور شوقي ضيف. القاهرة.

٤٢- تأريخ ابن الوردي: زين الدين عمر بن الوردي. القاهرة ١٢٨٥ هـ.

٤٣- تأريخ أبي الفدا (المختصر في اخبار البشر) عماد الدين اسماعيل أبو الفدا. ط ١. القاهرة.

٤٤- تأريخ الأدب العربي. أحمد حسن الزيات. القاهرة.

٤٥- تاريخ الأدب العربي. كارل بروكلمان. ترجمة د. عبد الحليم النجار. دار المعارف بمصر ١٩٦١ م.

٤٦- تاريخ بغداد. الخطيب البغدادي. طبعة مصر الاولى. مطبعة السعادة ١٣٤٩ هـ- ١٩٣١م.

٤٧- تأريخ الشعوب الاسلامية- كارل بروكلمان. ترجمة د. نبيه امين فارس ومنير البعلبكي. ط١. دار العلم للملايين. بيروت.

٤٨- تاريخ الطبري (تاريخ الامم والملوك) ابن جرير الطبري. الطبعة الحسينية ١٣٢٣ هـ.

٤٩- تأريخ العرب (المطول) فيليب حتي. بيروت ١٩٤٩ م.

٥٠- تأريخ علوم اللغة العربية. طه الراوي. ط ١. بغداد ١٣٦٩ هـ ١٩٤٩م.

٥١- تاريخ الفكر الاندلسي. آنخل جنثالث بالنثيا ترجمة د. حسين مؤنس ط ١. القاهرة ١٩٥٥م.

٥٢- تاريخ النحو العربي حتى اواخر القرن الثاني الهجري. د. علي أبو المكارم ط ١. القاهرة.

٥٣- تحفة النظار في غرائب الامصار (رحلة ابن بطوطة. القاهرة ١٣٥٨ هـ- ١٩٣٨ م.

٥٤- التذكرة في القراءات الثمان. طاهر بن عبد المنعم بن غلبون. بالمكتبة العامة بالرباط رقم (٢٨٢ ق).

٥٥- التذييل والتكميل في شرح التسهيل. أبو حيان الاندلسي. مخطوطة دار الكتب المصرية برقم (٦٠١٦) و (٦٢ .....) و (٦٠١٧) و (٤٦٠) و (٤٦٥) وقطعة منه .... بمطبعة السعادة بمصر ١٣٢٨ هـ.

٥٦- التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية. مقالات لبعض المستشرقين جمعها وترجمها. د. عبد الرحمن بدوي. ط ٣- دار النهضة الغربية ١٩٦٥م.

٥٧- تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد. أبو عبد الله جمال الدين بن مالك. تحقيق محمد كامل بركات. القاهرة ١٣٨٨ هـ- ١٩٦٨ م.

٥٨- التطور والتجديد في الشعر الاموي. د. شوقي ضيف. ط ٤ دار المعارف. القاهرة.

٥٩- التفاحة في النحو. أبو جعفر النحاس. تحقيق كوركيس عواد. مطبعة العاني بغداد ١٣٨٥ هـ- ١٩٦٥ م.

٦٠- تقويم الفكر النحوي. د. علي أبو المكارم- دار الثقافة بيروت. ط ١، ١٩٧٥ م.

٦١- تمهيد لتأريخ الفلسفة الاسلامية. الشيخ مصطفى عبد الرازق. ط ٣ لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة، ١٩٤٤ م.

٦٢- التنبيه والاشراف للمسعودي. طبعة الصاوي بمصر ١٩٣٨ م.

٦٣- تهذيب التهذيب. ابن حجر العسقلاني طبعة حيدر آباد الدكن.

٦٤- تهذيب اللغة- الازهري. أبو منصور محمد بن أحمد. ط. مصر ١٩٦٦ م وما بعدها.

٦٥- جلاء العينين في محاكمة الاحمدين. نعمان خير الدين بن الآلوسي البغدادي القاهرة ١٢٩٨ هـ.

٦٦- حاشية الصبان على شرح الاشموني. القاهرة (جـ ١ و ٢) ١٢٨٧ هـ و (جـ ٣ و ٤) القاهرة ١٣٢٩ هـ.

٦٧- الحجة في القراءات السبع. أبو عبد الله الحسن بن خالويه. تحقيق د. عبد العال سالم مكرم. دار الشروق، بيروت ١٩٧١ م.
٦٨- الحركة اللغوية في الاندلس منذ الفتح العربي حتى نهاية عصر ملوك الطوائف البير حبيب مطلق. المكتبة العصرية. صيدا- بيروت ١٩٦٧ م.
٦٩- حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة. جلال الدين السيوطي. القاهرة ١٢٩٩ هـ.
٧٠- الحضارة الاسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الاجنبية. تعريب مصطفى بدمس. طبعة دار الفكر العربي.
٧١- الحلقة المفقودة في تأريخ النحو العربي. د. عبد العال سالم مكرم. مصر ١٩٧٧ م.
٧٢- الحلل في اصلاح الخلل من كتاب الجمل. ابن السيد البطليوسي. تحقيق سعيد عبد الكريم سعودي. دار الرشيد بغداد ١٩٨٠ م.
٧٣- حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة. د. يوسف خليف القاهرة ١٣٨٨ هـ- ١٩٦٨ م.
٧٤- الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام. د. أحمد أحمد بدوي القاهرة.
٧٥- الحيوان. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. تحقيق عبد السلام هرون. القاهرة.
٧٦- خزانةالأدب ولب لباب لسان العرب. عبد القادر بن عمر البغدادي ط ١. بولاق. القاهرة.
٧٧- الخصائص. أبو الفتح عثمان بن جني. تحقيق محمد علي النجار. دار الكتب بالقاهرة ١٣٧١ هـ- ١٩٥٢ م.
٧٨- خطط الكوفة، ماسينيون.
٧٩- خطط المقريزي. القاهرة ١٢٧٠ هـ.
٨٠- الخليل بن أحمد الفراهيدي. اعماله ومنهجه د. مهدي المخزومي، مطبعة الزهراء. بغداد ١٩٦٠ م.
٨١- دائرة المعارف. فؤاد افرام البستاني.
٨٢- دائرة المعارف الاسلامية. الطبعة العربية.
٨٣- الدراسات اللغوية في الأندلس. رضا عبد الجليل العطار- بغداد ١٩٨٠ م.
٨٤- الدراسات اللغوية والنحوية في مصر منذ نشأتها حتى نهاية القرن الرابع الهجري. د. احمد نصيف الجنابي. دار التراث. القاهرة ١٣٩٧ هـ- ١٩٧٧ م.
٨٥- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. شهاب الدين العسقلاني ط ١، بحيدر آباد ١٣٥٠ هـ.
٨٦- الدرس النحوي في بغداد. د. مهدي المخزومي. بغداد ١٩٧٥ م.

٨٧- الرد على النحاة. لابن مضاء القرطبي. تحقيق الدكتور شوقي ضيف. ط ١. القاهرة ١٣٦٦ هـ- ١٩٤٧ م.

٨٨- رغبة الآمل في كتاب الكامل. الشيخ سيد المرصفي. القاهرة.

٨٩- الزاهر في معاني كلمات الناس. أبو بكر بن الأنباري. تحقيق د. حاتم الضامن بغداد ١٣٩٩ هـ- ١٩٧٩ م.

٩٠- الزجاجي- حياته وآثاره ومذهبه النحوي من خلال كتابه (الايضاح) مازن المبارك. دمشق ١٣٧٩ هـ- ١٩٦٠ م.

٩١- السبعة في القراءات. أبو بكر بن مجاهد. تحقيق د. شوقي ضيف. مصر ١٩٧٢م.

٩٢- سيبويه والقراءات دراسة تحليلية معيارية. د. أحمد مكي الانصاري دار المعارف بمصر ١٣٩٢ هـ- ١٩٧٢ م.

٩٣- السيوطي النحوي. د. عدنان محمد سلمان. بغداد ١٣٩٦ هـ- ١٩٧٦م.

٩٤- الشاهد وأصول النحو في كتاب سيبويه. د. خديجة الحديثي. الكويت ١٣٩٤ هـ- ١٩٧٤م.

٩٥- شذرات الذهب في أخبار من ذهب. عبد الحي بن العماد الحنبلي. القاهرة ١٣٥١ هـ.

٩٦- شرح ابن عقيل علَى الفية ابن مالك. بهاء الدين بن عقيل. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. ط ١٤- مطبعة السعادة. القاهرة ١٣٨٤ هـ- ١٩٦٤ م.

٩٧- شرح الاشموني على الفية ابن مالك. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد الطبعة الأولى. القاهرة ١٣٧٥ هـ- ١٩٥٥ م.

٩٨- شرح الرضي على الكافية في النحو لابن الحاجب. رضي الدين الاستراباذي طبعة دار الكتب العلمية. بيروت.

٩٩- شرح القصائد التسع المشهورات. أبو جعفر محمد النحاس. تحقيق د. أحمد خطاب العمر. بغداد ١٣٩٣ هـ- ١٩٧٣ م.

١٠٠- شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات. أبو بكر بن الأنباري. تحقيق عبد السلام هرون. دار المعارف بمصر. ط ٢- ١٩٦٩ م.

١٠١- شرح قطر الندى وبل الصدى. ابن هشام الانصاري. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. ط ٩. القاهرة ١٣٧٧ هـ- ١٩٥٧ م.

١٠٢- شرح الكافية، جمال الدين ابن مالك.

١٠٣- شرح المفصل للزمخشري. ابن يعيش النحوي. تصحيح لجنة من مشايخ الازهر. القاهرة.

١٠٤- الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثاني الهجري. د. أحمد عبد الستار الجواري. بيروت ١٣٧٥ هـ- ١٩٥٦ م.

١٠٥- الشعر والشعراء. ابن قتيبة. تحقيق أحمد محمد شاكر. دار المعارف مصر ١٣٨٦ هـ- ١٩٦٦ م، ١٣٨٧ هـ- ١٩٦٧ م.

١٠٦- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها. أبو الحسين أحمد بن فارس. تحقيق مصطفى الشويمي. بيروت ١٣٨٣ هـ- ١٩٦٤ م.

١٠٧- صبح الأعشى في صناعة الانشا. القلشندي. طبعة دار الكتب المصرية ١٣٣١- ١٣٣٨هـ.

١٠٨- ضحى الاسلام. احمد امين. جـ ٢. ط ٣. القاهرة ١٣٧١ هـ- ١٩٥٢ م.

١٠٩- طبقات ابن سعد. دار صادر. بيروت ١٣٧٦ هـ- ١٩٥٧ م.

١١٠- طبقات الامم. صاعد الطليطلي. نشرة شيخو في بيروت ١٩١٢ م.

١١١- طبقات الشافعية الكبرى. تاج الدين السبكي. الطبعة الأولى. القاهرة ١٣٢٤ هـ.

١١٢- طبقات فحول الشعراء. محمد بن سلام الجمحي. تحقيق محمود محمد شاكر مطبعة المدني. القاهرة. ١٩٧٤.

١١٣- طبقات النحويين واللغويين. ابن قاضي شبهه الاسدي (المحمدون) تحقيق د. محسن غياض. النجف ١٩٧٤م.

١١٤- طبقات النحويين واللغويين. أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي. حققه محمد أبو الفضل ابراهيم. ط ١. القاهرة ١٣٧٣ هـ- ١٩٥٤ م.

١١٥- ظهر الاسلام. أحمد أمين. القاهرة ١٣٧٧ هـ- ١٩٥٨ م.

١١٦- عبقري من البصرة. د. مهدي المخزومي. بغداد ١٣٩٢ هـ- ١٩٧٢ م.

١١٧- العقد الفريد. شهاب الدين أحمد المعروف بابن عبد ربه الاندلسي. لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة.

١١٨- علم اللغة. د. علي عبد الواحد وافي. القاهرة ١٩٦٢ م.

١١٩- عيون الانباء في طبقات الأطباء. ابن أبي اصيبعة. القاهرة ١٢٩٩ هـ- ١٨٨٢ م.

١٢٠- غاية النهاية في طبقات القراء. شمس الدين بن الجزري. تحقيق ج برجستراسر. ط ١. مصر ١٣٥١ هـ- ١٩٣٢ م، ١٣٥٢ هـ- ١٩٣٣ م.

١٢١- الفاضل. أبو العباس محمد بن يزيد المبرد. تحقيق عبد العزيز الميمني. دار الكتب المصرية. القاهرة ١٣٧٥ هـ- ١٩٥٦ م.

١٢٢- فتوح البلدان. البلاذري. طبعة ليدن- ١٨٦٦ م.

١٢٣- فتوح مصر واخبارها. ابن عبد الحكم. تحقيق المستشرق تشارلس توري، ليدن ١٩٢٠ م.
١٢٤- فجر الاسلام. أحمد أمين. جـ ١. ط ٣. القاهرة ١٣٥٤ هـ- ١٩٣٥ م.
١٢٥- الفهرست للنديم. أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب (ابن النديم) تحقيق رضا تجدد، مكتبة الاسدي ومكتبة الجعفري التبريزي. طهران.
١٢٦- في أصول النحو. سعيد الافغاني. ط ٢. دمشق ١٣٧٦ هـ- ١٩٥٧ م.
١٢٧- القاموس المحيط. مجد الدين الفيروز آبادي.
١٢٨- القرآن وعلومه في مصر د. عبد الله خورشيد البري. دار المعارف بمصر ١٩٧٠ م.
١٢٩- القطع والأئتناف. أبو جعفر النحاس. تحقيق د. أحمد خطاب العمر. بغداد ١٣٨٨ هـ- ١٩٧٨ م.
١٣٠- القواعد النحوية- مادتها وطريقتها عبد الحميد حسن ط ٣، القاهرة ١٩٥٣ م.
١٣١- الكامل في التاريخ. طبعة ثورنبرج. ليدن ١٨٦٧- ١٨٧٦ م.
١٣٢- الكامل في اللغة والأدب والنحو والتصريف أبو العباس محمد ابن يزيد المبرد. تحقيق زكي مبارك. ط ١، ١٣٥٥ هـ- ١٩٣٦ م، ١٣٥٦ هـ- ١٩٣٧ م.
١٣٣- الكتاب. سيبويه عمرو بن عثمان بن قنبر. تحقيق عبد السلام هرون القاهرة. ط ١.
١٣٤- كتاب مختصر في ذكر الالفات. أبو بكر بن الأنباري. تحقيق د. حسن شاذلي فرهود القاهرة ١٤٠٠ هـ- ١٩٨٠ م.
١٣٥- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون. حاجي خليفة. استانبول ١٣٦٠ هـ- ١٩٤١ م.
١٣٦- الكشف عن وجوه القراءات السبع. تحقيق محيي الدين رمضان. دمشق ١٣٩٤ هـ- ١٩٧٤ م.
١٣٧- لسان العرب. ابن منظور- جمال الدين محمد بن جلال الدين الانصاري.
١٣٨- اللغة والنحو. د. حسن عون. ط ١، الاسكندرية ١٩٥٢ م.
١٣٩- اللمعة الشهية في نحو اللغة السريانية. اقليميس يوسف داود. طبع بالموصل ١٨٩٦ م (نقلاً عن القواعد النحوية مادتها وطريقتها عبد الحميد حسن).
١٤٠- ما ينصرف وما لا ينصرف أبو اسحاق الزجاج. تحقيق هدى محمود قراعة. المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب. القاهرة ١٣٩١ هـ- ١٩٧١ م.
١٤١- مجاز القرآن. أبو عبيدة معمر بن المثنى. تحقيق محمد فؤاد سزكين. ط ١، بمصر ١٣٧٤ هـ-١٩٥٤ م، و ١٣٨١ هـ- ١٩٦٢ م.

١٤٢- مجالس ثعلب. أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب. تحقيق عبد السلام هرون. ط ٢، دار المعارف بمصر.
١٤٣- مجالس العلماء. أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي. تحقيق عبد السلام هرون. الكويت ١٩٦٢ م.
١٤٤- مجلة العربي الكويتية العدد ١٠٦ لسنة ١٩٦٧ م.
١٤٥- مجلة مجمع اللغة العربية الأردني. العدد الأول- المجلد الأول ١٣٩٨ هـ- ١٩٧٨ م.
١٤٦- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والايضاح عنها. أبو الفتح عثمان بن جني تحقيق علي النجدي ناصف. د. عبد الحليم النجار وعبد الفتاح شلبي. القاهرة ١٣٨٦ هـ- ١٩٦٦ م، ١٣٨٩ هـ- ١٩٦٩ م.
١٤٧- مختصر كتاب البلدان. ابن الفقيه. ليدن.
١٤٨- المدارس النحوية. د. شوقي ضيف. دار المعارف بمصر ١٩٦٨ م.
١٤٩- مدرسة البصرة النحوية نشأتها وتطورها. د. عبد الرحمن السيد. دار المعارف بمصر ١٣٨٨ هـ- ١٩٦٨ م.
١٥٠- مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو. د. مهدي المخزومي. بغداد ١٣٧٤ هـ- ١٩٥٥ م.
١٥١- المذكر والمؤنث. أبو بكر بن الأنباري. تحقيق. د. طارق عبد عون الجنابي. بغداد، ١٩٧٨ م.
١٥٢- مرآة الجنان وعبرة اليقظان. اليافعي. دائرة المعارف النظامية. حيدر أباد ١٣٢٨ هـ و ١٣٣٨ هـ.
١٥٣- مراتب النحويين. أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي الحلبي. حققه محمد أبو الفضل ابراهيم. القاهرة ١٩٥٤م.
١٥٤- مروج الذهب للمسعودي. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. ط ٣- القاهرة ١٩٥٨م.
١٥٥- المزهر في علوم اللغة وأنواعها. جلال الدين السيوطي. حققه أحمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي. القاهرة. ط ٣، جـ ١ وط ٢، جـ ٢.
١٥٦- مسالك الثقافة الاغريقية إلى العرب. اوليري. ترجمة د. تمام حسان القاهرة.
١٥٧- مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية. د. ناصر الدين الأسد. دار المعارف بمصر. ط ٣، ١٩٦٦ م والأولى ١٩٦٢ م.
١٥٨- المصطلح الصرفي في كتاب سيبويه (بحث لخديجة الحديثي منشور في مجلة الحكمة. العدد الخامس عشر. صفر ١٤١٩ هـ (مجلة علمية شرعية تصدر كل أربعة أشهر، بريطانيا،

ليدز).
١٥٩- المصون في الأدب. أبو أحمد الحسن العسكري. تحقيق عبد السلام هرون. الكويت ١٩٦٠م.
١٦٠- المطالع السعيدة في شرح الفريدة. جلال الدين السيوطي. تحقيق د. نبهان ياسين حسين. بغداد ١٩٧٧ م.
١٦١- المعارف. ابن قتيبة. تحقيق ثروت عكاشة. مطبعة دار الكتب. القاهرة ١٩٦٠م. (ط. الازهر).
١٦٢- معاني القرآن. أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء. الجزء الأول. تحقيق أحمد محمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار. القاهرة. ١٣٧٤ هـ- ١٩٥٥م- ط ١. وجـ ٢ تحقيق محمد علي النجار. الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م. و جـ ٣ تحقيق د. عبد الفتاح اسماعيل شلبي وعلي النجدي ناصف. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ م.
١٦٣- المعجب في تلخيص اخبار الغرب. المراكشي، القاهرة.
١٦٤- معجم الأدباء (ارشاد الاريب إلى معرفة الأديب). ياقوت الحموي مرجليوث. (جـ ١ ط ١- ١٩٢٣م) و (جـ ٢ ط ٢- ١٩٢٤م) و (جـ ٣ ط ٢- ١٩٢٧م) و (جـ ٤ ط ١- ١٩٢٧م) و (جـ ٥ ط ٢- ١٩٢٨م) و (جـ ٦ ط ٢- ١٩٣٠م) و (جـ ٧ ط ١- ١٩٢٥م) بالقاهرة.
١٦٥- معجم البلدان. ياقوت الحموي الرومي. دار صادر بيروت. لبنان ١٣٧٤ هـ- ١٩٥٥م، ١٣٧٦ هـ- ١٩٥٦م.
١٦٦- مغني اللبيب عن كتب الاعاريب. جمال الدين بن هشام الانصاري. تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد الله ومراجعة سعيد الافغاني. دمشق. الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م.
١٦٧- مفتاح العلوم. أبو يعقوب السكاكي. الطبعة الأولى. مطبعة البابي الحلبي. القاهرة ١٣٥٦هـ- ١٩٣٧م.
١٦٨- المفصل في تاريخ النحو العربي (الجزء الأول، قبل سيبويه) محمد خير الحلواني. بيروت ١٣٩٩ هـ- ١٩٧٩م.
١٦٩- المقتضب. أبو العباس محمد بن يزيد المبرد. تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة. القاهرة ١٣٨٥ هـ- ١٣٨٨هـ.
١٧٠- مقدمة ابن خلدون. عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي. بيروت.
١٧١- مقدمة (الانصاف في مسائل الخلاف). جوتولدفايل- ترجمة د. عبد الحليم النجار (نقلا عن مدرسة الكوفة) (وأبو زكريا الفراء).

١٧٢- المقصور والممدود. أبو زكريا الفراء نسخة مخطوطة ضمن مجموعة في (بروسة) مكتبة اولو جامع بتركيا، منها مصورة عند الدكتور احمد مكي الانصاري.
١٧٣- منهج السالك في الكلام على ألفية ابن مالك. أبو حيان الاندلسي. تحقيق سدني جليزر- نيوهافن- الولايات المتحدة الامريكية ١٩٤٧م.
١٧٤- المنهل الصافي. ابن تغري بردي. مخطوطة دار الكتب بالقاهرة (١١١٣ تأريخ).
١٧٥- الموفقي في النحو. أبو الحسن بن كيسان (مخطوط ضمن مجموعة في مكتبة الخزانة العامة بالرباط رقم (١٢٧) نقلاً عن (أبو الحسن بن كيسان- علي مزهر الياسري).
١٧٦- الموفي في النحو الكوفي- صدر الدين الكنغراوي الاستانبولي. تحقيق محمد بهجة البيطار. مطبوعات المجمع العلمي العربي.
١٧٧- موقف النحاة من الاستشهاد بالحديث الشريف. د. خديجة الحديثي- منشورات وزارة الثقافة والاعلام بالجمهورية العراقية، سلسلة دراسات (٢٦٥) دار الطليعة- بيروت ١٤٠١ هـ- ١٩٨١م.
١٧٨- الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم. أبو جعفر النحاس. مصر ١٣٢٣ هـ.
١٧٩- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. ابن تغري بردي القاهرة ١٣٨٣ هـ- ١٩٦٣م.
١٨٠- نزهة الالباء في طبقات الادباء أبو البركات الأنباري. تحقيق د. ابراهيم السامرائي. بغداد ١٩٥٩م.
١٨١- نشأة النحو العربي في ضوء كتاب سيبويه- بحث للمستشرق الفرنسي جيرارتروبو نشر في مجلة مجمع اللغة العربية الأردني. العدد الأول المجلد ١٣٩٨ هـ- ١٩٧٨ م.
١٨٢- نشأة النحو وتأريخ أشهر النحاة- الشيخ محمد الطنطاوي الطبعة الرابعة. القاهرة ١٣٧٤ هـ- ١٩٥٤م.
١٨٣- النشر في القراءات العشر. شمس الدين الجزري. تصحيح علي محمد الضباع مطبعة مصطفى محمد. القاهرة.
١٨٤- نظرات في اللغة عند ابن حزم. سعيد الافغاني. دمشق ١٣٨٣ هـ- ١٩٦٣م.
١٨٥- نظرات في اللغة والنحو. طه الراوي. ط ١. بيروت ١٩٦٢م.
١٨٦- نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب. أحمد بن محمد المقري. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. ط ١. القاهرة ١٣٦٧ هـ- ١٩٤٩م.
١٨٧- نكت الهيمان في نكت العميان. صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي القاهرة ١٣٢٨ هـ- ١٩١١م.

١٨٨- النهر الماد من البحر. أبو حيان الاندلسي (مطبوع على حاشية البحر) ط ١- بالقاهرة ١٣٢٨ م.

١٨٩- نور القبس المختصر من المقتبس في اخبار النحاة والأدباء والشعراء والعلماء. تحقيق رودلف زلهايم. دار النشر فرانس شتاينر بفسبادن، ١٣٨٤ هـ- ١٩٦٤م.

١٩٠- همع الهوامع شرح جمع الجوامع (جـ ١) تحقيق عبد العال سالم مكرم وعبد السلام هارون) و جـ ٢- جـ ٧، نفس المحقق. دار البحوث العلمية- الكويت ١٣٩٤ هـ (١٩٧٥م)- ١٤٠٠ هـ (١٩٨٠م). و ط ١، بالقاهرة ١٣٢٧ هـ.

١٩١- الوافي بالوفيات. صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي. جـ ٢، ط ٢، بتحقيق هلموت ريتر. نشر دار فرانزشتاينر بفسبادن ١٣٨١ هـ- ١٩٦١م.

والجزء الخامس بتحقيق س. ديدرنغ. نشر الدار نفسها ١٣٨٩ هـ- ١٩٧٠م.

١٩٢- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. شمس الدين بن خلكان. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. القاهرة ١٣٦٧ هـ- ١٩٤٨م.

١٩٣- يونس بن حبيب النحوي. د. حسين نصار. اعلام العرب (٧٥) القاهرة ١٩٦٨م.

الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الثالثة	٣
تقديم	٥
المدارس النحوية	٧
القدماء	٧
المعاصرون	١٣
هل هناك مدارس	١٤
راي	٢٢

الفصل الأول
المذهب النحوي في البصرة

المبحث الأول: بيئة البصرة	٢٥
البصرة	٢٥
مراكز الثقافة فيها	٢٨
المسجد الجامع	٢٨
مجلس الحسن البصري	٢٨
مجلس واصل بن عطاء	٢٩
مجلس أيوب السختياني	٢٩
مجلس حماد بن سلمة	٢٩
المربد	٣٠
نشأة النحو وأوائل النحاة	٣١
أصالة النحو العربي	٣١

اليونانية	٣١
السريانية	٣٣
الفارسية	٣٤
من رد هذه الأقوال من الباحثين المحدثين	٣٥
مصطلح النحو	٣٨
نشأة النحو	٤٠
جمع القرآن الكريم وتوحيد نصه	٤٠
اقراؤه وتفسيره	٤١
نقطه نقط الاعراب	٤٢
نقطه نقط الاعجام	٤٣
واضع النحو	٤٤
أبو الأسود	٤٩
الدوافع إلى نشأة النحو	٥٠
الدافع الديني	٥٠
الدافع الاجتماعي	٥٠
الدافع اللغوي القومي	٥١
أوائل النحاة	٥٢
نصر بن عاصم. يحيى بن يعمر. عبد الرحمن	٥٢
ابن هرمز. عنبسة بن معدان الفيل. ميمون الاقرن	٥٢
عطاء بن أبي الأسود. معاوية بن عمر بن أبي	٥٢
عقرب. علي الجمل. ابن قسطنطين الحر النحوي.	٥٢
سعد الرابية. زهير الفرقبي. أبو سفيان.	٥٢
ابن العلاء	٥٢
عبد الله بن أبي اسحاق الحضرمي	٥٣
عيسى بن عمر الثقفي	٥٦
أبو عمرو بن العلاء	٥٩
يونس بن حبيب	٦١
تطور النحو عند الخليل	٦٥

المبحث الثاني: خصائص المذهب النحوي في البصرة ٧٥
سيبويه ٧٩
حياته ٧٩
كتابه ٨٠
منهجه ومادته ٨٢
أسلوبه وشواهده ٨٥
عنوانات أبوابه ومصطلحاتها ٩٠
المبرد ٩٤
حياته ٩٤
المقتضب ٩٦
شهرته ٩٨
منهجه ١٠٠
شواهده ١٠٤
مصطلحاته ١٠٧
أصول النحو ١٠٨

الفصل الثاني
المذهب النحوي في الكوفة

المبحث الأول: بيئة الكوفة ١١١
الكوفة ١١١
مراكز الثقافة فيها ١١٣
مسجد الكوفة ١١٣
دور الخلفاء والأمراء والوزراء ١١٤
مجالس المناظرة ١١٤

نشأة النحو الكوفي وأوائل رجاله	١١٦
أوائل النحاة	١١٩
(سعد بن شداد الكوفي النحوي. توبة الملائي.	١١٩
حمران بن أعين الطائي. زهير الفرقبي. العلاء	١١٩
ابن سيابة. عاصم بن أبي النجود. محمد بن عبد	١٢٠
الرحمن بن محيصن)	١٢٠
أبو معاوية شيبان بن عبد الرحمن التميمي النحوي	١٢٠
أبو مسلم معاذ بن مسلم الهراء	١٢١
أبو جعفر الرؤاسي محمد بن أبي سارة	١٢٤
تطور الدراسات النحوية في الكوفة	١٢٨
المبحث الثاني: خصائص المذهب النحوي في الكوفة	١٣٨
الكسائي	١٤٣
حياته	١٤٣
أصول الدرس النحوي عند الكسائي	١٤٨
الفراء	١٥٦
حياته	١٥٦
معاني القرآن	١٦٠
منهجه	١٦٤
أسلوبه	١٧٤
قيمته	١٧٥
ثعلب	١٧٩
حياته	١٧٩
المجالس	١٨٢
المسائل النحوية	١٨٥

الفصل الثالث
النحو في بغداد

المبحث الأول: التقاء المذهبين ١٩٤

بغداد ١٩٤

التقاء المذهبين في بغداد ١٩٦

مدرسة بغداد النحوية ١٩٩

موقف القدماء ٢٠٠

موقف المحدثين (المعاصرين) ٢٠٤

غلبة المذهب البصري ٢١٣

المبحث الثاني: أشهر الدارسين ٢١٨

من ظل بصريا ٢١٩

الزجاج ٢١٩

ابن السراج ٢٢٠

الزجاجي ٢٢٠

المبرمان ٢٢٠

ابن درستويه ٢٢١

أبو علي الفارسي ٢٢١

ابن جني ٢٢٢

من ظل كوفياً ٢٢٣

الحامض ٢٢٣

ابن الانباري ٢٢٣

من خلط المذهبين ٢٢٣

ابن قتيبة ٢٢٣

ابن كيسان ٢٢٤

الاخفش الصغير ٢٢٤

ابن شقير	٢٢٤
ابن الخياط	٢٢٥
نفطويه	٢٢٥
الخزاز	٢٢٥
ابن الأنباري	٢٢٧
حياته	٢٢٧
نحوه	٢٢٩
المصطلحات	٢٣٢
التقسيم والتحديد والتمثيل	٢٣٣
الحجاج والجدل والتعليل	٢٣٣
الاستدلال	٢٣٧
التأويل	٢٣٨
متابعته الكوفيين	٢٤٠
آراؤه الاجتهادية	٢٤١
ابن كيسان	٢٤٥
حياته	٢٤٥
نحوه	٢٤٨
الحد	٢٥٠
العامل النحوي	٢٥١
القياس	٢٥١
التعليل	٢٥٤
المصطلحات	٢٥٤
الاعراب والبناء	٢٥٤
آراؤه في مسائل نحوية متفرقة	٢٥٥

الفصل الرابع
النحو في أقطار الوطن العربي

المبحث الأول: النحو في مصر ٢٥٨

مصر ٢٥٨

مدرسة القراء النحوية ٢٦٢

مدرسة مصر النحوية ٢٦٨

اوائل النحاة المصريين ٢٧٢

ولاد التميمي المصادري ٢٧٣

أبو الحسن الاعز ٢٧٤

أبو علي الدينوري ٢٧٤

أبو بكر بن المزرع ٢٧٥

أبو الحسين محمد بن الوليد بن ولاد التميمي ٢٧٦

أبو العباس أحمد بن محمد بن ولاد حفيد الوليد ٢٧٦

أبو زهرة عبد الله بن فزارة النحوي ٢٧٧

أبو القاسم بن ولاد عبد الله بن محمد بن الوليد ٢٧٧

أبو النضر محمد بن أبي اسحاق ابن اسباط ٢٧٧

علاّن ٢٧٨

ابن النحاس ٢٧٩

حياته ٢٧٩

نحوه ٢٨٠

المصطلح عنده ٢٨٣

تركيبه قولاً من قولي المدرستين ٢٨٥

من آرائه الغريبة ٢٨٦

آراؤه النحوية غير التعليمية ٢٨٨

السيوطي ٢٩٠
حياته ٢٩٠
نحوه ٢٩٢
الحد والتقسيم والشرح ٢٩٦
الحكم النحوي ٢٩٨
التعليل ٣٠٠
الأصل ٣٠١
العامل ٣٠١
المصطلح ٣٠١
الخلاف بين البصريين والكوفيين ٣٠٢
مسائل التمرين ٣٠٢
الاهتمام بلغات العرب والتنبيه عليها ٣٠٣
القراءات ٣٠٣
الحديث النبوي ٣٠٤
المسموع من كلام العرب ٣٠٤
القياس والسماع ٣٠٥
المبحث الثاني: النحو في الاندلس ٣٠٦
الاندلس ٣٠٦
أوائل النحاة ٣٠٩
(جودي بن عثمان. ٣٠٩
أبو حرش عبد الله بن رافع. ٣١٠
خصيب الكلبي. عبد الله بن الغازي. ٣١٠
هرون بن أبي غزالة السبائي. عبد الملك بن حبيب السلمي. ٣١٠
عباس بن ناصح الجزيري. حرش بن أبي حرش. ٣١٠
أحمد بن غيث. محمد بن عبدالله الغازي. ٣١٠
محمد بن عبد السلام الخشني. أبو بكر بن خاطب المكفوف. ٣١٠
محمد بن موسى الافشنيق. المنذر بن عبد الرحمن ابن معاوية. ٣١١
أبو وهب عبد الوهاب بن محمد بن ٣١١

عبد الرؤوف. أحمد بن يوسف بن حجاج. ٣١١
محمد بن يحيى بن عبد السلام الازدي الرياحي. ٣١١
أبو علي اسماعيل بن القاسم القالي البغدادي. ٣١٢
ابن القوطية. ٣١٣
محمد بن الحسن الزبيدي. أبو عبدالله بن عاصم ٣١٣
العاصمي. أحمد بن ابان ابن الاقليلي. ابن سيدة. ٣١٣
عبد الله بن طلحة). ٣١٤
ابن مضاء ٣١٤
حياته ٣١٤
دعوته ٣١٦
الغاء نظرية العامل ٣١٧
الغاء المسائل الخلافية النظرية ٣١٩
الغاء الأمثلة غير العملية ٣١٩
العلة التعليمية ٣١٩
العلة القياسية ٣٢٠
العلة الجدلية ٣٢٠
ابو حيان ٣٢٢
حياته ٣٢٢
نحوه ٣٢٥
ظاهريته ٣٢٩
الغاء الأمثلة غير العملية ٣٣١
الغاء العلل ٣٣٢
الغاء الخلاف بين النحويين ٣٣٣
القول بالعامل ٣٣٤
المبحث الثالث: النحو في بيئات أخرى ٣٣٦
الحجاز ٣٣٦
اليمن ٣٣٩
الشام ٣٤٠

أبو علي النحوي ٣٤٢
ابن جني ٣٤٣
ابن خالويه ٣٤٥
ملك النحاة ٣٤٧
تاج الدين الكندي ٣٤٧
ابن معط ٣٤٧
ابن الحاجب ٣٤٨
ابن يعيش ٣٤٨
ابن مالك ٣٤٨
بهاء الدين بن النحاس ٣٤٩
المغرب العربي ٣٥١
أوائل النحاة ٣٥٣
عياض بن عوانة الكلبي، ابراهيم بن قطن المهري. ٣٥٣
أبو الوليد عبد الملك. ٣٥٣
أبو سعيد ابن غورك. ٣٥٣
أحمد بن أبي الأسود. ٣٥٤
حمدون النحوي. ٣٥٤
أبو محمد المكفوف. ٣٥٤
خلف الطرابلسي. ٣٥٤
علي بن الحضرمي. العقعق. ٣٥٥
العقعق. ابن الحداد. الجهني. اللؤلؤي. ٣٥٤
ابن الوزان. ٣٥٦
نحوهم ٣٥٩

الخاتمة ٣٦١
المصادر والمراجع ٣٦٥
الموضوعات ٣٧٧

الدكتورة خديجة عبد الرزاق الحديثي

- من مواليد البصرة في أواخر عام ١٩٣٥ .
- حصلت على الإجازة في اللغة العربية من كلية الآداب والعلوم ببغداد سنة ١٩٦٥.
- حصلت على الماجستير في علم الصرف من كلية آداب القاهرة سنة ١٩٦١ .
- مارست التعليم الثانوي خمس سنوات , ثم عملت معيدة في قسم اللغة العربية ببغداد سنة ١٩٦١ .
- حصلت على درجة الأستاذية من جامعة الكويت ١٩٧٢ , وبغداد ١٩٧٤.
- عملت أستاذة منتدبة أو زائرة في جامعتي الكويت ووهران بين عامي ١٩٧١ و ١٩٨٠ .
- ساهمت في إجازة الكثير من رسائل الماجستير والدكتوراه في جامعات بغداد والكوفة إشرافا ومناقشة .
- شاركت في تأليف منهاج اللغة العربية للمرحلة الابتدائية في العراق .
- حصلت على الجائزة التشجيعية من هيئة تكريم العلماء سنة ١٩٨٩ , وعلى شارة أم المعارك في ١٩٩٥.
- تعمل الآن أستاذة في قسم اللغة العربية بكلية الآداب - جامعة بغداد .

في مجال التأليف من أعمالها :
ابنية الصرف في كتاب سيبويه - كتاب سيبويه وشروحه - موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث النبوي الشريف - المدارس النحوية - المبرد ، سيرته ومؤلفاته . وغيرها .

في مجال التحقيق :
التمام في تفسير أشعار هذيل - التبيان في علم البيان - الجمان في تشبيهات القرآن - ديوان أبي حيان الأندلسي - وغيرها .



دار الأمل للنشر والتوزيع
ص ز ب ٤٦٩ تلفاكس ٧٢٧٦١١٧٤
إربد - عمان